التبيان

في

تفسير القرآن

تأليف

شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي ٤٦٠ هـ

الجزء الحادي عشر

تحقيق

مؤسسة النشر الإسلامي
التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة

٦٦٠

٦٦٠

التبيان

في

تفسير القرآن

تأليف

شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي ٤٦٠ هـ

الجزء الحادي عشر

شبكة الفكر
alfeker.net

تحقيق

مؤسسة النشر الإسلامي
التابعة لجماعة المدرسين بقم المقدسة

سرشناسه: طوسي، محمّد بن حسن، ٣٨٥ ـ ٤٦٠ ق.
عنوان ونام پديدآور: التبيان في تفسير القرآن / تأليف أبي جعفر محمّد بن الحسن الطوسي: تحقيق مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين بقم المقدّسة.
مشخصات نشر: قم: جماعة المدرّسين في الحوزة العلميّة بقم، مؤسّسة النشر الإسلامي، ١٤١٣ ق. = ١٣٧١ ـ.
مشخصات ظاهرى: ١١ ج.
فروست: مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرفه: ٦٥٠، ٦٥١، ٦٥٢، ٦٥٣، ٦٥٤، ٦٥٥، ٦٥٦، ٦٥٧، ٦٥٨، ٦٥٩، ٦٦٠.
شابك: دورة: ٥ ـ ٠٧٠ ـ ٤٧٠ ـ ٩٦٤ ـ ٩٧٨؛ ج. ١: ٢ ـ ٥٢١ ـ ٤٧٠ ـ ٩٦٤ ـ ٩٧٨
ج. ٢: ٩ ـ ٥٢٢ ـ ٤٧٠ ـ ٩٦٤ ـ ٩٧٨؛ ج. ٣: ٦ ـ ٥٢٣ ـ ٤٧٠ ـ ٩٦٤ ـ ٩٧٨
ج. ٤: ٣ ـ ٥٢٤ ـ ٤٧٠ ـ ٩٦٤ ـ ٩٧٨؛ ج. ٥: ٠ ـ ٥٢٥ ـ ٤٧٠ ـ ٩٦٤ ـ ٩٧٨
ج. ٦: ٤ ـ ٥٣٠ ـ ٤٧٠ ـ ٩٦٤ ـ ٩٧٨؛ ج. ٧: ٥ ـ ٨٧٢ ـ ٤٧٠ ـ ٩٦٤ ـ ٩٧٨
ج. ٨: ٩ ـ ٩٢٨ ـ ٤٧٠ ـ ٩٦٤ ـ ٩٧٨؛ ج. ٩: ٦ ـ ٩٢٩ ـ ٤٧٠ ـ ٩٦٤ ـ ٩٧٨
ج. ١٠: ٠ ـ ٩٤٧ ـ ٤٧٠ ـ ٩٦٤ ـ ٩٧٨؛ ج. ١١: ٧ ـ ٩٤٨ ـ ٤٧٠ ـ ٩٦٤ ـ ٩٧٨
وضعيت فهرست نويسى: برونسپاري.
يادداشت: عربي.
يادداشت: ج. ٢ (چاپ اوّل: ١٤١٧ ق. = ١٣٧٥).
يادداشت: ج. ٤ (چاپ اوّل: ١٤٢٠ ق. = ١٣٧٨).
يادداشت: ج. ٥ (چاپ اوّل: ١٤٢٤ ق. = ١٣٨٢).
يادداشت: ج. ٧ (چاپ اوّل: ١٤٢٩ ق. = ١٣٨٧).
يادداشت: ج. ٧ (چاپ دوّم: ١٤٤٠ ق. = ١٣٩٨).
يادداشت: ج. ٩ (چاپ اوّل: ١٤٣٠ ق. = ١٣٨٨).
يادداشت: ج. ١٨ (چاپ اوّل: ١٤٣١ ق. = ١٣٨٨).
يادداشت: كتابنامه.
موضوع: تفاسير شيعه ـ ـ قرن ٥ ق.
شناسه افزوده: جامعهٔ مدرّسين حوزهٔ علميّه قم، دفتر انتشارات اسلامي.
رده‌بندى كنگره: ١٣٧١ ٢ ت ٩ ط / ٩٤ BP
رده‌بندى ديويى: ١٧٢٦ / ٢٩٧
شماره كتابشناسى ملّى: ٣٨٥٠ ـ ٧١ م

التبيان
في تفسير القرآن
(ج ١١)

■ تأليف: شيخ الطائفة أبي جعفر محمّد بن الحسن الطوسي ﵀ □
■ الموضوع: التفسير □
■ تحقيق ونشر: مؤسّسة النشر الإسلامي □
■ عدد الصفحات: ٧٥٢ □
■ الطبعة: الثانية □
■ المطبوع: ٣٠٠ نسخة □
■ التاريخ: ١٤٤٢ هـ. ق □
■ شابك دورة: ٥ ـ ٠٧٠ ـ ٤٧٠ ـ ٩٦٤ ـ ٩٧٨ □
■ شابك ج ١١: ٧ ـ ٩٤٨ ـ ٤٧٠ ـ ٩٦٤ ـ ٩٧٨ □
978 - 964 - 470 - 948 - 7
■ السعر: ٩٥٠٠٠ تومان □
■ علامة الانترنت: WWW.EN-ESLAMI.IR □ info@En-Eslami.ir

مؤسّسة النشر الإسلامي
التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرّفة

سورة الطور

مكّية بلا خلاف، وهي تسع وأربعون آية في الكوفي، وثمان في البصري، وسبع في المدنيّين.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى:

وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝٥ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨.

سبع آيات حجازي، وثمان في ما عداه، عدّ الكوفيّون والشاميّون ﴿والطور﴾ ولم يعدّه الحجازيّون.

الوجه في القسم بالطور هو ما قدّمناه في قوله: ﴿والذاريات﴾ وغير ذلك، وهو أنّ الله تعالى له أن يقسم بما يشاء من خلقه، وليس للعباد أن يقسموا إلّا به.

وقيل: الطور هو الجبل الّذي كلّم الله عليه موسى[1]. وقال مجاهد:

---

(١) النكت والعيون ٥: ٣٧٧.

الطور جبل. وقال المبرّد: يقال لكلّ جبل طور، فإذا أدخلت عليه الألف واللام كان معرفة لشيء بعينه. ومنه قوله: ﴿ورفعنا فوقهم الطور﴾[1] وقيل: إنّه سرياني.

﴿وكتاب مسطور﴾ أي مكتوب ـ في قول قتادة والضحّاك ـ قال رؤبة:

إنّي وأسطار سُطرن سطرا[2]

وقيل: الكتاب المسطور، هو الّذي كتبه الله على خلقه من الملائكة في السماء يقرؤون فيه ما كان ويكون. وقيل: هو القرآن مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ، وهو الرقّ المنشور. وقال الفرّاء: الكتاب المسطور صحائف الأعمال فمن أخذ كتابه بيمينه، ومن أخذ كتابه بشماله[3]. والسطر ترتيب الحروف. والمسطور المرتّب الحروف على وجه مخصوص، سطرته أسطُره سطراً فأنا ساطر وذلك مسطور.

﴿في رقّ منشور﴾ فالرقّ جلد رقيق يصلح للكتابة. وقال أبو عبيدة: الرقّ هو الورق[4]. وقيل: إنّما ذكر الرقّ، لأنّه من أحسن ما يكتب عليه، فذكر لهذه العلّة، فإذا كتبت الحكمة في ما هو على هذه الصفة كان أبهى وأولى. والمنشور المبسوط. وإنّما قيل: منشور، لأنّه أبهى في العيون.

وقوله: ﴿والبيت المعمور﴾ قيل: هو بيت في السماء الرابعة بحيال الكعبة، تعمره الملائكة بما يكون منها فيه من العبادة. وروي ذلك عن عليّ عليه السلام وابن عبّاس ومجاهد. قال عليّ عليه السلام: يدخل كلّ يوم سبعون ألف

---

(١) النساء: ١٥٤.

(٢) مجاز القرآن ٢: ٢٣٠، تفسير الطبري ١١: ٤٧٩. فيهما بدل «أسطار» آيات.

(٣) معاني القرآن ٣: ٩١.

(٤) مجاز القرآن ٢: ٢٣٠.

ملك ثمّ لا يعودون فيه[١]. وقال الحسن: البيت المعمور، البيت الحرام.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام ومجاهد وقتادة وابن زيد: ﴿السقف المرفوع﴾ هو السماء[٢].

وقوله: ﴿والبحر المسجور﴾ فالبحر المجرى الواسع العظيم من مجاري الماء، وأصله الاتّساع. والبحيرة الناقة الّتي يوسّع شقّ أُذنها وتخلى في المرع[٣]. وتبحّر فلان في العلم إذا اتّسع فيه. والمسجور المملوء. ومنه سجرت التنّور إذا ملأته ناراً. وعين سجراء ممتلئة فيها حمرة كأنّها احمرّت ممّا هو لها كسجار التنّور. وقال مجاهد وابن زيد: البحر المسجور الموقد. وقال قتادة: هو المملوء قال لبيد:

فتوسّطا عُرْضَ السري وصدّعا مسجورةً متجاوزاً قلّامها[٤]

وروي في الحديث «أنّ البحر يسجر، فيكون ناراً في جهنّم»[٥].

وقوله: ﴿إنّ عذاب ربّك لواقع﴾ جواب القسم، أقسم الله تعالى بالأشياء الّتي تقدّم ذكرها ليتحقّق عند العباد أنّ عذابه واقع لا محالة لمن وافى على الصفة الّتي يستحقّ بها العقوبة، وأن لا يطمع أن ينفعه سؤال حميم أو قريب منه قال النمر بن تولب العكلي: شاهداً في المسجور:

إذا شاء طالع مسجورة ترى حولها النَبْع والسما سما[٦]

وإنّما هي بقعة مملوءة شجراً.

---

(١) تفسير السمرقندي ٣: ٣٥٠، تفسير القمّي ٢: ٣٣١.

(٢) تفسير الطبري ١١: ٤٨٢.

(٣) في الحجريّة: المرعى.

(٤) ديوان لبيد بن ربيعة: ٢١٦، تفسير الطبري ١١: ٤٨٣، الكشف والبيان ٩: ١٢٥.

(٥) راجع تفسير القمّي ٢: ٣٣١، الكشف والبيان ٩: ١٢٥.

(٦) مجاز القرآن ٢: ٢٣، تفسير الطبري ١١: ٤٨٣.

قوله تعالى:

يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَـٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَـٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾.

ثمان آيات كوفي وشامي، وسبع في ما عداهما، عدّ الكوفيّون والشاميّون ﴿دعّا﴾ ولم يعدّه الباقون.

[أقول:][١] قوله: ﴿يوم تمور السماء موراً﴾ يعني يوم القيامة، وهو متعلّق بقوله: ﴿إنّ عذاب ربّك لواقع... يوم تمور السماء موراً﴾ والمور تردّد الشيء بالذهاب والمجيء كما يتردّد الدخان ثمّ يضمحلّ، مار يمور موراً فهو مائر. وقيل: يمور موراً بمعنى يدور دوراً ـ في قول مجاهد ـ وقال الضحّاك: معناه يموج موجاً قال الأعشى أنشده أبو عبيدة:

كأنّ مِشيتها من بيت جارَتها
مور السحابة لا رَيْثُ ولا عَجَل[٢]

ورواه غيره مرّ السحابة.

﴿وتسير الجبال سيراً فويل يومئذ للمكذّبين﴾ الّذين ينكرون إخبار الله تعالى فهؤلاء الجهّال أنكروا ما أخبربه الأنبياء بأن نسبوه إلى الكذب.

﴿الّذين هم في خوض يلعبون﴾ فالخوض الدخول في الماء بالقدم وشبّه به الدخول في الأمر بالقول، يقال خاض يخوض خوضاً، فهو خائض.

(١) من الحجريّة.

(٢) شرح ديوان الأعشى ١٤٩، مجاز القرآن ٢: ٢٣١، تفسير الطبري ١١: ٤٨٤.

وخوّضه في الشراب تخويضاً، ومنه المخوض. و«اللعب» طلب الفرح بمثل حال الصبيّ في انتفاء العمل على مقتضى العقل، لعب لعباً فهو لاعب. ودخلت الفاء في ﴿فويل﴾ لما فيه من معنى الجزاء، لأنّ تقديره إذا كان كذا وكذا فويل، ومعنى الآية إنّي سأعلمهم بكفرهم وتصير عاقبتهم العذاب.

وقوله: ﴿يوم يدعّون إلى نار جهنم دعّاً﴾ معناه يوم يدعّون إلى نار جهنّم للعذاب فيها، دعّه يدُعّه دعّاً إذا دفعه. ومثله صكّه يصُكّه صكّاً، والداعّ الدافع. وقيل: الدعّ الدفع بانزعاج وإرهاق، في قول قتادة والضحّاك.

وقوله: ﴿هذه النار الّتي كنتم بها تكذبون﴾ أي يقال لهم على وجه التوبيخ: هذه النار الّتي كنتم تكذّبون بها في دار التكليف حين جحدتم الثواب والعقاب والنشور.

ويقال لهم على وجه الإنكار عليهم: ﴿أفسحر هذا﴾ أم قد غطّى على أبصاركم ﴿أم أنتم لا تبصرون﴾.

ثمّ يقال لهم: ﴿اصلوها﴾ يعني النار ﴿فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم﴾ كونكم في العقاب صبرتم أو لم تصبروا، فإنّه لا يحيف عليكم ﴿إنّما تجزون ما كنتم﴾ أي جزاء ما كنتم ﴿تعملون﴾ في الدنيا من المعاصي. والصلي لزوم النار المعذّب بها صلّى يصلّي صلياً، ومنه الصلاة للزوم الدعاء فيها، ومنه قول الشاعر:

صلّى على دَنّها وارتسم[1]

أي لزم، والمصلّي الّذي يجيء في أثر السابق على لزوم أثره، والأصل لزوم الشيء. والصبر حبس النفس على الأمر بالعمل فكأنّه قال: احبسوا

---

(١) مرّ في ١: ٣٧٢، ٢: ١٥٣، ٤: ٩٥، شرح ديوان الأعشى: ١٩٨.

أنفسكم على النار لتعاملوا بالحقّ أو لا تحبسوا سواء عليكم في أنّ الجزاء لا محالة واقع بكم ولاحِق لكم. والجزاء مقابلة العمل بما يقتضيه في العقل من خير أو شرّ. والسواء والاستواء والاعتدال بمعنى واحد. والاستواء امتناع كلّ واحد من المقدارين من أن يكون زائداً على الآخر أو ناقصاً عنه، فالصبر وتركالصبر لا ينفع واحد منهما في رفع العذاب عن أهل النار.

قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَـٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ أربع آيات بلا خلاف.

[أقول:] لمّا أخبر الله تعالى عن حال الكفّار وما أعدّ لهم من أليم العقاب، أخبر أيضاً بما أعدّه للمؤمنين المتّقين من أنواع الثواب فقال: ﴿إنّ المتّقين﴾ الّذين يجتنبون معاصي الله خوفاً من عقابه ﴿في جنّات﴾ أي بساتين تجنّها الأشجار ﴿ونعيم فاكهين بما آتاهم ربّهم﴾ أي متنعّمين بما آتاهم ربّهم من أنواع النعم. وقال الزجّاج: معنى ﴿فاكهين﴾ معجبين بما آتاهم[١]. وقال الفرّاء مثل ذلك[٢] ﴿ووقاهم ربّهم﴾ أي منع عنهم عذاب الجحيم. «الفاكه» الكثير الفاكهة، كقولهم لابِن وتامِر أي ذو لبن وذو تمر. و«الفكه» المسرور بأحواله كسرور آكل الفاكهة بفاكهته.

وقوله: ﴿متِكئين على سرر مصفوفة﴾ قيل: متّكئين على النمارق وهي الوسائد إلّا أنّه حذف ذكرها. والمعنى «عليه» لأنّه أصل الاتّكاء، وتقديره متّكئين على النمارق الموضوعة على السرر، وهو جمع سرير. وقوله:

( ) من الحجريّة. (٢) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٦٣. (٣) معاني القرآن ٣: ٦١.

﴿مصفوفة﴾ أي مصطفّة. وقوله: ﴿وزوّجناهم بحور عين﴾ فالحور البيض النقيّات البياض في حسن وكمال، والعين الواسعة الأعين في صفاء وبهاء، والمعنى قرنّا هؤلاء المتّقين بالحور العين على وجه التنعيم لهم والتمتيع.

قوله تعالى:

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِىٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَـٰهُم بِفَـٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَـٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ خمس آيات بلا خلاف.

[أقول:][(١)] قرأ ابن كثير وأهل الكوفة ﴿واتّبعتهم﴾ بالتاء ﴿ذرّيتهم﴾ على واحدة ﴿بهم ذرّيّتهم﴾ على واحدة أيضاً. وقرأ نافع ﴿واتّبعتهم﴾ بالتاء ﴿ذرّيّتهم﴾ على واحدة ﴿بهم ذرّيّاتهم﴾ على الجمع. وقرأ ابن عامر ﴿واتّبعتهم ذرّياتهم﴾ بالتاء على الجمع ﴿بهم ذرّيّاتهم﴾ جماعة أيضاً. وقرأ أبو عمرو ﴿أتْبعناهم﴾ بالنون ﴿ذرّياتهم﴾ جماعة ﴿ألحقنا بهم ذرّيّاتهم﴾ جماعة أيضاً. وقرأ ابن كثير وحده ﴿وما ألِتناهم﴾ بفتح الألف وكسر اللام. الباقون ـ بفتح الألف واللام ـ وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿لا لغو فيها ولا تأثيم﴾ نصباً. الباقون بالرفع والتنوين. قال الزجّاج: فمن رفع فعلى ضربين: أحدهما ـ على الابتداء و «فيها» الخبر، والثاني ـ أن تكون «لا» بمعنى ليس رافعة وأنشد سيبويه:

من فرّ عن نيرانها ... فأنا ابن قيس لا براحُ[(٢)]

---

(١) من الحجريّة.

(٢) كتاب سيبويه ١: ٥٨.

ومن نصب بنى كقوله: ﴿لا ريب فيه﴾[1] والاختيار عند النحويين إذا كرّرت «لا» الرفع، والنصب جائز حسن[2].

يقول الله تعالى: ﴿والّذين آمنوا﴾ بالله وأقرّوا بتوحيده وصدّقوا رسله ﴿واتّبعتهم ذرّيّتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرّيّتهم﴾ من قرأ بالنون معناه وألحقنا بهم ذرّيّاتهم أي ألحق الله بهم ذرّيّاتهم يعني حكم لهم بذلك. ومن قرأ ﴿واتّبعتهم﴾ نسب الاتّباع إلى الذرّيّة. والمعنى إنّهم آمنوا كما آمنوا، فمن جمعه فلاختلاف أجناس الذرّيّة، ومن وحّد فلأنّه يقع على القليل والكثير، وإنّما قرأ أبو عمرو ﴿وأتبعناهم﴾ بالنون لقوله بعد ذلك: ﴿ألحقنا﴾ وقال البلخي: معنى الآية إنّ ثواب الذرّيّة إذا عملوا مثل أعمال الآباء يثابون مثل ثواب الآباء، لأنّ الثواب على قدر الأعمال. ولمّا قال: ﴿واتبعناهم ذرّيّاتهم﴾ بيّن أنّ ذلك يفعل بهم من غير أن ينقص من أُجورهم، لئلّا يتوهّم أنّه يلحقهم نقص أجر. وقال الزجّاج: معنى الآية إنّ الأبناء إذا كانوا مؤمنين فكانت مراتب آبائهم في الجنّة أعلا من مراتبهم ألحق الأبناء بالآباء، ولم ينقص الآباء من أعمالهم، وكذلك إن كان أعمال الآباء أنقص أُلحق الآباء بالأبناء[3]. والإتباع إلحاق الثاني بالأوّل في معنى عليه الأوّل، لأنّه لو ألحق به من غير أن يكون في معنى هو عليه لم يكن إتباعاً، وكان إلحاقاً. وإذا قيل: أتبعه بصره فهو الإدراك، وإذا قيل: تبعه فهو يصرف البصر بتصرّفه.

وقوله: ﴿ألحقنا بهم ذرّيّاتهم﴾ قال ابن عبّاس والضحّاك وابن زيد:

(١) البقرة: ٢.
(٢) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٦٣ ـ ٦٤.
(٣) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٦٥ ـ ٦٦.

ألحقوا الأولاد بالآباء إذا آمنوا من أجل إيمان الآباء. وفي رواية أُخرى عن ابن عبّاس: أنّ التابعين أُلحقوا بدرجة آبائهم وإن قصرت أعمالهم تكرمة لآبائهم. والأوّل هو الوجه. وإنّما وجب بالإيمان إلحاق الذرّيّة بهم مع أنّهم قد يكون ليس لهم ذرّيّة لأنّه إنّما يستحقّ ذلك السرور على ما يصحّ ويجوز مع أنّه إذا اتّبع الذرّيّة على ما أمر الله به استحقّ الجزاء فيه، فإن أبطلته الذرّيّة عند البلوغ بسوء عمل، وفّيَ سروره في أمر آخر كما أنّ أهل الجنّة من سرورهم ما ينزل بأعدائهم في النار، فلو عفى عنهم لوفّوا سرورهم بأمر آخر.

وقوله: ﴿وما ألتناهم﴾ معناه ما نقصناهم يقال: ألته يألته ألتاً، وألاته يلتيه إلاتة، ولاته يليته ثلاث لغات ـ ذكرها أبو عبيدة: إذا نقصه[1] فبيّن ـ عزّ وجلّ ـ أنّه لا يجوز عليه نقصان شيء من جزاء عمله، لأنّه لا يجوز عليه الظلم لا قليله ولا كثيره ولا صغيره ولا كبيره. وقال ابن عبّاس ومجاهد والربيع ﴿وما ألتناهم﴾ ما نقصناهم. قال الشاعر:

أبلغ بني ثَعل عنّي مُغَلْغلة　　　جهد الرسالة لا ألتاً ولا كذباً[2]

وقوله: ﴿كلّ امرىء بما كسب رهين﴾ أي كلّ إنسان يعامل بما يستحقّه ويجازى بحسب ما عمله إن عمل طاعة أُثيب عليها وإن عمل معصية عوقب بها لا يؤاخذ أحد بذنب غيره. والرهين والمرهون والمرتهن هو المحتبس على أمر يؤدى عنه بحسب ما يجب فيه، فلمّا كان كلّ مكلّف محتبساً على عمله، فإن صحّ له أداؤه على الواجب فيه تخلّص، وإلّا هلك،

---

(١) مجاز القرآن ٢: ٢٣٢.

(٢) ديوان الخطيئة: ١٧، مع اختلاف، معاني القرآن ٣: ٦٢، تفسير الطبري ١١: ٤٩٠.

فلهذا قال: ﴿كلّ امرئ بما كسب رهين﴾.

قوله: ﴿وأمددناهم بفاكهة﴾ فالإمداد هو الإتيان بالشيء بعد الشيء يقال: مدّ الجرح وأمدّ النهار. والفاكهة هي الثمار ﴿ولحم ممّا يشتهون﴾ أي وأمددناهم أيضاً بلحم من الجنس الّذي يشتهونه.

وقوله: ﴿يتنازعون فيها كأساً﴾ أي يتعاطون كأس الخمر، قال الأخطل:

نـــازعتهم طـيب الراح الشـمول وقـد
صاح الدجاج وحانت وقعة الساري[١]

والكأس الإناء المملوء بالشراب، فإن كان فارغاً فلا يسمّى كأساً ذكره الفرّاء[٢]. وقـوله: ﴿لا لغو فيها ولا تأثيم﴾ معناه لا يجري بينهم باطل ولا ما يلغى فيه ولا ما فيه إثم كما يجري في الدنيا عند شرب الخمر.

وقوله: ﴿ويطوف عليهم غلمان لهم كأنّهم لؤلؤ مكنون﴾ يعني في صفائه وبياضه وحسن منظره، والمكنون المصون. وقيل: ليس على الغلمان مشقّة في خدمة أهل الجنّة، بل لهم في ذلك لذّة، لأنّه ليس هناك دار محنة.

وقوله: ﴿وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ أي يسأل بعضهم بعضاً [عن حاله، وما هو فيه من أنواع النعيم فيسرّون بذلك ويزداد فرحهم. وقيل: يسأل بعضهم بعضاً][٣] عمّا فعلوه في دار الدنيا ممّا استحقّوا به المصير إلى الثواب والكون في الجنان بدلالة قوله: ﴿إنّا كنّا قبل في أهلنا مشفقين﴾.

---

(١) تفسير الطبري ١١: ٤٩١؛ مجاز القرآن ٢: ٢٣٣.
(٢) معاني القرآن ٣: ٢١٧.
(٣) ما بين المعقوفين ليس في الحجريّة.

قوله تعالى:

قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ خمس آيات بلا خلاف.

[أقول:][1] قرأ نافع والكسائي ﴿ندعوه أنّه﴾ بفتح الهمزة على تقدير بأنّه أو لأنّه. الباقون بكسر الهمزة على الاستئناف.

لمّا حكى الله تعالى أنّ أهل الجنّة يقبل بعضهم على بعض ويسأل بعضهم بعضاً عن أحوالهم ذكر ما يقولونه فإنّهم يقولون: ﴿إنّا كنّا﴾ في دار الدنيا ﴿في أهلنا مشفقين﴾ أي خائفين رقيقي القلب. فالإشفاق رقّة القلب عمّا يكون من الخوف على الشيء، والشفقة نقيض الغلظة. وأصله الضعف من قولهم: ثوب شفق أي ضعيف النسج رديئه، ومنه الشفق، وهو الحمرة الّتي تكون عند غروب الشمس إلى العشاء الآخرة، لأنّها حمرة ضعيفة. والأهل هو المختصّ بغيره من جهة ما هو أولى به، وكلّما كان أولى به فهو أحقّ بأنّه أهله، فمن ذلك أهل الجنّة وأهل النار. ومن ذلك أهل الجود والكرم، وفلان من أهل القرآن، ومن أهل العلم، ومن أهل الكوفة. ومن هذا قيل: لزوجة الرجل: أهله، لأنّها مختصّة به من جهة هي أولى به من غيره.

فقوله: ﴿في أهلنا مشفقين﴾ أي من يختصّ به ممّن هو أولى بنا.

وقوله: ﴿فمنّ الله علينا﴾ فالمنّ القطع عن المكاره إلى المحابّ. يقال: منّ على الأسير يُمنّ منّاً إذا أطلقه وأحسن إليه، وامتنّ عليه بصنيعه أي

(١) ليس في الحجريّة.

اقتطعه عن شكره بتذكير نعمته. والمنيّة قاطعة عن تصرّف الحيّ. و ﴿أجر غير ممنون﴾[١] أي غير مقطوع.

وقوله: ﴿ووقانا عذاب السموم﴾ الوقا: منع الشيء من المخوف بما يحول بينه وبينه، ومنه الوقاية، ووقاه يقيه وقاء فهو واق، ووقّاه توقية قال الراجز:

إذ الموقي مثل ما وقيت عذاب السموم

فالسموم الحرّ الّذي يدخل في مسامّ البدن بما يوجد ألمه، ومنه ريح السموم، ومسامّ البدن الخروق الدقاق.

ثمّ قالوا ﴿إنّا كنّا من قبل ندعوه﴾ يعني في دار التكليف ندعوه ﴿أنّه هو البرّ الرحيم﴾ أي ندعوه بهذا، فيمن فتح الهمزة، ومن كسرها أراد إنّا كنّا ندعوه ونتضرّع إليه، ثمّ ابتدأ فقال: ﴿إنّه هو البرّ الرحيم﴾ قال ابن عبّاس: البرّ هو اللطيف وأصل الباب اللطف مع عظم الشأن، ومنه البرّ للطفها مع عظم النفع بها، ومنه البرّ لأنّه لطف النفع به مع عظم الشأن، ومنه البريّة للطف مسالكها مع عظم شأنها، والبرّ بالكسر الفاره، والبرّ برّ الوالدين. وقولهم: فلان لا يعرف هرّه من برّه[٢] قيل في معناه ثلاثة أشياء:

أحدها ـ لا يعرف السنّور من الفارة.

الثاني ـ لا يعرف من يبرّه ممّن يكرهه.

الثالث ـ لا يعرف دعاء الغنم وهو برّها من سوقها.

ثمّ قال تعالى للنبيّ صلى الله عليه وآله: ﴿فذكّر﴾ يا محمّد أي عظ هؤلاء المكلّفين ﴿فما أنت بنعمة ربّك﴾ قسم من الله تعالى بنعمته ﴿بكاهن ولا مجنون﴾ على ما يرمونك به. وقال البلخي: معناه ما أنت بنعمة الله عليك بكاهن، ولا يلزم

---

(١) التين: ٦.

(٢) في الحجريّة: هرّاً من برّ.

أن يكون الله تعالى لم ينعم على الكاهن، لأنّ الله تعالى قد عمّ على جميع خلقه بالنعم وإن كان ما أنعم به على النبيّ أكثر، وقد مكّن الله الكاهن وسائر الكفّار من الإيمان به، وذلك نعمة عليه. فالكاهن الّذي يذكر أنّه يخبر عن الجنّ على طريق العزائم، والكهانة صنعة الكاهن، والكاهن الموهم أنّه يعلم الغيب بطريق خدمة الجنّ. والمجنون المؤف بما يغطى على عقله حتّى لا يدرك به في حال يقظة، وقد علموا أنّه ليس بشاعر، كما علموا أنّه ليس بمجنون، لكن قالوا ذلك على جهة التكذيب عليه ليستريحوا إلى ذلك كما يستريح السفهاء إلى التكذّب على أعدائهم. ثمّ قال: ﴿أم﴾ ومعناه بل ﴿يقولون شاعر نتربّص به ريب المنون﴾ قال مجاهد: ريب المنون حوادث الدهر. وقال ابن عبّاس وقتادة: الموت والمنون المنيّة، وريبها الحوادث الّتي تريب عند مجيئها. وقال الشاعر:

تربّص بها ريب المنون لعلّها سيهلَك عنها بعلها أو سيحتج[1]

قوله تعالى:

قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ عشرة آيات بلا خلاف.

[أقول:][2] لمّا حكى الله تعالى عن الكفّار أنّهم قالوا في النبيّ صلى الله عليه وآله إنّه

---

(١) تفسير الطبري ١١: ٤٩٤. فيه: تسرَّح.

(٢) من الحجريّة.

كاهن ومجنون، وإنّه شاعر نتربّص به ريب المنون أي نتوقّع فيه حوادث الدهر والهلاك، قال الله تعالى لنبيّه صلى الله عليه وآله: ﴿قل﴾ لهم يا محمّد ﴿تربّصوا فإنّي معكم من المتربّصين﴾ فالتربّص هو الانتظار بالشيء انقلاب حال إلى خلافها. والمعنى إنّكم إن تربّصتم بي حوادث الدهر والهلاك، فإنّي معكم من المنتظرين لمثل ذلك. فتربّص الكفّار بالنبيّ صلى الله عليه وآله والمؤمنين قبيح، وتربّص النبيّ والمؤمنين بالكفّار وتوقّعهم لهلاكهم حسن. وقوله: ﴿تربّصوا﴾ وإن كان بصيغة الأمر فالمراد به التهديد.

وقوله: ﴿أم تأمرهم أحلامهم بهذا﴾ على طريق الإنكار عليهم انّ هذا الّذي يقولونه ويتربّصون بك من الهلاك أحلامهم، أي عقولهم تأمرهم به وتدعوهم إليه، والأحلام جمع الحلم، وهو الإمهال الّذي يدعو إليه العقل والحكمة، فالله تعالى حليم كريم، لأنّه يمهل العصاة بما تدعو إليه الحكمة، ويقال: هذه أحلام قريش أي عقولهم. ثمّ قال تعالى: ليس الأمر على ذلك ﴿بل هم قوم طاغون﴾ والطاغي هو الطالب للارتفاع بالظلم لمن كان من العباد، ومنه قوله: ﴿انّا لمّا طغى الماء﴾[1] لأنّه طلب الارتفاع كطلب الظالم للعباد في الشدّة، فحسن على جهة الاستعارة.

وقوله: ﴿أم يقولون تقوّله بل لا يؤمنون﴾ معناه بل يقولون افتراه واخترعه وافتعله، لأنّ التقوّل لا يكون إلّا كذباً، لأنّه دخله معنى تكلّف القول من غير حقيقة معنى يرجع إليه، وكذلك كلّ من تكلّف أمراً من غير اقتضاء العقل أنّ له فعله فهو باطل. ثمّ قال: بل هؤلاء الكفّار لا يصدّقون بنبوّتك ولا بأنّ القرآن أُنزل من عند الله. والآية ينبغي أن تكون خاصّة

---

(١) الحاقّة: ١١.

فيمن علم الله أنّه لا يؤمن.

ثمّ قال على وجه التحدّي لهم: ﴿فليأتوا بحديث مثله﴾ يعني مثل القرآن وما يقاربه ﴿إن كانوا صادقين﴾ في أنّه شاعر وكاهن ومجنون وتقوّله، لأنّه لا يتعذّر عليهم مثله. وقيل المثل الّذي وقع التحدّي به هو ما كان مثله في أعلا طبقة البلاغة من الكلام الّذي ليس بشعر. وأعلا طبقات البلاغة كلام قد جمع خمسة أوجه: تعديل الحروف في المخارج، وتعديل الحروف في التجانس، وتشاكل المقاطع ممّا تقتضيه المعاني، وتهذيب البيان بالإيجاز في موضعه والإطناب في موضعه، والاستعارة في موضعها والحقيقة في موضعها. وإجراء جميع ذلك في الحِكَم العقلية بالترغيب في ما ينبغي أن يرغب فيه. والترهيب ممّا ينبغي أن يرهب منه، والحجّة الّتي يميّز بها الحقّ من الباطل. والموعظة الّتي تليق للعمل بالحقّ.

وقوله: ﴿أم خُلقوا من غير شيء﴾ معناه أخُلقوا من غير خالق؟ ﴿أم هم الخالقون﴾ لنفوسهم فلا يأتمرون لأمر الله ولا ينتهون عمّا نهاهم عنه. وقيل: معنى ﴿أمْ خلقوا من غير شيء﴾: أخلقوا لغير شيء أي أخلقوا باطلاً لا لغرض. وقيل: المعنى أخلقوا من غير أب ولا أمّ فلا يهلكون[1]، كما أنّ السماوات والأرض خلقتا من غير شيء، فإذا هم أضعف من السماء الّذي خلق لامن شيء، فإذا كان ما خلق لامن شيء يهلك فما كان دونه بذلك أولى.

وقوله: ﴿أم خلقوا السماوات والأرض﴾ واخترعوها فلذلك لا يقرّون بالله أنّه خالقهم. ثمّ قال تعالى: ﴿بل لا يوقنون﴾ بأنّ لهم إلهاً يستحقّ العبادة

---

(١) تفسير الطبري ١١: ٤٩٥ ـ ٤٩٦.

وحده ولا يقرّون بأنّك نبيّ من جهة الله.

وقوله: ﴿أم عندهم خزائن ربّك﴾ معناه أعندهم خزائن نعمة ربّك وخزائن الله مقدوراته، لأنّه يقدر من كلّ جنس على ما لا نهاية له فشبّه ذلك بالخزائن الّتي تجمع أشياء مختلفة. والمعنى كأنّه قال: أعندهم خزائن رحمة ربّك فقد أمنوا أن تجيء الأُمور على خلاف ما يحبّون ﴿أم هم المصيطرون﴾ على الناس فليس عليهم مسيطر ولا لهم ملزم ومقوّم، فالمسيطر الملزم غيره أمراً من الأمور قهراً، وهو مأخوذ من السطر يقال: سيطر يسيطر سيطرة، وهو «فيعل» من السيطرة، ونظيره بيطر بيطرة. وقيل: المسيطر الملك القاهر. وقيل: هو الجبّار المتسلّط، ومنه قوله: ﴿لست عليهم بمصيطر﴾ (١) يقولون: سيطر عليّ أي اتّخذني خولاً(٢) وقال أبو عبيدة: المسيطرون الأرباب(٣) والمسيطر والمبيقر والمبيطر والمهيمن والكميت أسماء جاءت مصغّرة لا نظير لها. وقرأ قتادة ﴿بمسيطر﴾ بفتح الطاء، بمعنى لست عليهم بمسلّط. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو(٤) وابن عامر والكسائي ﴿المسيطرون﴾ بالسين. الباقون بالصاد إلّا أنّ حمزة يشمّ الصاد زاياً.

وقوله: ﴿أم لهم سلّم يستمعون فيه﴾ فالسلّم مرتقى إلى العلو من مشيّد والدرجة مرتقى إلى علوّ من بناء مصمت. ويقال: جعلت فلاناً سلّماً لحاجتي أي سبباً.

وقال ابن مقبل:

لا يحرز المرء أحجاء البلاد ولا

تبنى له في السماوات السلاليم(٥)

---

(١) الغاشية: ٢٢. (٢) تفسير الطبري ١١: ٤٩٦. (٣) مجاز القرآن ٢: ٢٣٣.
(٤) في الحجريّة: ابن عمر. (٥) تفسير الطبري ١١: ٤٩٦، مجاز القرآن ٢: ٢٣٤.

فكأنّه قيل أم يستمعون الوحي من السماء، فقد وثقوا بما هو عليه وردّوا ما سواه ﴿فليأت مستمعهم بسلطان مبين﴾ أي بحجّه يظهر صحّة قولهم. والاستماع الإصغاء إلى الصوت، وإنّما قيل لهم ذلك، لأنّ كلّ من ادّعى ما لم يعلم ببداهة العقول فعليه إقامة الحجّة.

وقوله: ﴿أم له البنات ولكم البنون﴾ معناه ألكم البنون ولله البنات؟! فصاحب البنين أعلى كلمة من صاحب البنات، وهذا غاية التجهيل لهم والفضيحة عليهم. وقيل: لو جاز اتّخاذ الأولاد عليه لم يكن يختار على البنين البنات فدلّ بذلك على إفراط جهلهم في ما وصفوا الله تعالى به من اتّخاذ الملائكة بنات.

وقوله: ﴿أم تسألهم أجراً﴾ أي ثواباً على أداء الرسالة إليهم بدعائك إيّاهم إلى الله ﴿فهم من مغرم مثقلون﴾ فالمَغرم إلزام الغرم في المال على طريق الإبدال. والمغرم إنفاق المال من غير إبدال، وأصله المطالبة بإلحاح فمنه الغريم، لأنّه يطالب بالدين بإلحاح، ومنه ﴿أنّ عذابها كان غراماً﴾ (١) أي ملحّاً دائماً. والمغرم لأنّه يلزم من جهة المطالبة بإلحاح لا يمكن دفعه. والمثقل المحمول عليه ما يشقّ حمله لثقله.

قوله تعالى:

أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟

(١) الفرقان: ٦٥.

عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَـٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾ تسع آيات بلا خلاف.

[أقول:][1] قرأ عاصم وابن عامر ﴿يصعقون﴾ بضمّ الياء على ما لم يسمّ فاعله، الباقون بفتح الياء على إضافة الفعل إليهم، وهما لغتان. يقال: صُعق فلان فهو مصعوق وصعق فهو صاعق. وروي عن عاصم أيضاً ﴿يصعقون﴾ بضمّ الياء وكسر العين بمعنى يحصلون في الصاعقة. وقيل: الصعق الهلاك بصيحة تصدع القلب. وقيل: الصعق عند النفخة الأُولى[2]. قال قوم: إنّ قوله ﴿أم عندهم الغيب فهم يكتبون﴾ جواب لقولهم إن كان أمر الآخرة على ما تدّعون حقّاً فلنا الجنّة كقولهم: ﴿ولئن رجعت إلى ربّي إنّ لي عنده للحسنى﴾[3] ذكره الحسن. والغيب الّذي لا يعلمه إلّا الله هو ما لم يعلمه العاقل ضرورة ولا عليه دلالة. والله تعالى عالم به، لأنّه يعلمه لنفسه، والعالم لنفسه لا يخفى عليه شيء من وجه من الوجوه.

وقوله: ﴿أم يريدون كيداً فالّذين كفروا هم المكيدون﴾ فالكيد هو المكر. وقيل: هو فعل ما يوجب الغيظ في خفى يقال: كاده يكيده كيداً، فهو كائد، والمفعول مكيد وكايده مكايدة مثل غايظه مغايظة. والكيد من الله هو التدبير الّذي يدبّره لأوليائه على أعدائه ليقهروهم ويستعلوا عليهم بالقتل والأسر. وقال الزجّاج: معناه: أيريدون بكفرهم وطغيانهم كيداً، فالله تعالى يكيدهم بالعذاب في الدنيا والآخرة[4].

---

(١) من الحجريّة.
(٢) النكت والعيون ٥: ٣٨٦.
(٣) فصّلت: ٥٠.
(٤) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٦٧.

وقوله: ﴿أم لهم إله غير الله﴾ أي على حقيقية معنى الإلهية وهو القادر على ما تحقّ به العبادة فلذلك عبدوه؟! فإنّهم لا يقدرون على دعوى ذلك. ثمّ نزّه نفسه فقال: ﴿سبحان الله عمّا يشركون﴾ من ادّعاء آلهة معه من الأصنام والأوثان.

وقوله: ﴿وإن يروا كِسفاً من السماء ساقطاً﴾ فالكسف جمع كسفة كقولك: سدر وسدرة، وهو جواب قولهم: ﴿أو تسقط السماء كما زعمت علينا كِسَفاً﴾ [١] فقال الله تعالى: لو سقط عليهم ما آمنوا ولقالوا: ﴿سحاب مركوم﴾ و«الكسف» القطعة من الغيم بقدر ما يكسف ضوء الشمس. و«الكسف من السماء» القطعة منها. و«السحاب» الغيم سمّي بذلك لانسحابه في السماء، و«المركوم» الموضوع بعضه على بعض. وكلّ الأمور المذكورة بعد (أم) إلزامات لعبدة الأوثان على مخالفة القرآن.

ثمّ قال تعالى للنبيّ ﷺ: ﴿فذرهم﴾ أي اتركهم ﴿حتّى يلاقوا يومهم الّذي فيه يصعقون﴾ أي يهلكون فيه بوقوع الصاعقة عليهم. وقيل: الصعقة هي النفخة الأُولى الّتي يهلك عندها جميع الخلائق [٢].

ثمّ وصف ذلك اليوم بأن قال: ﴿يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً﴾ أي لا ينفعهم كيدهم وحيلتهم ولا تدفع عنهم شيئاً، لأنّ جميعه يبطل ﴿وهم لا ينصرون﴾ بالدفاع عنهم. والفرق بين الغنى بالشيء والغنى عنه أنّ ماالغنى عنه يوجب أنّ وجوده وعدمه سواء في أنّ الموصوف غنيّ، وليس كذلك الغنى به، لأنّه يبطل أن يكون الموصوف غنيّاً. والغنيّ هو الحيّ الّذي ليس بمحتاج، وليس بهذه الصفة إلّا الله تعالى. ومعنى ﴿لا يغني عنهم﴾ أي

---

(١) الإسراء: ٩٢.

(٢) تفسير الطبري ١١: ٤٩٨.

لا يصرف عنهم شيئاً من الضرر الّذي يقع إلى نفع يصير بمنزلة الغنى لهم.

وقوله: ﴿وإنّ للّذين ظلموا عذاباً دون ذلك﴾ قال ابن عبّاس: هو عذاب القبر، وبه قال البراء. وقال مجاهد: هو الجوع في الدنيا. وقال ابن زيد: هو مصائب الدنيا. وقال قوم: هو عموم جميع ذلك[١].

ثمّ قال: ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ ومعناه: أنّ أكثر هؤلاء الكفّار لا يعلمون صحّة ما أمرناهم وأمرناك به لجحدهم نبوّتك.

ثمّ قال تعالى للنبيّ ﷺ: ﴿واصبر﴾ يا محمّد «لحكم ربّك» الّذي حكم به وألزمك التسليم له ﴿فإنّك بأعيننا﴾ أي بمرئى منّا ندركك، ولا يخفى علينا شيء من أمرك، نحفظك لئلّا يصلوا إلى شيء من مكروهك. وأمره بالتنزيه له عمّا لا يليق به فقال: ﴿وسبّح بحمد ربّك حين تقوم﴾ قال أبوالأحوص: معناه حين تقوم من نومك. وقال الضحّاك: معناه إذا قمت إلى الصلاة المفروضة، فقل سبحانك اللّهمّ وبحمدك. وقال ابن زيد: معناه صلّ بحمد ربّك حين تقوم من نوم القائلة إلى صلاة الظهر.

ثمّ قال: ﴿ومن الليل فسبّحه وإدبار النجوم﴾ معناه من الليل يعني من المغرب والعشاء الآخرة ﴿وإدبار النجوم﴾ قال الضحّاك وابن زيد: هو صلاة الفجر. قال ابن‌عبّاس وقتادة: هما الركعتان قبل صلاة الفجر. وقال الحسن: هما الركعتان قبل صلاة الفجر تطوّعاً. والنجوم هي الكواكب واحدها نجم، ويقال: نجم النبت ونجم القرن والسنّ إلّا أنّه إذا أُطلق أفاد الكواكب. وقرأ ﴿وادبار النجوم﴾ بفتح الهمزة زيد عن يعقوب على أنّه جمع. الباقون بكسرها على المصدر.

---

(١) تفسير الطبري ١١: ٤٩٩.

سورة النجم

هي مكّية، وهي اثنتان وستّون آية في الكوفي وستّون في البصري والمدنيين.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ﴿١٠﴾ عشر آيات بلا خلاف.

[أقول:][1] قوله: ﴿والنجم﴾ قسم من الله تعالى. وقد بيّنّا أنّ الله تعالى له أن يقسم بما يشاء من خلقه، وليس للعباد أن يحلفوا إلاّ به. وقال قوم: معناه وربّ النجم فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه. وفي معنى ﴿النجم﴾ هاهنا ثلاثة أقوال:

أحدها: قال مجاهد: المراد به الثريّا إذا سقطت مع الفجر.

الثاني: في رواية أُخرى عن مجاهد أنّ المراد به القرآن إذا نزل.

---

(١) من الحجريّة.

الثالث: قال الحسن: معناه جماعة النجوم[١]. ﴿إذا هوى﴾ أي إذا سقط يوم القيامة كقوله ـ عزّ وجلّ ـ ﴿وإذا الكواكب انتثرت﴾[٢] وقيل: النجم على طريق الجنس، كما قال الراعي:

وباتت تعدّ النجم في مستحيرة سريع بأيدي الآكلين جمودها[٣]

«مستحيرة» شحمة مذابة صافية في إهالة، لأنّها من شحم سمين.

وقوله: ﴿إذا هوى﴾ قيل: معناه إذا هوى للمغيب، ودلّ على ما فيه من العبرة بتصريف من يملك طلوعه وغروبه، ولا يملك ذلك إلّا الله تعالى[٤]. وقيل: كان القرآن ينزل نجوماً، وبين أوّل نزوله وآخره عشرون سنة، ذكره الفرّاء[٥] وغيره. والنجم هو الخارج عن الشيء بخروج المنتشئ عنه. والهوى ميل الطباع إلى ما فيه الاستمتاع، وهو مقصور وجمعه أهواء، والهواء الّذي هو الجوّ ممدود وجمعه أهوية.

وقوله: ﴿ما ضلّ صاحبكم﴾ يعني النبيّ صلى الله عليه وآله ما ضلّ عن الحقّ ﴿وما غوى﴾ أي وما خاب عن إصابة الرشد، يقال: غوى يغوي غيّاً إذا خاب، وقال الشاعر:

فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره
ومن يغو لا يعدم على الغيّ لائما[٦]

أي من يخب.

﴿وما ينطق عن الهوى﴾ أي ليس ينطق عن الهوى أي بالهوى، يقال: رميت بالقوس وعن القوس. والمعنى: أنّه لا يتكلّم في القرآن وما يؤدّيه

---

(١) النكت والعيون ٥: ٣٨٩.
(٢) الانفطار: ٢.
(٣) مجاز القرآن ٢: ٢٣٥، تفسير الطبري ١١: ٥٠٤.
(٤) النكت والعيون ٥: ٣٩٠.
(٥) معاني القرآن ٣: ٦٤.
(٦) النكت والعيون ٥: ٣٩٠.

إليكم عن الهوى الّذي هو ميل الطبع.

﴿إن هو إلّا وحي يوحى﴾ معناه ليس الّذي يتلوه عليكم من القرآن إلّا وحي أوحاه الله إليه. فالوحي إلقاء المعنى إلى النفس في خفى إلّا أنه صار كالعلَم في ما يلقيه الملَك إلى النبيّ صلى الله عليه وآله من البشر عن الله تعالى، ومنه قوله: ﴿فأوحى إليهم أن سبّحوا بكرة وعشيّاً﴾ (١) وقوله: ﴿وأوحى ربّك إلى النحل﴾ (٢) أي ألهمها مراشدها، وهو راجع إلى ما قلناه من إلقاء المعنى إلى النفس في خفى.

وقوله: ﴿علّمه شديد القوى﴾ في نفسه وعلمه. والقوّة هي القدرة. وقد تستعمل القوّة بمعنى الشدّة الّتي هي صلابة العقد كقوى الحبل.

وقوله: ﴿ذو مرّة﴾ صفة لجبرائيل عليه السلام أي صاحب مرّة، وهي القوّة. وأصل المرّة شدّة الفتل، وهو ظاهر في الحبل الّذي يستمرّ به الفتل حتّى ينتهي إلى ما يصعب به الحلّ. ثمّ تجري المرّة على القدرة، لأنّه يتمكّن بها من الفعل، كما يتمكّن من الفعل بالآلة، فالمرّة والقوّة والشدّة نظائر. وقوله: ﴿فاستوى﴾ معناه استولى بعظم القوّة، فكأنّه استوت له الأُمور بالقوّة على التدبير. ومنه قوله: ﴿استوى على العرش﴾ (٣) أي استولى عليه بالسلطان والقهر. وقال ابن عبّاس وقتادة: معنى ﴿ذو مرّة﴾ ذو صحّة بخلق حسن. وقال مجاهد وسفيان وابن زيد والربيع: ذو قوّة، وهو جبرائيل. والمرّة واحدة المرر، ومنه قوله عليه السلام: «لا تحلّ الصدقة لغنيّ ولا لذي مرّة سويّ» (٤) وقيل ﴿فاستوى﴾ جبرائيل ومحمّد عليهما السلام.

---

(١) مريم: ١١. (٢) النحل: ٦٨.

(٣) الأعراف: ٥٤، يونس: ٣، الرعد: ٢، الفرقان: ٥٩، السجدة: ٤، الحديد: ٤.

(٤) راجع الناصريّات: ٢٨٧، سنن الترمذي ٣: ٤٢ / ٦٥٢.

﴿بالأفق الأعلى﴾ أي سماء الدنيا عند المعراج[١]. وقيل في ﴿هو﴾ قولان:

أحدهما: أنّه مبتدأ وخبره في موضع الحال، وتقديره ذو مرّة فاستوى في حال كونه بالأُفق الأعلى.

الثاني: أنّه معطوف على الضمير في ﴿استوى﴾ وحسن ذلك كي لا يتكرّر ﴿هو﴾ وأنشد الفرّاء:

ألم تر أنّ النبع تصلّب عوده ولا يستوي والخِروَع المتقصَّف[٢]

وقال الزجّاج: لا يجوز عطف «هو» على الضمير من غير تأكيد إلّا في الشعر[٣]. وقال تعالى: ﴿أئذا كنّا تراباً وآباؤنا﴾[٤] فردّ الآباء على المضمر. وقال الربيع: واستوى يعني جبرائيل‌عليه‌السلام ﴿وهو﴾ كناية عنه على هذا. وفي الوجه الأوّل ﴿هو﴾ كناية عن النبيّ‌صلى‌الله‌عليه‌وآله. وقال قتادة: الأُفق الأعلى الّذي يأتي منه النهار. وقيل: هو مطلع الشمس[٥] ﴿شديد القوى﴾ في أمر الله ﴿ذو مرّة﴾ أي ذو قوّة في جسمه. وقيل: فاستوى جبرائيل على صورته الّتي خلقه الله، لأنّ جبرائيل كان يظهر قبل ذلك للنبيّ‌صلى‌الله‌عليه‌وآله في صورة رجل[٦].

وقوله: ﴿ثمّ دنا فتدلّى﴾ قال الحسن وقتادة والربيع: يعني جبرائيل‌عليه‌السلام وفيه تقديم وتأخير والتقدير ثمّ تدلّى فدنا. وقال الزجّاج: معنى دنا وتدلّى واحد، لأنّ المعنى إنّه قرب وتدلّى زاد في القرب[٧] كما يقال: دنا فلان وقرب. والمعنى ثمّ دنا جبرائيل إلى محمّد‌صلى‌الله‌عليه‌وآله فتدلّى إليه من السماء

---

(١) النكت والعيون ٥: ٣٩٢.
(٢) تفسير الطبري ١١: ٥٠٦، معاني القرآن ٣: ٦٥.
(٣) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٧٠.
(٤) النمل: ٦٧.
(٥) النكت والعيون ٥: ٣٩٢.
(٦) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٧٠.
(٧) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٧٠.

﴿فكان قاب قوسين أو أدنى﴾ معناه: كان بينه وبين جبرائيل مقدار قاب قوسين من القسيّ العربيّة أو أقرب بل أقرب منه. وقيل: معنى «أو» في الآية معنى «الواو» كقوله: ﴿وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون﴾[١] ومعناه ويزيدون. وقيل: إنّه رأى جبرائيل عليه السلام في صورته له ستّمائة جناح، في قول ابن مسعود[٢]. ومعنى ﴿قاب قوسين﴾ قدر الوتر من القوس مرّتين ﴿أو أدنى﴾ منه وأقرب.

وقوله: ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ قيل: أوحى جبرائيل إلى عبد الله محمّد ما أوحى[٣]. وقيل: أوحى الله إلى عبده محمّد ما أوحى[٤]. ويحتمل أن يكون «ما» مع مابعدها بمنزلة المصدر، والتقدير فأوحى إلى عبده وحياً. ويحتمل أن يكون بمعنى الّذي، وتقديره فأوحى إلى عبده الّذي أوحى إليه. والمعنى أوحى جبرائيل إلى محمّد ما أوحى إليه ربّه، وهو قول ابن زيد. وقوله: ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾ قال ابن عبّاس: رأى ربّه بقلبه، وهو معنى قوله: ﴿علّمه﴾ وإنّما علم ذلك بالآيات الّتي رآها. وقال ابن مسعود وعائشة وقتادة: رآى محمّد جبرائيل على صورته. وقال الحسن: يعني ما رأى من مقدورات الله تعالى وملكوته. وقال الحسن: عرج بروح محمّد صلى الله عليه وآله إلى السماء وجسده في الأرض. وقال أكثر المفسّرين ـ وهو الظاهر من مذهب أصحابنا والمشهور في أخبارهم ـ إنّ الله تعالى صعّد بجسمه حيّاً سليماً حتّى رأى ملكوت السماوات وما ذكره الله بعيني رأسه، ولم يكن ذلك في المنام بل كان في اليقظة. وقد بيّنّاه في سورة بني إسرائيل.

---

(١) الصافّات: ١٤٧.
(٢) تفسير الطبري ١١: ٥٠٨.
(٣) معاني القرآن ٣: ٦٥.
(٤) تفسير السمرقندي ٩: ١٣٩.

قوله تعالى:

مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَـٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ عشر آيات بلا خلاف.

[أقول:][١] قرأ أهل الكوفة إلّا عاصماً ويعقوب ﴿أفتمرونه﴾ بمعنى أفتجحدونه، وهو قول إبراهيم. وقرأ الباقون ﴿أفتمارونه﴾ بمعنى أفتجادلونه في أنّه رأى ربّه بقلبه أو آيات الله ومعجزاته. وقرأ ابن عامر ـ في رواية هشام ـ وأبي جعفر ﴿ما كذّب﴾ مشدّدة الدال. الباقون بالتخفيف. وقرأ ابن‌كثير والأعشى إلّا ابن غالب ﴿ومنآة﴾ مهموزة ممدودة. الباقون ﴿ومناة﴾ مقصورة، وهما لغتان.

يقول الله تعالى: إنّه لم يكذب فؤاد محمّد ما رآه بعينه، يعني لم يكذب محمّد بذلك بل صدق به والفؤاد القلب. وقال ابن عبّاس: يعني ما رأى بقلبه. وقال الحسن: إنّه رأى ربّه بقلبه. وهذا يرجع إلى معنى العلم. ومعنى ﴿ما كذب الفؤاد﴾ أي ما توهّم أنّه يرى شيئاً وهو لا يراه من جهة تخيّله لمعناه، كالرائي للسراب بتوهّمه ماء ويرى الماء من بعيد فيتوهّمه سراباً. ومن شدّد أراد لم يكذّب فؤاد محمّد ما رأت عيناه من الآيات الباهرات فعدّاه. ومن خفّف فلأنّ في العرب من يعدّي هذه اللفظة مخفّفة، فيقولون: صدقني زيد وكذبني، خفيفاً، و: صدّقني وكذّبني، ثقيلاً. وأُنشد:

وكذبتني وصدقتني والمرؤ ينفعه كذابه[٢]

---

(١) من الحجريّة.

(٢) اللسان: مادّة صدق.

والفرق بين الرؤية في اليقظة وبين الرؤية في المنام أنّ رؤية الشيء في اليقظة إدراكه بالبصر على الحقيقة، ورؤيته في المنام لصورة في القلب على توهّم الإدراك بحاسّة البصر من غير أن يكون كذلك.

وقوله: ﴿أفتمارونه﴾ فمن قرأ ﴿أفتمرونه﴾ أراد أفتجحدونه. ومن قرأ ﴿أفتمارونه﴾ أراد أفتجادلونه وتخاصمونه مأخوذ من المراء، وهو المجادلة، ﴿على ما يرى﴾ يعني على الشيء الّذي يراه.

وقوله: ﴿ولقد رآه نزلة أُخرى﴾ قال عبد الله بن مسعود وعائشة ومجاهد والربيع: رآى محمّدﷺ جبرائيلعليه السلام دفعة أُخرى. وروي أنّه رآه في صورته الّتي خلقه الله عليها مرّتين[١].

وقوله: ﴿عند سدرة المنتهى﴾ قيل: هي شجرة النبق وقيل لها: سدرة المنتهي في السماء السادسة، إليها ينتهي ما يعرج إلى السماء، في قول ابن‌مسعود والضحّاك[٢]. وقيل: لأنّه ينتهي إليها أرواح الشهداء.

وقوله: ﴿عندها جنّة المأوى﴾ معناه عند سدرة المنتهى جنّة المقام وهي جنّة الخلد، وهي في السماء السابعة. وقيل: إنّه يجتمع إليها أرواح الشهداء[٣]. وقال الحسن: جنّة المأوى هي الّتي يصير إليها أهل الجنّة.

وقوله: ﴿إذ يغشى السدرة ما يغشى﴾ معناه يغشى السدرة من النور والبهاء والحسن والصفاء الّذي يروّق الأبصار ما ليس لوصفه منتهى. وقال ابن مسعود ومجاهد، وروي ذلك عن النبيّﷺ أنّه غشي السدرة فراش الذهب. وقال الربيع: غشيها من النور نور الملائكة[٤]. وقوله: ﴿ما يغشى﴾

---

(١) الكشف والبيان ٩: ١٣٩ و١٤٢، تفسير الطبري ١١: ٥١٢. (٢) النكت والعيون ٥: ٣٩٥.
(٣ و٤) راجع تفسير الطبري ١١: ٥١٧ ـ ٥١٨.

أبلغ لفظ في هذا المعنى، والغشيان لباس الشيء ممّا يعمّه. يقال غشيه يغشاه غشياناً.

وقوله: ﴿ما زاغ البصر﴾ أي ما ذهب عن الحقّ المطلوب، و«الزيغ» الذهاب عن الحقّ المطلوب، يقال: زاغ بصره وقلبه يزيغ زيغاً، ومنه قوله: ﴿فلمّا زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ (١) ومنه قوله: ﴿فأمّا الّذين في قلوبهم زيغ فيتّبعون ما تشابه منه﴾ (٢) و«الزيغ» الميل عن الحقّ ﴿وما طغى﴾ معناه ما طغى البصر أي ما ذهب يميناً وشمالاً. وقيل: ما ارتفع كارتفاع الظالم عن الحقّ لمن يريده(٣) والطاغي الّذي لا يلوي على شيء. والطغيان طلب الارتفاع بظلم العباد: طغى يطغي طغياناً. والطاغي والباغي نظائر. وهم الطغاة والبغاة، والمعنى ما زاغ بصر محمّد، وما طغى أي ما جاوز القصد ولا عدل في رؤية جبرائيل، وقد ملأ الأُفق.

وقوله: ﴿لقد رأى من آيات ربّه الكبرى﴾ قسم من الله تعالى أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله رأى من آيات الله ودلائله أكبرها جنّة الخلد وهي في السماء السابعة، وقيل: إنّه يجتمع فيها أرواح الشهداء وهي الكبرى الّتي تصغر عندها الآيات في معنى صفتها. والأكبر هو الّذي يصغر مقدار غيره عنده في معنى صفته. وقيل :رأى رفرفاً أخضر من رفارف الجنّة قد سدّ الأُفق، في قول ابن مسعود(٤).

وقوله: ﴿أفرأيتم اللات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى﴾ أسماء أصنام كانت العرب تعبدها، والعزّى كانت تعبدها غطفان وهي شجرة سمرة عظيمة،

---

(١) الصفّ: ٥.
(٢) آل عمران: ٧.
(٣) راجع تفسير الطبري ١١: ٥١٧ ـ ٥١٨.
(٤) الكشف والبيان ٩: ١٤٤.

واللات صنم كانت ثقيف تعبدها، ومنات كـانت صـخرة عـظيمة لهـذيل وخزاعة كانوا يعبدونها. فقيل لهم: أخبرونا عن هذه الآلهة الّتي تـعبدونها وتعبدون معها الملائكة وتزعمون أنّ الملائكة بنات الله، فوبّخهم الله تعالى فـقال: ﴿أفرأيتم﴾ هـذه ﴿اللات والعزّى ومناة الثالثة الأُخرى﴾ والمـعنى أخبرونا عن هذه الآلهة الّتي تدعونها من دون الله هل لها من هذه الآيات والصفات شيء.

قوله تعالى:

أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَـٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْـَٔاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ خمس آيات بلا خلاف.

[أقول:][1] قرأ أهل مكّة ﴿ضئزى﴾ مـهموز إلّا ابـن فـليح. البـاقون بلا همز.

يقول الله تعالى على وجه الإنكار على كفّار قريش الّذين أضافوا إلى الله تعالى الملائكة بأنّهم بنات الله، فـقال لهـم: كـيف يكـون ذلك وأنـتم لو خيّرتم لاخـترتم الذكـر عـلى الأنـثى، فكـيف تـضيفون إليـه تـعالى ما لاترضون لأنفسكم، فقد أخطأتم في ذلك من وجهين: أحدهما: أنّكـم أضفتم إليه ما يستحيل عليه ولا يليق به، فهو قسم فاسد غير جائز. الثاني: أنّكم أضفتم إليه مالا ترضون لأنفسكم، فكيف ترضونهلله تعالى. وقـيل: إنّما فضّل الذكر على الأنثى، لأنّ الذكر يـصلح لمـا لا تـصلح له الأنـثى

(١) من الحجريّة.

وينتفع به في ما لا ينتفع فيه بالأنثى، ولهذا لم يبعث الله نبيّاً من الإناث.

وقوله: ﴿تلك إذاً قسمة ضيزى﴾ أي تلك قسمة فاسدة غير جائزة بأن تجعلوا لأنفسكم الأفضل ولربّكم الأدون، ولو كان ممّن يجوز عليه الولد لمّا اختار الأدون على الأفضل، كما قال: ﴿لو أراد الله ان يّتخذ ولداً لاصطفى ممّا يخلق ما يشاء﴾ (١) فهذا على تقدير الجواز لا على صحّة الجواز. والضيزة الجائرة الفاسدة، ووزنه «فعلى» إلّا أنّه كسر أوّله لتصحّ الياء من قبل أنّه ليس في كلام العرب «فعلى» صفة، وصفة «فعلى» نحو «حبلى» يحمل على ماله نظير. وأمّا الاسم فإنّه يجيء على «فعلى» كقوله: ﴿فإنّ الذكرى﴾ (٢) ويقول العرب: ضزته حقّه أضيزه وضأزته ـ لغتان ـ إذا أنقضته حقّه ومنعته، ومنهم من يقول: ضُزْته ـ بضمّ الضاد ـ أضوزه، وأنشد أبوعبيدة والأخفش:

فإن تنأعنّا ننتقصك وإن تَغِبْ فسهمك مضؤز وأنفك راغم(٣)

ومنهم من يقول: ضيزى بفتح الضاد، ومنه من يقول ضأزى بالفتح والهمز، ومنهم من يقول: ضؤزى بضمّ الضاد والهمزة. وقال ابن عبّاس وقتادة ﴿قسمة ضيزى﴾ جائرة. وقال سفيان: منقوصة.

ثمّ قال إنّ تسميتكم لهذه الأصنام بأنّها آلهة وللملائكة بأنّها بنات الله ليس ﴿إلّا أسماء سمّيتموها أنتم وآباؤكم﴾ بذلك ﴿ما أنزل الله بها من سلطان﴾ يعني من حجّة ولا برهان ﴿إن يتّبعون﴾ أي ليس يتّبعون في ذلك ﴿إلّا الظنّ﴾ الّذي ليس بعلم ﴿وما تهوى الأنفس﴾ أي وما تميل إليه نفوسكم

---

(١) الزمر: ٤. (٢) الذاريات: ٥٥.

(٣) تفسير الطبري ١١: ٥٢١، هامش مجاز القرآن ٢: ٢٣٧. الشاهد ٨٨٣، معجم تهذيب اللغة ٣: ٢١٤٣، مع اختلاف.

﴿ولقد جاءهم من ربّهم الهدى﴾ عدل عن خطابهم إلى الإخبار عنهم بأنّهم قد جاءهم الهدى يعني الدلالة على الحقّ.

وقوله: ﴿أم للإنسان ما تمنّى﴾ قيل معناه: بل لمحمّد صلى الله عليه وآله ما تمنّى من النبوّة والكرامة[1]. وقيل: التقدير أللإنسان ما تمنّى من غير جزاء؟! لا، ليس الأمر كذلك ﴿فللّه الآخرة والأُولى﴾ يعطي من يشاء ويمنع من يشاء. وقال الجُبّائي: معناه ليس للإنسان ما تمنّى من نعيم الآخرة ونعيم الدنيا، وإنّما المالك لذلك الله تعالى المالك للسماوات والأرض، لا يعطي الكفّار ما يتمنّونه، وإنّما يعطي الثواب من يستحقّه.

قوله تعالى:

وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾.

خمس آيات كوفي وأربع في ما عداه، عدّ الشاميون ﴿فأعرض عن من تولّى﴾ ولم يعدّه الباقون. وعدّ الكوفيّون ﴿من الحقّ شيئاً﴾ ولم يعدّه الباقون وعدّ الكلّ ﴿الحياة الدنيا﴾ إلّا الشاميّون، فإنّهم عدّوا آخر الآية ﴿اهتدى﴾.

[أقول:][2] يقول الله تعالى مخبراً بأنّ كثيراً من ملائكة السماوات ﴿لا تغني شفاعتهم﴾ أي لا تنفع شفاعتهم في غيرهم بإسقاط العقاب عنهم ﴿شيئاً إلّا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء﴾ أن يشفعوا فيه ويطلق لهم ذلك

---

(١) تفسير الطبري ١١: ٥٢٣.

(٢) من الحجريّة.

﴿ويرضى﴾ ذلك. وقيل: إنّ الغرض بذلك الإنكار على عبدة الأوثان وقولهم: إنّها تشفع، لأنّ المَلَك إذا لم تغن شفاعته شيئاً فشفاعة مَن دونه أبعد من ذلك. وفي ذلك التحذير من الاتّكال على الشفاعة، لأنّه إذا لم يغن شفاعة الملائكة كان شفاعة غيرهم أبعد من ذلك[1]. ولا ينافي ما نذهب إليه من أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة والمؤمنين يشفعون في كثير من أصحاب المعاصي، فيسقط عقابهم لمكان شفاعتهم، لأنّ هؤلاء عندنا لا يشفعون إلّا بإذن من الله ورضاه، ومع ذلك يجوز أن لا يشفّعوا فيه فالزجر واقع موقعه.

ثمّ أخبر الله تعالى ﴿إنّ الّذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ أي لا يصدّقون بالبعث ولا بالثواب ولا بالعقاب ﴿يسمّون الملائكة تسمية الأُنثى﴾ قال الحسن: كانوا يسمّون الملائكة بنات الله.

ثمّ قال: ﴿ومالهم به من علم﴾ أي بما يقولونه ويسمّونه ﴿من علم﴾ أي ليسوا عالمين بذلك ﴿إن يتّبعون إلّا الظنّ﴾ أي ليس يتّبعون في قولهم ذلك إلّا الظنّ الّذي يجوز أن يخطئ ويصيب، وليس معهم شيء من العلم.

وقوله: ﴿إنّ الظنّ لا يغني من الحقّ شيئاً﴾ معناه إنّ الظن لا يغني من العلم، لأنّه لابدّ من علم يحسن الفعل حتّى يجوز أن يفعل، وإن كان الظنّ في بعض الأشياء علامة للحسن فما أغنى عن العلم.

ثمّ قال للنبيّ صلى الله عليه وآله: ﴿فأعرض﴾ يا محمّد ﴿عمّن تولّى عن ذكرنا﴾ يعني: عمّن أعرض عن ذكرنا ولم يقرّ بتوحيدنا وجحد نبوّتك ومال إلى الدنيا ومنافعها ﴿ولم يرد إلّا الحياة الدنيا﴾ والتمتّع فيها، أي لا تقابلهم على أفعالهم واحتملهم، ولم ينهه عن تذكيرهم ووعظهم.

---

(١) تفسير الطبري ١١: ٥٢٤.

ثمّ قال: ﴿ذلك مبلغهم من العلم﴾ ومعناه: أنّ علمهم انتهى إلى نفع الدنيا دون نفع الآخرة، وهو صغير حقير في نفع الآخرة، فطلبوا هذا وتركوا ذلك جهلاً به.

ثمّ قال: ﴿إنّ ربّ﴾ يا محمّد ﴿هو أعلم﴾ منك ومن جميع الخلق ﴿بمن ضلّ عن سبيله﴾ أي بمن جار وعدل عن طريق الحقّ الّذي هو سبيله ﴿وهو أعلم بمن اهتدى﴾ إليها فيجازي كلّ واحد على حسب ذلك إن عملوا طاعة أثابهم عليها وإن عملوا معصية عاقبهم عليها.

قوله تعالى:

وَلِلَّهِ مَافِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ خمس آيات.

[أقول:][(١)] قرأ أهل الكوفة إلّا عاصماً ﴿كبير الإثم﴾ على لفظ الواحد. الباقون بلفظ الجمع ﴿كبائر﴾ وقد بيّنّاه في سورة ﴿حم عسق﴾.

هذا إخبار من الله بأنّ له مِلك ﴿ما في السماوات﴾ ومِلك ﴿ما في الأرض﴾ من جميع الأجناس بالحقّ ﴿ليجزى الّذين أساؤا﴾ أي يعاقبهم ﴿بما عملوا﴾ من المعاصي ﴿ويجزي الّذين أحسنوا بالحسنى﴾ أي يثيبهم على طاعاتهم بنعيم الجنّة والخلود فيها.

ثمّ وصف الّذين أحسنوا فقال: هم ﴿الّذين يجتنبون كبائر الإثم﴾ أي

---

(١) من الحجريّة.

عظائم الذنوب ﴿والفواحش﴾. والمعاصي عندنا كلّها كبائر غير أنّ بعضها أكبر من بعض، فقد تكون المعصية كبيرة بالإضافة إلى ما دونها، وقد تكون صغيرة بالإضافة إلى ما هو أكبر منها. و«الفواحش» جمع فاحشة وهي أقبح الذنوب وأفحشها، و«الإساءة» مضرّة يستحقّ بها الذمّ، ولا يستحقّ الذمّ إلّا مسيء، وذمّ من ليس بمسيء قبيح، كذمّ المحسن بالقبيح. و«الإحسان» فعل ما هو نفع في نفسه أو هو سبب للنفع ليستحقّ به الحمد، ولا يستحقّ الحمد إلّا محسن. و«الكبير» من الذنوب هو الّذي يعظم به الزجر إلى حدّ لا يكفّره إلّا التوبة منه، عند من لم يحسن إسقاط العقاب تفضّلاً. والصغير هو الّذي يخفّ فيه الزجر إلى حدّ يصحّ تكفيره من غير توبة، عند من قال بالصغائر.

وقوله: ﴿إلّا اللمم﴾ قال قوم: هو الهمّ بالمعصية من جهة مقاربتها في حديث النفس بها من غير مواقعتها ولا عزم عليها، لأنّ العزم على الكبير كبيرة. ولكن يقرب من مكانها لشهوته لها غير عازم عليها. وقال قوم: ﴿إلّا اللمم﴾ استثناء منقطع، لأنّه ليس من الكبائر ولا الفواحش، كما قال الشاعر:

وبلدة ليس بها أنيس ... إلّا اليعافير وإلّا العيس[١]

واليعفور من الظباء الأحمر، والأعيس الأبيض. وقيل: ﴿اللمم﴾ مقاربة الشيء من غير دخول فيه، يقال: ألمّ بالشيء يلمّ إلماماً إذا قاربه. وقيل: ﴿اللمم﴾ الصغير من الذنوب[٢] كما قال: ﴿ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفّر

(١) معاني القرآن للفرّاء ١: ٢٨٨، تفسير الطبري ١١: ٥٢٦، مجاز القرآن ٢: ٢٣٧.
(٢) تفسير الطبري١١: ٥٢٩، النكت والعيون ٥: ٤٠١.

عنكم سيّئاتكم﴾ [١] ذهب إليه ابن عبّاس وابن مسعود. وقيل: ﴿اللمم﴾ إتيان الشيء من غير إقامة عليه[٢] قال الحسن: هو إصابة الفاحشة من غير إقامة للمبادرة بالتوبة.

ثمّ أخبر عن نفسه تعالى بأنه واسع المغفرة للمذنبين بقوله: ﴿إنّ ربّك﴾ يا محمّد ﴿واسع المغفرة هم أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض﴾ يعني أنشأ أباكم آدم من أديم الأرض. وقال البلخي: يجوز أن يكون المراد به جميع الخلق، من حيث خلقهم الله تعالى من الطبائع الأربعة على حسب ما أجرى العادة من خلق الأشياء عند ضرب من تركيبها، وخلق الحيوان عند تناول أغذية مخصوصة خلقها الله من الأرض، فكأنّه تعالى أنشأهم منها.

وقوله: ﴿وإذ أنتم أجنّة في بطون أمّهاتكم﴾ أي هو أعلم بكم في هذه الأحوال كلّها لم يخف عليه من أحوالكم شيء منها.

ثمّ نهاهم تعالى فقال: ﴿فلاتزكوا أنفسكم﴾ أي لاتعظموها ولا تمدحوها بما ليس لها، فإنّي أعلم بها ﴿هو أعلم بمن اتّقى﴾ معاصيه وفعل طاعاته والفرق بينه وبين من خالفه. وقال قوم: نهاهم أن يزكّوا أنفسهم بفعل الواجبات، وفعل المندوبات[٣] وترك القبائح لأنّه أقرب إلى النسك والخشوع. والأجنّة جمع جنين، وهو الدفين في الشيء. قال الحارث:

ولا شمطاء لم تترك شقاها لها من تسعة إلّا جنينا[٤]

أي إلّا دفيناً في قبره.

ثمّ قال للنبيّ ﷺ: ﴿أفرأيت الّذي تولّى وأعطى قليلاً وأكدى﴾ قال

---

(١) النساء: ٣٠.
(٢) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٧٤.
(٣) معاني القرآن ٣: ١٠٠.
(٤) ديوان عمرو بن كلثوم: ٥٦.

مجاهد: نزلت في الوليد بن المغيرة وكان أعطى قليلاً من ماله لمن يتحمّل عنه العذاب في الآخرة، ثمّ منع ما ضمن له. وقيل: إنّ ﴿الّذي أعطى قليلاً وأكدى﴾ هو المنافق الّذي يعطي قليلاً في المعونة على الجهاد ثمّ يمنع. وقال ابن عبّاس ومجاهد: معنى ﴿وأكدى﴾ قطع العطاء، كما يقطع البئر الماء. واشتقاق ﴿أكدى﴾ من كدية الركيّة، وهي صلابة تمنع الماء إذا بلغ الحافر إليها يئس من الماء، فيقول: بلغنا كديتها، أي صلابتها الّتي تؤيس من الماء. يقال: أكدى يكدي إكداء إذا منع الخير، وكديت أظفاره إذا غلظت، وكديت أصابعه إذا كلّت فلم تعمل شيئاً، وكدى النبت إذا قلّ ريعه، والأصل واحد(١). وقيل: الكدية صخرة يبلغ إليها حافر البئر فلا يمكنه الحفر(٢).

وقوله: ﴿أعنده علم الغيب فهو يرى﴾ إنكار على من ذكره، وهو الّذي تولّى وأعطى قليلاً من ماله ليتحمّل عنه خطأه، فقال ﴿أعنده علم الغيب فهو يرى﴾ أي يعلم صدق الّذي وعده ليتحمّل خطاياه؟!

قوله تعالى:

أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ إحدى عشرة آية بلا خلاف.

[أقول:](٣) لما وبّخ الله تعالى الّذي أعطى قليلاً وأكدى، وبيّن أنّه ليس

---

(١) تفسير الطبري ١١: ٥٣١. (٢) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٧٥. (٣) من الحجريّة.

عنده علم الغيب فيصدق من قال إنّه يتحمّل خطاياه، بيّن أنّ الّذي وعده بذلك ﴿أم لم ينبّأ﴾ أي لم يخبر بما في صحف الأنبياء ولم يعلم ذلك فـ﴿أم﴾ بمعنى «بل» وتقديره بل لم ينبّأ بما في صحف موسى. و«الصحف» جمع صحيفة والمراد هاهنا مكتوب الحكمة، لأنّها كتب الله.

وقوله: ﴿وإبراهيم﴾ أي ولا في صحف إبراهيم ﴿الّذي وفّى﴾ أي وفّى بما يجب عليه لله ـ عزّ وجلّ ـ واستحقّ أن يمدح بهذا المدح. وقال مجاهد: ﴿وإبراهيم الّذي وفّى ألّا تزر وازرة وزر أُخرى﴾ وقيل في رسالة ربّه في هذا أو في غيره، ذكره سعيد بن جبير وقتادة وابن زيد[١] وهو أليق بالعموم. وقوله: ﴿الّذي وفّى﴾ قيل: استحقّ المدح بذبح ولده وإلقائه في النار وتكذيبه في الدعاء إلى الله، فوفّى ما عليه في جميع ذلك[٢].

وقوله: ﴿ألّا تزر وازرة وزر أُخرى﴾ أي بيّن الله تعالى في صحف إبراهيم وموسى أن لا تزر وازرة وزر أُخرى، ومعناه أنّه لا يؤاخذ أحد بذنب غيره، يقال: وزر يزر إذا كسب وزراً، وهو الإثم، فهو وازر.

وقوله: ﴿وأن ليس للإنسان إلّا ما سعى﴾ معناه ليس له من الجزاء إلّا جزاء ما عمل دون ما عمله غيره، ومتى دعا إلى الإيمان من أجاب إليه فهو محمود عليه على طريق التبع كأنّه من أجل عمله صار له الحمد على هذا، ولو لم يعمل شيئاً ما استحقّ شيئاً لا ثواباً ولا عقاباً.

وقوله: ﴿وأنّ سعيه سوف يرى﴾ معناه أنّ ما يفعله الإنسان ويسعى فيه لابدّ أن يرى في ما بعد بمعنى أنّه يجازى عليه إمّا من ثواب أو عقاب، وبيّن ذلك بقوله: ﴿ثمّ يجزاه الجزاء الأوفى﴾ أي يجازى على أعماله

---

(١) تفسير الطبري ١١: ٥٣٢.

(٢) النكت والعيون ٥: ٤٠٣.

الطاعات بأوفى ما يستحقّه من الثواب الدائم، والهاء في «يجزاه» عائدة على السعي.

وقوله: ﴿وأنّ إلى ربّك المنتهى﴾ معناه: وأنّ إلى ثواب ربّك وعقابه آخر الأُمور. و«المنتهى» هو المصير إلى وقت بعد الحال الأُولى عن حال مثلها، فللتكليف منتهى، وليس للجزاء في دار الآخرة منتهى. و«المنتهى» قطع العمل إلى حال أُخرى، والمنتهى والآخر واحد.

وقوله: ﴿وأنّه هو أضحك وأبكى﴾ قيل أضحك بأن فعل سبب ذلك من السرور والحزن، كما يقال أضحكني فلان وأبكاني إذا كان سبّب ذلك بما يقع عنده ضحكي وبكائي، فعلى هذا الضحك والبكاء من فعل الإنسان[١]. وقد قال الله تعالى: ﴿فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً﴾[٢] ولو لم يكن من فعلنا لما حسن ذلك. وقال تعالى: ﴿أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون﴾[٣] وقال: ﴿فاليوم الّذين آمنوا من الكفّار يضحكون﴾[٤] فنسب الضحك إليهم. وقال الحسن: الله تعالى هو الخالق للضحك والبكاء. و«الضحك» تفتّح أسرار الوجه عن سرور وعجب في القلب، فإذا هجم على الإنسان منه مالا يمكنه دفعه فهو من فعل الله الّذي أضحك وأبكى. و«البكاء» جريان الدموع على الخدّ عن غمّ في القلب، وإنّما يبكى الإنسان عن فرح يمازجه تذكّر حزن، فكأنّه عن رقّة في القلب يغلب عليها الغمّ.

وقوله: ﴿إنّه أمات وأحيا﴾ معناه: أنّه تعالى الّذي يخلق الموت فيميت به الأحياء لا يقدر على الموت غيره، لأنّه لو قدر على الموت غيره لقدر

---

(١) النكت والعيون ٥: ٤٠٤.
(٢) التوبة: ٨٢.
(٣) النجم: ٦٠.
(٤) المطفّفين: ٣٤.

على الحياة، لأنّ القادر على الشيء قادر على ضدّه، ولا أحد يقدر على الحياة إلّا الله.

وقوله: ﴿وأحيا﴾ أي هو الّذي يقدر على الحياة الّتي يحيي بها الحيوان لا يقدر عليها غيره من جميع المحدثات.

ثمّ بيّن أيضاً ﴿أنّه﴾ الّذي ﴿خلق الزوجين الذكر﴾ منهما ﴿والأُنثى من نطفة﴾ أي خلق الذكر والأُنثى من النطفة، وهي ماء الرجل والمرأة الّتي يخلق منها الولد ﴿إذا تمنى﴾ يعني إذا خرج المني منهما وجعل في الرحم خلق الله تعالى منها الولد إمّا ذكراً وإمّا أُنثى. ومعنى «تمنى» أي تلقى على تقدير في رحم الأُنثى، وأصله التقدير يقولون: منى يمني فهو مان إذا قدّر. قال الشاعر:

حتّى تبيّن ما يمنى لك الماني[١]

أي يقدّر ومنه التمنّي تقدير المعنى للاستمتاع به.

قوله تعالى:

وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ تسع آيات بلا خلاف.

[أقول:][٢] قرأ أهل البصرة غير سهل ﴿عاد لُّولىٰ﴾ مدغمة بلا همز، وعن نافع خلاف فإنّه أدغم وترك الهمزة إلّا قالون، فإنّه همز. الباقون بالهمز والإظهار. من أدغم ألقى حركة الهمزة على اللام، فانضمّت ثمّ

---

(١) مرّ في ٢: ٣٤٦، أمالي المرتضى ١: ٣٦٨.

(٢) من الحجريّة.

سكنها وحذف همزة الوصل، ولقيتها النون فأُدغمت في اللام، ونظير ذلك قول العرب : قم لان عنّا، يريدون قم الآن عنّا. وقولهم: صم لاثنين أي صم الاثنين. الباقون تركوه على حاله. وقرأ حمزة وحفص عن عاصم ﴿وثمود﴾ بلا تنوين. الباقون بتنوين. قال الفرّاء: وقوله ﴿وآتينا ثمود الناقة﴾[١] ترك إجرائها لأنّه ليس فيها ألف[٢].

لمّا بيّن الله تعالى أنّه هو الّذي يخلق الذكر والأُنثى من النطفة إذا تمنى ذكر ﴿وأنّ عليه النشأة الأُخرى﴾ وهي البعثة يوم القيامة، والنشأة الصنعة المخترعة خلاف المسبّبة، وهما نشأتان: الأُولى في الدنيا، والثانية في الآخرة.

ثمّ قال: ﴿وأنّه هو أغنى وأقنى﴾ ومعناه أغنى بالمال وأقنى بأُصول الأموال. وقال مجاهد: أقنى أي أخدم. وقال الزجّاج: ومعناه أغنى بعد الفقر وأقنى بالمال الّذي يقتنى[٣]. وقيل: معنى «أقنى» أنّه جعل له أصل مال، وهو القنية الّتي جعلها الله للعبد، فأمّا «اغنى» فقد يكون بالعافية والقوّة والمعرفة، قال الأعشى:

فأقنيت قوماً وأعمرتهم ... وأُخربت من أرض قوم ديارا[٤]

أي جعل لهم قنية. وأصل «أقنى» الاقتناء، وهو جعل الشيء للنفس على اللزوم، فمنه القناة لأنّها ممّا يقتنى، ومن ذلك أقنى الأنف لأنّه كالقناة في ارتفاع وسطه ودقّة طريقه. والقنو العذق قبل أن يبلغ لأنّه كالّذي يقتنى في اللزوم حتّى يبلغ، والمقاناة المشاكلة في اللون.

---

(١) الإسراء: ٥٩.
(٢) معاني القرآن ٣: ١٠٢.
(٣) راجع معاني القرآن وإعرابه ٥: ٧٦.
(٤) شرح ديوان الأعشى: ٨٤. مع اختلاف.

وقوله: ﴿وأنّه هو ربّ الشعرى﴾ معناه: وأنّ الله الّذي خلق الشعرى اخترعها. والشعرى النجم الّذي خلف الجوزاء وهو أحد كوكبي ذراع الأسد وقم المرزم[١]، وكانوا يعبدونهما في الجاهليّة في قول مجاهد وقتادة.

ثمّ قال: ﴿وأنّه أهلك عاداً الأولى﴾ قيل: هو عاد بن إرم، وهم الّذين أهلكهم الله بريح صرصر عاتية. وعاد الآخرة أُهلكوا ببغي بعضهم على بعض فتفاتوا بالقتل، ذكره ابن إسحاق. وقال الحسن: الأُولى أي قبلكم. وإنّما فتحت «أنّ» في المواضع كلّها، لأنّها عطف على قوله: ﴿أم لم ينبّأ بما في صحف موسى وإبراهيم الّذي وفّى أن لا تزر وازرة وزر أُخرى﴾ وبكذا وكذا، فلمّا حذف الباء نصبه. وقوله: ﴿وثمود فما أبقى﴾ نصب بـ«أهلك» الّذي قبله، وتقديره وأهلك ثموداً فما أبقى. ولا يجوز أن يكون منصوباً بقوله: «فما أبقى» لأنّ «ما» لا تعمل ما بعدها في ما قبلها، لا تقول: زيداً ما ضربت، لأنّها من الحروف الّتي لها صدر الكلام، كألف الاستفهام.

وقوله: ﴿وقوم نوح من قبل﴾ معناه: وأهلكنا قوم نوح من قبل قوم صالح ﴿إنّهم كانوا هم أظلم وأطغى﴾ فالأظلم الأعظم ظلماً، والأطغى الأعظم طغياناً. فالظلم يتعاظم كما يتعاظم الضرر، وعظم الظلم بحسب عظم الزاجر عنه. وقيل: مكث نوح في قومه يدعوهم إلى الله وكلّما دعاهم فما يزدادون إلّا تتابعاً في الضلال وتواصياً بالتكذيب لأمر الله، في قول قتادة.

وقوله: ﴿والمؤتفكة﴾ يعني المنقلبة، وهي الّتي صار أعلاها أسفلها، وأسفلها أعلاها ائتفكت بهم تؤتفك ائتفاكاً، ومنه الإفك الكذب، لأنّه قلب

(١) كذا، ويحتمل فم المرزم كما أثبته بعض محشّي مجمع البيان.

المعنى عن وجهه. ومعنى: ﴿أهوى﴾ نزل بها في الهُويّ، ومنه الهَويّ: أهوى بيده ليأخذ كذا، وهوى هواء إذا نزل في الهواء ، فأمّا إذا نزل في سلّم أو درجة، فلا يقال: أهوى، ولا هوى. وقيل: قرية سدوم: قوم لوط، رفعها جبرائيل إلى السماء ثمّ أهوى بها قالباً لها، في قول مجاهد وقتادة[١].

وقوله: ﴿فغشّاها ما غشّى﴾ يعني من الحجارة المسوّمة الّتي رُموا بها من السماء، في قول قتادة وابن زيد. والمعنى فجلّلها من العذاب ما يعمّها حتّى أتى عليها ﴿ما غشّى﴾ وفيه تفخيم شأن العذاب الّذي رماها به ونالها من جهة إبهامه في قوله: ﴿ما غشّى﴾ كأنّه قد جلّ الأمر عن أن يحتاج إلى تفصيل وصفه.

وقوله: ﴿فبأيّ آلاء ربك تتمارى﴾ معناه: بأيّ نعم ربّك ترتاب يابن آدم! ذكره قتادة. وإنّما قيل بعد تعديد النعم: ﴿فبأيّ آلاء ربّك تتمارى﴾ لأنّ النقم الّتي عدّدت على مَن ذكر نعم من الله علينا لما لنا في ذلك من اللطف في الانزجار عن القبيح مع أنّه نالهم ما نالهم بكفرهم النعم فبأيّ نعم ربّك أيّها المخاطب تتمارى حتّى تكون مقارناً لهم في سلوك بعض مسالكهم، أي فما بقيت لك شبهة بعد تلك الأهوال في جحد نعمه.

قوله تعالى:

هَـٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَـٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴿٦٢﴾ سبع آيات بلا خلاف.

[أقول:][٢] قوله: ﴿هذا نذير﴾ إشارة إلى رسول الله ﷺ في قول قتادة.

(١) تفسير الطبري ١١: ٥٣٨.

(٢) من الحجريّة.

وقال أبو مالك: هـو إشـارة إلى القـرآن ﴿من النذر الأُولى﴾ فـي صحف إبراهيم وموسى.

يقول الله تعالى: ﴿هذا﴾ يعني محمّداً ﴿نذير﴾ أي مبيّن لما يـنبغي أن يحاذر منه وما ينبغي أن يرغب فيه بأحسن البـيان، وهـذه صـفة رسـل الله عليهم السلام. والنبيّ أحسن الناس إنذاراً وأكرمهم إبلاغاً لما أمر الله بتبليغه إلى أُمّته. وقوله: ﴿من النذر الأُولى﴾ من جملة الرسل الّذين بعثهم الله، وإن كان هو آخرهم، كما تقول: هو من بني آدم، وإن كان أحدهم.

وقوله: ﴿أزفت الآزفة﴾ معناه: دنت القيامة، وهي الدانية. قال النـابغة الذبياني:

أزف الترحّل غير أنّ ركـابنا لمّا تزُل بِرِحَالِنا وكأن قد[1]

وقال كعب بن زهير:

بانّ الشباب وأمسى الشـيب قـد أزِفـا

ولا أرى لشـــباب ذاهب خَـلَفا[2]

وإنّما سمّيت القيامة آزفة، وهي الدانية، لأنّ كلّ آت قريب، فالقيامة قد قربت بالإضافة إلى ما مضى من المدّة من لدن خلق الله الدنيا.

وقوله: ﴿ليس لها من دون الله كاشفة﴾ معناه: لا يقدر أن يقيمها إلّا الله وحده، وليس يجلّي عنها ويكشف عنها سواه. وقيل: كـاشفة أي جـامعة كاشفة أي نفس كاشفة، ويجوز أن يكون مصدراً مـثل العـافية والعـاقبة والواقية، فيكون المعنى ليس لها من دون الله كشف أي ذهاب، أي لا يقدر

(١) ديوان النابغة: ١٤٣، تفسير الطبري ١١: ٥٤٠.
(٢) تفسير الطبري ١١: ٥٤١، ديوان كعب بن زهير: ٥٢.

أحد غير الله على ردّها. وقال الحسن: هو مثل قوله: ﴿لا يجلّيها لوقتها إلّا هو﴾[١] وقيل: كاشفة بمعنى الانكشاف كقوله: ﴿ليس لوقعتها كاذبة﴾[٢] ومثله ﴿ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلّا قليلاً منهم﴾[٣] أي خيانة[٤]. والسامد اللاهي، يقال دع عنك سمودك أي أمرك، وكأنه المستمرّ في اللهو، يقال: سمد يسمد سموداً فهو سامد، وقال الشاعر:

قيل قم فانظر إليهم ثمّ دع عنك السمودا[٥]

ويقال للجارية: اسمدي لنا أي غنّي.

وقوله: ﴿فاسجدوا لله واعبدوا﴾ أمر من الله تعالى بالسجود له والصلاة وأن يعبدوه خالصاً مخلصاً لا يشركون به أحداً في العبادة، فتعالى الله عن ذلك. وفي الآية دلالة على أنّ السجود هاهنا فرض على ما يذهب إليه أصحابنا، لأنّ الأمر يقتضي الوجوب.

---

(١) الأعراف: ١٨٧.

(٢) الواقعة: ٢.

(٣) المائدة: ١٣.

(٤) تفسير الطبري ١١: ٥٤١.

(٥) معجم تهذيب اللغة ٢: ١٧٥٠. مادّة «سمد».

سورة القمر

مكّية بلا خلاف. وهي خمس وخمسون آية بلا خلاف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ خمس آيات بلا خلاف.

[أقول:][1] قرأ أبو جعفر ﴿وكلّ أمر مستقرّ﴾ بالجرّ صفة لـ«أمر». الباقون بالرفع على أنّه خبر «كلّ».

هذا إخبار من الله تعالى بدنوّ الساعة وقرب أوانها، فقوله: ﴿اقتربت﴾ أي دنت وقربت. وفي «اقتربت» مبالغة، كما أنّ في «اقتدر» مبالغة على القدرة، لأنّ أصل «افتعل» طلب إعداد المعنى بالمبالغة نحو «اشتوى» إذا أتّخذ شوى في المبالغة في اتّخاذه، وكذلك «اتّخذ» من «أُخذ». والساعة القيامة. وقال الطبري: تقديره اقتربت الساعة الّتي يكون فيها القيامة[2]. وجعل الله تعالى من علامات دنوّها انشقاق القمر المذكور معها، وفي الآية

(١) من الحجريّة.

(٢) تفسير الطبري ١١: ٥٤٤.

تقديم وتأخير، وتقديره انشقّ القمر واقتربت الساعة. ومن أنكر انشقاق القمر وأنّه كان، وحمل الآية على كونه في ما بعد ـ كالحسن البصري وغيره، واختاره البلخي ـ فقد ترك ظاهر القرآن، لأنّ قوله: ﴿انشقّ﴾ يفيد الماضي، وحمله على الاستقبال مجاز. وقد روى انشقاق القمر عبد الله بن مسعود وأنس بن مالك وابن عمر وحذيفة وابن عبّاس وجبير بن مطعم ومجاهد وإبراهيم. وقد أجمع المسلمون عليه ولا يعتدّ بخلاف من خالف فيه لشذوذه، لأنّ القول به اشتهر بين الصحابة فلم ينكره أحد، فدلّ على صحّته، وأنّهم أجمعوا عليه فخلاف من خالف في ما بعد لا يلتفت إليه. ومن طعن في انشقاق القمر بأنّه لو كان لم يخْفَ على أهل الأقطار فقد أبعد، لأنّه يجوز أن يحجبه الله عنهم بغيم، ولأنّه كان ليلاً فيجوز أن يكون الناس كانوا نياماً فلم يعلموا به، لأنّه لم يستمرّ لزمان طويل بل رجع فالتأم في الحال، فالمعجزة تمّت بذلك.

وقوله: ﴿وإن يروا آية﴾ احتمل أن يكون إخباراً من الله تعالى عن عناد كفّار قريش بأنّهم متى رأوا معجزة باهرة وحجّة واضحة أعرضوا عن تأمّلها والانقياد لصحّتها عناداً وحسداً، وقالوا: هو ﴿سحر مستمرّ﴾ أي يشبه بعضه بعضاً. وقيل: ﴿سحر مستمرّ﴾ من الأرض إلى السماء. وقال مجاهد وقتادة: معناه ذاهب مضمحلّ. وقال قوم: معناه شديد من إمرار الحبل، وهو شدّة فتله[١].

وقوله ﴿وكذّبوا﴾ يعني بالآية الّتي شاهدوها ولم يعترفوا بصحّتها ولا تصديق من ظهرت على يده ﴿واتّبعوا﴾ في ذلك ﴿أهواءهم﴾ يعني

(١) النكت والعيون ٥: ٤١٠.

ما تميل طبائعهم إليه، فالهوى رقّة القلب بميل الطباع كرقّة هـواء الجـوّ، تقول: هوى يهوي هواً، فهو هاوٍ إذا ما طبعه إلى الشيء، وهو هوى النفس مقصور، فأمّا هواء الجوّ فممدود ويجمع على أهـوية. وهـوى يـهوي إذا انحدر في الهواء، والمصدر الهُويّ، والاسم الهاوي.

وقوله: ﴿وكل أمر مستقرّ﴾ معناه: كلّ أمر من خير أو شرّ مستقرّ ثابت حتّى يجازى به إمّا الجنّة أو النار، ذكره قتادة. ثمّ قال: ﴿ولقد جاءهم﴾ يعني هؤلاء الكفّار ﴿من الأنباء﴾ يعني الأخبار العظيمة بكفر من تقدّم من الأُمم وإهلاكنا إيّاهم الّتي يتّعظ بها ﴿ما فيه مزدجَر﴾ يعني متّعظ، وهو مفتعَل من الزجر إلّا أنّ التاء أُبدلت دالاً لتوافق الراء بالجهر مع الدال لتعديل الحروف فيتلاءم ولا يتنافر.

وقوله: ﴿حكمة بالغة﴾ معناه: نهاية في الصواب، وغـاية فـي الزجـر بهؤلاء الكفّار. وقوله: ﴿فما تغنى النذر﴾ يجوز في «ما» وجهان:

أحدهما: الجحد، ويكون التقدير: لا يغني التخويف.

والثاني: أن تكون بمعنى «أيّ» وتقديره أيّ شيء يغني الإنذار. والنذر جمع نذير. وقال الجبّائي: معناه: إنّ الأنبياء الّذين بعثوا إليـهم لا يـغنون عنهم شيئاً من عذاب الآخرة الّذي استحقّوه بكـفرهم، لأنّـهم خـالفوهم ولم يقبلوا منهم.

قوله تعالى:

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ

أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾ خمس آيات.

[أقول:][١] قرأ ﴿خشّعاً﴾ على الجمع أهل العراق إلّا عاصماً، الباقون ﴿خاشعاً﴾ على وزن «فاعل» ونصبوه على الحال. ومن قرأ ﴿خاشعاً﴾ بلفظ الواحد، فلتقدّم الفعل على الفاعل. وقرأ ابن كثير وحده ﴿نكر﴾ بسكون الكاف. الباقون بالتثقيل، وهما لغتان. وقال أبو عليّ النحوي: النكر أحد الحروف الّتي جاءت على (فُعُل، وفُعْل) وهو صفة. وعلى ذلك حمله سيبويه واستشهد بالآية[٢]. ومثله ناقة احد ومشية سجح. ومن خفّف جعله مثل رُسْل رسُل وكتْب وكتُب، والضمّة في تقدير الثبات.

لمّا حكى الله تعالى عن الكفّار أنّه ليس ينفع في وعظهم وزجرهم الحكمة البالغة ولا يغني النذر أمر النبيّ بالإعراض عنهم وترك مقابلتهم على سفههم، فقال: ﴿فتولّ عنهم﴾ أي أعرض عنهم ﴿يوم يدع الداع إلى شيء نكر﴾ قيل في معناه أقوال:

أحدها: قال الحسن: فتولّى عنهم إلى يوم يدعو الداعي.

والثاني: فتولّ عنهم واذكر يوم يدع الداعي إلى شيء نكر، يعني لم يروا مثله قطّ فينكرونه استعظاماً له.

الثالث: أنّ المعنى فتولّ عنهم، فإنّهم يرون ما ينزل بهم من العذاب يوم يدعو الداعي وهو يوم القيامة، فحذف الفاء من جواب الأمر. والداعي هو الّذي يطلب من غيره فعلاً. ونقيضه الصارف، وهو الطالب من غيره أن لا يفعل بمنزلة الناطق بأن لا يفعل، تقول: دعا يدعو دعاء فهو داعٍ وذاك مدعوّ. والنكر: هو الّذي تأباه من جهة نفور الطبع، وهو صفة على وزن

---

(١) من الحجريّة.

(٢) كتاب سيبويه ٤: ٢٤٤.

فُعُل، ونظيره رجل جُنُب وأرض جُرُز، وهو من الإنكار نقيض الإقرار، لأنّ النفس لا تقرّ بقبوله، وإنّما وصف بأنّه نكر لغلظه على النفس، وإنّهم لم يروا مثله شدّة وهؤلاء كأنّهم ينكرونه لما قبح في عقولهم.

وقوله: ﴿خاشعاً أبصارهم﴾ فمعنى الخاشع الخاضع، خشع يخشَع خشوعاً، فهو خاشع، والجمع خُشّع، ويخشع الرجل إذا نسك، وخاشعاً حال مقدّمة والعامل فيها ﴿يخرجون﴾ وقيل: ﴿خاشعاً أبصارهم﴾ لتقدّم الصفة على الاسم، كما قال الشاعر:

وشباب حسن أوجُههم ... من أياد بن نزار بن مَعَد[1]

وقال آخر:

ترى الفجاج بها الركبان معترضا

أعناق بزّلها مُرخَى لها الجُدُل[2]

والجديل هو الزمام، ولم يقل مرخيات ولا معترضات ﴿يخرجون من الأجداث﴾ يعني من القبور واحدها جدث وحدف أيضاً لغة، واللحد جانب القبر وأصله الميل عن الاستواء ﴿كأنّهم جراد منتشر﴾ أي من جراد منتشر من كثرتهم.

وقوله: ﴿مهطعين إلى الداعي﴾ قال الفرّاء وأبو عبيدة: مسرعين[3]. وقال قتادة: معناه: عامدين بالإهطاع، والإهطاع الإسراع في المشي، يقال: أهطع يهطع إهطاعاً، فهو مهطع، فهؤلاء الكفّار يهطعون إلى الداعي بالإلجاء والإكراه والإذلال. ووصفت الأبصار بالخشوع، لأنّ ذلّة الذليل وعزّة

(١ و٢) معاني القرآن ٣: ١٠٥، تفسير الطبري ١١: ٥٥٠، الكشف والبيان ٩: ١٦٣، مع اختلاف.
(٣) مجاز القرآن ٢: ٢٤٠.

العزيز تتبيّن في نظره[١] ﴿يقول الكافرون هذا يوم عسر﴾ حكاية ما يقوله الكفّار يوم القيامة بأنّه يوم عسر شديد عليهم.

ثمّ قال مثل ما كذّبك يا محمّد هؤلاء الكفّار وجحدوا نبوّتك ﴿كذّبت قبلهم قوم نوح فكذّبوا عبدنا﴾ يعني نوحاً عليه السلام ﴿وقالوا مجنون﴾ أي هو مجنون قد غطي على عقله فزال بآفة تعتريه ﴿وازدجر﴾ قال ابن زيد: معناه: زجر بالشتم والرمي بالقبيح[٢]. وقال غيره: ازدجر بالوعيد، لأنّهم توعّدوه بالقتل في قوله: ﴿لئن لم تنته يا نوح لتكوننّ من المرجومين﴾[٣] ﴿فدعا﴾ عند ذلك ﴿ربّه﴾ فقال: يا ربّ ﴿إنّي مغلوب﴾ قد غلبني هؤلاء الكفّار بالقهر لا بالحجّة ﴿فانتصر﴾ منهم بالإهلاك والدمار نصرة لدينك ونبيّك. وقال مجاهد: معنى «ازدجر» استطار واستفزّ جنوناً.

قوله تعالى:

فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَـٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَـٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ ستّ آيات بلا خلاف.

[أقول:][٤] قرأ ابن عامر ﴿ففتّحنا﴾ بالتشديد أي مرّة بعد مرّة وشيئاً بعد شيء، لأنّه كثر ودام لمّا فار التنّور وانهمرت الأرض والسماء بالماء. الباقون بالتخفيف لأنّه يأتي على القليل والكثير، وفي الكلام حذف، وتقديره أنّ نوحاً عليه السلام لمّا دعا ربّه فقال: إنّي مغلوب فانتصر يا ربّ

(١ و٢) تفسير الطبري ١١: ٤٤٩ و٥٥١.

(٣) الشعراء: ١١٦، راجع الكشف والبيان ٩: ١٦٣.

(٤) من الحجريّة.

وأهلِكْهم، فأجاب الله دعاءه وفتح أبواب السماء بالماء، ومعناه أجرى الماء من السماء، فجريانه إنّما فتح عنه باب كان مانعاً له، وذلك من صنع الله الّذي لا يقدر عليه سواه. وجاء ذلك على طريق البلاغة. والماء المنهمر هو المنصبّ الكثير، قال امرؤ القيس:

راح تمرّ به الصبا ثمّ انتحى فيه شؤبوب جنوب منهمر[(١)]

أي منصبّ مندفق، انهمر ينهمر انهماراً، وفلان ينهمر في كلامه، كأنّه يتدفّع فيه مع كثرته.

وقوله: ﴿وفجّرنا الأرض عيوناً﴾ فالتفجير تشقيق الأرض عن الماء، ومنه انفجر العرق وانفجر السكر، ومنه قوله: ﴿وفجّرنا خلالهما نهراً﴾[(٢)] وعيون الماء واحدها عين، وهو ماء يفور من الأرض مستدير كاستدارة عين الحيوان، والعين مشتركة بين عين الحيوان وعين الماء وعين الميزان وعين الذهب وعين السحابة وعين الركبة ﴿فالتقى الماء على أمر قد قدر﴾ معناه: أنّ المياه كانت تجري من السماء ومن الأرض على ما أمر الله به وأراده وقدّره. وإنّما قال: ﴿فالتقى الماء﴾ والمراد به ماء السماء وماء الأرض، ولم يثنّ، لأنّه اسم جنس يقع على القليل والكثير ﴿على أمر قد قدر﴾ فيه هلاك القوم في اللوح المحفوظ. وقيل: معناه: إنّه كان قدر ماء السماء مثل ما قدر ماء الأرض[(٣)].

ثمّ قال تعالى: ﴿وحملناه﴾ يعني نوحاً ﴿على ذات ألواح ودسر﴾ يعني السفينة ذات ألواح مركبة بعضها إلى بعض. و«الدسر» هي المسامير الّتي

---

(١) ديوان إمرئ القيس: ١٠٦، تفسير الطبري ١١: ٥٥١، النكت والعيون ٥: ٤١٢.

(٢) الكهف: ٣٣.

(٣) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٨٧، النكت والعيون ٥: ٤١٢.

تشدّ بها السفينة ـ في قول ابن عبّاس وقتادة وابن زيد ـ واحدها دسار ودسير، ودسرت السفينة أدسرها دسيراً إذا شددتها بالمسامير أو نحوها. وقيل: الدسر صدر السفينة تدسر به الماء أي تدفع، عن الحسن. وقال مجاهد: الدسر أضلاع السفينة. وقال الضحّاك: الدسر طرفاها وأصلها. وقال الزجّاج: الدسر المسامير والشرط الّتي تشدّ بها الألواح[1].

وقوله: ﴿تجري بأعيننا﴾ معناه تجري السفينة بمرأى منّا، ونحن ندركها. وقيل: أعين الماء الّتي أنبعناها. وقيل: تجري بأعين أوليائنا والموكّلين بها من الملائكة.

وقوله: ﴿جزاء لمن كان كفر﴾ أي كفر به وهو نوح أي لكفرهم به، كأنّه قال غرقناهم لأجل كفرهم بنوح. وقيل: جزاء لنوح وأصحابه أي نجّيناه ومن آمن معه لما صنع به، وكفر فيه بالله.

وقوله: ﴿ولقد تركناها آية﴾ يعني السفينة تركناها دلالة باهرة ﴿فهل من مدّكر﴾ بها ومتّعظ بسببها فيعلم أنّ الّذي قدرَ على ذلك لا يكون من قبيل الأجسام وأنّه لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء. وقال قتادة: أبقى الله تعالى سفينة نوح حتّى أدركها أوائل هذه الأُمّة، فكان ذلك آية. ومدّكر أصله مذتكر، فقلبت التاء دالاً لتواخي الدال بالجهر ثمّ اُدغمت الدال فيها. وقيل: وجه كونها آية انّها كانت تجري بين ماء الأرض وماء السماء، وكان قد غطّاها على ماء أمره الله تعالى به. وقوله: ﴿فهل من مدّكر﴾ قد بيّنّا معناه. وقال قتادة: معناه فهل من طالب علم فيعان عليه.

وقوله: ﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾ تهديد للكفّار وتنبيه لهم على عظم

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٨٨، النكت والعيون ٥: ٤١٣.

ما فعله بأمثالهم من الكفّار الجاحدين لتوحيده. وإنّما كرّر ﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾ لأنّه لمّا ذكر أنواع الإنذار والعذاب انعقد التذكير لشيء شيء منه على التفصيل. والنذر جمع نذير في قول الحسن، قال: وتكذيب بعضهم تكذيب لجميعهم. وقال الفرّاء: هو مصدر، ومنه ﴿عذْراً أو نذْراً﴾[١] مخفّفة ومثقّلة و ﴿إلى شيء نكر﴾[٢] ويقال: أنذره نذراً بمعنى إنذاراً مثل أنزله نزلاً بمعنى إنزالاً.

قوله تعالى:

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ خمس آيات بلا خلاف.

[أقول:][٣] أقسم الله تعالى بأنّه يسّر القرآن للذكر، والتيسير للشيء هو تسهيله، وأخذه بما ليس فيه كثير مشقّة على النفس، فمن سهل له طريق العلم فهو حقيق بالحظّ الجزيل منه، لأنّ التيسير أكبر داع إليه. وتسهيل القرآن للذكر خفّة ذلك على النفس لحسن البيان وظهور البرهان في الحكم السنيّة والمعاني الصحيحة الموثوق بها لمجيئها من الله تعالى. وإنّما صار الذكر من أجل ما يدعى إليه ويحثّ عليه، لأنّه طريق العلم، لأنّ الساهي عن الشيء أو عن دليله لا يجوز أن يعلمه في حال شهوة، فإذا تذكّر الدلائل عليه والطريق المؤدّية إليه فقد تعرّض لعلمه من الوجه الّذي ينبغي له.

---

(١) المرسلات: ٦. (٢) معاني القرآن ٣: ١٠٧. (٣) من الحجريّة.

وقوله: ﴿فهل من مدّكر﴾ معناه: فهل من متّعظ معتبر بذلك ناظر فيه.

ثمّ قال: ﴿كذّبت عاد﴾ يعني بالرسول الّذي بعثه إليهم، وهو هود عليه السلام فاستحقّوا الهلاك فأهلكهم الله ﴿فكيف كان عذابي﴾ لهم و ﴿نذر﴾ أي وإنذاري إيّاهم.

ثمّ بيّن كيفيّة إهلاكهم فقال: ﴿إنّا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً﴾ وهي الشديدة الهبوب حتّى يسمع في صوتها صرير، وهو مضاعف صرّ مثل كبّ وكبكب ونهّه ونَهْنَهه. وقال ابن عبّاس وقتادة والضحّاك: كانت ريحاً باردة. وقال ابن زيد وسفيان: كانت شديدة.

وقوله: ﴿في يوم نحس﴾ يعني يوم شؤم، في قول قتادة ﴿مستمرّ﴾ أي استمرّ بهم العذاب إلى نار جهنّم، في قول قتادة.

وقوله: ﴿تنزع الناس كأنّهم أعجاز نخل منقعر﴾ معناه: تقتلع هذه الريح الناس ثمّ ترمي بهم على رؤوسهم فتدقّ رقابهم فيصيرون كأنّهم أعجاز نخل، لأنّ رؤوسهم سقطت عن أبدانهم، في قول مجاهد. وقيل: استمرّت بهم الريح سبع ليال وثمانية أيّام حتّى أتت عليهم شيئاً بعد شيء. وقيل: ﴿تنزع الناس﴾ من حفر حفروها ليمتنعوا بها من الريح. وقال الحسن: فيه إضمار تقديره تنزع أرواح الناس، وأعجاز النخل أسافله. والنخل يذكّر ويؤنّث، والمنقعر المنقلع من أصله، لأنّ قعر الشيء قراره المستقلّ منه، فلهذا قيل للمنقطع من أصله: منقعر، يقال: انقعر انقعاراً، وقعّره تقعيراً، وتقعّر في كلامه تقعّراً إذا تعمّق.

﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾ تعظيم للعذاب النازل بهم. والإنذار في الآية هو الّذي تقدّم إليهم به. وفائدة الآية التحذير من مثل سببه لئلّا يقع

بالمحذَّر مثل موجَبه.

قوله تعالى:

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ تسع آيات بلا خلاف.

[أقول:](١) قرأ ﴿ستعلمون﴾ بالتاء أهل الشام وحمزة على الخطاب، الباقون بالياء على الغيبة. اللام في قوله ﴿ولقد﴾ جواب القسم فالله تعالى أقسم بأنّه يسّر القرآن للذكر، وقد بيّنّا معناه. وقيل: الوجوه الّتي يسّر الله بها القرآن هو أنّه أبان عن الحكم الّذي يعمل عليه، والمواعظ الّتي يرتدع بها، والمعاني الّتي يحتاج إلى التنبيه عليها والحجج الّتي تميّز بها الحقّ من الباطل. وإنّما أُعيد ذكر التيسير لينبئ عن أنّه يسّر بهذا الوجه من الوجوه كما يسّر بالوجه الأوّل. وقد يسّر بحسن التأليف للحفظ كما يسّر بحسن البيان عمّا يخاف للوعظ. وقال الزجّاج: إنّ كتب الأنبياء كانوا يقرؤونها نظراً ولم يحفظونها، والقرآن سهّل الله تعالى عليهم حفظه فيحفظه الخلق الكثير(٢) والتيسير التمكين التامّ لأنّه قد يمكن العمل بمشقّة وغير مشقّة، فالّذي ينتفي عنه المشقّة للتمكين التامّ هو المسهَّل. وفائدة الآية تبيين ما ينبغي أن يطلب العلم من جهته. وإنّما كرّر لأنّه حثّ على ذلك بعد حثّ، وأنّه ميسّر بضروب التيسير.

---

(١) من الحجريّة.

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٨٨.

وقوله: ﴿كذّبت ثمود بالنذر﴾ إخبار من الله تعالى أنّ ثمود، وهم قوم صالح كذّبت بالإنذار. ومن قال: النذر جمع نذير قال لأنّ تكذيب واحد من الرسل في إخلاص توحيد الله كتكذيب جميعهم، لأنّهم متّفقون في ذلك وإن اختلفت شرائعهم. وفائدة الآية التحذير من مثل حالهم.

ثمّ حكى ما قالته ثمود فإنّهم ﴿قالوا أبشراً منّا واحداً نتّبعه﴾ والمعنى: أنتّبع بشراً منّا واحداً نتبعه؟! ودخلت عليهم الشبهة، فظنّوا أنّ الأنبياء ينبغي أن يكونوا جماعة، لأنّ الأشياء ذوو نظائر تجري على حكم واحد، وتركوا النظر في أنّه يجوز أن يصلح واحد من الخلق لتحمل النبوّة وإن لم يصلح له غيره، فصار بمنزلة مدّع لا دليل معه على صحّة دعواه عندهم. وفائدة الآية بيان شبهتهم الخسيسة الضعيفة وأنّهم حملوا أنفسهم على تكذيب الرسل لأجلها. وجوابهم أن يقال لهم: لأنّه لا يصلح له سواه من جهة معرفته بربّه وقيامه بأداء رسالته وسلامة ظاهره وباطنه.

وقوله: ﴿إنّا إذاً لفي ضلال﴾ معناه: إن اتّبعناه مع أنّه واحد منّا إنّا إذاً لفي ضلال عن الصواب ﴿وسعر﴾ أي وعناء، في قول قتادة. والسعر جمع سعير كأنّهم في ضلال وعذاب كعذاب السعير. وقال قوم: معناه ﴿وسعر﴾ جنون. وأصله التهاب الشيء وهو شدّة انتشاره، يقال: ناقة مسعورة إذا كان لها جنون. وقال الزجّاج: يجوز أن يكون المراد وعذاب، ويجوز جنون[١].

وقوله: ﴿أأُلقي الذكر عليه من بيننا﴾ استفهام من قوم صالح على وجه الإنكار والجحود والتعجّب، ومعنى ﴿أألقي الذكر﴾ يعني الوحي ﴿من بيننا﴾ لمّا رأوا استواء حال الناس في الظاهر لم يكن بعضهم أحقّ عندهم بإنزال

(١) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٨٩.

الوحي عليه من بعض. وقد وصفوا في أنفسهم أنّ حاله مساوية لأحوالهم فجاء من هذا ألّا يكون أحقّ بالوحي الّذي ينزل عليه منهم، وأغفلوا أنّ الله أعلم بمصالح عباده ومن يصلح للقيام برسالته ممّن لا يصلح.

ثمّ حكى ما قالوه في صالح، فإنّهم قالوا: ﴿بل هو كذّاب﴾ في دعواه أنّه نبيّ أوحى الله إليه ﴿أشِر﴾ أي بطر، فالأشر البطر الّذي لا يبالي ما قال. وقيل: هو المرح الطالب للفخر وعظم الشأن[1] يقال: أشِر يأشَر أشراً كقولك: بطِر يبطَر بطراً وأشر وأشّر مثل حذر وحذّر، وعجِل وعجّل وفطن وفطّن ونحس ونحّس. فقال الله تعالى على وجه التهديد لهم: ﴿ستعلمون غداً من الكذّاب الأشر﴾ وقرأ أبو قلّابة ﴿الكذّاب الأشرّ﴾ وهذا ضعيف، لأنّهم يقولون: هذا خير من ذا وشرّ من ذا، ولا يقال: أشرّ ولا أخير إلّا في لغة رديئة. ومن قرأ ﴿ستعلمون﴾ بالتاء على وجه الخطاب إليهم أي قل لهم، وهي قراءة ابن عامر وحمزة وحفص عن عاصم. ومن قرأ بالياء فعلى وجه الإخبار عن الغائب وهي قراءة الباقين، لأنّ الكذّاب الأشر يوم القيامة يعاقبه الله بعذاب النار، فيعلم حينئذ أيّ الفريقين هم. وقرّب الله تعالى القيامة كقرب غد من اليوم. والفرق بين قوله: ﴿ستعلمون غداً من الكذّاب﴾ وبين قوله لو قال: ﴿ستعلمون غداً الكذّاب الأشر﴾ أنّ الأوّل يفيد فريقين التبس الكذب بكلّ واحد منهما فيأتي العلم مزيلاً لذلك الالتباس وليس كذلك الثاني.

ثمّ بيّن تعالى أنّه أرسل الناقة وبعثها بأن أنشأها معجزة لصالح، لأنّه أخرجها من الجبل الأصمّ يتبعها ولدها. وقوله: ﴿فتنةً لهم﴾ نصب «فتنة»

---

(١) الكشف والبيان ٩: ١٦٧، تفسير الطبري ١١: ٥٦٠.

على أنّه مفعول له. ومعنى ذلك ابتلاء لهم ومحنة، لأنّه تعالى نهاهم أن ينالوها سوءاً مع تضيق الشرب عليهم بأنّ لها شرب يوم ولهم شرب يوم آخر. والشرب بكسر الشين الحظّ من الماء، وبضمّ الشين فعل الشارب.

ثمّ حكى تعالى ما قال لصالح فإنّه تعالى قال له: ﴿واصطبر﴾ أي اصبر على أذاهم ﴿ونبّئهم﴾ أي أخبرهم بـ﴿أنّ الماء قسمة بينهم﴾ يوم للناقة ويوم لهم ﴿كلّ شرب محتضر﴾ أي كلّ قسم يحضره من هو له. وقيل: المعنى نبّهم أيّ يوم لهم وأيّ يوم لها إلّا أنّه غلب من يعقل، فقال نبّهم. وقيل: كانوا يحضرون الماء إذا غابت الناقة ويشربونه وإذا حضرت أحضروا اللبن وتركوا الماء لها، ذكره مجاهد[١]. وقيل: كانت الناقة تحضر شربها وتغيب وقت شربهم. وكلّ فريق يحضر وقت شربه[٢].

وقوله: ﴿فنادوا صاحبهم﴾ يعني الّذي وافقوه على عقر الناقة، وهو أحمر ثمود، والعرب تغلط فتقول: أحمر عاد. ويريدون بذلك ضرب المثل في الشؤم، وإنّما هو أحمر ثمود، ذكره الزجّاج[٣]. وقال قوم: اسمه قدار ابن سالف[٤].

وقوله: ﴿فتعاطى فعقر﴾ قال ابن عبّاس: تعاطى تناول الناقة بيده فعقرها، وقال معناه: تعاطى عقرها فعقرها فأهلكهم الله تعالى عقوبة على ذلك ﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾.

قوله تعالى:

إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا

---

(١) تفسير الطبري ١١: ٥٦٠ ـ ٥٦١.
(٢) النكت والعيون ٥: ٤١٦.
(٣) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٩٠.
(٤) الكشف والبيان ٩: ١٦٨.

ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَـٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ عشر آيات بلا خلاف.

[أقول:][(١)] لمّا أخبر الله تعالى عن قوم صالح أنّهم عقروا الناقة وأنّه تعالى أهلكهم بيّن كيف أهلكهم فقال: ﴿إنّا أرسلنا عليهم صيحة واحدة﴾ وهي المرّة من الصوت بشدّة عظيمة هلكوا كلّهم بها، يقال: صاح يصيح صياحاً وصايحة ومصايحة وصيّح به تصييحاً وإنّها صيحة تخلع القلوب وتهدم الأبدان لعظمها. وقوله: ﴿فكانوا كهشيم المحتظر﴾ أي صاروا كالهشيم، وهو المنقطع بالتكسير والترضيض، هشم أنفه يهشِمه إذا كسره ومنه الهاشمة وهي شجّة مخصوصة. والهشم هاهنا يبس الشجر المتفتّت الّذي يجمعه صاحب الحظيرة و﴿المحتظر﴾ المبتني حظيرة على بستانه أو غيره، تقول احتظر احتظاراً، وهو من الحظر، وهو المنع من الفعل بحائط أو غيره، وقد يكون الحظر بالنهي. وقرأ بفتح الظاء وهو المكان الّذي يحتظر فيه الهشيم. وقيل: هشيم المحتظر قال الضحّاك: هو الحظيرة تتّخذ للغنم ييبس فتصير رميماً. وقيل: الهشيم حشيش يابس متفتّت يجمعه المحتظر لمواشيه. وقيل: الهشيم اليبس من الشجر أجمع الّذي يفتّت.

وقوله: ﴿ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر﴾ قد فسّرناه. وقال قتادة: فهل من طالب علم يتعلّم؟ وفيها دلالة على بطلان قول المجبّرة،

(١) من الحجريّة.

لأنّه ذكر أنّه يسّر القرآن ليتذكّر العباد به، ولو كان الأمر على ما يقولون لكان ليتذكّر القليل منهم دون سائرهم.

وقوله: ﴿كذّبت قوم لوط بالنذر﴾ إخبار منه تعالى أنّ قوم لوط كذّبوا الرسل وبالإنذار على ما فسّرناه. وفائدة ذكر التحذير على ما بيّنّاه من فعل مثله لئلّا ينزل بهم مثل ما نزل بأُولئك، وفي الكلام حذف وتقديره فأهلكناهم.

ثمّ بيّن كيف أهلكهم فقال: ﴿إنّا أرسلنا عليهم حاصباً﴾ والحاصب الحجارة الّتي يرمى بها القوم، حصبوا بها إذا رموا، ومنه الحصباء الأرض ذات الحصى، لأنّه يحصب بها. وقيل: الحاصب سحاب رماهم بالحجارة وحصبهم بها. قال الفرزدق:

مستقبلين رياح الشام تضربنا بحاصب كنديف القطن منثور[(١)]

ثمّ استثنى آل لوط، وتقديره إنّا أرسلنا عليهم حاصباً أهلكناهم به ﴿إلّا آل لوط﴾ فإنّا ﴿نجّيناهم﴾ وخلّصناهم من العذاب ﴿بسحر﴾ أي بليل لا سحراً بعينه، لأنّ سحراً إذا أردت به سحر يومك لم تصرفه، وإذا أردت به سحراً من الأسحار صرفته.

وقوله: ﴿نعمة من عندنا﴾ قال الزجّاج نصبه على أنّه مفعول له[(٢)] ويجوز أن يكون على المصدر، وتقديره أنعمنا بها عليهم نعمة. ثمّ قال: ﴿كذلك نجزي من شكر﴾ أي مثل ما فعلنا بهم نفعل بمن يشكر الله على نعمه. و«الشكر» هو الاعتراف بالنعمة مع ضرب من التعظيم للمنعم،

---

(١) شرح ديوان الفرزدق ١: ٣٦٠، النكت والعيون ٥: ٤١٧، مجاز القرآن ٢: ٢٤١.

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٩٠.

ونقيضه كفر النعمة، ومثله الحمد على النعمة.

ثمّ أخبر تعالى عن لوط بأنّه أنذر قومه بطشة الله وهي الأخذ بالعذاب بشدّة فكذلك أخذ الله ـ عزّ وجلّ ـ آل لوط بأشدّ العذاب بالإئفاك ورمي الأحجار من السماء.

وقوله: ﴿فتماروا بالنذر﴾ أي تدافعوا على وجه الجدال بالباطل، يقال: تمارى القوم تمارياً وماراه مماراة ومراء، ومراه يمريه مرياً إذا استخرج ما عنده من العلم بالمري.

وقوله: ﴿ولقد راودوه عن ضيفه﴾ إخبار منه تعالى بأنّ قوم لوط حاولوا ضيفه وراودوهم على الفساد، فالمراودة المحاولة، فكأنّ قوم لوط طالبوه بأن يخلّي بينهم وبين ضيفه لما يرونه من الفاحشة. والضيف المنضمّ إلى غيره على طلب القري، إذ كانوا أتوا لوطاً على هذه الصفة إلى أن تبيّن أمرهم وأنّهم ملائكة الله أرسلهم لإهلاكهم.

وقوله: ﴿فطمسنا أعينهم﴾ فالطمس محو الأثر بما يبطل معه إدراكه، طمس يطمُس طمساً وطمّس الكتاب تطميساً، وطمست الريح الآثار إذا دفنتها بما تسفي عليها من التراب، قال كعب بن زهير:

من كلّ نضّاخة الذفرى إذا عرفت عُرضَتُها طامس الأعلام مجهول[1]

وقال الحسن وقتادة: عميت أبصارهم. وقال الضحّاك: إنّهم دخلوا البيت على لوط، فلمّا لم يروهم سألوا عنهم وانصرفوا.

وقوله: ﴿فذوقوا عذابي ونذر﴾ معناه: قالت لهم الملائكة ذوقوا عذاب الله ونذره، أي وما خوّفكم به من عذابه.

---

(١) مرّ في ٣: ٣٣٥، ٥: ٤٨١، ديوان كعب بن زهير: ٨٦، فيه: عَرِقَت.

ثمّ قال تعالى: ﴿ولقد صبّحهم﴾ يعني قوم لوط ﴿بكرة﴾ نصبه على الظرف. فإذا أردت بكرة يومك لم تصرفه، وإذا أردت بكرة من البكرات صرفته. ومثله غدوة وغدوات. وقوله: ﴿عذاب مستقرّ﴾ أي استقرّ بهم حتّى هلكوا جميعاً.

وقوله: ﴿فذوقوا عذابي ونذر﴾ قيل: قالت لهم الملائكة ذلك. وقال قوم: القائل هو الله تعالى قال لهم في تلك الحال يعني عند طمس أعينهم، والائتفاك بهم ورميهم بالحجارة[١]: ﴿ذوقوا عذابي ونذر ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر﴾ وقد فسّرناه وبيّنّا الوجه فيه.

قوله تعالى:

وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَـٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ ستّ آيات بلا خلاف.

[أقول:][٢] قرأ روح وزيد ﴿سنهزم﴾ بالنون على وجه الإخبار من الله تعالى عن نفسه الباقون بالياء على ما لم يسمّ فاعله.

أخبر الله تعالى عن آل فرعون أنّه جاءهم النذر. ويحتمل أن يكون جمع نذير، وهو الرسول المخوّف. ويحتمل أن يكون المراد به الإنذار على ما بيّنّاه، ومعناه: إنّه جاءهم التخويف من معاصي الله والوعيد عليها.

ثمّ أخبر تعالى عنهم بأنّهم ﴿كذّبوا بآياتنا﴾ يعني حججنا وبراهيننا ﴿كلّها﴾ وآل فرعون خاصّته الّذين كانوا ينضافون إليه بالقرابة والموافقة

---

(١) تفسير الطبري ١١: ٥٦٥.

(٢) من الحجريّة.

في المذهب، ويقال: آل القرآن آل الله، لأنّهم بمنزلة الآل في الخاصّة والإضافة. و«الإنذار» الإعلام بموقع المخافة ليتّقى. والنذر والإنذار مثل النكر والإنكار. وهو جمع نذير وهم الرسل. والداعي إلى تكذيب الرسل الشبهة الداخلة على العقلاء والتقليد والعادة السيّئة وغير ذلك.

ثمّ أخبر تعالى أنّه أخذهم بالعذاب والإهلاك ﴿أخذ عزيز مقتدر﴾ وهو القاهر الّذي لا يقهر ولا ينال، مقتدر على جميع ما يريده لكثرة مقدوراته.

ثمّ قال: ﴿أكفّاركم﴾ يعني قريش وأهل مكّة ﴿خير من أولئكم﴾ الكفّار، والمعنى إنّهم ليسوا بخير من كفّار قوم نوح وعاد وثمود. وقوله: ﴿أم لكم براءة في الزبر﴾ معناه ألكم براءة في الكتب المنزلة من عذاب الله.

وقوله: ﴿أم يقولون نحن جميع منتصر﴾ قال الزجّاج: معناه أيقولون ذلك إدلالاً بقوّتهم[1]. ويحتمل أن يكون أرادوا نحن جميع، أي يد واحدة على قتاله وخصومته ﴿منتصر﴾ أي ندفعه عنّا وينصر بعضنا بعضاً.

فقال الله تعالى مكذّباً لظنونهم: ﴿سيهزم الجمع﴾ معناه: إنّ جميعهم سيهزمون ﴿ويولّون الدبر﴾ ولا يثبتون لقتالك، وكان كذلك فكان موافقته لما أخبر به معجزاً له لأنّه إخبار بالغيب قبل كونه، وانهزم المشركون يوم بدر وقتلوا وسُبُوا على ما هو معروف.

ثمّ قال: ﴿بل الساعة﴾ يعني القيامة ﴿موعدهم﴾ للجزاء لهم بأنواع العقاب والنيران. وقوله: ﴿والساعة أدهى وأمرّ﴾ فالأدهى الأعظم في الدهاء. و«الدهاء» عظم سبب الضرر مع شدّة انزعاج النفس وهو من الداهية وجمعه دَواهٍ. و«الداهية» البليّة الّتي ليس في إزالتها حيلة، والمراد

(١ و٢) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٩١.

ما يجري عليهم من القتل والأسر عاجلاً لا يخلصهم من عذاب الآخرة بل عذاب الآخرة أدهى وأمرّ. و«الأمرّ» الأشدّ في المرارة، وهي ضرب من الطعم به يكون الشيء مُرّاً. ويحتمل «الأمرّ» الأشدّ في استمرار البلاء، لأنّ الأصل التمرّر. وقيل مرارة لشدّة مرورها وطلبها الخروج بحدّة. وقيل: «الأمرّ» الأشدّ مرارة من القتل والأسر[١].

قوله تعالى:

إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ تسع آيات بلا خلاف.

[أقول:][٢] هذا إخبار من الله تعالى بأنّ المجرمين الّذين ارتكبوا معاصي الله وتركوا طاعاته في ضلال وسعر، ومعناه: في ضلال عن الحقّ وعدول عنه ﴿وفي سعر﴾ يعني في عذاب النار تسعرهم، ومعناه: إنّهم يصيرون إليه، وإنّما جمع بين الضلال والسعر، لأنّه لازم لهم ومنعقد بحالهم وإن كان الضلال بعصيانهم والسعر بالعقاب على الضلال، وكأنّهم قد حصلوا فيه بحصولهم في سببه الّذي يستحقّ به. وقيل: معنى في ضلال يعني في ذهاب عن طريق الجنّة والآخرة في نار مسعرة[٣].

وقوله: ﴿يوم يسحبون﴾ أي يوم يجرّون في النار على وجوههم

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٩٢.

(٢) من الحجريّة.

(٣) راجع تفسير الطبري ١١: ٥٦٨.

﴿ذوقوا مسّ سقر﴾ أي يقال لهم مع ذلك: ذوقوا مسّ سقر، وهو كقولهم: وجدت مسّ الحمى وكيف ذقت طعم الضرب. وقيل: إنّ سقر جهنّم[١] وقيل: هو باب من أبوابها، ولم يصرف للتعريف والتأنيث.

ولمّا وصف العقاب قال: ﴿إنّا كلّ شيء خلقناه بقدر﴾ أي العقاب على مقدار الاستحقاق الّذي تقتضيه الحكمة وكذلك غيره في كلّ خصلة. وفي نصب ﴿كلّ﴾ ثلاثة أوجه:

أحدها: على تقدير إنّا خلقنا كلّ شيء خلقناه بقدر.

الثاني: أنّه جاء على زيداً ضربته.

الثالث: على البدل الّذي يشتمل عليه، كأنّه قال: ﴿إنّ كلّ شيء خلقناه بقدر﴾ أي هو مقدّر في اللوح المحفوظ[٢].

وقوله: ﴿وما أمرنا إلّا واحدة كلمح بالبصر﴾ فاللمح خطف البصر، والمعنى وما أمرنا إذا أردنا أن يكون شيئاً إلّا مرّة واحدة إنّما نقول له كن فيكون، أي هذه منزلته في سرعته وانطياعه.

ثمّ قال تعالى مخاطباً لكفّار قريش وغيرهم: ﴿ولقد أهلكنا أشياعكم﴾ يعني أتباع مذهبكم في كفرهم بعبادة الأوثان تتابعوا قرناً بعد قرن في الإهلاك بعذاب الاستئصال. و«الشيعة» أتباع القائد إلى أمر. وقيل: المعنى ولقد أهلكنا أشياعكم ممّن هو منكم كما أخبر النبيّ صلّى الله عليه وآله فهي لكلّ أمّة فهل من متّعظ. وقال الحسن: هو على الأمم السالفة ﴿فهل من مدّكر﴾ معناه: فهل من متذكّر لما يوجبه هذا الوعظ من الانزجار عن مثل ما سلف من أعمال الكفّار لئلّا يقع به ما وقع بهم من الإهلاك[٣].

(١ و٣) راجع تفسير الطبري ١١: ٥٦٩ و٥٧٠.

(٢) معاني القرآن ٣: ١١٠.

وقوله: ﴿وكلّ شيء فعلوه في الزبر﴾ يعني في الكتب الّتي كتبتها الحفظة. وقال ابن زيد في الكتاب. وقال الضحّاك في الكتب.

وقوله: ﴿وكلّ صغير وكبير مستطر﴾ قال ابن عبّاس معناه: إنّ جميع ذلك مكتوب مسطور في الكتاب المحفوظ، لأنّه من أعظم العبرة في علم ما يكون قبل أن يكون على التفصيل، وبه قال مجاهد وقتادة والضحّاك وابن زيد.

ثمّ قال تعالى: ﴿إنّ المتّقين﴾ يعني الّذين اتّقوا معاصيه وفعلوا واجباته ﴿في جنّات﴾ يعني بساتين تجنّها الأشجار ﴿ونهر﴾ أي أنهار، فوضع «نهراً» في موضع أنهار، لأنّه اسم جنس يقع على القليل والكثير. و«النهر» المجرى الواسع من مجاري الماء، وهو خلاف الجدول، لأنّه المجرى الصغير الشديد الجرى من مجاري الماء.

﴿في مقعد صدق﴾ معناه: في مجلس حقّ لا لغو فيه ولا تأثيم ﴿عند مليك مقتدر﴾ أي بالمكان الّذي كرّمه لأوليائه المليك المقتدر. وقيل: في مقعد صدق عند المليك المقتدر بما هو عليه من صدق دوام النعيم به[١]. وقال الفرّاء: معنى ﴿في جنّات ونهر﴾ أي في ضياء وسعة[٢] ويقال: أنهر دمه إذا سال وأنهر بطنه إذا جاء بطنه مثل جرى النهر.

---

(١) راجع النكت والعيون ٥: ٤٢١.

(٢) معاني القرآن ٣: ١١١.

سورة الرحمن

قال قوم: هي مكّية. وقال آخرون: هي مدنية. وهي ثمان وسبعون آية في الكوفي والشامي، وسبع وسبعون عند الحجازيّين، وستّ وسبعون في البصري.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ
وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ
ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ
ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾
وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾.

ثلاث عشرة آية كوفي وشامي، واثنتا عشرة آية بصري، وإحدى عشرة آية في ما عداه ، عدّ الكوفي والشامي ﴿الرحمن﴾ ولم يعدّه الباقون، وعدّوا: ﴿خلق الإنسان﴾ إلّا أهل المدينة فإنهم عدّوا ﴿البيان﴾ آخر الآية. وقرأ ﴿الحبّ ذا العصف﴾ بالنصب شامي ﴿والريحان﴾ خفض كوفي غير عاصم. وعدّ الكوفيّون ﴿الرحمن﴾ آية مع أنّه ليس بجملة، لأنّه في تقدير

الله الرحمن حتّى تصحّ الفاصلة. وهو خبر مبتدأ محذوف نحو قوله: ﴿سورة أنزلناها﴾[١] أي هذه أنزلناها. ومعنى ﴿الرحمن﴾ هو الّذي وسعت رحمته كلّ شيء، فلذلك لا يجوز أن يوصف به إلّا الله تعالى. فأمّا ﴿راحم ورحيم﴾ فيجوز أن يوصف به العباد.

وقوله: ﴿علّم القرآن﴾ فـ«التعليم» تبيين ما به يصير من لم يعلم عالماً. و«الإعلام» إيجاد ما به يصير عالماً، وفي قوله: ﴿الرحمن علم القرآن﴾ تذكير بالنعمة في ما علم من الحِكَم بالقرآن الّتي يحتاج إليها الناس في دينهم ليؤدّوا ما يجب عليهم وينالوا الفضل بطاعة ربّهم ويستوجبوا به الثواب وينالوا الرضوان.

وقوله: ﴿خلق الإنسان﴾ معناه: أنّه الّذي اخترع الإنسان وأخرجه من العدم إلى الوجود، وقيل: المراد بالإنسان هاهنا آدم عليه السلام. وقيل: محمّد صلى الله عليه وآله. وقيل: جميع الناس، وهو الظاهر، وهو الأعمّ في الجميع.

وقوله: ﴿علّمه البيان﴾ أي خلق فيه التمييز الّذي بان به من سائر الحيوان. وقيل: معناه: علّمه الكلام الّذي يبيّن به عن مراده ويتميّز به عن سائر الحيوان، فالبيان هو الأدلّة الموصلة إلى العلم. وقيل: «البيان» إظهار المعنى للنفس بما يتميّز به عن غيره كتميّز معنى رجل من معنى فرس، ومعنى قادر من معنى عاجز، ومعنى عامّ من معنى خاصّ، ومعنى شيء من معنى هذا بعينه[٢]. وفيه تنبيه على أنّه تعالى خلق الإنسان غير عالم، ثمّ علّمه البيان، خلافاً لقول من يقول من الجهّال: إنّ الإنسان لم يزل عالماً بالأشياء، وإنّما يحتاج فيه إلى تذكير، فكيف يكون عالماً من لم يخلق بعد

---

(١) النور: ١.

(٢) راجع النكت والعيون ٥: ٤٢٣.

لولا الغباوة وقلّة التحصيل.

وقوله: ﴿والشمس والقمر بحسبان﴾ أي يجريان بحسبان فأُضمر يجريان وحذفه لدلالة الكلام عليه، فيكون ارتفاع الشمس بالفعل المقدّر. وقال قوم: ارتفعا بتقديرهما بحسبان أي بحساب، والمعنى علّمه البيان أنّ الشمس والقمر بحسبان. وقيل: المعنى أنّ أمرهما يجري في الأدوار على مقدار من الحساب على ما وضعه حكيم عليم بتدبير صحيح، قد كان يمكن وضعهما على خلافه غير أنّه اختار ذلك لاستغناء العباد بها في وجوه المنافع وما في ذلك من المصالح. وقال ابن عبّاس وقتادة وابن زيد: بحسبان، ومنازل يجريان فيها ولا يعدوانها. وقيل: إنّ القمر يقطع بروج السماء في ثمانية وعشرين يوماً، والشمس تقطع ذلك في ثلاثمائة وخمسة وستّين يوماً وشيء. وقوله: ﴿بحسبان﴾ خبر الشمس والقمر على قول من رفعهما بالابتداء ﴿وحسبان﴾ مصدر حسبته أحسبه حسباناً نحو السكران والكفران. وقيل: هو جمع حساب كشهاب وشهبان[١].

وقوله: ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾ فالنجم من النبات ما طلع، يقال: نجم ينجُم إذا طلع، ونجم القرن والنبات إذا طلعا، وبه سمّي نجم السماء، وهو الكوكب لطلوعه. والنجم هاهنا النبت الطالع من الأرض، وهو النبات الّذي ليس له ساق، في قول ابن عبّاس وسعيد وسفيان. وقال مجاهد: هو نجم السماء، وبه قال قتادة، والأوّل أقوى لمصاحبة الشجر. والشجر عند أهل اللغة النبات الّذي له ساق وورق وأغصان يبقى ساقه على دور الحول من الزمان وأكثره ممّا له ثمار تجنى على ما دبّرها صانعها من الإتيان بها

---

(١) راجع تفسير الطبري ١١: ٥٧٣ ـ ٥٧٤، الكشف والبيان ٩: ١٧٧ ـ ١٧٨.

في أبانها.

وقوله: ﴿يسجدان﴾ إخبار من الله تعالى بأنّهما يسجدان، وسجودهما هو ما فيهما من الآية الدالّة على حدوثهما وعلى وجوب الخضوع لله تعالى والتذلّل له لما خلق فيها من الأقوات المختلفة في النبات للناس وغيرهم من الحيوان والاستمتاع بأصناف الثمار والفواكه والرياض اللذيذة، فلا شيء أدعى إلى الخضوع والعبادة لمن أنعم بهذه النعمة الجليلة ممّا فيه مثل الّذي ذكرنا في النجم والشجر. وقال مجاهد وسعيد بن جبير: سجودهما ظلالهما الّذي يلقيانه بكرة وعشيّاً، فكلّ جسم له ظلّ فهو يقتضي الخضوع بما فيه من دليل الحدوث الّذي لا يقدر عليه إلّا قادر لا يعجزه شيء.

وقوله: ﴿والسماء رفعها﴾ أي رفع السماء رفعها فوق الأرض للاعتبار بها والتفكّر فيها، وأنّه لا يقدر على رفعها غير القادر لنفسه الّذي لا يعجزه شيء ولا يماثله موجود.

وقوله: ﴿ووضع الميزان﴾ فالميزان آلة التعديل في النقصان والرجحان، والوزن تعديل في ذلك، ولولا الميزان لتعذّر الوصول إلى كثير من الحقوق، فلذلك نبّه على النعمة فيه والهداية إليه.

وقوله: ﴿ألّا تطغوا في الميزان﴾ نهي كأنّه قال أي لا تطغوا، لأنّ «أن» تكون بمعنى أي ويجوز أن تكون علّة، وتقديره: ووضع الميزان لأن لا تطغوا. وإنّما أعاد ذكر الميزان من غير إضمار لئلّا يكون الثاني مضمّناً بالأوّل، وليكون قائماً بنفسه في النهي عنه إذا قيل ألّا تطغوا في الميزان. وقيل: لأنّه نزل في وقتين. والأوّل أحسن. وقيل: المراد بالميزان العدل لأنّ

المعادلة موازنة الأسباب. و«الطغيان» الإفراط في مجاوزة الحدّ في العدل. وقيل: لا تطغوا فيه لأنّ مالا يضبط في الوزن موضوع عنهم. وقال الزجّاج: تقديره فعلتُ ذلك لئلّا تطغوا. ويحتمل أن يكون نهياً مفرداً. ويجوز أن يكون بمعنى «أي» مفسّرة[١].

وقوله: ﴿وأقيموا الوزن بالقسط﴾ أمر من الله تعالى أن يقيموا الوزن إذا أرادوا الأخذ أو الإعطاء ﴿بالقسط﴾ أي بالعدل ﴿ولا تخسروا الميزان﴾ بمعنى لا تنقصوه. والخسران نقصان أصل المال، وهو ذهاب ما كان من رأس المال: خسِر يخسَر خسراً وخسراناً، وخسّره تخسيراً، فهو خاسر ومخسّر. قال الزجّاج : قولهم: أخسرت الميزان وخسرت، فعلى خسرت ﴿لا تخسر﴾ بفتح التاء، وقد قرأ به بعض المتقدّمين شاذّاً لا يؤخذ به[٢].

وقوله: ﴿والأرض وضعها للأنام﴾ ليستقرّوا عليها. وقال ابن عبّاس: الأنام كلّ شيء فيه روح. وقال الحسن: الأنام الإنس والجنّ. وقال قتادة: الأنام الخلق. ويجوز أن يكون الأنام من ونم الذباب إذا صوّت من نفسه، ويسمّى كلّ ما يصوّت من نفسه أناماً. وقلبت الواو من ونام همزة كقولهم: أناة من «وناة».

ثمّ بيّن وجه المنافع للخلق فوضع الأرض ﴿فيها فاكهة﴾ وهي أنواع الثمار الّتي تؤخذ من الشجر فيها أنواع الملاذّ وفنون الأمتاع، فسبحان الّذي خلقه لعباده وأجرى فيه ضروب الطعوم بلطفه، وكلّه يسقى بماء واحد في أرض واحدة من شجرة يابسة تنقلب إلى حال الغضاضة والنضرة، ثمّ تحمل الثمرة الكريمة، وكلّ ذلك بعين المعتبر وعلم المفكّر.

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٩٦.

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٩٦.

وقوله: ﴿والنخل ذات الأكمام﴾ اسم جنس يقع على القليل والكثير وواحده نخلة، وهو يذكّر ويؤنّث، والأكمام جمع «كُمّ» وهو وعاء ثمر النخل، تكمّم في وعائه إذا اشتمل عليه. وقيل: الأكمام ليف النخلة الّتي تكمّم فيه، في قول الحسن وقتادة. وقال ابن زيد: الأكمام الطلع الّذي فيه ثمر النخلة[١]. وقال الزجّاج: كمّ القميص من هذا، لأنّه يغطّي اليد[٢].

وقوله: ﴿والحبّ ذو العصف والريحان﴾ قال ابن عبّاس وقتادة وابن زيد: العصف التبن، لأنّ الرياح تعصفه أي تطيّره بشدّة هبوبها. ومنه الريح العاصف، قال علقمة بن عبدة:

تسقّي مذانب قد مالت عصيفتها حدورها من أتيّ الماء مطموم[٣]

وهو دقاق الزرع إذا يبس عصفته الريح. وقيل: العصف التبن. ويقال: له العصيفة. والحبّ حبّ الحنطة والشعير ونحوهما. والريحان الرزق، في قول ابن عبّاس ومجاهد والضحّاك. وقال الحسن وابن زيد: الريحان هو الّذي يشمّ. وفي رواية أُخرى عن ابن عبّاس والضحّاك: إنّ الريحان الحبّ. والعرب تقول: خرجنا نطلب ريحان الله أي رزقه. ويقال: سبحانك وريحانك أي رزقك، قال النمر بن تولب :

سماء الإله وريحانه وجَنّته وسَماء دِرَر[٤]

وقرأ أهل الكوفة إلّا عاصماً ﴿والريحان﴾ جرّاً على تقدير: وذوالريحان. الباقون بالرفع عطفاً على ﴿الحبّ﴾ وقرأ ابن عامر وحده

(١) النكت والعيون ٥: ٤٢٥. (٢) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٩٧.
(٣) مجاز القرآن ٢: ٢٤٢، تفسير الطبري ١١: ٥٧٩، الكشف والبيان ٩: ١٧٩.
(٤) مجاز القرآن ٢: ٢٤٣، تفسير الطبري ١١: ٥٨١، صحاح اللغة ١: ٣٧١ مادّة «روح».

﴿والحبَّ ذا العصف والريحانَ﴾ بالنصب فيها كلّها على تقدير: وخلق الحبّ ذا العصف وخلق الريحان. الباقون بالرفع على تقدير: فيها الحبّ ذو العصف وفيها الريحان.

وقوله: ﴿فبأيّ آلاء ربكما تكذّبان﴾ قال ابن عبّاس والحسن وقتادة: معناه: فبأيّ نعمة من نعمه يا معشر الجنّ والإنس تكذّبان؟! وريحان أصله ريّحان، فخفّف. وتلخيصه ريوحان على وزن فيعلان، فلمّا التقت الواو والياء والثاني ساكن قلبوا الواو ياء وأدغموا ثمّ خفّفوا كراهية التشديد كما قالوا: هين لين.

قوله تعالى:

خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ ثمان آيات بلا خلاف.

[أقول:][١] يقول الله تعالى: إنّه ﴿خلق الإنسان﴾ وأنشأه ويعني به آدم عليه السلام ﴿من صلصال﴾ وهو الطين اليابس الّذي يسمع له صلصلة، في قول قتادة ﴿كالفخّار﴾ أي مثل الطين الّذي طبخ بالنار حتّى صار خزفاً.

﴿وخلق الجانّ من مارج من نار﴾ فالمارج هو المختلط الأجزاء. قال الحسن: إبليس أبو الجنّ، وهو مخلوق من لهب النار، كما أنّ آدم أبو البشر مخلوق من طين. وصف الله تعالى الإنسان الّذي هو آدم أبو البشر أنّه خلقه من صلصال. وفي موضع آخر ﴿من طين لازب﴾[٢] وفي موضع آخر

(١) من الحجريّة.

(٢) الصافّات: ١١.

﴿من حمأ مسنون﴾[١] وفي موضع آخر ﴿خلقه من تراب﴾[٢] واختلاف هذه الألفاظ لا تناقض فيها، لأنّها ترجع إلى أصل واحد وهو التراب، فجعله طيناً، ثمّ صار كالحمأ المسنون، ثمّ يبسَ فصار صلصالاً كالفخّار.

وقوله: ﴿فبأيّ آلاء ربكما تكذّبان﴾ معناه: فبأيّ نعم ربّكما يا معشر الجنّ والإنس تكذّبان؟! وإنّما كرّرت هذه الآية، لأنّه تقرير بالنعمة عند ذكرها على التفصيل نعمة نعمة. كأنّه قيل بأيّ هذه الآلاء تكذّبان. ثمّ ذكرت آلاء أُخر فاقتضت من التذكير والتقرير بها ما اقتضت الأُولى ليتأمّل كلّ واحد في نفسها وفي ما يقتضيه صفتها من حقيقتها الّتي تتفصّل بها من غيرها.

وقوله: ﴿ربّ المشرقين وربّ المغربين﴾ تقديره هو ربّ المشرقين، فهو خبر ابتداء، ولو قرئ بالخفض ردّاً على قوله: ﴿فبأيّ آلاء ربّكما﴾ لكان جائزاً غير أنّه لم يقرأ به أحد. والمعنى: أنّه الخالق لمشرق الشتاء ومشرق الصيف، وهو عند غاية طول النهار في الصيف وغاية قصره في الشتاء ﴿وربّ المغربين﴾ مثل ذلك، وهو قول مجاهد وقتادة وابن زيد. والمشرق موضع شروق الشمس، وهو طلوعها تقول: شرقت الشمس تشرُق شُروقاً إذا طلعت، وأشرقت إذا أضائت وصَفَتْ. والمغرب موضع غروب الشمس. [والغروب مصيرها في حدّ الغيب غربت تغرب غروباً، ومنه الغريب وهو الصابر في حدّ الغائب عن النفس وأصله الحدّ، ومنه الغروب مجاري الدموع لزوالها من حدّها إلى الحدّ الآخر][٣].

وقوله: ﴿فبأي آلاء ربّكما تكذّبان﴾ أي فبأيّ نعمة ربّكما معاشر الجنّ

---

(١) الحجر: ٢٦ و٢٨ و٣٣. (٢) آل عمران: ٥٩.

(٣) مابين المعقوفتين غير واضح، ولعلّ فيه تصحيف أو خلط، راجع الغريبين ٤: ١٣٦٤.

والإنس تكذّبان؟ وقد بيّـنّا الوجه في تكراره. وواحد الآلاء ألى على وزن «معاً» و «ألا» على وزن «قفا» عن أبي عبيدة[١].

وقوله: ﴿مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان﴾ معنى مرج أرسل، في قول ابن عبّاس. وقال الحسن وقتادة: والبحران بحر فارس والروم. وقال ابن عبّاس في رواية أُخرى: هما بحر السماء وبحر الأرض ﴿يلتقيان﴾ في كلّ عام. وقيل: البحران الملح والعذب. وقيل: مرج البحرين خلط طرفيهما عند التقائهما من غير أن يختلط جملتها[٢] ﴿لا يبغيان﴾ أي لا يبغي أحدهما على الآخر بأن يقلبه إلى مثل حاله في الملوحة والعذوبة. ومرج معناه: أرسل بإذهاب الشيئين فصاعداً في الأرض، فمرج البحرين أرسلهما بالإجراء في الأرض يلتقيان، ولا يختلطان، ذلك تقدير العزيز العليم. و«البرزخ» الحاجز بين الشيئين، ومنه البرزخ الحاجز بين الدنيا والآخرة. وقال قتادة: «البرزخ» الحاجز أن يبغي الملح على العذب أو العذب على الملح. وقال مجاهد: معناه: لا يبغيان لا يختلطان، معناه: لا يبغيان على الناس. والنعمة بتسخير الشمس أنّها تجري دائبة بمنافع الخلق في الدنيا والدين، فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان معاشر الجنّ والإنس.

قوله تعالى:

يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ (٢٢) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣) وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ (٢٤) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥) كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨)

---

(١) مجاز القرآن ٢: ٢٤٣. فيه: واحدها «ألى» تقديرها «قفىً» وقال بعضهم «معىً».

(٢) النكت والعيون ٥: ٤٢٩ ـ ٤٣٠.

يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴿٢٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴿٣٠﴾ تسع آيات بلا خلاف.

[أقول:][١] قرأ ﴿المنشئآت﴾ بالكسر حمزة ويحيى، وقوله ﴿يخرج﴾ بفتح الياء. أهل الكوفة وابن كثير وابن عامر أسندوا الفعل إلى اللؤلؤ والمرجان. الباقون على ما لم يسمّ فاعله. وإنّما أجازوا إسناد الفعل إلى الجوار واللؤلؤ والمرجان، كما قالوا مات زيد ومرض عمرو وما أشبه ذلك في ما يضاف الفعل إليه إذا وجد منه وإن كان في الحقيقة لغيره. وكان المعنى المنشئات السير فحذف المفعول وأضاف السير إليه اتّساعاً، لأنّ سيرها إنّما يكون بهبوب الريح[٢]. وقال الزجّاج: من فتح الشين أراد المرفوعات الشرع، وبالكسر الحاملات الرافعات الشرع[٣].

لمّا ذكر الله تعالى النعمة على الخلق بمرج البحرين اللّذين يلتقيان وإنّهما مع ذلك لا يبغيان، بيّن أيضاً ما فيهما من النعمة، فقال: يخرج منهما ـ يعني من البحرين ـ اللؤلؤ والمرجان. «فاللؤلؤ» معروف، ويقع على الصغار والكبار. و«المرجان» ضرب من الجوهر كالقضبان يخرج من البحر. وقال ابن عبّاس: اللؤلؤ كبار الدرّ والمرجان صغاره، وبه قال الحسن وقتادة والضحّاك. وسمّي المرجان بذلك لأنّه حبّ من الجوهر كبير مختلط من مرجت أي خلطت. وإنّما جاز أن يقول يخرج منهما، وهو يخرج من الملح دون العذب، لأنّ العذب والملح يلتقيان فيكون العذب كاللقاح للملح، كما يقال يخرج الولد من الذكر والأنثى، وإنّما تلده الأنثى.

---

(١) من الحجريّة.

(٢) الحجّة للقرّاء السبعة ٤: ١٥ ـ ١٦.

(٣) معاني القرآن وإعرابه ٥: ١٠٠.

وقال قوم: لا يخرج اللؤلؤ إلّا من الموضع الّذي يلتقي فيه العذب والملح، وذلك معروف عند الغوّاصين. وقال الزجّاج: لأنّه إذا أخرجه من أحدهما فقد أخرجه من الآخر، لأنّه داخل فيهما[١]. وقال ابن عبّاس: إذا جاء القطر من السماء تفتّحت الأصداف فكان من ذلك القطر اللؤلؤ. وقال قوم: المعنى من جهتهما ولا يجب أنّه من كلّ واحد منهما. والأوّل وجه التأويل.

وقوله: ﴿وله الجوار المنشآت﴾ والجوار جمع جارية وهي السفينة لأنّها تجري في الماء بأمر الله تعالى. والجارية المرأة الشابّة، لأنّه يجري فيها ماء الشباب، والمنشآت المبتدءآت للسير برفع القلاع. وقال مجاهد: ما رفع له القلاع، فهو منشأ وما لم يرفع قلاعه فليس بمنشأ. فجعل الإنشاء برفع القلاع. والأعلام الجبال واحدها علم، سمّي بذلك لارتفاعه كارتفاع الأعلام المعروفة[٢]. وقال جرير:

إذا قطعن عَلَماً بعد عَلَم حتّى تناهين بنا إلى حكم[٣]

وقيل كالأعلام في العظم[٤].

وقوله: ﴿كلّ من عليها فان﴾ إخبار من الله تعالى أنّ جميع مَن على وجه الأرض من العقلاء يفنون ويخرجون من الوجود إلى العدم. وإذا ثبت ذلك وكانت الجواهر لا تفنى إلّا بفناء يضادّها على الوجود، فإذا وجد الفناء انتفت الجواهر كلّها، لأنّها اختصاص له بجوهر دون جوهر، فالآية دالّة على عدَم جميع الأجسام على ما قلناه، لأنّه إذا ثبت عدم العقلاء بالآية ثبت عدم غيرهم، لأنّه لا يفرق من الأُمّة أحد بين الموضعين.

(١) معاني القرآن وإعرابه ٥: ١٠٠. (٢) راجع النكت والعيون ٥: ٤٣١ ـ ٤٣٢.
(٣) ديوان جرير: ٤٢٤، مجاز القرآن ٢: ٢٤٤، تفسير الطبري ١١: ٥٩١.
(٤) راجع معاني القرآن ٣: ١١٥.

وقوله: ﴿ويبقى وجه ربّك ذو الجلال والإكرام﴾ معناه: ويبقى ربّك الظاهر بأدلّته كظهور الإنسان بوجهه. فالوجه يذكر على وجهين:

أحدهما: بعض الشيء كوجه الإنسان.

الثاني: بمعنى الشيء المعظم في الذكر كقولهم: هذا وجه الرأي، وهذا وجه التدبير أي هو التدبير، وهو الرأي. والإكرام والإعظام بالإحسان، فالله تعالى يستحقّ الإعظام بالإحسان الّذي هو في أعلى مراتب الإحسان. ومعنى ذو الجلال ذو العظمة بالإحسان.

وقوله: ﴿يسأله من في السماوات والأرض كلّ يوم هو في شأن﴾ معناه: يسأل الله تعالى من في السماوات والأرض من العقلاء حوائجهم، ويضرعون إليه. ثمّ قال: ﴿كلّ يوم هو في شأن﴾ فالشأن معنى له عظم، وكذلك قال كلّ يوم هو في شان، ويقال: لا يشغله شأن عن شأن. والمعنى: أنّ كلّ يوم الله تعالى في شأن من إحياء قوم وإماتة آخرين، وعافية قوم ومرض غيرهم، ونجاة وإهلاك ورزق وحرمان وغير ذلك من الأُمور والنعمة. في ﴿كلّ من عليها فان﴾ التسوية بين الخلق في الفناء ﴿فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان﴾ قد فسّرناه.

قوله تعالى:

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَانفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾.

سبع آيات حجازي، وستّ في ما عداه، عدّ الحجازيّون ﴿من نار﴾ ولم يعدّه الباقون.

[أقول:][١] قرأ «شواظ» بكسر الشين أهل مكّة، الباقون بضمّها، وهما لغتان مثل صوار وصوار. وقرأ ﴿نحاس﴾ بالجرّ أهل مكّة والبصرة غير يعقوب عطفاً على ﴿نار﴾ الباقون بالرفع عطفاً على ﴿شواظ﴾ وقرأ أهل الكوفة إلّا عاصماً ﴿سيفرغ﴾ على تقدير: سيفرغ الله لكم، الباقون بالنون على وجه الإخبار من الله عن نفسه يعني قوله: ﴿سنفرغ لكم﴾ من أبلغ الوعيد وأعظم التهديد. وقيل في معناه قولان:

أحدهما: سنفرغ لكم من الوعيد وينقضي ويأتيكم المتوعّد به فشبه ذلك بمن فرغ من شيء وأخذ في غيره.

الثاني: إنّا نستعمل عمل من يتفرّغ للعمل لتجويده من غير تضجيع فيه كما يقول القائل: سأتفرّغ لك. والله تعالى لا يشغله شيء عن شيء، لأنّه من صفات الأجسام، وهو من أبلغ الوعيد لأنّه يقتضي أن يجازى بصغير ذنبه وكبيره إذا كان مستحقّاً لسخط الله[٢]. والفراغ انتفاع القاطع عنه من القادر عليه. والشغل والفراغ من صفات الأجسام الّتي تحلّها الأعراض وشغلها عن الأضداد في تلك الحال، ولذلك وجب أن يكون في صفة القديم تعالى مجازاً.

وقوله: ﴿أيّها الثقلان﴾ خطاب للجنّ والإنس، وإنّما سمّيا ثقلين لعظم شأنهما بالإضافة إلى ما في الأرض من غيرهما، فهما أثقل وزناً لعظم الشأن بالعقل والتمكين والتكليف لأداء الواجب في الحقوق، ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وآله: «إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي»[٣] يريد عظيمي

(١) من الحجريّة. (٢) راجع تفسير الطبري ١١: ٥٩٣. (٣) مسند أحمد ٣: ١٧.

المقدار، فلذلك وصفهما بأنّهما ثقلان[١].

وقوله: ﴿إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض﴾ قال الضحّاك: إن استطعتم أن تنفذوا هاربين من العذاب، يقال لهم ذلك يوم القيامة. وقال قوم: معناه إن استطعتم أن تنفذوا هاربين من الموت فاهربوا فإنّه حيث كنتم أدرككم الموت[٢]. وقال ابن عبّاس: معناه إن استطعتم أن تعلموا ما في السماوات والأرض فاعلموا أنّه لا يمكنكم ذلك.

وقوله: ﴿لا تنفذون إلّا بسلطان﴾ معناه إلّا بحجّة وبيان. وقيل: معناه إلّا بملك وقهر، وليس لكم ذلك[٣]. وقال الزجّاج: المعنى ﴿فانفذوا لا تنفذون إلّا بسلطان﴾ أي حيثما كنتم شاهدين ثمّ حجّة الله وسلطانه الّذي يدلّ على توحيده[٤]. وواحد الأقطار قطر وهي الأطراف، في قول سفيان. فانفذوا في صورة الأمر والمراد به التحدّي. ثمّ قال: ﴿لا تنفذون إلّا بسلطان﴾ وهو القوّة الّتي يتسلّط بها على الأمر ﴿فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان﴾ وقد فسّرناه. وفائدة الآية أنّ عجز الثقلين عن الهرب من الجزاء كعجزهم عن النفوذ من الأقطار، وفي ذلك اليأس من رفع الجزاء بوجه من الوجوه، فلينظر امرؤ ما يختار لنفسه ممّا يجازى به.

وقوله: ﴿يرسل عليكما شواظ من نار﴾ فالشواظ لهب النار، في قول ابن عبّاس ومجاهد وقتادة. ومنه قول رؤبة:

إنّ لهم مِن وَقْعنا أيقاظاً ونار حرب تُسعِر الشواظاً[٥]

---

(١) راجع الكشف والبيان ٩: ١٨٦.
(٢) تفسير الطبري ١١: ٥٩٤.
(٣) النكت والعيون ٥: ٤٣٤.
(٤) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٩٩.
(٥) مجاز القرآن ٢: ٢٤٤، تفسير الطبري ١١: ٥٩٥. فيهما: أقياظاً.

والنحاس الصفر المذاب للعذاب، في قول ابن عبّاس ومجاهد وسفيان وقتادة. وفي رواية أُخرى عن ابن عبّاس وسعيد: النحاس الدخان. قال النابغة الجعدي:

يضيء كضوء سراج السليـ ـط لم يجعل الله فيها نحاساً[١]

أي دخاناً. والسليط دهن السمسم. وقال قوم: هو دهن السنام. وقال الفرّاء: هو دهن الزيت[٢].

وقوله: ﴿فلا تنتصران﴾ أي لا تقدران على دفع ذلك عنكما، ووجه النعمة في إرسال الشواظ من النار والنحاس على الثقلين هو ما لهم في ذلك من الزجر في دار التكليف عن مواقعة القبيح، وذلك نعمة جزيلة، فلذلك قال: ﴿فبأيّ آلاء ربّكما﴾ معاشر الجنّ والإنس ﴿تكذّبان﴾.

قوله تعالى:

فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَـٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَـٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾.

ثمان آيات بصري وتسع في ما عداه، عدّ الكلّ ﴿يكذّب بها المجرمين﴾ ولم يعدّه البصريون.

[أقول:][٣] يقول الله تعالى: ﴿فإذا انشقّت السماء﴾ ومعناه: أن ينفكّ

---

(١) مجاز القرآن ٢: ٢٤٥، تفسير الطبري ١١: ٥٩٨، النكت والعيون ٥: ٤٣٥، الكامل ١: ٤٧٧ مع اختلاف في الأخيرين. (٢) معاني القرآن ٣: ١١٧. (٣) من الحجريّة.

بعضها عن بعض، فالسماء تنشقّ يومئذ وتصير حمراء كالوردة، ثمّ تجري كالدهان. قال الفرّاء: الوردة الفرس الوردة[١]. وقال الزجّاج: يتلوّن كما يتلوّن الدهان المختلفة أي فكان كلون فرس ورده، وهو الكميت فيتلوّن في الشتاء لونه بخلاف لونه في الصيف، وكذلك في الفصول[٢] فسبحان خالقها والمصرّف لها كما يشاء. والوردة واحدة الورد، وإنّما تصير السماء كالوردة في الاحمرار ثمّ تجري كالدهان ، وهو جمع دهن كقولك قرط وقراط عند انقضاء الأمر وتناهي المدّة. وقال الحسن: هي كالدهان أي كالدهن الّذي يصبّ بعضه على بعض بألوان مختلفة. وقيل: تمور كالدهن صافية[٣]. وقال قتادة: لونها حينئذٍ الحمرة كالدهان في صفاء الدهن وإشراقه. وقال قوم: إنّ السماء تذوب يوم القيامة من حرّ نار جهنّم فتصير حمراء ذائبة كالدهن[٤]. قال الجبّائي: وروي «أنّ السماء الدنيا من حديد»[٥] وليس في الآية ما يدلّ ما قاله، لاحتمال ذلك ما قاله المفسّرون والأقوال الّتي ذكرناها. وقال الفرّاء: الدهان الأديم الأحمر[٦]. ووجه النعمة في انشقاق السماء حتّى وقع التقرير بها في قوله: ﴿فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان﴾ هو ما في الإخبار به من الزجر والتخويف بانشقاق السماء فوقع في السبب ولا يصلح في المسبّب أن يكون منفعة، ولكن لسبب النفع الّذي هو الزجر في دار الدنيا، فلذلك وقع التقرير بقوله: ﴿فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان﴾.

وقوله: ﴿فيومئذٍ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جانّ﴾ معناه: لا يسأل في ذلك الموطن لما يلحقه من الدهش والذهول الّذي تحار له العقول، وإن وقعت

(١ و٦) معاني القرآن ٣: ١١٧. (٢) معاني القرآن وإعرابه ٥: ١٠١. (٣) مجاز القرآن ٢: ٢٤٥.
(٤) الكشف والبيان ٩: ١٨٧. (٥) أحكام القرآن للجصّاص ٣: ٤١٥.

المساءلة في وقت غيره بدلالة قوله: ﴿وقفوهم إنّهم مسؤولون﴾[١] وقال قتادة: يكون المسائلة قبل ثمّ يختتم على الأفواه عند الجحد فتنطق الجوارح. وقيل: معناه أنّ يومئذٍ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جانّ ليعرف المذنب من المؤمن المخلص، لأنّ الله تعالى قد جعل عليهم علامة كسواد الوجوه وقبح الخَلق ولم يدخل في ذلك سؤال المحاسبة للتوبيخ والتقريع، لأنّه تعالى قال: ﴿وقفوهم إنّهم مسؤولون﴾ وتقدير الآية: فيومئذٍ لا يسأل إنس عن ذنبه ولا جانّ ذنب عن ذنبه[٢]. وقيل: يجوز أن يكون المراد أنّه لا يسأل أحد من إنس ولا جانّ عن ذنب غيره، وإنّما يسأل هو سؤال توبيخ عن فعل نفسه[٣].

وقوله: ﴿يعرف المجرمون بسيماهم﴾ معناه: أنّ الله تعالى جعل للكفّار والعصاة علامات تعرفهم بها الملائكة، و«السيماء» العلامة. ومنه قوله: ﴿سيماهم في وجوههم من أثر السجود﴾[٤] وهو مشتقّ من السوم وهو رفع الثمن عن مقداره، ومنه ﴿مسوّمين﴾[٥] أي معلّمين بعلامة، والعلامة يرفع بإظهارها لتقع المعرفة بها، والمعرفة هي العلم عند المتكلّمين. وقال بعض النحويّين: إنّ متعلّق المعرفة المفرد ومتعلّق العلم الجملة، كقولهم: عرفت زيداً وعلمت زيداً قائماً، ولو جئت بقائم في عرفت لكان حالاً ولم يخرج عن معرفة زيد.

وقوله: ﴿فيؤخذ بالنواصي والأقدام﴾ قال الحسن: يجمع بين ناصيته وقدمه بالغلّ فيسحب إلى النار. والناصية شعر مقدّم الرأس، ومنه ناصية

---

(١) الصافّات: ٢٤. (٢) راجع معاني القرآن ٣: ١١٧، معاني القرآن وإعرابه ٥: ١٠١.
(٣) راجع الكشف والبيان ٩: ١٨٨. (٤) الفتح: ٢٩. (٥) آل عمران: ١٢٥.

الفرس، ومنه قوله تعالى: ﴿لنسفعاً بالناصية﴾[١] أي ليقترن بها ما سحقته النار إذلالاً لها، وأصله الاتّصال من قول الشاعر:

فيّ يُناصيها بِلأدقيّ[٢]

أي يتّصل بها، فالناصية متّصلة بالرأس. و ﴿الأقدام﴾ جمع قدم وهو العضو الّذي يقدّمه صاحبه للوطئ به على الأرض. وقيل: يأخذهم الزبانية بنواصيهم وأقدامهم فتسحبهم إلى النار، أي تأخذهم تارة بذا وتارة بذا[٣]. وقال الحسن وقتادة: يعرفون بأنّهم سود الوجوه زرق العيون، كما قال تعالى: ﴿يوم تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه﴾[٤] ﴿فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان﴾ وجه النعمة بذلك ما فيه من الزجر عن المعاصي والترغيب في الطاعات، وذلك نعمة من الله على العباد في الدين.

وقوله: ﴿هذه جهنّم الّتي يكذّب بها المجرمون﴾ معناه: يقال لهم يوم القيامة إذا شاهدوا جهنّم: ﴿هذه جهنّم﴾ ويحتمل أن يكون المراد هذه جهنّم الّتي وصفتها هي الّتي يكذّب بها المجرمون الكفّار بنعم الله.

﴿يطوفون بينها وبين حميم آن﴾ قيل: يطوفون بين أطباقها في عذاب النار وبين الحميم آن. و«الحميم» الماء الحارّ. و«الآن» الّذي بلغ نهايته. والمراد هاهنا هو الّذي قد بلغ نهاية حرّه من أنى يأني أنياً فهو آنٍ، ومنه قوله: ﴿غير ناظرين إناه﴾[٥] يعني نضاجه وبلوغه غايته[٦] ﴿فبأيّ آلاء

---

(١) العلق: ١٥.

(٢) العين: ٦٩٤، مادة «قوا»، معجم تهذيب اللغة ٣: ٣٠٧١. مادّة «قوا». مع اختلاف.

(٣) تفسير الطبري ١١: ٦٠٠.

(٤) آل عمران: ١٠٦.

(٥) الأحزاب: ٥٣.

(٦) تفسير الطبري ١١: ٦٠٠.

ربّكما تكذّبان﴾ والإخبار بذلك لطف وزجر عن المعاصي، فلذلك كانت نعمة اعتدّ بها وقرّر بها.

قوله تعالى:

وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَـٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَـٰٓائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ عشر آيات بلا خلاف.

[أقول:][١] لمّا وصف الله تعالى ما أعدّ للكفّار من أنواع العذاب، بيّن بعد ذلك ما أعدّ للمؤمنين والمتّقين، فقال: ﴿ولمن خاف مقام ربّه جنّتان﴾ والمعنى: ولمن خاف المقام الّذي يقفه فيه ربّه للمساءلة عمّا عمل في ما يجب عليه ممّا أمره به أو نهاه عنه، فيكفّه ذلك عمّا يدعوه هواه إليه يصبر صبر مؤثر للهدى على طريق الردى. و«المقام» الموضع الّذي يصلح للقيام فيه وبضمّ الميم الموضع الّذي يصلح للإقامة فيه. والجنّتان اللّتان وعد الله من وصفه بهما قيل: هما جنّتان: إحداهما داخل قصره، والأُخرى خارج قصره على ما طبع الله تعالى العباد عليه من شهوة ذلك وجلالته فشوّقوا إلى ما في طباعهم شهوة مثله[٢].

ثمّ وصف الجنّتين فقال: ﴿ذواتا أفنان﴾ والأفنان جمع «فنّ»[٣] وهو الغصن الغضّ الورق، ومنه قولهم: له فنون، وهذا فنّ آخر أي نوع آخر أي

---

(١) من الحجريّة. (٢) النكت والعيون ٥: ٤٣٨.

(٣) كذا في النسخ والظاهر «فَنَن» كما في مجمع البيان.

ضرب آخر، وفيه فنون أي ضروب مختلفة، ويجوز أن يكون جمع فنّ. وقال ابن عبّاس: معناه: ذواتا ألوان. وقال عكرمة: ظلّ الأغصان على الحيطان. وقال الضحّاك: ذواتا ألوان يفضل بها على ما سواها ﴿فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان﴾ قد بيّنّاه.

وقوله: ﴿فيهما عينان تجريان﴾ إخبار منه تعالى أنّ في الجنّتين اللّتين وعدتهما المؤمنين عينين من الماء تجريان بين أشجارها. فالجاري هو الذاهب ذهاب الماء المنحدر، فكلّ ذاهب على هذه الصفة فهو جار، وُصِفت بالعين لصفائها أو بأنّها جارية لأنّه أمتع لها ﴿فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان﴾ قد فسّرناه.

وقوله: ﴿فيهما من كلّ فاكهة زوجان﴾ معناه: إنّ في تلك الجنّتين من كلّ ثمرة نوعين وضربين متشاكلين كتشاكل الذكر والأنثى، فلذلك سمّاهما «زوجين» وذلك بالرطب واليابس من العنب والزبيب والتين الرطب واليابس، فكذلك سائر الأنواع لا يقصر يابسه عن رطبه في الفضل والطيب إلّا أنّه امتع وأعذب بأن يكون على هذا المنهاج. وقيل: فيهما من كلّ نوع من الفواكه ضربان[1] ضرب معروف وضرب من شكله غريب. وكلّ ذلك للإطراف والإمتاع ﴿فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان﴾.

﴿متّكئين على فرش بطائنها من استبرق﴾ فالاتّكاء الاستناد للتكرمة والإمتاع والمتّكأ هو ما يطرح للإنسان في مجالس الملوك للإكرام والإجلال، اتّكا يتّكئ اتّكاءاً. فهو متّكئ، ومنه وكاة السقاء إذا شددته،

---

(١) تفسير الطبري ١١: ٦٠٤.

ومنه قوله ﷺ: «العين وكاء الجسد»[١] والاتّكاء شدّة التقوية للإكرام والإمتاع. وهو نصب على الحال ﴿على فرش﴾ وهو جمع فراش وهو الموطّأ الممهّد للنوم عليه. «بطائنها» وهو جمع بطانة وهي باطن الظهار، فالبطانة من أسفله والظهارة من أعلاه.

وقوله: ﴿وجنا الجنّتين دان﴾ فالجنى الثمرة الّتي قد أدركت في الشجرة وصلح أن تجنى غضّه، قال الشاعر:

هذا جناي وخياره فيه ... إذ كلّ جان يده إلى فيه[٢]

والإستبرق: الغليظ من الديباج، في قول عكرمة وابن إسحاق. وقيل: إنّ ثمارها دانية لا يردّ يده عنها بُعدٌ ولا شوك، في قول قتادة. وقيل: الظواهر من سندس وهو الديباج الرقيق، والبطائن من إستبرق وهو الديباج الغليظ. وقيل: الإستبرق المتاع الصيني من الحرير، وهو بين الغليظ والرقيق[٣]. وقال الفرّاء: الإستبرق غليظ الديباج[٤]. وقوله: ﴿فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان﴾ قد تكرّر تفسيره.

قوله تعالى:

فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ
جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا
جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ عشر آيات بلا خلاف.

---

(١) راجع بدائع الصنائع ١: ٣١. فيه: العينان وكاء الإست.

(٢) النكت والعيون ٥: ٤٣٩، الغريبين ١: ٣٨٠، العين: ١٥٥ مادّة «جنى».

(٣) مجاز القرآن ٢: ٢٤٥.

(٤) معاني القرآن ٣: ١١٨.

[أقول:][١] قرأ الكسائي ﴿لم يطمثهن﴾ بكسر إحداهما وضمّ الأُخرى[٢] الباقون بكسرهما وهما لغتان، يقال: طمثت المرأة تطمث وتطمّث إذا حاضت. قال الزجّاج وغيره: في الآية دلالة على أنّ الجنّ تنكح[٣]. وقال الفرّاء: لم ينكحهنّ إنس ولا جانّ نكاح تدمية أي لم يقتضّهنّ[٤] والطمث الدم. والضمير في قوله: ﴿فيهنّ قاصرات الطرف﴾ عائد على الفرش الّتي بطائنها من إستبرق، لأنّه قد تقدّم ذكره، وكان أولى بالعود عليه، ولو لم يتقدّم هذا الذكر لجاز أن يرجع إلى الجنان وإلى الجنّتين المذكورتين وغيرهما من الجنان لأنّه معلوم، لكن المذكور أولى، لأنّ اقتضاءه له أشدّ. و«القاصر» المانع من ذهاب الشيء إلى جهة من الجهات، فالحور قاصرات الطرف عن غير أزواجهنّ إلى أزواجهنّ. و«الطرف» جفن العين، لأنّه طرف لها، فيطبق عليها تارة وينفتح تارة، ومنه الأطراف بالأمر لأنّه كالطرف الّذي يليك بحدوثه لك.

وقوله: ﴿لم يطمثهنّ﴾ قيل في معناه قولان:

أحدهما: قال مجاهد وابن زيد وعكرمة: لم يمسسهنّ بجماع من قولهم: ما طمث هذا البعير جمل قطّ أي ما مسّه جمل.

الثاني: قال ابن عبّاس: لم يُدْمِهنّ بنكاح من قولهم: امرأة طامث أي حائض كأنّه قال هنّ أبكار لم يقتضّهنّ أحد قبلهم. والأصل المسّ، كأنه ما مسّها دم الحيض[٥]. وقيل: إنّما نفى الجانّ، لأنّ للمؤمنين منهم لهم

---

(١) من الحجريّة.

(٢) في هذا وفي الآية ٧٤ من هذه السورة.

(٣) معاني القرآن وإعرابه ٥: ١٠٣.

(٤) معاني القرآن ٣: ١١٩. فيه: لم يفتضضهنّ.

(٥) النكت والعيون ٥: ٤٣٩.

أزواجاً من الحور، وهو قول ضمرة بن حبيب. قال البلخي: المعنى: إنّ ما يهب الله لمؤمني الجنّ من الحور العين لم يطمثهنّ جانّ، وما يهب الله لمؤمني الإنس لم يطمثهنّ إنس قبلهم، على أنّ هذا مبالغة. وقال ضمرة بن حبيب: في الآية دلالة على أنّ للجنّ ثواباً فالإنسيّات للإنس والجنّيات للجنّ ﴿فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان﴾ قد مضى تفسيره.

وقوله: ﴿كأنّهن الياقوت والمرجان﴾ قال الحسن: هنّ على صفاء الياقوت في بياض المرجان. وقيل: كالياقوت في الحسن والصفاء والنور. وقال الحسن: المرجان أشدّ اللؤلؤ بياضاً وهو صغاره ﴿فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان﴾ قد بيّنّاه.

وقوله: ﴿هل جزاء الإحسان إلّا الإحسان﴾ معناه ليس جزاء من فعل الأعمال الحسنة وأنعم على غيره إلّا أن ينعم عليه بالثواب ويحسن إليه ﴿فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان﴾ قد مضى بيانه.

وقوله: ﴿ومن دونهما جنّتان﴾ معناه: أنّ من دون الجنّتين اللّتين ذكرنا ﴿لمن خاف مقام ربّه﴾ جنّتين آخرتين دون الأولتين، وإنّهما أقرب إلى قصره ومجالسه في قصره ليتضاعف له السرور بالتنقّل من جنّة إلى جنّة على ما هو معروف في طبع البشرية من شهوة مثل ذلك. ومعنى «دون» مكان قريب من الشيء بالإضافة إلى غيره، ممّا ليس له مثل قربه، وهو ظرف مكان. وإنّما كان التنقّل من جهة إلى جهة أنفع، لأنّه أبعد من الملل على ما طبع عليه البشر، لأنّ من الأشياء مالايملّ لغلبة محبّته على النفس بالأمر اللازم، ومنها ما يملّ لتطلع النفس إلى غيره، ثمّ الرجوع إليه.

وقوله: ﴿مدها متّان﴾ معناه خضراوتان تضرب خضرتهما إلى السواد

من الري على أتمّ مايكون من الحسن، لأنّ الله شوّق إليهما ووعد المطيعين في خوف مقامه بهما، فناهيك بحسن صفتهما وما يقتضيه ذكرهما في موضعهما. وقال ابن عبّاس وابن الزبير وعطيّة وأبو صالح وقتادة: هما خضراوان من الريّ. وقال قوم: الجنان الأربع ﴿لمن خاف مقام ربّه﴾ ذهب إليه ابن عبّاس[1]. وقال الحسن: الأُوليان للسابقين والأخيرتان للتابعين.

قوله تعالى:

فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَـٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَـٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ثلاث عشرة آية.

[أقول:][2] قرأ أهل الشام ﴿ذو الجلال﴾ على الرفع على أنّه نعت لـ﴿اسم﴾ الباقون بالخفض على أنّه نعت لـ﴿ربّك﴾.

وقوله: ﴿فيهما﴾ يعني الجنّتين اللّتين وصفهما بأنّهما ﴿مدها مّتان﴾ ﴿عينان نضّاختان﴾ فعين الماء المكان الّذي ينبع منه الماء. ومعنى ﴿نضّاختان﴾ فوّارتان بالماء. وقيل: نضّاختان بكلّ خير[3]. والنضخ بالخاء أكثر من النضح بالحاء، لأنّ النضح غير المعجمة الرشّ وبالخاء كالبرك والفوّارة الّتي ترمي بالماء صعداء، نضخ ينضَخ نضخاً فهو ناضخ. وفي

(١) النكت والعيون ٥: ٤٤٠. (٢) من الحجريّة. (٣) معاني القرآن وإعرابه ٥: ١٠٣.

نضّاخة مبالغة، ووجه الحكمة في العين النضّاخة أنّ النفس إذا رأت الماء يفور كان أمتع، وذلك على ما جرت به العادة ﴿فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان﴾.

وقوله: ﴿فيهما فاكهة ونخل ورمّان﴾ إخبار منه تعالى أنّ في الجنّتين المتقدّم وصفهما ﴿فاكهة﴾ وهي الثمار ﴿ونخل ورمّان﴾ وإنّما أفرد ذكر النخل والرمّان من الفاكهة وإن كان من جملتها تنبيهاً على فضلهما وجلالة النعمة بهما، كما أفرد ذكر جبرائيل وميكائيل في قوله: ﴿من كان عدوّاً لله وملائكته ورسوله وجبريل وميكال فإنّ الله عدوّ للكافرين﴾[1] وقال قوم: ليسا من الفاكهة بدلالة الآية[2]. وليس له في ذلك حجّة، لاحتمال ما قلناه. قال يونس النحوي: النخل والرمّان من أفضل الفاكهة وإنّما فصّلا لفضلهما و«النخل» شجر الرطب والتمر. و«الرمّان» مشتقّ من رمّ يرمّ رمّاً، لأنّ من شأنه أن يرمّ الفؤاد بجلائه له.

﴿فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان﴾ قد مضى بيانه.

وقوله: ﴿فيهنّ خيرات حسان﴾ قال أبو عبيدة: امرأة خيرة ورجل خير، والجمع خيرات. والرجال أخيار، قال الشاعر:

ولقد طعنتُ مجامع الرَبَلات ربُلات هند خَيرة المَلِكات[3]

وقال الزجّاج: أصل ﴿خيرات﴾ خيّرات، وخفّف[4]. وفي الخبر المرفوع «إنّ المعنى خيرات الأخلاق حسان الوجوه»[5] وإنّما قيل للمرأة في الجنّة: خيرة، لأنّها ممّا ينبغي أن تختار لفضلها في أخلاقها وأفعالها، وهي مع ذلك حسنة الصورة، فقد جمعت الأحوال الّتي تجلّ بها النعمة

---

(١) البقرة: ٩٨.
(٢ و ٤) معاني القرآن وإعرابه ٥: ١٠٣ ـ ١٠٤.
(٣) مجاز القرآن ٢: ٢٤٦.
(٥) الاختصاص: ٣٥٢.

﴿فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان﴾ قد بيّـنّا معناه.

وقوله: ﴿حور مقصورات في الخيام﴾ فالحور البيض الحسان البـياض، ومنه الدقيق الحواري لشدّة بياضه، والعين الحوراء إذا كانت شديدة بياض البياض، وشديدة سواد السواد، وبذلك يتمّ حسن العين. وقال ابن عبّاس والحسن ومجاهد: الحور: البيض. وقوله: ﴿مقصورات﴾ أي قـصرن عـلى أزواجهنّ، فلا يردن بدلاً منهم، في قول مـجاهد والربـيع. وقـيل: مـعناه محبوسات في الحجال، في قول ابن عبّاس وأبي العالية ومحمّد بن كعب والضحّاك والحسن، وعلى وجه الصيانة لهنّ والتكرمة لهـنّ عـن البـذلة. وقال أبو عبيدة: مقصورات أي مخدّرات[١]. و «الخيام» جمع خيمة وهو بيت من الثياب على الأعمدة والأوتاد ممّا يتّخذ للأصحار، فـإذا أصـحر هؤلاء الحور كانت لهنّ الخيام في تلك الحال وغيرها ممّا ينفي الابتذال. وقال الزجّاج: يقال للهوادج: الخيام. وقال عبد الله: «الخيام» درّ مـجوّف على هيئة البيت[٢] وقال ابن عبّاس: بيوت اللـؤلؤ. وقـيل: الخـيمة درّة مجوّفة فرسخ في فرسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب[٣].

﴿فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان﴾ قد مضى بيانه.

وقـوله: ﴿لم يطمثهنّ إنس قبلهم ولا جانّ فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان﴾ قـد مضى تفسيره. قال البلخي: في الآية دلالة على قول الحسن البصري: أنّ الحور العين هنّ أزواجهم في الدنيا إذا كنّ مؤمنات مطيعات لأنّ الله قال: ﴿لم يطمثهنّ إنس قبلهم ولا جانّ﴾ وقـال مـن نـصر الحسـن: إنّ المـراد

(١) مجاز القرآن ٢: ٢٤٦.
(٢) معاني القرآن وإعرابه ٥: ١٠٤.
(٣) تفسير السمرقندي ٣: ٣٨٨.

لم يطمثهنّ بعد النشأة الثانية إنس قبلهم ولا جانّ. وإنّما كرّر قوله: ﴿لم يطمثهنّ﴾ في الآية للبيان على أنّ صفة الحور المقصورات في الخيام كصفة القاصرات الطرف مع تمكين التشويق بهذه الحال الجليلة الّتي رغب فيها كلّ نفس سليمة.

وقوله: ﴿متّكئين على رفرف خضر وعبقريّ حسان﴾ «متّكئين» نصب على الحال، وقد فسّرنا معناه. و«الرفارف» جمع رفرف، وهي المجالس، في قول ابن عبّاس وقتادة والضحّاك. وقيل: الرفرف هي فضول المجالس للفرش. وقال الحسن: هي المرافق، وقيل: الرفارف الوسائد. وقيل: الرفرفة الروضة[١]. وأصله من رفّ النبت يرفّ إذا صار غضّاً نضراً. وقيل لما في الأطراف: رفرف، لأنّه كالنبت الغضّ الّذي يرفّ من غضاضته. والخضر جمع أخضر. والعبقري الزرابي، في قول ابن عبّاس وسعيد بن جبير وقتادة، وهي الطنافس. وقال مجاهد: هو الديباج. وقال الحسن: هو البسط. وقيل: عبقر اسم بلد ينسج به ضروب من الوشي الحسن، قال زهير:

بخيل عليها جنّة عبقرية
جَديرُون يوماً أن ينالوا ويستعلوا[٢]

وقيل: الموشّى من الديباج عبقري تشبيهاً بذلك[٣] ومن قرأ ﴿عباقري﴾ فقط غلط لأنّه لا يكون بعد ألف الجمع أربعة أحرف ولا ثلاثة إلّا أن يكون الثاني حرف لين نحو «قناديل»[٤].

(١ و٣) النكت والعيون ٥: ٤٤٣ ـ ٤٤٤.

(٢) ديوانه: ٥٩، مجاز القرآن ٢: ٢٤٦، الكشف والبيان ٩: ١٩٨، معاني القرآن وإعرابه ٥: ١٠٥. فيهم بدل «جبّة» جِنّة.

(٤) تفسير الطبري ١١: ٦٢٠.

وقوله: ﴿تبارك اسم ربّك﴾ معناه: تعاظم وتعالى اسم ربّك، لأنّه يستحقّ أن يوصف بما لا يوصف به أحد من كونه قديماً وإلهاً، وقادراً لنفسه وعالماً حيّاً لنفسه وغير ذلك.

وقوله: ﴿ذي الجلال والإكرام﴾ خفض، لأنّه بدل من قوله: ﴿ربّك﴾ ومعنى «الجلال» العظمة و«الإكرام» الإعظام بالإحسان والإنعام. وقال الحسن: الإكرام الّذي يكرم به أهل دينه وولايته. ومن قرأ ﴿ذو الجلال﴾ بالرفع أراد انّ اسم الله فيه البركة، وإذا قرئ بالخفض دلّ على أنّ اسم الله غير الله، لأنّه لو كان اسمه هو الله لجرى مجرى ذكر وجهه، ألا ترى أنّه لمّا قال: ﴿ويبقى وجه ربّك ذو الجلال والإكرام﴾ [1] ورفعه، لأنّه أراد الله تعالى وهاهنا بخلافه.

---

(١) من هذه السورة: ٢٧.

سورة الواقعة

هي مكّية بلا خلاف، وهي تسع وتسعون آية حجازي وشامي، وسبع وتسعون بصرى، وستّ وتسعون كوفي، وسبع وتسعون في المدنيين. وروي عن مسروق أنّه قال: من أراد أن يعلم نبأ الأوّلين ونبأ الآخرين ونبأ أهل الجنّة ونبأ أهل النار ونبأ الدنيا ونبأ الآخرة، فليقرأ الواقعة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[قوله تبارك وتعالى][(1)]

إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَـٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلسَّـٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾.

ستّ عشرة آية كوفي، وسبع عشرة آية بصري وشامي، وثمان عشرة

---

(1) من الحجريّة.

آية حجازي، عدّ الكلّ ﴿وأصحاب الميمنة وأصحاب المشئمة﴾ ولم يعدّه الكوفيّون. وعدّ الحجازيّون والكوفيّون ﴿موضونة﴾ ولم يعدّه الباقون.

[أقول:][١] ﴿إذا﴾ متعلّقة بمحذوف، وتقديره اذكروا ﴿إذا وقعت الواقعة﴾ قال المبرّد: إذا وقعت، معناه إذا تقع، وإنّما وقع الماضي هاهنا لأنّ ﴿إذا﴾ للاستقبال ومعناه: إذا ظهرت القيامة وحدثت. و«الوقوع» ظهور الشيء بالحدوث، وقع يقع وقوعاً فهو واقع، والأُنثى واقعة ﴿وإذا﴾ تقع للجزاء.

﴿ليس لوقعتها كاذبة﴾ معناه قال الفرّاء: ليس لها مردودة ولا ردّ[٢]. وقيل: ليس لوقعتها قضيّة كاذبة فيها، لإخبار الله تعالى بها ودلالة العقل عليها. وقال قوم: معناه ليس لها نفس كاذبة في الخبر بها[٣]. وقيل: الكاذبة هاهنا مصدر مثل العاقبة والعافية[٤]. وقال الضحّاك: القيامة تقع بصيحة عند النفخة الثانية.

وقوله: ﴿خافضة رافعة﴾ قيل: تخفض قوماً بالمعصية وترفع قوماً بالطاعة، لأنّها إنّما وقعت للمجازاة، فالله تعالى يرفع أهل الثواب ويخفض أهل العقاب، فهو مضاف إلى الواقعة على هذا المعنى. وقال الحسن: تخفض أقواماً إلى النار، وترفع أقواماً إلى الجنّة. والقرّاء كلّهم على رفع خافضة بتقدير هي خافضة رافعة. وقرأه الترمذي في اختياره بالنصب على الحال، وتقديره إذا وقعت الواقعة تقع خافضة رافعة على الحال[٥].

وقوله: ﴿إذا رجت الأرض رجّاً﴾ معناه: زلزلت الأرض زلزالاً، في قول

(١) من الحجريّة.
(٢ و٤) معاني القرآن ٣: ١٢١.
(٣) راجع النكت والعيون ٥: ٤٤٦.
(٥) معاني القرآن وإعرابه ٥: ١٠٧.

ابن عبّاس ومجاهد وقتادة. والزلزلة الحركة باضطراب واهتزاز، ومنه قولهم: ارتجّ السهم عند خروجه عن القوس. وقيل: ترتجّ الأرض بمعنى أنّه ينهدم كلّ بناء على الأرض[١].

وقوله: ﴿وبسّت الجبال بسّاً﴾ معناه: فتّت فتّاً، في قول ابن عبّاس ومجاهد وأبي صالح والسدّي. وهو كما يبُسّ السويق أي يلُتّ. والبسيس السويق أو الدقيق يلُتّ ويتّخذ زاداً. وقال لصّ من غطفان:

لا تخبزاً خبزاً وبُسّا بَسّا ولا تُطيلا بمُناخ حَبْسا[٢]

وقال الزجّاج: يجوز أن يكون معنى «بسّت» سيقت وأنشد:

وانبسّ حيّاتُ الكثيب الأهْيَل[٣]

وقوله: ﴿فكانت هباء منبثّاً﴾ فالهباء غبار كالشعاع في الرقّة، وكثيراً ما يخرج مع شعاع الشمس من الكوّة النافذة، فسبحان الله القادر على أن يجعل الجبال بهذه الصفة. والانبثاث افتراق الأجزاء الكثيرة في الجهات المختلفة، فكلّ أجزاء انفرشت بالتفرّق في الجهات فهي منبثّة. وفي تفرّق الجبال على هذه الصفة عبرة ومعجزة لا يقدر عليها إلّا الله تعالى.

وقوله ﴿وكنتم أزواجاً ثلاثة﴾ معناه: كنتم أصنافاً ثلاثة، كلّ صنف يشاكل ما هو منه كما يشاكل الزوج الزوجة، ولذلك قيل على هذه: المزاوجة، قد زاوج بين الكلامين: أي شاكل بينهما.

---

(١) معاني القرآن ٣: ١٢١.

(٢) ديوان الأدب ٣: ١٢٤، الصحاح ٣: ٩٠٨ مادّة «بسّ» النكت والعيون ٥: ٤٤٧. المصرع الثاني في الحجريّة «مَلْسا بذَوا الحَلَسيّ مَلْسا» كما في تفسير الطبري ١١: ٦٢٤، معاني القرآن ٣: ١٢١.

(٣) معاني القرآن وإعرابه ٥: ١٠٨، جمهرة اللغة ١: ٣٠ مادّة «بسّ» الحيوان ٤: ٢٥٦.

وقوله: ﴿فأصحاب الميمنة﴾ يعني: أصحاب اليمن والبركة والثواب من الله تعالى. وقوله: ﴿ما أصحاب الميمنة﴾ بصورة الاستفهام، والمراد تعظيم شأنهم في الخبر عن حالهم.

﴿وأصحاب المشئمة﴾ معناه: الشؤم والنكد وعقاب الأبد. وقوله: ﴿ما أصحاب المشأمة﴾ على تعظيم شأنهم في الشرّ وسوء الحال. وقيل: أصحاب الميمنة هم الّذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنّة، وأصحاب المشأمة الّذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار(١) وخبر أصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة، كأنّه قيل: أيّ شيء هم ؟ وفيه تعجيب عن حالهم. وقيل: أصحاب اليمين هم الّذين يعطون كتبهم بأيمانهم، وأصحاب الشمال الّذين يأخذون كتبهم بشمالهم.

وقوله: ﴿والسابقون السابقون﴾ معناه: الّذين سبقوا إلى اتّباع الأنبياء فصاروا أئمّة الهدى. وقيل: السابقون إلى طاعة الله السابقون إلى رحمته، والسابقون إلى الخير إنّما كانوا أفضل لأنّهم يقتدى بهم في الخير ويسبقوا إلى أعلى المراتب قبل مَن يجيء بعدهم فلهذا تميّزوا من التابعين بما لا يلحقونهم به ولو اجتهدوا كلّ الاجتهاد. و«السابقون» الثاني يصلح أن يكون خبراً عن الأوّل، كأنّه قال: والسابقون الأوّلون في الخير، ويصلح أن يكون ﴿أولئك المقرّبون﴾(٢).

وقوله: ﴿أولئك المقرّبون﴾ معناه: الّذين قربوا من جزيل ثواب الله وعظيم كرامته بالأمر الأكثر الّذي لا يبلغه من دونهم في الفضل. والسابقون

(١) تفسير الطبري ١١: ٦٢٦.

(٢) معاني القرآن و إعرابه ٥: ١٠٩، معاني القرآن ٣: ١٢٢.

إلى الطاعات يقرَّبون إلى رحمة الله في أعلا المراتب وأقربها إلى مجالس كرامته بما يظهر لأهل المعرفة منزلة صاحبه في جلالته ويصل بذلك السرور إلى قلبه.

وإنّما قال: ﴿في جنّات النعيم﴾ مع أنّه معلوم من صفة المقرّبين، لئلّا يتوهّم أنّ التقريب يخرجهم إلى دار أُخرى، وإنّما هم مقرّبون من كرامة الله في الجنّة لأنّها درجات ومنازل بعضها أرفع من بعض. والفرق بين النعيم والنعمة أنّ النعمة تقتضي شكر المنعم من أنعم عليه نعمة وإنعاماً. و«النعيم» من نعم نعيماً كقولك أنتفع انتفاعاً.

وقوله: ﴿ثلّة من الأوّلين﴾ فالثلّة الجماعة. وأصله القطعة من قولهم: ثلّ عرشه إذا قطع ملكه بهدم سريره. والثلّة القطعة من الناس. وقال الزجّاج: الثلّ القطع، والثلّة كالفرقة والقطعة. وهو خبر ابتداء محذوف، وتقديره: هم ثلّة من الأوّلين، وهم قليل من الآخرين.

وقوله: ﴿وقليل من الآخرين﴾ إنّما قال ذلك لأنّ الّذين سبقوا إلى إجابة النبيّ ﷺ قليل من كثير ممّن سبق إلى النبيّين[١].

وقوله: ﴿على سرر موضونة﴾ فالموضونة المنسوجة المداخلة كصفة الدرع المضاعفة، قال الأعشى:

ومن نسج داود موضونة ... تساق إلى الحيّ عيراً فعيرا[٢]

ومنه ﴿وضين الناقة﴾ وهي البطان من السيور إذا نسج بعضه

---

(١) معاني القرآن و إعرابه ٥: ١٠٩، معاني القرآن ٣: ١٢٢.

(٢) شرح ديوان الأعشى: ٨٩، مجاز القرآن ٢: ٢٤٨، معاني القرآن وإعرابه ٥: ١١٠، الكشف والبيان ٩: ٢٠٣.

على بعض مضاعفاً. وقيل: موضونة مشبّكة بالذهب والجوهر، وقال ابن عبّاس ومجاهد: موضونة بالذهب. وقال عكرمة: مشبّكة بالدرّ. وقال ابن عبّاس في رواية أُخرى: موضونة معناه: مظفورة، والوضين حبل منسوج من سيور[١].

وقوله: ﴿متّكئين عليها متقابلين﴾ معناه: مستندين متحاذيين كلّ واحد بإزاء الآخر، وذلك أعظم في باب السرور. والتقابل والتحاذي والتواجه واحد. والمعنى إنّ بعضهم ينظر إلى بعض وينظر إلى وجه بعض لا ينظر في قفاه، من حسن عشرته وتهذيب أخلاقه.

قوله تعالى:

يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾.

عشر آيات كوفي ومدني الأخير، وتسع فيما عداه، عدّ المكّي وإسماعيل ﴿وأباريق﴾ ولم يعدّه الباقون. وعدّ المدني والكوفي ﴿وحور عين﴾ ولم يعدّه الباقون.

[أقول:][٢] قرأ أبو جعفر وأهل الكوفة إلّا عاصماً وخلفاً ﴿وحور عين﴾ خفضاً. الباقون بالرفع. فمن رفع حمله على: ولهم حور عين. واختاروا الرفع لأنّ الحور العين لا يطاف بهنّ، وإنّما يطاف بالكأس، وعلى هذا يلزم أن يقرأ ﴿وفاكهة﴾ رفعاً وكذلك ﴿ولحم طير﴾ بالرفع لأنّهما لا يطاف بهما،

---

(١) تفسير الطبري ١١: ٦٢٨.

(٢) من الحجريّة.

فما اعتذروا في ذلك فهو عذر من قرأ بالخفض. ومن خفض عطف على الأوّل لتشاكل الكلام من غير إخلال بالمعنى إذ هو مفهوم. وقال الزجّاج: ويكون تقديره ينعمون بكذا وحور عين[١]. وقال أبو عليّ: تقديره وفي مجاورة حور عين أو معانقة حور عين[٢] لأنّ الكلام الأوّل يدلّ عليه، وقال الشاعر:

إذا ما الغانيات برزن يوماً ... وزَجَّجْن الحواجب والعيونا[٣]

والمعنى وكحلن العيون فردّه على قوله: «وزجّجن» ومثله:

(متقّلداً سيفاً ورمحاً)[٤]

أي وحاملاً رمحاً. وكان يجوز النصب على تقدير ويعطون حوراً عيناً كما قال الشاعر:

جئني بمثل بني بدر لقومهم ... أو مثل إخوة منظور بن سَيّار[٥]

لمّا كان معنى جئني هات عطف «أو مثل» على المعنى. وقال الحسن: الحور البيض. وقال مجاهد: يحار فيهنّ البصر.

لمّا ذكر الله تعالى أنّ السابقين إلى الخيرات والطاعات هم المقرّبون إلى نعيم الجنّة وثوابها، فإنّهم على سرر موضونة متقابلين، أخبر أنّه ﴿يطوف عليهم ولدان﴾ يعني صبيان ﴿مخلّدون﴾ فالطوف الزور بالتنقّل في المكان، ومنه الطائف الّذي يطوف بالبلد على وجه الحرس. والولدان جمع وليد. و﴿مخلّدون﴾ قال مجاهد: معناه: باقون لهم لا يموتون. وقال الحسن:

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٥: ١١١.
(٢) الحجّة للقرّاء السبعة ٤: ٢١.
(٣) معاني القرآن ٣: ١٢٣، الكشف والبيان ٩: ٢٠٤، معجم تهذيب اللغة ٢: ١٥١٣، مادّة «زجّ».
(٤) مرّ في ٥: ٢٤٧، المقتضب ٢: ٥١.
(٥) ديوان جرير: ٢٤٢.

معناه: أنّهم على حالة واحد لا يهرمون، يقال: رجل مخلّد أي باق زماناً أسود اللحية لا يشيب. وقال الفرّاء: معناه مقرّطون والخلد القرط[1]. والأكواب جمع كوب وهي أباريق واسعة الرؤوس بلا خراطيم، في قول قتادة. قال الأعشى:

صليفية طيباً طعمها ... لها زَبَد بين كُوب ودنّ[2]

و«الأباريق» الّتي لها عرى وخراطيم واحدها إبريق. و ﴿كأس من معين﴾ أي يطوفون عليهم أيضاً بكأس من خمر معين ظاهر للعيون جار ﴿لا يصدّعون عنها﴾ أي لا يلحقهم الصداع من شربها ﴿ولا ينزفون﴾ أي لا تنزف عقولهم بمعنى لا تذهب بالسكر، في قول مجاهد وقتادة والضحّاك. ومن قرأ ﴿ينزفون﴾ بالكسر ـ وهو حمزة والكسائي وخلف ـ حمله على أنّه لا تفنى خمرهم. قال الأبرد:

لعمري لئن أنزفتم أو صحوتم ... لبئس الندامى كنتم آل أبجَرا[3]

وقوله: ﴿وفاكهة ممّا يتخيّرون﴾ أي ويطاف عليهم بفاكهة ممّا يختارونه وممّا يشتهونه، أو ينعمون بفاكهة ممّا يشتهونه.

وقوله: ﴿ولحم طير ممّا يشتهون﴾ أي ويطاف عليهم أو ينعمون بلحم طير ممّا يشتهون.

وقوله: ﴿وحور عين﴾ من رفعه حمله على معنى ولهم فيها حور عين، لأنّهنّ لا يطاف بهنّ وإنّما يطاف بالكأس. ومن جرّ فعلى معنى وينعّمون بحور عين أو يحصلون في معانقة حور عين. و«الحور» جمع حوراء،

---

(١) معاني القرآن ٣: ١٢٣. (٢) شرح ديوان الأعشى: ٢٠٨.

(٣) مجاز القرآن ٢: ٢٤٩، تفسير الطبري ١٠: ٤٨٧، النكت والعيون ٥: ٤٥١.

و«الحور» نقاء البياض من كلّ شائب يجري مجرى الوسخ.

وقوله: ﴿كأمثال اللؤلؤ﴾ أي مَثَل هؤلاء الحور في البياض والنقاء مثل اللؤلؤ ﴿المكنون﴾ يعني الدرّ المصون عمّا يلحق به من دنس، كأنّه مأخوذ من أنّ الدرّة تبقى على حسنها أكثر ممّا يبقى غيرها لطبعها وصيانة الناس لها. قال عمر بن أبي‌ربيعة:

وهي زهراء مثل لؤلؤ الغوّاص ميزت من جوهر مكنون[١]

﴿جزاء﴾ أي يفعل ذلك بهم جزاء ومكافأة على ما عملوه في دار الدنيا من الطاعات واجتناب المعاصي.

ثمّ قال: ﴿لا يسمعون فيها لغواً﴾ أي لا يسمع المثابون في الجنّة لغواً يعنى مالا فائدة فيه من الكلام، لأنّ كلّ ما يتكلّمون به فيه فائدة ﴿ولا تأثيماً﴾ ولا يجري فيها ما يؤثم فيه قائله من قبيح القول ﴿إلّا قيلاً سلاماً سلاماً﴾ يعني لكن يسمعون قول بعضهم لبعض على وجه التحيّة ﴿سلاماً سلاماً﴾ إنّهم يتداعون بالسلام على حسن الآداب وكريم الأخلاق الّذي يوجب التوادّ، لأنّ طباعهم قد هذّبت على أتمّ الكمال. ونصب ﴿سلاماً﴾ على تقدير سلّمك الله سلاماً بدوام النعمة وحال الغبطة. وجاز أن يعمل فيه سلّم، لأنّه يدلّ عليه، كما يدلّ على قوله: ﴿والله أنبتكم من الأرض نباتاً﴾[٢] ويصلح أن يكون سلاماً نعتاً لقوله: ﴿قيلاً﴾ ويصلح أن ينتصب بـ«قيل» فالوجوه الثلاثة محتملة. وقيل: ﴿إلّا قيلاً سلاماً سلاماً﴾ أي قولاً يؤدّي إلى السلامة[٣].

---

(١) تفسير الطبري ١٠: ٤٨٩. (٢) نوح: ١٧. (٣) النكت والعيون ٥: ٤٥٢.

قوله تعالى:

وَأَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَـٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَخِرِينَ ﴿٤٠﴾.

أربع عشرة آية كوفي وعند إسماعيل وبصري، وخمس عشرة آية فيما عداه، عدّ المدني والمكّي والبصري ﴿وأصحاب اليمين﴾ ولم يعدّه الباقون. وعدّ المدنيان والمكّي والكوفي والشامي ﴿إنشاء﴾ ولم يعدّه الباقون.

[أقول:][١] قرأ إسماعيل وحمزة وخلف ويحيى ﴿عرباً﴾ مخفّفة. الباقون مثقّلة، وهما لغتان. وروي عن عليّ عليه السلام أنّه قرأ ﴿وطلع منضود﴾ بالعين. والقرّاء على الحاء. وقال عليّ عليه السلام: هو كقوله: ﴿ونخل طلعها هضيم﴾[٢] وقال كالمتعجّب: وما هو شأن الطلع؟! فقيل: له ألا تغيّره؟ قال: القرآن لا يهاج اليوم ولا يحوّل[٣].

وقوله: ﴿وأصحاب اليمين﴾ قيل في معناه ثلاثة أقوال:

أوّلها: الّذين يأخذون كتبهم بأيمانهم.

الثاني: الّذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنّة.

الثالث: أصحاب اليمين والبركة[٤].

وقوله: ﴿ما أصحاب اليمين﴾ معناه ومعنى ﴿ما أصحاب الميمنة﴾ سواء وقد فسّرناه.

---

(١) من الحجريّة. (٢) الشعراء: ١٤٨. (٣) راجع الكشف والبيان ٩: ٢٠٧.

(٤) راجع تفسير الطبري ١١: ٦٣٤، النكت والعيون ٥: ٤٥٣.

وقوله: ﴿في سدر مخضود﴾ فالسدر شجر النبق، و«المخضود» هو الّذي لا شوك فيه وخضد بكثرة جملة وذهاب شوكة[١] في قول ابن‌عبّاس وعكرمة وقتادة ومجاهد والضحّاك. وأصل الخضد عطف العود اللين. فمن هاهنا قيل: لا شوك فيه[٢] لأنّ الغالب على الرطب اللين أنّه لا شوك له.

وقوله: ﴿وطلح منضود﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد وعطاء وقتادة وابن‌زيد: الطلح شجر الموز. وقال أبو عبيدة: الطلح كلّ شجر عظيم كثير الشوك، وقال الحارثي:

بشّرها دليلها وقالا غداً تَرين الطلح والجبالا[٣]

وقال الزجّاج: «الطلح» شجر أُمّ غيلان[٤]. وقد يكون على أحسن حال. و«المنضود» هو الّذي نضد بعضه على بعض من الموز ـ ذكره ابن عبّاس ـ وهو من نضدت المتاع إذا عبّيت بعضه على بعض.

قيل: فقِنْو الموز منضود بعضه على بعض ﴿وظلّ ممدود﴾ معناه: دائم لا تنسخه الشمس قال لبيد:

غَلَب البقاء وكنتُ غير مغلَّب دهر طويل دائم ممدود[٥]

وروي في الخبر أنّ «في الجنّة شجرة يسير الراكب في ظلّها مائة سنة»[٦].

---

(١) كذا والظاهر: بكثرة حمله وذهاب شوكه كما في مجمع البيان.
(٢) معاني القرآن ٣: ١٢٤.
(٣) تفسير الطبري ١١: ٦٣٦، النكت والعيون ٥: ٤٥٤.
(٤) معاني القرآن وإعرابه ٥: ١١٢.
(٥) ديوان لبيد: ٦٥، مجاز القرآن ٢: ٢٥٠، تفسير الطبري ١١: ٦٣٧، الكشف والبيان ٩: ٢٠٧.
(٦) المصنّف لعبد الرزّاق ١١: ٤١٧، تفسير السمرقندي ٣: ٣٩٣.

وقوله: ﴿وماء مسكوب﴾ أي مصبوب على الخمر يشرب بالمزاج. وقال قوم: يعني مصبوب يشرب على ما يرى من حسنه وصفائه، ولا يحتاجون إلى تعب في استقائه[1].

وقوله: ﴿وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة﴾ أي وثمار مختلفة كثيرة غير قليلة. وقيل: الوجه في تكرار ذكر الفاكهة البيان عن اختلاف صفاتها فذكرت أوّلاً بأنّها ممّا يتخيّرون، وذكرت هاهنا بأنّها كثيرة وبأنّها لا مقطوعة ولا ممنوعة. ومعناه: لا مقطوعة كما تنقطع فواكه الدنيا في الشتاء في أوقات مخصوصة، ولا ممنوع بتعذّر تناول أو شوك يؤذي كما يكون ذلك في الدنيا.

وقوله: ﴿وفرش مرفوعة﴾ أي عالية، يقال: بناء مرفوع أي عالٍ. وقيل: معناه ونساء مرتفعات القدر في عقولهنّ وحسنهنّ وكمالهنّ[2]. وقال الحسن: فرش مرفوعة بعضها فوق بعض. و«الفرش» المهاد المهيّأ للاضطجاع، فرش يفرُش فرشاً فهو فارش والشيء مفروش، ومنه قوله: ﴿الّذي جعل لكم الأرض فراشاً﴾[3] لأنّها تصلح للاستقرار عليها.

وقوله: ﴿إنّا أنشأناهن إنشاء﴾ معناه: إنّا اخترعنا أزواجهم اختراعاً، وهذا يقوي قول من حمل الفرش على النساء. وقيل: المعنى إنّا أنشأناهنّ من الثيّبة[4] ﴿فجعلناهنّ أبكاراً﴾ و«البكر» الّتي لم يفترعها الرجل، ولم تفتضّ وهي على خلقتها الأُولى من حال الإنشاء. وأصله الأوّل، ومنه بكرة أوّل النهار.

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٥: ١١٢. (٢) راجع الكشف والبيان ٩: ٢٠٩. (٣) البقرة: ٢٢.
(٤) كذا في مصحّح الحجريّة، وفي معاني القرآن ٣: ١٢٥: أنشأنا الصبيّة والعجوز.

و«الابتكار» عمل الشيء أوّلاً. و«الباكورة» أوّل ما يأتي من الفاكهة. والبكر من الإبل الفتى في أوّل أمره وحداثة سنّه. وقال الضحّاك: أبكاراً عذارى. وفي الخبر المرفوع «إنّهنّ كنّ عجائز رمصا في الدنيا»(١).

وقوله: ﴿عربا أترابا﴾ فالعرب العواشق لأزواجهنّ المتحبّبات إليهم، في قول ابن عبّاس والحسن ومجاهد وقتادة. وقال لبيد:

وفي الحدوج عَروب غير فاحشة رَيا الروادفِ يَعْشَى دونَها البصر(٢)

والعُرُب جمع عَروب على وزن «رسول ورسل» وهي اللَعوب مع زَوجها أُنساً به راغبة فيه، كأُنس العربي بكلام العرب، فكأنّ لها فطنة العرب وإلفهم وعهدهم. والأتراب جمع ترب وهو الوليدة الّتي تنشأ مع مثلها في حال الصبى، وهو مأخوذ من لعب الصبيان بالتراب أي هم كالصبيان الّذين على سنّ واحد. قال عمر ابن أبي ربيعة:

أبرزوها مثلَ المَهاة تَهادي بين عشر كواعب أتراب(٣)

وقال ابن عبّاس وقتادة ومجاهد والضحّاك: الأتراب المستويات على سنّ واحد.

وقوله: ﴿لأصحاب اليمين﴾ أي جميع ما تقدّم ذكره لهم جزاء وثواباً على طاعاتهم.

وقوله: ﴿ثلّة من الأوّلين وثلة من الآخرين﴾ فالثلّة: القطعة من الجماعة، فكأنّه قال جماعة من الأوّلين وجماعة من الآخرين. وإذا ذكر بالتنكير

(١) تفسير الطبري ١١: ٦٤١، الكشف والبيان ٩: ٢١١، مع اختلاف.
(٢) مجاز القرآن ٢: ٢٥١، ديوان لبيد: ٨٢، تفسير الطبري ١١: ٦٤١.
(٣) ديوان عمر بن أبي ربيعة: ٤٣١.

كان على معنى البعض من الجملة، كما تقول: رجال من جملة الرجال. وفائدة الآية أنّه ليس هذا لجميع الأوّلين والآخرين. وإنّما هو لجماعة منهم. وروي عن النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أنّه قال: «إنّي لأرجو أن تكون أُمّتي شطر أهل الجنّة»[١] ثمّ تلا قوله: ﴿ثلّة من الأوّلين وثلّة من الآخرين﴾ وقال الحسن: سابقوا مَن مضى أكثر من سابقينا، فلذلك قيل ﴿وقليل من الآخرين﴾[٢] وفي التابعين وثلّة من الآخرين.

قوله تعالى:

وَأَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾.

عشر آيات كوفي عند جميعهم. وإحدى عشر آية في المدني الأوّل. عدّ الكلّ ﴿وأصحاب الشمال﴾ ولم يعدّه الكوفيّون. وعدّ الكلّ ﴿في سموم وحميم﴾ ولم يعدّه الكوفيّون، وعدّ ﴿المكنون﴾ و ﴿كانوا يقولون﴾ ولم يعدّه الباقون. وعدّ الكلّ إلّا إسماعيل والشاميين ﴿الأوّلين والآخرين﴾ وعدّ إسماعيل والشاميون ﴿لمجموعون﴾ ولم يعدّه الباقون.

[أقول:][٣] قيل في معنى قوله: ﴿وأصحاب الشمال﴾ ثلاثة أقوال:

أحدها: إنّهم الّذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى جهنّم.

---

(١) المستدرك للحاكم ٤: ٥٧٨، تفسير الطبري ١١: ٦٤٥، الكشف والبيان ٩: ٢١٣.

(٢) الواقعة: ١٤.

(٣) من الحجريّة.

الثاني: هم الّذين يأخذون كتبهم بشمالهم.

الثالث: الّذين يلزمهم حال الشؤم والنكد. وكلّ هذا من أوصافهم.

وقوله: ﴿ما أصحاب الشمال﴾ معناه معنى قوله: ﴿وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشئمة﴾ وقد فسّرناه.

وقوله: ﴿في سموم وحميم﴾ فالسموم: الريح الحارّة الّتي تدخل في مسامّ البدن، ومسامّ البدن خروقه، ومنه أخذ السمّ، لأنّه يسري في المسامّ. والحميم: الحارّ الشديد الحرارة من الماء، ومنه قوله: ﴿يصبّ من فوق رؤسهم الحميم﴾ (١) وحمّ ذلك أي أدناه كأنّه حرّر أمره حتّى دنا. وقيل: في سمون جهنّم وحميمها (٢).

وقوله: ﴿وظلّ من يحموم﴾ فاليحموم: الأسود الشديد السواد باحتراق النار، وهو «يفعول» من «الحمّ» وهو الشحم المسوّد باحتراق النار. وأسود يحموم أي شديد السواد ﴿وظلّ من يحموم﴾ أي دخان شديد السواد، في قول ابن عبّاس وأبي مالك ومجاهد وقتادة وابن زيد.

وقوله: ﴿لا بارد ولا كريم﴾ معناه: لا بارد كبرد ظلال الشمس، لأنّه دخان جهنّم، ولا كريم، لأنّ كلّ ما انتفى عنه الخير فليس بكريم. وقال قتادة: لا بارد المنزل ولا كريم المنظر.

وقوله: ﴿إنّهم كانوا قبل ذلك مترفين﴾ قال ابن عبّاس: معناه: إنّهم كانوا في الدنيا متنعّمين.

وقوله: ﴿وكانوا يصرّون على الحنث العظيم﴾ قال قتادة ومجاهد: كانوا يقيمون على الذنب العظيم، ولا يتوبون منه، ولا يقلعون عنه. وقال الحسن

---

(١) الحجّ: ١٩.

(٢) تفسير الطبري ١١: ٦٤٦.

والضحّاك وابن زيد: كانوا يقيمون على الشرك العظيم. وقيل: إصرارهم على الحنث هو ما بيّنه الله تعالى في قوله: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت﴾[١] و«الإصرار» الإقامة على الأمر من جهة العزم على فعله، فالإصرار على الذنب نقيض التوبة منه، والحنث نقض العهد المؤكّد بالحلف، فهؤلاء ينقضون العقود الّتي يلزمهم الوفاء بها، ويقمون على ذلك غير تائبين منه. ووصف الذنب بأنّه عظيم أنّه أكبر من غيره ممّا هو أصغر منه من الذنوب.

وقوله: ﴿وكانوا يقولون أئذا متنا وكنّا تراباً وعظاماً أئنّا لمبعوثون أو آباؤنا الأوّلون﴾ ؟! حكاية من الله تعالى عمّا كان يقول هؤلاء الكفّار: من إنكارهم البعث والنشور والثواب والعقاب وأنّهم كانوا يقولون مستبعدين منكرين: أئذا متنا وخرجنا عن كوننا أحياء وصرنا تراباً وعظاماً بالية أئنّا لمبعوثون؟! ولم يجمع ابن عامر بين الاستفهامين إلّا هاهنا، أو يبعث واحد من آبائنا الّذين تقدّموا قبلنا ويحشرون ويردّون إلى كونهم أحياء إنّ هذا لَبعيد. والواو في قوله: ﴿أو آباؤنا﴾ متحرّكة، لأنّها واو العطف دخل عليها ألف الاستفهام.

فقال الله تعالى لنبيّه صلى الله عليه وآله: ﴿قل إنّ الأوّلين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم﴾ أي قل لهم يا محمّد: إنّ مَن تقدّمكم من آبائكم أو غير آبائكم، والآخرين الّذين يتأخّرون عن زمانكم يجمعهم الله ويبعثهم ويحشرهم إلى وقت يوم معلوم عند الله، وهو يوم القيامة.

---

(١) النحل: ٣٨. معاني القرآن وإعرابه ٥: ١١٣.

قوله تعالى:

ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَـٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَـٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَـٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَـٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَـٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ احدى عشرة آية بلاخلاف.

[أقول:][1] قرأنافع وابن عامر وعاصم وحمزة وسهل ﴿شرب الهيم﴾ بضمّ الشين. الباقون بالفتح، وهما لغتان. وقرأ ﴿نحن قدرنا﴾ خفيفة ابن‌كثير. الباقون بالتشديد، وهما لغتان. يقال قدرت، وقدّرت، وقد فرّق بينهما فيما ذكره.

لمّا أمر الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وآله أن يقول لمن أنكر البعث والنشور: قل لهم إنّكم ومن تقدّمكم وتأخّر عنكم مبعوثون ومحشورون إلى يوم القيامة، بيّن مالهم في ذلك اليوم فقال: ﴿ثمّ إنّكم أيّها الضالّون المكذّبون﴾ يعني: الّذين ضللتم عن الدين وعن طريق الحقّ وحرمتم عن اتّباع الصحيح، المكذّبون: الّذين كذّبتم بتوحيد الله وإخلاص العبادة له وجحدتم نبوّة نبيّه ﴿لآكلون﴾ يوم القيامة ﴿من شجر من زقّوم﴾ فالزقّوم ما يبتلع بتصعّب. يقال: تزقّم هذا الطعام تزقّماً إذا ابتلعه بتصعّب. وقيل: هو طعام خشن مُرّ كريه يعسر نزوله في الحلق[2].

وقوله: ﴿فمالئون منها البطون﴾ أي تملئون بطونكم من أكل هذا الزقّوم والشجر يؤنّث ويذكر، فلذلك قال: ﴿منها﴾ وكذلك الثمر يذكّر ويؤنّث،

---

(١) من الحجريّة.

(٢) راجع تفسير الطبري ١١: ٦٤٩.

فالتذكير على الجنس، والتأنيث على المبالغة. و«البطون» جمع بطن وهو خلاف الظهر، وهو داخل الوعاء وخارجه ظهر، وبطن الأمر إذا غمض، ومنه الظهارة والبطانة، وبطن الإنسان، وبطن الأرض، وبطن الكتاب.

وقوله: ﴿فشاربون عليه من الحميم﴾ معناه: إنّكم تشربون على هذا الزقّوم الّذي ملأتم بطونكم منه ﴿من الحميم﴾ وهو الماء الحارّ الشديد الحرارة ﴿فشاربون شرب الهيم﴾ أي تشربون مثل ما تشرب الهيم. فمن فتح الشين أراد المصدر، ومن ضمّه أراد الاسم. وقيل: هما لغتان. وروى جعفر بن محمّد «أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله أمر بلالاً أن ينادي بمنى إنّها أيّام أكل وشرب»[١] بفتح الشين. و «الهيم» الإبل الّتي لا تروى من الماء لداء يصيبها، واحدها «أهيم» والأُنثى «هيما» ومن العرب من يقول: هايم وهايمة، وتجمعه على هيم كغايط وغيط. وقال ابن عبّاس وعكرمة والضحّاك وقتادة: معناه شرب الإبل العطاشى الّتي لا تروى. وقيل: هو داء الهيام[٢]. وحكى الفرّاء: إنّ الهيم الرجل الّذي لا يروى من الماء يشرب ما يحصل فيه[٣].

وقوله: ﴿هذا نزلهم يوم الدين﴾ فالنزل الأمر الّذي ينزل عليه صاحبه، ومنه النزل وهو الجاري للإنسان من الخير، وأهل الضلال قد نُزلوا على أنواع العذاب في النار، وكلّ ما فصّله الله تعالى من ذلك ففيه أتمّ الزجر وأعظم الردع. وقيل: معنى الآية هذا طعامهم وشرابهم يوم الجزاء[٤].

وقوله: ﴿نحن خلقناكم﴾ أي نحن أنشأناكم وابتدأناكم في النشأة الأُولى فهلّا تصدّقون أنّكم تبعثون.

---

(١) راجع الكشف والبيان ٩: ٢١٤، تفسير الطبري ١١: ٦٥٠، دعائم الإسلام ١: ٢٨٥.

(٢ و ٤) النكت والعيون ٥: ٤٥٧. (٣) راجع معاني القرآن ٣: ١٢٨.

ثمّ نبّههم على وجه الاستدلال على صحّة ما ذكرناه فقال: ﴿أفرأيتم ما تمنون﴾ ومعناه: الّذي يخرج منكم من المنيّ عند الجماع، ويخلق منه الولد ﴿أأنتم تخلقونه﴾ وتنشئونه ﴿أم نحن الخالقون﴾ فهم لا يمكنهم ادّعاء إضافة ذلك إلى نفوسهم لعجزهم عن ذلك، فلا بدّ من الاعتراف بأنّ الله هو الخالق لذلك، وإذا ثبت أنّه قادر على خلق الولد من النطفة وجب أن يكون قادراً على إعادته بعد موته لأنّه مثله، وليس بأبعد منه. يقال: أمنى يمني ومنى يمني بمعنى واحد، وكذلك أمذى ومذي، في قول الفرّاء[١].

وقوله تعالى: ﴿نحن قدّرنا بينكم الموت﴾ فالتقدير ترتيب الأُمور على مقدار فالله تعالى أجرى الموت بين العباد على مقدار ما يقتضيه الحكمة، فإنّما أجراه الحكيم على ذلك المقدار.

وقوله: ﴿وما نحن بمسبوقين﴾ أي لسنا بمسبوقين في تدبيرنا، لأنّ الأُمور كلّها في مقدور الله وسلطانه على ما يصحّ ويجوز فيما مكّن منه أو أعجز عنه. وقال مجاهد: تقدير الموت بالتعجيل لقوم والتأخير لغيرهم. وقيل: ﴿نحن قدّرنا بينكم الموت﴾ بأن كتبناه على مقدار، لا زيادة فيه ولا نقصان[٢]. ويقال: قدرت الشيء مخفّفاً وقدّرته مثقّلاً بمعنى واحد[٣].

وقوله: ﴿على أن نبدّل أمثالكم﴾ فالتبديل جعل الشيء موضع غيره، فتبديل الحكمة بالحكمة صواب وتبديل الحكمة بخلافها خطأ وسفه، فعلى هذا ينشئ الله قوماً بعد قوم، لأنّ المصلحة تقتضي ذلك، والحكمة توجب إنشاءهم في وقت وإماتتهم في وقت آخر. وإنشاؤهم بعد ذلك للحساب والثواب والعقاب. وقيل: إنّ معنى ﴿على أن نبدّل﴾ التبدّل أي

(١) معاني القرآن ٣: ١٢٨. (٢) النكت والعيون ٥: ٤٥٩. (٣) تفسير السمرقندي ٣: ٣٩٦.

لنبدّل أمثالكم. وبين «على» و «اللام» فرق، لأنّه يجوز أن يقال: عمله على قبحه، ولا يجوز عمله لقبحه. وتعليم الاستدلال بالنشأة الأُولى على النشأة الثانية فيه تعليم القياس.

وقوله: ﴿وننشئكم فيما لا تعلمون﴾ معناه: فيما لا تعلمون من الهيئآت والصور المختلفة، لأنّ المؤمن يخلق على أحسن صورة، والكافر على أقبح صورة. وقيل: هذا على النشأة الثانية يكوّنها الله في وقت لا يعلمه العباد، ولا يعلمون كيفيّته، كما علموا الإنشاء الأوّل من جهة التناسل. وقيل: معناه: لو أردنا أن نجعل منكم القردة والخنازير لم يعيينا ذلك، ولا سبقنا إليه سابق[1]. ويجوز أن يقال: أمثال متّفقة، ولا يجوز أن يقال أجناس متّفقة، لأنّ المثل ينفصل بالصورة كما ينفصل رجل عن رجل بالصورة، وما انفصل بالصورة يجوز جمعه، لأنّ الصورة قد منعت أن تجري على الكثير منه صفة التوحيد. فلا يجوز أن يقال هؤلاء الرجال كلّهم رجال واحد، ويجوز هذا الماء كلّه ماء واحد وهذه المذاهب كلّها مذهب واحد، ولا يجوز هؤلاء الأمثال كلّهم أمثال واحد، لأنّهم ينفصلون بالصورة وجرى مجرى المختلفة في أنّه لا يقع على صفة التوحيد.

قوله تعالى:

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٥: ١١٤.

فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ تسع آيات بلا خلاف.

[أقول:][1] قرأ أبو بكر ﴿ء إنّا لمغرمون﴾ على الاستفهام. الباقون على الخبر.

يقول الله تعالى مخاطباً للكفّار الّذين أنكروا النشأة الثانية، ومنبّهاً لهم على قدرته عليها، فقال: ﴿ولقد علمتم النشأة الأُولى﴾ فهلّا ﴿تذكّرون﴾ وتفكّرون وتعتبرون بأن من قدر عليها قدر على النشأة الثانية. والنشأة المرّة من الإنشاء، كالضربة من الضرب. و«الإنشاء» إيجاد الشيء من غير سبب يولّده، ومثله الاختراع والابتداع.

ثمّ نبّههم على طريق غيره فقال: ﴿أفرأيتم ما تحرثون﴾ من الزرع ﴿ءأنتم تزرعونه﴾ أي ءأنتم تنبتونه وتجعلونه رزقاً ﴿أم نحن الزارعون﴾ فإنّ من قدر على إنبات الزرع من الحبّة الحقيرة وجعلها حبوباً كثيرة قدر على إعادة الخلق إلى ما كانوا عليه.

وقوله: ﴿لو نشاء لجعلناه﴾ يعني ذات الزرع ﴿حطاماً﴾ أي هشيماً لا ينتفع به في مطعم ولا غذاء لفعلناه. وقيل: إنّ معنى ﴿ء أنتم تزرعونه﴾ أي تجعلونه زرعاً[2].

وقوله: ﴿فظلتم تفكّهون﴾ معناه قال ابن عبّاس ومجاهد وقتادة ـ في رواية عنه ـ: تعجبون. وقال الحسن وقتادة ـ في رواية ـ: فظلتم تندمون أي لو جعلناه حطاماً لظلتم تندمون. والمعنى: إنّكم كنتم تتروّحون إلى التندّم، كما تتروّح الفكه إلى الحديث بما يزيل الهمّ، وأصله التفكّه تناول ضروب الفاكهة للأكل.

---

(١) من الحجريّة.

(٢) تفسير الطبري ١١: ٦٥٢.

وقوله: ﴿إنّا لمغرمون﴾ «المغرَم» الّذي ذهب ماله بغير عوض منه. وأصله ذهاب المال بغير عوض، فمنه الغريم لذهاب ماله بالاحتباس على المدين من غير عوض منه في الاحتباس. و«الغارم» الّذي عليه الدين الّذي يطالبه به الغريم. ومنه قوله: ﴿إنّ عذابها كان غراماً﴾ [(١)] أي ملحّاً دائماً كإلحاح الغريم. وقال الحسن: هو من الغرم. وقال قتادة: معنى ﴿لمغرمون﴾ لمعذّبون، قال الأعشى:

إن يعاقِب يكن غَراماً وإن يُعـ ... طِ جزيلاً فإنّه لا يبالي [(٢)]

أي يكن عقابه عذاباً ملحّاً كإلحاح الغريم. وقال الراجز:

يوم النسار ويوم الجفار ... كانا عذابا وكانا غراماً [(٣)]

أي ملحّاً كإلحاح الغريم، وحذف «يقولون» إنّا لمغرمون، لدلالة الحكاية.

وقال: معنى لمغرمون محدودون عن الخطّ. وقال قتادة محارفون. وقال مجاهد ـ في رواية أُخرى ـ إنّا لمولع بنا. وفي رواية غيره عنه معناه إنّا لملقّون في الشرّ. ومن قرأ ﴿ءِ إنّا لمغرمون﴾ على الاستفهام حمل على أنّهم يقرمون ويقولون منكرين. إنا لمغرمون؟! ومن قرأ على الخبر حمله على أنّهم مخبرون بذلك عن أنفسهم. ثمّ يستدركون فيقولون لا ﴿بل نحن محرومون﴾ مبخوسون بحظوظنا محارفون بهلاك زرعنا.

ثمّ قال لهم منبّهاً على دلالة أُخرى فقال: ﴿أفرأيتم الماء الّذي تشربون

---

(١) الفرقان: ٦٥.

(٢) شرح ديوان الأعشى: ١٧١، مجاز القرآن ١: ٣٢٥، ٢: ٨٠، معجم تهذيب اللغة ٣: ٢٦٦٠، مادة «غرم»، تفسير الطبري ١١: ٦٥٤.

(٣) تفسير الطبري ٩: ٤١٠، النكت والعيون ٥: ٤٦١.

ءأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون﴾ والمعنى: انّه تعالى امتنّ عليهم بما أنعم عليهم من إنزال الماء العذب ﴿من المزن﴾ يعني السحاب ليشربوه وينتفعوا به، فقال لهم: ﴿ء أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون﴾ له عليكم نعمة منّا عليكم ورحمة بكم.

ثمّ قال: ﴿لو نشاء جعلناه أجاجاً﴾ قال الفرّاء: «الأُجاج» المُرّ الشديد المرارة من الماء[1]. وقال قوم: الأُجاج الّذي اشتدّت ملوحته[2] ﴿فلو لا تشكرون﴾ أي فهلّا تشكرون على هذه النعمة الّتي لا يقدر عليها غير الله، وعلمتم بذلك أنّ من قدر على ذلك قدر على النشأة الأُخرى فإنّها لا تتعذّر عليه كمالا يتعذّر عليه هذه النعم.

قوله تعالى:

أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾* فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ عشر آيات بلا خلاف.

[أقول:][3] قرأ أهل الكوفة إلّا عاصماً ﴿بموقع﴾ على التوحيد. الباقون ﴿بمواقع﴾ على الجمع.

هذا تنبيه آخر من الله تعالى على قدرته على النشأة الثانية، وعلى وجه الدلالة على ذلك وعلى اختصاصه بصفات لا يشركه فيها غيره، لأنّه قال: ﴿أفرأيتم﴾ معاشر العقلاء ﴿النار الّتي تورون﴾ فالنار مأخوذ من النور،

---

(١) معاني القرآن ٣: ١٢٩. (٢) تفسير الطبري ١١: ٦٥٥. (٣) من الحجريّة.

ومنه قول الحارث بن حلّزة:

فتنوّرت نارها من بعيد بخَزازَى هيهات منك الصلاء[١]

وجمع «النور» أنوار، وجمع «النار» نيران، والنار على ضربين: نار محرقة، ونار غير محرقة. فالّتي لا تحرق النار الكامنة بما هي مغمورة به كنار الشجر ونار الحجر ونار الكيد. والّتي تحرق هي النار الظاهرة فيما هي مجاورة له ممّا من شأنه الاشتعال، وهي معروفة. ومعنى ﴿تورون﴾ تظهرون النار، ولايجوز الهمزة، لأنه من أورى يورى إيراء إذا قدح، فمعنى تورون تقدحون. وورى الزند يوري، فهو وارٍ إذا انقدحت منه النار، ووريت بك زنادي إذا أصابك أمري كما يضيء القدح بالزناد.

ثمّ قال: ﴿ء أنتم أنشأتم شجرتها﴾ يعني الشجرة الّتي تنقدح منها النار أي أنتم أنبتّموها وابتدأتموها ﴿أم نحن المنشئون﴾ لها، فلا يمكن أحداً أن يدّعي أنّ الّذي أنشأها غير الله تعالى والعرب تقدح بالزند والزندة، وهو خشب معروف يحكّ بعضه ببعض فيخرج منه النار ذكره الزجّاج[٢] وغيره. وفي المثل «كلّ شجرة فيها نار واستمجد المرخ والعقار». فإن قيل: لم لا يكون نار الشجر بطبع الشجر لا من قادر عليه. قيل: الطبع غير معقول، فلا يجوز أن يسند إليه الأفعال، ولو جاز ذلك للزم في جميع أفعال الله، وذلك باطل. ولو كان معقولاً لكان ذلك الطبع لابدّ أن يكون في الشجر والله تعالى الّذي أنشأ الشجرة وما فيها، فقد رجع إلى قادر عليه وإن كان بواسطة. ولو جاز أن يكون النار من غير قادر عليها لجاز أن يكون من عاجز، لأنّه إذا امتنع الفعل ممّن ليس بقادر عليه منّا، لأنّه فعل، وكلّ فعل

(١) ديوان الحارث بن حلّزة: ٢١.

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٥: ١١٥.

ممتنع ممّن ليس بقادر عليه.

وقوله: ﴿نحن جعلناها﴾ يعني تلك النار ﴿تذكرة ومتاعاً للمقوين﴾ أي جعلنا النار تذكرة للنار الكبرى، وهي نار جهنّم، فيكون ذلك زجراً من المعاصي الّتي يستحقّ بها النار، في قول مجاهد وقتادة. ويجوز أن يكون المراد تذكرة يتذكّر بها ويتفكّر فيها ويعتبر بها، فيعلم أنّه تعالى قادر على النشأة الثانية، كما قدر على إخراج النار من الشجر الرطب.

وقوله: ﴿ومتاعاً للمقوين﴾ يعني ينتفع بها المسافرون الّذين نزلوا الأرض القيّ وهي القفر، قال الراجز:

قيّ يناصيها بلاد قيّ[١]

وقال ابن عبّاس ومجاهد وقتادة والضحّاك: ﴿للمقوين﴾ المسافرين، وقيل: هو من أقوت الدار إذا خلت من أهلها، قال الشاعر:

أقوَى وأقفَر من نعم وغيّرها   هُوجُ الرياح بها في الترب موّار[٢]

وقد يكون المقوي الّذي قويت خيله ونعمه في هذا الموضع.

ثمّ أمر الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وآله والمراد به جميع المكلّفين بأن: ﴿سبّح بحمد ربّك العظيم﴾ أي نزّه الله تعالى عمّا لا يليق به وادْعُه باسمه العظيم.

وقوله: ﴿فلا أُقسم بمواقع النجوم﴾ قال سعيد به جبير: «لا» صلة والتقدير أُقسم. وقال الفرّاء: هي نفي بمعنى ليس الأمر كما تقولون. ثمّ استؤنف ﴿أُقسم﴾ وقيل «لا» تزاد قبل القسم، كقولك: لا والله لا أفعل، ولا والله ما كلّمت زيداً[٣].

---

(١) العين: ٦٩٤، معجم تهذيب اللغة ٣: ٣٠٧١ مادّة «قوى».

(٢) تفسير الطبري ١١: ٦٥٧، ديوان النابغة الذبياني: ٣٢، الكشف والبيان ٩: ٢١٧. في المصادر: بهابي.

(٣) راجع معاني القرآن ٣: ٢٠٧.

وقال امرؤ القيس:

لا وأبيك ابنة العامري لا يدّعي القوم انّي أفرّ[١]

بمعنى وأبيك و «لا» زائدة.

و ﴿مواقع النجوم﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد: أي القرآن، لأنّه أنزل نجوماً. وقال مجاهد ـ في رواية أُخرى ـ وقتادة: يعني: مساقط نجوم السماء ومطالعها. وقال الحسن: معناه: انكدارها، وهو انتشارها يوم القيامة. ومن قرأ ﴿بموقع﴾ فلأنّه يقع على الكثير والقليل. ومن قرأ على الجمع، فلاختلاف أجناسه.

وقوله: ﴿وإنّه لقسم لو تعلمون عظيم﴾ إخبار من الله تعالى بأنّ هذا القسم الّذي ذكره بمواقع النجوم لقسم عظيم لو تعلمون عظمه لانتفعتم بعلمه. والقسم جملة من الكلام يؤكّد بها الخبر بما يجعله في قسم الصواب دون الخطأ على طريقة بالله إنّه لكذا. وقال أبو عليّ الجُبّائي: القسم في كلّ ما ذكر في القرآن من المخلوقات إنّما هو قسم بربّه، وهذا ترك الظاهر من غير دليل، لأنّه قد يجوز ذلك على جهة التنبيه على ما في الأشياء من العبرة والمنفعة. وقد روينا «أنّه لا ينبغي لأحد أن يقسم إلّا بالله، ولله أن يقسم بما يشاء من خلقه»[٢] فعلى هذا كلّ من أقسم بغير الله أو بشيء من صفاته من جميع المخلوقات أو الطلاق أو العتاق لا يكون ذلك يميناً منعقدة، بل يكون كلاماً لغواً. و«العظيم» هو الّذي يقصر عن مقداره غيره فيما يكون منه، وهو على ضربين: أحدهما: عظيم الشخص، والآخر:

---

(١) ديوان امرئ القيس ١٠٩.

(٢) راجع تهذيب الأحكام ٨: ٢٧٧ / ١٠٠٩، الكافي ٧: ٤٤٩ / ١.

عظيم الشأن.

وقوله: ﴿إنّه لقرآن كريم﴾ معناه: إنّ الّذي تلوناه عليكم لقرآن تفرّقون به بين الحقّ والباطل ﴿كريم﴾ فالكريم: هو الّذي من شأنه أن يعطي الخير الكثير، فلمّا كان القرآن من شأنه أن يعطي الخير الكثير بالأدلّة الّتي تؤدّي إلى الحقّ في الدين كان كريماً على حقيقة معنى الكريم ، لا على التشبيه بطريق المجاز، والكريم في صفات الله من الصفات النفسية الّتي يجوز فيها لم يزل كريماً، لأنّ حقيقته تقتضي ذلك، من جهة أنّ الكريم الّذي من شأنه أن يعطي الخير الكثير فلمّا كان القادر على التكرّم هو الّذي لا يمنعه مانع من شأنه أن يعطي الخير الكثير صحّ أن يقال: إنّه لم يزل كريماً.

وقوله: ﴿في كتاب مكنون﴾ قيل: هو اللوح المحفوظ أثبت الله تعالى فيه القرآن والمكنون المصون.

وقوله: ﴿لا يمسّه إلّا المطهّرون﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد والضحّاك: لا يمسّ الكتاب الّذي في السماء إلّا المطهّرون من الذنوب وهم الملائكة، في قول ابن عبّاس والحسن وسعيد بن جبير وجابر وابن زيد وأبي نهيك ومجاهد. وقيل: ﴿لا يمسّه إلّا المطهّرون﴾ في حكم الله. وقد استدلّ بهذه الآية على أنّه لا يجوز للجنب والحائض والمحدث أن يمسّوا القرآن، وهو المكتوب في الكتاب الّذي فيه القرآن أو اللوح. وقال قوم: إنّه لا يجوز لهم أن يمسّوا الكتاب الّذي فيه ولا أطراف أوراقه، وحملوا الضمير على أنّه راجع إلى الكتاب وهو كلّ كتاب فيه القرآن[١]. وعندنا إنّ الضمير راجع إلى القرآن. وإن قلنا إنّ الكتاب هو اللوح المحفوظ، فلذلك وصفه بأنّه

(١) راجع تفسير الطبري ١١: ٦٦١.

مصون. ويبيّن ما قلناه قوله: ﴿تنزيل من ربّ العالمين﴾ يعني هذا القرآن تنزيل من ربّ العالمين أنزله الله الّذي خلق الخلائق ودبّرهم على ما أراد.

قوله تعالى:

أَفَبِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَـٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾.

إثنتا عشرة آية شامي، وإحدى عشرة فيما عداه، عدّ الشاميون و﴿روح وريحان﴾ ولم يعدّه الباقون.

[أقول:](١) قرأ يعقوب ﴿فروح وريحان﴾ بضمّ الراء. الباقون بفتحها، وهما لغتان. وقال الزجّاج: «الروح» بفتح الراء معناه: الراحة، وبالضمّ معناه: حياة دائمة لا موت معها(٢).

يقول الله تعالى مخاطباً للمكلّفين على وجه التقريع لهم والتوبيخ بصورة الاستفهام: ﴿أفبهذا الحديث﴾ الّذي حدّثناكم به وأخبرناكم به من حوادث الأُمور ﴿أنتم مدهنون﴾ قال ابن عبّاس: معنى مدهنون: مكذّبون. وقال مجاهد: معناه: تريدون أن تمالؤهم فيه وتركنوا إليهم لأنّه جريان معهم في باطلهم. وقيل: معناه: منافقون في التصديق بهذا الحديث(٣). وسمّاه الله تعالى حديثاً كما قال: ﴿الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً﴾(٤) ومعناه: معنى الحدوث شيئاً بعد شيء. ونقيض «حديث» قديم.

---

(١) من الحجريّة.
(٢) معاني القرآن وإعرابه ٥: ١١٧.
(٣) النكت والعيون ٥: ٤٦٥.
(٤) الزمر: ٢٣.

و«المدهن» الّذي يجري في الباطل على خلاف الظاهر، كالدهن في سهولة ذلك عليه والإسراع فيه، أدهن يدهن إدهاناً وداهنه مداهنة مثل نافقه منافقة، وكلّ مدهن بصواب الحديث مذموم.

وقوله: ﴿وتجعلون رزقكم أنّكم تكذّبون﴾ معناه: وتجعلون حظّكم من الخير الّذي هو كالرزق لكم أنّكم تكذّبون ويجوز شكر رزقكم، وقال ابن‌عبّاس: معناه: وتجعلون شكركم، وروي أنّه كان يقرأ كذلك. وقيل: حظّكم من‌القرآن ـ الّذي رزقكم‌الله ـ التكذيب به، في قول الحسن. وقيل: إنّهم كانوا إذا أمطروا وأخصبوا، قالوا مطرنا بنوء كذا، فأنزل الله تعالى الآية تكذيباً لهم[١]. وكذلك قرأ المفضّل عن‌عاصم ﴿تكذبون﴾ بفتح‌التاء خفيفاً.

وقوله: ﴿فلولا إذا بلغت الحلقوم﴾ قال الحسن: معناه: هلّا إذا بلغت هذه النفس الّتي زعمتم أنّ الله لا يبعثها الحلقوم ﴿وأنتم حينئذ تنظرون﴾ أي تنظرون ما ينزل بكم من أمر الله. قال الزجّاج: قوله تعالى ﴿وأنتم حينئذ﴾ خطاب لأهل الميّت، وتقديره إذا بلغت الحلقوم وأنتم معاشر أهله ترونه على تلك الصورة[٢]. ويحتمل أن يكون المراد وأنتم حينئذ تبصرون على ضرب من المجاز[٣].

وقوله: ﴿ونحن أقرب إليه منكم﴾ معناه: إنّ الله تعالى يراه من غير مسافة بينه وبينه، فلا شيء أقرب إليه منه، وأقرب من كلّ من يراه بمسافة بينه وبينه ﴿ولكن لا تبصرون﴾ معناه: ولكن لا تعلمون ذلك لجهلكم بالله وبما يجوز عليه ومالا يجوز. ويحتمل أن يكون المراد ولكن لا تبصرون الله، لأنّ الرؤية مستحيلة عليه. وقيل معناه: ولكن لا تبصرون الملائكة

(١ و٣) تفسير الطبري ١١: ٦٦٣. (٢) معاني القرآن وإعرابه ٥: ١١٦.

الّتي تتولّى قبض روحه[١].

وقـــوله: ﴿فلولا إن كنتم غير مدينين﴾ مـعناه: هـلّا إن كـنتم غـير مجزيّين بثواب الله أو عقابه على ما تدّعونه من إنكـار البـعث والنشـور ﴿ترجعونها﴾ أي تردّون هذه النفس إلى مـوضعها ﴿إن كنتم صادقين﴾ فـي قولكم وادّعائكم. وحكى الطبري عن بعض النحويّين أنّ الكـلام خـرج متوجّهاً إلى قوم أنكروا البعث، وقالوا: نحن نقدر على الامتناع من الموت، فقيل لهم: هلّا رددتم النفس إذا بلغت الحـلقوم إن كـنتم صـادقين فـيما تـدّعونه[٢]. وقـال الفـرّاء: جـواب ﴿لولا﴾ ﴿ترجعونها﴾ وهـو جـواب ﴿فلولا إن كنتم غير مدينين﴾ أُجيبا بجواب واحد. قال: ومثله: ﴿لا تحسبن الّذين يفرحون بما أتوا ويحبّون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنّهم بمفازة من العذاب﴾[٣] يعني: إنّ الجواب والخبر في هذا على قـياس واحـد. وإنّـما أجاز أن يجاب معنيان بجواب واحد، لأنّ كلّ واحد منهما يـوجب ذلك المعنى، والمعنى: فلو لا إذا بلغت الحلقوم على ادّعائهم أنّه لا يـصحّ أن يكون القادر على إخراجها قادراً على ردّها يلزم أن يكون القـادر عـلى ردّها غيره، وكذلك يلزم من قولهم: إنّه لا يصحّ أن يقدر على ردّها للجزاء أن يكون القادر غيره منهم ومن أشباههم. و«الرجع» جعل الشـيء عـلى الصفة الّتي كان عليها قبل، وهو انقلابه إلى الحال الأُولى، ولو انقلب إلى غيرها لم يكن راجعاً. ووجه إلزامهم على إنكار الجزاء ورجوع النفس إلى الدنيا أنّ إنكار أن يكون القادر على النشأة الأُولى قادراً على النشأة الثانية

---

(١) تفسير السمرقندي ٣: ٣٩٨.
(٢) تفسير الطبري ١١: ٦٦٤.
(٣) آل عمران: ١٨٨، معاني القرآن ٣: ١٣٠.

كادّعاء أنّ القادر على الثانية إنّما هو من لم يقدر على الأُولى، لأنّ إنكار الأوّل يقتضي إيجاب الثاني كـإنكار أن يكـون زيـد المـتحرّك حـرّكت نفسه في اقتضاء أنّ غيره حرّكه. ومعنى ﴿غير مدينين﴾: غـير مـجزّيين. وقيل: معناه غير مملوكين. و«الدين» الجزاء[1]. ومنه قولهم: كـما تـدين تدان أي تجزي تجزى. والدين: العمل الّذي يستحقّ به الجزاء من قـوله: ﴿إنّ الدين عند الله الإسلام﴾[2] ومنه دين اليهود غير دين النصارى، وفلان يتديّن أي يعمل ما يطلب به الجزاء من الله تعالى، والعبد مدين، لأنّه تحت جزاء مولاه. وإنّما يجوز الانقلاب من صفة إلى صفة على أن يكون على أحدهما بجعل جاعل. ومن استحقّ صفة النفس لا لمـعنى ولا بـالفاعل لا يجوز أن ينقلب عنها إلى غيرها.

وقوله: ﴿فأمّا إن كان من المقرّبين فروح وريحان وجنّة نعيم﴾ إخبار من الله تعالى بما يستحقّه المكلّفون لمن كان منهم سابقاً إلى الخـيرات وإلى أفعال الطاعات فله روح وريحان، وهو الهوى الّذي تلذّ النـفس ويـزيل عنها الهمّ. وقيل: «الروح» الراحة و«الريحان» الرزق، فـي قـول مـجاهد وسعيد بن جبير. وقال الحسن وقتادة: هو الريحان المشموم، وكلّ نـبات طيّب الريح، فهو ريحان. وقيل: «الروح» الفرح[3]. وقيل: «الروح» النسيم الّذي تستريح إليه النفس. وأصل «ريحان» روحان، لأنّه من الواو إلّا أنّه خفّف، وأُهمل التثقيل للزيادة الّتي لحقته من الألف والنون، ذكره الزجّاج[4].

وقوله: ﴿وجنّة نعيم﴾ أي ولهذا المـقرّب مـع الروح والريـحان ﴿جنّة

(١ و٣) النكت والعيون ٥: ٤٦٦.

(٢) آل عمران: ١٩.

(٤) معاني القرآن وإعرابه ٥: ١١٧، ١١٨. فيه: رَيْوِحان.

نعيم﴾ أي بستان ينعم فيها ويلتذّ بأنواع الثمار والفواكه فيها.

وقوله: ﴿وأمّا إن كان من أصحاب اليمين﴾ وقد فسّرنا معناه ﴿فسلام لك من أصحاب اليمين﴾ دخلت كاف الخطاب كما يدخل في «ناهيك به شرفاً، وحسبك به كرماً» أي لا تطلب زيادة جلالة على جلالة، وكذلك «سلام لك منهم» أي لا تطلب زيادة على سلامهم جلالة وعظم منزلة. وقال قتادة: معناه: فسلام لك أيّها الإنسان الّذي من أصحاب اليمين من عذاب الله وسلّمت عليك ملائكة الله. وقال الفرّاء: وسلام لك إنّك من أصحاب اليمين فحذفت إنّك[١]. وقيل معناه: سلّمت ممّا تكره لأنّك من أصحاب اليمين[٢]. وقال الزجّاج: معناه: وسلام لك إنّك ترى فيهم ما تحبّ من السلامة[٣] وذكر أصحاب اليمين في أوّل السورة بأنّهم ﴿في سدر مخضود﴾ وذكرهم في آخرها بأنّهم يبشّرون بالسلامة من كلّ ما يكرهون. وقيل: إنّما كان التبرّك باليمين، لأنّ العمل يتيسّر بها، وأمّا الشمال فيتعسّر العمل بها من نحو الكتابة والتجارة والأعمال الدقيقة.

قوله تعالى:

وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ خمس آيات بلاخلاف.

[أقول:][٤] لمّا أخبر الله تعالى ما للسابقين من أنواع الثواب والنعيم، وبيّن ما لأصحاب اليمين من الخيرات والثواب الجزيل، أخبر بما للكفّار المكذّبين بيوم الدين المنكرين للبعث والنشور والجزاء بالثواب والعقاب،

---

(١) معاني القرآن ٣: ١٣١.

(٢) تفسير الطبري ١١: ٦٦٧.

(٣) معاني القرآن وإعرابه ٥: ١١٨.

(٤) من الحجريّة.

فقال: ﴿وأمّا إن كان﴾ هذا الإنسان المكلّف ﴿من المكذّبين﴾ بتوحيد الله الجاحدين لنبوّة نبيّه الدافعين للبعث والنشور ﴿الضالّين﴾ عن طريق الهدى العادلين عنه ﴿فنزل من حميم﴾ أي نزلهم الّذي أعدّلهم من الطعام والشراب من ماء من حميم ﴿وتصلية جحيم﴾ أي إحراق بنار جهنّم. يقال: صلاّه الله تصلية إذا ألزمه الإحراق بها، وتقديره فله نزل من حميم.

وقوله: ﴿إنّ هذا لهو حقّ اليقين﴾ أي هذا الّذي أخبرتك به هو الحقّ الّذي لا شكّ فيه بل هو اليقين الّذي لا شبهة فيه. وحقّ اليقين إنّما جاز إضافته إلى نفسه، لأنّها إضافة لفظيّة جعلت بدلاً من الصفة، لأنّ المعنى إنّ هذا لهو الحقّ اليقين، كما قيل هذا نفس الحائط، بمعنى النفس الحايط، وجاز ذلك للإيجاز مع مناسبة الإضافة للصفة. وأمّا قولهم: ﴿رجل سوء﴾ فكقولك رجل سوء وفساد. وقيل معنى حقّ اليقين: حقّ الأمر اليقين.

وقوله: ﴿فسبّح باسم ربّك العظيم﴾ أمر من الله تعالى لنبيّه أن ينزّه الله تعالى عمّا لا يليق به ويذكره باسمه العظيم. وقيل: إنّه لمّا نزلت هذه الآية قال النبيّ ﷺ: «ضعوها في ركوعكم» وقولوا: «سبحان ربّي العظيم»[١] والعظيم في صفة الله معناه: أنّ كلّ شيء سواه مقصّر عن صفته بأنّه قادر عالم غنيّ إذ هو قادر لا يعجزه شيء ولا يساويه شيء في مقدوراته، وعالم لا يخفى عليه شيء على كلّ وجوه التفصيل، وغنيّ بنفسه عن كلّ شيء سواه، لا يجوز عليه الحاجة بوجه من الوجوه ولا على حال من الأحوال.

---

(١) راجع مسند أحمد ٤: ١٥٥.

سورة الحديد

مدنيّة بلا خلاف، وهي تسع وعشرون آية في الكوفي والبصري وثمان وعشرون في المدنيين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾ خمس آيات بلا خلاف.

[أقول:][1] يقول الله تعالى مخبراً إنّ جميع ما في السماوات والأرض يسبّح له. وقد بيّنّا في غير موضع معنى التسبيح وأنّه التنزيه له عن الصفات الّتي لا تليق به. فمن كان من العقلاء عارفاً به فإنّه يسبّحه لفظاً ومعنى، وما ليس بعاقل من سائر الحيوان والجمادات فتسبيحها ما فيه من

---

(١) من الحجريّة.

الآية الدالّة على وحدانيته وعلى الصفات الّتي بايَن بها جميع خلقه، ومافيها من الحجج على أنّه لا يشبه خلقه وأنّ خلقه لا يشبهه، ذلك بالتسبيح. وإنّما كرّر ذكر التسبيح في غير موضع من القرآن لانعقاده لمعان مختلفة لا ينوب بعضها مناب بعض، فمن ذلك قوله: ﴿وإن من شيء إلّا يسبّح بحمده﴾ [1] فهذا تسبيح بحمد الله. وأمّا ﴿سبّح لله ما في السماوات والأرض﴾ فهو تسبيح بالله ﴿العزيز الحكيم﴾ فكلّ موضع ذكر فيه فلعقده بمعنى لا ينوب عنه غيره منابه، وإن كان مخرج الكلام على الإطلاق ﴿والعزيز الحكيم﴾ معناه: المنيع بأنّه قادر لا يعجزه شيء، العليم بوجوه الصواب في التدبير. ولا تطلق صفة ﴿العزيز الحكيم﴾ إلّا فيه تعالى، لأنّه على هذا المعنى.

وقوله: ﴿له ملك السماوات والأرض﴾ إخبار بأنّ له التصرّف في جميع ما في السماوات والأرض وليس لأحد منعه منه ولا أنّ أحداً ملّكه ذلك وذاك هو المَلِك الأعظم، لأنّ كلّ ما عداه فما يملكه، فإنّ الله هو الّذي ملّكه إيّاه، وله منعه منه.

وقوله: ﴿يحيي ويميت﴾ معناه: يحيي الموات، لأنّه يجعل النطفة وهي جماد حيواناً ويحييها بعد موتها يوم القيامة، ويميت الأحياء إذا بلغوا آجالهم الّتي قدّرها لهم ﴿وهو على كلّ شيء قدير﴾ أي كلّ ما يصحّ أن يكون مقدوراً له، فهو قادر عليه.

وقوله: ﴿هو الأوّل والآخر﴾ قيل في معناه قولان:

أحدهما: قال البلخي: إنّه كقول القائل: فلان أوّل هذا الأمر وآخره وظاهره وباطنه، أي عليه يدور الأمر وبه يتمّ.

---

(١) الإسراء: ٤٤.

الثاني: قال قوم: هو أوّل الموجودات لأنّه قديم سابق لجميع الموجودات وما عداه محدَث. والقديم يسبق المحدَث بمالا يتناهى من تقدير الأوقات. والآخر بعد فناء كلّ شيء، لأنّه تعالى يفني الأجسام كلّها ومافيها من الأعراض ويبقى وحده، ففي الآية دلالة على فناء الأجسام[١].

وقوله: ﴿الظاهر والباطن﴾ قيل في معناه قولان:

أحدهما: أنّه العالم بما ظهر وما بطن.

الثاني: أنّه القاهر لما ظهر وما بطن من قوله تعالى: ﴿فأيّدنا الّذين آمنوا على عدوّهم فأصبحوا ظاهرين﴾[٢] ومنه قوله: ﴿ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾[٣] وقيل: المعنى: أنّه الظاهر بأدلّته الباطن من إحساس خلقه[٤].

﴿وهو بكلّ شيء عليم﴾ ما يصحّ أن يكون معلوماً، لأنّه عالم لنفسه.

ثمّ أخبر تعالى عن نفسه فقال: ﴿هو الّذي خلق السماوات والأرض﴾ أي اخترعهما وأنشأهما ﴿في ستّة أيّام﴾ لما في ذلك من اعتبار الملائكة بظهور شيء بعد شيء من جهة، ولما في الإخبار به من المصلحة للمكلّفين، ولو لا ذلك لكان خلقها في لحظة واحدة، لأنّه قادر على ذلك من حيث هو قادر لنفسه.

وقوله: ﴿ثمّ استوى على العرش﴾ أي استولى عليه بالتدبير قال البعيث.

ثمّ استوى بِشْر على العراق ... من غير سيف ودم مهراق[٥]

وهو بشر بن مروان، لما ولّاه أخوه عبد الملك بن مروان. وقيل: معناه: ثمّ عمد وقصد إلى خلق العرش[٦] وقد بيّنّا ذلك فيما تقدّم. ثمّ قال: ﴿يعلم

---

(١) راجع تفسير الطبري ١١: ٦٧٠.
(٢) الصفّ: ١٤، النكت والعيون ٥: ٤٦٩.
(٣) الإسراء: ٨٨.
(٤) الكشف والبيان ٩: ٢٢٨ ـ ٢٢٩.
(٥) مرّ في ٢: ٤٦ و٤: ١٣.
(٦) راجع الغريبين ٣: ٩٥٧، مادّة «سوى» تفسير الطبري ١: ٢٢٨.

ما يلج في الأرض﴾ أي ما يدخل في الأرض ويستتر فيها، فالله عالم به لا يخفى عليه منه شيء ﴿وما يخرج منها﴾ أي ويعلم ما يخرج من الأرض من سائر النبات والحيوان والجماد، ولا يخفى عليه شيء ﴿وما ينزل من السماء﴾ أي ويعلم ما ينزل من السماء من مطر وغير ذلك من أنواع ما ينزل منها، لا يخفى عليه شيء منها ﴿وما يعرج فيها﴾ أي ويعلم ما يعرج في السماء من الملائكة وما يرفع إليها من أعمال الخلق ﴿وهو معكم﴾ يعني بالعلم، لا يخفى عليه حالكم وما تعملونه ﴿والله بما تعملون بصير﴾ من خير وشرّ أي عالم به.

ثمّ قال: ﴿له ملك السماوات والأرض﴾ أي له التصرّف فيهما على وجه ليس لأحد منعه منه ﴿وإليه ترجع الأمور﴾ يوم القيامة. والمعنى: أنّ جميع من ملّكه شيئاً في دار الدنيا يزول ملكه ولا يبقى ملك أحد، ويتفرّد تعالى بالملك، فذلك معنى قوله: ﴿وإليه ترجع الأمور﴾ كما كان كذلك قبل خلق الخلق.

قوله تعالى:

يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ خمس آيات بلا خلاف.

[أقول:][١] قرأ أبو عمرو وحده ﴿وقد أُخذ ميثاقكم﴾ بضمّ الألف، على ما لم يسمّ فاعله. الباقون بالفتح، بمعنى وأخذ الله ميثاقكم.

وقرأ ابن‌عامر وحده ﴿وكلّ وعد الله الحسنى﴾ بالرفع، وهي في مصاحفهم بلا ألف جعله مبتدءاً وخبراً وعدّى الفعل إلى ضميره، وتقديره: وكلّ وعده الله الحسنى، كما قال الراجز:

قد أصبحت أمّ الخيار تدّعي   عليّ ذنباً كلّه لم أصنع[٢]

أي لم أصنعه، فحذف الهاء.

الباقون بالنصب على أنّه مفعول ﴿وعد الله﴾ وتقديره: وعد الله كلّاً الحسنى، ويكون ﴿الحسنى﴾ في موضع نصب بأنّه مفعول ثان. وهو الأقوى.

معنى قوله: ﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾ أي أنّ ما ينقص من الليل يزيده في النهار، وما ينقص من النهار يزيده في الليل حسب ما قدّره على علم من مصالح عباده. وقيل: إنّ معناه: أنّ كلّ واحد منهما يتعقّب صاحبه[٣] ﴿وهو عليم بذات الصدور﴾ ومعناه: هو عالم بأسرار خلقه وما يخفونه في قلوبهم من الضمائر والاعتقادات، لا يخفى عليه شيء منها.

ثمّ أمر تعالى المكلّفين فقال: ﴿آمنوا بالله﴾ معاشر العقلاء وصدّقوا بنبيّه وأقرّوا بوحدانيّته وإخلاص العبادة له، وصدّقوا رسوله، واعترفوا

---

(١) من الحجريّة. (٢) الأغاني ١٠: ١٦٧، الحجّة للقرّاء السبعة ٤: ٢٦.

(٣) راجع تفسير السمرقندي ٣: ٤٠١.

بنبوّته ﴿وانفقوا﴾ في طاعة الله والوجوه الّتي أمركم الله بالإنفاق فيها ﴿ممّا جعلكم مستخلفين فيه﴾ قال الحسن: معناه: ما استخلفكم فيه بوراثتكم إيّاه عمّن كان قبلكم.

ثمّ بيّن ما يكافيهم به إذا فعلوا ذلك، فقال: ﴿فالّذين آمنوا منكم﴾ بما أمرتهم بالإيمان به ﴿وانفقوا﴾ ممّا دعوتهم إلى الإنفاق فيه ﴿لهم مغفرة﴾ من الله لذنوبهم ﴿وأجر كبير﴾ أي وثواب عظيم.

ثمّ قال الله تعالى على وجه التوبيخ لهم: ﴿ومالكم﴾ معاشر المكلّفين ﴿لا تؤمنون بالله﴾ وتعترفون بوحدانيّته وإخلاص العبادة له ﴿والرسول يدعوكم﴾ إلى ذلك ﴿لتؤمنوا بربّكم﴾ أي لتعترفوا به وتقرّوا بوحدانيّته ﴿وقد أخذ ميثاقكم﴾ معناه: أنّه لمّا ذكر تعالى دعاء الرسول إلى الإيمان بيّن أنّه قد أخذ ميثاقكم أيضاً به، ومعنى أخذ ميثاقكم: أنّه نصب لكم الأدلّة الدالّة إلى الإيمان بالله ورسوله ورغّبكم فيه وحثّكم عليه وزهّدكم في خلافه. ومعنى ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أي إن كنتم مؤمنين بحقّ فالإيمان[1] قد ظهرت أعلامه ووضحت براهينه.

ثمّ قال: ﴿هو الّذي ينزّل على عبده﴾ يعني: أنّ الله تعالى هو الّذي ينزّل على محمّدﷺ آيات بيّنات أي حججاً وأدلّة واضحة وبراهين نيّرة ﴿ليخرجكم من الظلمات إلى النور﴾ ومعناه: فعل بكم ذلك ليخرجكم من الضلال إلى الهدى، في قول مجاهد وغيره. وفي ذلك دلالة على بطلان قول المجبّرة: إنّ الله تعالى خلق كثيراً من خلقه ليكفروا به ويضلّوا عن دينه. وإنّما أخرجهم من الضلال إلى الهدى بما نصب لهم من الأدلّة الّتي إذا

(١) في الحجريّة: فالآن فإنّه.

نظروا فيها أفضى بهم إلى الهدى والحقّ، فكأنّه أخرجهم من الضلال، وإن كان الخروج من الضلال إلى الهدى من فعلهم، وسمّي الدلالة نوراً، لأنّـه يبصر بها الحقّ من الباطل، وكذلك العلم، لأنّه يدرك به الأُمور كما تدرك بالنور، فالقرآن بيان الأحكام على تفصيلها ومراتبها.

وقوله: ﴿إنّ الله بكم لرؤف رحيم﴾ إخبار منه تعالى أنّه بـخلقه رؤوف رحيم. والرأفة والرحمة من النظائر.

وقوله: ﴿وما لكم أن لا تنفقوا في سبيل الله﴾ استبطأهم في الإنفاق في سبيل الله الّذي رغّبهم بالإنفاق فيها.

وقوله: ﴿ولله ميراث السماوات والأرض﴾ قد بيّـنّا أنّ جميع ما يملكونه في الدنيا يرجع إلى الله، ويزول ملكهم عنه، فإن أنفقوه كـان ثـواب ذلك باقياً لهم.

وقوله: ﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل...﴾ بيّن الله تعالى أنّ الإنفاق قبل الفتح في سبيل الله إذا انضمّ إليه الجهاد في سبيله أكثر ثواباً عند الله. والمراد بالفتح فتح مكّة. وفي الكلام حذف، لأنّ تقديره لا يستوي هؤلاء مع الّذين أنفقوا بعد الفتح، والكلام يدلّ عليه. وإنّما امتنع مساواة من أنفق بعده لمن أنفق قبله، لعظم العناية الّذي لا يقوم غيره مقامه فيه فـي الصلاح في الدين وعظم الانتفاع به، كمالا يقوم دعاء غير النبيّ إلى الحقّ مقام دعائه ولا يبلغه أبداً، وليس في الآية دلالة على فضل إنسان بـعينه ممّن يدّعى له الفضل، لأنّه يحتاج أن يثبت أنّ له الإنفاق قبل الفتح، وذلك غير ثابت. ويثبت أنّ له القتال بعده، ولمّا يثبت ذلك أيضاً فكيف يستدلّ به على فضله.

فأمّا الفتح فقال الشعبي: أراد فتح الحديبية. وقال زيد بن أسلم وقتادة: أراد به فتح مكّة. ثمّ سوّى تعالى بين الكلّ في الوعد بالخير والجنّة والثواب فيها ـ وإن تفاضلوا في مقاديره ـ فقال: ﴿وكلاًّ وعد الله الحسنى﴾ يعني الجنّة والثواب فيها ﴿والله بما تعملون خبير﴾ لا يخفى عليه شيء من ذلك من إنفاقكم وقتالكم وغير ذلك فيجازيكم بحسب ذلك.

قوله تعالى:

مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَـٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾.

خمس آيات كوفي وأربع فيما عداه، عدّ الكوفيّون ﴿من قبله العذاب﴾ ولم يعدّه الباقون.

[أقول:][(١)] قرأ ابن كثير ﴿فيضعّفه﴾ بالتشديد وضمّ الفاء، وبه قرأ ابن‌عامر إلّا أنّه فتح الفاء. وقد مضى تفسيره في البقرة. وقرأ حمزة وحده ﴿للّذين آمنوا أنظرونا﴾ بقطع الهمزة وكسر الظاء، الباقون بوصلها وضمّ

(١) من الحجريّة.

الظاء. وقرأ أبو جعفر وابن عامر ويعقوب وسهل ﴿فاليوم لا تؤخذ﴾ بالتاء لتأنيث الفدية، الباقون بالياء لأنّ التأنيث ليس بحقيقي. وقد فصّل بين الفعل والفاعل بـ﴿منكم﴾.

قال الحسن: معنى قوله: ﴿من ذا الّذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾ هو التطوّع في جميع الدَين. وقال غيره: معناه: من ذا الّذي ينفق في سبيل الله إنفاقاً كالقرض. و«القرض» أخذ الشيء من المال بإذن صاحبه بشرط ضمان ردّه، وأصله القطع، فهو قطعه عن مالكه بإذنه لإنفاقه على ردّ مثله. والعرب تقول: لي عندك قرض صدق وقرض سوء إذا فعل به خيراً أو شرّاً قال الشاعر:

ونجزي سلامان بن مفرح قرضها   بما قدّمت أيديهم وأزلّت[1]

وقوله: ﴿فيضاعفه له﴾ «فالمضاعفة» الزيادة على المقدار مثله أو أمثاله، وقد وعد الله بالحسنة عشر أمثالها، والإنفاق في سبيل الله حسنة فهو داخل في هذا الوعد. ومن شدّد العين، فلأنّ الله وعد بالحسنة عشر أمثالها. ومن ضمّ الفاء جعله عطفاً على من ذا الّذي يقرض فيضاعفه أو على تقدير فهو يضاعفه. ومن نصب فلأنّه جواب الاستفهام.

وقوله: ﴿وله أجر كريم﴾ معناه: أنّ له مع مضاعفة ما أنفقه أجراً زائداً كريماً. «فالكريم» الّذي من شأنه أن يعطي الخير العظيم. فلمّا كان الأجر يعطي النفع العظيم كان الأجر كريماً، لأنّه يوجد شرف النفع بما لا يلحقه ما ليس بأجر.

---

(١) قائله الشنفري، تفسير الطبري ١١: ٦٥٧، النكت والعيون ٥: ٤٧٢، معاني القرآن لأخفش ٢: ٧٠٥. مع اختلاف.

وقوله: ﴿يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبايمانهم﴾ فـ﴿يوم﴾ يتعلّق بقوله: ﴿لهم أجر كريم... يوم ترى﴾ قال قتادة: معناه: أنّه يسعى نورهم أي الضياء الّذي يرونه ﴿بين أيديهم وبأيمانهم﴾ وقال الضحّاك: نورهم هداهم. قال ﴿وبأيمانهم﴾ كتبهم[١]. وقيل ﴿وبأيمانهم﴾ معناه: وعن أيمانهم. وقيل: وفي أيمانهم[٢].

وقوله: ﴿بشراكم اليوم جنّات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي تجري تحت أشجارها الأنهار، أي يقال لهم: الّذي يبشّرون به اليوم جنّات تجري من تحتها الأنهار ﴿خالدين فيها﴾ أي مؤبّدين لا يفنون.

ثمّ قال: ﴿ذلك هو الفوز العظيم﴾ فعظم الفوز والفلاح يتضمّن إجلال النعمة والإكرام مع الحمد بالإحسان على طريق الدوام، فكلّ ما فعل من أجل الثواب فالنعمة به أجلّ والإحسان به أعظم.

وقوله: ﴿يوم يقول المنافقون والمنافقات﴾ يجوز أن يتعلّق ﴿يوم﴾ بقوله: ﴿ذلك هو الفوز العظيم... يوم﴾ أي في يوم، ويجوز أن يكون على تقدير واذكر ﴿يوم يقول المنافقون والمنافقات للّذين آمنوا﴾ ظاهراً وباطناً ﴿انظرونا﴾ فمن قطع الهمزة أراد أخّرونا ولا تعجلوا علينا واستأخروا نستضيء[٣] بنوركم. ومن وصلها أراد ينظرون. وقيل: انظرني أيضاً بمعنى انتظرني، قال عمرو ابن أمّ كلثوم:

أبا هند فلا تعجل علينا ... وأنظرنا نُخبِّرك اليقينا[٤]

ويقال: أنظرني بمعنى أخّرني[٥].

(١) الكشف والبيان ٩: ٢٣٩. (٢) معاني القرآن ٣: ١٣٢. (٣) في الحجريّة: ننظر.
(٤) تفسير الطبري ١١: ٦٧٧، ديوان عمرو بن كلثوم: ٥٦. (٥) معاني القرآن وإعرابه ٥: ١٢٤.

وقوله: ﴿نقتبس من نوركم﴾ فالنور الضياء، وهو ضدّ الظلمة، وبالنور يستضاء في البصر وفي الأُمور، وفي البصر نور وكذلك في النار. ومعنى ﴿نقتبس﴾: نأخذ قبساً من نوركم، وهو جذوة منه فقالوا لهم: ﴿ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً﴾ أي ارجعوا إلى خلفكم فاطلبوا النور فإنّه لا نور لكم عندنا، فإذا تأخّروا ضرب الله بينهم بسور. ومن وصلها أراد انتظرونا.

ثمّ أخبر تعالى فقال: ﴿فضرب بينهم﴾ يعني بين المؤمنين وبين المنافقين ﴿بسور﴾ والباء زائدة وهو المضروب بين الجنّة والنار ﴿له باب باطنه فيه الرحمة﴾ لأنّ فيه الجنّة ﴿وظاهره من قبله العذاب﴾ يعني من قِبَل المنافقين العذاب، لكون جهنّم هناك.

ثمّ حكى الله تعالى أنّهم ﴿ينادونهم﴾ يعني المنافقون فيقولون لهم: ﴿ألم نكن معكم﴾ في دار الدنيا ومخالطين لكم ومعاشرين؟ فيجيبهم المؤمنون فيقولون ﴿بلى﴾ كنتم مَعَنا ﴿ولكنّكم فتنتم أنفسكم﴾ أي تعرّضتم للفتنة وتربّصتم بالمؤمنين الدوائر ﴿وارتبتم وغرّتكم الأمانيّ﴾ أي شككتم فيما أخبركم به رسولنا وغرّكم ما كنتم تمنّون حتّى طمعتم في غير مطمع ﴿حتّى جاء أمر الله﴾ في نصرة نبيّه والمؤمنين معه وغلبته إيّاكم ﴿وغرّكم بالله الغرور﴾ يعني الشيطان، وسمّي بذلك لكثرة ما يغرّ الناس. ومن غرّ غيره مرّة واحدة فهو غارّ. وقرئ بالضمّ، وهو كلّ ما غرّ من متاع الدنيا، ذكره الزجّاج[1]. والغرور بضمّ الغين المصدر.

ثمّ يقول لهم الملائكة أو المؤمنون: ﴿فاليوم لا يؤخذ منكم فدية﴾ أي

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٥: ١٢٥.

ما تفدون به أنفسكم لا يقبل منكم ﴿ولا﴾ يؤخذ ﴿من الّذين كفروا﴾ الفداء ﴿ومأواكم﴾ أي مقرّكم وموضعكم الّذي تأوون إليه ﴿النار هي مولاكم﴾ أي هي أولى بكم ﴿وبئس المصير﴾ أي بئس المأوى والموضع والمرجع إليه، قال لبيد:

قَعَدَتْ كلا الفرجين تحسب أنّـه   مولى المخافة خلفها وأمـامها[1]

أي تحسب أنّ كليهما أولى بالمخافة.

قوله تعالى:

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرُۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ خمس آيات بلا خلاف.

[أقول:][2] قرأ ﴿وما نزل من الحقّ﴾ بتخفيف الزاي نافع وحفص عن عاصم، لأنّه يقع على القليل والكثير، ويكون النزول مضافاً إلى الحقّ.

---

(١) ديوان لبيد بن ربيعة (شرح الطوسي): ٢٢٢، الكشف والبيان ٩: ٢٣٩، الصحاح ٦: ٢٥٢٩، مادّة «ولي».

(٢) من الحجريّة.

الباقون بالتشديد بمعنى: أنّ الله هو الّذي نزّل من الحقّ شيئاً بعد شيء. وقرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم وابن زيد ﴿المصدّقين والمصدّقات﴾ بتخفيف الصاد يذهبون إلى التصديق الّذي هو خلاف التكذيب، ومعناه: أنّ المؤمنين والمؤمنات. الباقون بتشديد الصاد يذهبون إلى أنّ الأصل المتصدّقين، فأُدغمت التاء في الصاد لتقارب مخرجهما وشدّد.

ومعنى قوله: ﴿ألم يأن﴾ ألم يحن ﴿للّذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله﴾ أي تخضع لسماع ذكر الله ويخافوا عقابه، وينبغي أن يكون هذا متوجّهاً إلى طائفة مخصوصة لم يكن فيهم الخشوع التامّ حثّوا على الرقّة والرحمة. وأمّا من كان ممّن وصفه الله بالخشوع والرحمة والرقّة فطبقة فوق هؤلاء المؤمنين، ويقال: أنى يأني أنىً إذا حان، ومنه قوله ﴿غير ناظرين إناه﴾ [1] أي منتهاه. والخشوع لين القلب للحقّ بالانقياد له، ومثله الخضوع وضدّه قسوة القلب. و«الحقّ» ما دعا إليه العقل وهو الّذي من عمل به نجا ومن عمل بخلافه هلك، والحقّ مطلوب كلّ عاقل في نظره وإن أخطأ طريقه، و«القسوة» غلظ القلب بالجفاء عن قبول الحقّ، قسا قلبه يقسو قسوة، فهو قاسٍ.

﴿وما نزل من الحقّ﴾ من خفّف أضاف النزول إلى الحقّ ومن شدّد أراد ما نزّله الله من الحقّ ﴿ولا يكونوا﴾ أي وألّا يكونوا ﴿كالّذين أُوتوا الكتاب﴾ من اليهود والنصارى ﴿من قبل﴾ أي من قبلهم فيكون موضعه نصباً. ويحتمل أن يكون مجزوماً على النهي ﴿فطال عليهم الأمد﴾ يعني المدّة والوقت، فإنّ أهل الكتاب لمّا طال عليهم مدّة الجزاء على الطاعات

---

(١) الأحزاب: ٥٣.

﴿فقست قلوبهم﴾ حتّى عدلوا عن الواجب وعملوا بالباطل. وقيل: معناه: طال عليهم الأمد ما بين زمانهم وزمن موسى[١]. وقيل: طال عليهم الأمد ما بين نبيّهم وزمن موسى[٢]. وقيل: طال أمد الآخرة ﴿فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون﴾ خارجون عن طاعة الله تعالى إلى معصيته فلا تكونوا مثلهم فيحكم الله فيكم بمثل ما حكم فيهم.

ثمّ قال: ﴿اعلموا أنّ الله يحيي الأرض بعد موتها﴾ بالجدب والقحط فكذلك يحيي الكافر بالهدى إلى الايمان بعد موته بالضلال بأن يلطف له ما يؤمن عنده.

ثمّ قال: ﴿قد بيّنّا لكم الآيات﴾ يعني: الحجج الواضحات والدلائل البيّنات ﴿لعلّكم تعقلون﴾ أي لكي تعقلوا وترجعوا إلى طاعته وتعملوا بما يأمركم به.

وقوله: ﴿إنّ المصّدّقين والمصّدّقات﴾ من شدّد أراد المتصدّقين إلّا أنّه أدغم التاء في الصاد، ومن خفّف أراد الّذين صدقوا بالحقّ ﴿وأقرضوا الله قرضاً حسناً﴾ أي أنفقوا مالهم في طاعة الله وسبيل مرضاته. ثمّ بيّن ما أعدّ لهم من الجزاء فقال: ﴿يضاعف لهم﴾ أي يجازون بأمثال ذلك. ومن شدّد العين أراد التكثير، لأنّ الله تعالى يعطي بالواحد عشراً إلى سبعين إلى سبع مائة. ثمّ قال: ﴿ولهم أجر كريم﴾ أي لهم جزاء وثواب مع إكرام الله إيّاهم وإجلاله لهم.

ثمّ قال: ﴿والّذين آمنوا بالله ورسله﴾ يعني الّذين صدّقوا بتوحيد الله وإخلاص العبادة له وأقرّوا بنبوّة رسله ﴿أولئك هم الصدّيقون﴾ الّذين صدّقوا

---

(١) تفسير الطبري ١١: ٦٨١.
(٢) راجع تفسير السمرقندي ٣: ٤٠٦.

بالحقّ. ثمّ قال مستأنفاً: ﴿والشهداء عند ربّهم﴾ قال ابن عبّاس ومسروق وأبو الضحى والضحّاك: هو منفصل ممّا قبله مستأنف. والمراد بالشهداء الأنبياء عليهم السلام ويجوز أن يكون معطوفاً على ما تقدّم وتقديره: أُولئك هم الصدّيقون وأُولئك هم الشهداء، ويكون ﴿لهم أجرهم ونورهم﴾ للجماعة من الصدّيقين والشهداء، فكأنّه قال: كلّ مؤمن شهيد على ما رواه البراء بن عازب عن النبيّ صلى الله عليه وآله وعن عبد الله بن مسعود ومجاهد، فيكون التقدير أُولئك هم الصدّيقون عند ربّهم والشهداء عند ربّهم.

ثمّ قال: ﴿لهم أجرهم ونورهم﴾ أي لهم ثواب طاعاتهم ونور إيمانهم الّذي يهتدون به إلى طريق الجنّة. ثمّ قال: ﴿والّذين كفروا﴾ بالله وجحدوا توحيده وكذّبوا رسله ﴿وكذبوا بآياتنا﴾ يعني: حججه وبيّناته ﴿أُولئك أصحاب الجحيم﴾ يعني: أنّهم يلزمهم الله الجحيم فيبقون فيها دائمين.

ثمّ زهد المؤمنين في الدنيا والسكون إلى لذّاتها، فقال: ﴿اعلموا﴾ معاشر العقلاء والمكلّفين ﴿إنّما الحياة الدنيا﴾ يعني: في هذه الدنيا ﴿لعب ولهو﴾ لأنّه لا بقاء لذلك ولا دوام وأنّه يزول عن وشيك كما يزول اللعب واللهو ﴿وزينة﴾ تتزيّنون بها في الدنيا ﴿وتفاخر بينكم﴾ يفتخر بعضكم على بعض ﴿وتكاثر في الأموال والأولاد﴾ أي كلّ واحد يقول مالي أكثر وأولادي أكثر. ثمّ شبّه ذلك بأن قال مَثَله في ذلك ﴿كمثل غيث﴾ يعني مطراً ﴿أعجب الكفّار نباته﴾ أي أعجب الزرّاع ما نبت بذلك الغيث فالكفّار: الزرّاع. وقال الزجّاج: ويحتمل أن يكون المراد الكفّار بالله لأنّهم أشدّ إعجاباً بالدنيا من غيرهم[1] ﴿ثمّ يهيج﴾ أي ييبس فيسمع له لمّا تدخله

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٥: ١٢٧.

الريح صوت الهائج ﴿فتراه مصفرّاً﴾ وهو إذا قارب اليبس ﴿ثمّ يكون حطاماً﴾ أي هشيماً بأن يهلكه الله مثّل أفعال الكافر بذلك، فإنّها وإن كانت على ظاهر الحسن فإنّ عاقبتها إلى هلاك ودمار مثل الزرع الّذي ذكره. ثمّ قال: وله مع ذلك ﴿وفي الآخرة﴾ ﴿عذاب شديد﴾ من عذاب النار للعصاة والكفّار ﴿ومغفرة من الله ورضوان﴾ للمؤمنين المطيعين. ثمّ قال: ﴿وما الحياة الدنيا إلّا متاع الغرور﴾ معناه: العمل للحياة الدنيا متاع الغرور وإنّها كهذه الأشياء الّتي مثّل بها في الزوال والفناء، والغرور ـ بضمّ الغين ـ ما يغرّ من متاع الدنيا وزينتها.

قوله تعالى:

سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِالْغَيْبِ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾

خمس آيات بلا خلاف.

[أقول:][1] قرأ أبو عمرو ﴿بما أتاكم﴾ مقصور يعني بما جاءكم. الباقون بالمدّ يعني: بما أعطاكم. وقرأ أهل المدينة وأهل الشام ﴿فإنّ الله الغنيّ

---

(١) من الحجريّة.

الحميد﴾ بلا فصل «هو» لأنّهم وجدوا في مصاحفهم كذلك، والباقون بإثبات ﴿هو﴾ وكذلك ﴿هو﴾ في مصاحفهم. فمن أسقط ﴿هو﴾ جعل ﴿الغنيّ﴾ خبر ﴿إنّ﴾ و ﴿الحميد﴾ نعته. ومن زاد ﴿هو﴾ احتمل شيئين:

أحدهما: أن يجعل ﴿هو﴾ عماداً وإمّا صلة زائدة.

والثاني: أن يجعله ابتداء و ﴿الغنيّ﴾ خبره، والجملة في موضع خبر ﴿إنّ﴾ مثل قوله: ﴿إنّ شانئك هو الأبتر﴾ [(١)].

يقول الله تعالى آمراً للعقلاء المكلّفين وحاثّاً لهم على الطاعات ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربّكم﴾ و«المسابقة» طلب العامل التقدّم في عمله قبل عمل غيره بالاجتهاد فيه فعلى كلّ مكلّف الاجتهاد في تقديم طاعة الله على كلّ عمل كما يجتهد المسابق لغيره. والمسابقة إلى المغفرة بأن يتركوا المعاصي ويفعلوا الطاعات.

وقوله: ﴿وجنّة﴾ معناه: سابقوا إلى جنّة أي إلى استحقاق ثواب جنّة ﴿عرضها كعرض السماء والأرض﴾ في السعة. وقال الحسن: إنّ الله تعالى يفني الجنّة ويعيدها على ما وصفه في طولها وعرضها، فبذلك صحّ وصفها بأن عرضها كعرض السماء والأرض. وقال غيره إنّ الله تعالى قال: ﴿عرضها كعرض السماء﴾ الدنيا ﴿والأرض﴾ والجنّة المخلوقة في السماء السابعة فلا تنافي بين ذلك، وإذا كان العرض بهذه السعة فالطول أكثر منه أو مثله.

قوله: ﴿أُعدّت﴾ اشتقاقه من العدد والإعداد، وضع الشيء لما يكون في المستقبل على ما يقتضيه من عدد الأمر الّذي له، والمعنى: أنّ هذه

---

(١) الكوثر: ٣.

الجنّة وضعت وادّخرت ﴿للّذين آمنوا بالله﴾ ورسوله، فيوحّدوا الله ويصدّقوا رسله. ثمّ قال: ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء﴾ أي هذا الّذي ذكره بأنّه معدّ للمؤمن فضل من الله يؤتيه من يشاء أي يعطيه من يشاء ﴿والله ذوالفضل العظيم﴾ فالفضل والإفضال والتفضّل واحد، وهو النفع الّذي كان للقادر أن يفعله بغيره وله أن لا يفعله.

ثمّ قال تعالى: ﴿ما أصاب من مصيبة﴾ أي ليس يصيب أحداً مصيبة ﴿في الأرض﴾ في ماله ﴿ولا في أنفسكم إلّا﴾ وهو مثبت مذكور ﴿في كتاب﴾ يعني: اللوح المحفوظ ﴿من قبل أن نبرأها﴾ فالضمير راجع إلى النفس كأنّه قال: من قبل أن نبرء النفس. ويحتمل أن يكون راجعاً إلى المصائب من الأمراض والفقر والجدب والغمّ بالثكل.

ثمّ قال ﴿إنّ ذلك﴾ يعني إثبات ذلك على ما ذكره ﴿على الله يسير﴾ أي سهل غير يسير.

ثمّ بيّن تعالى لِمَ فعل ذلك فقال: فعلت ذلك ﴿لكيلا تأسوا﴾ أي لا تحزنوا ﴿على ما فاتكم﴾ من لذّات الدنيا وزينتها ﴿ولا تفرحوا بما آتاكم﴾ منها على وجه البطر والأشر. فمن قصر أراد بما جاءكم، ومن مدّ أرد بما أعطاكم. ثمّ قال: ﴿والله لا يحبّ كلّ مختال﴾ أي متجبّر متبختر ﴿فخور﴾ على غيره على وجه التكبّر عليه، فإنّ مَن هذه صفته لا يحبّه الله. وفرح البطر مذموم. وفرح الاغتباط بنعم الله محمود. كما قال تعالى: ﴿فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾ [١] والتأسّي: تخفيف الحزن بالمشاركة في حاله.

ثمّ بيّن صفة المختال الفخور، فقال: ﴿الّذين يبخلون﴾ بما أوجب الله

---

(١) آل عمران: ١٧٠.

عليهم من الحقوق في أموالهم ﴿ويأمرون الناس بالبخل﴾ أيضاً. وقيل: نزلت في اليهود الّذين بخلوا بذكر صفة النبيّ على ما وجدوه في كتبهم وأمروا غيرهم بذلك. والبخل والبَخل لغتان، وقرئ بهما. وهو منع الواجب(١).

ثمّ قال: ﴿ومن يتولّ﴾ يعني ومن يعرض عمّا ذكره الله وخالف ﴿فإنّ الله هو الغنيّ الحميد﴾ ومعناه: أنّه تعالى الغنيّ عن جميع خلقه محمود في جميع أفعاله، فمنع هؤلاء حقوق الله لا يضرّه، وإنّما ضرر ذلك عليهم.

ثمّ أقسم تعالى فقال: ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبيّنات﴾ يعني الدلائل والحجج الواضحة ﴿وأنزلنا معهم الكتاب﴾ أي مكتوباً فيه ما يحتاج الخلق إليه كالتوراة والإنجيل والقرآن ﴿والميزان﴾ أي وأنزلنا الميزان وهو ذوالكفّتين. وقيل: المراد به العدل(٢) ﴿ليقوم الناس بالقسط﴾ يعني بالعدل في الأُمور ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد﴾ إخبار من الله تعالى أنّه الّذي أنزل الحديد. وروي «أنّ الله تعالى أنزل مع آدم العلاءة ـ يعني: السندان والمطرقة والكلبتين ـ من السماء»(٣) وهذا صحيح ولا بدّ منه، لأنّ الواحد منّا لا يمكنه أن يفعل آلات من حديد وغيرها إلّا بآلات قبلها، وينتهي إلى آلات يتولّى الله صنعها تعالى الله علوّاً كبيراً.

وقوله: ﴿فيه بأس شديد﴾ أي يمتنع به ويحارب به ﴿ومنافع للناس﴾ أي وفيه منافع للناس كأدواتهم وآلاتهم وجميع ما يتّخذ من الحديد من آلات ينتفع بها كالسكّين وغيرها ﴿وليعلم الله من ينصره ورسله﴾ أي فعلت ذلك

(١) معاني القرآن ٣: ١٣٦، تفسير السمرقندي ٣: ٤٠٩ ـ ٤١٠.
(٢) تفسير الطبري ١١: ٦٨٨.
(٣) راجع تفسير السمرقندي ٣: ٤١٠، معاني القرآن وإعرابه ٥: ١٢٩.

لما لهم فيه من النفع به، وليعلم الله من ينصره بنصرة موجودة. ومن يجاهد مع نبيّه جهاداً موجوداً ﴿بالغيب﴾ أي ينصر الله ورسلَه ظاهراً وباطناً ﴿إنّ الله قويّ عزيز﴾ أي قادر على ما يصحّ أن يكون مقدوراً له، لا يقدر أحد على قهره ولا على منعه. وقيل في جواب قوله: ﴿الّذين يبخلون﴾ قولان:

أحدهما: أنّه محذوف كما حذف في قوله: ﴿ولو أنّ قرآناً سيّرت به الجبال﴾[1] وتقديره الّذين يبخلون فهم يستحقّون العذاب والعقوبة.

وقيل أيضاً: جوابه جواب قوله: ﴿ومن يتولّ﴾ فعطف بجزاءين على جزاء واحد، وجعل جزاءيهما واحداً كما تقول: إن تقم وتحسن آتك لا أنّه حذف الجواب[2].

قوله تعالى:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾.

خمس آيات بصري وأربع فيما عداه، عدّ البصريّون ﴿وآتيناه الإنجيل﴾

---

(١) الرعد: ٣١.

(٢) راجع تفسير الطبري ١١: ٦٨٨.

ولم يعدّه الباقون.

يقول الله تعالى مقسماً: إنّه أرسل نوحاً نبيّاً إلى قومه، وإبراهيم أيضاً أرسله إلى قومه. وذكر أنّه تعالى جعل في ذرّيّتهما ـ يعني في ذرّيّة نوح وإبراهيم أيضاً بعد ما أرسلهما إلى قومهما ـ ﴿النبوّة والكتاب﴾ لأنّ الأنبياء كلّهم من نسلهما. وعليهم أنزل الكتاب.

ثمّ أخبر عن حال ذرّيّتهما فقال: ﴿فمنهم مهتد﴾ إلى طريق الحقّ واتّباعه ﴿وكثير منهم فاسقون﴾ أي خارجون عن طاعة الله إلى ذلّ معصيته.

ثمّ أخبر تعالى أنّه قفّى على آثار من ذكره برسل أُخر إلى قوم آخرين. والتقفية جعل الشيء في أثر الشيء على الاستمرار فيه، ولهذا قيل لمقاطع الشعر: قوافي إذا كانت تتبع البيت على أثره مستمرّة في غيره على منهاجه. فكأنّه قال: وأنفذنا بعدهم بالرسل رسولاً بعد رسولهم ﴿وقفّينا بعيسى ابن مريم﴾ بعدهم ﴿وآتيناه﴾ أي أعطينا عيسى ابن مريم ﴿الإنجيل وجعلنا في قلوب الّذين اتّبعوه رأفة ورحمة﴾ وقيل في معناه قولان:

أحدهما: أنّه جعل في قلوبهم الرأفة والرحمة بالأمر به والترغيب فيه. ثمّ أخبر أنّه رزق الرأفة والرحمة. قال أبو زيد: يقال رؤفت بالرجل ورأفت به رأفة بفتح الهمزة وسكونها .

الثاني: أنّه خلق في قلوبهم الرأفة والرحمة. وإنّما مدحهم على ذلك، لأنّهم تعرّضوا لهما[١].

وقوله: ﴿ورهبانيّة ابتدعوها﴾ يعني: ابتدعوا الرهبانيّة ابتدعوها وهي الخصلة عن العبادة يظهر فيها معنى الرهبة إمّا في لبسه أو انفراده عن

---

(١) النكت والعيون ٥: ٤٨٥.

الجماعة أو غير ذلك من الأُمور الّتي يظهر فيها نسك صاحبها. ومعنى الآية: ابتدعوا رهبانيّة لم تكتب عليهم. ثمّ قال: ﴿ما كتبناها عليهم﴾ الرهبانيّة ﴿إلّا ابتغاء رضوان الله﴾ فالثانية غير الأُولى إلّا أنّه لمّا اتّفق الاسمان فيهما كنّى عنهما بما تقدّم، وقام إعادة لفظهما مقامهما كما قال حسان:

أمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء[١]

فالتقدير ومن يمدحه. و«الابتداع» ابتداء أمر لم يجد فيه على مثال. والبدعة: إحداث أمر على خلاف السنّة. وقال قتادة: الرهبانيّة الّتي ابتدعوها رفض النساء واتّخاذ الصوامع. وقال قتادة وابن زيد: تقديره ورهبانيّة ما كتبناها عليهم إلّا أنّهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله ﴿فما رعوها حقّ رعايتها﴾ وقال قوم: الرهبانيّة الّتي ابتدعوها لحاقهم بالبراري والجبال[٢] في خبر مرفوع عن النبيّ صلى الله عليه وآله «فما رعاها الّذين بعدهم حقّ رعايتها» وذلك لتكذيبهم بمحمّد صلى الله عليه وآله[٣] وقيل: الرهبانيّة الانقطاع عن الناس للانفراد بالعبادة[٤].

وقوله: ﴿ما كتبناها عليهم﴾ معناه: ما فرضناها عليهم أي تلك الرهبانيّة البتّة. وقال الزجّاج: معناه: ما كتبناها عليهم البتّة ما كتبناها عليهم إلّا ابتغاء رضوان الله، فيكون بدلاً من ﴿ها﴾ الّتي يشتمل عليه المعنى، ذكره الزجّاج. وقيل: كان عليهم تتميمها كما على المبتدئ بصوم التطوّع أن يتمّه[٥]. وقال الحسن: فرضها الله عليهم بعد ما ابتدعوها. وقوله: ﴿فما رعوها حقّ رعايتها﴾ معناه: فما حفظوها حقّ حفظها.

---

(١) مرّ في ١: ٤٧٢، ديوان حسان بن ثابت ١: ١٨.
(٢ و ٤) النكت والعيون ٥: ٤٨٤.
(٣) مستدرك الحاكم ٢: ٤٨٠.
(٥) معاني القرآن وإعرابه ٥: ١٣٠.

ثمّ قال: ﴿فآتينا الّذين آمنوا﴾ معناه: فأعطينا من آمن بالله ورسوله من جملة المذكورين ﴿أجرهم﴾ أي ثوابهم على إيمانهم. ثمّ قال: ﴿وكثير منهم فاسقون﴾ أي خارجون عن طاعة الله إلى معصيته والكفر به.

وقوله: ﴿يا أيّها الّذين آمنوا اتّقوا الله وآمنوا برسوله﴾ معناه: يا أيّها الّذين اعترفوا بتوحيد الله وصدّقوا بموسى وعيسى واعترفوا بنبوّتهما اتّقوا الله وآمنوا برسوله محمّدﷺ، ذكره ابن عبّاس ﴿يؤتكم كفلين من رحمته﴾ قال ابن عبّاس: معناه يعطكم أجرين أجراً لإيمانكم بمحمّدﷺ وأجراً لإيمانكم بمن تقدّم من الرسل. وأصل الكفل الحظّ في قول الفرّاء، ومنه الكفل الّذي يكتفل به الراكب، وهو كساء أو نحوه يحويها على الإبل إذا أراد أن يرتدف فيه فيحفظه من السقوط، ففيه حظّ من التحرّز من الوقوع[١] ﴿ويجعل لكم نوراً تمشون به﴾ قال مجاهد: ويجعل لكم هدى تهتدون به. وقال ابن عبّاس: النور القرآن. وفيه الأدلّة على كلّ حقّ وبيان لكلّ خير، وبه يستحقّ الضياء الّذي يمشي به يوم القيامة ﴿ويغفر لكم﴾ أي يستر عليكم ذنوبكم ﴿والله غفور الرحيم﴾ أي ستّار عليكم ذنوبكم، رحيم بكم منعم عليكم.

وقوله: ﴿لئلّا يعلم أهل الكتاب ألاّ يقدرون على شيء من فضل الله﴾ معناه: ليعلم أهل الكتاب الّذين يتشبّهون بالمؤمنين منهم أن لا يقدرون، أي أنّهم لا يقدرون على شيء من فضل الله في قول ابن عبّاس. و«أن» هي المخفّفة من الثقيلة. وقيل: معناه: ليعلم أهل الكتاب الّذين حسدوا المؤمنين بما وُعِدوا أنّهم لا يقدرون على شيء من فضل الله، فيصرفوا

(١) معاني القرآن ٣: ١٣٧.

النبوّة عن محمّدﷺ إلى من يحبّونه. و «لا» في «لئـلّا» صـلة وتـوكيد، وقيل: إنّما تكون «لا» صلة في كلّ كلام دخل فـي أواخـره جـحد، وإن لم يكن مصرّحاً به نـحو ﴿ما منعك ان لا تسجد﴾[1] ﴿وما يشعركم أنّها إذا جاءت لا يؤمنون﴾[2] وقوله: ﴿وحرام على قرية أهلكناها أنّهم لا يرجعون﴾[3].

وقوله: ﴿وإنّ الفضل بيد الله﴾ معناه: ليعلموا أنّ الفضل بيد الله ﴿يؤتيه من يشاء﴾ أي يعطيه من يحبّ ﴿من عباده﴾ ممّن يعلم أنّه يصلح له.

ثمّ قال: ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ معناه: ذو تفضّل على خلقه وإحسان على عباده تعظيم لا يحصى كثرة ولا يعدّ.

---

(١) الأعراف: ١٢، معاني القرآن ٣: ١٢٧.

(٢) الأنعام: ١٠٩.

(٣) الأنبياء: ٩٥.

سورة المجادلة

مدنيّة بلا خلاف، وهي اثنتان وعشرون آية في الكوفي والبصري والمدني الأوّل، وإحدى وعشرون في المدني الأخير.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تبارك وتعالى:

قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَـٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَـٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّـٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ خمس آيات بلا خلاف.

[أقول:][1] قرأ المفضّل عن عاصم ﴿ما هن أُمّهاتهم﴾ على الرفع على لغة بني تميم. الباقون بنصب ﴿أُمّهاتهم﴾ على لغة أهل الحجاز، وهي لغة القرآن، كقوله ﴿ما هذا بشراً﴾[2] وقرأ عاصم ﴿يظاهرون﴾ بضمّ الياء بألف. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ﴿يظهرون﴾ بغير ألف مشدّدة الظاء والهاء. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي ﴿يظاهرون﴾ بتشديد الظاء وألف وفتح الياء. وقال أبو عليّ النحوي: ظاهر من امرأته وظهّر مثل ضاعف وضعّف وتدخل التاء على كلّ واحد منهما، فيصير تظاهر وتظهّر، ويدخل حرف المضارعة، فيصير يتظاهر ويتظهّر، ثمّ يدغم التاء في الظاء لمقاربتهما، فيصير يظاهرون ويظهرون بفتح الياء الّتي هي للمضارعة، لأنّها للمطاوعة، كما تفتحها في «يتدحرج» الّذي هو مطاوع «دحرجتُه فتدحرج». واختار عاصم أنّ المظاهرة من المضارعة، لأنّ المفاعلة لا يكون إلّا من نفسين. والظهار يكون بين الرجل وامرأته. ومن قرأ ﴿يظّاهرون﴾ فأصله يتظاهرون فأدغم التاء في الظاء[3].

والظهار: قول الرجل لامرأته: أنت عليّ كظهر أُمّي، وكان أهل الجاهليّة إذا قال الرجل منهم هذا لامرأته بانت منه وطلّقت. وفي الشرع لا تبين المرأة إلّا أنّه لا يجوز له وطؤها إلّا بعد أن يكفّر. وعندنا أنّ شروط الظهار هي شروط الطلاق سواء من كون المرأة طاهراً طهراً لم يَقْربْها فيه بجماع، ويحضره شاهدين ويقصد التحريم، فإن اختلّ شيء من ذلك لم يقع به ظهار. ويقال فيه ظاهر فلان من امرأته ظهاراً ومظاهرة وإظهاراً، فلان ظاهر وتظاهر تظاهراً إلّا أنّه أُدغم واظّهّر إظّهّاراً. وأصله

(١) من الحجريّة. (٢) يوسف: ٣١. (٣) الحجّة للقرّاء السبعة ٤: ٣٣ ـ ٣٤.

تظهّر تظهّراً إلّا أنّه أُدغمت التاء في الظاء.

وقيل: إنّ هذه الآية نزلت في خولة بنت ثعلبة وزوجها أوس بن الصامت، في قول قتادة. وكان مجادلتها إيّاه مراجعتها في أمر زوجها. وقد كان ظاهر منها، وهي تقول: كبرت سنّي ودقّ عظمي، وإنّ أوساً تزوّجني وأنا شابّة، فلمّا علت سنّي يريد أن يطلّقني، ورسول اللهﷺ يقول: بنت منه على ما رواه أبو العالية. وفي رواية غيره أنّه قال لها: ليس عندي في هذا شيء، فنزلت الآية. وقال ابن عبّاس: نزلت الآية في أوس بن الصامت، وكانت تحته بنت عمّ له، فقال لها: أنت عليّ كظهر أُمّي، فهو أوّل من ظاهَر في الإسلام. وقيل كان يقال للمرأة خولة بنت خويلد. وكان الرجل في الجاهليّة إذا قال لامرأته: أنت عليّ كظهر أُمّي حرمت عليه، فأنزل الله تعالى في قصّة الظهار آيات. ولا خلاف أنّ الحكم عامّ في جميع من يظاهر، وإن نزلت الآية على سبب خاصّ.

فقال الله تعالى لنبيّه: ﴿لقد سمع الله قول الّتي تجادلك في زوجها﴾ فالجدال والمجادلة هي المخاصمة. وقد يقال: للمراجعة والمقابلة للمعنى بما يخالفه مجادلة. وأصل الجدال الفتل. ومن قابل المعنى بخلافه طلباً للفائدة فليس بمجادل. فمجادلة المرأة لرسول الله كان مراجعتها إيّاه في أمر زوجها، وذكرها «أنّه كبرت سنّي ودقّ عظمي» والنبيّﷺ يقول بِنْتِ منه ـ على ما رواه أبو العالية ـ لأنّه لم يكن نزل عليه في ذلك وحي ولا حكم.

وقوله: ﴿وتشتكى إلى الله﴾ أي تظهر ما بها من المكروه، تقول: اللّهمّ إنّك تعلم حالي فارحمني، فالاشتكاء إظهار ما بالإنسان من المكروه.

والشكاية إظهار ما يصنعه به غيره من المكروه.

وقوله: ﴿والله يسمع تحاوركما﴾ أي مراجعة بعضكما البعض. و«التحاور» التراجع وهو المحاورة، تقول: تحاورا تحاوراً وحاور محاورة أي راجعه في الكلام، قال عنترة:

لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ... ولكان لو عَلِم الكلام مكلِّمي[١]

و ﴿إنّ الله سميع بصير﴾ أي على صفة يصحّ معها أن يسمع المسموعات إذا وجدت، ويبصر المبصرات إذا وجدت.

ثمّ قال: ﴿الّذين يظاهرون منكم من نسائهم﴾ أي الّذين يقولون لنسائهم: أنت عليّ كظهر أُمّي، ومعناه: إنّ ظهرك عليّ حرام كظهر أُمّي. فقال الله تعالى: ﴿ما هنّ أُمّهاتهم﴾ أي ليست أزواجهم أُمّهاتهم على الحقيقة ﴿إن أُمّهاتهم﴾ أي وليست أُمّهاتهم في الحقيقة ﴿إلّا اللائي ولدنهم﴾ من الأُمّ وجدّاته. ثمّ أخبر بأنّ القائل لهذا يقول قولاً ﴿منكراً﴾ من القول وقبيحاً ﴿وزوراً﴾ أي كذباً، لأنّه إذا جعل ظهرها كظهر أُمّه وليست كذلك كان كاذباً في قوله.

﴿وإنّ الله لعفوّ[٢] غفور﴾ أي رحيم بهم منعم عليهم متجاوز عن ذنبهم. وفي ذلك دلالة على أنّ الله رحمها وغيرها من النساء لرغبتها في زوجها بالتوسعة من جهة الكفّارة الّتي تحلّ بها.

ثمّ بيّن تعالى ما يلزمه من الحكم، فقال: ﴿والّذين يظاهرون من نسائهم﴾ يعني: الّذين يقولون هذا القول الّذي حكيناه ﴿ثمّ يعودون

---

(١) ديوان عنترة: ٦٨، النكت والعيون ٥: ٤٨٨.

(٢) في الخطّيّة زيادة: لهم عن ذلك إذا تابوا وأنابوا.

لما قالوا﴾ واختلفوا في معنى العود؛ فقال قتادة: «العود» هو العزم على وطئها. وقال قوم: «العود» الإمساك عزم أو لم يعزم. وقال الشافعي: هو أن يمسكها بالعقد، ولا يتبع الظهار بطلاق[١]. وحكى الطبري عن قوم أنّهم قالوا: فيه تقديم وتأخير وتقديره: والّذين يظاهرون من نسائهم فتحرير رقبة من قبل أن يتماسّاً فمن لم يجد فصيام شهرين فمن لم يستطع فإطعام ستّين مسكيناً ثمّ يعودون لما قالوا[٢]. وقال قوم: معناه: ثمّ يعودون لنقض ما قالوا وارتفاع حكمه. وقال قوم: لا تجب عليه الكفّارة حتّى يعود القول ثانية. وهو خلاف أكثر أهل العلم[٣].

والّذي هو مذهبنا أنّ العود المراد به إرادة الوطء أو نقض القول الّذي قاله، فإنّه لا يجوز له الوطء إلّا بعد الكفّارة، ولا يبطل حكم القول الأوّل إلّا بعد أن يكفّر.

وقال الفرّاء: يحتمل أن يكون المراد ثمّ يعودون إلى ما قالوا، وفيما قالوا، وفي نقض ما قالوا، أي يرجعون عمّا قالوا. ويجوز في العربيّة أن تقول: إن عاد لما فعل، تريد أن فعله مرّة أُخرى، ويجوز إن عاد لما فَعَل أي نَقَض ما فَعَل، كما تقول: حلف أن يضربك بمعنى حلف ألّا يضربك، وحلف ليضربنّك[٤].

وقوله: ﴿فتحرير رقبة من قبل أن يتماسّا﴾ بيان لكيفيّة الكفّارة، فإنّ أوّل ما يلزمه من الكفّارة عتق رقبة. فالتحرير هو أن يجعل الرقبة المملوكة حرّة بالعتق بأن يقول المالك: إنّه حرّ. والرقبة ينبغي أن تكون مؤمنة سواء

(١) راجع الكشف والبيان ٩: ٢٥٥.
(٢) تفسير الطبري ١٢: ٩.
(٣) تفسير السمرقندي ٣: ٤١٣.
(٤) معاني القرآن ٣: ١٣٩.

كانت ذكراً أو أُنثى صغيرة أو كبيرة إذا كانت صحيحة الأعضاء، فإنّ الإجماع واقع على أنّه يقع الإجزاء بها. وقال الحسن وكثير من الفقهاء: إن كانت كافرة أجزأت. وفيه خلاف وتفاصيل. ذكرناه في كتب الفقه. وتحرير الرقبة واجب قبل المجامعة، لظاهر قوله: ﴿من قبل أن يتماسّا﴾ أي من قبل أن يجامعها فيتماسّا، وهو قول ابن عبّاس. فكان الحسن لا يرى بأساً أن يغشى المظاهر دون الفرج. وفي رواية أُخرى عنه أنّه يكره للمظاهر أن يقبّل. والّذي يقتضيه الظاهر ألّا يَقْربها بجماع على حال ولا بمماسّة شهوة. وقوله: ﴿ذلكم توعظون به﴾ إن تظاهروا. ثمّ قال: ﴿والله بما تعملون خبير﴾ أي عالم بما تفعلونه من خير وشرّ، فيجازيكم بحسبه.

ثمّ قال: ﴿فمن لم يجد﴾ يعني الرقبة وعجز عنها ﴿فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسّا﴾ والتتابع عند أكثر العلماء أن يوالي بين أيّام الشهرين الهلاليّين أو يصوم ستّين يوماً. وعندنا أنّه إذا صام شهراً ومن الآخر ولو يوماً، فقد تابع، فإن فرّق فيما بعد جاز. وعند قوم: ان يصوم شهراً ونصف شهر لا يفطر فيما بينهما، فإن أفطر لا لعذر استأنف. وإن أفطر لعذر من مرض اختلفوا، فمنهم من قال: يستأنف من عذر وغير عذر. وبه قال إبراهيم النخعي ورواه جابر عن أبي جعفرعليه السلام: وقال قوم: يبني، وبه قال سعيد بن المسيّب والحسن وعطاء والشعبي. وأجمعوا على أنّ المرأة إذا أفطرت للحيض في الشهرين المتتابعين في كفّارة قتل الخطأ أو فطر يوم أنّها تبني فقاسوا عليه الظهار[1]. وروى أصحابنا أنّه إذا صام شهراً ومن الثاني بعضه ولو يوماً ثمّ أفطر لغير عذر فقد أخطأ إلّا أنّه يبني على

---

(١) تفسير الطبري ١٢: ١١ ـ ١٢.

ما قدّمناه. وإن أفطر قبل ذلك استأنف[١]. ومتى بدأ بالصوم وصام بعضه ثمّ وجد العتق لا يلزمه العتق، وإن رجع كان أفضل. وقال قوم: يلزمه الرجوع إلى العتق.

ومتى جامع في ليالي الصوم وجب عليه الاستئناف وبطل حكم التتابع، لأنّه خلاف الظاهر. ومتى جامع قبل الكفّارة لزمته كفّارة ثانية عند أصحابنا، وكلّما وطئ لزمته كفّارة بعدد الوطأ.

وقوله: ﴿فمن لم يستطع﴾ يعني من لم يقدر على الصوم ﴿فإطعام ستّين مسكيناً﴾ يعني ـ عندنا ـ لكلّ مسكين نصف صاع، فإن لم يقدر أعطاه مدّاً. وروي عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه أعطى المظاهر نصف وسق ثلاثين صاعاً. وقال: أطعم ستّين مسكيناً وراجعها. وذلك أنّه كان فقيراً عاجزاً عن جميع الكفّارات[٢]. وقال الحسن: أعانه رسول الله صلى الله عليه وآله بخمسة عشر صاعاً. والعدد مراعى، فإن لم يجد العدد كرّر على الموجودين تمام الستّين.

وإن جامعها قبل أن يتمّ الإطعام، فظاهر المذهب يقتضي أنّه يلزمه كفّارة أُخرى، لأنّه وطئ قبل الكفّارة. وقال قوم: لا يلزمه. وقال آخرون: يستأنف الكفّارة.

وقوله: ﴿ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله﴾ معناه: إنّا شرعنا لكم ما ذكرناه في حكم الظهار لما علمناه من مصلحتكم لتؤمنوا بالله ورسوله، فتصدّقوهما وتقرّوا بتوحيد الله وبنبوّة نبيّه.

ثمّ قال: ﴿وتلك حدود الله﴾ يعني: ما ذكرناه من حكم الظهار.

ثمّ قال: ﴿وللكافرين﴾ أي للجاحدين لصحّة ما قلناه ﴿عذاب أليم﴾

---

(١) الكافي ٦: ١٥٥ / ١٠.

(٢) راجع تفسير السمرقندي ٣: ٤١٤.

ومتى نوى بلفظ الظهار الطلاق لم يقع به طلاق. وفيه خلاف بين الفقهاء. والإطعام لا يجوز إلّا للمسلمين دون أهل الذمّة. وفيه خلاف. ومسائل الظهار وفروعها ذكرناها في كتب الفقه.

ثمّ قال: ﴿إنّ الّذين يحادّون الله ورسوله﴾ والمحادّة: المخالفة في الحدود أي من خالف الله ورسوله فيما ذكراه من الحدود ﴿كبتوا﴾ أي أُخذوا في قول قتادة، وقال غيره: أذلّوا[1]. وقال الفرّاء: معناه: أُغيظوا وأُحزنوا يوم الخندق ﴿كما كبت الّذين من قبلهم﴾ يعني: من قاتل الأنبياء من قبلهم[2].

ثمّ قال تعالى: ﴿وقد أنزلنا آيات بيّنات﴾ أي حجج واضحات من القرآن وما فيه من الأدلّة. ثمّ قال: ﴿وللكافرين﴾ أي للجاحدين لما أنزلناه من القرآن والآيات ﴿عذاب مهين﴾ أي يهينهم ويخزيهم.

قوله تعالى:

يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ أَحْصَاهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَيَتَنَـٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَـٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَـٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ

(١) معاني القرآن وإعرابه ٥: ١٣٦. (٢) معاني القرآن ٣: ١٣٩.

وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَـٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ خمس آيات بلا خلاف.

[أقول:][١] قرأ حمزة وحده ﴿ويتنجون﴾ بغير ألف. الباقون ﴿يتناجون﴾ بألف. وقرأ أبو جعفر ﴿ما يكون﴾ بالياء. الباقون بالتاء، لأنّ تأنيث نجوى ليس بحقيقي.

لمّا قال الله تعالى: إنّ الكافرين لحدود الله الجاحدين لهم عذاباً مهيناً، بيّن متى يكون ذلك فقال: ﴿يوم يبعثهم الله جميعاً﴾ أي يحشرهم إلى أرض المحشر ويعيدهم أحياء ﴿فينبّئهم﴾ أي يخبرهم ويعلمهم ﴿بما عملوا﴾ في دار الدنيا من المعاصي وارتكاب القبائح. ثمّ قال: ﴿أحصاه الله ونسوه﴾ أي أحصاه الله عليهم وأثبته في كتاب أعمالهم ونسوه هم ﴿والله على كلّ شيء شهيد﴾ ومعناه: أنّه يعلم الأشياء كلّها من جميع وجوهها لا يخفى عليه شيء من ذلك وإن كان كثيراً من الأشياء لا يصحّ مشاهدتها ولا إدراكها، ومنه قوله: ﴿شهد الله أنّه لا إله إلّا هو﴾[٢] أي علم ذلك.

ثمّ بيّن فقال: ﴿ألم تر﴾ ومعناه: ألم تعلم، والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وآله والمراد به جميع المكلّفين ﴿أنّ الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض﴾ من الموجودات لا يخفى عليه شيء منها، لأنّه عالم لنفسه يجب أن يكون عالماً بما يصحّ أن يكون معلوماً. وقيل: التقدير ألم تر أنّ الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ممّا ترى من تدبيرهما من مسير الشمس والقمر ومجيء الحرّ والبرد والزروع والثمار وسائر صنوف الأشجار على

---

(١) من الحجريّة.

(٢) آل عمران: ١٨.

ما تقتضي الحكمة عالماً دبّر ذلك وجعل كلّ شيء منه في وقته ولما يصلح له، وذلك يقتضي أنّه عالم بكلّ نجوى، لأنّه عالم لنفسه لا بحدوث علم. وإذا ثبت أنّه عالم لنفسه وجب أن يكون عالماً بكلّ معلوم.

وقوله: ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلّا هو رابعهم ولا خمسة إلّا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلّا هو معهم أينما كانوا﴾ والمعنى: أنّه عالم بأحوالهم وجميع متصرّفاتهم فرادى وعند الاجتماع، لا يخفى عليه شيء منها، فكأنّما هو معهم مشاهد لهم. وعلى هذا يقال: إنّ الله تعالى مع الإنسان حيث ما كان، لأنّه كان عالماً لا يخفى عليه شيء من أمره حتّى أنّه ظاهر له أتمّ الظهور كمن شاهده ممّن هو معه في المكان، وحسن هذا لما فيه من البيان، فأمّا أن يكون معهم على طريق المجاورة فمحال، لأنّ ذلك من صفات الأجسام، والله تعالى ليس بجسم. ويقولون: فلان رابع أربعة إذا كان أحد أربعة ورابع ثلاثة إذا جعل ثلاثة أربعة بكونه معهم. ويجوز على هذا أن يقال: رابع ثلاثة ولا يجوز رابع أربعة، لأنّه ليس فيه معنى الفعل. ويجوز في ﴿ثلاثة﴾ الجرّ بإضافة النجوى إليها، ويجوز بأنّها صفة النجوى. ويجوز النصب بأنّها خبر ﴿يكون﴾.

وقوله: ﴿ثمّ ينبّئهم بما عملوا يوم القيامة﴾ معناه: يعلمهم بما عملوه من المعاصي في الدنيا والأعمال، ويخبرهم بها، لـ﴿أنّ الله بكلّ شيء عليم﴾ لا يخفى عليه خافية.

ثمّ قال لنبيّه صلى الله عليه وآله والمراد به جميع الأُمّة: ﴿ألم تر﴾ بمعنى ألم تعلم ﴿إلى الّذين نهوا عن النجوى﴾ قال مجاهد: كان النبيّ صلى الله عليه وآله نهى اليهود عن النجوى بينهم لأنّهم كانوا لا يتناجون إلّا بما يسوء المؤمنين. وقال الفرّاء:

نزلت في المنافقين واليهود[١] ونهوا أن يتناجوا إذا اجتمعوا مع المسلمين في موضع واحد. والنجوى هي السرار، والنجوة الارتفاع من الأرض، وهو الأصل، ومنه النجا الارتفاع في السير، والنجاة الارتفاع من البلاء.

وقوله: ﴿ثمّ يعودون لما نهوا عنه﴾ معناه: يعودون فيتناجون ويخالفون نهي النبيّ صلى الله عليه وآله ﴿ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول﴾ والتناجي والمناجاة تكون بين اثنين فصاعداً، ويقال: انتجوا بمعنى تناجوا، كما يقال اختصموا وتخاصموا وكذلك انتجوا وتناجوا بمعنى.

وحجّة حمزة قول النبيّ صلى الله عليه وآله في عليّ عليه السلام: «ما أنا انتجيته، ولكنّ الله انتجاه»[٢] وحجّة الباقين قوله: ﴿إذا تناجيتم﴾ وكلاهما حسنان.

قال قتادة: كان المنافقون يتناجون بينهم فيغيّظ ذلك المؤمنين. وقال ابن زيد: كانوا يوهمون أنّه قد حدثت بليّة على المسلمين من حرب أو نحوه، فأخبر الله عنهم أنّهم كانوا يتناجون بالإثم يعني بالمعاصي. و«العدوان» التعدّي إلى غير الواجب. وبمعصية الرسول، أي ما يعصون به الرسول النبيّ صلى الله عليه وآله.

وقوله: ﴿وإذا جاؤوك حيّوك بما لم يحيّك به الله﴾ قال قتادة ومجاهد ـ وهو المرويّ عن عائشة ـ إنّه كانت تحيّتهم: السام عليكم يا با القاسم[٣]. وقال ابن عبّاس: كان المنافقون يقولون ذلك. وقيل: كان النبيّ صلى الله عليه وآله يردّه على من قال ذلك، فيقول: وعليك[٤]. وقال ابن زيد: «السام» الموت. وقال الحسن: كانت اليهود تقول: السام عليكم، أي أنّكم ستسأمون دينكم هذا،

(١) معاني القرآن ٣: ١٤٠.
(٢) المعجم الكبير للطبراني ٢: ١٨٦ / ١٧٥٦.
(٣) راجع تفسير الطبري ١٢: ١٥.
(٤) راجع النكت والعيون ٥: ٤٩١.

أي تملّونه فتدعونه. ومن هذا سئمت الأمر أسأمه سأمَاً وسأماً. ومن قال: «السام» الموت فهو سام الحياة بذهابها.

وقوله: ﴿ويقولون في أنفسهم لولا يعذّبنا الله بما نقول﴾ قال كانوا يقولون: إن كان نبيّاً صادقاً هلّا يعذّبنا الله بما نقول من النجوى وغيره. فقال الله تعالى لهم: ﴿حسبهم جهنّم﴾ أي كافيهم جهنّم ﴿يصلونها﴾ يوم القيامة ويحترقون فيها ﴿وبئس المصير﴾ أي بئس المرجع والمآل لما فيها من أنواع العقاب.

ثمّ أمر المؤمنين فقال: ﴿يا أيّها الّذين آمنوا إذا تناجيتم﴾ أنتم فيما بينكم أي تشاورتم ﴿فلا تتناجوا بالإثم﴾ يعني بالمعاصي ولا بـ﴿العدوان﴾ ولا بـ﴿معصيت الرسول﴾ ومخالفته ﴿وتناجوا بالبرّ والتقوى﴾ أي بأفعال الخير والخوف من عذاب الله. ثمّ قال: ﴿واتّقوا الله﴾ باجتناب معاصيه ﴿الّذي إليه تحشرون﴾ يعني يوم القيامة.

ثمّ قال: ﴿إنّما النجوى من الشيطان﴾ يعني: نجوى المنافقين والكفّار بما يسوء المؤمنين ويغمّهم ﴿من الشيطان﴾ أي بدعاء الشيطان وإغوائه يفعل ذلك ﴿ليحزن الّذين آمنوا وليس بضارّهم شيئاً إلّا بإذن الله﴾ معناه: إلّا بعلم الله وتمكينه إيّاهم لأنّ تكليفهم إيمانهم بذلك، و[1]قيل معناه: ألا بفعل الله الغمّ والحزن في قلوبهم[2] لأنّ الشيطان لا يقدر على فعل ذلك. ثمّ قال تعالى: ﴿وعلى الله فليتوكّل المؤمنون﴾ أي يجب على المؤمنين أن يتوكّلوا في جميع أُمورهم عليه تعالى دون غيره.

---

(١) في الحجريّة زيادة: ليس.

(٢) راجع تفسير السمرقندي ٣: ٤١٧.

قوله تعالى:

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ * أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ خمس آيات بلا خلاف.

[أقول:](١) قرأ عاصم وحده ﴿تفسّحوا في المجالس﴾ على الجمع لاختلافها، الباقون ﴿في المجلس﴾ على التوحيد، لأنّهم ذهبوا مذهب الجنس، لأنّه مصدر يدلّ على القليل والكثير. وقيل: لأنّهم أرادوا مجلس النبيّ صلى الله عليه وآله (٢) فعلى هذا الوجه الإفراد. ومن جمع أراد كلّ جالس مجلساً أي موضع جلوس. وقرأ ﴿انشزوا﴾ بضمّ الشين نافع وابن عامر وعاصم إلّا حمّاداً ويحيى عن أبي بكر. الباقون بكسر الشين، وهما لغتان مثل: يعرُشون ويعرِشون، ويعكُفون ويعكِفون.

يقول الله تعالى مخاطباً للمؤمنين وآمراً لهم بأنّه إذا قيل لهم تفسّحوا في المجلس بمعنى: اتّسعوا فيها، يقال: تفسّح تفسّحاً وله في هذا الأمر فسحة أي متّسع . و«التفسّح» الاتّساع في المكان، وفسح له في المجلس

---

(١) من الحجريّة.

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٥: ١٣٩.

يفسح فسحاً. ومكان فسيح وفسح. والتفسيح والتوسّع واحد. قال قتادة: كانوا يتنافسون في مجلس النبيّ صلى الله عليه وآله فقيل لهم: تفسّحوا. وقال ابن عبّاس: أراد به مجلس القتال ﴿فافسحوا﴾ أي وسّعوا ﴿يفسح الله لكم﴾ أي يوسّع عليكم منازلكم في الجنّة ﴿وإذا قيل انشزوا فانشزوا﴾ أي إذا قيل لكم ارتفعوا في المجلس فارتفعوا. و«النشوز» الارتفاع عن الشيء بالذهاب عنه. ومنه نشوز المرأة عن زوجها، يقال: نشز ينشز نشوزاً ونشزاً. قال قتادة ومجاهد والضحّاك: معناه: إذا قيل قوموا إلى صلاة أو قتال عدوّ أو أمر بمعروف أي تفرّقوا عن رسول الله صلى الله عليه وآله فقوموا.

وقوله: ﴿يرفع الله الّذين آمنوا منكم والّذين أُوتوا العلم درجات﴾ معناه: متى ما فعلتم ما أمرتم به رفع الله الّذين آمنوا منكم، ورفع الّذين أُوتوا العلم درجات، لأنّهم أحقّ بالرفعة. وفي ذلك دلالة على أنّ فعل العالم أكثر ثواباً من فعل من ليس بعالم ﴿والله بما تعملون﴾ من التفسّح والنشوز وغير ذلك ﴿خبير﴾ أي عالم.

ثمّ خاطبهم أيضاً فقال: ﴿يا أيّها الّذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول﴾ أي شاورتموه ﴿فقدّموا بين يدي نجواكم صدقة﴾ قال الزجّاج: كان سبب نزول الآية أنّ الأغنياء كانوا يستخلون النبيّ صلى الله عليه وآله فيشاورونه بما يريدون، والفقراء لا يتمكّنون من النبيّ تمكّنهم، ففرض الله عليهم الصدقة قبل النجوى ليمتنعوا من ذلك، وتعبّدهم بأن لا يناجي أحد رسول الله إلّا بعد أن يتصدّق بشيء ما قلّ أو كثر، فلم يفعل أحد ذلك على ما روي، فاستقرض أمير المؤمنين عليّ عليه السلام ديناراً وتصدّق به، ثمّ ناجى النبيّ صلى الله عليه وآله

فنسخ الله تعالى ذلك الحكم بالآية الّتي بعدها[1].

وقوله: ﴿ذلك خير لكم وأطهر﴾ أي ذلك التصدّق بين يدي النبيّ صلى الله عليه وآله خير لكم وأطهر، ومعناه: أنّ فعل ذلك أدعى إلى مجانبة المعاصي من تركه. ثمّ قال: قل لهم: ﴿فإن لم تجدوا﴾ يعني ما تتصدّقون به ﴿فإنّ الله غفور رحيم﴾ يستر عليكم ترك ذلك ويرحمكم وينعم عليكم.

ثمّ قال ناسخاً لهذا الحكم: ﴿أأشفقتم أن تقدّموا بين يدي نجواكم صدقات﴾ وظاهر هذا الكلام توبيخ على ترك الصدقة، وأنّهم تركوا ذلك إشفاقاً وخوفاً على نقصان المال، فقال: ﴿فإذ لم تفعلوا﴾ ذلك ﴿وتاب الله عليكم﴾ في تقصيركم في فعل الصدقة ﴿فأقيموا الصلاة﴾ الّتي أوجبها الله عليكم وأديموا فعلها وأدّوا شروطها ﴿وآتوا الزكاة﴾ الّتي افترضها عليكم ﴿وأطيعوا الله ورسوله﴾ فيما أمركم به ونهاكم عنه ﴿والله خبير بما تعملون﴾ أي عالم بما تعملونه من طاعة لله أو معصية وحسن وقبيح، فيجازيكم بحسبه.

ثمّ قال للنبيّ صلى الله عليه وآله: ﴿ألم تر﴾ يا محمّد ﴿إلى الّذين تولّوا قوماً غضب الله عليهم﴾ والمراد به قوم من المنافقين، كانوا يوالون اليهود ويغشون إليهم أسرارهم ويجتمعون معهم على ذكر مساءة النبيّ صلى الله عليه وآله والمؤمنين، وهو قول قتادة وابن زيد. ثمّ قال: ﴿ما هم منكم﴾ أي ليسوا مؤمنين ﴿ولا منهم﴾ أي ولا هم يهود، فيكونوا منهم بل هم قوم منافقون.

ثمّ قال: ﴿ويحلفون﴾ يعني: هؤلاء المنافقون ﴿على الكذب﴾ يعني: يقولون إنّا معكم ونحن نتوب، وليسوا كذلك ﴿وهم يعلمون﴾ أنّه كذلك.

ثمّ بيّن تعالى ما لهم من العقاب فقال: ﴿أعدّ الله لهم عذاباً شديداً إنّهم ساء

(١) معاني القرآن وإعرابه ٥: ١٣٩ ـ ١٤٠.

ماكانوا يعملون﴾ أي لأنّهم كانوا يعملون المعاصي والقبائح.

قوله تعالى:

ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَـٰنِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَـٰنِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ .

خمس آيات عراقي وشامي، والمدني الأوّل، وأربع آيات وبعض آية مكّي والمدني الآخر، عدّ العراقي والشامي والمدني الأوّل ﴿في الأذلّين﴾ ولم يعدّه الباقون.

[أقول:](١) لمّا ذكر الله تعالى المنافقين بأنّهم تولّوا قوماً من اليهود الّذين غضب الله عليهم، وذكر ما أعدّه لهم من العقاب، وذكر أنّهم يحلفون على الكذب مع علمهم بأنّهم كاذبون قال: إنّهم ﴿اتّخذوا أيمانهم﴾ الّتي يحلفون بها ﴿جُنّة﴾ أي سترة وترساً يدفعون بها عن نفوسهم التهمة والظنّة إذا ظهرت منهم الريبة. و«الاتّخاذ» جعل الشيء عدّة، كما يقال: اتّخذ سلاحاً واتّخذ كراعاً ورجالاً واتّخذ داراً لنفسه إذا أعدّهما(٢) لنفسه. فهؤلاء جعلوا الأيمان عدّة ليدفعوا بها عن نفوسهم الظنّة. و«الجنّة» السترة وأصله التستّر، ومنه الجِنّة لاستتارهم عن العيون، والجَنّة لاستتارها بالشجر. و«المِجَنّ» الترس لستره صاحبه عن أن يناله السلاح.

(١) من الحجريّة.
(٢) كذا، والظاهر: أعدّها.

وقوله: ﴿فصدّوا عن سبيل الله﴾ أي صدّوا نفوسهم وغيرهم عن سبيل الله الّتي هي الحقّ والهدى. وقيل: فصدّوا عن سبيل الله من قتلهم بكفرهم[1]. ثمّ بيّن تعالى مالهم على ذلك فقال: ﴿فلهم عذاب مهين﴾ يهينهم ويذلّهم. و«الإهانة» الاحتقار يقال: أهانه يهينه إهانة، ومثله أذلّه يذلّه إذلالاً وأخزاه يخزيه إخزاءً، ونقيضه الإكرام.

ثمّ قال: ﴿لن تغني عنهم أموالهم﴾ الّتي جمعوها ﴿ولا أولادهم﴾ الّذين خلّفوهم ﴿من الله شيئاً﴾ يدفع عقابه عنهم، يقال: أغنى يغني غِنى إذا دفع عنه دفعاً يستغنى عنه. ثمّ قال: ﴿أُولئك﴾ مع هذا كلّه ﴿أصحاب النار﴾ أي الملازمون لها و﴿هم فيها خالدون﴾ مؤبّدون لا يخرجون عنها.

﴿يوم يبعثهم الله جميعاً﴾ و ﴿يوم﴾ يتعلّق بـ﴿لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً... يوم يبعثهم الله جميعاً﴾ يعني: يوم القيامة ﴿فيحلفون له﴾ أي يقسمون لله ﴿كما يحلفون لكم﴾ في الدنيا بأنّهم كانوا مؤمنين في الدنيا في اعتقادهم وظنّهم، لأنّهم كانوا يعتقدون أنّ ما هم عليه هو الحقّ ﴿ويحسبون أنّهم على شيء﴾ معناه: يظنّون أنّهم على شيء في هذه الأيمان. فقال الله تعالى: ﴿ألا إنّهم هم الكاذبون﴾ فيما يذكرونه من الأيمان، والمعنى: أنّهم لم يكونوا مؤمنين على الحقيقة، وإنّما كان اعتقادهم اعتقاد جهل. وقيل: معناه: أنّهم ﴿هم الكاذبون﴾ في الدنيا. وقيل: معناه ألا إنّهم هم الخائبون، يقال: كذب ظنّه إذا خاب أمله. وقال قوم: ﴿ويحسبون أنّهم على شيء﴾ يعنى في دار الدنيا، ولا يحسبون ذلك في الآخرة لأنّهم يعلمون الحقّ اضطراراً، وهم ملجئون إلى الأفعال الحسنة وترك القبيح.

(١) راجع تفسير الطبري ١٢: ٢٤، النكت والعيون ٥: ٤٩٤.

قال الرمّاني: وهذا غلط، لأنّه مخالف لظاهر القرآن بغير دليل، قال: والصواب ما قال الحسن في أنّ الآخرة مواطن يمكّنون في بعضها من فعل القبيح، ولا يمكّنون في بعض، ويكون كذبهم ككذب الصبيّ للدهش الّذي يلحقهم.

وقال قوم: إنّ قوله ﴿ألا إنّهم هم الكاذبون﴾ إخبار عن حالهم في الدنيا بأنّهم كاذبون في الدنيا في قولهم: إنّا مؤمنون، وهم منافقون، لأنّ الكذب لا يجوز أن يقع منهم في الآخرة على وجه(١).

ثمّ قال تعالى: ﴿إنّ الّذين يحادّون الله ورسوله﴾ أي يخالفونه في حدوده. وقال مجاهد: معناه: يشاقّون الله ورسوله بأن يحصلوا في حدّ آخر عادلين عن حدود الله.

وقوله: ﴿أُولئك في الأذلّين﴾ إخبار منه تعالى إنّ الّذين يحادّونه ويحادّون رسوله أُولئك في الأحقرين المهانين عند الله. وقال الزجّاج: معناه: في المغلوبين(٢).

وقوله: ﴿استحوذ عليهم الشيطان﴾ معناه: استولى عليهم، فالاستحواذ: الاستيلاء على الشيء بالاقتطاع. وأصله من حاذه يحوذه حوذاً مثل جازه يجوزه جوزاً ﴿فأنساهم ذكر الله﴾ حتّى لا يذكرون الله، ولا يخافونه. ثمّ قال: ﴿أُولئك﴾ يعني: الّذين ﴿استحوذ عليهم الشيطان﴾ جنود الشيطان وحزبه. ثمّ قال: ﴿ألا إنّ حزب الشيطان هم الخاسرون﴾ لأنّهم يخسرون الجنّة ويحصل لهم بدلها النار، وذلك هو الخسران المبين.

---

(١) راجع تفسير السمرقندي ٣: ٤١٩.
(٢) معاني القرآن وإعرابه ٥: ١٤١.

قوله تعالى:

كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾.

آيتان وبعض آية في المكّي والمدني الأخير، وآيتان فيما عداه، عدّ المكّي والمدني الأخير إلى ﴿قويّ عزيز﴾ تمام الّتي قبلها.

[أقول:][1] قرأ الأعشى ﴿عشيراتهم﴾ على الجمع، الباقون ﴿عشيرتهم﴾ على الإفراد.

قوله: ﴿كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلي﴾ معناه: أنّه كتب في اللوح المحفوظ وما كتبه فلابدّ من أن يكون. وقال الحسن: ما أمر الله نبيّاً قطّ بحرب إلّا غلب إمّا في الحال أو فيما بعد. ويحتمل أن يكون المراد ﴿كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلي﴾ بالحجج والبراهين، وإن جاز أن يغلب في الحرب في بعض الأوقات. و«الغلبة» قهر المنازع حتّى يصير في حكم الذليل للقاهر، وقد يقهر ما ليس بمنازع، كقولهم قهر العمل حتّى فرغ منه. والله تعالى غالب بمعنى: أنّه قاهر لمن نازع أولياءه. وقوله: ﴿إنّ الله قويّ عزيز﴾ إخبار منه تعالى أنّه قادر لا يمكن أحداً قهره ولا غلبته لأنّ مقدوراته لا نهاية لها ومن كان كذلك لا يمكن قهره. و«العزيز» المنيع بكثرة مقدوراته.

وقوله: ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله﴾

---

(١) من الحجريّة.

معناه: أنّ المؤمن لا يكون مؤمناً كامل الإيمان والثواب يوادّ من خالف حدود الله ويشاقّه ويشاقّ رسوله. ومعنى «يوادّه» يواليه، وإن كان ذلك الّذي يوادّه أباه أو ابنه أو أخاه أو عشيرته، فمن خالف ذلك ووالى من ذكرناه كان فاسقاً، لا يكون كافراً، وكلّ كافر فهو محادّ لله ولرسوله. و«الموادّة» الموالاة بالنصرة والمحبّة، فهذا لا يجوز إلّا للمؤمن بالله دون الكافر والفاسق المرتكب للكبائر، لأنّه يجب البراءة منهما، وهي منافية للموالاة. والآية نزلت في حاطب بن أبي بلتعة حين كتب إلى أهل مكّة يشعرهم بأنّ النبيّ ﷺ عزم على أن يأتي مكّة بغتة يفتحها، وكان النبيّ ﷺ أخفى ذلك. فلمّا عوتب على ذلك، قال: أهلي بمكّة أحببت أن يحوطوهم بيد تكون لي عندهم، فأنزل الله تعالى فيه الآية.

ثمّ قال تعالى: ﴿أُولئك﴾ يعني الّذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ﴿كتب في قلوبهم الإيمان﴾ ومعناه: أنّه جعله بحكمه، فكأنّه مكتوب فيه. وقيل: معناه: أنّه جعل في قلوبهم سمة تدلّ من عليها أنّهم من أهل الإيمان[1]. وقال الحسن: معناه: أنّه ثبت الإيمان في قلوبهم بما فعل بهم من الألطاف ﴿وأيّدهم بروح منه﴾ أي قوّاهم بنور البرهان والحجج حتّى اهتدوا للحقّ وعملوا به. وقيل: أيّدهم بجبرائيل من أمر الله في كثير من المواطن ينصرهم ويدفع عنهم[2] ﴿ويدخلهم جنّات﴾ أي بساتين ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ أي من تحت أشجارها الأنهار. وقيل: إنّ أنهارها أخاديد في الأرض، فلذلك قال: ﴿من تحتها الأنهار﴾. و«الأنهار» جمع نهر ﴿خالدين فيها﴾ أي مؤبّدين لا يفنون ولا يخرجون منها، وهو نصب على الحال. ﴿رضي الله عنهم﴾ بإخلاص الطاعة منهم ﴿ورضوا عنه﴾ بثواب الجنّة. ثمّ

(١) النكت والعيون ٥: ٤٩٦.
(٢) راجع الكشف والبيان ٩: ٢٦٥.

قال: ﴿أُولئك حزب الله﴾ يعني جنده وأولياءه. ثمّ قال: ﴿ألا﴾ وهي كلمة تنبيه ﴿إنّ حزب الله﴾ يعني: جنوده وأولياءه ﴿هم المفلحون﴾ و«المفلح» هو المنجح بإدراك ما طلب. وقال الزجّاج: حزب الله هم الّذين اصطفاهم الله[1]. وقرأ المفضّل عن عاصم ﴿كتب في قلوبهم الايمان﴾ على ما لم يسمّ فاعله. الباقون بفتح الكاف بمعنى: أنّ الله كتب ذلك عليهم.

(١) معاني القرآن وإعرابه ٥: ١٤٢.

سورة الحشر

مدنيّة بلا خلاف. وهي أربع وعشرون آية بلا خلاف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تبارك وتعالى:

سَبَّحَ لِلَّهِ مَافِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَافِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَاهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٥﴾ خمس آيات.

[أقول:][1] قرأ أبو عمرو وحده ﴿يخرّبون بيوتهم﴾ بالتشديد، قال الفرّاء: وهي قراءة أبي عبد الرحمن السلمي والحسن. الباقون

---

(١) من الحجريّة.

بالتخفيف[١]. قال قوم: معناهما واحد مثل أكرمته وكرّمته. وقال بعضهم: معنى التخفيف أنّهم ينتقلون عنها فيعطّلونها، وبالتشديد يهدّمونها[٢].

قد مضي تفسير ﴿سبّح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم﴾ فلا معنى لإعادته.

وقوله ﴿هو الّذي أخرج الّذين كفروا من ديارهم﴾ معناه: أنّ الله الّذي وصفه بأنّه عزيز حكيم هو الّذي أخرج الكفّار من اليهود من ديارهم ﴿لأوّل الحشر﴾ قال قتادة ومجاهد: هم بنو النضير، لمّا نزل النبيّ صلى الله عليه وآله بالمدينة عاقَده بنو النضير على أن لا يكونوا عليه ولا له. ثمّ نقضوا العهد وأرادوا أن يطرحوا عليه حجراً حين مضى النبيّ صلى الله عليه وآله إليهم يستعين بهم في تحمّل بعض الديتين اللّتين لزمتا صاحب النبيّ صلى الله عليه وآله حين انقلب من بئر معونة فقتل نفسين كان النبيّ صلى الله عليه وآله أجرَهما، ومالوا للمشركين على النبيّ صلى الله عليه وآله فأجلاهم الله عن ديارهم على أنّ لهم الذرّية وما حملت إبلهم والباقي لرسول الله فأجلاهم النبيّ صلى الله عليه وآله على هذا عن ديارهم ومنازلهم، فمنهم من خرج إلى خيبر، ومنهم من خرج إلى الشام.

وقوله تعالى: ﴿لأوّل الحشر﴾ قال قوم: أوّل الحشر هو حشر اليهود من بني النضير إلى أرض الشام، وثاني الحشر حشر الناس يوم القيامة إلى أرض الشام أيضاً[٣]. وقال البلخي: يريد أوّل الجلاء، لأنّ بني النضير أوّل من أُجلي عن أرض العرب. و«الحشر» جمع الناس من كلّ ناحية، ومنه «الحاشر» الّذي يجمع الناس إلى ديوان الخراج، والجمع حشّار ﴿ما ظننتم أن يخرجوا﴾ أي لم تظنّوا خروجهم منها ﴿وظنّوا﴾ هم ﴿أنّهم مانعتهم

---

(١) معاني القرآن ٣: ١٤٣. (٢) تفسير الطبري ١٢: ٣٠. (٣) معاني القرآن وإعرابه ٥: ١٤٤.

حصونهم من الله﴾ أي حسبوا انّ الحصون الّتي هم فيها تمنعهم من عذاب الله وإنزاله بهم على يد نبيّه، فجعل تعالى امتناعهم من رسوله امتناعاً منه.

وقوله تعالى: ﴿فأتَاهم الله من حيث لم يحتسبوا﴾ أي أتاهم أمر الله من حيث لم يحتسبوا مجيئه منه ﴿وقذف﴾ أي ألقى ﴿في قلوبهم الرعب﴾ وهو الخوف ﴿يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين﴾ معناه: أنّهم كانوا يهدّمون بيوتهم بأيديهم من داخل ليهربوا ويخرب المؤمنون من خارج، على ما ذكره الحسن. ثمّ قال تعالى: ﴿فاعتبروا يا أُولي الأبصار﴾ معناه: اتّعظوا وفكّروا فلا تفعلوا كما فعل هؤلاء فيحلّ بكم ما حلّ بهم. و«الحصون» جمع حصن، وهو البناء العالي المنيع، يقال: تحصّن فلان إذا امتنع بدخوله الحصن.

ومن استدلّ بهذه الآية على صحّة القياس في الشريعة فقد أبعد، لأنّ الاعتبار ليس من القياس في شيء، وإنّما معناه الاتّعاظ على ما بيّنّاه، ولا يليق بهذا الموضع قياس في الشرع، لأنّه لو قال بعد قوله: ﴿يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين﴾ فقيسوا الأرز على الحنطة، لَما كان كلاماً صحيحاً ولا يليق بما تقدّم. وإنّما يليق بما تقدّم الاتّعاظ والانزجار عن مثل أفعال القوم من الكفر بالله.

وقوله تعالى: ﴿ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء﴾ معناه: لولا أنّ الله كتب في اللوح المحفوظ بما سبق في علمه أنّهم يجلون عن ديارهم يعني: اليهود ﴿لعذّبهم في الدنيا﴾ بعذاب الاستئصال. و«الجلاء» الانتقال عن الديار والأوطان للبلاء. وقيل: هو الفرار عن الأوطان يقال: جلا القوم عن

منازلهم جلاء، وأجليتهم إجلاء[1]. ثمّ قال: ﴿ولهم في الآخرة﴾ مع الجلاء عن الأوطان في الدنيا ﴿عذاب النار﴾ يعذّبون بها.

ثمّ بيّن لِمَ فعل بهم ذلك فقال: ﴿ذلك﴾ أي فعلنا بهم ذلك ﴿بأنّهم شاقّوا الله ورسوله﴾ وخالفوهما وعصوهما. ثمّ توعّد من يسلك مسلكهم في المشاقّة لله ورسوله، فقال: ﴿ومن يشاقّ الله ورسوله فإنّ الله شديد العقاب﴾ يعاقبهم على مشاقّتهم بأشدّ العقاب.

وقوله: ﴿ما قطعتم من لينة﴾ فاللينة كلّ نخلة لينة سوى العجوة، في قول ابن عبّاس وقتادة، وهي لغة أهل المدينة. وقال بعضهم: إلّا البَرْني والعجوة. قال مجاهد وعمرو بن ميمون وابن زيد: كلّ نخلة لينة ولم يستثنوا. وقال سفيان: «اللينة» كرام النخل. وأصل «اللينة» اللونة فقلبت الواو ياء للكسرة. ويجمع ليانًا، قال ذو الرمة:

طِراق الخوافي واقع فوق لينة ندى ليلة في ريشه يترقرق[2]

فكأنّه قال لون من النخل أي ضرب منه. وقيل: يجوز أن تكون من اللين للين ثمرتها. وقوله: ﴿أو تركتموها قائمة على أُصولها فبإذن الله﴾ أي قطعتموها أو تركتموها بحالها كلّ ذلك سائغ لكم، وهو بعلم الله وإذنه في ذلك وأمره به. وقوله ﴿وليخزي الفاسقين﴾ أي فعل ذلك ليذلّ به الكفّار الفاسقين من اليهود ويهينهم به لا أنّهم يفعلونه على وجه الفساد في الأرض، لأنّ فيما فعلوه إذلال أهل الشرك وعزّ أهل الإسلام.

---

(١) مجاز القرآن ٢: ٢٥٦.

(٢) ديوان ذي الرُّمّة: ١٧٥، تفسير الطبري ٩: ٤٥٩، ١٢: ٣٣، مجاز القرآن ٢: ٢٨٨، الكامل لمبرّد ١: ٢٠٤، الكشف والبيان ٩: ٢٧١، النكت والعيون ٥: ٥٠٢.

قوله تعالى:

وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ خمس آيات.

[أقول:][١] قرأ أبو جعفر ﴿كيلا تكون﴾ بالتاء ﴿دولة﴾ بالرفع أضاف الفعل إلى ﴿دولة﴾[٢]. الباقون بالياء ﴿دولة﴾ نصب أرادوا الفيء والمال.

قوله: ﴿وما أفاء الله على رسوله منهم﴾ يعني: من اليهود الّذين أجلاهم من بني النضير، وإن كان الحكم سارياً في جميع الكفّار إذا كان حكمهم حكمهم. فالفيء: ردّ ما كان للمشركين على المسلمين بتمليك الله إيّاهم ذلك، على ما شرط فيه، يقال: فاء يفيء فيئاً إذا رجع وأفأته عليه إذا رددته عليه. وقال عمر بن الخطّاب ومعمّر: مال الفيء هو مال الجزية والخراج. و«الفيء» كلّ ما رجع من أموال الكافرين إلى المؤمنين، فمنه غنيمة وغير

(١) من الحجريّة.

(٢) في الخطّيّة والحجريّة: الفئة.

غنيمة. فالغنيمة: ما أُخذ بالسيف، فأربعة أخماسه للمقاتلة وخمسه للّذين ذكرهم‌الله في قوله: ﴿واعلموا أنّما غنمتم...﴾ الآية[١].

وقال كثير من العلماء: إنّ الفيء المذكور في هذه الآية هو الغنيمة. وقال قوم: مال الفيء خلاف مال الصدقات، لأنّ مال الفيء أوسع، فإنّه يجوز أن يصرف في مصالح المسلمين، ومال الصدقات إنّما هو في الأصناف الثمانية. وقال قوم: مال الفيء يأخذ منه الفقراء من قرابة رسول‌الله صلى الله عليه وآله بإجماع الصحابة في زمن عمر بن الخطّاب، ولم يخالفه فيه أحد إلّا الشافعي، فإنّه قال: يأخذ منه الفقراء والأغنياء، وإنّما ذكروا في الآية لأنّهم منعوا الصدقة، فبيّن الله أنّ لهم في مال الفيء حقّاً. وقال عمر بن الخطّاب: مال بني النضير كان فيئاً لرسول الله صلى الله عليه وآله خاصّة ﴿ولذي القربى﴾ قرابة رسول الله صلى الله عليه وآله من بني هاشم وبني المطّلب. وقيل: جعل أبو بكر وعمر سهمين : سهم رسوله وسهم قرابته من الأغنياء في سبيل الله، وصدقة عن رسول الله صلى الله عليه وآله ذكره قتادة. والباقي في أهل الحاجة من أطفال المسلمين الّذين لا أباً لهم، وابن السبيل المنقطع به من المسافرين في غير معصية الله. وقال يزيد بن رومان: «الغنيمة» ما أُخذ من دار الحرب بالقتال عنوة. وقيل: كانت الغنائم في صدر الإسلام لهؤلاء الأصناف. ثمّ نسخ بما ذكره في سورة الأنفال بالخمس. والباقي للمحاربين، ذكره قتادة[٢].

والّذي نذهب إليه أن مال الفيء غير مال الغنيمة، فالغنيمة كلّ ما أُخذ من دار الحرب بالسيف عنوة ممّا يمكن نقله إلى دار الإسلام، وما لا يمكن نقله إلى دار الإسلام، فهو لجميع المسلمين ينظر فيه الإمام ويصرف

---

(١) الأنفال: ٤١.

(٢) تفسير الطبري ١٢: ٣٧، الكشف والبيان ٩: ٢٧٤.

انتفاعه إلى بيت المال لمصالح المسلمين. و«الفيء» كلّ ما أُخذ من الكفّار بغير قتال أو انجلاء أهلها وكان ذلك للنبيّ صلى الله عليه وآله خاصّة يضعه في المذكورين في هذه الآية، وهو لمن قام مقامه من الأئمّة الراشدين. وقد بيّن الله تعالى ذلك. ومال بني النضير كان للنبيّ خاصّة، وقد بيّنه الله: ﴿وما أفاء الله﴾ يعني ما رجعه الله وردّه ﴿على رسوله منهم﴾ يعني: من بني النضير. ثمّ بيّن فقال: ﴿فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب﴾ أي لم توجفوا على ذلك بخيل ولا ركاب. و«الإيجاف» الإيضاع، وهو تسيير الخيل والركاب وهو من وجف يجف وجيفاً، وهو تحرّك باضطراب، فالإيجاف: الإزعاج للسير. و«الركاب» الإبل ﴿ولكنّ الله يسلّط رسله على من يشاء﴾ من عباده حتّى يقهروهم ويأخذوا ما لهم: ﴿والله على كلّ شيء [قدير]﴾ يصحّ كونه مقدوراً له قادر.

ثمّ قال مبيّناً من استحقّ ذلك، فقال: ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى﴾ يعني: بني النضير ﴿فلّله وللرسول ولذي القربى﴾ يعني أهل بيت رسول الله ﴿واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾ من أهل بيت رسول الله لأنّ تقديره: ولذي قرباه ويتامى أهل بيته، وابن سبيلهم، لأنّ الألف واللام تعاقب الضمير، وظاهره يقتضي أنّه لهؤلاء سواء كانوا أغنياء أو فقراء. ثمّ بيّن لِمَ فعل ذلك فقال: ﴿كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم﴾ فالدولة بضمّ الدال نقلة النعمة من قوم إلى قوم، وبفتح الدال المرّة من الاستيلاء والغلبة. ثمّ قال: ﴿وما أتاكم الرسول فخذوه﴾ أي ما أعطاكم رسوله من الفيء فخذوه وارضوا به. وما أمركم به فافعلوه ﴿وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ عنه فإنّه لا يأمر ولا ينهى إلّا عن أمر الله.

ثمّ قال: ﴿واتّقوا الله﴾ في ترك معاصيه وفعل طاعاته ﴿إنّ الله شديد العقاب﴾ لمن عصاه وترك أوامره.

ثمّ قال: ﴿للفقراء﴾ يعني: الّذين لا مال لهم ﴿المهاجرين﴾ الّذين هاجروا من مكّة إلى المدينة أو هاجروا من دار الحرب إلى دار الإسلام ﴿الّذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم﴾ الّذي كان لهم بمكّة فأُخرجوا منها ﴿يبتغون فضلاً﴾ أي طالبين بذلك فضلاً ﴿من الله ورضواناً﴾ فالجملة في موضع الحال ﴿وينصرون الله ورسوله﴾ يعني ناصرين لدين الله ورسوله ﴿أُولئك هم الصادقون﴾ عند الله في الحقيقة العظيموا المنزلة لديه. وقيل: تقدير الآية ﴿كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم﴾ بل للفقراء المهاجرين.

ثمّ وصف الأنصار فقال: ﴿والّذين تبوّؤا الدار والإيمان من قبلهم﴾ أي جعلوا ديارهم موضع مقامهم وآمنوا بالله من قبلهم نزلت في الأنصار، فإنّهم نزلوا المدينة قبل نزول المهاجرين. وقيل: إنّ كلّ من نزل بالمدينة قبل هجرة النبيّ صلى الله عليه وآله فهو من الأنصار[١].

وقوله: ﴿والإيمان من قبلهم﴾ يعني: أنّ الأنصار آمنوا قبل هجرة المهاجرين وإن كان في المهاجرين من آمن قبل إيمان الأنصار ﴿يحبّون من هاجر إليهم﴾ من أهل مكّة ﴿ولا يجدون في صدورهم حاجة ممّا أُوتوا﴾ قال الحسن يعني: حسداً، قال الزجّاج: معناه: لا تجد الأنصار في نفوسهم حاجة ممّا يعطون المهاجرين[٢]. وقال البلخي: لا يجدون حاجة في نفوسهم ممّا يؤتون المهاجرين من الفضل في الدين. وقال الطبري: معناه: لا يجدون في نفوسهم حاجة فيما أُعطي المهاجرين من مال بني النضير، فإنّ النبيّ

(١) راجع الكشف والبيان ٩: ٢٧٨.

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٥: ١٤٦.

خصّ به المهاجرين إلّا رجلين من الأنصار: أبا دجّانة سماك بن خرشة، وسهل بن حنيف أعطاهما لفقرهما. وإنّما فعل النبيّ ﷺ ذلك لأنّ مال بني النضير كان له خاصّة. والمهاجرين بهم حاجة خصّهم بذلك. والأنصار كانوا في غنى فرضوا بذلك، ومدحهم الله على ذلك، ذكره ابن زيد(١).

وقوله: ﴿ويؤثرون على أنفسهم﴾ أي يختارون على أنفسهم من يولّونه من مالهم من المهاجرين ﴿ولو كان بهم خصاصة﴾ يعني: حاجة. و«الخصاصة» الحاجة الّتي يختلّ بها الحال. و«الخصاص» الفرج الّتي يتخلّلها البصر، والواحد خصاص. قال الراجز:

والناظرات من خصاص لمّحا(٢)

وأصله الاختصاص بالانفراد بالأمر، و«الخصاص» الانفراد عمّا يحتاج إليه، و«الخصوص» الانفراد ببعض ما وضع له الاسم، و«الخصّ» انفراد كلّ قصبة من أختها في الإشراج، و«الخاصّة» انفراد المعنى بما يقوله دون غيره.

وقوله: ﴿ومن يوق شحّ نفسه فأُولئك هم المفلحون﴾ أي من منع شحّ نفسه. والشحّ والبخل واحد. وفى أسماء الدين هو منع الواجب ﴿فأُولئك هم المفلحون﴾ يعني: المنجحين الفائزين بثواب الله ونعيم جنّته.

ثمّ قال: ﴿والّذين جاؤوا من بعدهم﴾ يعني: بعد المهاجرين والأنصار، وهم جميع التابعين لهم إلى يوم القيامة ـ في قول الحسن ـ وهو كلّ من أسلم بعد العصر الأوّل. وقال الأصمّ: يعني من جاءك من المهاجرين أي بعد انقطاع الهجرة وبعد إيمان الأنصار ﴿يقولون ربّنا﴾ الجملة في موضع الحال، وتقديره قائلين: ﴿ربّنا اغفر لنا ولإخواننا الّذين سبقونا بالإيمان

(١) تفسير الطبري ١٢: ٤٠.
(٢) تفسير الطبري ١٢: ٤١.

ولا تجعل في قلوبنا غلاًّ﴾ أي حقداً وغشّاً ﴿للّذين آمنوا﴾ ويقولون: ﴿ربّنا إنّك رؤوف رحيم﴾ أي متعطّف على عبادك منعم عليهم.

وقسمة الغنيمة عندنا للفارس سهمان وللراجل سهم. وقال قوم: للفارس ثلاثة أسهم وللراجل سهم إلّا ما كان من الأرض والأشجار، فإنّه للإمام أن يقسّمها إن شاء، وله أن يجعلها أرض الخراج ويردّها إلى من كانت في أيديهم قبل، على هذا الوصف بحسب ما يرى، كما فعل عمر بأرض السواد. وقيل: إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله فتح مكّة عنوة ولم يقسّم أرضها بين المقاتلة. وقال قوم: فتحها سلماً. وقسّم كثيراً من غنائم حنين في المؤلّفة قلوبهم دون المقاتلة حتّى وقع من نفر من الأنصار في ذلك ما وقع، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: أما ترضون أن يرجع الناس بالشاة والبعير وترجعون برسول الله، فرضوا وسلّموا لله ورسوله في قصّة مشهورة.

قوله تعالى:

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾

خمس آيات.

[أقول:][١] قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿من وراء جدار﴾ على التوحيد.

---

(١) من الحجريّة.

الباقون ﴿جدر﴾ على الجمع.

لمّا وصف الله تعالى المهاجرين الّذين هاجروا من مكّة وما لهم من الفضل، وذكر الأنصار ومالهم من جزيل الثواب، وذكر التابعين بإحسان وما يستحقّونه من النعيم في الجنان، ذكر المنافقين وما يستحقّونه وما هم عليه من الأوصاف. فقال: ﴿ألم تر﴾ يا محمّد ﴿إلى الّذين نافقوا﴾ فأظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر ﴿يقولون لإخوانهم﴾ في الكفر وهم ﴿الّذين كفروا من أهل الكتاب﴾ يعني: يهود بني النضير ﴿لئن أُخرجتم﴾ من بلادكم ﴿لنخرجنّ معكم﴾ مساعدين لكم ﴿ولا نطيع فيكم﴾ يعني: في قتالكم ومخاصمتكم ﴿أحداً أبداً وإن قوتلتم﴾ معاشر بني النضير ﴿لننصرنّكم﴾ ولندفعنّ عنكم. فقال الله تعالى: ﴿والله يشهد إنّهم لكاذبون﴾ فيما يقولونه في مساعدتهم والخروج معهم والدفاع عنهم. وظاهره يدلّ على أنّهم لم يخبروا عن ظنّهم، لأنّهم لو أخبروا عن ظنّهم وعن نيّتهم لما كانوا كاذبين. ويحتمل: أن يكونوا كاذبين في العزم أيضاً بأن يقولوا إنّهم عازمون ولا يكونوا كذلك.

ثمّ قال تعالى: ﴿لئن أُخرجوا﴾ يعني: بني النضير ﴿لا يخرجون معهم﴾ يعني: المنافقون الّذين قالوا لهم إنّا نخرج معكم ﴿ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولّنّ الأدبار﴾ أي ينهزمون ويسلّمونهم ﴿ثمّ لا ينصرون﴾ الجميع، وقال الزجّاج: فيه وجهان:

أحدهما: أنّهم لو تعاطوا نصرهم.

الثاني: ولئن نصرهم من بقي منهم لولّوا الأدبار[1] فعلى هذا لا تنافي بين قوله: ﴿لا ينصرونهم﴾ وقوله: ﴿ولئن نصروهم﴾.

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٥: ١٤٧.

ثمّ خاطب المؤمنين، فقال: ﴿لأنتم أشدّ رهبة في صدورهم من الله﴾ أي أنتم أشدّ خوفاً في قلوب هؤلاء المنافقين يخافونكم مالا يخافون الله ﴿ذلك بأنّهم قوم لا يفقهون﴾ أي لأنّهم قوم لا يفقهون الحقّ ولا يعرفونه ولا يعرفون معاني صفات الله. فالفقه: العلم بمفهوم الكلام في ظاهره ومتضمّنه عند إدراكه، ويتفاضل أحوال الناس فيه. وقيل: إنّ المنافقين الّذين نزلت فيهم هذه الآية عبد الله بن أبي سلّول وجماعة معه بعثوا إلى بني النضير بهذه الرسالة، ذكره ابن عبّاس ومجاهد.

ثمّ عاد تعالى إلى ذكر الخبر عن أحوال بني النضير، فقال: ﴿لا يقاتلونكم﴾ معاشر المؤمنين ﴿إلّا في قرى محصّنة﴾ يعني: ممتنعة جعل عليها حصون ﴿أو من وراء جدر﴾ أي من وراء الحيطان، فالجدار: الحائط. فمن قرأ على التوحيد فلأنّه اسم جنس يقع على القليل والكثير، ومن قرأ على الجمع، فلاختلاف الجدران. ثمّ قال: ﴿بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتّى﴾ معناه: عداوة بعض هؤلاء اليهود لبعض شديدة وقلوبهم شتّى بمعاداة بعضهم لبعض، أي ظاهرهم على كلمة واحدة وهم متفرّقون في الباطن ﴿ذلك بأنّهم قوم لا يعقلون﴾ يعنى ما فيه الرشد ممّا فيه الغيّ. وقال مجاهد: ﴿وقلوبهم شتّى﴾ يعني: المنافقين وأهل الكتاب، وإنّما كان قلوب من يعمل بخلاف العقل شتّى لاختلاف دواعيهم وأهوائهم، وداعي الحقّ واحد، وهو العقل الّذي يدعو إلى طاعة الله والإحسان في الفعل.

وقوله: ﴿كمثل الّذين من قبلهم قريباً﴾ معناه: مثل هؤلاء كمثل الّذين من قبلهم يعني بني القينقاع، في قول ابن عبّاس. وقال مجاهد: هم مشركو

قريش ببدر ﴿ذاقوا وبال أمرهم﴾ من الشرك والكفر بالله فإنّ عاقبة أمرهم كان القتل أو الجلاء.

وفي الآية دلالة على النبوّة من جهة علم الغيب الّذي لا يعلمه إلّا الله تعالى.

وقوله: ﴿ولئن نصروهم ليولّنّ الأدبار﴾ جاء على تقدير المستقبل كما يجيء في الماضي بـ«لو» لتبيين خورهم وضعف قلوبهم، واللام في قوله: ﴿لئن اخرجوا﴾ و ﴿لئن قوتلوا﴾ وقوله: ﴿لئن نصروهم﴾ كلّها لام القسم. واللام في قوله: ﴿ليولّنّ الأدبار﴾ جواب القسم.

قوله تعالى:

كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَـٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَـٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَـٰلِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ خمس آيات .

[أقول:][1] معنى قوله: ﴿كمثل الشيطان﴾ أي مَثَل هؤلاء المنافقين فيما قالوا لليهود، مثل قيل الشيطان حين ﴿إذ قال للإنسان اكفر﴾ وأغواه به ودعاه إليه ﴿فلمّا كفر﴾ يعني: الإنسان ﴿قال﴾ الشيطان: ﴿إنّي بريء منك إنّي أخاف الله ربّ العالمين﴾ بمعنى: أخاف عقابه. وإنّما يقول الشيطان للإنسان اكفر بأن يدعوه إليه ويغويه به ويقول له: التوحيد ليس له حقيقة والشرك

---

(١) من الحجريّة.

هو الحقّ، ويأمره بجحد النبوّة، ويقول لا أصل لها. وإنّما هي مخرقة. و«البراءة» قطع العلقة إلى ما تقتضيه العداوة فهذه البراءة من الدين، وقد تكون البراءة قطع العلقة بما يدفع المطالبة كبراءة الدين، وبراءة الطلاق، وبراءة الذمّي إذا أُخذت منه الجزية. والأصل قطع العلقة الّتي يقع بها مطالبة في نقيض الحكمة، فالتقدير في الآية أنّ مثل المنافقين في وعدهم لبني النضير مثل الشيطان في وعده للإنسان بالغرور، فلمّا احتاج إليه الإنسان أسلمه للهلاك. وقيل : إنّ ذلك في إنسان بعينه كان من الرهبان فأغواه الشيطان بأنّه ينجيه من بليّة وقع فيها عند السلطان، فقال له: اسجد لي سجدة واحدة. فلمّا حتاج إليه أسلمه حتّى قتل، روي ذلك عن ابن‌عبّاس وابن مسعود. وقال مجاهد: هو عامّ في جميع الكفّار.

فقال الله تعالى: ﴿فكان عاقبتهما﴾ يعني: عاقبة الفريقين الداعي والمدعوّ من الشيطان ومن أغواه والمنافقين واليهود ﴿أنّهما في النار﴾ معذّبان فيها. و«العاقبة» نهاية العمل في البادية ، فعاقبة الطاعة لله تعالى الجنّة، وعاقبة معصيته النار ﴿خالدين فيها﴾ أي مؤبّدين فيها معذّبين. ثمّ قال: ﴿وذلك جزاء الظالمين﴾ لأنفسهم بارتكاب المعاصي.

ثمّ خاطب المؤمنين فقال: ﴿يا أيّها الذين آمنوا اتّقوا الله﴾ باجتناب معاصيه وفعل‌طاعاته ﴿ولتنظر نفس ما قدّمت لغد﴾ أي تنظر وتفكّر ما الّذي تقدّمه من الأفعال ليوم القيامة من طاعة أو معصية ﴿واتّقوا الله﴾ باجتناب معاصيه وفعل طاعاته ﴿إنّ الله خبير بما تعملون﴾ أي عالم بأعمالكم لايخفى عليه شيء منها فيجازيكم بحسبها على الطاعات بالثواب وعلى المعاصي بالعقاب. وقيل معناه: ﴿يا أيّها الّذين آمنوا اتّقوا الله﴾ فيما تقدّم نفس لغد

﴿واتّقوا الله﴾ فيما يعلمه منكم، وليس ذلك بتكرار[١].

ثمّ قال: ﴿ولا تكونوا كالّذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾ أي كالّذين تركوا أداء حقّ الله فإنّهم نسوه فأنساهم أنفسهم بأن حرّمهم حظوظهم من الخير والثواب، وقال سفيان: نسوا حقّ الله فأنساهم حظّ أنفسهم. وقيل: نسوا الله بترك ذكره والشكر والتعظيم فأنساهم أنفسهم بالعذاب الّذي نسي به بعضهم بعضاً[٢]، كما قال تعالى ﴿فإذا دخلتم بيوتاً فسلّموا على أنفسكم﴾[٣] أي ليسلّم بعضكم على بعض ثمّ أخبر عنهم فقال: ﴿أولئك هم الفاسقون﴾ الّذين خرجوا من طاعته إلى معصيته.

وقوله: ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنّة﴾ أي لا يتساويان، لأنّ هؤلاء مستحقّون للنار وأُولئك مستحقّون لثواب الجنّة. ثمّ قال: ﴿أصحاب الجنّة هم الفائزون﴾ بثواب الله. ولا يدلّ على أنّ من معه إيمان وفسق لا يدخل الجنّة، لأنّه تعالى إنّما قسّم أصحاب الجنّة وأصحاب النار الّذين يستحقّون ثواباً بلا عقاب أو عقاباً بلا ثواب، لأنّهما لا يتقاربان، ولم يذكر من يستحقّ الأمرين. وعندنا أنّ الفاسق المسلم يستحقّ الأمرين فليس هو داخلاً فيه.

قوله تعالى:

لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا

(١ و٢) راجع النكت والعيون ٥: ٥١١. (٣) النور: ٦١.

يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَافِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ أربع آيات.

[أقول:][١] يقول الله تعالى معظّماً لشأن القرآن الّذي أنزله عليه مكبّراً لحاله في جلالة موقعه بأنّه لو أنزل القرآن على جبل لرئي الجبل خاشعاً، والمراد به المثل، وتقديره لو كان الجبل ممّا ينزل عليه القرآن ولو شعر به ـ مع غلظه وجفاء طبعه وكبر جسمه ـ لخشع لمنزله تعظيماً لشأنه ولتصدّع من خشيته، فالإنسان أحقّ بهذا لو عقل للحكم الّتي فيه. و«التصدّع» التفرّق بعد التلاؤم، ومثله التفطّر يقال: صدعه يصدَعه صدعاً فهو صادع وذاك مصدوع ومنه الصداع في الرأس وهو معروف، وتصدّع تصدّعاً وانصدع انصداعاً فبيّن أنّه على وجه المثل بقوله: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس لعلّهم يتفكّرون﴾ ومعناه: ليتفكّروا، لأنّ «لعلّ» بمعنى الشكّ، والشكّ لا يجوز على الله.

وقوله: ﴿هو الله الّذي لا إله إلّا هو﴾ معناه: هو المستحقّ للعبادة الّذي لا تحقّ العبادة إلّا له ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ معناه: عالم بما يشاهده العباد، وعالم بما يغيب عنهم علمه. وقيل: معناه: ﴿عالم الغيب﴾ مالا يقع عليه حسّ من المعدوم أو الموجود الّذي لا يدرك ممّا هو غائب عن الحواسّ كأفعال القلوب وغيرها ﴿والشهادة﴾ أي وعالم بما يصحّ عليه الإدراك بالحواسّ[٢]. وقال الحسن: الغيب ما أخفاه العباد، والشهادة ما أعلنوه، ففي الوصف بها بيّن كونه عالماً بجميع المعلومات، لأنّها لا تعدو هذين القسمين.

---

(١) من الحجريّة.

(٢) راجع الكشف والبيان ٩: ٢٨٦.

وقوله: ﴿هو الرحمن﴾ يعني: المنعم على جميع خلقه ﴿الرحيم﴾ بالمؤمنين، ولا يوصف بالرحمن سوى الله تعالى. وأمّا الرحيم، فإنّه يوصف به غيره تعالى.

ثمّ أعاد قوله: ﴿هو الله الّذي لا إله إلّا هو الملك﴾ يعني: السيّد المالك لجميع الأشياء الّذي له التصرّف فيها على وجه ليس لأحد منعه منه ﴿القدّوس﴾ ومعناه: المطهّر (١) فتطهّر صفاته عن أن يدخل فيها صفة نقص ﴿السلام﴾ وهو الّذي يسلم عباده من ظلمه ﴿المؤمن﴾ الّذي أمن العباد من ظلمه لهم إذ قال: ﴿لا يظلم مثقال ذرّة﴾ (٢) ﴿المهيمن﴾ قال ابن عبّاس معناه: الأمين. وقال قوم: معناه: المؤمن إلّا أنّه أشدّ مبالغة في الصفة، لأنّه جاء على الأصل في المؤمن، فقلبت الهمزة هاء، وفخم اللفظ به لتفخيم المعنى (٣). وقال قتادة: معناه: الشهيد كأنّه شهيد على إيمان من آمن به أو الشهيد على الأمن في شهادته ﴿العزيز﴾ يعنى: القادر الّذي لا يصحّ عليه القهر ﴿الجبّار﴾ العظيم الشأن في الملك والسلطان، ولا يستحقّ أن يوصف به على هذا الإطلاق إلّا الله تعالى، فإن وصف بها العبد، فإنّما هو على وضع لفظة في غير موضعها، فهو ذمّ على هذا المعنى ﴿المتكبّر﴾ يعني: في كلّ شيء. وقيل: معناه: المستحقّ لصفات التعظيم (٤).

وقوله: ﴿سبحان الله عمّا يشركون﴾ تنزيه لله تعالى عن الشرك به كما يشرك به المشركون من الأصنام وغيرها.

---

(١) في الخطّيّة والحجريّة: المعظّم. (٢) النساء: ٤٠.
(٣) راجع معاني القرآن وإعرابه ٥: ١٥٠ ـ ١٥١، الكشف والبيان ٩: ٢٨٧.
(٤) النكت والعيون ٥: ٥١٤.

ثمّ قال: ﴿هو الله الخالق﴾ يعني للأجسام والأعراض المخصوصة ﴿البارئ﴾ المحدث المنشئ لجميع ذلك ﴿المصوّر﴾ الّذي صوّر الأجسام على اختلافها من الحيوان والجماد ﴿له الأسماء الحسنى﴾ نحو الله، الرحمن، الرحيم، القادر، العالم، الحيّ وما أشبه ذلك. ثمّ قال: ﴿يسبّح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾ وقد مضى تفسيره.

سورة الممتحنة

مدنيّة بلا خلاف(١) وهي ثلاث عشرة آية بلا خلاف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى:

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ آية بلا خلاف.

[أقول:](٢) هذه الآية نزلت في حاطب بن أبي بلتعة حين عزم النبيّ صلى الله عليه وآله على أن يدخل مكّة بغتة، فسأل الله أن يعمي أخبارهم على قريش ومنع أحداً أن يخرج من المدينة إلى مكّة فكتب حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكّة يعلمهم بذلك، فأوحى الله تعالى إلى النبيّ صلى الله عليه وآله بذلك، فدعا عليّاً عليه السلام والزبير، وقال لهما: اخرجا حتّى تلحقا جارية سوداء

---

(١) في الخطّيّة زيادة: وسمّيت هذه السورة بالممتحنة باسم المرأة الّتي جاءت تشكو إلى رسول الله صلى الله عليه وآله أمرها.

(٢) من الحجريّة.

متوجّهة إلى مكّة معها كتاب، فخُذٰاه منها، فخرجا حتّى لحقاها فسألاها عن الكتاب، فأنكرت ففتّشاها، فلم يجدا معها شيئاً، فقال الزبير: ارجع بنا فليس معها شيء، فقال عليّ عليه السلام: يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: خذ الكتاب منها، وتقول: ليس معي شيء! ثمّ أقبل عليها، وسلّ سيفه. وقال: والله لئن لم تخرجي الكتاب لأضربنّ عنقك، فقالت له: أعرض بوجهك عنّي، فلمّا أعرض عنها أخرجت الكتاب من بين ضفرتين لها، وسلّمته إليه. فلمّا عادا سلّماه إلى النبيّ فأمر النبيّ صلى الله عليه وآله بأن ينادى بالصلاة جامعة فاجتمع الناس، فصعد النبيّ صلى الله عليه وآله المنبر وخطب. ثمّ قال: «أما إنّي كنت سألت الله أن يعمي أخبارنا عن قريش حتّى ندخل مكّة بغتة، وإنّ رجلاً منكم كتب إليهم ينذرهم خبرنا، وهذا كتابه فليقم صاحبه» فلم يقم أحد فأعاد ثانياً، فلم يقم أحد فأعاد ثلاثاً، ثمّ قال: فليقم وإلّا فضحه الوحي، فقام حاطب، وهو يرعد، وقال: يا رسول الله والله ما نافقت منذ أسلمت، فقال: ما حملك على ذلك فقال: إنّ لي بمكّة أهلاً وليس لي بها عشيرة، فأردت أن أتّخذ بذلك عندهم يداً إن كانت الدائرة لهم، فقام عمر بن الخطّاب وقال: يا رسول الله مُرني بأن أضرب عنقه، فإنّه نافق، فقال رسول الله: إنّه من أهل بدر، ولعلّ الله تعالى أطلع إطلاعة فغفر لهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية يخاطب فيها المؤمنين وينهاهم أن يتّخذوا عدوّ الله من الكفّار وعدوّ المؤمنين أولياء يوالونهم ويلقون إليهم بالمودّة[١]. والباء زائدة وتقديره: ويلقون إليهم المودّة، وهي المحبّة، كما قال الشاعر:

ولما رجت بالشرب هزَّ لها العصا　　شحيح له عند الإزاء نهيم[٢]

---

(١) راجع الكشف والبيان ٩: ٢٩١ ـ ٢٩٢.

(٢) تفسير الطبري ٩: ١٣٠، ١٢: ٥٥.

أي رجت الشرب، ويجوز أن يكون المراد يلقون إليهم ما يريدون بالمودّة ﴿وقد كفروا﴾ يعنى: الكفّار الّذين يلقون إليهم المودّة ﴿بما جاءكم﴾ به النبيّ صلى الله عليه وآله ﴿من الحقّ﴾ يعنى: من التوحيد والإخلاص لله في العبادة والقرآن وشريعة الإسلام ﴿يخرجون الرسول وإيّاكم﴾ يعنى: إخراجهم لهم من مكّة ﴿أن تؤمنوا بالله ربّكم﴾ ومعناه: كراهة أن تؤمنوا بالله وقال قوم: أُخرجوكم لإيمانكم بالله ربّكم الّذي خلقكم[١]. ﴿إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي﴾ أي وطلباً لرضائي فلا تلقوا إليهم بالمودّة إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيل الله وطالبين مرضاته. قال الزجّاج: وهو شرط جوابه متقدّم، وتقديره إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي فلا تتّخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء. و«جهاداً وابتغاء» منصوبان على المفعول له[٢].

وقوله: ﴿تسرّون إليهم بالمودّة﴾ فتكاتبونهم بأخبار النبيّ صلى الله عليه وآله ﴿وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم﴾ أي بسرّكم وعلانيتكم وظاهركم وباطنكم، لا يخفى عليّ من ذلك شيء، فكيف تسرّون بمودتّكم إيّاهم منّي.

وقوله: ﴿ومن يفعله منكم﴾ يعنى من أسرّ إليهم المودّة وألقى إليهم أخبار النبيّ صلى الله عليه وآله منكم جماعة المؤمنين بعد هذا البيان ﴿فقد ضلّ سواء السبيل﴾ أي قد عدل عن الحقّ وجار عن طريق الرشد. وفي الآية دليل على أنّ مرتكب الكبيرة لا يخرج عن الإيمان، لأنّ حاطب بن أبي بلتعة رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله قد فعل ذلك، ولا يقول أحد أنّه أخرجه من الإيمان.

---

(١) تفسير السمرقندي ٣: ٤٣٥.

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٥: ١٥٦.

قوله تعالى:

إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ آيتان بلا خلاف.

[أقول:][1] قرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع ﴿يفصل﴾ بضمّ الياء وفتح الصاد وسكون الفاء خفيفة. وقرأ ابن عامر بضمّ الفاء وفتح الياء وتشديد الصاد وفتحها على ما لم يسمّ فاعله. وقرأ حمزة والكسائي بضمّ الياء وفتح الفاء وكسر الصاد مشدّدة. وقرأ عاصم ويعقوب وسهل بفتح الياء وسكون الفاء وكسر الصاد خفيفة: أربع قراءات، يقال: فصلت بين الشيء أفصله فصلاً إذا ميّزته وفصّلته تفصيلاً، بمعنى واحد. فمن قرأ بفتح الياء أراد انّ الله يفصل بينهم ويميّز بعضهم عن بعض، ومن ضمّ الياء جعله لما لم يسمّ فاعله ومعلوم أنّ الله هو المفصل بينهم.

وقوله: ﴿إن يثقفوكم﴾ معناه: إن يصادفوكم هؤلاء الكفّار الّذين تسرّون إليهم بالمودّة، يقال: ثقفته أثقفه ثقفاً فأنا ثاقف، ومنه سمّي ثقيف، ومنه المثاقفة، وهي طلب مصادفة العزّة في المسابقة، وما يجرى مجراها من المصادفة بالشطب ونحوه ﴿يكونوا لكم أعداء﴾ أي يعادونكم ولا ينفعكم ما تلقون إليهم ﴿ويبسطوا إليكم أيديهم﴾ بما يقدرون عليه من الأذى والقتل ويبسطوا ﴿ألسنتهم﴾ أيضاً ﴿بالسوء﴾ فيذكرونكم بكلّ ما تكرهونه وجميع ما يقدرون عليه من السوء ويحثّون على قتالكم ﴿وودّوا﴾ مع هذا كلّه ﴿لو تكفرون﴾ بالله كما كفروا وتجحدون كما جحدوا.

---

(١) من الحجريّة.

ثمّ قال: ﴿لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم﴾ الّذين جعلتموهم علّة في إلقاء المودّة إليهم والإفشاء إليهم بسرّ النبيّ ﷺ ﴿يوم القيامة﴾ والله ﴿يفصل بينكم﴾ ذلك اليوم ويميّز بعضكم عن بعض إذا كانوا كفّاراً وكنتم مؤمنين ﴿والله بما تعملون بصير﴾ لا يتعذّر عليه تمييز بعضكم عن بعض فيأمر بالمؤمنين إلى الجنّة وبالكفّار إلى النار.

قوله تعالى:

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ آيتان بلا خلاف .

[أقول:][١] قرأ عاصم ﴿أُسوة﴾ بضمّ الهمزة في جميع القرآن. الباقون بكسرها، وهما لغتان.

يقول الله تعالى مخاطباً للمؤمنين وحاثّاً لهم على ترك موالاة الكفّار ومبيّناً لهم أنّ ذلك غير جائز بأن قال: ﴿قد كانت لكم﴾ في ترك موالاة الكفّار وترك الركون إلى جنبتهم ﴿أُسوة حسنة﴾ أي اقتداء حسن ﴿في إبراهيم﴾ خليل الرحمن عليه السلام ﴿والّذين معه﴾ قال ابن زيد: يعني: الأنبياء. وقال غيره: يعني: الّذين آمنوا معه ﴿إذ قالوا﴾ أي حين قالوا ﴿لقومهم﴾ من الكفّار الّذين كانوا يعبدون الأصنام ﴿إنّا برآؤ منكم﴾ على وزن فعلاء، ومثله ظريف وظرفاء وكريم وكرماء وفقير وفقراء الهمزة الأُولى لام الفعل

(١) من الحجريّة.

والثانية المنقلبة من ألف التأنيث والألف الّتي قبله الهمزة زيادة مع علامة التأنيث، وهو جمع بريء وبُرآؤ منكم ﴿وممّا تعبدون من دون الله﴾ أي وبريئون من الأصنام الّتي تعبدونها، ويجوز أن تكون «ما» مصدريّة ويكون المعنى وبريئون من عبادتكم للأصنام ﴿كفرنا بكم﴾ أي يقولون لهم: جحدنا ما تعبدون من دون الله وكفرنا به ﴿وبدأ بيننا﴾ أي ظهر بيننا ﴿وبينكم العداوة والبغضاء أبداً﴾ لا يكون بيننا وبينكم موالاة في الدين ﴿حتّى تؤمنوا بالله وحده﴾ أي حتّى تصدّقوا بوحدانيّته وإخلاص العبادة له.

وقوله: ﴿إلّا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرنّ لك﴾ استثناء لقول إبراهيم لأبيه: لأستغفرنّ أي فلا تقتدوا به فيه. فإنّ إبراهيم عليه السلام إنّما استغفر لأبيه لـ﴿موعدة وعدها إيّاه﴾ لأنّ أباه كان وعده بالإيمان، فوعده إبراهيم بالاستغفار، فلمّا أظهر له الإيمان استغفر له إبراهيم في الظاهر ﴿فلمّا تبيّن له أنّه عدوّ لله﴾ وعرف ذلك من جهته ﴿تبرّأ منه﴾ [1] قال الحسن: إنّما تبيّن ذلك عند موت أبيه، ولو لم يستثن ذلك لظنّ إنّه يجوز الاستغفار [2] للكفّار مطلقاً من غير موعدة بالإيمان منهم. وقيل: إنّ الاستثناء راجع إلى قوله: ﴿وبدأ بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً﴾ لأنّه لمّا كان استغفار إبراهيم لأبيه مخالفاً لما تضمّنته هذه الجملة وجب استثناؤه وإلّا يوهم بظاهر الكلام أنّه عامل أباه من العداوة والبراءة بما عامل به غيره. وقال البلخي: هذا استثناء منقطع. ومعناه: لكن قول إبراهيم لأبيه لأستغفرنّ لك كان لأجل موعدة أبيه بالإيمان. ثمّ قال إبراهيم لأبيه: ﴿وما أملك لك من الله من شيء﴾ إذا أراد عقابك، فلا يمكن دفع ذلك عنك.

---

(١) التوبة: ١١٤.

(٢) في الخطّيّة والحجريّة: الاستثناء.

وقوله: ﴿ربّنا﴾ أي يقولون: ربّنا ﴿عليك توكّلنا﴾ فالتوكّل على الله: تفويض الأمور إليه ثقة بحسن تدبيره في كلّ ما يدبّره به ﴿وإليك أنبنا﴾ أي رجعنا وتبنا إليك أي رجعنا إلى طاعتك ﴿واليك المصير﴾ معناه: وإليك مرجع كلّ شيء يوم القيامة.

وقال أيضاً وكانوا يقولون: ﴿ربّنا لا تجعلنا فتنة للّذين كفروا﴾ ومعناه: لا ترهم فينا ما يشمتون بجهلهم بنا. وقال مجاهد: معناه: لا تعذّبنا بأيديهم ولا ببلاء من عندك، فيقولوا: لو كان هؤلاء على حقّ ما أصابهم هذا ﴿واغفر لنا ذنوبنا إنّك أنت العزيز [الّذي لا يقدر على مغالبتك أحد][1] الحكيم﴾ في جميع أفعالك. وفي ذلك تعليم أنّه ينبغي أن يدعو الإنسان بهذه الدعاء. وقال الحسن: كان استغفار إبراهيم لأبيه صغيرة، وقال عمرو بن عبيد، وأصل دعاء إبراهيم لأبيه بشرط الإيمان بأنّه إن آمن يستغفر له.

قوله تعالى:

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾ * عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ آيتان بلا خلاف. [أقسم الله تعالى بأن قال: ﴿لقد كان لكم﴾ معاشر المؤمنين (فيهم) يعني: في إبراهيم عليه السلام والمؤمنين الّذين معه ﴿أُسوة حسنة لمن كان يرجوا الله﴾ أي يرجوا ثواب الله. وقيل معناه: لمن كان يخاف الله ويخاف يوم حساب الآخرة وما فيه من العقاب ويرجوا ثوابه. ﴿ومن يتولّ﴾ معناه: ومن يعرض عن هذا الاقتداء بالنبيّ والأنبياء عليهم السلام والمؤمنين الّذين معه يخطئ حظّ نفسه ويذهب عمّا

(١) أثبتناه من الخطّيّة ولم يرد في الحجريّة.

عاد إليه نفعه وحذف لدلالة الكلام عـليه. ﴿فإنّ الله هو العزيز الحميد﴾ أي غنيّ عن ذلك محمود في جميع أفعاله.][١]

وإنّما أُعيد ذكر الأُسوة في الآيتين، لأنّ الثاني منعقد بغير ما انعقد به الأوّل فإنّ الثاني فيه بيان أن كان أُسوة في إبراهيم والّذين معه، وهو لرجاء ثواب الله وحسن المنقلب في اليوم الآخر، والأوّل فيه بيان أنّ الأُسوة في المعاداة للكفّار بالله حسنة، وإذا انعقد الثاني بغير ما انعقد به الأوّل صارت الفائدة في الثاني خلاف الفائدة في الأوّل.

ووجه الجواب في قوله: ﴿ومن يتولّ فإنّ الله هو الغنيّ الحميد﴾ أي من يذهب عمّا يحتاج إليه دون الداعي له، لأنّ الداعي له غنيّ حميد، فـجاء على الإيجاز. و«الحميد» هو المستحقّ للحمد على إحسانه، و«المحمود» الّذي قد حمد، فإنّ الله تعالى حميد محمود.

وقوله: ﴿عسى الله أن يجعل بينكم وبين الّذين عاديتم منهم مودّة﴾ بالإسلام، وقال ابن زيد: وكان ذلك حين أسلم كثير منهم. وقيل معنى ﴿عسى الله أن يجعل﴾: ليجعل بينكم مودّة. وقيل معناه: كونوا على رجاء من ذلك وطمع فيه. وهو الوجه، لأنّه الأصل في هذه اللفظة. ثـمّ قـال: ﴿والله قدير﴾ أي قادر على كلّ ما يصحّ أن يكون مقدوراً له ﴿والله غفور﴾ لذنـوب عـباده ساتر لمعاصيهم ﴿رحيم﴾ بهم، أي منعم عليهم.

قوله تعالى:

لَّا يَنْهَاكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَـٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ

---

(١) مابين المعقوفتين في الخطّيّة.

قَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٩﴾ آيتان بلا خلاف.

قال الحسن: إنّ المسلمين استأمروا النبيّ ﷺ في أن يبرّوا قرباهم من المشركين، وكان ذلك قبل أن يؤمروا بقتال جميع المشركين، فنزلت هذه الآيـة. وقـال قـتادة: هـي مـنسوخة بـقوله: ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾[(١)] وبه قال ابن عبّاس: يقول الله تـعالى مـخاطباً لـلمؤمنين: ﴿لا ينهاكم الله عن﴾ مـخالطة ﴿الّذين لم يقاتلوكم في الدين﴾ مـن الكـفّار ﴿ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم﴾ وتـحسنوا إليـهم ﴿وتقسطوا إليهم﴾ معناه: تعدلوا إليهم ﴿إنّ الله يحبّ المقسطين﴾ يـعني: الّـذين يـعدلون فـي الخلق. وقيل معناه: إنّ الله يحبّ الّذين يقسطون قسطاً من أموالهم عـلى وجه البرّ[(٢)].

وقوله: ﴿أن تبرّوهم﴾ في موضع خفض، وتقديره: لا ينهاكم الله عن أن تبرّوهم، وهو بدل من ﴿الّذين﴾ بدل الاشتمال. وقال مجاهد: عنى بالّذين لم يقاتلوكم: من آمن من أهل مكّة ولم يهاجروا، وقال ابـن الزبـير: هـو عامّ[(٣)] في كلّ من كان بهذه الصفة. والّذي عليه الإجماع والمفسّرون بأنّ برّ الرجل من شاء من أهل دار الحرب قرابة كان أو غير قرابة ليس بمحرّم، وإنّما الخلاف في إعطائهم الزكاة والفطرة والكفّارات، فعندنا لا يجوز. وفيه خلاف. وقال الفرّاء: الآية نزلت في جماعة كانوا عـاقدوا النـبيّ ﷺ ألّا يقاتلوه ولا يخرجوه، فأمر رسول الله ﷺ بـبرّهم والوفـاء لهـم إلى مـدّة

---

(١) التوبة: ٦. (٢) راجع النكت والعيون ٥: ٥٢٠، تفسير الطبري ١٢: ٦٢.

(٣) في الخطّيّة: هي عامّة.

أجلهم[١].

ثمّ بيّن تعالى من يتوجّه النهي ببرّه وإحسانه فقال: ﴿إنّما ينهاكم الله عن﴾ مبرّة ﴿الّذين قاتلوكم في الدين﴾ من أهل مكّة وغيرهم ﴿وأخرجوكم من دياركم﴾ يعني: منازلكم وأملاككم ﴿وظاهروا على إخراجكم﴾ أي تعاونوا على ذلك وتعاضدوا، و«المظاهرة» هي المعاونة ليظهر بها على العدوّ بالغلبة. وقوله: ﴿أن تولّوهم﴾ أي ينهاكم عن أن تنصروهم وتوادّوهم وتحبّونهم. ثمّ قال: ﴿ومن يتولّهم﴾ أي ومن ينصرهم ويواليهم ﴿فأُولئك هم الظالمون﴾ لأنفسهم، لأنّهم يستحقّون بذلك العقاب والكون في النار.

قوله تعالى:

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَـٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ آية بلا خلاف.

[أقول:][٢] قرأ أبو عمرو وأهل البصرة ﴿ولا تمسّكوا﴾ بالتشديد. الباقون ﴿تمسكوا﴾ خفيفة، وهما لغتان.

يقولون: أمسكت به وتمسّكت به. قيل: كان سبب نزول هذه الآية أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان صالَح قريشاً يوم الحديبية على أن يردّ عليهم من جاء بغير إذن وليّه، فلمّا هاجر النساء وقيل: هاجرت كلثم بنت أبي معيط فجاء أخواها فسألا رسول الله صلى الله عليه وآله أن يردّها، فنهى الله تعالى أن يرددن إلى

(١) معاني القرآن ٣: ١٥٠.

(٢) من الحجريّة.

المشركين، ونسخ ذلك الحكم، ذكره عروة بن الزبير[١].

فقال تعالى: ﴿يا أيّها الّذين آمنوا﴾ بالله ورسوله ﴿إذا جاءكم المؤمنات﴾ بالله ورسوله ﴿مهاجرات﴾ من دار الحرب إلى دار الإسلام ﴿فامتحنوهنّ﴾ وقيل في كيفية الامتحان أربعة أقوال:

قال ابن عبّاس: كانت محنة رسول الله إيّاهنّ أن يحلفن بالله ما خرجت من بغض زوج وبالله ما خرجت رغبة عن أرض، وبالله ما خرجت التماس دنياً وبالله ما خرجت إلّا حبّاً لله ورسوله. وفي رواية أُخرى عن ابن عبّاس قال: كان امتحانه أن يشهدن أن لا إله إلّا الله، وأنّ محمّداً عبده ورسوله. وروي عن عائشة أنّه كان امتحانهنّ بما في الآية الّتي بعدها ﴿يا أيّها النبيّ إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن...﴾ الآية. وقال ابن عبّاس وقتادة: كان امتحانهنّ ما خرجن إلّا للدين، ورغبة في الإسلام وحبّاً لله ورسوله كقول ابن عبّاس الأوّل[٢].

ثمّ قال: ﴿الله أعلم بإيمانهنّ﴾ لأنّه يعلم باطنهنّ وظاهرهنّ وأنتم لا تعلمون باطنهنّ.

ثمّ قال: ﴿فإن علمتموهنّ مؤمنات﴾ يعني: في الظاهر ﴿فلا ترجعوهنّ إلى الكفّار﴾ أي لا تردّوهنّ إليهم ﴿لا هنّ حلّ لهم ولا هم يحلّون لهنّ﴾ قال ابن زيد: وفرّق بينهما النبيّ صلّى الله عليه وآله وإن لم يطلّق المشرك. وقيل: إنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله كان شرط لهم ردّ الرجال دون النساء، فعلى هذا لا نسخ في الآية. ومن قال كان شَرَط ردّ النساء والرجال قال: نسخ الله حكم ردّ النساء[٣].

وقوله: ﴿وآتوهم ما أنفقوا﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد وقتادة وابن زيد:

(١ و٢) راجع النكت والعيون ٥: ٥٢٠ ـ ٥٢٢.

(٣) راجع النكت والعيون ٥: ٥٢١.

أعطوا رجالهم ما أنفقوا من الصداق. وقال الزهري: لولا الهدنة لم يردّ إلى المشركين صداقاً كما كان يفعل قبل. وقيل: نسخ ردّ المهور على الأزواج من المشركين. ثمّ قال: ﴿ولا جناح عليكم﴾ معاشر المؤمنين ﴿أن تنكحوهنّ﴾ يعني: المهاجرات لأنّهنّ بالإسلام قد بنّ من أزواجهنّ ﴿إذا آتيتموهنّ أجورهنّ﴾ يعني: مهورهنّ الّتي يستحلّ بها فروجهنّ[١].

وقوله: ﴿ولا تمسكوا بعصم الكوافر﴾ فالكوافر: جمع كافرة، والعصمة سبب تمنع به من المكروه وجمعه عِصَم. وفي ذلك دلالة على أنّه لا يجوز العقد على الكافرة سواء كانت ذمّية أو حربيّة أو عابدة وثن، وعلى كلّ حال، لأنّه عامّ في جميع ذلك وليس لأحد أن يخصّ الآية بعابدة الوثن لنزولها بسببهم، لأنّ المعتبر بعموم اللفظ لا بالسبب.

وقوله: ﴿واسألوا ما أنفقتم﴾ يعني: إذا صارت المرأة المسلمة إلى دارالحرب عن دار الإسلام فاسألوهم عن أن يردّوا عليكم مهرهنّ، كما يسألونكم مهر نسائهم إذا هاجرن إليكم، وهو قوله: ﴿وليسألوا ما أنفقوا﴾ ثمّ قال: ﴿ذلكم﴾ يعني: ما تقدّم ذكره وشرحه ﴿حكم الله يحكم بينكم والله عليم﴾ بجميع الأشياء ﴿حكيم﴾ فيما يفعله ويأمركم به.

وقال الحسن: كان في صدر الإسلام تكون المسلمة تحت الكافر والكافرة تحت المسلم فنسخت هذه الآية ذلك. والمفسّرون على أنّ حكم هذه الآية منسوخ، وعندنا أنّ الآية غير منسوخة، وفيها دلالة على المنع من تزوّج المسلم اليهوديّة والنصرانيّة، لأنّهما كافرتان والآية على عمومها في المنع من التمسّك بعصم الكوافر، ولا يخصّها إلّا بدليل.

---

(١) تفسير السمرقندي ٣: ٤٣٩.

قوله تعالى:

وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْأَخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾ ثلاث آيات.

[أقول:][(١)] معنى قوله: ﴿وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفّار﴾ أي إن أعجزكم ومضى شيء من أزواجكم إلى كفّار أهل مكّة. ومعنى شيء: أحد، فكأنّه قال وإن فاتكم أحد منكم «فعاقبتم» بمصير أزواج الكفّار إليكم إمّا من جهة سبي أو مجيئهنّ مؤمنات ﴿فآتوا الّذين ذهبت أزواجهم﴾ إلى الكفّار ﴿مثل ما أنفقوا﴾ من المهور كما عليهم أن يردّوا عليكم مثل ما أنفقتم لمن ذهب من أزواجكم. قال الزجّاج: وقد قرئ ﴿فعقبتم﴾ بلا ألف مشدّداً ومخفّفاً، وجاء في التفسير فغنمتم، ومعناه في اللغة: فكانت العقبى لكم أن كانت لكم الغلبة حتّى غنمتم، قال: «وعقبتم» مشدّدة أجودها في اللغة، ومخفّفة جيّدة أيضاً أي صارت لكم عقبى، والتشديد أبلغ. ومعنى ﴿فعاقبتم﴾ أصبتموهم في القتال بعقوبة حتّى غنمتم أي إن مضت امرأة منكم إلى من لا عهد بينكم وبينه ﴿فآتوا الّذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا﴾ يعني: في مهورهنّ، وكذلك إن مضت إلى من بينكم وبينه

(١) من الحجريّة.

عهد فنكث في إعطاء المهر، فالّذي ذهبت زوجته يعطى المهر من الغنيمة ولا ينقص شيئاً من حقّه بل يعطى حقّه كملاً بعد إخراج مهور النساء[١]. وقال الزهري: فآتوا الّذين ذهبت أزواجهم من المؤمنين مثل ما أنفقوا من مال الفيء. وقال ابن عبّاس من مال الغنيمة. وفي رواية عن الزهري عليهم أن يعطوهم من صداق من لحق بهم[٢]. وقال قوم: يعطونهم من جميع هذه الأموال[٣]. وقال قتادة: معنى الآية ﴿وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفّار﴾ الّذين ليس بينهم وبين أصحاب رسول اللهصَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عهد ﴿فعاقبتم﴾ يعني: الغنيمة. يقول: فإذا غنمتم فأعطوا زوجها صداقها الّذي كان ساق إليها من الغنيمة ثمّ نسخ هذا الحكم في براءة، فنبذ إلى كلّ ذي عهد عهده. ثمّ قال: ﴿واتّقوا الله الّذي أنتم به مؤمنون﴾ أي اجتنبوا معاصي الله الّذي أنتم مصدّقون بثوابه وعقابه ومعترفون بنبوّة نبيّه.

وقوله: ﴿يا أيّها النبيّ﴾ خطاب للنبيصَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يقول الله له: ﴿إذا جاءك المؤمنات يبايعنك﴾ ووجه بيعة النساء مع أنّهنّ لسن من أهل النصرة في المحاربة هو أخذ العهد عليهنّ بما يصلح شأنهنّ في الدين للأنفس والأزواج، فكان ذلك في صدر الإسلام لئلّا ينفتق بهنّ فتق لما صبغ من الأحكام، فبايعهنّ النبيّصَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ حسماً لذلك. وقيل: إنّه كان يبايعهنّ من وراء الثوب. وروي أنّه استدعى ماء فوضع يده فيه ثمّ أمر النساء أن يضعن أيديهنّ فيه، فكان ذلك جارياً مجرى المصافحة بأخذ العهد[٤] ﴿على أن لا يشركن بالله شيئاً﴾ من الأصنام والأوثان ﴿ولا يسرقن﴾ لا من

(١) معاني القرآن وإعرابه ٥: ١٦٠ ـ ١٦١.
(٢) راجع النكت والعيون ٥: ٥٢٣.
(٣) تفسير الطبري ١٢: ٧١.
(٤) الكشف والبيان ٩: ٢٩٨، النكت والعيون ٥: ٥٢٤، الكافي ٥: ٥٢٧ / ٥.

أزواجهنّ ولا من غيرهم ﴿ولا يزنين ولا يقتلن أولادهنّ﴾ على وجه من الوجوه لا بالوأد ولا بالإسقاط ﴿ولا يأتين ببهتان﴾ يعني: بكذب ﴿يفترينه بين أيديهنّ وأرجلهنّ﴾ أي لا يأتين بكذب يكذبنه في مولود يوجد بين أيديهنّ وأرجلهنّ. وقال ابن عبّاس: لا يلحقن بأزواجهنّ غير أولادهم. وقال الفرّاء: كانت المرأة تلتقط فتقول لزوجها: هذا ولدي منك، فذلك البهتان المفترى[١]. وقال قوم: البهتان الّذي نهوا عنه في الآية قذف المحصنات والكذب على الناس وإضافة الأولاد إلى الأزواج على البطلان في الحاضر والمستقبل من الزمان[٢] ﴿ولا يعصينك في معروف﴾ فالمعروف نقيض المنكر، وهو ما دلّ العقل والسمع على وجوبه أو ندبه، وسمّي معروفاً لأنّ العقل يعترف به من جهة عظم حسنه ووجوبه. وقال زيد بن أسلم: فيما شرط ألّا يعصينه فيه أن لا يلطمن ولا يشققن جيباً ولا يدعون بالويل والثبور، كفعل أهل الجاهليّة[٣]. وقال ابن عبّاس: فيما شرط ألّا يعصينه فيه النوح.

وقوله: ﴿فبايعهنّ﴾ والمعنى: إذا شرطت عليهنّ هذا الشروط ودخلن تحتها فبايعهنّ على ذلك ﴿واستغفر لهنّ الله﴾ أي اطلب من الله أن يغفر لهنّ ذنوبهنّ ويستر عليهنّ ﴿إنّ الله غفور رحيم﴾ أي صفوح عنهنّ منعم عليهنّ. وقال الحسن: إذا جاءت المرأة اليوم من غير أهل العهد لم تردّ إلى زوجها، ولم تمتحن، وهذه الآية منسوخة.

ثمّ قال: ﴿يا أيّها الّذين آمنوا﴾ يخاطب المؤمنين بالله ورسوله ﴿لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم﴾ أي لا توالوا اليهود ولا من يجري مجراهم

---

(١) معاني القرآن ٣: ١٥٢. (٢) راجع الكشف والبيان ٩: ٢٩٧. (٣) تفسير الطبري ١٢: ٧٣.

من الكفّار الّذين غضب الله عليهم بأن يريد عقابهم ﴿ولعنهم الله﴾ ثمّ وصف الكفّار، فقال: ﴿قد يئسوا من الآخرة﴾ جملة في موضع الحال بإياسهم من الآخرة، فإنّ اليهود ييأسون من ثواب الجنّة على ما يقوله المسلمون من الأكل والشرب وغير ذلك من أنواع اللذّات كما يئس من لم يؤمن بالبعث والنشور أصلاً ﴿كما يئس الكفّار من أصحاب القبور﴾ قال الحسن: الّذين يئسوا من الآخرة أي اليهود مع الإقامة على ما يغضب الله، كما يئس كفّار العرب أن يحيا أهل القبور أبداً. وقيل: هم أعداء المؤمنين من قريش قد يئسوا من خير الآخرة، كما يئس سائر الكفّار من العرب من النشأة الثانية[١]. وقيل: ﴿كما يئس الكفّار من أصحاب القبور﴾ من حظّ الآخرة[٢]. وقيل: قد يئسوا من ثواب الآخرة كما يئس الكفّار من النشأة الثانية ذكره ابن عبّاس. وقال مجاهد: قد يئسوا من ثواب الآخرة كما يئس منه أصحاب القبور، لأنّهم قد أيقنوا بعذاب الله.

---

(١) راجع تفسير السمرقندي ٣: ٤٤١.

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٥: ١٦١.

سورة الصفّ

مدنيّة بلا خلاف، وهي أربع عشرة آية بلا خلاف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى:

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (١) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ (٤) وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ (٥) خمس آيات.

[أقول:](١) قد مضى تفسير ﴿سبّح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم﴾ في أوّل الحشر، وقد مضى تفسيره في أوّل الحديد، وإنّما أُعيد ـ هاهنا ـ لأنّه استفتاح السورة بتعظيم الله من جهة ما سبّح له بالآية الّتي فيه، كما يستفتح ببسم الله الرحمن الرحيم، وإذا جلّ المعنى في تعظيم الله حسن الاستفتاح به، لأنّ المقصد به حسب دلالته والفائدة في

---

(١) من الحجريّة.

تعظيم ما ينبغي أن يستفتح به على جهة التعظيم لله، والتيمّن بذكره.

وقوله: ﴿يا أيّها الّذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون﴾ قال الحسن: نزلت في المنافقين، يقول الله لهم: ﴿لم تقولون﴾ بألسنتكم مالا تفعلونه، فسمّاهم بالإيمان على الظاهر. وقيل: نزلت في قوم كانوا يقولون: إذا لقينا العدوّ لم نفرّ ولم نرجع عنهم، ثمّ لم يفوا بما قالوا[١] وقال قتادة: نزلت في قوم قالوا: جاهدنا وأبلينا، ولم يفعلوا. وقال ابن عبّاس ومجاهد: نزلت في قوم قالوا: لو علمنا أحبّ الأعمال إلى الله لسارعنا إليها، فلمّا نزل فرض الجهاد تثاقلوا عنه، فبيّن الله ذلك. وقال قوم: هو جار مجرى قوله: ﴿يا أيّها الّذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾[٢] فإنّ القول الّذي يجب الوفاء به هو القول الّذي يعتقد بفعل البرّ على طريق الوعد من غير طلب.

وقوله: ﴿كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون﴾ إنّما أُطلق ذلك مع أنّه ليس كلّ قول يجب الوفاء به. لأنّه معلوم أنّه لا عيب بترك الوفاء فيما ليس بواجب الوفاء به، وإنّ الذمّ إنّما يستحقّ بترك ما هو واجب أو ما أوجبه الإنسان على نفسه بالنذر والعهد. و«المقت» البغض وهو ضدّ الحبّ، وهو على ضربين: أحدهما: يصرف عنه العقل. والآخر: يصرف عنه الطبع إلّا أنّه جرى على صيغة واحدة للبيان أنّ صارف العقل في التأكيد كصارف الطبع، كما أنّه في الحبّ على داعي العقل أو داعي الطبع، وحذف الألف من ﴿لم تقولون﴾ لشدّة الاتّصال، مع ضعف حرف الاعتلال آخر الكلام، لأنّه حرف تغيير في موضع تغيير.

وقوله: ﴿مقتاً﴾ نصب على التمييز، وتقديره: كبر هذا القول أي عظم

---

(١) الكشف والبيان ٥: ٣٠٢.

(٢) المائدة: ١.

مقتاً عند الله، وهو ﴿أن تقولوا مالا تفعلون﴾. ويحتمل أن يكون تقديره كبر أن تقولوا ما لا تفعلون مقتاً عند الله.

قوله: ﴿إنّ الله يحبّ الّذين يقاتلون في سبيله صفّاً﴾ معناه: أنّه تعالى يحبّ من يقاتل في سبيله ويجاهد أعداء دينه ويزيد ثوابهم ومنافعهم. وقوله: ﴿صفاً﴾ أي يقاتلونهم مصطفين، وهو مصدر في موضع الحال. وقوله: ﴿كأنّهم بنيان مرصوص﴾ قيل في معناه قولان:

أحدهما: كأنّه بني بالرصاص لتلاؤمه وشدّة اتّصاله.

الثاني: كأنّه حائط ممدود على رصّ البناء أي إحكامه واتّصاله واستقامته و«المرصوص» المتلائم الّذي لا خلل فيه مثل مرصوص شديد اللصوق في الاتّصال والثبوت[١].

ثمّ قال للنبيّ ﷺ: واذكر ﴿إذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أنّي رسول الله إليكم﴾ لأنّه مع العلم بنبوّته لا يجوز أذاه، وكانوا يؤذونه، فيقولون: هذا ساحر كذاب، ويرمونه بالبرص وغير ذلك. وقوله: ﴿فلمّا زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ فالزيغ: الذهاب عن الشيء بإسراع فيه والأظهر فيه الذهاب عن الحقّ، والمعنى أنّهم لمّا ذهبوا عن طريق الحقّ ومالوا إلى طريق الباطل ﴿أزاغ الله قلوبهم﴾ بمعنى: أنّه حكم عليها بالزيغ والميل عن الحقّ، ولذلك قال: ﴿والله لا يهدى القوم الفاسقين﴾ ومعناه: لا يحكم لهم بالهداية. وقيل: معناه فلمّا زاغوا عن الإيمان أزاغ الله قلوبهم عن الثواب[٢] ولا يجوز أن يكون المراد أزاغ الله قلوبهم عن الإيمان لأنّ الله لا يزيغ أحداً ولا يضلّه عن الإيمان، وأيضاً فإنّه لا فائدة في الكلام

(١ و ٢) راجع النكت والعيون ٥: ٥٢٨.

على ما قالوه، لأنّهم إذا زاغوا عن الإيمان فقد حصلوا كفّاراً. فلا معنى لقوله: أزاغ الله.

قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٦ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَـٰمِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٧ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٩﴾ أربع آيات.

[أقول:][1] قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف ﴿متمّ نوره﴾ مضافاً. وقرأ الباقون ﴿متمٌّ نورَه﴾ منصوباً. والقراءتان متقاربتان إلّا أنّ اسم الفاعل إذا كان لما مضى لا يعمل، ولا يجوز إلّا الاضافة. وإذا كان للحال والاستقبال جاز فيه التنوين والإضافة.

يقول الله تعالى لنبيّه صلى الله عليه وآله: اذكر يا محمّد ﴿إذ قال عيسى بن مريم﴾ لقومه الّذين بعث إليهم ﴿يا بني إسرائيل إنّي رسول الله إليكم مصدّقاً﴾ نصب على الحال ﴿لما بين يديّ من التوراة﴾ إنّما سمّاه لما بين يديه وهو قد تقدّمه وهو عن خلفه بمضيّها لأنّها مقدّمة. وهو متوجّه إليها بالأخذ بها، فلها جهتان: جهة المضيّ وجهة التقدّم ﴿ومبشّراً برسول﴾ عطف على قوله: ﴿مصدّقاً﴾ وهو أيضاً نصب على الحال ﴿يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ يعني: نبيّنا محمّداً صلى الله عليه وآله.

---

(١) من الحجريّة.

وقوله: ﴿اسمه أحمد﴾ فأحمد عبارة عن الشخص. والاسم قول، والقول لا يكون الشخص. وخبر المبتدأ ينبغي أن يكون هو المبتدأ إذا كان مفرداً. والوجه فيه أن يقدر فيه «قوله» فكأنّه قال: اسمه قول أحمد، كما تقول: الليلة الهلال، وأنت تريد الليلة طلوع الهلال فتحذف المضاف وتقيم المضاف إليه مقامه(١).

وقوله ﴿فلمّا جاءهم بالبيّنات قالوا هذا سحر مبين﴾ قيل فيه قولان: أحدهما: أنّ محمّداً لمّا جاء كفّار قومه بالبيّنات ـ أي المعجزات ـ قالوا: هذا سحر واضح بيّن(٢).

وقال قوم: معناه: فلمّا جاء عيسى قومه بالبيّنات والمعجزات قالوا له هذا القول(٣). ومن نسب الحقّ إلى السحر وجرى في ذلك مجرى الجحد لنعم الله في العظم كَفَر، فإن كان دون ذلك كان جاهلاً وفسق ولم يكفر. والسحر حيلة توهم أمراً ليس له حقيقة كإيهام انقلاب الحبل حيّة.

وقوله: ﴿ومن أظلم ممّن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام﴾ في صورة الاستفهام والمراد به التبكيت. ومعناه لا أحد أظلم لنفسه ممّن افترى على الله الكذب وخرّص(٤) عليه، وهو يدعى إلى الإسلام يعني: الاستسلام لأمره والانقياد لطاعته، وهو متوجّه إلى كفّار قريش وسائر في جميع الكفّار.

ثمّ قال: ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ ومعناه: لا يحكم بهداية القوم الظالمين الّذين هم الكفّار. وقيل: معناه: لا يهدي الكفّار إلى الثواب، لأنّهم

(١) الحجّة للقرّاء السبعة ٤: ٤٠.
(٢) تفسير الطبري ١٢: ٨٢.
(٣) تفسير السمرقندي ٣: ٤٤٣.
(٤) في الخطّية: عرض.

كفّار ظالمون لأنفسهم بفعل الكفر والمعاصي الّتي يستحقّ بها العقاب، وكلّ كافر ظالم لأنّه أضرّ بنفسه بفعل معصية استحقّ بها العقاب من الله تعالى، فكفره ضرر قبيح.

ثمّ وصف الكافرين الّذين عناهم بالآية فقال: ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم﴾ ومعناه: أنّهم يريدون إذهاب نور الإسلام والإيمان بفاسد الكلام الّذي يجري مجرى تراكم الظلام. وقيل: معناه هم كمن أراد إطفاء نور الشمس بفيه[1].

وقوله: ﴿والله متمّ نوره ولو كره الكافرون﴾ معناه: أنّ الله يتمّ نور الإسلام ويبلغ غايته وإن كره ذلك الكفّار الجاحدون لنعم الله.

ثمّ قال: ﴿هو الّذي﴾ يعني: الله الّذي أخبر عنه بأنّه يتمّ نوره ﴿أرسل رسوله﴾ يعني: محمّداً ﷺ ﴿بالهدى ودين الحقّ﴾ من التوحيد وإخلاص العبادة لله ودين الإسلام وما يعبد فيه الخلق ﴿ليظهره على الدين كلّه﴾ بالحجج القاهرة والدلائل الباهرة ﴿ولو كره المشركون﴾ ذلك. وفي الآية دلالة على صحّة النبوّة، لأنّه تعالى قد أظهر دينه على الأديان كلّها بالاستعلاء والقهر، كما وعد في حال القلّة والضعف.

قوله تعالى:

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ

(١) النكت والعيون ٥: ٥٣٠.

ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّن بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَـٰهِرِينَ ﴿١٤﴾ خمس آيات.

[أقول:](١) قرأ ابن عامر ﴿تنجيكم من عذاب أليم﴾ مشدّدة الجيم. الباقون بالتخفيف. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وأبو جعفر ﴿أنصاراً لله﴾ منوّناً. الباقون بالإضافة لقولهم في الجواب ﴿نحن أنصار الله﴾ وقرأ نافع وحده ﴿أنصاري إلى الله﴾ بفتح الياء. الباقون بإسكانها، وهما جميعاً جيّدان.

يقول الله تعالى مخاطباً للمؤمنين: ﴿يا أيّها الّذين آمنوا﴾ بالله واعترفوا بتوحيده وإخلاص عبادته وصدّقوا رسوله ﴿هل أدلّكم على تجارة﴾ صورته صورة العرض والمراد بهالأمر. والتجارة طلبالربح في شراء المتاع. وقيل لطلب الثواب بعمل الطاعة تجارة تشبيهاً بذلك، لما بينهما من المقاربة(٢) ﴿تنجيكم﴾ أي تخلصكم ﴿من عذاب أليم﴾ أي مؤلم، وهو عذاب النار.

ثمّ فسّر تلك التجارة فقال: ﴿تؤمنون بالله ورسوله﴾ أي تعترفون بتوحيد الله وتخلصون العبادة له وتصدّقون رسوله فيما يؤدّيه إليكم عن الله. وإنّما قال: ﴿تؤمنون﴾ مع أنّه قال: ﴿يا أيّها الّذين آمنوا﴾ لأنّ ذلك جار مجرى قوله: ﴿يا أيّها الّذين آمنَوا آمِنوا﴾(٣) وقد بيّنّاه فيما مضى(٤) ﴿وتجاهدون في سبيل الله﴾ يعني: قتال أعدائه الكفّار ﴿بأموالكم﴾ فتنفقونها في ذلك ﴿وأنفسكم﴾ فتحاربون بنفوسكم. ثمّ قال: ﴿ذلكم خير لكم﴾ أي

---

(١) من الحجريّة.
(٢) راجع النكت والعيون ٥: ٥٣١.
(٣) النساء: ١٣٦.
(٤) انظر ٥: ١٢٠.

ما ذكرته لكم ووصفته أنفع لكم وخير عاقبة إن علمتم ذلك واعترفتم بصحّته. وإنّما قال: ﴿ذلكم خير لكم﴾ مع أنّ تركه قبيح ومعصية لله، لأنّ المعنى: ذلكم خير لكم من رفعه عنكم، لأنّ ما أدّى إلى الثواب خير من رفعه إلى نعيم ليس بثواب من الله تعالى. والتكليف خير من رفعه إلى الابتداء بالنعم لكلّ من عمل بموجبه. وقيل: إيمانكم بالله خير لكم من تضييعه بالمشتهى من أفعالكم[1] ﴿إن كنتم تعلمون﴾ مضارّ الأشياء ومنافعها وإنّما جاز ﴿تؤمنون بالله﴾ مع أنّه محمول على التجارة وخبر عنها، ولا يصلح أن يقال التجارة تؤمنون. وإنّما يقال: التجارة أن تؤمنوا بالله، لأنّه على طريق ما يدلّ على خبر التجارة لا على نفس الخبر إذ الفعل يدلّ على مصدره وانعقاده بالتجارة في المعنى لا في اللفظ. وفي ذلك توطئة لما بني على المعنى من الإيجاز. والعرب تقول: هل لك في خير تقدّم إلى فلان، فتعوده وأن تقدّم إليه.

وقوله ﴿يغفر لكم ذنوبكم﴾ أي متى فعلتم ذلك ستر عليكم ذنوبكم، وجزمه لأنّه جواب ﴿تؤمنون﴾ لأنّه في معنى آمنوا يغفر لكم. وقال الفرّاء: هو جواب (هل) وإنّما جاز جزم ﴿يغفر لكم﴾ لأنّه جواب الاستفهام[2]. والمعنى هل أدلّكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم يعلمكم بها، فإنّكم إن عملتم بها يغفر لكم ذنوبكم. وكان أبو عمرو يدغم الراء في اللام في قوله: ﴿يغفر لكم﴾ ولا يجوز ذلك عند الخليل وسيبويه، لأنّ في الراء تكرار، ولذلك غلبت المستعلي في طارد. ﴿ويدخلكم جنّات تجري من تحتها الأنهار﴾ عطف على قوله: ﴿يغفر لكم﴾ فلذلك جزمه ﴿خالدين فيها﴾ أي

(١) راجع تفسير الطبري ١٢: ٨٤.

(٢) معاني القرآن ٣: ١٥٤.

مؤبّدين ﴿ومساكن طيّبة﴾ أي ولهم في الجنّة مساكن طيّبة مستلذّة ﴿في جنّات عدن﴾ أي في بساتين إقامة مؤبّدة. ثمّ قال: ﴿ذلك الفوز العظيم﴾ يعني: الّذي وصفه من النعيم هو الفلاح العظيم الّذي لا يوازيه نعمة. وقيل: «الفوز» النجاة من الهلاك إلى النعيم(١).

وقوله: ﴿وأُخرى تحبّونها﴾ معناه: ولكم خصلة أُخرى مع ثواب الآخرة ﴿نصر من الله﴾ في الدنيا عليهم ﴿وفتح قريب﴾ لبلادهم. ثمّ قال: ﴿وبشّر المؤمنين﴾ بذلك أي بما ذكرته من النعيم والنصر في الدنيا والفتح القريب.

ثمّ خاطب المؤمنين فقال: ﴿يا أيّها الّذين آمنوا كونوا أنصار الله﴾ ومعناه: كونوا أنصار دين الله الّذي هو الإسلام بأن تدفعوا أعداءه عنه وعن دينه الّذي جاء به ﴿كما قال عيسى بن مريم للحواريّين﴾ أي مثلكم مثل قول عيسى للحواريّين، وهم خاصّته. وسمّي خاصّة الأنبياء حواريّين، لأنّهم أخلصوا من كلّ عيب في قول الزجّاج(٢). وقيل: سمّوا حواريّين لبياض ثيابهم(٣). وقال ابن عبّاس: كانوا صيّادين للسمك(٤). وقال الضحّاك: كانوا غسّالين.

وقوله: ﴿من أنصاري إلى الله﴾ يعني: من أنصاري مع الله، و ﴿إلى﴾ تكون بمعنى «مع» ومثله ﴿ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم﴾(٥) يعني مع أموالكم. وقيل: سمّي النصارى نصارى لقولهم: ﴿نحن أنصار الله﴾ وقيل: لأنّهم كانوا من الناصرة، وهي قرية في بلاد الروم(٦) فأجابه الحواريّون بأن قالوا ﴿نحن أنصار الله﴾ وإنّما قيل لهم ﴿كونوا أنصار الله﴾ مع أنّ المراد به

---

(١) راجع تفسير الطبري ١٢: ٨٥.
(٢) معاني القرآن وإعرابه ٥: ١٦٥.
(٣) تفسير السمرقندي ٣: ٤٤٥.
(٤) تفسير الطبري ١٢: ٨٦.
(٥) النساء: ٢.
(٦) تفسير الطبري ١: ٣٥٩.

دين الله، تعظيماً للدين وتشريفاً له. كما يقال الكعبة بيت الله، وحمزة أسدالله، وما أشبه ذلك ﴿فآمنت طائفة من بني إسرائيل﴾ يعني: صدقت بعيسى عليه السلام طائفة من بني إسرائيل ﴿وكفرت﴾ به آخرون ﴿فأيّدنا الّذين آمنوا على عدوّهم﴾ أي قوّينا المؤمنين على عدوّهم ﴿فأصبحوا ظاهرين﴾ أي غالبين لهم. وقال إبراهيم: معناه: أيّد الّذين آمنوا بعيسى بمحمّد، فأصبحوا ظاهرين عليهم. وقال مجاهد: بل أيّدوا في زمانهم على من كفر بعيسى عليه السلام وقال بعضهم: لم يكن من دين المسيح قتال. والتأويل أنّهم أصبحوا ظاهرين على مخالفيهم بالحجّة. وقال قوم: كانت الحرب بعد المسيح لمّا اختلف أصحابه اقتتلوا فظفر أهل الحقّ، وهذا ضعيف، لأنّه لم يكن من دينهم بعده القتال. وقال ابن عبّاس: قاتلوا ليلاً فأصبحوا ظاهرين.

سورة الجمعة

مدنيّة وهي إحدى عشرة آية ليس فيها خلاف، وقال ابن عبّاس والضحّاك: هي مدنيّة[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَافِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَافِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾ خمس آيات بلا خلاف.

[أقول:][2] لا خلاف بين القرّاء في هذه السورة إلّا ما روي عن الأعمش انّه قرأ ﴿الجمعة﴾ بسكون الميم. الباقون بضمّها. وقد بيّنّا معنى

---

(١) أثبتناه من الخطّيّة.

(٢) من الحجريّة.

قوله: ﴿يسبّح لله ما في السماوات وما في الأرض﴾ وبيّـنّا وجه التكرار فيه. وإنّما جاء هاهنا على لفظ المضارعة. وقـوله: ﴿الملك﴾ يـعني: المـالك للأشياء كلّها ليس لأحد منعه منها ﴿القدّوس﴾ المستحقّ للتعظيم بـتطهير صفاته من كلّ صفة نقص ﴿العزيز﴾ معناه: القادر الّذي لا يقهر ولا يغلب ﴿الحكيم﴾ في جميع أفعاله.

وقوله: ﴿هو الّذي بعث﴾ يعني: الله الّذي وصفه بالصفات المذكورة هو الّذي أرسل ﴿في الأُميّين﴾ قال قتادة ومجاهد: الأُميّون: العرب. وقال قوم: هم أهل مكّة، لأنّها تسمّى أُمّ القرى، والأُمّي منسوب إلى أنّه ولد في أُمّه لا يحسنون الكتابة. ووجه النعمة في جعل النبوّة في أُمّي موافقة ما تقدّمت البشارة به في كتب الأنبياء السالفة، ولما فيه مـن أنّـه أبـعد مـن تـوهّم الاستعانة على ما أتى به من الحكمة.

وقوله: ﴿رسولاً﴾ مـفعول [﴿بعث﴾ و][١] ﴿منهم﴾ يـعني: مـن نسب الأُمّيّين ومن جملتهم ﴿يتلو عليهم﴾ أي يقرأ عليهم ﴿آياته﴾ أي حـججه وبيّناته من القرآن وغيرها ﴿ويزكّيهم﴾ أي ويـطهّرهم مـن دنس الشـرك بما يهديهم إلى الإيمان فيجعلهم أزكياء. وإنّما يجعلهم كذلك بأن يدعوهم إلى طاعة الله الّتي يقع فيها الإجابة، لأنّه لو دعاهم ولم يجيبوا لما قيل: إنّه زكّاهم ﴿ويعلّمهم الكتاب والحكمة﴾ قال قـتادة: يـعلّمهم القـرآن والسـنّة، والحكمة تعمّ الكتاب والسنّة وكلّ ما أراده الله، فإنّ الحكمة هي العلم الّذي يعمل عليه فيما يخشى أو يحبّب من أمر الديـن والدنـيا. ﴿وإن كانوا من قبل﴾ يعني من قبل أن يبعث فيهم ويتلو عليهم القرآن ﴿لفي ضلال مبين﴾

---

(١) في الخطّية والحجريّة: أرسل.

أي في عدول عن الحقّ جائرين عن الصراط المستقيم ﴿مبين﴾ أي ظاهر.

وقوله: ﴿وآخرين منهم لمّا يلحقوا بهم﴾ قال ابن زيد ومجاهد: هم كلّ من بعد الصحابة إلى يوم القيامة، فإنّ الله بعث النبيّ منهم وشريعته تلزمهم، وإن لم يلحقوا بزمان الصحابة. ﴿وآخرين﴾ نصب على تقدير ويزكّي آخرين منهم، لمّا يلحقوا بهم. ويجوز أن يكون جرّاً، وتقديره هو الّذي بعث في الأُمّيّين وفي آخرين. ﴿وهو العزيز﴾ الّذي لا يغالب ﴿الحكيم﴾ في جميع أفعاله وما يأمر به.

وقوله: ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء﴾ «ذلك» إشارة إلى بعث الرسول بيّن الله تعالى أنّ إرساله الرسول ﴿فضل﴾ من ﴿الله﴾ ونعمة ﴿يؤتيه﴾ أي يعطيه ﴿من يشاء﴾ بحسب ما يعلمه من صلاحه للبعثة، وتحمّل أعباء الرسالة ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ على عباده بما يفعل بهم من التفضّل والإحسان ساعة بعد ساعة.

وقوله: ﴿مثل الّذين حمّلوا التوراة ثمّ لم يحملوها﴾ معناه ﴿مثل الّذين حمّلوا التوراة﴾ يعني: العمل بها وبما فيها، فحفظوها ودوّنوها في كتبهم ثمّ لم يعملوا بما فيها ﴿كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾ قال ابن عبّاس: الأسفار الكتب واحدها سِفْر، لأنّها تكشف عن المعنى بإظهار حاله[1] يقال: سفر الرجل عن عمامته إذا كشف، وسفرت المرأة عن وجهها، وهي سافرة. وإنّما مثلهم بالحمار لأنّ الحمار الّذي يحمل كتب الحكمة على ظهره لا يدري بما فيها، ولا يحسّ بها كمثل من يحفظ الكتاب ولم يعمل به. وعلى هذا من تلا القرآن ولم يفهم معناه وأعرض عن ذلك إعراض من

(١) في الخطّية: بإظهار له.

لا يحتاج إليه كان هذا المثل لاحقاً به، وإنّ من حفظه وهو طالب لمعناه وقد تقدّم[١] حفظه فليس من أهل هذا المثل.

وقوله: ﴿بئس مثل القوم الّذين كذّبوا بآيات الله﴾ معناه بئس القوم قوم هذا مثلهم، وهم الّذين كذّبوا بحجج الله وبيّناته.

ثمّ قال: ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ يعني: الّذين يظلمون نفوسهم بارتكاب المعاصي لا يحكم بهدايتهم ولا يرشدهم إلى طريق الجنّة.

قوله تعالى:

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝٦ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٧ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٠ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَـآئِمًا قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝١١﴾ ستّ آيات.

[أقول:][٢] هذا أمر من الله تعالى للنبيّ صلى الله عليه وآله أن يخاطب اليهود، فيقول لهم: ﴿إن زعمتم أنّكم أولياءلله﴾ فالزعم: قول عن ظنّ أو علم، ولهذا صارت من أخوات ما في باب الظنّ والعلم وعملت[٣] ذلك العمل من الإعراب

---

(١) في الخطّية: وإن حفظ وهو طالب لمعناه وقد قدّم.

(٢) من الحجريّة.

(٣) في الخطّية: عمل.

قال الشاعر:

فإن تزعميني كنت أجهل فيكم فأني شريت الحلم بعدك بالجهل[١]

والأولياء جمع وليّ، وهو الحقيق بالنصرة الّتي يولّيها عند الحاجة، فالله وليّ المؤمنين، لأنّه يولّيهم النصرة عند حاجتهم. والمؤمن وليّ الله لهذه العلّة. ويجوز أن يكون لأنّه يولّي المطيع له بنصرته[٢] عند حاجته. فقال الله لهؤلاء اليهود: إن كنتم تظنّون على زعمكم أنّكم أنصار الله وأنّ الله ينصركم ﴿فتمنّوا الموت ان كنتم صادقين﴾ في ادّعائكم أنّكم أولياؤه دون الناس، فالتمنّي: هو قول القائل لِما كان : ليت لم يكن، ولِما لم يكن: ليت كان. وهو من صفات الكلام. وقال بعضهم: هو معنى في النفس.

ثمّ أخبر تعالى عن حالهم وكذبهم واضطرابهم في دعواهم، وأنّهم غير واثقين بما يدّعونه فقال: ﴿ولا يتمنّونه أبداً بما قدّمت أيديهم﴾ ومعناه: لا يتمنّون الموت أبداً فيما بعد ﴿بما قدّمت أيديهم﴾ ممّا لا يرجعون فيه إلى ثقة من التكذيب بالنبيّ صلى الله عليه وآله والتحريف لصفته في التوراة ﴿والله عليم بالظالمين﴾ أي عالم بأحوالهم وأفعالهم، لا يخفى عليه شيء منها.

وفي الآية دليل على النبوّة، لأنّه أخبر بأنّهم لا يتمنّون [الموت] أبداً، وما تمنّوه فكان ذلك إخباراً بالصدق قبل كون الشيء، وذلك لا يعلمه إلّا الله تعالى. وفيها بطلان ما ادّعوه من أنّهم أولياء الله.

ثمّ قال للنبيّ صلى الله عليه وآله: ﴿قل﴾ لهم: ﴿إنّ الموت الّذي تفرّون منه﴾ أي تهربون منه ﴿فإنّه ملاقيكم﴾ وإنّما قال: ﴿فإنّه﴾ بالفاء، وسواء فرّوا منه أو لم يفرّوا منه فإنّه[٣] ملاقيهم، مبالغة في الدلالة على أنّه لا ينفع الفرار منه لأنّه إذا

---

(١) الكتاب ١: ١٢١. (٢) في الخطّية: نصرتُه. (٣) في الخطّية: في أنّه.

كان الفرار منه بمنزلة السبب في ملاقاته فلا معنى للتعرّض له لأنّه لا يباعد منه قال زهير:

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ولو رام أن يرقى السماء بسُلّم[١]

وهنّ ينلنه هابها أولم يهبها، ولكنّه إذا كانت هيبته بمنزلة السبب للمنيّة كان لا معنى للهيبة. وقال قوم: تقديره قل إنّ الموت هو الّذي تفرّون منه، فجعلوا «الّذي» في موضع الخبر لا صلة، ويكون «فإنّه» مستأنف[٢].

وقوله: ﴿ثمّ تردّون إلى عالم الغيب والشهادة﴾ معناه: ثمّ ترجعون إلى الله تعالى يوم القيامة الّذي يعلم سرّكم وعلانيتكم وظاهركم وباطنكم، لا يخفى عليه شيء من أحوالكم ﴿فينبّئكم﴾ أي يخبركم ﴿بما كنتم تعملون﴾ به في دار الدنيا ويجازيكم بحسبها على الطاعة بالثواب وعلى المعاصي بالعقاب.

ثمّ خاطب المؤمنين فقال: ﴿يا أيّها الّذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله﴾ معناه: إذا سمعتم أذان يوم الجمعة فامضوا إلى الصلاة. قال قتادة: معناه: امضوا إلى الصلاة مسرعين غير متثاقلين، وبه قال ابن زيد والضحّاك. وقال الزجّاج: المعنى: فامضوا إلى السعي الّذي هو الإسراع، قال: وقرأ ابن مسعود ﴿فامضوا﴾ إلى ذكر الله. ثمّ قال: لو علمتُ الإسراع لأسرعتُ حتّى يقع ردائي عن كتفي. قال: وكذلك كان يقرأ ﴿وأن ليس للانسان إلّا ما سعى وأنّ سعيه سوف يرى﴾[٣] يريد مضى فيه دون الإسراع[٤]. ومثله قوله: ﴿إنّ سعيكم لشتّى﴾[٥] وفرض الجمعة لازم جميع المكلّفين إلّا صاحب العذر: من سفر أو مرض أو عمى أو عرج أو آفة

---

(١) ديوان زهير بن أبي سُلمَى: ٨٧. (٢) معاني القرآن ٣: ١٥٦.
(٣) النجم: ٣٩ ـ ٤٠. (٤) معاني القرآن و إعرابه ٥: ١٧١. (٥) الليل: ٤.

وغير ذلك. وعند اجتماع شروط يكون سلطان عادل أو من نصبه السلطان للصلاة، ويتكامل العدد عندنا سبعة، وعند قوم أربعين. وعند آخرين أربعة، وثلاثة[١]. وقد بيّنّا الخلاف في ذلك في اختلاف الفقهاء.

وظاهر الآية متوجّه إلى المؤمنين وإنّما يدخل فيه الفاسق على التغليب، كما يغلب المذكّر على المؤنّث. هذا على قول من يقول: إنّ الفاسق ليس بمؤمن، فأمّا من قال: إنّه مؤمن مع كونه فاسقاً، فالآية متوجّهة إليهم كلّهم. وقال مجاهد وسعيد بن المسيّب: المراد بالذكر موعظة الإمام في خطبته. وقال غيرهما: يعني: الصلاة الّتي فيها ذكر الله.

وقوله: ﴿وذروا البيع﴾ معناه: إذا دخل وقت الصلاة اتركوا البيع والشراء.

قال الضحّاك: إذا زالت الشمس حرم البيع والشراء. وقال الحسن: كلّ بيع تفوت فيه الصلاة يوم الجمعة فإنّه بيع حرام، لا يجوز، وهو الّذي يقتضيه ظاهر مذهبنا، لأنّ النهي يدلّ على فساد المنهيّ عنه. ثمّ قال: ﴿ذلكم﴾ يعني: ما ذكره من السعي إلى الصلاة ﴿خير لكم﴾ في دينكم وأنفع لكم عاقبة ﴿إن كنتم تعلمون﴾ صحّة ما قلناه أي أعلموه.

وقوله تعالى: ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض﴾ أي إذا صلّيتم الجمعة فانتشروا في الأرض طلباً لرزق الله. وصورته صورة الأمر وهو إباحة وإذن ورخصة، في قول الحسن والضحّاك وابن زيد وغيره. ﴿وابتغوا من فضل الله﴾ أي اطلبوا من فضل الله بعمل الطاعة والدعاء به لله ﴿واذكروا الله كثيراً﴾ يا محمّد على إحسانه وبالشكر على نعمه والتعظيم لصفاته ﴿لعلّكم تفلحون﴾ ومعناه: لتفلحوا وتفوزوا بثواب النعيم.

---

(١) الكشف والبيان ٩: ٣١٣.

ثمّ أخبر تعالى عن حال جماعة كانوا مع النبيّ صلى الله عليه وآله وهو يخطب وهم معه يصلّي بهم، فقال: ﴿وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضّوا إليها﴾ قال جابر بن عبد الله والحسن: قدم عير لدحية الكلبي فيها طعام المدينة بعدما أصابتهم مجاعة، فاستقبلوه باللهو والمزامير والطبول ـ في قول جابر بن عبد الله ومجاهد ـ وكانوا مع النبيّ صلى الله عليه وآله في الصلاة فلمّا سمعوا صوت الطبول والمزامير ﴿انفضّوا﴾ أي تفرّقوا إلى العير يبصرونه وتركوا النبيّ صلى الله عليه وآله وحده قائماً، فقال الله لنبيّه صلى الله عليه وآله: ﴿قل﴾ لهم يا محمّد: ﴿ما عند الله﴾ من الثواب على سماع الخطبة وحضور الموعظة ﴿خير من اللهو ومن التجارة﴾ وأنفع وأحمد عاقبة ﴿والله خير الرازقين﴾ أي ليس يفوتهم بترك البيع شيء من رزق الله. والتقدير ﴿وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضّوا إليها وتركوك﴾ أي إليه، وإنّما قيل «إليها» لأنّها كانت أهمّ إليهم، ذكره الفرّاء. وقيل: تقديره وإذا رأوا لهواً أو تجارة انفضّوا إليها، فردّ الضمير إلى أقرب المذكورين، لأنّه كان أهمّ إليهم، وكذلك قرأ ابن مسعود في مصحفه[1].

(١) معاني القرآن ٣: ١٥٧.

سورة المنافقون

مدنيّة بلا خلاف وهو قول ابن عبّاس وعطا والضحّاك، وهي إحدى عشرة آية بلا خلاف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾* وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾﴾ خمس آيات.

[أقول:][1] قرأ ﴿خشب﴾ خفيفة ابن كثير وأبو عمرو والكسائي. وقرأ الباقون ﴿خشب﴾ مثقّل. وقرأ نافع وروح وزيد ﴿لووا رؤسهم﴾ خفيفة.

---

(١) من الحجريّة.

الباقون «لوّوا» مشدّدة.

يقول الله تعالى لنبيّه صلى الله عليه وآله: ﴿إذا جاءك﴾ يا محمّد ﴿المنافقون﴾ وهم الّذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ﴿قالوا نشهد إنّك لرسول الله﴾ أي أخبروا بأنّهم يعتقدون إنّك رسول الله. فقال الله تعالى لنبيّه: ﴿والله يعلم إنّك لرسوله﴾ على الحقيقة ﴿والله يشهد إنّ المنافقين لكاذبون﴾ في قولهم إنّهم يعتقدون إنّك لرسول الله، وكان إكذابهم في اعتقادهم وأنّهم يشهدون ذلك بقلوبهم ولم يكونوا فيما يرجع إلى ألسنتهم، لأنّهم شهدوا بها وهم صادقون في ذلك. وفي ذلك دلالة على بطلان قول من يقول: إنّ المعرفة ضروريّة. وكسرت «إنّ» لأجل اللام الّتي هي لام الابتداء الّتي في الخبر، لأنّ لها صدر الكلام. وإنّما زحلفت عن موضعها إلى موضع الخبر لئلّا تجمع بين حرفي تأكيد، وكانت أحقّ بالتأخير، لأنّها غير عامّة. وإنّما كان لها صدر الكلام، لأنّها نقلت الجملة إلى معنى التأكيد، وكلّ حرف نقل الجملة عن معنى إلى معنى كان له صدر الكلام، لئلّا تختلط الجمل.

ثمّ أخبر تعالى عن هؤلاء المنافقين فقال: ﴿اتّخذوا أيمانهم جنّة﴾ أي سترة يتستّرون بها من الكفر لئلّا يقتلوا ولا يسبوا ولا تؤخذ أموالهم. و«الجُنّة» السترة المتّخذة لدفع الأذيّة كالسلاح المتّخذ لدفع الجراح، فالجنّة: السترة، والجنّة: البستان الّذي يجنّه الشجر. الجِنّة والجنون الّذي يغطي على العقل. وأصل ذلك كلّه الستر ﴿فصدّوا عن سبيل الله﴾ أي منعوا غيرهم عن اتّباع سبيل الحقّ. وقال الضحّاك: أيمانهم حلفهم أنّهم لمنكم. وقرئ ﴿إيمانهم﴾ بكسر الهمزة بمعنى: أنّهم اتّخذوا تصديقهم ظاهراً جُنّة، فقال تعالى: ﴿إنّهم ساء ما كانوا يعملون﴾ ومعناه: بئس الّذي يعملونه من إظهار الايمان مع إبطان الكفر والصدّ عن السبيل. وقال زيد بن أرقم: نزلت

الآية في عبد الله بن أبيّ بن سلول، لمّا قال: ﴿لا تنفقوا على من عند رسول الله حتّى ينفضّوا﴾ وقال: ﴿لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ﴾ فلمّا وقف على ذلك جحده وحلف أنّه ما قاله حتّى نزلت السورة.

وقوله: ﴿ذلك بأنّهم آمنوا﴾ بألسنتهم عند الإقرار بـ«لا إله إلّا الله محمّد رسول الله» ﴿ثمّ كفروا﴾ بقلوبهم لمّا كذّبوا بهذا، وهو قول قتادة ﴿فطبع على قلوبهم﴾ أي ختم عليها بسمة تميّز الملائكة بينهم وبين المؤمنين على الحقيقة ﴿فهم لا يفقهون﴾ ذلك بجحدهم توحيد الله ونفاقهم وإنكارهم نبوّة رسوله الّذي دعاهم إلى الحقّ.

ثمّ قال: ﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم﴾ بحسن منظرهم وجميل زيّهم ﴿وإن يقولوا﴾ يعني: هؤلاء المنافقون ﴿تسمع لقولهم﴾ أي تصغي إليهم وتسمع ما يقولون بحسن بيانهم وبلاغة لسانهم، فقال تعالى: ﴿كأنّهم خشب مسنّدة﴾ فشبّههم الله بالخشب المسنّدة، قيل: إنّهم شبّهوا بخشب نخرة متأكّلة لا خير فيها إلّا أنّها مسنّدة يحسب من يراها أنّها صحيحة سليمة[١]. وخُشُب جمع خشبة مثل بدن وبدنة فيمن سكن. ومن ضمّ قال: مثل ثمرة وثمر. ثمّ وصفهم بالخور والهلع فقال: ﴿يحسبون كلّ صيحة عليهم﴾ أي يظنّون أنّها مهلكتهم، وأنّهم المقصودون بها جبناً وخوراً. ثمّ قال لنبيّه صلى الله عليه وآله: ﴿هم العدوّ﴾ لك وللمؤمنين ﴿فاحذرهم﴾ وتوقّهم ﴿قاتلهم الله﴾ وقيل: معناه: أخزاهم الله. وقيل: معناه: أحلّهم الله محلّ من يقاتله عدوّ قاهر له[٢]. وهذا أشدّ ما يكون من الذمّ والبلاء الّذي ينزل بهم وأبلغ ما يكون في البيان عن مكروههم ﴿أنّى يؤفكون﴾ أي كيف يصرفون عن

---

(١) راجع تفسير الطبري ١٢: ١٠١.

(٢) النكت والعيون ٦: ١٦.

الحقّ. وإنّما قال: ﴿فاحذرهم﴾ لأنّهم كانوا ينقلون الأسرار إلى الكفّار ويحيون من قدروا عليه من أهل الكفر[١].

ثمّ أخبر تعالى فقال: ﴿وإذا قيل لهم﴾ يعني: لهؤلاء المنافقين ﴿تعالوا﴾ أي هلّموا ﴿يستغفر لكم رسول الله لوّوا رؤسهم﴾ ومعناه: أكثروا تحريكها بالهزّ لها استهزاء بدعائهم إلى ذلك.

فمن شدّد أراد تكثير الفعل. ومن خفّف فلأنّه يدلّ على القليل والكثير. ثمّ قال: ﴿ورأيتهم﴾ يا محمّد ﴿يصدّون﴾ عن سبيل الحقّ ﴿وهم مستكبرون﴾ أي يطلبون الكبر ويتجبّرون عن اتّباع الحقّ.

قوله تعالى:

﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ۝٦ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١١﴾ ستّ آيات.

[أقول:][٢] قرأ أبو عمرو وحده «وأكون» بالواو. الباقون «وأكن» وفي المصاحف بلا واو فقيل لأبي عمرو: لم سقطت من المصاحف؟. فقال كما

---

(١) في الخطّيّة: أهل الايمان: لعلّ الصحيح «يقتلون» بدل: يحيون.

(٢) من الحجريّة.

كتبوا «كلّهن»[١] وقرأ يحيى عن أبي بكر ﴿يعملون﴾ بالياء. الباقون بالتاء. ومن قرأ بالياء فعلى الخبر، ومن قرأ بالتاء فعلى الخطاب.

لمّا اخبر الله تعالى عن حال المنافقين وأنّه ﴿إذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله﴾ حرّكوا رؤسهم استهزاءً بهذا القول، فقال الله تعالى لنبيّهﷺ: ﴿سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم﴾ أي يتساوى الاستغفار لهم وعدم الاستغفار فإنّ الله لا يغفر لهم لأنّهم يبطنون الكفر وإن أظهروا الإيمان، وبيّن أنّه تعالى ﴿لا يهدي القوم الفاسقين﴾ إلى طريق الجنّة، فلهذا يجب أن ييأسوا من المغفرة بالاستغفار.

وقال الحسن: أخبر الله تعالى أنّهم يموتون على النفاق فلم يستغفر لهم بعد. وقيل: المعنى: لا يحكم الله بهدايتهم، وقد كان النبيّﷺ يستغفر لهم على ظاهر الحال بشرط حصول التوبة وأن يكون باطنه مثل ظاهره، فبيّن بها أنّ ذلك لا ينفع مع إبطانهم الكفر والنفاق.

ثمّ حكى تعالى عنهم فقال: ﴿هم الّذين يقولون﴾ يعني بعضهم لبعض ﴿لا تنفقوا على من عند رسول الله﴾ﷺ من المؤمنين المحتاجين ﴿حتّى ينفضّوا﴾ عنه، ومعناه: حتّى يتفرّقوا عنه لفقرهم وحاجتهم. و«الانفضاض» التفرّق، وفضّ الكتاب إذا فرّقه ونشره، وسمّيت الفضّة فضّة لتفرّقها في أثمان الأشياء المشتراة.

فقال الله تعالى: ﴿ولله خزائن السماوات والأرض﴾ بمعنى: له مقدوراته في السماوات والأرض، لأنّ فيها كلّ ما يشاء إخراجه، وله خزائن السماوات والأرض يخرج منهما ما يشاء. وهي داخلة في مقدوراته.

---

(١) راجع الكشف والبيان ٩: ٣٢٣.

والخزانة ـ بكسر الخاء ـ موضع يخبأ فيه الأمتعة، وإذا كان لله خزائن السماوات والأرض، فلا يضرّك يا محمّد ترك إنفاقهم بل لا يضرّون إلّا أنفسهم دون أولياء الله والمؤمنين الّذين يسبّب الله قوتهم ولو شاء الله تعالى لأغنى المؤمنين، ولكن فعل ما هو أصلح لهم وتعبّدهم بالصبر على ذلك لينالوا منزلة الثواب ﴿ولكنّ المنافقين لا يفقهون﴾ ذلك على الحقيقة لجهلهم بعقاب الله تعالى.

ثمّ أخبر عنهم فقال: ﴿يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ﴾ يعنون نفوسهم ﴿منها الأذلّ﴾ يعنون رسول الله والمؤمنين. وقيل: إنّ القائل لذلك ـ في غزوة المريسيع ـ كان عبد الله بن أُبيّ بن سلول[1] فقال الله تعالى: ﴿ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين﴾ دون المنافقين والكفّار ﴿ولكنّ المنافقين لا يعلمون﴾ ذلك فيظنّون أنّ العزةّ لهم، وذلك بجهلهم بصفات الله وما يستحقّه أولياؤه[2] المنافقون وما يعمل بهم. و«الأعزّ» الأقدر على منع غيره، وأصل الصفة المنع، فلذلك لم يكن أحد أعزّ من الله ولا أذلّ من المنافق.

ثمّ خاطب المؤمنين فقال: ﴿يا أيّها الّذين آمنوا لا تلهكم أموالكم﴾ أي لا تشغلكم أموالكم ﴿ولا أولادكم عن ذكر الله﴾ قال قوم: الذكر المأمور به هو ذكر الله بالحمد والشكر والتعظيم بصفاته العُلى وأسمائه الحسنى، ويقال: ألهيتُه عن الأمر إذا صرفته عنه بما يمنعه، قال امرؤ القيس:

فمثلك حبلى قد طرقتُ ومرضِع   فألهيتُها عن ذي تمائم مُحْوِل[3]

---

(١) النكت والعيون ٦: ١٧.
(٢) أي أولياء عبدالله بن أبيّ.
(٣) ديوان امرئ القيس: ٣٥، تفسير الطبري ١٢: ١٠٩.

وقال قوم: ذكر الله جميع فرائضه[١]. ثمّ قال: ﴿ومن يفعل ذلك﴾ أي من شغله ماله أو ولده عن ذكر الله ﴿فأولئك هم الخاسرون﴾ الّذين خسروا ثواب الله وحصل لهم عقابه.

ثمّ أمرهم بأن ينفقوا ممّا رزقهم الله فيما تجب عليهم النفقة فيه من الزكاة والجهاد والحجّ والكفّارات وغير ذلك من الواجبات. وفي ذلك دليل على أنّ الحرام ليس برزق من الله، لأنّ الله لا يأمر بالمعصية بالإنفاق، ولأنّه ينهى عن التصرّف فيه بلا خلاف ﴿من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول لولا أخّرتني إلى أجل قريب﴾ أي هلّا. وقيل: معناه أنّه يتمنّى أن يردّ إلى دار الدنيا[٢]. وإنّما جاز التمنّي بـ«لولا» لأنّ أصلها التقدير، و«التمنّي» تقدير الخير للاستمتاع ﴿فأصّدّق﴾ ومعناه: فأتصدّق وأُنفق في سبيل الله ﴿وأكن من الصالحين﴾ أي من الّذين يعملون الأفعال الحسنة. وفي ذلك دليل على أنّ القدرة قبل الفعل، لأنّهم تمنّوا أن يؤخّروا ليعملوا ما كانوا قادرين عليه متمكّنين منه [ودليل على أنّ الله تعالى لا يخلق الكفر والنفاق فيهم، لأنّه لو فعل ذلك كان لا معنى لتمنّي التأخير والردّ، بل الواجب أن يطلبوا منه تعالى أن يكفّ عنهم الكفر ويخلق فيهم الإيمان وقدرته بدل الكفر وقدرته][٣].

وقوله: ﴿فأصّدّق﴾ انتصب بأنّه جواب التمنّي بالفاء، وكلّ جواب بالفاء نصب، إلّا جواب الجزاء، فإنّه رفع على الاستئناف، لأنّ الفاء في الجزاء وصلة إلى الجواب بالجملة من الابتداء والخبر. وانّما نصب

---

(١) النكت والعيون ٦: ١٨. (٢) تفسير السمرقندي ٣: ٤٥٣.

(٣) ما بين المعقوفتين لم يرد في الخطّية، والفقرة الأخيرة غير واضحة.

بالجواب بالفاء للإيذان بأنّ الثاني يجب بالأوّل بدلالة الفاء في الجواب، وليس يحتاج إلى ذلك في الجزاء من قبل أنّ حرف الجـزاء يكـفي فـي الدلالة. ومن قرأ ﴿وأكن﴾ فجزم عطف على موضع الفاء، لأنّها في موضع جزم. ومن قرأ﴿وأكون﴾ عطف على لفظ ﴿فأصّدّق﴾ وأكون.

ثمّ قال: ﴿ولن يؤخّر الله نفساً إذا جاء أجلها﴾ يعني: الأجل المطلق الّذي حكم بأنّ الحيّ يموت عنده. والأجل المقيّد هو الوقت المحكوم بأنّ العبد يموت عنده إن لم يقتطع عنه أولم يزد عليه أو لم ينقص منه على ما يعلمه الله من المصلحة. ثمّ قال: ﴿والله خبير﴾ أي عالم ﴿بما تعملون﴾ فمن قـرأ بالياء أراد عالم بعملهم على لفظ الغيبة. ومن قرأ بالتاء أراد بعملكم عـلى الخطاب أي قل لهم.

سورة التغابن

مدنيّة بلا خلاف في قول ابن عبّاس وعطاء والضحّاك، وهـي ثـمان عشرة آية بلا خلاف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَافِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَافِى ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَافِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾ خمس آيات.

[أقول:][1] قد فسّرنا معنى قوله: ﴿يسبّح لله ما في السماوات وما في الأرض﴾ وأنّ المراد بها ما في خلق السماوات والأرض، وما فيهما من الأدلّة الدالّة على توحيده وصفاته الّتي بايَن بها خلقه، وأنّه لا يشبه شيئاً

---

(١) من الحجريّة.

ولا يشبهه شيء وأنّه منزّه عن القبائح وصفات النقص، فعبّر عن ذلك بالتسبيح من حيث كان معنى التسبيح: التنزيه لله عمّا لا يليق به.

وقوله: ﴿له الملك﴾ معناه: أنّه المالك لجميع ذلك والمتصرّف فيه بما شاء، ولا أحد يمنعه منه، وله الحمد على جميع ذلك، لأنّ خلق ذلك أجمع للإحسان إلى خلقه به والنفع لهم، فاستحقّ بذلك الحمد والشكر ﴿وهو على كلّ شيء قدير﴾ يعني: ممّا يصحّ أن يكون مقدوراً له، فلا يدخل في ذلك مقدور العباد، لأنّه يستحيل أن يكون مقدوراً لله.

وقوله: ﴿هو الّذي خلقكم﴾ معناه: هو الّذي اخترعكم وأنشأكم بأن أخرجكم من العدم إلى الوجود ﴿فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾ معناه: فمنكم من يختار الكفر بسوء اختياره ومنكم مؤمن بحسن اختياره للإيمان. وقال الحسن: فيه محذوف وتقديره فمنكم كافر ومنكم مؤمن ومنكم فاسق. وقال غيره: ليس فيه حذف، لأنّ الغرض ذكر الطرفين لا المنزلة بين المنزلتين[(١)] كما أنّ قوله: ﴿خلقكم﴾ خطاب يتوجّه إلى جميع الخلق. وإن كان منهم الأطفال والمجانين الّذين لا حكم لهم بالإيمان ولا بالكفر. وقال الزجّاج: معناه ﴿فمنكم كافر﴾ بالله بأنّ الله خلقه ﴿ومنكم مؤمن﴾ بذلك[(٢)].

وقوله: ﴿والله بما تعملون بصير﴾ معناه ـ هاهنا ـ أنّه خلق الكافر، وهو عالم بما يكون منه من الكفر، وكذلك خلق المؤمن وعلم بما يكون منه من الإيمان، وكلّ ذلك على وجه الإحسان في الفعل الّذي يستحقّ به الحمد والشكر.

ثمّ قال: ﴿خلق السماوات والأرض﴾ بمعنى اخترعهما وأنشأهما

---

(١) النكت والعيون ٦: ٢١.

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٥: ١٧٩.

﴿بالحقّ﴾ أي للحقّ، وهو أنّه خلق العقلاء تعريضاً لهم للثواب العظيم، وماعداهم خلق تبعاً لهم لما فيه من اللطف. وهذا الغرض لا يتأتّى إلّا على مذهب العدل، وأمّا على مذهب الجبر فلا. ﴿وصوّركم﴾ متوجّه إلى البشر كلّهم ﴿فأحسن صوركم﴾ معناه: من الحسن الّذي يقتضيه العقل لا في قبول الطبع له عند رؤيته، لأنّ فيهم من ليس بهذه الصفة. وقال قوم: لا بل هو من تقبل الطبع[١] لأنّه إذا قيل: حسن الصورة لا يفهم منه إلّا تقبل الطبع، وسبيله كسبيل قوله: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾[٢] وإن كان فيهم المشوّه الخلق لأنّ هذا عارض لا يعتدّ به في هذا الوصف، والله تعالى خلق الإنسان على أحسن صورة الحيوان كلّه. والصورة عبارة عن بنية مخصوصة كصورة الإنسان والفرس والطير وما أشبه ذلك.

ثمّ قال: ﴿واليه المصير﴾ يعني: إليه المرجع يوم القيامة وإليه المآل.

ثمّ قال: ﴿يعلم﴾ يعني: الله تعالى يعلم ﴿ما في السماوات والأرض﴾ من الموجودات ﴿ويعلم ما تسرّون وما تعلنون﴾ أي ما تظهرونه وما تخفونه. وقيل: ما يسرّه بعضكم إلى بعض وما تخفوه في صدوركم عن غيركم[٣]. والفرق بين الإسرار والإخفاء أنّ الإخفاء أعمّ لأنّه قد يخفى شخصه ويخفى المعنى في نفسه، والإسرار للمعنى دون الشخص ﴿والله عليم بذات الصدور﴾ معناه: وهو عالم بأسرار الصدور وبواطنها.

ثمّ خاطب نبيّه ﷺ والمؤمنين فقال: ﴿ألم يأتكم نبؤ الّذين﴾ أي خبر الّذين ﴿كفروا من قبل﴾ يعني: من قبل هؤلاء الكفّار ﴿فذاقوا وبال أمرهم﴾

---

(١) راجع تفسير السمرقندي ٣: ٤٥٥.
(٢) التين: ٤.
(٣) في الخطّية والحجريّة: يخفيه في صدوره عن غيره.

أي بما سلّطه الله عليهم بأن أهلكهم الله عاجلاً واستأصلهم ﴿ولهم عذاب أليم﴾ أي مؤلم يوم القيامة.

قوله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾﴾ خمس آيات.

قرأ رويس عن يعقوب ﴿نجمعكم﴾ بالنون على الإخبار من الله عن نفسه. الباقون بالياء على تقدير يوم يجمعكم الله.

(أبشر) لفظه لفظ الواحد والمراد به الجمع بدلالة قوله: ﴿يهدوننا﴾ لأنّه على طريق الجنس الّذي لا يجمع ولا يثنّى.

لمّا قرّر الله تعالى خلقه بأنّهم جاءهم أخبار من مضى من الكفّار وأنّ الله تعالى أهلكهم بكفرهم، بيّن لِمَ أهلكهم فقال: ﴿ذلك بأنّهم كانت تأتيهم رسلهم﴾ أي تجيئهم رسلهم من الله بالحجج الواضحات ﴿فقالوا﴾ لهم: ﴿أبشر يهدوننا﴾ وقد بيّنّا أنّ لفظ ﴿بشر﴾ واحد والمراد به الجمع، ومعناه: أخَلْق مثلنا يهدوننا إلى الحقّ ؟! متعجّبين من ذلك مستهزئين به ﴿فكفروا﴾ بالله وجحدوا رسله ﴿وتولّوا﴾ أي أعرضوا عن القبول منهم ﴿واستغنى الله﴾ ومعناه: أنّ الله لم يَدْعُهم إلى عبادته لحاجته إليهم، لأنّ الله تعالى غنيّ

عنهم وعن غيرهم، وإنّما دعاهم لما يعود عليهم بالنفع حسب ما تقتضيه حكمته في تدبيرهم ﴿والله غنّي﴾ عن جميع خلقه ﴿حميد﴾ على جميع أفعاله لأنّها كلّها إحسان. وقيل: ﴿حميد﴾ يدلّ على أنّه يجب على عباده أن يحمدوه[١].

ثمّ حكى ما يقول الكفّار فقال: ﴿زعم الّذين كفروا بالله﴾ وجحدوا رسله فقال المؤرّج: ﴿زعم﴾ معناه: كذب الّذين جحدوا لغة حمير. وقال شريح ﴿زعم﴾ كنية الكذب والحدة[٢] كنية الجهل ﴿أن لن يبعثوا﴾ أي لا يحشرهم الله في المستقبل للحساب والجزاء فـ﴿قل﴾ لهم يا محمّد صلى الله عليه وآله ﴿بلى وربّي﴾ أي وحقّ ربّي، على وجه القسم ﴿لتبعثنّ﴾ أي لتحشرنّ ﴿ثمّ لتنبؤنّ﴾ أي لتخبرنّ ﴿بما عملتم﴾ من طاعة ومعصية ﴿وذلك على الله يسير﴾ سهل لا يتعذّر عليه ذلك، وإن كثروا وعظّموا فهو كالقليل الّذي لا يشقّ على من يأخذه لخفّة أمره، ومثله قوله: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلّا كنفس واحدة﴾[٣] وأصله من تيسير الشيء بمروره على سهولة.

ثمّ قال: ﴿فآمنوا بالله﴾ معاشر العقلاء ﴿ورسوله﴾ أي وآمنوا برسوله ﴿والنور الّذي أنزلنا﴾ يعني: القرآن، سمّاه نوراً لما فيه من الأدلّة والحجج الموصلة إلى الحقّ، فشبّهه بالنور الّذي يهتدى به على الطريق ﴿والله بما تعملون خبير﴾ أي عالم بأعمالكم لا يخفى عليه خافية منها.

وقوله: ﴿يوم يجمعكم﴾ تقديره واذكروا يوم يجمعكم ﴿ليوم الجمع﴾ وهو يوم القيامة. وقوله: ﴿ذلك يوم التغابن﴾ و«التغابن» هو التفاوت في

---

(١) النكت والعيون ٦: ٢٢. (٢) في الخطّية: الجدة. (٣) لقمان: ٢٨.

أخذ الشيء بدون[١] القيمة، والّذين أخذوا الدنيا بالآخرة بهذه الصفة في أنّهم أخذوا الشيء بدون القيمة، فقد غبنوا أنفسهم بأخذ النعيم المنقطع بالدائم وأغبنهم الّذين اشتروا الآخرة بترك الدنيا المنقطع إليها[٢] من هؤلاء الّذين ثابروا عليها. وقال مجاهد وقتادة: يوم التغابن غبن أهل الجنّة أهل النار.

ثمّ قال: ﴿ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً﴾ أي من يصدّق بالله ويعترف بوحدانيّته وإخلاص العبادة له ويقرّ بنبوّة نبيّه ويضيف إلى ذلك أفعال الطاعات ﴿يكفّر عنه سيّآته﴾ أي يكفّر الله عنه سيّئاته الّتي هي دونها، ويتفضّل عليه بإسقاط عقاب ما دونها من المعاصي ﴿ويدخله جنّات تجري من تحتها الأنهار﴾ يعني بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار ﴿خالدين فيها﴾ أي مؤبّدين لا يفنى ما هم فيه من النعيم أبداً ﴿ذلك الفوز العظيم﴾ أي النجاح الّذي ليس وراءه شيء من عظمه.

ثمّ قال: ﴿والّذين كفروا﴾ بالله وجحدوا وحدانيّته وأنكروا نبوّة نبيّه وكذّبوا بمعجزاته الّتي هي آيات الله ﴿أُولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير﴾ أي بئس المآل والمرجع. وقرأ ﴿نكفّر﴾ ﴿وندخله﴾ بالنون أهل المدينة وأهل الشام على وجه الإخبار من الله تعالى عن نفسه. الباقون بالياء على تقدير يكفّر الله عنهم ويدخلهم.

قوله تعالى:

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١) وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَـٰغُ

---

(١) كذا والصواب في الموردين: بفوق.
(٢) كذا، والظاهر زيادة: إليها.

ٱلْمُبِينُ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴿١٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴿١٥﴾﴾ خمس آيات.

[أقول:][(١)] يقول الله تعالى مخاطباً لخلقه: أنّه ليس يصيبكم مصيبة إلّا بإذن الله. «والمصيبة» المضرّة الّتي تلحق صاحبها كالرمية الّتي تصيبه. ومنه الصواب بأنّه أصابه الحقّ كالرمية في إصابة البغية. وقيل: إنّما عمّم قوله: ﴿ما أصاب من مصيبة إلّا بإذن الله﴾ وفي المصائب ما هو ظلم، والله لا يأذن في الظلم، لأنّه لا يحسن في الحكمة. ألا ترى أنّه ليس منها إلّا ما أذن الله في وقوعه أو التمكّن[(٢)] منه وذلك اذن للملك الموكّل به كأنّه قيل له: لا تمنع من وقوع هذه المصيبة. وقد يكون ذلك بفعل التمكّن[(٣)] من الله كأنّه يأذن له أن يكون. وقال البلخي: معناه: إلّا بتخلية الله بينكم وبين من يريد فعلها. وقال قوم: هو خاصّ فيما يفعله الله تعالى أو يأمر به، ويجوز أيضاً أن يكون المراد بالإذن ـ هاهنا ـ العلم[(٤)] فكأنّه قال لا يصيبكم من مصيبة إلّا والله تعالى عالم بها. ثمّ قال: ﴿ومن يؤمن بالله﴾ أي من يصدّق بالله ويعترف بوحدانيّته ﴿يَهْدِ قلبه﴾ أي يحكم بهدايته. ويجوز أن يكون المراد يشرح صدره للإيمان. وقيل: معناه: يهد قلبه بأنّ المصيبة بإذن الله، ذكره ابن عبّاس وعلقمة. قال: هو الرجل تصيبه المصيبة فيسلم ويرضى ويعلم أنّها من عند الله[(٥)] وقال الفرّاء: هو أن يقول: إنّا لله

(١) من الحجريّة.
(٢ و٣) في الخطيّة: التمكين.
(٤) راجع معاني القرآن وإعرابه ٥: ١٨١.
(٥) النكت والعيون ٦: ٢٣.

وإنّا إليه راجعون. وقال غيره: معناه: إذا ابتلي صبر، وإذا أنعم عليه شكر، وإذا ظلم غفر[١].

وقرأ أبو بكر بن أبي مجاهد ﴿يهد قلبه﴾ بفتح الدال بمعنى: يسكن قلبه ﴿والله بكلّ شيء عليم﴾ لا يخفى عليه شيء من ذلك.

ثمّ أمرهم فقال: ﴿وأطيعوا الله﴾ فيما أمركم به ﴿وأطيعوا الرسول﴾ فيما أمركم به ونهاكم عنه ﴿فإن تولّيتم﴾ أي فإن أعرضتم عن القبول منه وتولّيتم عن الحقّ فليس على رسولنا قهركم إلى الردّ إلى الحقّ ﴿فإنّما على الرسول البلاغ المبين﴾ الظاهر، وحذف إيجازاً ثمّ قال: ﴿الله﴾ الّذي يحقّ له العبادة ﴿لا إله إلّا هو وعلى الله فليتوكّل المؤمنون﴾ فالتوكّل: هو تفويض الأمر إلى الله بأنّه يتولّاه على الحقّ فيه وقد أمر الله بالتوكّل عليه فينبغي للمسلم أن يستشعر ذلك في سائر أحواله. وقال قوم: «التوكّل» تفويض الأمر إلى مالكه لتدبّره بالحقّ فيه. والوكيل المالك للتدبير فيمن فوّض الأمر إليه فيه.

ثمّ خاطب تعالى المؤمنين فقال: ﴿يا أيّها الّذين آمنوا إنّ من أزواجكم وأولادكم عدوّاً لكم فاحذروهم﴾ قال ابن عبّاس: نزلت الآية في قوم أسلموا بمكّة وأرادوا الهجرة فمنعوهم من ذلك. وقال عطاء بن بشّار: نزلت في قوم أرادوا الغزو فمنعهم هؤلاء. وقال مجاهد: هي في قوم إذا أرادوا طاعة الله منعهم أزواجهم وأولادهم فبيّن الله تعالى أنّ في هؤلاء من هو عدوّ لكم في الدين فاحذروهم فيه. و﴿من﴾ دخلت للتبعيض لأنّه ليس حكم جميع الأزواج والأولاد هذا الحكم. والعداوة: المباعدة من الخير بالبغضة ونقيضها الولاية وهي المقاربة من الخير بالمحبّة. و«الإذن» الإطلاق في الفعل، تقول: يسمع بالأذن، فهذا أصله، ثمّ قد يتّسع فيه بما يقارب هذا

---

(١) معاني القرآن ٣: ١٦١.

المعنى.

ثمّ قال: ﴿وإن تعفوا﴾ يعني تتركوا عقابهم ﴿وتصفحوا﴾ وتعرضوا عمّا كان منهم ﴿وتغفروا﴾ أي تستروا ذنوبهم إذا تابوا وأقلعوا عنه ﴿فإنّ الله غفور﴾ أي ستّار على خلقه ﴿رحيم﴾ بهم.

ثمّ قال: ﴿إنّما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ أي محنة وابتلاء . وقال قتادة: يعني: بلاء. «والفتنة» المحنة الّتي فيها مشقّة تمنع النفس عمّا تدعو إليه الشهوة ﴿والله عنده أجر عظيم﴾ أي ثواب جزيل على الصفح والعفو وغيرهما من الطاعات.

قوله تعالى:

﴿فَاتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (١٦) إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (١٨)﴾ ثلاث آيات.

[أقول:](١) هذا أمر من الله تعالى للمكلّفين يأمرهم بأن يتّقوه بأن يتركوا معاصيه ويفعلوا طاعاته. فالاتّقاء: الامتناع من الردي باجتناب ما يدعو إليه الهوى. وقد اتّقاه بالتُرس إذا امتنع منه بأن جعله حاجزاً بينه وبينه. وقوله: ﴿ما استطعتم﴾ معناه: اتّقوه بحسب طاقتكم، فإنّ الله تعالى لا يكلّف نفساً ما لا تطيقه، وإنّما يكلّفها ماتسعه له. ولا ينافي هذا قوله: ﴿فاتّقوا الله حقّ تقاته﴾(٢) لأنّ كلّ واحد من الأمرين إنّما هو إلزام ترك جميع معاصيه، فمن ترك جميع المعاصي فقد اتّقى عقاب الله، لأنّ من لم يفعل قبيحاً ولا أخلّ بواجب فلا عقاب عليه إلّا أنّ في أحد الكلامين تبيين أنّ

---

(١) من الحجريّة.

(٢) آل عمران: ١٠٢.

التكليف لا يلزم العبد إلّا فيما يطيق. وهذا يقتضي أنّ اتّقاءه فيما وقع من القبيح ليس بأن لا يكون وقع وإنّما هو بالندم عليه مع العزم على ترك معاودته. وكلّ أمر يأمر الله به فلا بدّ من أن يكون مشروطاً بالاستطاعة، فإن كانت الاستطاعة غير باقية على مذهب من يقول بذلك، فالأمر بما يفعل في الثالث وما بعده مشروط بأن يفعل له استطاعة قبل الفعل بوقت وإلّا لا يكون مأموراً بالفعل، وإن كانت ثابتة[١] فالأمر على صفة الاستنطاعة، لأنّه لا يصحّ الشرط بالموجود، لأنّ الشرط يحدث، فليس يخلو من أن يكون على شريطة وقوع القدرة أو على صفة وجود القدرة. وقال قتادة: قوله تعالى: ﴿فاتّقوا الله ما استطعتم﴾ ناسخ لقوله: ﴿اتّقوا الله حقّ تقاته﴾ كأنّه يذهب إلى أنّ فيه رخصة لحال التقيّة وما جرى مجراها ممّا يعظم فيه المشقّة وإن كانت معه القدرة على الحقيقة. وقال غيره: ليس بناسخ، وإنّما هو مبيّن لإمكان العمل بهما جميعاً. وهو الصحيح، لأنّ تقديره: اتّقوا الله حقّ تقاته فيما استطعتم[٢]

وقوله: ﴿واسمعوا﴾ أي اصغوا إلى ما يأمركم الله به ﴿وأطيعوا﴾ فيما أمركم به ﴿وأنفقوا﴾ فيما أمركم بالإنفاق فيه من الزكاة والإنفاق في سبيل الله وغير ذلك ﴿خيراً لانفسكم﴾ انتصب ﴿خيراً﴾ بفعل محذوف يدلّ عليه ﴿أنفقوا﴾ وتقديره: وأنفقوا[٣] الإنفاق خيراً لأنفسكم، ومثله انتهوا خيراً لكم، وهو كقولهم: وذاك أوسع لك لأنّك إذا أمرته بشيء فهو مضمّن بأن يأتي خيراً له.

وقوله: ﴿ومن يوق شحّ نفسه﴾ أي من منع ووقى شحّ نفسه. و«الشحّ» منع الواجب في الشرع. وقيل: الشحّ منع النفع على مخالفة العقل لمشقّة

---

(١) في الخطّية: باقية. (٢) تفسير الطبري ١٢: ١١٩. (٣) في الخطّية والحجريّة: اتّقوا.

البذل، ومثله البخل، يقال: شحّ يشحّ شحّاً فهو شحيح وشحاح. وقال ابن‌مسعود: من الشحّ أن تعمّد إلى مال غيرك فتأكله.

وقوله: ﴿فأُولئك هم المفلحون﴾ معناه: إنّ من وقى شحّ نفسه وفعل ما أوجبه الله عليه فهو من جملة المنجحين الفائزين بثواب الله.

وقوله: ﴿إن تقرضوا الله قرضاً حسناً﴾ «والقرض» أخذ قطعة من المال بتمليك الآخذ له على ردّ مثله، وأصله القطع: من قرض الشيء يقرِضه قرضاً إذا قطع منه قطعة. وذكر القرض في صفة الله تلطّفاً في الاستدعاء إلى الإنفاق في سبيل الله، وهو كالقرض في مثله مع أضعافه. ولا يجوز أن يملّك الله ـ عزّ وجلّ ـ لأنّه مالك للأشياء من غير تمليك، ولأنّ المالك لا يملك ما هو مالكه. وقوله: ﴿يضاعفه لكم﴾ أي يضاعف ثوابه لكم بأمثاله. ومن قرأ ﴿يضعّفه﴾ بالتشديد، فلأنّ الله تعالى بذل بالواحد عشرة إلى سبعين وسبعمائة ﴿ويغفر لكم﴾ أي ويستر عليكم ذنوبكم ولا يفضحكم بها ﴿إنّ الله شكور حليم﴾ أي يجازي على الشكر ﴿حليم﴾ لا يعاجل العباد بما يستحقّونه من العقاب.

وقوله: ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ أي يعلم السرّ والعلانية. وهو ﴿العزيز﴾ الّذي لا يغالب ﴿الحكيم﴾ في جميع أفعاله. و ﴿الشكور﴾ في صفة الله مجاز ومعناه: إنّه يعامل المطيع في حسن الجزاء معاملة الشاكر. و«الحلم» ترك المعاجلة بالعقوبة لداعي الحكمة. و﴿الغيب﴾ كون الشيء بحيث لا يشاهده العبد. و «الغائب» نقيض الشاهد. وهو ﴿الحكيم﴾ في جميع أفعاله.

وقرأ ﴿يضعّفه﴾ بالتشديد ابن كثير وابن عامر. الباقون ﴿يضاعفه﴾ وقد مضى تفسيره.

سورة الطلاق

مدنيّة في قول ابن عبّاس وعطاء والضحّاك وغيرهم، وهي اثنتا عشرة آية في الكوفي والمدنيّين وعشر في البصري.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا (١) فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤) ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ

أَجْراً(٥)﴾ خمس آيات.

[أقول:][١] قرأ حفص عن عاصم ونافع ﴿بالغ أمره﴾ على الإضافة. الباقون ﴿بالغ﴾ منوّن ﴿أمره﴾ منصوب. وقد بيّنّا نظائر ذلك فيما مضى. وقيل: إنّه إذا نوّن معناه: أنّه تعالى بالغ مرادَه، وإذا أُضيف فمعناه: أنّ أمره تعالى يبلغ، فيكون إضافة إلى الفاعل.

يقول الله تعالى مخاطباً لنبيّه والمراد به أُمّته: ﴿يا أيّها النبيّ إذا طلّقتم النساء﴾ ومعناه: إذا أردتم طلاق النساء، كما قال: ﴿إذا قمتم إلى الصلاة﴾[٢] وروي عن ابن عبّاس أنّه قال: نزل القرآن بإيّاك أعني واسمعي يا جارة، فيكون الخطاب للنبيّ والمراد به الأُمّة من ذلك. وقال قوم: تقديره يا أيّها النبيّ قل لأُمّتك إذا طلّقتم النساء، فعلى هذا القول[٣] النبيّ يكون خارجاً من الحكم. وقال آخرون: هو على خطاب الرئيس الّذي يدخل فيه الأتباع[٤]. فعلى هذا حكم النبيّ حكم أُمّته في هذا الحكم، وأجمعت الأُمّة على أنّ حكم النبيّ حكم الأُمّة في الطلاق.

والطلاق في الشرع عبارة عن تخلية المرأة بحلّ عقدة من عُقَد النكاح بأن يقول: أنت طالق، يخاطبها أو يقول: هذه طالق، ويشير إليها أو فلانة طالق بنت فلان. وعندنا لا يقع الطلاق إلّا بهذا اللفظ المخصوص، ولا يقع بشيء من الكنايات طلاق أراد بها الطلاق أو لم يرد. وفيه خلاف ذكرناه في الخلاف.

وأمّا الفراق فقد يحصل بغير الطلاق، كالارتداد واللعان والخلع ـ عند

(١) من الحجريّة.

(٢) المائدة: ٦.

(٣) في الخطّية والحجريّة: فعلى قول هذا.

(٤) راجع معاني القرآن وإعرابه ٦: ١٨٣.

كثير من أصحابنا ـ وإن لم يسمّ ذلك طلاقاً. وأمّا فسخ النكاح بالردّ بالعيب فقد يحصل بأشياء لا يسمّى طلاقاً. ومن شرط وقوع الطلاق عندنا أن تكون المرأة طاهراً طهراً لم يُقربْها فيه بجماع بمحضر من شاهدين، ويقصد به إيقاع الطلاق، ويتلفّظ بما قدّمناه، فحينئذ يقع طلاقه تطليقة واحدة وهو أملك برجوعها ما لم تخرج من العدّة. فإن خرجت قبل أن يراجعها كان كواحد من الخطّاب. ومتى تلفّظ بثلاث تطليقات، فإن كانت المرأة طاهراً مع باقي الشروط وقعت واحدة. وخالف جميع الفقهاء في ذلك وقالوا: يقع الثلاث. ثمّ اختلفوا فقال الشافعي ومن وافقه: ويكون ذلك مسنوناً. وقال أهل العراق: المسنون أن يطلّقها طلقة واحدة بلفظ واحد، ومتى أوقع ثنتين أو ثلاثاً وقع. وأمّا غير المدخول بها فعند جميعهم يقع الثلاث، ولا عدّة عليها، وعندنا لا يقع إلّا واحدة، وفي أصحابنا من يقول: من تلفّظ بالثلاث لا يقع شيء، والاعتماد على ما قلناه أوّلا، ومتى طلّقها ثلاثاً أو واحدة، وهي حائض وكان قد دخل بها ولا يكون غائباً عنها شهراً فصاعداً لا يقع عندنا شيء أصلا. وقال جميع الفقهاء: هو بدعة وتبين المرأة بذلك.

وقوله تعالى: ﴿فطلقوهنّ لعدّتهنّ﴾ معناه: أن يطلّقها وهي طاهر من غير جماع ويستوفي باقي الشروط. وقال ابن عبّاس: هو أن يطلّقها طاهراً من غير جماع. وبه قال مجاهد والحسن وابن سيرين وقتادة والضحّاك والسُدّي. فعلى هذا متى طلّقها في الحيض فلا يقع طلاقها لأنّه خلاف المأمور به وهو منهيّ عنه والنهي يدلّ على فساد المنهيّ عنه، وعند الفقهاء أنّه يقع الطلاق وإن كان بدعة.

ثمّ قال: ﴿وأحصوا العدّة﴾ فالعدّة: قعود المرأة عن الزواج حتّى تنقضي المدّة المرتّبة في الشريعة. وعدّة المرأة على ضروب:

أحدها: عدّة الّتي لم تبلغ المحيض ومثلها لا تحيض، وهي الّتي لم تبلغ تسع سنين، فهذه لا عدّة عليها عند أكثر أصحابنا. وفيهم من قال: عدّتها بالشهور، وبه قال باقي الفقهاء. وعدّة الّتي لا تحيض مثلها ثلاثة أشهر بلا خلاف.

وعدّة الّتي تحيض ثلاثة أقراء وهي الأطهار عندنا وعند كثير من الفقهاء، وعند قوم أنّها الحيض.

وعدّة الّتي ارتفع حيضها ومثلها تحيض ثلاثة أشهر بلا خلاف. وقد حدّ ذلك أصحابنا بأن يكون سنّها أقلّ من خمسين سنة.

وعدّة الآيسة من المحيض ومثلها لا تحيض فلا عدّة عليها عند أكثر أصحابنا، وقال قوم: عدّتها بالأشهر[١] وحدّ ذلك أصحابنا بأن يزيد سنّها على خمسين سنة، والقرشية حدّوها بستّين سنة فصاعداً.

وعدّة الحامل وضع ما في بطنها إذا كانت عدّة الطلاق، فإن كانت عدّة الوفاة فأبعد الأجلين من وضع الحمل أو مضيّ أربعة أشهر وعشرة أيّام. وهو مذهب عليّ عليه السلام وابن عبّاس. وقال الفقهاء: عدّة المتوفّى عنها زوجها وضع ما في بطنها

وقوله: ﴿وأحصوا العدّة﴾ يعني: مدّة زمان العدّة.

ثمّ قال: ﴿واتّقوا الله ربّكم﴾ بأن لا ترتكبوا[٢] المعاصي ﴿لا تخرجوهنّ

---

(١) في الخطّية زيادة: وهو مذهب جميع الفقهاء.

(٢) في الخطّية والحجريّة: بارتكاب.

من بيوتهنّ ولا يخرجن﴾[1] يعني: زمان العدّة لأنّه لا يجوز إخراجها من بيتها. وعندنا وعند جميع الفقهاء يجب عليه السكنى والنفقة والكسوة إذا كانت المطلّقة رجعيّة، فإن كانت بائناً فلا نفقة لها ولا سكنى. وقال الشافعي: فلا نفقة لها ولا سكنى إذا كانت بائناً. وقال أهل العراق: لها السكنى والنفقة.

وقوله: ﴿إلّا أن يأتين بفاحشة مبيّنة﴾ من فتح الياء أراد فاحشة أظهرت. ومن خفض الياء أراد بفاحشة ظاهرة. وقال عطاء والضحّاك وقتادة: لا يجوز أن تخرج من بيتها حتّى تنقضي عدّتها إلّا عند الفاحشة. وقال الحسن وعامر والشعبي ومجاهد وابن زيد: الفاحشة ـ هاهنا ـ الزنا تُخرَج لإقامة الحدّ. قال ابن عبّاس: الفاحشة البذاء على أهلها، وهو المرويّ عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام[2]. وقال قتادة: الفاحشة هو النشوز. وقال ابن عمر: هو خروجها قبل انقضاء العدّة. وفي رواية عن ابن عبّاس أنّ كلّ معصية لله ظاهرة فهي فاحشة.

وقوله: ﴿وتلك حدود الله﴾ يعني: ما تقدّم ذكره من كيفيّة الطلاق والعدّة وترك إخراجها عن بيتها إلّا عند فاحشة حدود الله. فالحدود: نهايات تمنع أن يدخل في الشيء ما ليس منه أو يخرج منه ما هو منه. فقد بيّن الله بالأمر والنهي الحدود في الطاعات والمعصية بما ليس لأحد أن يدخل في شيء من ذلك ما ليس منه أو يخرج عنه ما هو منه.

وقوله تعالى: ﴿ومن يتعدّ حدود الله﴾ معناه: من يجاوز حدود الله بأن خرج عن طاعته إلى معصيته، فقد تعدّى حدّاً من حدود الله، وكذلك من

---

(١) في الخطّية زيادة: هنّ.

(٢) لم نجده في الكتب السابقة.

دخل في معصية فقد خرج[١] عن الطاعة. وليس كلّ من دخل في طاعة فقد خرج إليها عن معصية لأنّها قد تكون نافلة. ثمّ بيّن تعالى فقال: ومن يجاوز حدود الله ﴿فقد ظلم نفسه﴾ بأن فعل ما يستحقّ معه العقاب ويحرم معه الثواب.

وقوله: ﴿لا تدري لعلّ الله يحدث بعد ذلك أمراً﴾ قال قوم: معناه: لا تدري لعلّ الله يغيّر رأي الزوج في محبّة الطلاق، فتكون مطلّقة على ما أمر الله به ويملك الرجعة فيما بين الواحدة والثانية وما بين الثانية والثالثة[٢]. وقال الضحّاك والسُدّي وابن زيد ﴿لعلّ الله يحدث بعد ذلك أمراً﴾ يعني: الرجعة في العدّة. وقيل معناه: ﴿لعلّ الله يحدث بعد ذلك﴾ شهوة المراجعة[٣].

وقوله: ﴿فإذا بلغن أجلهنّ فامسكوهنّ بمعروف﴾ معناه: فإذا قاربن أجلهنّ الّذي هو الخروج عن عدّتهنّ، لأنّه لا يجوز أن يكون المراد فإذا انقضى أجلهنّ، لأنّه عند انقضاء أجلهنّ لا يملك رجعتها. وقد ملكت نفسها وقد بانت منه بواحدة، ثمّ تتزوّج من شاءت هو أو غيره. وإنّما المعنى إذا قاربن الخروج من عدّتهنّ فأمسكوهنّ بأن تراجعوهنّ بمعروف بما يجب لها من النفقة والكسوة والسكنى وحسن الصحبة ﴿أو فارقوهنّ بمعروف﴾ بأن تتركوهنّ حتّى يخرجن من العدّة.

وقوله: ﴿وأشهدوا ذوي عدل منكم﴾ فعند أصحابنا أنّ الإشهاد شرط في وقوع الطلاق، لأنّ ظاهر الأمر بذلك يقتضيه. والأمر عندنا على الوجوب. وقال قوم: إنّ ذلك راجع إلى الرجعة، وتقديره وأشهدوا على الإمساك إن

---

(١) في الخطّية زيادة: إليها.
(٢) تفسير الطبري ١٢: ١٢٨.
(٣) راجع تفسير السمرقندي ٣: ٤٦٠.

أمسكتم ذوي عدل منكم وهو الرجعة، في قول ابن عبّاس[١]. وقال الشافعي: الإشهاد على الرجعة أولى. ويجوز عند أكثرهم بغير إشهاد، وإنّما ذكر الله الإشهاد كما ذكر في قوله: ﴿وأشهدوا إذا تبايعتم﴾[٢] وهو على الندب، وهذا ترك الظاهر. ومتى حملنا الإشهاد على الفراق ـ وهو الطلاق ـ حملناه على ظاهره من الوجوب وجعلناه شرطاً في وقوع الطلاق. ثمّ قال: ﴿وأقيموا الشهادة لله﴾ إذا طولبتم بإقامتها ﴿ذلكم﴾ معاشر المكلّفين ﴿يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ فالوعظ معنى يدعو إلى الحقّ بالترغيب والترهيب. وإنّما أضاف الوعظ إلى من يؤمن بالله واليوم الآخر دون غيره، لأنّه الّذي ينتفع به دون الكافر الجاحد لذلك. فالطاعة الواجبة فيها وعظ بالترغيب فيها باستحقاق الثواب وفي تركها بالعقاب. والمندوبة[٣] فيها وعظ باستحقاق المدح والثواب على فعلها. والمعاصي فيها وعظ بالزجر عنها والتخويف من فعلها باستحقاق العقاب والذمّ على فعلها والترغيب في تركها بما يستحقّ على الإخلال به من الثواب.

ثمّ قال: ﴿ومن يتّق الله﴾ يعني: باجتناب معاصيه ﴿يجعل له مخرجاً﴾ من عقابه ﴿ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ أي من حيث لا يتوقّعه ولا يظنّه ﴿ومن يتوكّل على الله﴾ أي من أسند أمره إلى الله ووثق بحكمه وسكن إلى رحمته ﴿فهو حسبه﴾ أي كافيه جميع ذلك ﴿إنّ الله بالغ أمره﴾ أي يبلغ ما يريده ويشاؤه من أمره وتدبيره ﴿قد جعل الله لكلّ شيء قدراً﴾ أي قدّر الله لكلّ شيء مقداراً وأجلاً، لا زيادة فيه ولا نقصان.

---

(١) تفسير الطبري ١٢: ١٢٨. (٢) البقرة: ٢٨٢. (٣) في الخطّية والحجريّة: الندب.

ثمّ بيّن كيفيّة العِدد باختلاف أحوال النساء، فقال: ﴿واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدّتهنّ ثلاثة أشهر﴾ يعني: أنّ اليائسة من المحيض إذا كانت ترتاب بنفسها ولا تدري ارتفع حيضها لكبر أو لعارض ﴿فعدّتها ثلاثة أشهر﴾ وهي الّتي قلنا [أوّلاً][1] أنّ مثلها تحيض، لأنّها لو كانت في سنّ من لا تحيض لم يكن لريبتها معنى. وقال الزهري وعِكْرِمة وقتادة ﴿إن ارتبتم﴾ فلم تدروا للكبر أو لدم الاستحاضة، فالعدّة ثلاثة أشهر. وقال قوم: إن ارتبتم فلم تدروا الحكم في ذلك فعدّتهنّ ثلاثة أشهر[2].

وقوله: ﴿واللائي لم يحضن﴾ تقديره واللائي لم يحضن إن ارتبتم فعدّتهنّ ثلاثة أشهر، وحذف لدلالة الكلام الأوّل عليه، والكلام فيها كالكلام في اليائسة. وقال قتادة: اللائي يئسن الكبار، واللائي لم يحضن الصغار.

ثمّ قال: ﴿وأُوَلات الأحمال أجلهنّ أن يضعن حملهنّ﴾ بيّن أنّ عدّة الحامل من الطلاق وضع الحمل الّذي معها، فإن وضعت عقيب الطلاق فقد ملكت نفسها، ويجوز لها أن تعقد لغيره على نفسها، غير أنّه لا يجوز له وطؤها، لأنّ نفاسها كالحيض سواء، وإذا طهرت من نفاسها حلّ له ذلك. فإن كانت حاملاً باثنين ووضعت واحداً لم تحلّ للأزواج حتّى تضع جميع الحمل، لقوله تعالى: ﴿أن يضعن حملهنّ﴾ فأمّا انقطاع الرجعة فقد روى أصحابنا أنّها إذا وضعت واحداً انقطعت عصمتها من الأوّل، ولا يجوز لها العقد بغيره حتّى تضع الآخر[3]. فأمّا إذا توفّي عنها زوجها، فعدّتها ـ عندنا ـ أبعد الأجلين إن وضعت قبل الأربعة أشهر وعشر استوفت أربعة اشهر وعشرة

(١) لم يرد في الخطّية. (٢) النكت والعيون ٦: ٣٢. (٣) الكافي ٦: ٨٢/١٠.

أيّام، وإن مضت بها أربعة أشهر وعشر ولم تضع انتظرت وضع الحمل. وقال ابن عبّاس: الآية في المطلّقة خاصّة، كما قلناه. وقال ابن مسعود وأُبيّ بن كعب وقتادة والسدّي وأكثر الفقهاء: إنّ حكم المطلّقة والمتوفّى عنها زوجها واحد في أنّها متى وضعت حلّت للأزواج. والّذي اخترناه هو مذهب عليّ عليه السلام.

ثمّ قال: ﴿ومن يتّق الله﴾ باجتناب معاصيه ﴿يجعل له من أمره يسراً﴾ يعني: سهولة في أُموره ولا يعسر عليه أمره.

وقوله: ﴿ذلك أمر الله أنزله إليكم﴾ يعني: حكم الطلاق والرجعة والعدّة فيما أنزله الله وحكم به وأمركم بالعمل به.

ثمّ قال: ﴿ومن يتّق الله﴾ باجتناب معاصيه وفعل طاعاته ﴿يكفّر عنه سيّئاته﴾ الّتي هي دونها ويتفضّل عليه بإسقاط عقابها ﴿ويعظم له أجراً﴾ على ذلك يعني ثوابه ونعيمه في الجنّة.

قوله تعالى:

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُوْلَـٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَاهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَاهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَـٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَـٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَـٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُواْ ٱللَّهَ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾﴾.

خمس آيات في الكوفي والبصري والمدني الأخير، وستّ آيات في المدني الأوّل. عدّوا ﴿يا أُولى الألباب﴾ رأس آية.

[أقول:][(١)] قرأ ﴿من وجدكم﴾ بكسر الواو، روح. الباقون بضمّها، و هما لغتان. وحكى الفرّاء فتح الواو لغة ولم يحك الكسر[(٢)]. وحكى الزجّاج: الكسرة ولم يحك بالفتحة[(٣)]. وقرأ ابن كثير ﴿وكأين﴾ خفيفة على وزن «كاهن» الباقون ﴿كأيّن﴾ مشدّدة الياء، والأصل «أي» إلّا أنّه حذف للتضعيف، كما يحذف من رب، وقدّمت الياء وأخّرت الهمزة نحو شاك وشائك، ثمّ قلبت الياء ألفاً، لأنّها في موضع حركة وقبلها فتحة نحو: رمى. وإنّما احتمل هذا التغيير للعدول به عن معنى الاستفهام إلى معنى «كم» في التكثير على وجه الإبهام[(٤)]. وقال قوم: في ﴿كأين﴾ لغتان ﴿كأين﴾ مشدّدة الياء و ﴿كاين﴾ على وزن «قائل» وقد قرأ بهما[(٥)]. وحكي أنّ أهل الحجاز يقولون: بكاين تبيع هذا الثوب، أي بِكَم تبيعه.

يقول الله تعالى مخاطباً لمن طلّق زوجته يأمره أن يسكنها حيث يسكنه، وقدبيّنّا أنّالسكنى والنفقة يجب للرجعيّة بلاخلاف. فأمّا المبتوتة فلا سكنى لها ولا نفقة عندنا، وهذا مذهب الحسن. وقد روت فاطمة بنت قيس عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: لا نفقة للمبتوتة[(٦)]. وقال الشافعي ومالك: لها السكنى والنفقة، وهو قول معاوية وابن مسعود وعمر بن الخطّاب.

وقوله: ﴿من وجدكم﴾ قال السُدّي: معناه من ملككم. وقال ابن زيد: هو إذا قال صاحب المسكن: لا أترك هذه في بيتي، فليس من وجده.

(١) من الحجريّة.
(٢) معاني القرآن ٣: ١٦٣.
(٣) معاني القرآن وإعرابه ٥: ١٨٦.
(٤) راجع الحجّة للقرّاء السبعة ٤: ٤٨.
(٥) راجع تفسير السمرقندي ٣: ٤٦٣.
(٦) راجع تفسير الطبري ١٢: ١٣٩.

ويجوز له حينئذ أن ينقلها إلى غيره. والوجد ملك ما يجده المالك، وذلك أنّه قد يملك المالك ما يغيب عنه، وقد يملك ما هو حاضر له، فذلك وجده، يقال: وجدت في المال وجداً وجِدَة، ووجدت الضالّة وجداناً، ووجدت الرجل صالحاً وَجُوداً.

وقوله: ﴿ولا تضارّوهنّ لتضيّقوا عليهنّ﴾ معناه: لا تدخلوا الضرر عليهنّ بالتقصير في النفقة والسكنى والكسوة وحسن العشرة لتضيّقوا عليهنّ في السكنى والنفقة، وأمر بالسعة. و«المضارّة» المعاملة بما يطلب به إيقاع الضرر بصاحبه. وقد تكون المضارّة من واحد كما يقال: طارقت النعل، وعافاه الله، ويمكن أن يكون من كلّ واحد منهما لصاحبه. والتضيّق تقليل ما يحتاج إلى التصرّف فيه من مقدار الكفاية. وقد يكون التضييق في الرزق وفي المكان وفي الأمر. و﴿إن كنّ﴾ يعني: النساء المطلّقات ﴿أُولات حمل فأنفقوا عليهنّ حتّى يضعن حملهنّ﴾ أمر من الله تعالى بالإنفاق على الحامل المطلّقة سواء كانت رجعيّة أو مبتوتة، ولا خلاف في ذلك، وإنّما يجب أن ينفق عليها بسبب ما في بطنها، وإنّما تسقط نفقتها بالوضع. والحمل ـ بفتح الحاء ـ يكون على الظهر وفي البطن، ويقال للعِدل الحمل بكسر الحاء.

وقوله: ﴿فإن أرضعن لكم فآتوهن أجُورهنّ﴾ أمر من الله تعالى بأنّ الأمّ المطلّقة متى ولدت ورغبت في رضاع ولدها، كان على الأب أجرة الرضاع أُجرة المثل، فإن رضيت الأجنبيّة بشيء معلوم لأُجرة الرضاع ورضيت بمثله الأمّ كانت الأمّ أولى، وإن لم ترض الأمّ بذلك القدر كان للأب تسليمها إلى الأجنبيّة. وإن كان الولد لا يقبل إلّا لبن الأمّ أُجبرت

عليه، وإلّا أدّى الى هلاك الولد. والرضاع سقي المرأة من لبنها للولد. ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وآله: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب»[1] يعني: أنّ المرضعة تصير بمنزلة الأُمّ، وأُمّها بمنزلة الجدّة، وأُختها خالة، وبنتها أُختاً وابنها أخاً، وهكذا سائر المحرّمات.

وقوله: ﴿واتمروا بينكم بمعروف﴾ فالائتمار أمر كلّ واحد لصاحبه بفعل من الأفعال كالائتمار بالمعروف الّذي يصطلحان عليه.

وقوله: ﴿وإن تعاسرتم فسترضع له أُخرى﴾ خطاب للرجل ولزوجته المطلّقة أنّهما متى اختلفا في رضاع الصبيّ وأُجرته أرضعته امرأة أُخرى. فالتعاسر: التمانع بما يتعذّر من الأمر كالتمانع بما يتعسّر به رضاع الأُمّ، فمتى كان كذلك فالحكم فيه أن ترضعه إمرأة أُخرى.

ثمّ أمر تعالى فقال: ﴿لينفق ذو سعة من سعته... ﴾ ومعناه أنّ كلّ إنسان يجب عليه النفقة بحسب حاله فالغنيّ ينبغي أن يوسّع في النفقة والفقير بحسب حاله.

وقوله: ﴿ومن قدر عليه رزقه﴾ معناه: من ضيق عليه، لأنّه أتى على مقدار البلغة الّتي تضيق عن غيره، فمن هذه صورته ﴿فلينفق ممّا آتاه الله﴾ على حسب إمكانه وطاقته ﴿لا يكلّف الله نفساً إلّا ما آتاها﴾ يعني: إلّا بقدر ما أعطاها من الطاقة. وفي ذلك دلالة على أنّه تعالى لا يكلّف أحداً مالا يقدر عليه ولا يطيقه.

ثمّ قال: ﴿سيجعل الله بعد عسر يسراً﴾ أي سيفعل الله بعد شدّة سهولة، فاليسر إتيان الأمر من غير مشقّة وهو سهولة الأمر، وضدّه العسر وهو

---

(١) الكافي ٥: ٤٤٢.

صعوبة الأمر.

وقوله: ﴿وكأيّن من قرية﴾ معناه: و كم من قرية علـى التكـثير، لأنّـه يخبر بـ«كم» عن الكثرة ﴿عتت عن امر ربّها﴾ والعتوّ الخروج إلى فاحش الفساد. والمعنى كم من أهل القرية كفروا بالله وتجبّروا عن طاعته وخرجوا بذلك إلى أفحش الفساد ﴿ورسله﴾ معناه: عتوا عن أمر الله وأمر رسـوله ﴿فحاسبناها حساباً شديداً﴾ فالحساب على الأعمال مقابلة ما يستحقّ على الطاعة بما يستحقّ على المعصية، والحساب الشديد مقابلة ذلك من غير تجاوز عن صغيرة ولا عـفو عـن ذنب، وذلك أنّ الكـافر يـعاقب عـلى [كلّ](١) صغيرة وكبيرة من حيث إنّه لا طاعة معه تكفّر معاصيه. وقوله: ﴿وعذبناها عذاباً نكراً﴾ معناه: عذّبنا أهل تلك القرية العاتية عذابـاً نُكـراً، وهو الّذي ينكره الطبع وتأباه النفوس لصعوبته وشدّته. والأمر النُكر: الّذي ينكره العقل.

وقوله: ﴿فذاقت وبال أمرها﴾ فالوبال: عاقبة السوء، أسـند الفـعل إلى القرية، فـلذلك أنّث قـوله: ﴿فذاقت﴾ ولو قـال: «عـتوا عـن أمـر ربّـهم وعذّبناهم فذاقوا» على المعنى كان جائزاً. و«الوبال» ثقل العائد من الضرّ. وقيل: إنّ معنى نكر أنّه متجاوز في الشدّة لكلّ ما عرفوه في الدنيا مـن العقوبة ﴿وكان عاقبة أمرها خسراً﴾ أي وكان آخر أمر تلك القـرية العـاتية خسراً أي هلاك أنفسهم، وأصله هلاك رأس المال.

ثمّ بيّن مالهم في الآخرة، فقال: ﴿أعدّ الله لهم عذاباً شديداً﴾ من عذاب النار يعاقبهم به على طريق التأبيد موجعاً شديد الألم ﴿فاتّقوا الله﴾ معاشر

---

(١) لم يرد في الخطيّة والحجريّة.

العقلاء الّذين هم أُولوا الألبـاب ﴿الّذين آمنوا﴾ يـعني: المـؤمنين مـنهم، وخصّهم بالذكر والخطاب، لأنّهم المـنتفعون بـذلك دون الكـفّار. وقـوله تعالى: ﴿قد أنزل الله إليكم ذكراً﴾ قال قوم: أراد بالذكر القرآن لأنّـه سـمّاه ذكراً في قوله: ﴿إنّا نحن نزّلنا الذكر﴾ [١] ذهب إليه السُدّي وابن زيد [٢] فعلى هذا تقديره أنزل الله إليكم ذكراً وأرسل إليكم رسولاً، وسمّاه ذكراً لأنّـه يتذكّر به ما يجب العمل به والانتهاء عنه. وقيل: إنّ معنى الذكر الشـرف كأنّه قال: أنزل الله إليكم شرفاً. وقيل: المراد بـالذكر الرسـول [٣] لقـوله: ﴿فاسألوا أهل الذكر﴾ [٤] ذهب إليه الحسن، فعلى هذا يكون ﴿رسولاً﴾ بدلاً منه، وتقديره أنزل الله إليكم ذكراً هو رسوله. قال الزجّاج: تقديره فأنزل الله إليك أنّ ذكراً رسولاً هو جبرائيل عليه السلام [٥].

قوله تعالى:

﴿رَّسُولاً يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾ آيتان.

[أقول:] [٦] قرئ ﴿ندخله﴾ مدني وشامي [٧] على وجه الإخبار من الله تعالى عن نفسه. الباقون بالياء بمعنى يدخل الله. والياء أشبه بما قبله.

قيل في انتصاب قوله: ﴿رسولاً﴾ وجهان:

---

(١) الحجر: ٩.
(٢) تفسير الطبري ١٢: ١٤٤.
(٣) الكشف والبيان ٩: ٣٤٢.
(٤) النحل: ٤٣، الأنبياء: ٧.
(٥) معاني القرآن وإعرابه ٥: ١٨٨.
(٦) من الحجريّة.
(٧) في الخطّية: ندخل بالنون مدني شامي.

أحدهما: أن يكون بدلاً من ذكر، وهو بدل الاشتمال، ويكون الذكر القرآن، كأنّه قال رسولاً ذكراً.

الثاني: أن يكون الذكر بمعنى الشرف، فيكون الذكر هو الرسول، كما قال: ﴿وإنّه لذكر لك ولقومك﴾[١].

وفيه وجه ثالث، وهو أنّه لمّا قال: أنزل ذكراً، دلّ على أنّه جعل رسولاً، وكأنّه قيل: وبعث رسولاً[٢] كما قال الشاعر:

بادت وغيّر آيهنّ مع البِلى ... إلّا رواكَد جمرهنّ هباء

ومشجَّج أمّا سَواء قَذالِه ... فبدا وغيّر ساره المعزاء[٣]

لأنّه لمّا قال: إلّا رواكد، دلّ على أنّ بها رواكد فحمل مشجّج على المعنى. وقال الزجّاج: يحتمل أن يكون نصباً بذكر، كأنّه قال ذكر رسول، بمعنى أنّ ذكراً رسولاً، يكون ذكر مصدر. والّذي أنزل جبريل لقوله: ﴿نزل به الروح الأمين﴾[٤]

وقوله: ﴿يتلو عليكم﴾ أي يقرأ عليكم آيات الله يعني: دلائله وحججه، مبيّنات أي واضحات في من يفتح الياء، ومن كسرها أراد أنّها يتبيّن الآيات. والتلاوة من قولهم: جاء فلان ثمّ تلاه فلان، أي جاء بعده، ومنه قوله تعالى: ﴿ويتلوه شاهد منه﴾[٥] أي يأتي بعده، فالتلاوة: جعل كلمة بعد كلمة على ما وضعت عليه من المرتبة في اللغة. والقراءة جمع كلمة إلى كلمة بما يسمع من الحروف المفصّلة[٦] وهو قولهم: قرأت النجوم إذا اجتمعت وظهرت، ويقولون: ما قرأت الناقة سلاقط أي ما جمعت رحمها

---

(١) الزخرف: ٤٤.
(٢) راجع النكت والعيون ٦: ٣٦.
(٣) قد مرّ في ٣: ٢٠٣.
(٤) الشعراء: ١٩٣، معاني القرآن وإعرابه ٥: ١٨٨.
(٥) هود: ١٧.
(٦) في الخطّية: المتّصلة.

على ولد. والبيان هو الأدلّة. وقيل: هو ما أبان المعنى للنفس بما يفصل من غيره، وهو من قولهم: أبان العضو من غيره إذا قطعه منه.

وقوله: ﴿ليخرج الّذين آمنوا الناس من الظلمات﴾ يعني: ظلمات الكفر إلى نور الايمان، وذلك يدلّ على فساد قول المجبّرة: إنّ الله تعالى بعث الأنبياء ليكفربهم قوم ويؤمن[1] آخرون. وإنّما خصّ «الّذين آمنوا وعملوا الصالحات»بالإخراج، لأنّهمالّذين خرجوا بدعائهم منالكفر إلى الايمان. والنور ـ هاهنا ـ نور الحقّ الّذي يهدي إلى الرشد والجنّة، كما يهدي نور الشمس إلى المواضع المقصودة. والظلمة ـ هاهنا ـ الباطل الّذي يقود إلى الغيّ، كما يقود الظلام مَن مَرّ فيه من غير دليل إلى الهلاك.

ثمّ قال: ﴿ومن يؤمن بالله﴾ أي من يصدّق بوحدانيّته وإخلاص العبادة له ﴿ويعمل صالحاً﴾ أي يعمل[2] الأعمال الصالحات ﴿يدخله جنّات تجري من تحتها الأنهار﴾ جزاء على ذلك وثواباً عليه ﴿خالدين فيها﴾ نصب على الحال ﴿أبداً﴾ أي مؤبّدين لا آخر لنعيمهم ﴿قد أحسن الله لهم رزقاً﴾ أي أجزل[3] الله لهم ما ينتفعون به ولا يمنعون منه. فالرزق: النفع الجاري في الحكم، فلمّا كان النفع للمؤمنين في الجنّة جارياً في حكم الله كان رزقاً لهم منه.

وقوله: ﴿الله الّذي خلق سبع سموات﴾ إخبار من الله تعالى أنّه الّذي أنشأ سبع سموات ﴿ومن الأرض مثلهنّ﴾ أي وخلق من الأرض مثلهنّ في العدد لا في الكيفيّة، لأنّ كيفيّة السماء مخالفة لكيفيّة الأرض. والمثل ما سدّ

(١ و٢) في الموضعين في الخطّية والحجريّة: بها.
(٣) في الخطّية والحجريّة زيادة: مع ذلك.
(٤) في الخطّية: أحسن.

مسدّ غيره فيما يرجع إلى ذاته.

وقوله: ﴿يتنزّل الأمر بينهنّ﴾ معناه: يتنزّل الأمر بالتدبير من الله بين السماوات وبين الأرضين، بحياة بعض وموت بعض، وغنى إنسان وفقر غيره، وسلامة حيّ وهلاك آخر. وتصريف الأُمور على الحكمة لا يكون إلّا من قادر عالم، وهو معنى قوله: ﴿لتعلموا أنّ الله على كلّ شيء قدير﴾ فالقادر: هو من كان له مقدور يصحّ منه إيقاعه على بعض الوجوه، كما أنّ السامع: هو من له مسموع موجود، والقدير: عبارة عمّن يجب أن يكون قادراً على ما يصحّ أن يكون مقدوراً له كـ﴿سميع﴾ يفيد أنّه على صفة يجب أن يسمع لأجلها ما يصحّ أن يكون مسموعاً.

وقوله: ﴿وإنّ الله قد أحاط بكلّ شيء علماً﴾ معناه: أنّ معلوماته متميّزة له بمنزلة ما قد أحاط به فلم يفته منه شيء، ومثله ﴿ولا يحيطون به علماً﴾ [(١)] أي أنّه ليس بمنزلة ما يحضره العلم بمكانه، فيكون كأنّه قد أحاط به. وقوله: ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلّا بما شاء﴾ [(٢)] معناه: ولا يحيطون بشيء من معلومه إلّا بما شاء أن يضطرّهم إليه أو يدلّهم عليه، فهو تذكير بالنعمة أي لا ينالون هذه المنزلة إلّا بمشيئة، ولولا ذلك لا يعلمون شيئاً من معلوماته إلّا بما شاء، لكن لمّا دخل التذكير بالنعمة حسن على هذه الجهة. وليس في القرآن آية تدلّ على أنّ الأرضين سبع، غير هذه، ذكره الجبّائي. وقوله: ﴿لتعلموا أنّ الله على كلّ شيء قدير﴾ دليل على بطلان مذهب المجبّرة في أنّ الله أراد من قوم أن يجهلوا كونه على هذه الصفة، لأنّه تعالى بيّن أنّه ذكر ما تقدّم وصفه ليعلم المكلّفون أجمعون ﴿أنّ الله

---

(١) طه: ١١.

(٢) البقرة: ٢٥٥.

على كلّ شيء قدير وأنّه﴾ تعالى قادر ﴿قد أحاط بكلّ شيء علماً﴾ وعلى مذهب المجبرة أنّ الله تعالى أراد من جماعة الكفّار خلاف ذلك وأراد منهم أن يجهلوه ويجهلوا صفاته، وذلك خلاف الظاهر. وقوله: ﴿علماً﴾ نصب على المصدر، ودلّ عليه قوله تعالى: ﴿أحاط بكلّ شيء علماً﴾ كأنّه قال: علم كلّ شيء علماً.

سورة التحريم

مدنيّة في قول ابن عبّاس والضحّاك وغيرهما، وهي اثنتا عشرة آيـة بلا خلاف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَـٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ (٣) إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَـٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَـٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ (٤) عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَـٰتٍ مُّؤْمِنَـٰتٍ قَـٰنِتَـٰتٍ تَـٰٓئِبَـٰتٍ عَـٰبِدَٰتٍ سَـٰٓئِحَـٰتٍ ثَيِّبَـٰتٍ وَأَبْكَارًا (٥) ﴾ خمس آيات.

[أقول:][1] [قرأ أهل الكوفة] ﴿تظاهرا﴾ خفيفة[2]. الباقون بـالتشديد،

---

(١) من الحجريّة.

(٢) في الخطّية والحجريّة: ﴿تظاهرا﴾ خفيفة كوفي.

يعني: تتظاهرا فأُدغم. ومن خفّف حذف إحداهما. وقرأ الكسائي وحده ﴿عرف بعضه﴾ خفيفاً وهي قراءة الحسن وأبي عبد الرحمن، وكان أبو عبد الرحمن إذا قرأ إنسان بالتشديد خطّأه[١]. وقرأ ابن كثير ﴿جبريل﴾ بفتح الجيم وكسر الراء من غير همزة. وقرأ بكسر الجيم والراء من غير همز نافع وأبو عمرو وابن عامر وحفص عن عاصم. وقرأ بفتح الجيم والراء وكسر الهمزة مقصورة على وزن «جَحْمَرِش» أبو بكر عن عاصم. وقرأ بفتح الجيم والراء مهموزة بين الراء والياء على وزن «خزعيل»[٢] حمزة والكسائي. وقد بيّنّا الوجه في ذلك في سورة البقرة. قال أبو عليّ: جبريل بكسر الجيم بلا همزة على وزن «قِنْديل» وبفتح الجيم والراء والهمزة مع المدّ على وزن «عَنْدَليب» وبفتح الجيم والراء وكسر الهمزة على وزن «جَحْمَرِش» وليس في العربيّة على وزن «قَنديل» بفتح القاف غير أنّه جاء خارجاً على أوزان العربيّة[٣].

هذا خطاب من الله تعالى للنبيّ ﷺ وعتاب له على تحريم ما أباحه الله له وأحلّه له، ولا يدلّ على أنّه وقعت منه معصية، لأنّ العتاب قد يكون على أمر قد يكون الأولى خلافه، كما يكون على ترك الواجب.

وقيل في سبب نزول قوله: ﴿يا أيّها النبيّ﴾ قولان:

أحدهما: قال زيد بن أسلم ومسروق وقتادة والشعبي وابن زيد والضحّاك: إنّ النبيّ ﷺ حرّم على نفسه مارية القبطيّة بيمين أنّه لا يَقْرَبُها طلباً لمرضاة حفصة زوجته، لأنّها غارت عليه من أجلها. وقال الحسن: حرّم رسول الله أمّ ولده إبراهيم ـ وهي مارية القبطيّة ـ على نفسه فأسرّ

---

(١) في الخطّية والحجريّة: حصبه. (٢) في الحجريّة: خزعبيل. (٣) الحجّة للقرّاء السبعة ٤: ٥١.

بذلك إلى زوجته حفصة فأفضت به إلى عائشة، وكانت حفصة بنت عمر قد زارت عائشة فحلّا بيتها، فوجّه رسول الله إلى مارية القبطيّة وكانت معه وجاءت حفصة فأسرّ إليها التحريم.

والقول الثاني: ما رواه عبد الله بن شداد بن الهلال: إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان يشرب عند زينب شراب عسل كانت تصلحه له، فكان يطول مكثه عندها فكره ذلك عائشة وحفصة، فقالتا له: إنّا نشمّ منك ريح المغافير[١] وهي بقلة متغيّرة الرائحة، في قول المفسّرين. وقال الزجّاج: هي بقلة منتنة[٢] فحرّم النبيّ صلى الله عليه وآله شراب العسل الّذي كان يشربه عند زوجته زينب بنت جحش. وقيل: ذكرت ذلك له حفصة، فحرّمه النبيّ صلى الله عليه وآله على نفسه. ومن قال: إنّها نزلت بسبب مارية، قال: إنّه قال: هي عليّ حرام، فجعل الله فيه كفّارة يمين، ذكره ابن عبّاس والحسن. ومن قال: إنّ التحريم كان في شراب كان يعجبه، قال: إنّه حلف على أنّه لا يشربه فعاتبه الله على تحريم ما أحلّ الله له.

و«التحريم» تبيين أنّ الشيء حرام لا يجوز، ونقيضه الحلال. و«الحرام» هو القبيح الممنوع بالنهي عنه، و«الحلال» الحسن المطلق بالإذن فيه. وعندنا أنّه لا يلزم بقوله: «أنت عليّ حرام» شيء، ووجوده كعدمه، وهو مذهب مسروق. وفيه خلاف بين الفقهاء ذكرناه في الخلاف[٣]. وإنّما أوجب الله الكفّارة، لأنّه صلى الله عليه وآله كان حلف ألّا يقرب جاريته أو لا يشرب الشراب المذكور، فعاتبه الله على ذلك وأوجب عليه أن يكفّر

---

(١) راجع الكشف والبيان ٩: ٣٤٤.

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٥: ١٩١.

(٣) الخلاف ٤: ٥٣٣، المسألة ١٦.

عن يمينه ويعود إلى استباحة ما كان يفعله. وبيّن أنّ التحريم لا يحصل إلّا بأمر الله ونهيه، وليس يصير الشيء حراماً بتحريم محرّم، ولا باليمين على تركه، فلذلك قال: ﴿لِم تحرّم ما أحل الله لك﴾.

وقوله: ﴿تبتغي مرضات أزواجك﴾ معناه: أنّك تطلب رضاء أزواجك في تحريم ما أحلّه الله لك. فالابتغاء: الطلب، ومنه البغي طلب الاستعلاء بغير حقّ. و«البُغية» معتمد الطلب. و«البغيّ» الفاجرة لطلبها الفاحشة.

وقوله: ﴿والله غفور رحيم﴾ معناه: ارجع إلى الأولى والأليق، فإنّ الله يرجع للتائب إلى التولّي، لأنّه غفور رحيم.

وقوله: ﴿قد فرض الله لكم تحلّة أيمانكم﴾ أي قد قدّر الله تعالى ما تحلّون به يمينكم إذا فعلتموه، وذلك يدلّ على أنّه صلى الله عليه وآله كان حلف دون أن يكون قال: هي عليّ حرام، لأنّ ذلك ليس بيمين عند أكثر الفقهاء. وقال الحسن: فرض الله تحلّة اليمين في الكفّارة للمؤمنين. فأمّا النبيّ صلى الله عليه وآله فلاكفّارة عليه، لأنّ الله تعالى غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر. وتحلّة اليمين هو فعل ما يسقط تبعته في اليمين إمّا بكفّارة أو بتناول شيء من المحلوف عليه، فمن حلف ألّا يأكل من هذا الطعام، فمتى أكله حنث، ولزمته كفّارة، وينحلّ اليمين بها. ومن حلف أنّه يأكل من هذا الطعام، وأكل منه شيئاً قليلاً فقد انحلّت يمينه، فلذلك سمّي تحلّة اليمين.

وقوله: ﴿والله مولاكم﴾ معناه: الله ناصركم، وهو أولى بكم منكم بأنفسكم ومن كلّ أحد ﴿وهو العليم﴾ بجميع الأشياء ﴿الحكيم﴾ في جميع أفعاله.

وقوله: ﴿وإذ أسرّ النبيّ﴾ معناه: واذكروا حين أسرّ النبيّ ﴿إلى بعض أزواجه حديثاً﴾ فالإسرار: إلقاه المعنى إلى نفس المحدّث على وجه

الإخفاء عن غيره، يقال: أسرّ إليه كذا وكذا إسراراً. والإسرار نقيض الإعلان. وقيل: إنّه كان أسرّ إلى حفصة ألّا تخبر عائشة بكونه مع مارية في يوم عائشة وقال: إنّه حرّمها على نفسه، فأطلعت عليه عائشة[١]. وقيل: إنّه كان يوم حفصة، فأطلعت عليه عائشة فاستكتمها النبيّ فأخبرت حفصة بذلك فانتشر الخبر فعاتبهم الله على ذلك[٢]. وقال الزجّاج والفرّاء: أسرّ إليها بأنّه سيلي الأمر بعده أبو بكر وعمر وعثمان، فتباشروا بذلك فانتشر الخبر[٣]. وروى أصحابنا أنّه أسرّ إلى عائشة بما يكون بعده من قيام من يقوم بالأمر ورفع عليّ عليه‌السلام عن مقامه فبشّرت بذلك أباها، فعاتبهم الله على ذلك[٤].

وقوله: ﴿فلما نبّأت به وأظهره الله عليه عرّف بعضه وأعرض عن بعض﴾ معناه: لمّا أخبرت الّتي أسرّ إليها بما خبّرها به إلى غيرها وأعلم الله تعالى نبيّه ذلك وأظهره له ﴿عرّف بعضه وأعرض عن بعض﴾ من قرأ بالتخفيف قال الفرّاء: معناه: إنّه عاتب على بعض ذلك وصفح عن الباقي[٥]. وروي أنّه طلّق حفصة تطليقة جزاء على ذلك ثمّ راجعها بأمر الله تعالى. وقيل: معنى قراءة من شدّد أراد أنّه صلى‌الله‌عليه‌وآله أعلمها جميع ذلك وعرّفها إيّاه[٦]. ﴿فلمّا نبّأها به﴾ يعني: لمّا أخبر النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله زوجته بذلك وعرّفها أنّها أفشت سرّه ﴿قالت﴾ له في الجواب: ﴿من أنبأك هذا﴾ أي من أخبرك بهذا، فقال النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله: ﴿نبّأني﴾ أي أخبرني بذلك وأعلمني ﴿العليم﴾ بجميع

(١) النكت والعيون ٦: ٤٠.
(٢) تفسير الطبري ١٢: ١٤٩.
(٣) معاني القرآن ٣: ١٦٥، معاني القرآن وإعرابه ٦: ١٩٢.
(٤) راجع تفسير القمّي ٢: ٣٧٦.
(٥) معاني القرآن ٣: ١٦٦.
(٦) الكشف والبيان ٩: ٣٤٥ ـ ٣٤٦، تفسير الطبري ١٢: ١٥١ ـ ١٥٢.

المعلومات «الخبير» بسرائر الصدور الّذي لا يخفى عليه شيء من أُمور عباده ظاهراً وباطناً.

ثمّ خاطبهما ـ يعني: عائشة وحفصة ـ وقال قل لهما: ﴿إن تتوبا إلى الله﴾ وترجعا إلى طاعته ﴿فقد صغت قلوبكما﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد: معناه: زاغت قلوبكما إلى الإثم. وقال عمر بن الخطّاب وجميع أهل التأويل: إنّه عنى عائشة وحفصة، وقال بعضهم: معناه: مالت قلوبكما إلى ما كرهه الله من تحريم ما حرّمه[1]. وقوله: ﴿فقد صغت قلوبكما﴾ من صلة «إن تتوبا إلى الله» والجواب محذوف، وتقديره إن تتوبا إلى الله قبلت توبتكما. وقال قوم: ﴿فقد صغت قلوبكما﴾ جواب كقول[2] القائل: إن تتابع المجيء إليّ فلقد جفوتني وقطعتني دهراً، أي يحقّ لك أن تفعل ذلك، فقد صرمت فيما قبل[3]. وإنّما قال: ﴿قلوبكما﴾ مع أنّ لهما قلبين، لأنّ كلّما تثبت الإضافة فيه معنى التثنية فلفظ الجمع أحقّ به، لأنّه أمكن وأخفّ بإعراب الواحد وقلّة الزائد. وذلك في كلّ شيئين من شيئين، ويجوز التثنية لأنّها الأصل، كما قال الراجز:

ظهراهما مثل ظهور الترسين[4]

فجمع المذهبين. وقوله: ﴿وإن تظاهرا عليه﴾ معناه: وإن تعاونا على خلافه ﴿فإن الله هو موليه﴾ يعني: الله الّذي يتولّى حفظه وحياطته ونصرته ﴿وجبريل﴾ أيضاً معين له وناصره ﴿وصالح المؤمنين﴾ قال الضحّاك: يعني: خيار المؤمنين. وقال قتادة: يعني أتقياء المؤمنين. وقال الزجّاج: ﴿صالح

---

(١) الكشف والبيان ٩: ٣٤٥ ـ ٣٤٦، تفسير الطبري ١٢: ١٥١ ـ ١٥٢.

(٢) في الحجريّة: لقول. (٣) معاني القرآن ٣: ١٦٦. (٤) مرّ في ٥: ٣١٦.

المؤمنين﴾ واحد في موضع الجمع[١]. وقال أبو مسلم محمّد بن بحر الإصفهاني: هو صالحو المؤمنين على الجمع، غير أنّه حذفت الواو للإضافة. وهذا غلط، لأنّ النون سقطت للإضافة، فكان يجب أن يثبت الواو في الخطّ، وفي المصاحف بلا واو.

وروت الخاصّة والعامّة أنّ المراد بصالح المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام[٢] وذلك يدلّ على أنّه أفضلهم، لأنّ القائل إذا قال: فلان فارس قومه أو شجاع قبيلته أو صالحهم، فإنّه يفهم من جميع ذلك أنّه أفرسهم وأشجعهم وأصلحهم.

وقوله: ﴿والملائكة بعد ذلك ظهير﴾ معناه: إنّ الملائكة بعد من ذكره معينون له. فالظهير: المعين الّذي هو كالظهر له في القوّة.

وقوله: ﴿عسى ربّه إن طلّقكنّ﴾ معاشر نساء النبيّ ﴿أن يبدله أزواجاً خيراً منكنّ﴾ فمن خفّف الدال، فلأنّه يدلّ على القليل والكثير. ومن شدّد أراد أنّ الله يبدّلهنّ أكثر منهنّ. ومعنى ﴿خيراً منكنّ﴾ أي أفضل منكنّ وأصلح له. ثمّ وصفهنّ تعالى فقال: ﴿مسلمات﴾ وهنّ اللواتي يظهرن الإسلام والشهادتين مستسلمات لما أمر الله به ﴿مؤمنات﴾ أي مصدّقات بتوحيد الله وإخلاص العبادة له مقرّات بنبوّة نبيّه صلى الله عليه وآله. وقيل: معناه: مصدّقات في قولهنّ وفعلهنّ ﴿قانتات﴾ أي خاضعات متذلّلات لله تعالى. وقيل: معنى «قانتات» راجعات إلى الله بفعل ما يجب له[٣] ـ عزّ وجلّ ـ «عابدات» لله بما تعبّدهن به من العبادات متذلّلات له ﴿سائحات﴾ معناه: ماضيات في طاعة الله.

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٥: ١٩٣.

(٢) تفسير القمّي ٣: ٣٧٦، شواهد التنزيل ٢: ٢٥٤ ـ ٢٦٣.

(٣) راجع النكت والعيون ٦: ٤١.

وقال ابن عبّاس وقتادة والضحّاك: معنى سائحات صائمات . وقال زيد ابن أسلم: معنى ﴿سائحات﴾ مهاجرات، وهو اختيار الجبّائي. وقيل للصائم سائح، لأنّه يستمرّ في الإمساك عن الطعام والشراب، كما يستمرّ السائح في الأرض[١] ﴿ثيّبات﴾ وهنّ الراجعات من عند الأزواج بعد افتضاضهنّ مشتقّ من ثاب يثوب إذا رجع ﴿وأبكاراً﴾ جمع بكر، وهي الّتي على أوّل حالها قبل الافتضاض.

قوله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ خمس آيات.

[أقول:][٢] قرأ ﴿نصوحاً﴾ بضمّ النون حمّاد ويحيى، الباقون بفتحها، وهما لغتان . وقال قوم: من فتح النون جعله نعتاً للتوبة وحمله على الكثرة. ومن ضمّه جعله مصدراً[٣].

---

(١) النكت والعيون ٦: ٤٢. (٢) من الحجريّة. (٣) معاني القرآن ٣: ١٦٨.

هذا خطاب من الله تعالى للمؤمنين الّذين صدقوا بتوحيد الله وإخلاص العبادة له وأقرّوا بنبوّة نبيّه ﷺ يأمرهم بأن يقوا أنفسهم أي يمنعونها، ويمنعون أهليهم ناراً، وإنّما يمنعون نفوسهم بأن يعملوا الطاعات، ويمنعون أهليهم بأن يدعوهم إليها ويحثّوهم على فعلها، وذلك يقتضي أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ينبغي أن يكون للأقرب فالأقرب. وقال مجاهد وقتادة: معنى ﴿قوا أنفسكم وأهليكم ناراً﴾ مروهم بطاعة الله وانهوهم عن معصيته.

ثمّ وصف الله تعالى النار الّتي حذّرهم منها فقال: ﴿وَقودها الناس والحجارة﴾ قيل: حطب تلك النار الناس والحجارة كوقود الكبريت وهو أشدّ ما يكون من العذاب[١] ﴿عليها ملائكة غلاظ﴾ في الأخلاق وإن كانوا رقاق الأجسام، لأنّ الظاهر من حال الملك أنّه روحاني، فخروجه عن الروحانيّة كخروجه عن صورة الملائكة ﴿شداد﴾ في القوى ﴿لا يعصون الله ما أمرهم﴾ به. وفي ذلك دلالة على أنّ الملائكة الموكّلين بالنار وبعقاب العصاة معصومون عن فعل القبيح لا يخالفون الله في أمره ويمتثلون كلّ ما يأمرهم به، وعمومه يقتضي أنّهم لا يعصونه في صغيرة ولا كبيرة. وقال الرمّاني: لا يجوز أن يعصي الملك في صغيرة ولا كبيرة لتمسّكه بما يدعو إليه العقل دون الطبع. وكلّ من تمسّك بما يدعو إليه العقل دون الطبع، فإنّه لا يقع منه قبيح. وقد اختارهم الله على ما في المعلوم منهم. وقيل: هم غلاظ شداد يعذّبون على قدر قواهم بأنواع العذاب[٢]. وقال الجُبّائي قوله: ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ يعني في دار الدنيا لأنّ الآخرة

---

(١) تفسير الطبري ١٢: ١٥٧.

(٢) راجع تفسير السمرقندي ٣: ٤٧٠.

ليست دار تكليف، وإنّما هي دار جزاء، وإنّما أمرهم الله بتعذيب أهل النار على وجه الثواب لهم بأن جعل سرورهم ولذّاتهم في تعذيب أهل النـار، كما جعل سرور المؤمنين ولذّاتهم في الجنّة.

ثمّ حكى ما يقال للكفّار يوم القيامة فإنّ الله تعالى يخاطبهم فـيقول: ﴿يا أيّها الّذين كفروا﴾ نعمتي وجحدوا ربوبيّتي وأشركوا في عبادتي مـن لا يستحقّها، وكذّبوا أنبيائي ورسلي ﴿لا تعتذروا اليوم﴾ فإنّ اليوم دار جزاء لا دار توبة واعتذار ﴿إنّما تجزون﴾ [على قدر] ﴿ما كنتم تعملون﴾ في الدنيا على الطاعات بالثواب ولا طاعة معكم، وعلى المعاصي بالعقاب ودخول النار، وأنتم مستحقّون لذلك.

ثمّ عاد إلى خطاب المؤمنين في دار التكـليف فـقال: ﴿يا أيّها الّذين آمنوا توبوا إلى الله﴾ من معاصيه وارجعوا إلى طـاعته ﴿توبة نصوحاً﴾ أي توبة خالصة لوجه الله. فمن قرأ بضمّ النون ـ وهو أبو بكر عن عاصم ـ أراد المصدر، ومن فتح النون جعله صفة للتوبة ونعتاً لها. والتوبة النصوح: هي الّتي يناصح فيها الإنسان نفسه بإخلاص الندم مع العزم على ألّا يعود إلى مثله في القبح. وقوله: ﴿عسى ربّكم أن يكفّر عنكم سيّئآتكم﴾ مـعناه: مـتى تبتم توبة نصوحاً كفّر الله عنكم سيّئآتكم وغفر لكم، فإنّ ﴿عسى﴾ من الله واجـبة ﴿ويدخلكم جنّات تجري من تحتها الأنهار﴾ مـضافاً إلى تكـفير السـيّئآت والعـفو عـنها ﴿يوم لا يخزي الله النبيّ والّذين آمنوا معه﴾ أي يدخلكم جنّات يوم لا يخزي الله النبيّ ولا يخزي المؤمنين، أي لا يذلّهم ولا يعاقبهم بل يعزّهم بإدخال الجنّة.

ثمّ وصف النبيّ صلّى الله عليه وآله والمؤمنين مـعه فـقال: ﴿يسعى نورهم بين أيديهم

وبأيمانهم﴾ قال ابن عبّاس: معناه يسعى نور كتابهم الّذي فيه البشرى ﴿يقولون ربّنا﴾ في موضع الحال، وتقديره: قائلين ﴿ربّنا أتمم لنا نورنا﴾ قال: يقول ذلك المؤمنون حين يطفأ نور المنافقين ويبقون في الظلمة فيسأل المؤمنون حينئذ إتمام نورهم ﴿واغفر لنا﴾ أي استر علينا معاصينا ولا تهلكنا بها ﴿إنّك على كلّ شيء قدير﴾ لا يعجزك شيء.

ثمّ خاطب النبيّ صلى الله عليه وآله فقال: ﴿يا أيّها النبيّ جاهد الكفّار والمنافقين﴾ قيل: معناه جاهد الكفّار بالقتال والحرب، والمنافقين بالقول الّذي يردع عن القبيح لا بالحرب إلّا أنّ فيه بذل المجهود، فلذلك سمّاه جهاداً[١]. وفي قراءة أهل البيت «جاهد الكفّار بالمنافقين» لأنّه صلى الله عليه وآله كان يجاهد الكفّار وفي عسكره جماعة من المنافقين يقاتلون معه. وقوله: ﴿واغلظ عليهم﴾ أي اشدد عليهم. قال الحسن: أكثر من كان يصيب الحدود في ذلك الزمان المنافقون، فأمر الله أن يغلظ عليهم في إقامة الحدود. ثمّ قال: ﴿ومأواهم﴾ يعني: مأوى الكفّار والمنافقين ومستقرّهم ﴿جهنّم وبئس المصير﴾ لما فيها من أنواع العقاب.

وقوله: ﴿ضرب الله مثلاً للّذين كفروا امرأت نوح وامرأت لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين﴾ قال ابن عبّاس: كانت امرأة نوح وامرأة لوط منافقتين ﴿فخانتاهما﴾ قال ابن عبّاس: كانت امرأة نوح كافرة ، تقول للناس: إنّه مجنون، وكانت امرأة لوط تدلّ على أضيافه. فكان ذلك خيانتهما لهما. وما زنت امرأة نبيّ قطّ، لما في ذلك من التنفير عن الرسول وإلحاق الوصمة به. فمن نسب أحداً من زوجات النبيّ إلى الزنا فقد أخطأ

---

(١) راجع تفسير السمرقندي ٣: ٤٧١، تفسير الطبري ١٢: ١٦٠.

خطأ عظيماً، وليس ذلك قولاً لمحصّل. ثمّ قال: ﴿فلم يغنيا عنهما﴾ أي لم يغن نوح ولوط عن المرأتين ﴿من الله شيئاً﴾ أي لم ينجياهما من عقاب الله وعذابه ﴿وقيل﴾ لهما يوم القيامة: ﴿ادخلا النار مع الداخلين﴾ من الكفّار.

وقال الفرّاء: هذا مثل ضربه الله تعالى لعائشة وحفصة، وبيّن أنّه لا يغنيهما ولا ينفعهما مكانهما من رسول الله إن لم تطيعا اللهَ ورسولَه وتمتثلا أمرَهما، كما لم ينفع امرأة نوح وامرأة لوط كونهما تحت نبيّين. وفي ذلك زجر لهما عن المعاصي وأمر لهما أن يكونا كآسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران في طاعتهما لله تعالى وامتثال أمره ونهيه[1].

قوله تعالى:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ آيتان.

[أقول:][2] قرأ أهل البصرة وحفص عن عاصم ونافع في رواية خارجة ﴿وكتبه﴾ على الجمع. الباقون ﴿وكتابه﴾ على واحد، لأنّه اسم جنس يقع على القليل والكثير.

والفائدة في هذه الآية وفي الآية الّتي قبلها: أنّ أحداً لا ينفعه إلّا عمله ولا يؤخذ بجرم غيره، ولا يثاب على طاعة غيره، وإن كان خصّيصاً به وملازماً له. وتبيّن أنّ امرأة نوح وامرأة لوط لم ينفعهما قربهما من نبيّين واختصاصهما والتصاقهما بهما، لما كانتا كافرتين عاصيتين لله تعالى بل

---

(١) معاني القرآن ٣: ١٦٩.

(٢) من الحجريّة.

عاقبهما الله بالنار بكفرهما وسوء أفعالهما.

وبيّن في هذه الآية أنّ كفر فرعون لم يتعدّ إلى زوجته لمّا كانت مؤمنة طائعة لله تعالى خائفة من عقابه، بل نجّاها الله من عقابه وأدخلها الجنّة على إيمانها وطاعتها. فضرب المثل الأوّل للكفّار لما كانت المرأتان كافرتين، وضرب المثل الثاني للمؤمنين لما كانت امرأة فرعون مؤمنة، فقال: ﴿وضرب الله مثلاً للّذين آمنوا امرأة فرعون﴾ واسمها آسية. والمثل قول سائر يشبه فيه حال الثاني بالأوّل. فهذه الآية فيها قول فيه تشبيه لحال المؤمنة الّتي زوجها كافر بحال امرأة فرعون في أنّه لا يضرّها كفره مع قربها منه، كما أنّ امرأة نوح وامرأة لوط لم ينفعهما نبوّتهما وإيمانهما حين كانتا كافرتين.

وقوله: ﴿إذ قالت﴾ أي حين قالت امرأة فرعون داعية لله: ﴿ربّ ابن لي عندك بيتاً في الجنّة ونجّني﴾ أي وخلّصني ﴿من فرعون وعمله﴾ يعني: من مثل سوء عمله[١] ﴿ونجّني من القوم الظالمين﴾ يعني: الّذين ظلموا أنفسهم بالكفر بالله واستحقّوا لذلك العقاب. وإنّما دعت بالخلاص من عمل الكفّار بأن سألت الله تعالى أن يلطف لها في التمسّك بالإيمان، وألّا تغترّ بتمكين الله لفرعون وكفّار قومه وطول سلامته وسوابغ نعمته عليهم والأُنس به لطول مخالطته وصحبته، فربّما افتتنت من هذه الوجوه، فدعت بهذا ليلطف الله لها في ذلك وتبقى على التمسّك بالإيمان.

وقوله: ﴿ومريم ابنت عمران﴾ يحتمل أن يكون عطفاً على قوله: ﴿امرأة فرعون﴾ فلذلك نصبه. والعامل ﴿وضرب﴾ فكأنّه قال: وضرب مثلاً مريم

(١) في الخطّية: وملئه أي أشراف قومه وأصحابه.

ابنة عمران، ويحتمل أن يكون نصباً على تقدير واذكر أيضاً مريم ابنة عمران ﴿الّتي احصنت فرجها﴾ فإحصان الفرج: منعه من دنس المعصية يقال: أحصن يحصن إحصاناً، ومنه الحصن الحصين، لأنّه بناء منيع، والفرس الحصان: الّذي يمنع من ركوبه إلّا مقتدراً على تلك الحال، وامرأة حصان بفتح الحاء لأنّها تمنع من لمس الحرام.

وقوله: ﴿فنفخنا فيه من روحنا﴾ قال قتادة: معناه فنفخنا في جيبها من روحنا. وقال الفرّاء: كلّ شقّ فهو فرج، فأحصنت فرجها منعت جيب درعها من جبرائيل عليه السلام[1]. والظاهر أنّه أراد الفرج الّذي يكنى عنه. وقوله: ﴿فيه﴾ يعني في الفرج، فلذلك ذكر في الأنبياء ﴿فيها﴾[2] لأنّه ردّ إلى الّتي أحصنت فرجها. وقيل: إنّ جبرائيل عليه السلام نفخ في فرجها، فخلق الله ـ عزّ وجلّ ـ فيه المسيح[3] ﴿وصدّقت بكلمات ربّها﴾ يعني بما تكلّم الله به، وأوحاه إلى أنبيائه وملائكته ﴿وكتبه﴾ أي وصدّقت بكتبه الّتي أنزلها على أنبيائه. فمن قرأ ﴿وكُتُبه﴾ جمع لأنّها كتب مختلفة. ومن وحّد ذهب إلى الجنس، وهو يدلّ على القليل والكثير ﴿وكانت من القانتين﴾ وإنّما لم يقل من القانتات لتغليب المذكّر على المؤنّث، فكأنّه قال: من القوم القانتين، فالقانت: المقيم على طاعة الله. وقيل: معناه الداعي لله في كلّ حال. وقال الحسن: رفع الله آسية امرأة فرعون إلى الجنّة، فهي تأكل وتشرب وتنعّم فيها إلى يوم القيامة، فنجّاها الله أكرم النجاة. وروي عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: «حسبك من نساء العالمين أربع: مريم ابنة عمران، وآسية امرأة فرعون،

---

(١) معاني القرآن ٣: ١٦٩.
(٢) الأنبياء: ٩١.
(٣) راجع النكت والعيون ٣: ٤٦٩.

وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمّدﷺ»[١] وروي أنّ فرعون أمر أن تسمر آسية بأربع مسامير ويرفع فوقها حجر الرخام، فإن رجعت عن قولها وإلّا أرسل عليها الحجر فأراها الله منزلها من الجنّة، فاختارت الجنّة فنزع الله روحها، فلمّا ارسل الحجر وقع على جسد ميّت[٢].

---

(١) المعجم الكبير للطبراني ٢٢: ١٠٠٣/٤٠٢، راجع الخصال: ٢٢/٢٣٤ و٢٣.

(٢) راجع النكت والعيون ٦: ٤٧، مجمع الزوائد ٩: ٢١٨، تفسير ابن كثير ٤: ٣٩٤.

سورة الملك

مكّية في قول ابن عبّاس والضحّاك وعطاء وغيرهم، وهي ثلاثون آية في الكوفي والبصري والمدني الأوّل، وإحدى وثلاثون في المدني الأخير وقال الفرّاء: سورة الملك تسمّى المنجية لأنّها تنجي قارءها من عـذاب القبر[1]. وروي إنّ في التوراة مثل «سورة الملك»[2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَجَعَلْنَـٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَـٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾ خمس آيات.

[أقول:][3] قرأ حمزة والكسائي ﴿من تفوّت﴾ بتشديد الواو بـلا ألف.

---

(١) أورد معاني القرآن وإعرابه ٥: ١٩٧. (٢) الكافي ٢: ٦٣٣/٢٦. (٣) من الحجريّة.

الباقون ﴿تفاوت﴾ على وزن تفاعل. ومعناهما واحد. وهو مثل: تصعّر وتصاعر، وتعهّد وتعاهد. و«التفاوت» اختلاف التناقض، وهو تباعد ما بين الشيئين في الصحّة. و«التباين» امتناع كلّ واحد من المعنيين أن يصحّ مع الآخر.

يقول الله تعالى مخبراً عن عظمته وعلوّ شأنه: ﴿تبارك الّذي بيده الملك﴾ فمعنى تبارك بأنّه الثابت الّذي لم يزل ولا يزال. وأصل الصفة من الثبوت من البرك وهو ثبوت الطائر على الماء. ومنه البركة ثبوت الخير بنمائه. وقيل: معناه: تعاظم بالحقّ من لم يزل ولا يزال، وهو راجع إلى معنى الثابت الدائم[1]. وقيل: المعنى تعالى من ثبوت الأشياء به إذ لولاه لبطل ﴿كلّ شيء﴾ لأنّه لا يصحّ شيء سواه إلّا مقدوره أو مقدور مقدوره، الّذي هو القدرة، لأنّ الله تعالى هو الخالق لها. وقيل: إنّ معناه [تبارك لأنّ][2] جميع البركات منه، إلّا أنّ هذا المعنى مضمن في الصفة غير مصرّح به، وإنّما المصرّح به تعالى باستحقاق التعظيم[3].

وقوله: ﴿الّذي بيده الملك﴾ معناه الّذي يجب[4] كونه قادراً وأنّه السلطان العظيم الّذي كلّ ملك [له، ليس من ملك إلّا][5] داخل فيه لأنّ الله تعالى مالك الملوك، وممكّنهم[6] منها. والملك هو اتّساع المقدور لمن له السياسة والتدبير.

وقوله: ﴿وهو على كلّ شيء قدير﴾ معناه: أنّ الّذي بيده الملك والسلطان القادر على كلّ شيء يصحّ أن يكون مقدوراً له، وهو أخصّ من قولنا: وهو

---

(١) راجع تفسير الطبري ١٢: ١٦٤.

(٢) في الخطّية والحجريّة: تعالى من.

(٣) راجع النكت والعيون ٦: ٤٩.

(٤) في الخطّية: تحت.

(٥) في الحجريّة والخطّية: ليس به.

(٦) فيهما: مكّنهم.

بكلّ شيء عليم، لأنّه تعالى يعلم كلّ ما يصحّ أن يكون معلوماً في نفسه، ولا يوصف بكونه قادراً إلّا على ما يصحّ أن يكون مقدوراً له، لأنّ مقدور القدرة(١) لا يصحّ أن يكون مقدوراً له، وكذلك ما تقضّى وقته ممّا لا يبقى لا يصحّ أن يكون مقدوراً في نفسه.

ثمّ وصف تعالى نفسه فقال: ﴿الّذي خلق الموت والحياة﴾ أي خلق الموت للتعبّد بالصبر عليه، والحياة للتعبّد بالشكر عليها. وقيل: وجه خلق الموت والحياة للابتلاء هو ما فيها من الاعتبار المؤدّي إلى تثبيت قادر على الأضداد مع التحذير في كلّ حال من مجيء الموت الّذي ينقطع به استدراك ما فات، ومع التسوية بين الغنيّ والفقير والملك والسوقة في الموت بما يقتضي قاهراً للجميع قد عمّهم بحسن التدبير، فقد أذلّ الله ابن آدم بالموت ليكون أبعد من الطغيان في حال التمكين من العصيان(٢).

[وفي كون الموت معنى خلاف بين الشيخين: أُبيّ، وأبي هاشم.](٣)

وقوله: ﴿ليبلوكم﴾ معناه: ليعاملكم معاملة المختبر بالأمر والنهي فيجازي كلّ عامل على قدر عمله، الابتلاء: الاختبار. وقال الفرّاء والزجّاج: في الكلام إضمار وتقديره ليبلوكم فيعلم أيّكم، لأنّ حروف الاستفهام لا تشغل إلّا بفعل يتعلّق بالجملة على تقدير المفرد كقولك: علمت أزيد في الدار أم عمرو، وتقديره وقد علمت أنّ أحدهما في الدار «وعرفت، ونظرت» بمنزلة «علمت» في هذا، لأنّها توافقها في «عرفت أنّه في الدار» و«نظرت بقلبي أنّه في الدار» ومثله ﴿سلهم أيّهم بذلك زعيم﴾(٤)

---

(١) في الخطّية: القدر.

(٢) راجع تفسير السمرقندي ٣: ٤٧٤.

(٣) ما بين المعقوفتين لم يرد في الخطّيّة.

(٤) القلم: ٤٠.

أي سؤال من يطلب أن يعلم أيّهم بذلك زعيم، ولو قلت أضرب أيّهم ذهب لم يكن إلّا نصباً، لأنّه بمعنى الّذي. والقديم تعالى وإن كان عالماً بالأشياء قبل كونها، فإنّما يبتلي الخلق ويختبرهم اختبار من يطلب العلم، حتّى يجازي على الفعل بحسبه، ولمّا كان لم يحسن الثواب والعقاب والتعظيم والإجلال إلّا بعد وجود الطاعة والمعصية لم يكن بدّ من التكليف، والأمر والنهي فاجرى عليه الاختبار مجازاً[١].

وقوله: ﴿وهو العزيز﴾ في انتقامه من أعدائه والكافرين لنعمه، لا يقدر أحد على مغالبته ومقاهرته، غفور لمن تاب إليه، أو أن يريد التفضّل بإسقاط عقابه ولا يصحّ التكليف إلّا مع الترغيب والترهيب، لأنّ التمكين من الحسن والقبيح[٢] يقتضي ذلك، والتكليف تحميل المشقّة في الأمر والنهي.

ثمّ عاد إلى صفات نفسه فقال: ﴿الّذي خلق سبع سماوات طباقاً﴾ أي أنشأ واخترع سبع سماوات واحدة فوق الأُخرى ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾ يعني: من اختلاف وتناقض، وذلك يدلّ على أنّ ما فيه تفاوت من الكفر والمعاصي ليس من خلق الله، لأنّه نفى نفياً عامّاً أن يكون فيما خلقه تفاوت. وتفاوت وتفوّت مثل تصاعر وتصعّر.

ثمّ نبّه تعالى العاقل على صحّة ما قاله من أنّه ليس في خلق الله تفاوت. فقال: ﴿فارجع البصر﴾ أي فردّ البصر وأدرها[٣] في خلق الله من السماوات ﴿هل ترى من فطور﴾ أي من شقوق وصدوع يقال: فطره يفطره،

---

(١) معاني القرآن ٣: ١٦٩، معاني القرآن وإعرابه ٦: ١٩٧.

(٢) في الحجريّة: التمكّن من الحسن والقبح.

(٣) في الخطّية: فأدره.

فهو فاطر إذا شقّه، ومنه قوله: ﴿تكاد السماوات يتفطّرن منه﴾[(١)] أي يتصدّعن. وقال ابن عبّاس: معناه: هل ترى من وهن. وقال قتادة: من خلل. وقال سفيان: من شقوق. ثمّ أكدّ ذلك بقوله: ﴿ثمّ ارجع البصر كرّتين﴾ أي دفعة ثانية، لأنّ من نظر في الشيء كرّة بعد أُخرى بان له ما لم يكن بائناً له.

ثمّ بيّن أنّه إذا فعل ذلك وتردّد بصره في خلق الله انقلب إليه بصره ورجع إليه خاسئاً يعني ذليلاً صاغراً، في قول ابن عبّاس. وذلك كذلّة من طلب شيئاً لم يجده وأبعد عنه ﴿وهو حسير﴾ قال قتادة: معناه: كالّ مُعْيٍ، فالحسير: الكليل، كما يحسر البعير.

ثمّ أقسم الله تعالى بقوله: ﴿ولقد زيّنّا السماء الدنيا...﴾ لأنّ لام ﴿لقد﴾ هي الّتي يتلقّى بها القسم بأنّه زيّن السماء أي حسّنها وجمّلها أي السماء الدنيا بالمصابيح، يعني: الكواكب. وسمّيت النجوم مصابيح لإضاءتها، وكذلك الصبح. و«المصباح» السراج، وواحد المصابيح مصباح. قال قتادة: خلق الله تعالى النجوم لثلاث خصال: أحدها زينة السماء. وثانيها رجوماً للشياطين. وثالثها علامات يهتدى بها، فعلى هذا يكون تقديره وجعلنا فيها.

وقوله: ﴿وأَعتدنا لهم عذاب السعير﴾ معناه: إنّا جعلنا الكواكب رجماً للشياطين أعتدنا لهم وادّخرنا لأجلهم عذاب السعير يعني: النار المسعّرة، فالسعير: النار المسعّرة المشتعلة. وقيل: ينفصل من الكواكب شهاب بأن يكون رجوماً للشياطين[(٢)] فأمّا الكواكب أنفسها، فليس يزول إلى أن يريد

---

(١) مريم: ٩٠.

(٢) راجع الكشف والبيان ٩: ٣٥٧.

الله فناءها. ففي هذه الآيات بيان ما يجب من تعظيم الله تعالى لم يزل ولايزال، وأنّ له الملك الكبير، وأنّه على كلّ شيء قدير. وفيها بيان ما يجب اعتقاده من أنّ جميع ما خلقه الله فللابتلاء بما يصحّ معه التكليف للعمل الّذي يوجب الثواب جزاء على الإحسان مع رحمة من تاب بالغفران وشدّة الانتقام ممّن أقام على معصيته. وفيها بيان ما يجب اعتقاده من أنّ جميع ما خلقه الله محكم لا تفاوت فيه، لأنّه على ما تقتضيه الحكمة في المتعة والعبرة وما يصحّ به الزجر من السيّئة. وفيها بيان ما يجب اعتقاده ممّا اقتضت الحكمة فيه التلاؤم من غير فطور، ولا عدول عن الصواب من أمر السماوات والأفلاك والنجوم، وما خلق فيها من المصابيح زينة لها ورجوماً للشياطين مع أنّ عاقبتهم إلى عذاب السعير.

قوله تعالى:

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ ستّ آيات.

[أقول:][١] قرأ أبو جعفر والكسائي ﴿فسحقاً﴾ بضمّ الحاء مثقل. الباقون بالتخفيف، وهما لغتان.

لمّا ذكر الله تعالى ما أعدّ للشياطين من عذاب السعير، ذكر عقيبه وعيد الكفّار وما أعدّ لهم لاتّصال ذلك بوعيد النار، فقال: ﴿وللّذين كفروا﴾ يعني:

---

(١) من الحجريّة.

بتوحيد الله وإخلاص عبادته وجحدوا نبوّة رسله وما جاءوا به ﴿عذاب جهنّم﴾ ثمّ قال: ﴿وبئس المصير﴾ أي بئس المآل والمرجع. وإنّما وصفه بـ﴿بئس﴾ وهي من صفات الذمّ، والعقاب حسن، لما في ذلك من الضرر الّذي يجب على كلّ عاقل أن يتّقيه بغاية الجهد واستفراغ الوسع، ومع هذا ليس يخفى المراد في ذلك على أحد. ولا يجوز قياساً على ذلك أن يوصف به الفاعل، لأنّه لا يوصف به الفاعل إلّا على وجه الذمّ، لأنّه لا يقال: بئس الرجل إلّا لمن كان مستحقّاً للذمّ من حيث إنّ القادر قادر على الضدّين.

ووجه الحكمة في فعل العقاب ما فيه من الزجر المتقدّم للمكلّف، ولا يمكن أن يكون مزجوراً إلّا به، ولولاه لكان مغرى[1] بالقبيح.

ثمّ قال تعالى: ﴿إذا أُلقوا فيها﴾ ومعناه: إذا طرح الكفّار في النار ﴿سمعوا لها﴾ يعني: للنار ﴿شهيقاً﴾ وصوتاً فظيعاً[2] بنفس كالنزع، فإذا اشتدّ لهيب النار سمع لها ذلك الصوت كأنّها تطلب الوقود، قال رؤبة:

حَشْرَجَ في الجوف سحيلا أو شهق   حتّى يقال ناهِق وما نهق[3]

وقال أبو العالية: الشهيق في الصدر، والزفير في الحلق.

وقوله: ﴿وهي تفور﴾ أي ترتفع، فالفور: ارتفاع الشيء بالغليان، يقال: فارت القدر تفور فوراً، ومنه الفوّارة لارتفاعها بالماء ارتفاع الغليان. وفار الدم فوراناً، وفار الماء يفور فوراً.

وقوله: ﴿تكاد تميّز من الغيظ﴾ أي تكاد النار تتفرّق وتنقطع من شدّتها، وسمّي شدّتها والتهابها غيظاً فإنّ المغتاظ هو المتقطّع[4] بما يجد من الألم

(١) في الخطّية: مُغرّاً.
(٢) في الخطّية: صوتَ فظيعٍ.
(٣) تفسير الطبري ١٢: ١٦٧.
(٤) في الخطّية: المنفطرِ.

الباعث على الإيقاع لغيره، فحال جهنّم كحال المغتاظ. فالتميّز التفرّق والتمييز التفريق. وقال ابن عبّاس ﴿تميّز﴾ أي تفرّق، وهو قول الضحّاك وابن زيد.

وقوله: ﴿كلّما أُلقي فيها فوج﴾ يعني: كلّما طرح في النار فوج من الكفّار ﴿سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير﴾ يعني: تقول لهم الملائكة الموكّلون بالنار على وجه التبكيت لهم في صيغة الاستفهام: ألم يجئكم مخوّف من جهة الله يخوّفكم عذاب هذه النار ؟! فيقولون في جوابهم: ﴿بلى قد جاءنا نذير﴾ أي مخوّف معلّم ﴿فكذّبنا﴾ ولم نصدّقه ولم نقبل منه ﴿وقلنا ما أنزل الله من شيء﴾ ممّا تدعوننا إليه وتحذروننا منه، فتقول لهم الملائكة: ﴿ان أنتم إلّا في ضلال كبير﴾ أي لستم اليوم إلّا في عذاب عظيم.

ثمّ ﴿وقالوا﴾ أيضاً يعني الكفّار: ﴿لو كنّا نسمع﴾ من النذر ما جاؤونا به ﴿أو نعقل﴾ ما دعونا إليه وعملنا به ﴿ما كنّا في أصحاب السعير﴾.

فقال الله تعالى: ﴿فاعترفوا بذنبهم﴾ يعني: أقرّ أهل النار بمعاصيهم في ذلك الوقت الّذي لم ينفعهم الاعتراف. فالاعتراف هو الإقرار بالشيء عن معرفة، وذلك أنّ الإقرار مشتقّ من قرّ الشيء يقرّ قرّاً إذا ثبت، فالمقرّ في المعنى مثبت له والاعتراف مأخوذ من المعرفة. فقال الله تعالى: ﴿فسحقاً لأصحاب السعير﴾ أي بُعداً لهم عن الخير وعن ثواب الله ونعمه، فكأنّه قال أسحقهم الله سحقاً أو ألزمهم الله سحقاً عن الخير، فجاء المصدر على غير لفظه، كما قال الله تعالى: ﴿والله أنبتكم من الأرض نباتاً﴾[١] وتقديره فأسحقهم الله إسحاقاً أولى لأنّه مأخوذ منه. فأمّا سحقته سحقاً فمعناه

(١) نوح: ١٧.

باعدته بالتفريق عن حال اجتماعه بما صار إليه كالغبار. وليس لأحد أن يقول: ما وجه اعترافهم بالذنب مع ما عليهم من الفضيحة به ؟! وذلك أنّهم قد علموا أنّهم قد حصّلوا على الفضيحة اعترفوا أو لم يعترفوا وأنّهم سواء عليهم أجزعوا أم صبروا، فليس يدعوهم إلى أحد الأمرين إلّا بمثل ما يدعوهم إلى الآخر في أنّه لا فرج فيه، فلا يصلح أن يقال لِمَ جزعوا إلّا بمثل ما يصلح أن يقال لِمَ صبروا، وكذلك لِمَ اعترفوا بمنزلة لِمَ لم يعترفوا على ما بيّـنّاه. والذنب مصدر لا يثنّى ولا يجمع، ومتى جمع فلاختلاف جنسه، كما يقال غطاء الناس وأغطيتهم.

قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ أربع آيات.

[أقول:][1] لمّا وصف الله تعالى الكفّار وما أعدّه لهم من أليم العقاب ذكر المؤمنين وما أعدّه لهم من جزيل الثواب، فقال: ﴿إنّ الذين يخشون ربّهم﴾ أي يخافون عذاب ربّهم باتّقاء معاصيه وفعل طاعاته ﴿بالغيب﴾ أي على وجه الاستسرار بذلك لأنّ الخشية متى كانت بالغيب على ما قلناه كانت بعيدة من النفاق، وخالصة لوجه الله. وخشية الله بالغيب تنفع بأن يستحقّ عليها الثواب، والخشية في الظاهر وترك المعاصي لا يستحقّ بها الثواب وإنّما لا يستحقّ العقاب. وإنّما[2] الخشية في الغيب أفضل لا محالة.

(١) من الحجريّة.
(٢) في الخطّية: فإذاً.

وقوله: ﴿لهم مغفرة وأجر كبير﴾ أي لمن خشي الله واتّقاه بالغيب ستر من الله على معاصيه وثواب كبير لا فناء له. وقيل: معنى ﴿يخشون ربّهم بالغيب﴾ أي يخافونه، وهم لا يرونه[١]. وقيل: ﴿بالغيب﴾ أي في سرّهم وباطنهم، ومن علم ضمائر الصدور علم إسرار القائل إلى غيره. وقال الحسن: معناه يخشون ربّهم بالآخرة لأنّها غيب يؤمنون به، وكلّ من خشي ربّه بالغيب خشيه بالشهادة، وليس كلّ من خشيه بالشهادة يخشى بالغيب.

ثمّ قال مهدّداً للعصاة: ﴿وأسرّوا قولكم أو اجهروا به﴾ ومعناه: إن شئتم أظهروه وإن شئتم أبطنوه فإنّه عالم بذلك لـ﴿أنّه عليم بذات الصدور﴾ فمن علم ضمائر الصدور علم إسرار القول.

وقوله: ﴿ألا يعلم من خلق﴾ معناه: من خلق الصدور يعلم ما في الصدور، ويجوز أن يكون المراد ألا يعلم من خلق الأشياء ما في الصدور. وقيل: تقديره ألا يعلم سرّ العبد من خلقه يعني: مَن خلق العبد، ويجوز أن يكون المراد ألا يعلم سرّ من خلق، وحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه[٢]. ولا يجوز أن يكون المراد ألا يعلم من خلق أفعال القلوب، لأنّه لو أراد ذلك لقال ألا يعلم ما خلق، لأنّه لا يعبّر عمّا لا يعقل بـ«من» ولا يدلّ ذلك على أن الواحد منّا لا يخلق أفعاله من حيث إنّه لا يعلم الضمائر، وإنّا[٣] بيّنّا أنّ المراد ألا يعلم من خلق الصدور أي خلق الأشياء والواحد منّا لا يخلق ذلك فلا يجب أن يكون عالماً بالضمائر.

وقوله: ﴿وهو اللطيف الخبير﴾ معناه: هو اللطيف بعباده من حيث

---

(١) تفسير الطبري ١٢ ١٦٨. (٢) تفسير السمرقندي: ٤٧٦. (٣) في الخطّية: لأنّا.

يدبّرهم بلطف التدبير، فلطيف التدبير: هو الّذي يدبّر تدبيراً نافذاً لا يخفو عن شيء يدبّره به[١] ﴿الخبير﴾ معناه: العالم بهم وبأعمالهم.

ثمّ قال تعالى ممتنّاً على خلقه ومعدّداً لأنواع نعمه عليهم: ﴿هو الّذي جعل لكم الأرض ذلولاً﴾ يعني: سهلاً سهّلها لكم تعملون فيها ما تشتهون ﴿فامشوا في مناكبها﴾ قال مجاهد: مناكبها طرقها وفجاجها. وقال ابن عبّاس وقتادة: مناكبها جبالها ﴿وكلوا من رزقه﴾ صورته صورة الأمر والمراد به الإباحة والإذن، أذن الله تعالى أن يأكلوا ممّا خلقه لهم وجعله لهم رزقاً على الوجه الّذي أباحه لهم ﴿وإليه النشور﴾ أي إلى الله المرجع يوم القيامة وإليه المآل والمصير، فيجازي كلّ واحد حسب عمله. وفي ذلك تهديد.

قوله تعالى:

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَـٰٓفَّـٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَـٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنِ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾ ستّ آيات.

[أقول:][٢] قرأ ابن كثير ﴿وإليه النشور وأمنتم﴾ بواو في الوصل قلباً لهمزة الاستفهام واواً لضمّ[٣] ما قبلها. وقرأ أهل الكوفة وأهل الشام

---

(١) في الخطّية: لا يجفو عن شيء يدبّره تدبير غيره.
(٢) من الحجريّة.
(٣) في الخطّيّة: والضمّة.

بهمزتين على أُصولهم. الباقون بتحقيق الأُولى وتخفيف الثانية.

يقول الله تعالى مهدّداً للمكلّفين وزاجراً لهم عن ارتكاب معاصيه والجحد لربوبيّته على لفظ الاستفهام والمراد به تفخيم الأمر وتعظيم التبكيت: ﴿ءأمنتم من في السماء﴾ فالأمن: هو اطمينان النفس إلى السلامة من الخوف، والأمن علم بسلامة النفس من الضرّ يقال: أمن يأمن أمناً وآمنه يُؤمنه إيماناً وأماناً، والمعنى ءأمنتم من في السماء سلطانه وأمره ونهيه كما قال: ﴿وهو الله في السماوات وفي الأرض يعلم سرّكم وجهركم﴾[١] أي وهو الله في السماوات وفي الأرض معلومه، لا يخفى عليه شيء منه. وقيل أيضاً: يجوز أن يكون المراد ﴿ءأمنتم من في السماء﴾ يعني: المَلَك الكائن في السماء ﴿أن يخسف بكم الأرض﴾ بأمر الله[٢] فإذا هي تمور أي تردّد، فالمور: هو التردّد في الذهاب والمجيء، يقال: مار يمور موراً فهو مائر، ومثله ماج يموج موجاً.

وقوله: ﴿ءأمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً﴾ فالحاصب الحجارة الّتي يرمى بها كالحصباء، حصبه بالحصباء يحصبه حصباً إذا رماه بها. ويقال للّذي يرمى به: حاصب أي ذو حصب كأنّ الحجر هو الّذي يحصب. وقيل: تقديره قبل أن يرسل عليكم حاصباً، كما أرسل على قوم لوط حجارة من السماء.

وقوله: ﴿فستعلمون كيف نذير﴾ فيه تهديد، أي ستعرفون كيف تخويفي وترهيبي إن عصيتموني إذا صرتم إلى عذاب النار.

ثمّ قال مقسماً: ﴿ولقد كذّب الّذين من قبلهم﴾ أي جحد من قبل هؤلاء

---

(١) الأنعام: ٣.
(٢) النكت والعيون ٦: ٥٥.

الكفّار من الأُمم وحدانيّتي وأشركوا بي غيري في العبادة وكذّبوا رسلي فأهلكتهم واستأصلتهم ﴿فكيف كان نكير﴾ ألم أُهلكهم بضروب النقمات والمثلات.

ثمّ قال منبّهاً لهم على توحيده: ﴿أولم يروا إلى الطير فوقهم صافّات﴾ أي مصطفّات فوق رؤسهم في الجوّ باسطات أجنحتهم ﴿ويقبضن﴾ أي يضربن بها. وقوله: ﴿ويقبضنّ﴾ أي من الطير ما يضرب بجناحيه فيدِفّ، ومنه الصفيف والدفيف ﴿ما يمسكهنّ إلّا الرحمن﴾ أي ليس يمنعهنّ من السقوط إلى الأرض إلّا الرحمن الّذي خلق لهم الآلات الّتي يصُفّون بها ويدفّون، وما خلق فيها من القدرة على ذلك، ولولا ذلك لسقطت إلى الأرض. وقيل: معنى ما يمسكهنّ إلّا الرحمن بتوطئة الهواء لهنّ، ولولا ذلك لسقطن[1] وفي ذلك أكبر دلالة وأوضح عبرة بأنّ من سخّر الهواء هذا التسخير هو على كلّ شيء قدير. و«الصفّ» وضع الأشياء المتوالية على خطّ مستقيم. و«القبض» جمع الشيء من حال البسط. و«الإمساك» اللزوم المانع من السقوط.

وقوله: ﴿إنّه بكلّ شيء بصير﴾ إخبار منه تعالى أنّه عالم بجميع الأشياء لا يخفى عليه شيء منها ﴿بصير﴾ بما للخلق من النفع والضرّ. ثمّ قال: ﴿أمّن هذا الّذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن﴾ أي من لكم معاشر الكفّار يدفع عنكم عذاب الله إذا حلّ بكم ﴿إن الكافرون إلّا في غرور﴾ معناه: ليس الكافرون بالله العابدون للأوثان إلّا في غرور، أي يتوهّمون أنّ ذلك أنفع لهم، والأمر على خلاف ذلك من المكروه.

ثمّ قال: ﴿أمّنْ هذا الّذي يرزقكم إن أمسك﴾ الله ﴿رزقه﴾ بأن يزيله

(١) راجع تفسير السمرقندي ٣: ٤٧٧.

ويمنعه منكم، فينزل عليكم رزقه ﴿بل لجّوا في عتوّ ونفور﴾ فاللجاج: تقحّم الأمر مع كثرة ردّ الصارف عنه، يقال: لججتَ في الأمر تلَجّ لجاجاً، وقد لاجّه ملاجّة ولجّج فلان في الحرب فهو ملجّج تلجيجاً. ولمّا كان لهؤلاء المشركين صوارف كثيرة من عبادة الأوثان وهم يتقحّمون على ذلك[١] العصيان كانوا قد لجّوا في عتوّهم. و«العتوّ» الطغيان وهو الخروج إلى فاحش الفساد، يقال : عتا يعتو عتوّاً فهو عاتٍ وجمعه عتاة. «والنفور» الخروج عن الشيء هرباً من الشعور بضرره. ونقيض النفور: القبول. وقال الجُبّائي: قوله: ﴿أمّن هذا الّذي﴾ إلى قوله: ﴿إن أمسك رزقه﴾ تعريف حجّة عرّفها الله لعباده فعرفوا وأقرّوا بها، ولم يردّوا لها جواباً فقال الله: ﴿بل لجّوا في عتوّ ونفور﴾

قوله تعالى:

﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾﴾ خمس آيات.

[أقول:][٢] قوله: ﴿أفمن يمشي...﴾ مثل ضربه الله، قال ابن عبّاس: هو مثل ضربه‌الله عزّوجلّ للكافر وشبّهه بمن يمشي مكبّاً على وجهه، والمؤمن شبّهه بمن يمشي سويّاً على صراط مستقيم. وقال قتادة: الكافر يحشر يوم القيامة يمشي على وجهه مكبّاً، والمؤمن يمشي على صراط مستقيم.

وفي الآية دلالة على وجوب النظر في الدين، لأنّه تعالى ضرب المثل

(١) في الخطّية: ذلك على.

(٢) من الحجريّة.

بالناظر في ما يسلكه حتّى خلص إلى الطريق المستقيم فمدحه بهذا، وذمّ التارك للنظر مكبّاً على وجهه لا يثق بسلامة طريقه، يقال: أكب يكبّ إكباباً فهو مُكِبّ في مالا يتعدّى، قال الأعشى:

مكبّاً علـى رَوْقَـيْه يَـحفِر عِـرْقها على ظهر عُريان الطريقة أهْيَما[١]

فإذا تعدّى قيل: كببت فلاناً على وجهه، وكبّه الله لوجهه.

ثمّ قال تعالى لنبيّه ﷺ: ﴿قل﴾ لهؤلاء الكفّار إنّ الله تعالى ﴿هو الّذي أنشأكم﴾ بأن أخرجكم من العدم إلى الوجود واخترعكم ﴿وجعل لكم السمع والأبصار﴾ تسمعون بالسمع المسموعات وتبصرون بالبصر المبصرات ﴿والأفئدة﴾ يعني: القلوب تعقلون فيها، أي بما فيها من العلوم تعلمون بها وتميّزون بها، فهذه نعم من الله تعالى يجب عليكم أن تشكروها وتحمدوا الله عليها فأنتم ﴿قليلاً ما تشكرون﴾ أي قليلاً شكركم، ويجوز أن يكون المعنى أنّكم تشكرون قليلاً.

ثمّ قال: ﴿قل﴾ لهم يا محمّد ﴿هو﴾ الله تعالى ﴿الّذي ذرأكم في الأرض﴾ أي خلقكم أوّلاً وأوجدكم ﴿وإليه تحشرون﴾ أي تبعثون إليه يوم القيامة، فيجازيكم على أعمالكم على الطاعة بالثواب وعلى المعصية بالعقاب.

ثمّ حكى تعالى ما كان يقوله الكفّار فإنّهم كانوا ﴿يقولون﴾ مستهزئين مكذّبين بأنّه من عند الله ﴿متى هذا الوعد﴾ الّذي تعدوننا به من العذاب والهلاك ﴿إن كنتم صادقين﴾ معاشر المؤمنين والمسلمين.

فقال الله تعالى: ﴿قل﴾ لهم يا محمّد ﴿إنّما العلم عند الله﴾ يعني: علم وقت قيام الساعة على اليقين عند الله لم يطلع الله عليه أحداً من البشر، كما قال: ﴿إنّ الله عنده علم الساعة﴾[٢] ﴿وإنّما أنا نذير﴾ لكم مخبر مخوّف من

---

(١) شرح ديوان الأعشى: ١٩١.

(٢) لقمان: ٣٤.

عقاب الله تعالى ﴿مبين﴾ لكم مالكم فيه من الصلاح والنجاة من العقاب. و«النذير» هو الدالّ على موضع المخافة، فكلّ من دعا إلى حقّ إمّا رغبةً أو رهبةً فهو نذير إلّا أنّه صار علماً في صفات الأنبياء عليهم السلام.

قوله تعالى:

فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقِيلَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾ أربع آيات.

[أقول:][١] قرأ يعقوب ﴿تدعون﴾ خفيفة. الباقون بالتشديد. وقرأ الكسائي ﴿فسيعلمون من هو﴾ بالياء على الغيبة. الباقون بالتاء على الخطاب، أي قل لهم.

لمّا حكى الله تعالى عن الكفّار أنّهم استبطأوا عذاب الله وهلاكه لهم مستهزئين بذلك، فقالوا ﴿متي هذا الوعد﴾ قال الله تعالى حاكياً عنهم إذا رأوا ما يوعدون به: ﴿فلمّا رأوه زلفة﴾ قال الحسن: معناه معاينة. وقال مجاهد: يعني قريباً. و«الزلفة» المنزلة القريبة، والأصل فيه القرب، يقال: أزدلف إليه ازدلافاً إذا تقرّب إليه، ومنه «مزدلفة» لأنّها منزلة قريبة من مكّة، وجمع زلفة زُلَف، قال العجّاج:

ناج طواه الأين ممّا وجفا   طيّ الليالي زلفا فزلفا
سماوة الهلال حتّى احقوقفا[٢]

(١) من الحجريّة.

(٢) الكتاب (سيبويه) ١: ٣٥٩، مجاز القرآن ٢: ٢٦٢/٨٧.

وقوله: ﴿سيئت وجوه الّذين كفروا﴾ أي ظهر فيها ما يفهم من الكآبة والحزن يقول: ساء يسوءه سوأ، ومنه السوأى، ومنه أساء يُسيء إساءة فهو مُسيء إذا فعل قبيحاً يؤدّي إلى الغمّ ﴿وقيل هذا الّذي كنتم به تدعون﴾ أي ويقال لهؤلاء الكفّار إذا شاهدوا العذاب: ﴿هذا الّذي كنتم به تدعون﴾ أي تطلبون به خلاف ما وعدتم به على طريق التكذيب بالوعد، كأنّه قيل: هذا الّذي كنتم به تكذّبون في ادّعائكم أنّه باطل. و«الادّعاء» الإخبار بما يوعد[1] إليه القائل دون المعنى، فإذا ظهر دليله خرج من الادّعاء لأنّه حينئذ يدعو إليه المعنى، وكذلك الإخبار بما يدعو إلى نفسه في الفعل ليس بدعوى، قال الزجّاج: ﴿تدّعون﴾ يجوز أن يكون يريد يفعلون من الدعاء، ويجوز أن يكون من الدعوى[2] قال الفرّاء: والتشديد والتخفيف واحد مثل تذكرون وتذكّرون وتدخرون وتدّخرون[3].

ثمّ قال للنبيّ ﷺ: ﴿قل﴾ لهم يا محمّد ﴿أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي﴾ بأن يميتنا ﴿أو رَحِمَنا﴾ بتأخير آجالنا ما الّذي ينفعكم من ذلك في رفع العذاب الّذي استحققتموه من الله فلا تعلّلوا في ذلك بما لا يغني عنكم شيئاً. وقيل: إنّ الكفّار كانوا يتمنّون موت النبيّ وموت أصحابه قيل لهم: ﴿أرأيتم إن أهلكني الله﴾ بإماتتي وإماتة أصحابي فما الّذي ينفعكم ذلك في النجاة من عذاب أليم. وقل لهم: ﴿فمن﴾[4] الّذي ﴿يجير الكافرين من عذاب أليم﴾ حتّى لا يعذّبوا ولا يعاقبوا، فلا يمكنهم الإحالة على من يجيرهم من الله ويخلّصهم من عذابه.

---

(١) في الخطّية: يدعو.
(٢) معاني القرآن وإعرابه ٦: ٢٠١.
(٣) معاني القرآن ٣: ١٧١.
(٤) في الخطّية: ومن ذا.

ثمّ قال: ﴿قل﴾ لهم على وجه الإنكار عليهم والتوبيخ لهم على فعلهم ﴿هو الرحمن﴾ يعني: الله تعالى هو الّذي عمّت نعمه جميع الخلائق واستحقّ الوصف بالرحمن ﴿آمنّا به﴾ أي صدّقنا بوحدانيّته ﴿وعليه توكّلنا﴾ أي اعتمدنا عليه وفوّضنا أُمورنا إليه. فالتوكّل: الاعتماد على تفضّل الله وحسن تدبيره. وقل لهم: ﴿فستعلمون﴾ معاشر الكفّار ﴿من﴾ الّذي ﴿هو في ضلال مبين﴾ أي بيّن. ومن قرأ بالياء معناه فسيعلم الكفّار ذلك.

ثمّ قال تعالى: ﴿قل﴾ لهم يا محمّد ﴿أرأيتم﴾ معاشر الكفّار ﴿إن أصبح ماؤكم غوراً﴾ أي غائراً وصف الغائر بالغور الّذي هو المصدر مبالغة. يقال: ماء غور وماءان غور ومياه غور، كما يقال: هؤلاء زَوْر فلان وضيفه، لأنّه مصدر، في قول الفرّاء وغيره [١] ﴿فمن يأتيكم بماء معين﴾ معناه من الّذي يجيئكم بماء معين إذا غارت مياهكم. قال قوم: الماء المعين الّذي تراه العيون[٢]. وقال قتادة والضحّاك: هو الجاري، فالأوّل مفعول من العين كمبيع من البيع، والثاني من الإمعان في الجرى، ووزنه «فعيل» كأنّه قال ممعَن في الجري والظهور. وقال الحسن: أصله من العيون. قال الجبّائي[٣] قوله: «قل أرايتم إن أصبح ماؤكم غوراً» تعريف حجّة الله لعباده عرفوها وأقرّوا بها ولم يردّوا لها جواباً.

---

(١) معاني القرآن ٣: ١٧٢، معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٠١.
(٢) تفسير الطبري ١٢: ١٧٤.
(٣) في الخطّية والحجريّة: العنابي.

سورة القلم[1]

مكّية في قول ابن عبّاس والضحّاك وغيرهما، وهي اثنتان وخمسون آية بلا خلاف.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى:

﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٥ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ۝١٦﴾ ستّ عشرة آية[2].

[أقول:][3] قرأ الكسائي وأبو بكر عن عاصم ﴿ن والقلم﴾ بالإخفاء. الباقون بالإظهار. والإظهار أقوى، لأنّ النيّة بها الوقف إذ هي حرف هجاء.

---

(١) في الخطّية والحجريّة: نون. (٢) في الحجريّة: ستّة. (٣) من الحجريّة.

ويجوز إدغام النون الثانية في الواو للمقارنة على قياس «من واقد» ولم يقرأ به أحد. وقرأ ﴿آن كان ذا مال﴾ بهمزة واحدة ممدودة يعقوب وأبو جعفر وابن عامر، وبهمزتين حمزة وأبو بكر، الباقون بهمزة واحدة. واختلفوا في معنى ﴿ن﴾ في هذا الموضع، فقال قوم: هو اسم من أسماء السورة مثل «حم، والم، وص، وق» وما أشبه ذلك[١]. وهو الّذي قلنا: إنّه أقوى الأقوال. وقال ابن عبّاس في رواية عنه: إنّ النون الحوت الّذي عليه الأرضون. وفي رواية أُخرى عنه: إنّالنون الدواة. وهو قول الحسن وقتادة. وروي في خبر عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: ﴿نون﴾لوح من نور[٢]. وقال قوم: تقديره: وربّ نون والقلم[٣]. و«القلم» آلة مبريّة للكتابة. والمَقْلَمة وعاء القلم، وجمعه أقلام، ومنه قلامة الظفر، لأنّه يؤخذ منه كالأخذ بالقَطّ. وانجرّ[٤] القلم بالقسم. وقوله: ﴿وما يسطرون﴾ ﴿ما﴾ في موضع جرّ بالعطف على ﴿والقلم﴾ وكان القسم بالقلم وما يسطر بالقلم. ويجوز أن تكون ﴿ما﴾ مصدريّة، وتقديره: ن والقلم وسطركم، فيكون القسم بالكتابة، وعلى الأوّل بالمكتوب. و«السطر» الكتابة، وهو وضع الحروف على خطّ مستقيم: سطر يسطر سطراً إذا كتب، وأسطر إذا كتب. وجمع السطر سطور وأسطار، قال رؤبة:

إنّي وأسطارٍ سُطِرن سطراً[٥]

والمسطرة آلة التسطير.

---

(١) النكت والعيون ٦: ٦١.

(٢) تفسير الطبري ١٢: ١٧٧.

(٣) راجع النكت والعيون ٦: ٦٠.

(٤) يحتمل أن يكون «أنجز».

(٥) تفسير الطبري ١٢: ١٧٩، مجاز القرآن ٢: ٢٦٤، الصحاح ٢: ٨٢٩ مادّة سطر. الكتاب (سيبويه) ٢: ١٨٥، مرّ في ٦: ٣٥.

وقوله: ﴿ما أنت بنعمة ربّك بمجنون﴾ هو المحلوف عليه، وهو جواب القسم، ومعناه: لست يا محمّد بمجنون بنعمة ربّك، كما تقول ما أنت بنعمة ربّك بجاهل. وجاز تقديم معمولها بعد الباء، لأنّها زائدة مؤكّدة في ما أنت بنعمة ربّك بمجنون، وتقديره انتفى عنك الجنون بنعمة ربّك. وإنّما قال: ﴿ما أنت بنعمة ربّك بمجنون﴾ مع أنّ الجِنّة قد تكون نعمة، لأنّ الجِنّة لا تكون نعمة من حيث هي جنّة، وإنّما تكون نعمة من حيث تؤدّي إلى مصلحة في الدين. والعافية تكون نعمة من حيث هي عافية، فلهذا حسن ما أنت بنعمة ربّك بمجنون. و«الجنون» غمور العقل بستره عن الإدراك به بما يخرج عن حكم الصحيح، وأصله الستر من قوله: ﴿جنّ عليه الليل﴾[1] إذا ستره. وقيل: إنّ قوله: ﴿ما أنت بنعمة ربّك بمجنون﴾ جواب لقول المشركين حين قالوا: ﴿يا أيّها الّذي نزّل عليه الذكر إنّك لمجنون﴾[2] فقال الله تعالى: ﴿ما انت بنعمة ربّك بمجنون﴾[3].

وقوله: ﴿وإنّ لك﴾ خطاب للنبيّ صلى الله عليه وآله يقول له: ﴿وإنّ لك﴾ يا محمّد ﴿لأجراً﴾ أي ثواباً من الله على قيامك بالنبوّة وتحمّلك بأعبائها ﴿غير ممنون﴾ أي غير مقطوع من قولهم منّه السير يمنّه منّاً إذا قطعه، ويقال: ضعفت منّتي عن السفر، ورجل منين أي ضعيف، ويجوز أن يكون المراد به أنّه غير مكدَّر بالمنّ الّذي يقطع عن لزوم الشكر، من قولهم: المنّة تكدّر الصنيعة. وقال الحسن: معناه لا يمنّ عليك بأجرك.

ثمّ وصف النبيّ صلى الله عليه وآله فقال: ﴿وإنّك﴾ يا محمّد ﴿لعلى خلق عظيم﴾ قال الحسن: على دين عظيم، وهو الإسلام. وقيل: أدب القرآن[4]. وقال

---

(١) الأنعام: ٧٦.
(٢) الحجر: ٦.
(٣) تفسير الطبري ١٢: ١٧٩.
(٤) النكت والعيون ٦: ٦١.

المؤرج: معناه: على دين عظيم بلغة قريش. وقالت عائشة: كانت خلق النبيّ صلى الله عليه وآله ما تضمّنه العشر الأوّل من سورة «المؤمنون» فالخلق: المرور في الفعل على عادة، فالخلق الكريم الصبر على الحقّ وسعة البذل، وتدبير الأُمور على مقتضى العقل وفي ذلك الرفق والأناة والحلم والمداراة. ومن وصفه الله بأنّه على خلق عظيم فليس وراء مدحه مدح. وقيل: وإنّك لعلى خلق عظيم بحكم القرآن[١] وكلّ ذلك عطف على جواب القسم.

وقوله: ﴿فستبصر ويبصرون﴾ معناه: فستعلم يا محمّد يوم القيامة ويعلمون، يعني: هؤلاء الكفّار الّذين يرمونك بالجنون تارة وبالكهانة أُخرى ﴿بأيّكم المفتون﴾ وقيل في معناه قولان:

أحدهما: بأيّ فرقكم المفتون بما يجري مجرى الجنون.

والثاني: أن يكون معنى ﴿بأيّكم المفتون﴾ كما يقال: ليس له معقول أي عقل. وتقديره ستعلم ويعلمون بمن منكم الجنون. وقيل: معنى الباء «في» وكأنّه قال: في أيّكم الجنون[٢] [المفتون المبتلى بتخييل الرأي كالمجنون، وذلك كما يبتلى بشدّة الهوى المجنون. فيقال: فتن فلان بفلانة، وعلى هذا المعنى قال ابن عبّاس: بأيّكم المجنون][٣] وقال قتادة: معناه أيّكم أولى بالشيطان جعل الباء زائدة كما قال الراجز:

نحن بنو جَعدة أصحاب الفلَج   نضرب بالسيف ونرجوا بالفرج[٤]

ومعناه: ونرجو الفرج. وقال مجاهد: معناه: أيّكم المفتون كأنّه قال في

(١) معاني القرآن وإعرابه ٦: ٢٠٤.
(٢) تفسير الطبري ١٢: ١٨١.
(٣) ما بين المعقوفتين لم يرد في الخطّية والحجريّة.
(٤) مجاز القرآن ٢: ٢٦٤، الكشف والبيان ١٠: ١١.

أيّكم المفتون.

ثمّ قال: ﴿إنّ ربّك﴾ يا محمّد ﴿هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله﴾ الّذي هو سبيل الحقّ وعدل عنها وجار عن السلوك فيها ﴿وهو أعلم بالمهتدين﴾ أي بمن اهتدى إليها وعمل بموجبها.

ثمّ نهى النبيّ صلى الله عليه وآله فقال له: ﴿فلا تطع المكذّبين﴾ بتوحيد الله والجاحدين لنبوّتك ولا توافقْ ما يريدونه.

وقوله: ﴿ودّوا لو تدهن فيدهنون﴾ قال ابن عبّاس: معناه: ودّوا لو تكفر فيكفرون، وهو قول الضحّاك. وفي رواية أُخرى عن ابن عبّاس: إنّ معناه ودّ هؤلاء الكفّار لوتلين في دينك، فيلينون في دينهم، فشبّه التليين في الدين بتليين الدهن. وقيل: معناه: ودّوا لو تركن إلى عبادة الأوثان فَيُمالونك[1]. و«الإدهان» الجريان في ظاهر الحال على المقاربة مع إضمار العداوة. وهو مثل النفاق. ورفع ﴿فيدهنون﴾ بالعطف على قوله: ﴿لو تدهن﴾ ولم يجعله جواب التمنّي.

ثمّ قال له صلى الله عليه وآله: ﴿ولا تطع﴾ يا محمّد ﴿كلّ حلّاف﴾ أي من يقسم كثيراً بالكذب ﴿مهين﴾ يعني: مكثار في الشرّ، في قول الحسن وقتادة. و«المهين» الوضيع بإكثاره من القبيح، ومن عرف بأنّه يحلف على الكذب فهو مهين. وقال البلخي: المهين الفاجر في هذا الموضع.

وقوله: ﴿همّاز مشّاء بنميم﴾ أي وقّاع في الناس بما ليس له أن يعيبهم به. والأصل فيه الدفع بشدّة اعتماد، ومنه الهمزة حرف من حروف المعجم، وهي همزة تخرج من الصدر بشدّة اعتماد، وقال ابن عبّاس: الهمّاز

---

(١) في الخطّية: فيما لديك.

المغتاب. وقوله: ﴿مشّاء بنميم﴾ فالنميم: التضريب بين الناس بنقل الكلام يغلظ لقلوب بعضهم على بعض ومنه النمّام المشموم، لأنّه بحدّة ريحه كالمخبر عن نفسه. والنميم والنميمة مصدران، وهو نقل الأحاديث بالتضريب، نمّ ينمّ نميماً ونميمة.

﴿منّاع للخير﴾ أي يمنع خيره ونفعه، فلا ينتفع أحد به ﴿معتدٍ﴾ قال قتادة: معناه: متجاوز للحدّ في المعاملة ﴿أثيم﴾ أي آثم فهو «فعيل» بمعنى «فاعل» وهو الّذي فعل ما يأثم به.

﴿عتلّ بعد ذلك﴾ فالعتلّ: الجافي الغليظ. ومنه قوله: ﴿خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم﴾ (١) أي اذهبوا به بعنف وغلظة، يقال: عتله يعتِله ويعتُله عَتْلاً إذا زعزعه بغلظ وجفاء. وقال ذو الأصبع:

والدهر يغدو مِعْتلاً جَذَعا(٢)

وقيل: «العتل» الفاحش اللئيم. وروي عن النبيّ صلى الله عليه وآله ذلك(٣). و﴿الزنيم﴾ الدعيّ، وهو الملصق بالقوم وليس منهم. وأصله الزنمة، وهي الهنيّة الّتي تتحرّك تحت حلق الجدي. وقال حسان:

وأنت زنيم نيط في آل هاشم
كما نيط خَلْف الراكب القَدَحُ الفردُ(٤)

و﴿بعد﴾ هاهنا معناه «مع» وقال آخر.

زنيم ليس يعرف من أبوه بغيّ الأم ذو حسب لئيم(٥)

---

(١) الدخان: ٤٧. (٢) مجاز القرآن ٢: ٢٦٤، تفسير الطبري ١٢: ١٨٤.
(٣) تفسير الطبري ١٢: ١٨٥.
(٤) مجاز القرآن ٢: ٢٦٥، معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٠٦، الأغاني ٤: ١٤٦.
(٥) تفسير الطبري ١٢: ١٨٦، الكشف والبيان ١٠: ١٣.

ويقال للتيس: زنيم له زنمتان، و«الزنيم» الدعيّ عن ابن عبّاس. وقيل: هو الّذي يعرف بالشرّ، كما تعرف الشاة بزنمتها[١].

وقوله: ﴿أن كان ذا مال وبنين﴾ من قرأ على الاستفهام ـ وهو حمزة وأبو بكر عن عاصم ـ أراد أَلأَنْ كان ذا مال وبنين ؟! على وجه التوبيخ له ﴿إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأوّلين﴾ ويحتمل أن يكون المراد ألإن كان ذا مال وبنين يطاع. وقيل: كان له ألف دينار وعشرة بنين ﴿إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأوّلين﴾ أي أحاديث الأوّلين الّتي سطرت وكتبت لا أصل لها. وواحد الأساطير أُسطورة، في قول الزجّاج[٢]. وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم ﴿أأن كان ذا مال وبنين﴾ بهمزتين. وقرأ ابن عامر بهمزة ممدودة. الباقون بهمزة واحدة. وقد فسّرناه.

فقال الله تعالى مهدّداً له ومتوّعداً: ﴿سنسمه على الخرطوم﴾ أي سنعلم على أنفه علامة يعرف بها الملائكة أنّه من أهل النار، فالسمة: العلامة المفرّقة بالرؤية بين الأشياء المختلطة، كسمة الخيل إذا أرسلت في المروج، وسمه يسمه وسماً وسمة، فهو موسوم. و«الخرطوم» الأنف، وهو الناتئ في الوجه الّذي يقع به الشمّ. ومنه خرطوم الفيل، وخرطمه إذا قطع أنفه وجعله خراطيم. وقال ابن عبّاس: معنى ﴿سنسمه على الخرطوم﴾ نحطمه بالسيف في القتال، كما فعل بهم يوم بدر. وقال قتادة: معناه: سنعلمه بشيء يبقى على الأبد. وقال بعضهم: معناه: سنسوّد وجهه، فعبّر عن الوجه بالخرطوم لأنّه فيه.

وقيل: نزلت هذه الآيات في الوليد بن المغيرة المخزومي[٣] وقيل:

(١ و٢) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٠٥ ـ ٢٠٦.

(٣) النكت والعيون ٦: ٦٥.

نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي، كانت به زنمة يعرف بها، ذكره ابن‌عبّاس[١].

قوله تعالى:

﴿إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَـٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَـٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ تسع آيات.

[أقول:][٢] يقول الله تعالى: ﴿إنّا بلونا﴾ هؤلاء الكفّار أي اختبرناهم ﴿كما بلونا أصحاب الجنّة﴾ يعني: البستان ﴿إذ أقسموا﴾ أي حين أقسموا فيما بينهم ﴿ليصر منّها مصبحين﴾ ووجه الكلام إنّا بلونا أهل مكّة بالجدب والقحط، كما بلونا أصحاب الجنّة بهلاك الثمار الّتي كانت فيها حين دعا النبيّ صلى الله عليه وآله عليهم، فقال: «اللّهمّ أشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف»[٣] فالبلوى: المحنة بشدّة التعبّد على ما يقتضيه الحال في صحّة التكليف. و«الصرم» قطع ثمر النخل، صرم النخلة يصرمها صرماً، فهو صارم، ومنه الصريمة القطيعة عن حال المودّة. وهم عشرة أولاد كانوا لرجل من بني إسرائيل، وكان يأخذ من بستانه كفاية سنته ويتصدّق بالباقي، فقال أولاده: ليس يكفينا، وحلفوا إنّهم يصرمون بستانهم ليلاً وأبى عليهم أبوهم، فأقسموا إنّهم ليصرمون ثمر نخل البستان إذا أصبحوا[٤] ولم يستثنوا، ومعناه: لم يقولوا إن شاء الله. فقول القائل: لأفعلنّ

---

(١) تفسير الطبري ١٢: ١٨٦.

(٢) من الحجريّة.

(٣) صحيح البخاري ١: ٢٠٣.

(٤) راجع النكت والعيون ٦: ٦٧.

كذا إلّا أن يشاء الله، استثناء، ومعناه: إن شاء الله منعي أو تمكين مانعي.

فقال الله تعالى: ﴿فطاف عليها﴾ يعني على تلك الجنّة ﴿طائف من ربّك﴾ أي طرقها طارق من أمر الله. فالطائف الطارق ليلاً، فإذا قيل أطاف به صلح في الليل والنهار، وأنشد الفرّاء:

أطفت به نهاراً غير ليلى وألهي ربّها طلبُ الرخال[1]

الرخال أولاد الضأن، واحدها رخل، وفي الأُنثى رخلة ﴿وهم نائمون﴾ أي في حال نومهم.

﴿فأصبحت﴾ يعني الجنّة ﴿كالصريم﴾ أي كالليل الأسود في قول ابن عبّاس. وأنشد أبو عمرو بن العلا:

ألا بكَرَتْ وعاذِلتي تلوم تُجهّلني وما انكشف الصريم[2]

وقال:

تطاول ليلُك الجَوْنُ البهيمُ فما ينجاب عن صبح صريم
إذا ما قلت أقشع أو تناهى جرت من كلّ ناحية غُيُوم[3]

وقال قوم: الصريم هو المصروم[4]. وقال سعيد بن جبير: «الصريم» أرض معروفة باليمن لا نبات فيها تدعى صروان، وإنّما قيل للّيل صروم[5] لأنّه يقطع بظلمته عن التصرّف في الأُمور. وقيل: إنّما فعل الله بهم ذلك لأنّهم منعوا الحقوق اللازمة من ثمار هذه الجنّة. و«الصرم» قطع الثمر. و«الصريم» المصروم جميع ثماره.

وقوله: ﴿فتنادوا مصبحين﴾ إخبار عن حالهم أنّهم لمّا أصبحوا نادى بعضهم بعضاً يا فلان يا فلان، و«التنادي» دعاء بعض الناس بعضاً بطريقة

(١) معاني القرآن ٣: ١٧٥.
(٢ و٣) تفسير الطبري ١٢: ١٩٠.
(٤) النكت والعيون ٦: ٦٨.
(٥) في الخطّية: صريم.

يا فلان، وأصله من الندى بالقصر، لأنّ النداء الدعاء بندى الصوت الّذي يمتدّ على طريقة يا فلان، لأنّ الصوت إنّما يمتدّ للإنسان بندى حلقه. و«النادي» مجلس الرفد، وهو الندي.

﴿أن اغدوا على حرثكم﴾ أي نادى بعضهم بعضاً بأن اغدوا، أو قالوا: ﴿اغدوا على حرثكم﴾ و«الحرث» الزرع الّذي قد حرثت له الأرض، حرث يحرث حرثاً. والحرّاث الّذي يحرث الأرض، ومنه الحارث، ومنه الحرث، كناية عن الجماع. ويقال: احترث لأهله إذا اكتسب بطلب الرزق، كما يطلب الحرّاث ﴿إن كنتم صارمين﴾ أي قاطعين لثماركم. فالصارم: قاطع ثمر الشجر على الاستئصال. وأكثر ما يستعمل ذلك في النخل، ويجوز في الشجر، وأصله القطع. وقد تصرّم النهار إذا مضى قطعة قطعة حتّى انقضى. وقيل: معناه إن كنتم حاصدين زرعكم[١].

ثمّ قال: ﴿فانطلقوا﴾ أي ذهبوا، وهم ﴿يتخافتون﴾ فالتخافت: التقابل في إخفاء الحركة، وأصله الخفات من خفت فلان يخفُت إذا أخفى نفسه ومعناه هاهنا يتسارّون بينهم ﴿أن لا يدخلنّها اليوم عليكم مسكين﴾ في قول قتادة.

وقوله: ﴿وغدوا على حرد﴾ فالحرد: القصد، حرد يحرِد حرداً فهو حارد. قال الشاعر:

أقْبَلَ سيلٌ جاء من أمر الله ... يحرِد حَرْد الجَنّة المُغِلّة[٢]

أي يقصد، وقال الحسن: معناه على جهة من الفاقة. وقال مجاهد: معناه: على جدّ من أمرهم، وهو قول قتادة وابن زيد. وقال سفيان: معناه

(١) تفسير الطبري ١٢: ١٩١.
(٢) الكامل ١: ٧٤، معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٠٧.

على حنق، وذلك من قول الأشهب بن رميلة:

أُسُودُ شرىً لاقت أُسُودَ خفيّة   تَساقَوا على حرد دماءُ الأُساوِدِ(١)

أي على غضب. وقيل: معناه: على منع من قولهم: حاردت السنة إذا منعت قطرها، وحاردت الناقة إذا منعت لبنها. والأصل القصد(٢).

وقوله: ﴿قادرين﴾ معناه: مقدّرين أنّهم يصرمون ثمارهم. ويجوز أن يكون المراد وغدوا على حرد قادرين عند أنفسهم على صرام جنّتهم.

قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨) قَالُواْ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَـٰوَمُونَ (٣٠) قَالُواْ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَـٰغِينَ (٣١) عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ (٣٢) كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ (٣٣)﴾ ثمان آيات.

[أقول:](٣) يقول الله تعالى مخبراً إنّ أولئك الكفّار بنعم الله لمّا نادى بعضهم بعضاً وانطلقوا إلى صرم ثمارهم وتسارّوا ألّا يدخل عليهم مسكين يطلب منهم [﴿فلمّا رأوها﴾ أي](٤) حين جاؤوه وجدوا البستان كالليل الأسود قالوا أهلكه الله وطرقه طارق من أمر الله فأهلكه، فلمّا رأوا تلك الجنّة على تلك الصورة ﴿قالوا إنّا لضالّون﴾ أي اعترفوا بأنّهم قد عدلوا عن طريق الحقّ وجازوا عن سبيل الواجب وذهبوا عن طريق الرشاد. ثمّ استدركوا فقالوا: ﴿بل نحن محرومون﴾ ما كان لنا في جنّتنا. وتقديره: إنّا

(١) مجاز القرآن ٢: ٢٦٢، الكشف والبيان ١٠: ١٧.
(٢) راجع النكت والعيون ٦: ٦٨.
(٣) من الحجريّة.
(٤) في الخطّية والحجريّة: أنّهم.

لضالّون عن الحقّ في أمرنا فلذلك عوقبنا بـذهاب ثـمرها. و«الضـلال» الذهاب عن طريق الرشاد إلى طريق الهلاك بالفساد. و«الحـرمان» مـنع الخير الّذي كان ينال لولا ما حدث من سبب الانقطاع، يقال: حرَمه يحرِمه حرماناً فهو محروم في خلاف المرزوق. وقال قـتادة: مـعنى قـوله: ﴿إنّا لضالّون﴾ أي أخطأنا الطريق ما هذه جنّتنا. فقال بعضهم لبعض: ﴿بل نحن محرومون﴾.

وقوله: ﴿قال أوسطهم﴾ معناه: قال أعدلهم قولاً. في قول ابن عـبّاس والحسن ومجاهد وقتادة والضحّاك. والأوسط الكائن بين الأكبر والأصغر. والمراد هاهنا بين الأكبر والأصغر في الخروج عن القصد ﴿ألم أقل لكم﴾ على وجه التهجين لهم أما قلت لكم: ﴿لولا تسبّحون﴾ أي هلّا[١] تستثنون. و«التسبيح» التنزيه لله عمّا لا يجوز عليه في صفة، وهو التنزيه عن كـلّ صفة ذمّ ونقص، فلذلك جاز أن يسمّى الاستثناء بأن يشـاء الله تسـبيحاً. وقيل: معناه: لو[٢] لا تصلّون.

ثمّ حكى أنّهم[٣] ﴿قالوا سبحان ربّنا إنّا كنّا ظالمين﴾ ومعناه: أنّهم اعترفوا أنّ الله لم يظلمهم وأنّـهم[٤] ظـلموا أنـفسهم فـي عـزمهم عـلى حـرمان المساكين من حصّتهم عند الصرام مـن غـير استثناء، فـحرمنا قـطعها والانتفاع بها.

ثمّ [قال: ﴿فاقبل بعضهم على بعض يتلاومون﴾ أي][٥] يلوم بعضهم بعضاً

(١) في الخطّية زيادة: يعظّمون الله تعالى بعبادته واتّباع أمره. وقال مجاهد: يعني: لولا تسبّحون هلّا.
(٢) في الخطّية: لِمَ.
(٣) في الخطّية: إن.
(٤) في الخطّية: إن.
(٥) في الخطّية والحجريّة: حكى تعالى أنّ بعضهم أقبل على بعض.

ويذمّ بعضهم بعضاً.

ثمّ ﴿قالوا يا ويلنا﴾ فالويل: غلظ المكروه الشاقّ على النفس، والويس دونه، والويح وسط بينهما، وإنّما نودي بالويل بياناً عن حال الشدّة، كأنّه يقول: يا ويل تعال فإنّه من أحيانك ﴿إنّا كنّا طاغين﴾ أي علونا في الظلم وتجاوزنا الحدّ فيه. فالطغيان: العلوّ في الظلم، والداعي إليه طلب الارتفاع بغير استحقاق بالقهر والاعتصاب. وقيل: الطاغي المتجاوز للحدّ في الفساد. وقال عمرو بن عبيد: يجوز أن يكون ذلك منهم توبة وإيماناً، ويجوز أن يكون ذلك على حدّ ما يقول الكافر إذا وقع في الشدّة.

ثمّ قالوا: ﴿عسى ربّنا أن يبدلنا خيراً منها﴾ أي لمّا تابوا ورجعوا إلى الله قالوا لعلّ الله تعالى يخلف علينا ويولّينا خيراً من الجنّة الّتي هلكت ﴿إنّا إلى ربّنا راغبون﴾ أي نرغب إليه ونسأله ونتوب إليه ممّا فعلناه. فالتبديل: تثبيت شيء مكان غيره ممّا ينافيه، بدّله تبديلاً فهو مبدّل. ومثله التغيّر إلّا أنّ التبديل لا يكون إلّا في شيئين والتغيّر قد يكون للشيء الواحد.

وقرئ بالتشديد والتخفيف، فالتخفيف من الإبدال، والتشديد من التبديل، ومعناهما واحد.

وقوله: ﴿كذلك العذاب﴾ معناه: مثل ما فعلنا بهؤلاء هذا العذاب عاجلاً في دار الدنيا. ثمّ قال: ﴿ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾ إنّ هناك عقاباً وعذاباً. وخير من كذا أي أعظم نفعاً منه وأحسن في العقل، ومثله الأصلح والأولى والأجلّ، والأكبر هو الّذي يصغر مقدار غيره عنه بالإضافة إليه. وقد يكون أكبر شأناً وأكبر شخصاً.

قوله تعالى:

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَـٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَـٰنٌ عَلَيْنَا بَـٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ سبع آيات.

[أقول:][1] لمّا أخبر الله تعالى ما حلّ بالكفّار وما هو معدّ لهم في الآخرة أخبر بما للمؤمنين من أهل الطاعات، فقال: ﴿إنّ للمتّقين﴾ يعني: للّذين أمنوا عقاب الله باتّقاء معاصيه وفعل طاعاته ﴿عند ربّهم جنّات النعيم﴾ أي بساتين يتنعّمون فيها ويتلذّذون بها.

ثمّ قال على وجه الإنكار على الكفّار وأنّه لا يسوّى بينهم وبين المؤمنين فقال: ﴿أفنجعل المسلمين﴾ الّذين أسلموالله وانقادوا لطاعته وامتثلوا ما أمرهم به ﴿كالمجرمين﴾ أي مثل من عصاه وخرج عن طاعته وارتكب ما نهاه عنه ؟ ! فهذا لا يكون أبداً.

وقوله: ﴿مالكم كيف تحكمون﴾ تهجين لهم وتوبيخ. ومعناه: أعلى حال الصواب أم على حال الخطاء ؟ وعلى حال الرشاد أم الغيّ، فعلى أيّ حال تحكمون في[2] الأحوال الّتي تدعو إلى الفعل أحال الباطل أم حال الحقّ؟

وقوله: ﴿أم لكم كتاب فيه تدرسون﴾ معناه: ألكم كتاب تدرسون فيه خلاف ما قد قامت عليكم الحجّة به فأنتم متمسّكون به ولا تلتفتون إلى خلافه ؟ ! وليس الأمر على ذلك فإذاً قد عدمتم الثقة بما أنتم عليه، وفي

---

(١) من الحجريّة.

(٢) في الخطّية: من.

هذا عليكم أكبر الحجّة وأوكد الموعظة، لأنّ الكتاب الّذي تقوم به الحجّة حتّى لا يجوز خلافه إلى أن تقوم الساعة هو الّذي تشهد له المعجزة من غير إجازة نسخ له في حال ثانية، وهو القرآن الّذي فيه معنى الإعجاز من غير نسخ له فيما بعد في باقي الزمان.

وقوله: ﴿إنّ لكم فيه لما تخيّرون﴾ يحتمل أمرين:

أحدهما: أن يكون تقديره أم لكم كتاب فيه تدرسون بأنّ لكم ما تخيّرون إلّا أنّه حذفت الباء وكسرت «إنّ» لدخول اللام في الخبر.

الثاني: أن يكون ذلك خرج مخرج التوبيخ، وتقديره وإنّ لكم لما تخيّرون عند أنفسكم، والأمر بخلاف ظنّكم، لأنّه لا يجوز أن يكون ذلك خيراً مطلقاً.

وقوله: ﴿أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إنّ لكم لما تحكمون﴾ كسرت ﴿إنّ﴾ لدخول اللام في الخبر، والحكم خبر بمعنى يفصل الأمر على جهة القهر والمنع، وأصله المنع، من قول الشاعر:

أبني حنيفة أحكَموا سفهاءَكم إنّي أخاف عليكم أن أغْضَبا[1]

أي امنعوهم. ومنه الحكمة، لأنّها معرفة تمنع الفساد يصرفها عنه بما يذمّ به. والحكمة في الفعل المنعة من الفساد منه، ومنه حكمة الدابّة لمنعها إيّاها من الفساد.

وقوله: ﴿سلهم أيّهم بذلك زعيم﴾ قال ابن عبّاس وقتادة: زعيم أي كفيل والزعيم والكفيل والضمين والقبيل نظائر. والمعنى سلهم أيّهم زعيم ضامن يدّعي علينا أنّ لهم علينا أيماناً بالغة ؟ فلا يمكنهم ادّعاء ذلك.

(١) مرّ في ٣: ٢٨٦.

قوله تعالى:

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٤١) يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (٤٣) فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥)﴾ خمس آيات.

[أقول:](١) قوله: ﴿أم لهم شركاء﴾ توبيخ لهؤلاء الكفّار وإنكار عليهم اتّخاذ إله مع الله وتوجيه عبادتهم إليه، فقال: ﴿أم لهم شركاء﴾ في العبادة مع الله ﴿فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين﴾ أي شركاؤهم الّذين يقوم بهم الحجّة، فلا سبيل لهم إلى ذلك، فالحجّة لازمة لهم لأنّ كلّ دعوى لم يكن صاحبها أن يقيم البيّنة عليها فيلزمه أن يقيمها بغيره. و«الشريك» عبارة عمّن يختصّ بمعنى هو له ولغيره من غير انفراد به. وإنّما قلنا من غير انفراد به لنفرّق بين ما هو له ولغيره وهوله أيضاً كالغفران هو لهذا التائب ولتائب آخر، ولهذا التائب مطلقاً، فليس فيه شريك، وكذلك هذا العبد هو ملك لله تعالى، ولهذا المولى، وهولله على الإطلاق. فليس في هذا شركة، وإنّما قيل: الشركاء في الدعوى، لأنّها ممّا لو انفرد بعضهم عن أن يدّعيها لم يدّعها الآخر، كأنّهم تعاونوا عليها. فعلى هذا يحتمل أن يكون المعنى في الآية أم لهم شركاء يدّعون مثل ما يدّعيه هؤلاء الكفّار، فليأتوا بهم إن كانوا صادقين أي شركاء هم الّذين يقوم بهم الحجّة، ولا سبيل لهم إلى ذلك فهو لازم لهم.

وقوله: ﴿يوم يكشف عن ساق﴾ قال الزجّاج: هو متعلّق بقوله: ﴿فليأتوا

---

(١) من الحجريّة.

بشركائهم... يوم يكشف عن ساق﴾[١] وقال ابن عبّاس والحسن ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة والضحّاك: معناه: يوم يبدو عن الأمر الشديد القطيع من هول يوم القيامة. والساق ساق الإنسان، وساق الشجرة لما يقوم عليه بدنها، وكلّ نبت له ساق فهو شجر، قال الشاعر:

للفتى عقل يعيش به ... حيث تَهدي ساقَه قدمُه[٢]

فالمعنى: يوم يشتدّ الأمر كما يشتدّ ما يحتاج فيه إلى أن يقوم على ساق، وقد كثر في كلام العرب حتّى صار كالمثل فيقولون: قامت الحرب على ساق وكشفت عن ساق، قال [زهير بن جذيمة].

فإذ شمَّرتْ لك عن ساقها ... فَوَيْهاً ربيع ولا تسأم[٣]

وقال جدّ أبي طرفة:

كشفت لهم عن ساقها ... وبدا من الشرّ الصراحُ[٤]

وقال آخر:

قد شمّرتْ عن ساقها فشُدّوا ... وجَدَّتِ الحرب بكم فَجُدّوا
والقوس فيها وَتَرٌ غرد[٥]

وقوله: ﴿ويدعون إلى السجود﴾ قيل: معناه: أنّه يقال لهم على وجه التوبيخ: اسجدوا ﴿فلا يستطيعون﴾[٦] وقيل: معناه أنّ شدّة الأمر وصعوبة الحال تدعوهم إلى السجود، وإن كانوا لا ينتفعون به[٧].

ثمّ قال: ﴿خاشعة أبصارهم﴾ أي ذليلة أبصارهم لا يرفعون نظرهم

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢١٠.
(٢) ديوان طَرفة: ٨.
(٣) مجاز القرآن ٢: ٢٦٦، نسبه إلى قبس بن زهير بن حذيمة عبسي.
(٤) النكت والعيون ٦: ٧٠.
(٥) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢١٠.
(٦) تفسير الطبري ١٢: ٢٠١.
(٧) تفسير الطبري ١٢: ٢٠٠.

عن الأرض ذلّة ومهانة ﴿ترهقهم ذلّة﴾ معناه: تغشاهم ذلّة يقال: رهقه يرهقه رهقاً، فهو راهق إذا غشيه، ورهقه الفارس إذا أدركه، وراهق الغلام إذا أدرك.

وقوله: ﴿وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون﴾ يعني: دعاهم الله تعالى إلى السجود والخضوع له في دار الدنيا وزمان التكليف، فلم يفعلوا، فلا ينفعهم السجود في ذلك الوقت.

وقوله: ﴿فذرني ومن يكذّب بهذا الحديث﴾ تهديد، ومعناه: ذرني والمكذّبين، أي كِلْ أمرهم إليّ، كما يقول القائل: دعني وإيّاه.

وقوله: ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ معناه: سآخذهم إلى العقاب حالاً بعد حال.

وقوله: ﴿وأُملي لهم﴾ أي وأُطيل آجالهم وأؤخّرها ﴿إنّ كيدي متين﴾ أي قويّ. فكأنّه قال سنستدرج أعمالهم إلى عقابهم وإن أطلناها لهم نستخرج[1] ما عندهم قليلاً قليلاً. وأصله من الدرجة، لأنّ الراقي ينزل منها مرقاة مرقاة فأشبه هذا. ووجه الحكمة في ذلك أنّهم لو عرفوا الوقت الّذي يؤخذون فيه لكانوا آمنين إلى ذلك الوقت، وصاروا مغريين بالقبيح، والله تعالى لا يفعل ذلك.

قوله تعالى:

أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِالْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ

---

(١) في الخطّية والحجريّة: استخرج.

ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَـٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾ ستّ آيات.

[أقول:][١] قرأ نافع وحده ﴿ليزلقونك﴾ بفتح الياء من زلقتُ. الباقون بضمّها من أزلقتُ، وهما لغتان: زلقت، وأزلقت. قال الفرّاء: يقولون: زلقتُ شَعره وأزلقته إذا حلقته. والمعنى: ليرمون بك ويلقونك[٢].

يقول الله تعالى لنبّيه محمّد ﷺ على وجه التوبيخ للكفّار: ﴿أم تسألهم﴾ أي هل تسألهم ﴿أجراً﴾ يعني: ثواباً وجزاءً على دعائك إيّاهم إلى الله وتخويفك إيّاهم من المعاصي وأمرك إيّاهم بطاعة الله ﴿فهم من مغرم﴾ أي هم من لزوم ذلك ﴿مثقلون﴾ أي محمّلون، فالأجر: القسط من الخير الّذي يستحقّ بالعمل. و«المغرم» ما يلزم من الدين الّذي يُلَحّ في اقتضائه. وأصله اللزوم بالإلحاح، ومنه قوله: ﴿إنّ عذابها كان غراماً﴾[٣] أي لازماً ملحّاً قال الشاعر:

يوم الجِفار ويوم النِسار   كانا عذاباً وكانا غُراما[٤]

وقولهم: دفع مغرم، أي دفع الاقتضاء بالإلحاح. و«الغرم» ما يلزم بالاقتضاء على وجه الإلحاح فقط. و«المثقل» المحمّل للثقل، وهو ما فيه مشقّة على النفس كالمشقّة بالحمل الثقيل على الظهر. يقال: هو مثقل بالدَين، ومثقلبالعيال ومثقل بما عليه منالحقوق اللازمة والأُمور الواجبة.

وقوله: ﴿أم عندهم الغيب فهم يكتبون﴾ معناه: هل عندهم علم اختصّوا به لا يعلمه غيرهم، فهم يكتبونه ويتوارثونه بصحّة ما يدّعونه فينبغي أن

---

(١) من الحجريّة.
(٢) معاني القرآن ٣: ١٧٩.
(٣) الفرقان: ٦٥.
(٤) ديوان بشر بن أبي حازم الأسدي: ١٣٥.

يبرزوه.

ثمّ قال للنبيّ صلى الله عليه وآله: ﴿فاصبر لحكم ربّك﴾ الّذي حكم عليك بالصبر وأمهلهم إلى وقت آجالهم ﴿ولا تكن كصاحب الحوت﴾ يعني: ولا تكن في استعجال عقابهم مثل يونس حين طلب من الله تقديم عقاب قومه وإهلاكهم، ولا تخرج من بين ظهراني قومك كما خرج قبل أن يأذن الله لك في ذلك كما فعل يونس ﴿إذ نادى وهو مكظوم﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد: معناه: مغموم، كأن الغمّ قد حبسه عن الانبساط في أمره، و«المكظوم» المحبوس عن التصرّف في الأُمور، ومنه كظمت رأس القربة إذا شدّدت رأسها، وكظم غيظه إذا حبسه بقطعه عمّا يدعو إليه. وقال قتادة: لا تكن مثله في العجلة والمغاضبة، حتّى نادى يونس وهو ممنوع بقطعه عن شفاء غيظه، والّذي نادى به ﴿لا إله إلاّ أنت سبحانك إنّي كنت من الظالمين﴾[1] فجعله الله من الصالحين، بما بيّن لعباده من صلاحه، ويجوز بما لطف له حتّى صلح في كلّ ما أمره الله به. وفي الكلام حذف، وتقديره: ولا تكن كصاحب الحوت في استعجاله الخروج من بين قومه انتظاراً لنزول العذاب بهم، فلمّا رفع الله عنهم العذاب مضى على وجهه، فعاتبه على ذلك وحبسه في بطن الحوت، فلجأ إلى الله تعالى. وقوله ﴿إذ نادى﴾ متعلّق بتقدير: اذكر يا محمّد حاله إذ نادى، ولا يجوز أن يكون متعلّقاً بقوله: ﴿ولا تكن كصاحب الحوت﴾ حين نادى، لأنّ الله لا ينهى نبيّه أن يقول مثل ما قال يونس من الدعاء.

وقوله: ﴿لولا أن تداركه نعمة من ربّه﴾ معناه: لولا أنّ الله رحم يونس

---

(١) الأنبياء: ٨٧.

ولحقته نعمة من جهته ﴿لنبذ بالعراء﴾ أي لطرح بالصحراء الواسعة ﴿وهو مذموم﴾ قالوا هي الأرض العارية من النبات والأبنية وكلّ حال ساترة. وقال الفرّاء: الفضاء من الأرض العاري[1] قال الشاعر وهو قيس بن جعدة:

ورفعتُ رِجْلاً لا أخاف عثارها ونبَذتُ بالبلد العراء ثيابي[2]

وقوله: ﴿وهو مذموم﴾ قال ابن عبّاس: وهو مليم أي أتى بما يلام عليه، ولكنّ الله تعالى تداركه برحمة من عنده، فطرح بالعراء وهو غير مذموم.

وقوله: ﴿فاجتباه ربّه فجعله من الصالحين﴾ معناه: اختار الله يونساً فجعله من جملة الصالحين المطيعين لله التاركين لمعاصيه.

وقوله: ﴿وإن يكاد الّذين كفروا﴾ قال النحويّون: «إن» هذه المخفّفة عن الثقيلة، لأنّها لو كانت للشرط لجزم «يكد» وتقديره: وإن يكاد الّذين كفروا أي قارب الّذين كفروا ﴿ليزلقونك بأبصارهم﴾ أي يرمون بك عند نظرهم غيظاً عليك، قال الشاعر:

يتلاحظون إذا التقوا في مَحْفِل نظراً يزيل مواقع الأقدام[3]

ويكاد يصرعه بحدّة نظره. وقيل: كان الرجل إذا أراد أن يصيب صاحبه بالعين تجوّع ثلاثة أيّام ثمّ نظره فيصرعه بذلك، والمفسّرون كلّهم على أنّ المراد بإزلاقهم له بأبصارهم من الإصابة بالعين. وقال الجُبّائي منكراً لذلك: إنّ هذا ليس بصحيح، لأنّ هذا من نظر العداوة وذلك عندهم من نظر المحبّة على أنّ إصابة العين ليس بصحيح. قال الرُمّاني: وهذا الّذي ذكره ليس بصحيح، لأنّه لا يمتنع أن يكون الله تعالى أجرى العادة بصحّة

---

(١) معاني القرآن ٣: ١٧٨. (٢) مجاز القرآن ٢: ١٧٥ و٢٦٦، تفسير الطبري ١٢: ٢٠٣.

(٣) الكشف والبيان ١٠: ٢٤ مع اختلاف.

ذلك لضرب من المصلحة، فلا وجه للامتناع من ذلك، وعليه إجماع المفسّرين، وهو المعروف بين العقلاء والمسلمين وغيرهم، فينبغي أن يكون مجوّزاً. وروي «أنّ أسماء بنت عميس قالت: يا رسول اللهﷺ إنّ بني جعفر يصيبهم العين، فأسترقي لهم، قال: نعم، فلو كان شيء سابق القدر سبقته العين»[١].

وقيل: إنّهم كانوا يقولون: ما أظهر حججه، وما أفصح كلامه، وما أبلغ خطابه، يريدون بذلك أن يعينوه به[٢]. قال البلخي: المعنى أنّهم كانوا ينظرون إليه نظر عداوة وتوعّد، ونظر من يهمّ به، كما يقول القائل: يكاد يصرعني بشدّة نظره، قال الشاعر:

يتعارضون إذا التقوا في موطن نظراً يزيل مواضع الأقدام[٣]

أي ينظر بعضهم إلى بعض نظراً شديداً بالبغضاء والعداوة، ونظر يزيل الأقدام عن مواضعها أي يكاد يزيل.

وقوله: ﴿لمّا سمعوا الذكر﴾ يعني القرآن ﴿ويقولون﴾ مع ذلك ﴿إنّه لمجنون﴾ قد غلب على عقله، قالوا ذلك فيه مع علمهم بوقارة عقله تكذّباً عليه ومعاندة له. فقال الله تعالى ردّاً عليهم: ﴿وما هو﴾ أي ليس هذا القرآن ﴿إلّا ذكر للعالمين﴾ أي شرف إلى أن تقوم الساعة.

---

(١) سنن ابن ماجة ٢: ١١٦٠/٣٥١٠.
(٢) راجع معاني القرآن ٣: ١٧٩.
(٣) مرّ في الصفحة الّتي قبلها.

سورة الحاقّة

مكّية في قول ابن عبّاس والضحّاك وغيرهما، وهي اثنتان وخمسون آية في الكوفي والمدنيّين، وإحدى وخمسون في البصري.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تبارك وتعالى:

﴿ٱلْحَاقَّةُ (١) مَا ٱلْحَاقَّةُ (٢) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ (٨) وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ (٩) فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً (١٠)﴾ عشر آيات.

[أقول:][(١)] قرأ أهل البصرة والكسائي ﴿ومن قبله﴾ بكسر القاف. الباقون بفتحها. قال ابن عبّاس وقتادة والضحّاك وابن زيد وغيرهم: إنّ الحاقّة اسم من أسماء القيامة وسمّيت بذلك لأنّها الساعة الّتي يحقّ فيها

---

(١) من الحجريّة.

الجزاء على الأعمال، الضلال والهدى. وقال الفرّاء: تقول العرب الحقّة متى هربت والحقّة والحاقّة، كلّ ذلك بمعنى واحد[١].

والعامل في ﴿الحاقّة﴾ أحد شيئين:

أحدهما: الابتداء، والخبر ﴿ما الحاقّة﴾ كأنّه قال: الحاقّة أيّ شيء هي؟

الثاني: أن يكون خبر ابتداء محذوف، كأنّه قيل هذه الحاقّة، ثمّ قيل أيّ شيء الحاقّة؟ تفخيماً لشأنها، وتقديره: هذه سورة الحاقّة.

وقوله: ﴿ما أدريك ما الحاقّة﴾ قال سفيان: يقال للمعلوم: ما أدريك، ولما ليس بمعلوم: وما يدريك، في جميع القرآن. وإنّما قال لمن يعلمها: ما أدريك لأنّه إنّما يعلمها بالصفة، فعلى ذلك قال تفخيماً لشأنها أي كأنّك لست تعلمها إذا لم تعاينها وترى ما فيها من الأهوال.

وقوله: ﴿كذّبت ثمود وعاد بالقارعة﴾ إخبار من الله تعالى أنّ ثمود وهم قوم صالح وعاداً وهم قوم هود كذّبوا بيوم القيامة فأنكروا البعث والنشور والثواب والعقاب. قال ابن عبّاس وقتادة: القارعة اسم من أسماء القيامة، وسمّيت القارعة، لأنّها تقرع قلوب العباد بالمخافة إلى أن يصير المؤمنون إلى الأمن. وإنّما حسن أن يوضع القارعة موضع الكناية لتذكر بهذه الصفة الهائلة بعد ذكرها بأنّها الحاقّة، وإلّا كان يكفي أن يقول: كذّبت ثمود وعاد بها. وقوله: الحاقّة، والطامّة[٢] والصاخّة[٣] أسماء يوم القيامة. والوقف على الحاقّة حسن وأتمّ منه: ﴿ما الحاقّة﴾ و﴿ما أدراك﴾ كلّ ما في القرآن بلفظ الماضي، فقد أدراه ﷺ وما كان بلفظ يدريه، فلم يعلمه. يقال: دريت الشيء دراية أي علمته، ودريت الصيد أي ختلته ودرأته دفعته.

---

(١) معاني القرآن ٣: ١٧٩. (٢) النازعات: ٣٤. (٣) عبس: ٣٣.

ثمّ أخبر تعالى عن كيفيّة إهلاكهم، فقال: ﴿فأمّا ثمود فأُهلكوا بالطاغية﴾ فالطاغية: مصدر مثل العاقبة، والمعنى فأُهلكوا بطغيانهم، في قول أبي‌عبيدة[١]. وقيل: معناه أُهلكوا بالخصلة المتجاوزة لحال غيرها في الشدّة، أهلك الله تعالى بها أهل الفساد[٢]. وقد مضى فيما تقدّم أنّ الله أهلك ثمود بالصيحة العظيمة الّتي اصبحوا بها ﴿جاثمين﴾[٣] أي ميّتين هالكين. قال الزجّاج: تقديره فأُهلكوا بالرجفة الطاغية[٤].

ثمّ أخبر تعالى عن كيفيّة هلاك عاد، فقال: ﴿وأمّا عاد فأُهلكوا بريح صرصر﴾ فالريح: عبارة عن الهواء إذا كانت فيها حركة باعتماد ظاهرة، فإذا سكن لا يسمّى ريحاً، واشتقاقه من راح يروح روحاً إذا رجع إلى منزله. و«الصرصر» الريح الشديدة الصوت بما يسمع لها من الصرير في شدّة حركتها، يقال: صرّ وصرصر، كأنّه مضاعف منه، فالصرصر: الشديد العصوف المجاوزة لحدّها المعروف. وقال قتادة: صرصر باردة فكأنّه يصطلّ الأسنان بما يسمع من صوتها لشدّة بردها، ويقال: صرصر وصلصل إذا تكرّر الصوت، وهو مضاعف صرّ وصلّ، في قول الزجّاج [٥].

وقوله: ﴿عاتية﴾ قيل عتت تلك الرياح على خزّانها في شدّة الهبوب. و«العاتي» الخارج إلى غلظ الأمر الّذي يدعو إليه قساوة القلب، يقال: عتا يعتو عتوّاً فهو عاتٍ والريح عاتية تشبيهاً بحال العاتي في الشدّة.

وقوله: ﴿سخّرها عليهم سبع ليال وثمانية أيّام﴾ إخبار منه تعالى أنّه أهلكهم بهذه الريح في مدّة سبع ليال وثمانية أيّام، لما في ذلك من

---

(١) مجاز القرآن ٢: ٢٦٧.
(٢) راجع معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢١٤.
(٣) هود: ٦٧.
(٤ و٥) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢١٣ ـ ٢١٤.

الإرهاب والتخويف، وما يتعلّق به من المصلحة لغيرهم في التكليف.

وقوله: ﴿حسوماً﴾ أي قاطعة قطع عذاب الاستئصال، وأصله القطع حسم طمعه من كذا إذا قطعه، حسم يحسِم حسماً إذا قطع، وانحسم الشرّ إذا انقطع. وقال عبد الله بن مسعود وابن عبّاس ومجاهد وقتادة: معنى ﴿حسوماً﴾ تباعاً متوالية مأخوذاً من حسم الداء بمتابعة الكيّ عليه، فكأنّه تتابع الشرّ عليهم حتّى استأصلهم. وقيل: ﴿حسوماً﴾ قطوعاً لم يبق منهم أحد[١] ونصب ﴿حسوماً﴾ على المصدر أي يحسمهم حسوماً.

ثمّ قال: ﴿فترى القوم فيها﴾ أي تشاهد القوم الهلكى في تلك الأيّام والليالي صرعى مطرحين ﴿كأنّهم أعجاز نخل خاوية﴾ أي كأنّهم أُصول نخل نخرة، في قول قتادة. وقال السدّي: الخاوي الفارغ.

وقوله: ﴿فهل ترى لهم من باقية﴾ أي من نفس باقية، وقيل : معناه فهل ترى لهم من بقاء[٢] فالباقية: بمعنى المصدر مثل العافية والطاغية. ومعناه: فهل ترى لهم من بقيّة[٣].

وقوله: ﴿وجاء فرعون ومن قبله﴾ أي جاء فرعون ومن معه من قومه، على قراءة من قرأ ﴿قبله﴾ بكسر القاف وفتح الباء. ومن قرأ بفتح القاف وسكون الباء أراد والّذين قبله من الكفّار ﴿والمؤتفكات﴾ يعني: وجاء أهل القرى المؤتفكات أي المنقلبات بأهلها، في قول قتادة. وهي قرى قوم لوط ﴿بالخاطئة﴾ أي بالأفعال الخاطئة أو بالنفس الخاطئة، وقيل: بالخاطئة أي أخطأت الحقّ إلى الباطل والفساد[٤].

---

(١) النكت والعيون ٦: ٧٨.
(٢) معاني القرآن ٣: ١٨٠.
(٣) راجع مجاز القرآن ٢: ٢٦٧.
(٤) راجع معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢١٥.

﴿فعصوا رسول ربّهم فأخذهم﴾ الله على كفرهم وعصيانهم ﴿أخذة رابية﴾ أي زائدة في الشدّة من ربا يربو إذا زاد. وقرأ أبو عمرو والكسائي وأبو بكر عن عاصم ﴿ومن قبله﴾ بكسر القاف وفتح الباء. الباقون بفتح القاف وسكون الباء. وحجّة أبي عمرو أنّ في قراءة أُبيّ ﴿جاء فرعون ومن معه﴾. وقرأ أبو موسى «ومن تلقاه». وأراد الباقون أنّه جاء فرعون ومَن قبْل فرعون من الكفّار.

قوله تعالى:

إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَـٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ ثمان آيات.

[أقول:][١] قرأ﴿لا يخفى﴾ بالياء أهل الكوفة[٢] لأنّ تأنيث ﴿خافية﴾ ليس بحقيقي. وقد فصّل بينها وبين الفعل فاصل. الباقون بالتاء على لفظ التأنيث. والتقدير لا يخفى عليه شيء منكم نفس خافية.

يقول الله تعالى مخبراً عمّا فعل بقوم نوح وفرعون وقومه على وجه الامتنان على خلقه بما فعل بهم من الهلاك الّذي فيه زجر لغيرهم عن الكفر وارتكاب المعاصي: ﴿إنّا لمّا طغى الماء﴾ ومعناه: لمّا تجاوز الماء الحدّ المعروف في العظم حتّى غرقت الأرض بمن عليها إلّا من شاء الله نجاته، وذلك في زمن نوح عليه السلام وغرق فرعون وقومه بانطباق

(١) من الحجريّة.

(٢) في الخطّية والحجريّة: ﴿لا يخفي﴾ بالياء كوفي.

البحر عليهم. وقال ابن عبّاس ومجاهد: معنى طغى الماء كثر، وغرّق الله ـ عزّ وجلّ ـ قوم نوح. وقال قتادة: ارتفع على كلّ شيء خمس عشرة[١] ذراعاً. وقوله: ﴿حملناكم في الجارية﴾ أي حملنا أباكم نوحاً ومن كان معه من ولده المؤمنين في السفينة. فالجارية: السفينة الّتي من شأنها أن تجري على الماء، ومنه قوله: ﴿وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام﴾[٢] و«الجارية» المرأة الشابّة تسمّى بذلك، لأنّها يجري فيها ماء الشباب. والحمل إمساك الشيء بالوضع على غيره، تقول حملته حملاً. والحمل بفتح الحاء ما كان في البطن أو الشجر، وبكسر الحاء ما كان على الظهر.

ووجه التذكرة بذلك أنّ نجاة من فيها وتغريق من سواهم يقتضي أنّه من مدبّر مختار وفي أمر لم تجربه عادة، فيلتبس أنّه من فعل الطبيعة. ثمّ بيّن تعالى الغرض بما فعله فقال: ﴿لنجعلها﴾ يعني: السفينة ﴿لكم تذكرة﴾ تتذكّرون بها أنعم الله وتشكرونه عليها وتتفكّرون فيها ﴿وتعيها أُذن واعية﴾ أي وتحفظها أُذن حافظة، يقال: وعيت العلم، وأوعيت المتاع في الوعاء، ويقال: وعي قلبه العلم يعيه وعياً، وقال الشاعر

إذا لم تكن واعياً حافظاً   فجمعك للكتب لا ينفع

فمعنى ﴿واعية﴾ ممسكة ما يحصل فيها. وقال ابن عبّاس: حافظة. وقيل: قابلة سامعة[٣]. وقيل: إنّه لمّا نزلت هذه الآية قال النبيّ صلى الله عليه وآله: «اللّهمّ اجعلها أُذن عليّ عليه السلام» ورواه الطبري باسناده عن مكحول. ثمّ قال عليّ عليه السلام: «فما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله شيئاً فنسيته»[٤] وروى الحلواني

---

(١) في الخطّية: خمسة عشر.
(٢) الرحمن: ٢٤.
(٣) النكت والعيون ٦: ٨٠.
(٤) تفسير الطبري ١٢: ٢١٣.

عن ابن كثير ﴿وتعيها﴾ بسكون العين جعله مثل فخذ وفخذ[١]. الباقون بكسرها، لأنّه مضارع وعى يعي. وأصله يَوعي فحذفت الواو لوقوعها بين فتحة وكسرة، ومعنى الآية تحفظها كلّ أُذُن ليكون عظة لمن يأتي بعدهم. روى الطبري بإسناده عن عكرمة عن بريدة أنّه قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «اللّهمّ اجعلها اذن عليّ. ثمّ قال عليّ عليه السلام: ما سمعت من رسول الله شيئاً فنسيته». وروى بإسناده عن بريدة قال: سمعت رسول الله عليه وآله يقول لعليّ عليه السلام: «يا عليّ إنّ الله أمرني أن أُدْنيك ولا أُقصيك وأن أُعلّمك وأن تعي وحقّ على الله أن تعي قال: ونزلت الآية»[٢].

وقوله: ﴿فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة﴾ فهي النفخة الأُولى الّتي يصعق لها من في السماوات ومن في الأرض.

﴿وحملت الأرض والجبال فدكّتا دكّة واحدة﴾ قال ابن زيد: ضرب بعضها على بعض حتّى صارتا غباراً. وقيل: معناه بسطتا بسطة واحدة، ومنه الدكّان، ويقال: اندكّ سنام البعير إذا انفرش في ظهره وقيل: المعنى حملت الأرض والجبال فصكّ بعضها على بعض حتّى تندكّ، وإنّما قيل: فدكّتا لأنّه جعل الجبال جملة والأرض جملة. ومثله ﴿أنّ السماوات والأرض كانتا رتقاً﴾[٣] لأنّ السماوات جملة واحدة[٤].

ثمّ قال: ﴿فيومئذ﴾ أي يوم تدكّ السماوات والأرض وتنفخ النفخة الواحدة ﴿وقعت الواقعة﴾ يعني: القيامة، وسمّيت واقعة لشدّة وقعتها بما ليس لغيرها مثل تلك الشدّة.

---

(١) الحجّة للقرّاء السبعة ٤: ٦٠.
(٢) تفسير الطبري ١٢: ٢١٣.
(٣) الأنبياء: ٣٠.
(٤) معاني القرآن ٣: ١٨١، الكشف والبيان ١٠: ٢٨.

ثمّ قال: ﴿وانشقّت السماء﴾ أي انفرج بعضها عن بعض، يقال: انشقّ الشيء ينشقّ انشقاقاً، وتشقّق تشقّقاً إذا تفطّر واشتقّ منه كذا اشتقاقاً، ومنه اشتقاق الصفة من المصدر، لأنّ معناه وحروفه فيها دون صورته، فهي مأخوذة منه على هذا الوجه.

وقوله: ﴿فهي يومئذ واهية﴾ أي شديدة الضعف بانتقاض بنيتها ولا ينظر أهول من رؤية السماء في هذه الهيأة، يقال: وَهى الشيء يهي وَهْياً، فهو واهٍ أي لا يستمسك لضعفه بنقض بنيته. وقيل: هو تغيّر السماء بعد صلابتها بمنزلة الصوف في الوهي والضعف. وقيل: السماء مكان الملائكة، فإذا وهت صارت في نواحيها[١].

وقوله: ﴿والملك على أرجائها﴾ فالأرجاء النواحي واحدها رجا، مقصور وتثّنى رجوان بالواو، والرجا جانب البئر، قال الشاعر:

فلا ترمي بي الرجوان أنّي   أقلّ القوم من يُغني مكاني[٢]

وهو من رجوت، لأنّ الجانب يرجى فيه السلامة مع خوف السقوط، والملائكة ذلك اليوم على جوانب السماء تنتظر ما تؤمر به في أهل النار من السوق إليها، وفي أهل الجنّة من التحيّة والتكرمة فيها.

وقوله: ﴿ويحمل عرش ربّك فوقهم يومئذ ثمانية﴾ يعني فوق الخلائق ﴿يومئذ﴾ يعني: يوم القيامة «ثمانية» من الملائكة. وقيل: على أرجائها، لأنّ الناس إذا رأوا جهنّم بدروا هاربين فتردّهم الملائكة، في قول الضحّاك. وقال الحسن وقتادة وسفيان ﴿على أرجائها﴾ يعني: نواحيها. وقال ابن عبّاس ﴿يحمل عرش ربّك فوقهم يومئذ ثمانية﴾ صفوف من

---

(١) راجع تفسير الطبري ١٢: ٢١٤ ـ ٢١٥.

(٢) تفسير القرطبي ١٨: ٢٦٦.

الملائكة لا يعلم عددهم إلّا الله. وروي في خبر مرفوع عن النبيّ صلى الله عليه وآله «أنّه يحمل العرش ثمانية أملاك.» وهو قول ابن زيد[١] والمعنى في حمل العرش بثمانية أملاك هو الإخبار بأنّه عظيم محتاج أن يحمله من كلّ زاوية ملكان، لا يفي به لعظمه أقلّ من ذلك، وبهذا يتصوّر عظمه في النفس[٢].

وقوله: ﴿يومئذ تعرضون﴾ يعني: يوم القيامة تعرضون معاشر المكلّفين ﴿لا تخفى منكم خافية﴾ فروي في خبر مرفوع ـ ذكره ابن مسعود وقتادة ـ «أنّ الخلق يعرضون ثلاث عرضات اثنتان فيها معاذير وجدال، والثالثة تطائر الصحف في الأيدي فآخذ بيمينه وآخذ بشماله»[٣] وليس يعرض الله الخلق ليعلم من حالهم ما لم يعلمه بل هو عالم بجميع ما كان منهم، لأنّه عالم لنفسه لكن ليظهر ذلك لخلقه.

قوله تعالى:

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَـٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَـٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ ستّ آيات.

[أقول:][٤] قال الفرّاء: نزلت هذه الآية في أبي سلمة بن عبد الأسد، وكان مؤمناً، وكان أخوه الأسود بن عبد الأسد كافراً، نزلت فيه الآية الّتي بعدها[٥].

قسّم الله تعالى حال المكلّفين يوم القيامة، فقال: ﴿فأمّا من أُوتي﴾ أي

---

(١) راجع تفسير الطبري ١٢: ٢١٦.
(٢) في الخطّية والحجريّة: في نفسه.
(٣) راجع مسند أحمد بن حنبل ٤: ٤١٤.
(٤) من الحجريّة.
(٥) معاني القرآن ٣: ١٨٢.

أُعطي ﴿كتابه﴾ الّذي فيه أعماله ﴿بيمينه فيقول هاؤم اقرأوا﴾ قال ابن زيد: يقول المكلّف تعالوا اقرأوا ﴿كتابيه﴾ ليعلمهم أنّه ليس فيه إلّا الطاعات، فلا يستحيون أن ينظر فيها غيرهم، وأهل الحجاز يقولون: ها يا رجل، وللاثنين هاؤما، وللجمع هاءموا، وللمرأة هاء ـ بهمزة ـ وليس بعدها ياء، وللمرأتين هاؤما، وللجماعة هاؤنّ يانسوة. وتميم وقيس يقولون: ها يا رجل مثل قول أهل الحجاز، وللاثنين هاءا، وللثلاثة هاءوا، وللمرأة هائي، وربّما قالوا: هاء يا هذه، وللثلاثة هان. وبعض العرب يجعل مكان الهمزة كافاً، فيقول: هاك بغير همزة، ويؤمر بها ولا ينهى. و«هاء» بمنزلة خذْ وتناولْ[1]. ووقف الكسائي على ﴿هاؤم﴾ وابتدأ﴿اقرأوا كتابيه﴾.

ويقول أيضاً: ﴿إني ظننت أنّي ملاق حسابيه﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد وقتادة: معناه إنّي علمت، وإنّما حسن هذا فيما يلزم العمل به لتأكّد أمره بالظنّ، كما يلزم بالعلم مع مقاومة الظنّ للعلم بالقوّة في النفس إلّا أنّ العلم معه قوّة ينتهي إلى الثقة الثابتة بسكون النفس. والمعنى أنّي كنت متيقّناً في دار الدنيا بأنّي ألقى حسابي يوم القيامة، واعلم أنّي أُجازي على الطاعة بالثواب وعلى المعاصي بالعقاب، وأعمل بما يجب عليّ من الطاعات واجتناب المعاصي.

ثمّ أخبر تعالى عن حال من أُعطي كتابه بيمينه فقال: ﴿فهو في عيشة راضية﴾ أي في عيشة مرضيّة. تقول: عاش يعيش عيشاً وعيشة، وهي الحالة الّتي تستمرّ بها الحياة، ومنه المعاش الّذي يطلب التصرّف له بعائد النفع عليه. وراضية معناه: مرضيّة. فـ«فاعلة» بمعنى «مفعولة» لأنّه في

(١) راجع معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢١٧، النكت والعيون ٦: ٨٣.

معنى ذات رضاً، كما قيل: لابِن وتامِر، أي ذو لبن وذو تمر. قال النابغة:

كِليني لِـهمّ يـا أُمَـيْمة نـاصبٍ   وليلٍ أُقاسيه بَطيء الكواكبِ[١]

أي ذو نصب، فكأنّ العيشة أُعطيت حتّى رضيت، لأنّها بمنزلة الطالبة كما أنّ الشهوة بمنزلة الطالبة للمشتهي. وقيل: هو كقولهم: ليل نائم وسرّ كاتم وماء دافق، على وجه المبالغة في الصفة من غير التباس في المعنى. فعلى هذا جاء عيشة راضية، ولا يجوز على هذا القياس زيد ضارب بمعنى مضروب لأنّه يلتبس به[٢].

وقوله: ﴿في جنّة عالية﴾ أي بستان أجنّه الشجر مرتفعة، فالعِلْو: الجهة المقابلة لجهة السفل، والعلو والسفل متضمّن بالإضافة، فيكون العلو سفلاً إذا أضفته إلى ما فوقه، ويكون علواً إذا أُضيف إلى ما تحته.

وقوله: ﴿قطوفها دانية﴾ أي أخذ ثمرها، فالقطف: أخذ الثمرة بسرعة من موضعها من الشجر، وهو قطوفها[٣] كأنّه قال دانية المتناول، قطف يقطِف قَطفاً فهو قاطف، وقطّف تقطيفاً. و«الدنوّ» القرب، دنا يدنو دنوّاً فهو دان، وتدانيا تدانياً وأحدهما أدنى إلينا من الآخر. وقال قتادة: معناه: قطوفها دانية لا يردّ أيديهم عن ثمرها بُعْدٌ ولا شوك.

ثمّ حكى تعالى ما يقال لهم فإنّه يقال لهم: ﴿كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم﴾ وصورته صورة الأمر والمراد به الإباحة، كما قال: ﴿وإذا حللتم فاصطادوا﴾[٤] وقال قوم: إنّه أمر على الحقيقة، لأنّ الله يريد من أهل الجنّة الأكل والشرب لما لهم في ذلك من زيادة السرور إذا علموا ذلك. وإنّما

---

(١) ديوان النابغة الذبياني: ٤٨.
(٢) تفسير الطبري ١٢: ٢١٨.
(٣) في الخطّية: قطوف.
(٤) المائدة: ٢.

لا يريد ذلك في الدنيا، لأنّه عبث لا فائدة فيه[١].

وقوله: ﴿هنيئاً﴾ معناه: مريئاً ليس فيه ما يؤذي، فليس يحتاج فيه إلى إخراج فضل لغائط ولا بول.

وقوله: ﴿بما أسلفتم﴾ أي جزاء على ما عملتموه من الطاعة ﴿في الأيّام الخالية﴾ أي الماضية في دار التكليف.

قوله تعالى:

وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَـٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَـٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَـٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَـٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُ إِلَّا ٱلْخَـٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ ثلاث عشرة آية.

[أقول:][٢] لمّا حكى الله تعالى قصّة أهل الجنّة وشرح أحوالهم، حكى ـ هاهنا ـ قصّة أهل النار وشرح أحوالهم، فقال: ﴿وأما من أُوتي كتابه﴾ يعني: من أُعطي كتابه الّذي فيه أعماله مثبتة ﴿بشماله﴾ وإنّما يعطي الله هؤلاء كتابهم بشمالهم، لأنّه جعل ذلك أمارة للملائكة والخلائق على أنّ صاحبه من أهل النار، فهو إذا أُعطي كتابه في شماله يقول عند ذلك متمنّياً متحسّراً على ما فَرط: ﴿يا ليتني لم أُوت كتابيه.... ﴾ أي ليتني لم أُعطَ هذا الكتاب. و«التمنّي» هو قول القائل لِما كان: ليته لم يكن، ولِما لم يكن: ليته كان، فهو من صفات الكلام. وقال قوم: هو معنى في النفس، فهؤلاء الّذين

---

(١) راجع الكشف والبيان ١٠: ٣٠.

(٢) من الحجريّة.

يعطون كتابهم بشمالهم يتمنّون أن لم يعطوا كتابهم أصلاً. ولم يدروا ما حسابهم لا ما لهم ولا ما عليهم، لأنّ أعمالهم كلّها معاصي، وهم يستحقّون العقاب لا غير، فلذلك يتمنّون أن لا يعرفوا حسابهم. و«الحساب» إخراج الكثير ممّا تضمن معنى العدّة، وهو محتمل الزيادة والنقصان. وتمنّي أهل الكفر معناه: التحسّر والتندّم وإن خرج مخرج التمنّي.

ثمّ حكى تعالى أنّهم لِعظَم ما دُفِعوا إليه من العقاب والأهوال يتندمون ويتحسّرون ويتمنّون أن لو كانت القاضية بدلاً ممّا هم فيه. قال الفرّاء: معناه: ليت الموتة الأُولى الّتي مُتْنا لم نُحيَ بعدها[١]. و«القاضية» الفاصلة بالإماتة، يقال: قضى فلان إذا مات، وأصله فصل الأمر، ومنه قضيّة الحاكم، وجمعها قضايا، ومنه قضاء الله، وهو الإخبار بأنّه يكون على القطع. والهاء في «ياليتها» كناية عن الحالة الّتي هم فيها، وقيل: كناية عن الموتة[٢]. قال قتادة: يعني الموت، ولم يكن عنده في الدنيا شيء أكْره منه.

ثمّ حكى أنّه يقول: ﴿ما أغنى عنّي ماليه﴾ ومعناه: ما كفاني في صرف المكروه ولا صرف عنّي شيئاً من عقاب الله تعالى، يقال: أغنى يغني غنى وإغناء. قال ابن زيد: معناه: ما نفعني ملكي الّذي كان لي في الدنيا.

وقوله: ﴿هلك عنّي سلطانيه﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد والضحّاك: هلك عنّي حجّتي. وقال الحسن: قد جعل الله لكلّ إنسان سلطاناً على نفسه ودِينه وعيشه. وقال قوم: معناه هلك عنّي تسلّطي وأمري ونهيي في دار الدنيا على ما كنت مسلّطاً عليه لا أمر لي ولا نهي[٣] فالهلاك: ذهاب الشيء بحيث لا يقع عليه إحساس، هلك يهلك هُلوكاً، فهو هالك. قال

(١) معاني القرآن ٣: ١٨٢. (٢) الكشف والبيان ١٠: ٣١. (٣) راجع النكت والعيون ٦: ٨٥.

الزجّاج: والوجه أن يوقف على هذه الهاآت ولا توصل، لأنّها أُدخلت للوقف، وقد حذفها قوم. وفي ذلك مخالفة المصحف، فلا أُحبّ حذفها. قال: ولا أُحبّ أن أصل وأُثبت الهاء، فإنّ هذه رؤوس الآي فالوجه الوقف عندها. وكذلك قوله[1]: ﴿وما أدريك ما هيه﴾[2] وقد وصل بلا هاء الكسائي. الباقون بالهاء في الحالين.

ثمّ حكى ما يقول الله تعالى للملائكة ويأمرهم به، فإنّه يقول لهم: ﴿خذوه﴾ يعني: الكافر الّذي أُعطي كتابه بشماله ﴿فغلّوه﴾ أي أوثِقوه بالغلّ، وهو أن يشدّ إحدى يديه أو رجليه إلى عنقه بجامعة.

﴿ثمّ الجحيم صلّوه﴾ فالجحيم هي النار الغليظة، لأنّ النار قد تكون ضعيفة كنار السراج ونار القدح، وقد تكون قويّة كنار الحريق. فلا يقال لنار السراج: جحيم، وهو اسم علم على نار جهنّم الّتي أعدّها الله للكفّار والعصاة. و«التصلية» إلزام النار، ومنه الاصطلاء وهو القعود عند النار للدَفَأ، وأصله لزوم الأمر، فمنه المصلّي الّذي في أثر السابق، ومنه قول الشاعر:

وصلى على دنّها وارتسم[3]

أي لزم الدعاء لها.

وقوله: ﴿ثمّ في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه﴾ تقديره: ثمّ اسلكوه في سلسلة طولها سبعون ذراعاً فاسلكوه فيها. فالسلسلة: حلق منتظمة كلّ واحدة منها في الأُخرى، ومنه يقال: سلسل كلامه إذا عقده شيئاً بعد شيء، وتسلسل إذا استمرّ شيئاً قبل شيء على الولاء والانتظام. و«الذرع»

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢١٧. (٢) القارعة: ١٠. (٣) مرّ في ٣: ٩٥.

أخذ قدر الذراع مرّة أو أكثر، ذرع الرجل الثوب يذرَعه ذرعاً، فهو ذراع، والثوب مذروع، مأخوذ من الذراع، وهو العضو الّذي يكون في طرف الكفّ من الإنسان. وقيل: اسلكوه في السلسلة، لأنّه يأخذ عنقه فيها، ثمّ يجرّ بها. وقال الضحّاك: إنّها تدخل في فيه وتخرج من دبره. وقيل: المعنى: ثمّ اسلك السلسلة فيه فقلب كما يقال: أدخلت القلنسوة في رأسي، وإنّما أدخل رأسه فيها، وكما قال الأعشى:

[غضوب من السوط زيافة] إذا ما أرتدي بالسراة الأكَم[1]

وإنّما السراة ترتدي بالأكم[2]، ولكنّه قلب، فهو يجري مجرى التقديم والتأخير اتّساعاً في اللغة من غير إخلال بالمعنى. ويقولون أيضاً: أدخلتُ الخاتم في يدي، والخفّ في رجلي، وإنّما تدخل اليد والرجل في الخاتم والخفّ، فقلب[3].

ثمّ بيّن تعالى لِمَ فعل به ذلك ؟ وعلى أيّ شيء استحقّه، فقال: ﴿إنّه كان لا يؤمن بالله﴾ أي لم يكن يوحّد الله في دار التكليف ولم يصدّق بالله ﴿العظيم﴾ في صفاته الّتي لا يشاركه فيها غيره.

﴿ولا يحضّ على طعام المسكين﴾ أي لا يحثّ على ذلك ممّا يجب عليه من الزكاة والكفّارات والنذور.

ثمّ قال تعالى: ﴿فليس له﴾ يعني: للكافر ﴿اليوم هاهنا﴾ يعني: يوم القيامة ﴿حميم﴾ وهو القريب الّذي يحمي لغضب صاحبه ﴿ولا﴾ له ﴿طعام الاّ من غسلين﴾ يعني: من صديد أهل النار وما يجري منهم. فالطعام: هو

---

(١) شرح ديوان الأعشى: ١٩٩.

(٢) في الخطّيّة والحجريّة: إذا ما السراب ارتدى بالأكم. وإنّما يرتدي الأكم بالسراب.

(٣) راجع تفسير الطبري ١٢: ٢٢١، معاني القرآن ٣: ١٨٢.

ما هيّئ للأكل. فلذلك لا يسمّى التراب طعاماً للإنسان، والخشب طعام الأرضة، وليس من طعام أكثر الحيوان. فلمّا هيّئ الصديد لأكل أهل النار كان ذلك طعاماً لهم. و«الغسلين» هو الصديد الّذي يتغسّل بسيلانه من أبدان أهل النار. ووزنه «فعلين» من الغسل. وقال ابن عبّاس: هو صديد أهل النار. وقيل: أهل النار طبقات منهم من طعامه الضريع، ومنهم من طعامه الغسلين، لأنّه قال في موضع آخر: ﴿ليس لهم طعام الاّ من ضريع﴾[١] وقال قطرب: يجوز أن يكون الضريع هو الغسلين، فعبّر عنه بعبارتين. وقال قوم: يجوز أن يكون المراد ليس لهم طعام إلّا من ضريع ولا شراب إلّا من غسلين، فسمّاه طعاماً كما قال الشاعر:

علفتها تبناً وماء بارداً[٢]

ثمّ قال تعالى: ﴿لا يأكله﴾ أي لا يأكل هذا الغسلين ﴿إلّا الخاطئون﴾ وهم الجائرون عن طريق الحقّ عامدين. والفرق بين الخاطئ والمخطئ أنّ المخطئ قد يكون من غير تعمّد لما وقع به من ترك إصابة المطلوب، وخطِئ يخطَأ خطأً فهو خاطئ، قال امرؤ القيس:

يا لهف هند إذ خطئن كاهلا القائلين المَلِك الحُلا حِلا[٣]

فهؤلاء الكفّار قد جاروا عن طريق الحقّ وضلّوا عن الصراط المستقيم وتبعوا الضلال في الدين.

قوله تعالى:

فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا

---

(١) الغاشية: ٦.
(٢) مرّ في ١: ٣٨٦، ٦: ٢٤٧، عجزه: حتّى شتت همّالة عيناها.
(٣) ديوان امرئ القيس: ١٥٠.

هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾ اثنتا عشرة آية[١].

[أقول:][٢] ﴿قليلاً ما يؤمنون﴾ و ﴿يذكّرون﴾ بالياء فيهما مكّي شامي ويعقوب وسَهْل على الخبر عن الكفّار. الباقون بالتاء على الخطاب لهم أي قل لهم.

وقيل في قوله: ﴿فلا أُقسم﴾ ثلاثة أقوال:

أحدها: قال الفرّاء: إنّه ردّ لكلام قائل، فكأنّه قال: ليس الأمر على ما يقال أُقسم إنّه ﴿لقول رسول كريم﴾[٣].

و[الثاني] قال قوم ﴿لا﴾ صلة مؤكّدة وتقديره فأُقسم[٤].

الثالث: قال قوم: إنّها نفي للقسم، ومعناه: لا يحتاج إلى القسم لوضوح الحقّ في أنّه ﴿لقول رسول كريم﴾ وفى هذا الوجه يقع جوابه كجواب غيره من القسم. وقيل: هو كقول القائل: لا والله لأفعل ذاك ، ولا والله لأفعلنّ ذاك. وقال قتادة: أقسم تعالى بالأشياء كلّها ما يرى ومالا يرى. وقال الجبّائي: انّما أراد إنّه لا يقسم بالأشياء المخلوقات ما يرى وما لا يرى، وإنّما يقسم بربّها، لأنّ القسم لا يجوز إلّابالله. وقوله: ﴿إنّه لقول رسول كريم﴾ جواب القسم، قال الجبّائي: هو قول الله على الحقيقة، وإنّما الملك

---

(١) الموجود في المصحف خمس عشرة آية.

(٢) من الحجريّة.

(٣) راجع معاني القرآن ٣: ٢٠٧.

(٤) راجع النكت والعيون ٦: ٨٦ و١٥٠، معاني القرآن وإعرابه ٥: ١١٥ و٢٥١.

وجبرائيل والرسول يحكون ذلك، وإنّما أسنده إليهم من حيث إنّ ما يسمع منهم كلامهم. ولمّا كان حكاية كلام الله قيل: هو كلام الله على الحقيقة في العرف. وقرئ ﴿إنّه من قول رسول كريم﴾ جواب القسم. وقال الحسن: فالرسول الكريم محمّدﷺ الّذي أتى بهذا القرآن. وقال غيره: هو جبرائيل عليه السلام والأوّل أظهر[١]. و«الكريم» الخليق بالخير الواسع من قبله، يقال: كرم يكرم كرماً فهو كريم، وضدّه لؤم يلؤم لؤماً، فهو لئيم.

ولمّا أقسم تعالى أنّ هذا القرآن هو قول رسول كريم نفى بعده أن يكون قول شاعر [فقال ﴿وما هو بقول شاعر﴾] فالشاعر هو المبتدئ بإنشاء الشعر، ولا يكون حاكي الشعر شاعراً، كما يكون حاكي الكلام متكلّماً، لأنّه يحكي شعراً أنشأه غيره. وإنّما نزّه الله تعالى نبيّه عن الشعر ومنعه منه، لأنّ الغالب من حال الشعراء أنّه يدعو إلى الهوى، والرسول يأتي بالحكمة الّتي يدعو إليها العقل للحاجة إلى العمل عليها والاهتداء بها، مع أنّه بيّن أنّ القرآن صنف من الكلام خارج عن الأنواع المعتادة، وذلك أدلّ على إعجازه لبُعده عمّا جرت به العادة في تأليف الكلام. قال قتادة: طهّر الله نبيّه من الشعر والكهانة وعصمه منهما.

وقوله تعالى: ﴿قليلاً ما تؤمنون﴾ معناه: قليلاً بما ذكرناه إيمانكم و﴿ما﴾ مصدرية وكذلك قوله: ﴿قليلاً ما تذكّرون﴾ وقال قوم: ﴿ما﴾ صلة، وتقديره قليلاً تؤمنون بما ذكرناه أي لستم تؤمنون به[٢].

وقوله: ﴿ولا بقول كاهن﴾ فالكاهن: هو الّذي يسجع في كلامه على ضرب من التكلّف لتشاكل المقاطع، وهو ضدّ ما توجبه الحكمة في

---

(١) راجع تفسير السمرقندي ٢: ٤٩٢.
(٢) راجع معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢١٨.

الكلام، لأنّها تقتضي أن يتبع اللفظ المعنى، لأنّه إنّما يحتاج إلى الكلام للبيان به عن المعنى، وإنّما البلاغة في الفواصل الّتي يتبع اللفظ فيها المعنى، فتشاكل المقاطع على ثلاثة أضرب: فواصل بلاغة، وسجع كهانة[1] وقواف تتبع الزنة. و«الكاهن» الّذي يزعم أنّ له خدمة من الجنّ تأتيه بضرب من الوحي. وقوله: ﴿قليلاً ما تذكّرون﴾ أي تتفكّرون قليلاً فيما ذكرناه، فلذلك لا تعلمون صحّة ما قلناه ، ولو أنعمتم النظر لعلمتم صحّته.

ثمّ قال: ﴿تنزيل [من ربّ العالمين﴾] أي هو تنزيل نزّله الله ربّ العالمين على رسوله.

وقوله: ﴿ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل﴾ إخبار من الله تعالى على وجه القسم أنّ هذا الرسول الّذي حكى بأنّ القرآن نزّل عليه من عند الله وهو محمّد ﷺ لو تقوّل على الله في بعض كلامه، ومعناه: لو كذب علينا في بعض ما لم يؤمر به. فالتقوّل: تكلّف القول من غير رجوع إلى حقّ، والتقوّل والتكذّب والتزيّد بمعنى واحد. وقوله: ﴿لأخذنا منه باليمين﴾ جواب القسم، ومعناه: أحد وجهين:

أحدهما: لأخذنا بيده الّتي هي اليمين على وجه الإذلال، كما يقول السلطان: يا غلام خذ بيده، فإنّه على وجه الإهانة. قال الحسن: معناه لقطعنا يده اليمنى.

والثاني: لأخذنا منه بالقوّة، كما قال الشاعر:

إذا ما رايةٌ رُفعت لمجد ... تلقّاها عَرابة باليمين[2]

وقوله: ﴿لقطعنا منه الوتين﴾ قال ابن عبّاس وسعيد بن جبير: «الوتين»

---

(١) في الخطّية والحجريّة: سجع وكهانة.

(٢) ديوان الشمّاخ: ١١٥.

نياط القلب. وقال مجاهد وقتادة والضحّاك : هو عرق في القلب متّصل بالظهر إذا قطع مات الإنسان، قال الشماخ بن ضرار الثعلبي:

إذا بلّغتِني وحملتِ رحلي عرابة فأشرِقي بدم الوتين[1]

وقوله: ﴿فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾ معناه: ليس أحد يمنع غيره من عقاب الله بأن يكون حائلاً بينه وبينه، فالحاجز: هو الحائل بين الشيئين. وإنّما قال ﴿حاجزين﴾ بلفظ الجمع، لأنّ ﴿أحداً﴾ يراد به الجمع وإن كان بصيغة الواحد.

ثمّ قال: ﴿وإنّه لتذكرة للمتّقين﴾ قسم من الله تعالى أنّ هذا القرآن تذكرة وعظة للمتّقين، وهو قول قتادة، وإنّما أضافه إلى المتّقين، لأنّهم المنتفعون به. فالتذكرة: العلامة الّتي يذكر بها المعنى، ذكّره تذكرة فهو مذكّر، كقولك جرّبه تجربة وجزّأه تجزئة. فالمتّقي يتذكّر القرآن بأن يعمل عليه في أمر دينه في اعتقاد أو عمل به، فيتميّز الجائز ممّا لا يجوز، والواجب ممّا ليس بواجب، والصحيح ممّا لا يصحّ.

وقوله: ﴿وإنّا لنعلم أنّ منكم مكذّبين﴾ عطف على جواب القسم، ومعناه: التحذير من التكذيب بالحقّ وأنّه ينبغي أن يتذكّر أنّ الله تعالى يعلمه ويجازي عليه.

وقوله: ﴿وإنّه لحسرة على الكافرين﴾ معناه: إنّ هذا القرآن حسرة على الكافرين يوم القيامة حيث لم يعملوا به في الدنيا، فالحسرة: الغمّ من أجل ما انحسر وقته كيف فات العمل الّذي كان ينبغي فيه أن يفعل، فيحسر السرور عن النفس إلى الغمّ بانحساره. وقيل: إنّ التكذيب به حسرة على

---

(١) ديوان الشمّاخ: ١١٣، مجاز القرآن ٢: ٢٦٨، تفسير الطبري ١٢: ٢٢٤.

الكافرين[١].

ثمّ أقسم تعالى [فقال: ﴿وإنّه﴾ يعني:][٢] القرآن الّذي أنزله والإخبار بما أخبر به وذكره ﴿لحقّ اليقين﴾ ومعناه: اليقين حقّ اليقين، وإنّما أضافه إلى نفسه، والحقّ هو اليقين، كما قيل مسجد الجامع ودار الآخرة وبارحة الأُولى ويوم الخميس وما أشبه ذلك، فيضاف الشيء إلى نفسه إذا اختلف لفظه كما اختلف الحقّ واليقين. والحقّ هو الّذي معتقده على ما اعتقده، واليقين هو الّذي لا شبهة فيه.

ثمّ قال لنبيّه: ﴿فسبّح﴾ يا محمّد والمراد به جميع المكلّفين، ومعناه: نزّه الله تعالى ﴿باسم ربّك العظيم﴾ ومعناه: نزّهه عمّا لا يجوز عليه من صفات خلقه. و ﴿العظيم﴾ هو الجليل الّذي يصغر شأن غيره في شأنه بما يستحقّ من أوصافه. وروي أنّه لمّا نزلت هذه الآية قال النبيّ صلّى الله عليه وآله: «اجعلوها في ركوعكم»[٣].

---

(١) تفسير الطبري ١٢: ٢٢٤.

(٢) في الخطّية والحجريّة: بأنّ.

(٣) مسند أحمد بن حنبل ٤: ١٥٥.

سورة المعارج

مكّية في قول ابن عبّاس والضحّاك وغيرهما، وهي أربع وأربعون آية بلا خلاف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى:

سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ﴿١﴾ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ﴿٤﴾ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ﴿٧﴾ يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ﴿١٠﴾ عشر آية.

[أقول:][1] قرأ أهل المدينة وأهل الشام ﴿سال﴾ بغير همز وهو يحتمل أمرين:

أحدهما: أن يكون من السيل تقول: سال يسيل سيلاً فهو سائل، و«سايل» واد في جهنّم، كما قال: ﴿أعوذ بربّ الفلق﴾ و«الفلق» جبّ في

---

(١) من الحجريّة.

جهنّم. وأجمعوا على همزة «سائل» لأنّه ولو كان من «سال» بغير همز فالياء تبدل همزة إذا وقعت بعد الألف مثل البائع والسائر من «باع وسار».

والثاني: بمعنى سأل بالهمزة، لأنّها لغة يقولون سُلت أسال، وهما يتساولان[١].

قال الشاعر:

سَالتْ هُذَيْل رسولَ الله فاحشة
ضلّت هذيل بما سالت ولم تُصِب[٢]

فهي لغة أُخرى، وليست مخفّفة من الهمزة، الباقون بالهمز من السؤال الّذي هو الطلب. وقرأ الكسائي وحده ﴿يعرج﴾ بالياء، لأنّ تأنيث الملائكة ليس بحقيقي. الباقون بالتاء لأنّ لفظه لفظ التأنيث. وقرأ ابن كثير في رواية البزي، وعاصم في رواية البرجمي عن أبي بكر ﴿ولا يسأل﴾ بضمّ الياء[٣]. الباقون بفتح الياء أسند السؤال إلى الحميم.

حكى الله تعالى أنّه ﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾ قال الفرّاء: الداعي بالعذاب هو النضر بن كلدة فأُسر يوم بدر وقتل صبراً، هو وعقبة بن أبي معيط. وقال: تقديره سأل سائل بعذاب للكافرين واقع[٤] قال ابن خالويه: قال النحويّون: إنّ «الباء» بمعنى «عن» وتقديره: سأل سائل عن عذاب واقع[٥] وأنشد:

دع المعمّر لا تسأل بمصرعه واسأل بمصقلة البكري ما فعلا[٦]

---

(١) في الحجريّة: لايتسائلان.
(٢) ديوان حسان بن ثابت ١: ٤٤٣.
(٣) في الخطّية: وقرأ البزي عن ابن كثير ﴿ولا يُسئل حميم﴾ على ما لم يسمّ فاعله، والمعنى: لا يسئل حميم عن حميمه ثمّ حذف الجارّ ونصب ﴿حميماً﴾.
(٤) معاني القرآن ٣: ١٨٣.
(٥) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢١٩.
(٦) ديوان الأخطل: ٢٢٠.

أي لا تسأل عن مصرعه، وهذا الّذي سأل العذاب الواقع إنّما تجاسر عليه لمّا كذّب بالحقّ توهّم أنّه ليس فيه ضرر، ولم يعلم أنّه لازم له من الله. وقال مجاهد: سؤاله في قوله: ﴿اللّهمّ إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء﴾[١] وقال الحسن: سأل المشركون، فقالوا: لمن هذا العذاب الّذي يذكره محمّد ؟ فجاء جوابهم بأنّه ﴿للكافرين ليس له دافع﴾ وقيل: معناه: دعا داع بعذاب للكافرين، وذلك الداعي هو النبيّ صلى الله عليه وآله.

واللام في قوله: ﴿للكافرين﴾ قيل في معناها قولان:

أحدهما: إنّها بمعنى «على» وتقديره سأل سائل بعذاب واقع على الكافرين، ذهب إليه الضحّاك.

والثاني: إنّها بمعنى «عن» أي ليس له دافع عن الكافرين، وإنّما ذكر وعيد الكافر ـ هاهنا ـ مع ذكره في غير هذا الموضع، لأنّ فيه معنى الجواب لمن سأل العذاب الواقع، فقيل له: ليس لعذاب الكافرين دافع، فاعمل على هذا، وتقدّم نظيره[٢] وتأخّر. و«الدافع» هو الصارف للشيء عن غيره باعتماد يزيله عنه. دَفَعه عن كذا يدفعه دفعاً، فهو دافع وذاك مدفوع.

وقوله: ﴿من الله ذي المعارج﴾ يعني: مصاعد الملائكة. وقيل: معناه ذي الفواضل العالية[٣] فيكون وصفاً لله تعالى، وتقديره من الله ذي المعالي الّتي هي الدرجات الّتي يعطيها أولياءه من الأنبياء والمؤمنين في الجنّة، لأنّه يعطيهم درجات رفيعة ومنازل شريفة. و«المعارج» مواضع العروج، واحدها معرج. عرج يعرج عروجاً و«العروج» الصعود مرتبة بعد مرتبة،

---

(١) الأنفال: ٣٣. (٢) ظاهر الخطّية: على بصيرة. (٣) راجع النكت والعيون ٦: ٩٠.

ومنه الأعرج لارتفاع إحدى رجليه عن الأُخرى. وقال قتادة: معنى ذيالمعارج: ذي الفواضل والنعم، لأنّها على مراتب. وقال مجاهد: هي معارج السماء. وقيل : هي معالي الدرجات الّتي يعطيها الله تعالى أولياءه في الجنّة. وقال الحسن: معناه ذي المراقي إلى السماء. والّذي اقتضى ذكر المعارج البيان عن العقاب الّذي يجب أن يخافه، على خلاف هذا الجاهل الّذي سأل العذاب الواقع على من كفر نعمته.

وقوله: ﴿تعرج الملائكة﴾ معناه: تصعد الملائكة ﴿والروح﴾ أي يصعد الروح أيضاً معهم ﴿إليه﴾ والمعنى تعرج الملائكة والروح الّذي هو جبرائيل إلى الموضع الّذي يعطيهم الله فيه الثواب في الآخرة ﴿في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ لعلوّ درجاتهم، وإنّما قال: ﴿إليه﴾ لأنّه هناك يعطيهم الثواب، كما قال في قصّة إبراهيم ﴿انّي ذاهب إلى ربّي﴾[1] أي الموضع الّذي وعدني ربّي، وكذلك الموضع الّذي وعدهم الله بالثواب فيه. وقيل: تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره من عروج غيرهم خمسين ألف سنة، وذلك من أسفل الأرضين السبع إلى فوق السماوات السبع[2] ذكره مجاهد. وقوله: ﴿يدبّر الأمر من السماء إلى الأرض ثمّ يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة ممّا تعدّون﴾[3] فهو لما بين السماء الدنيا والأرض في الصعود والنزول ألف سنة: خمسمائة صعوداً وخمسمائة نزولاً، ذكره مجاهد أيضاً. وقيل: المعنى: أنّ يوم القيامة يفعل فيه من الأُمور ما لو فعل في الدنيا كان مقداره خمسين ألف سنة[4]. وقال قوم: إنّ

---

(١) الصافّات: ٩٩.
(٢) تفسير الطبري ١٢: ٢٢٦.
(٣) السجدة: ٥.
(٤) راجع النكت والعيون ٦: ٩٠.

المعنى: إنّه من شدّته وهوله وعظم العذاب فيه على الكافرين كأنّه خمسون ألف سنة، كما يقول القائل: ما يومنا إلّا شهر أي في شدّته، وعلى هذا قول امرئ القيس:

ألا أيّها الليل الطويل ألا انجلى بصبح وما الإصباح منك بأمثل
ويا لك من ليل كأنّ نجومه بكلّ مغار الفتل شدّت بِيَذْبُلِ[١]

ويؤكّد هذا ما روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه لمّا نزلت هذه الآية قيل له ما أطول هذا اليوم ؟ ! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «والّذي بعثني بالحقّ نبيًّا إنّه ليخفّ على المؤمن حتّى يكون أخفّ عليه من صلاة مكتوبة يصلّيها في الدنيا»[٢] وقال الضحّاك وقتادة: هو يوم القيامة. وقال الحسن: الروح جبريل. وقال: ﴿في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ هو يوم القيامة. وقال الزجّاج: يجوز أن يكون ﴿يوم﴾ من صلة ﴿واقع﴾ فيكون المعنى: سأل سائل بعذاب واقع في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة وذلك العذاب يقع يوم القيامة[٣]. وقال الحسن: تعرج الملائكة بأعمال بني آدم في الغمام، كما قال: ﴿ويوم تشقّق السماء بالغمام﴾[٤] وقال الزجّاج: سمّاه يوماً، لأنّ الملائكة تعرجه في مقدار يومٍ واحدٍ.

ثمّ أمر نبيّه صلى الله عليه وآله [فقال: ﴿فاصبر][٥] صبراً جميلاً﴾ أي لا شكوى فيه على ما يقاسيه من أذى قومه، وتكذيبهم إيّاه فيما يخبر به من أمر الآخرة. قال الزجّاج: ذلك قبل أن يؤمر بالقتال[٦].

وقوله تعالى: ﴿إنّهم يرونه بعيداً ونراه قريباً﴾ إخبار من الله تعالى أنّه

---

(١) ديوان امرئ القيس: ٤٩.
(٢) تفسير الطبري ١٢: ٢٢٨.
(٣) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٢٠.
(٤) الفرقان: ٢٥.
(٥) في الخطّية والحجريّة: بأن يصبر.
(٦) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢١٩.

يعلم مجيء يوم القيامة وحلول العقاب بالكفّار قريباً، ويراه أي يظنّه الكفّار بعيداً، لأنّهم لا يعتقدون صحّته، وكلّ ما هو آت قريب، وهذا على وجه الإنكار عليهم استبعادهم يوم الجزاء، وتوهّمهم بأنّه بعيد. وبيّن أنّه تعالى يراه قريباً بما يعلمه من حصوله، وإنّما جاز أن يقال في توهّمهم: يرونه لأنّهم يتوهّمونه، وهم عند أنفسهم يرونه، فجاء على مزاوجة الكلام الّذي ينبئ عن المعنى من غير إخلال. وقيل: معنى إنّهم يرون العذاب الّذي سألوا عنه بعيداً، لأنّهم لا يؤمنون به، ونراه قريباً لأنّ كلّ ما هو آت قريب[١].

ثمّ وصف الله تعالى يوم القيامة فقال: ﴿يوم تكون السماء كالمهل﴾ قال الزجّاج: «المهل» دردي الزيت[٢] وقال مجاهد: هو عكر الزيت. وقال قوم: هو الصفر المذاب. وقال قوم: «المهل» هو الجاري بغلظة وعكرة على رفق[٣] من أمهله إمهالاً، وتمهّل تمهّلاً.

﴿وتكون الجبال كالعهن﴾ فالعهن: الصوف المنفوش، وذلك أنّ الجبال تقطع حتّى تصير بهذه الصفة، كما أنّ السماء تشقّق بالغمام وتكون كالمهل.

وقوله: ﴿ولا يسأل حميم حميماً﴾ فالحميم: القريب النسب إلى صاحبه الّذي يحمى لغضبه، وأصله القرب، قال الشاعر:

أحمّ الله ذلك من لقاء ... أحادَ أحادَ في الشهر الحلال[٤]

وقال مجاهد: لا يسأل حميم حميماً لشغل كلّ إنسان بنفسه عن غيره. وقال الحسن: لا يسأله أن يحمل عنه من أوزاره ليأسه من ذلك في

---

(١) تفسير الطبري ١٢: ٢٢٨.
(٢) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٢٠.
(٣) راجع تفسير الطبري ٨: ٢١٨ ـ ٢١٩.
(٤) معاني القرآن، أخفش ٢: ٦٦٤.

الآخرة. وقيل: ﴿لا يسأل حميم حميماً﴾ لأنّه ﴿يعرف المجرمون بسيماهم﴾[١] ومن ضمّ الياء أراد لا يطالب قريب بأن يحضر قريبه[٢] كما يفعل أهل الدنيا بأن يؤخذ الحميم بحميمه والجار بجاره، لأنّه لا جور هناك. ويجوز أن يكون المراد لا يسأل حميم عن حميمه ليعرف شأنه من جهته، كما يتعرّف خبر الصديق من جهة صديقه، والقريب من قريبه. ثمّ يحذف الجار ويوصل الفعل إلى المفعول به، ويقوّي ذلك قوله ﴿يبصّرونهم﴾ أي يبصر الحميم [حميمه]. والفعل فيه قبل تضعيف العين بصرت به، كما قال حكاية عن [السامري] ﴿بصرت بما لم يبصروا به﴾[٣].

قوله تعالى:

يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١) وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـُٔوِيهِ (١٣) وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ (١٤) كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ (١٥) نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ (١٦) تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ (١٧) وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ (١٨) إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ (٢٢) ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ (٢٣) وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ (٢٥)﴾ خمس عشرة آية.

[أقول:][٤] قرأ ﴿نزّاعة﴾ بالنصب حفص عن عاصم على الحال. الباقون بالضمّ جعلوه بدلاً من ﴿لظى﴾ و ﴿لظى﴾ اسم من أسماء جهنّم معرفة، و﴿نزّاعة﴾ نكرة فلذلك نصبه [حفص] على الحال ومن جعلها بدلاً من (لظى) وتقديره كلّا إنّها لظى، كلّا إنّها نزّاعة للشوى. وضعّف أبو عليّ

(١) الرحمن: ٤١.
(٢) راجع معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٢٠.
(٣) طه: ٩٦.
(٤) من الحجريّة.

نصبه على الحال، قال: لأنّه ليس في الكلام ما يعمل في الحال، ولظى اسم معرفة لا يمكن أن يكون بمعنى التلظّي، فلا يعمل فيه إلّا على وجه ضعيف بأن يقال: مع أنّها معرفة فمعناها بمعنى التلظّي. قال: والأجود أن ينصب بفعل آخر، وتقديره أعني نزّاعة[١].

لمّا وصف الله تعالى القيامة وأهوالها، وأخبر أنّ الحميم لا يسأل حميماً لشغله بنفسه، قال: ﴿يبصّرونهم﴾ قال ابن عبّاس وقتادة: يعرف الكفّار بعضهم بعضاً، ثمّ يفرّ بعضهم عن بعض. وقال مجاهد: يعرفهم المؤمنون. وقال قوم: يعرف أتباع الضلال رؤساءهم[٢] وقول ابن عبّاس أظهر، لأنّه عقيب ذكر الكفّار. فالكناية ينبغي أن ترجع إليهم.

وقوله: ﴿يوّد المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه﴾ أي يتمنّى العاصي، فالمودّة: مشتركة بين التمنّي وبين المحبّة تقول: وددت الشيء إذا تمنّيته ووددته إذا أحببته أودّ فيهما جميعاً، وصفته وَدُود من المحبّة. وقوله: ﴿لو يفتدى﴾ فالافتداء: افتداء الضرر عن الشيء يبدل منه، فهؤلاء تمنّوا سلامتهم من العذاب النازل بهم بإسلام كلّ كريم عليهم. والفرق بين «يودّ لو يفتدي» و«يودّ أن يفتدي» أنّ «لو» تدلّ على التمنّي من جهة أنّها لتقدير المعنى، وليس كذلك «أن» لأنّها لاستقبال الفعل و«لو» للماضي. فلمّا كان الاعتماد على تصوّر المعنى صار في حكم الواقع. فلو قال قائل: «حسبت أن يقوم زيد» لما دلّ على التمنّي، ولو قال: «حسبت لو يقوم زيد» لدلّ على التمنّي فبانَ الفرق بينهما.

وقوله: ﴿ببنيه﴾ يعني بأولاده الذكور ﴿وصاحبته﴾ يعني زوجته

---

(١) الحجّة للقرّاء السبعة ٤: ٦٢.

(٢) تفسير الطبري ١٢: ٢٣٠.

﴿وأخيه﴾ يعني ابن أبيه وأُمّه ﴿وفصيلته الّتي تؤويه﴾ فالفصيلة هي المنقطعة عن جملة القبيلة برجوعها إلى ابوّة خاصّة، وهي الجماعة الّتي ترجع إلى ابّوة خاصّة عن ابّوة عامّة ﴿ومن في الأرض جميعاً ثمّ ينجيه﴾ أي يتمنّى هذا الكافر بأن يتخلّص من عذاب الله بأن يفتدى بهؤلاء كلّهم، فقال الله تعالى: ﴿كلّا﴾ أي ليس ينجيه من عقاب الله شيء. وقال الزجّاج ﴿كلّا﴾ ردع وتنبيه أي لا ينجيه[١] أحد من هؤلاء فارتدعوا.

وقوله: ﴿إنّها لظى﴾ فـ«لظى» اسم من أسماء جهنّم مأخوذ من التوقّد، ومنه قوله: ﴿فأنذرتكم ناراً تلظّى﴾[٢] وموضع ﴿لظى﴾ رفع، لأنّها خبر ﴿انّ﴾ و﴿نزّاعة للشوى﴾ خبر آخر، [على قول] من رفع. ومن نصب جعله حالاً. ويجوز أن تكون الهاء في ﴿إنّها﴾ عماداً، و﴿لظى﴾ ابتداء وخبرها ﴿نزّاعة﴾ إذا رفع. قال الزجّاج: ويجوز أن يكون كقولهم: هذا حلو حامض، وتقديره النار لظى، وهي نزّاعة أيضاً[٣]. ومعنى نزّاعة كثيرة النزع وهو اقتلاع عن شدّة ضمّ. و«الاقتلاع» أخذ بشدّة اعتماد، و«الشوى» جلدة الرأس. و«الشوى» الكوارع والأطراف، و«الشوى» ما عدا المقتل من كلّ حيوان، يقال: رمى فأشوى إذا أصاب غير المقتل، ورمى فأصمى إذا أصاب المقتل، ومنه الشوي، لأنّ النار تأخذ الجلدة بالتغيير والأطراف. و«الشوى» الخسيس من المال. وقيل: إن جهنّم تنزع جلدة الرأس وأطراف البدن، والشوى جمع شواة، قال الأعشى:

قالت قُتَيْلَة مالَه ... قد جُلّلت شَيْباً شَواته[٤]

---

(١) في الخطّية والحجريّة: لايرجع. (٢) اللّيل: ١٤. (٣) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٢١.
(٤) تفسيرالطبري ١٢: ٢٣١، النكت والعيون ٦: ٩٣، مجاز القرآن ٢: ٢٦٩، الصحاح ٦: ٢٣٩٦.

وقال ابن عبّاس: نزّاعة للشوى للجلد وأُمّ الرأس. وقال أبو صالح: لحم الساق، وقال قتادة: الهامّ والأطراف. وقال الفرّاء: كلّ ما كان غير مقتل فهو شوى[١]. وقال أبو عمر الدوري: كان الكسائي لا يقف على ﴿كَلَّا﴾ في شيء من القرآن إلّا على هذين في هذه السورة. وقال ابن خالويه: اعلم أن في القرآن ثلاثاً وثلاثين موضعاً ﴿كلّا﴾ فليس في النصف الأوّل منه شيء، فمن وقف عليه جعله ردًّا لكلام. ومن لم يقف جعله بمعنى حقّاً، قال الشاعر:

يقلن لقد بكيت فقلت كلّا ... وهل تبكي من الطرب الجليد[٢]

فالطرب: خفّة تصيب الإنسان لشدّة الخوف، قال الشاعر:

وأراني طرباً في إثرهم ... طرب الواله أو كالمختَبل[٣]

وقال في السرور:

أطربا وأنت قنّسري ... والدهر بالإنسان دوّاري[٤]

يقول أطربا وأنت شيخ.

وقوله تعالى: ﴿تدعو من أدبر وتولّى﴾ قيل في معناه قولان:

أحدهما: إنّه لا يفوت هذه النار كافر، فكأنّها تدعوه فيجيبها كُرها.

والثاني: أن يخرج لسان من النار فيتناوله كأنّها داعية بأخذها، وهو كقوله: ﴿تكاد تميّز من الغيظ﴾[٥] وقال الفرّاء وغيره: إنّ النار تدعو الكافر والفاسق، فتقول إليّ إليّ[٦] وهذا يجوز إذا فعل الله تعالى فيها الكلام، ويضاف إليها مجازاً. وقال قتادة: تدعو من أدبر وتولّى عن طاعة الله. وقال

---

(١) معاني القرآن ٣: ١٨٥. (٢) ديوان مجنون ليلي: ٦٣. (٣) معجم تهذيب اللغة ٣: ٢١٧٤.
(٤) تفسير الطبري ٨: ٤٧٧، معجم تهذيب اللغة ٣: ٣٠٥٨. (٥) الملك: ٨.
(٦) معاني القرآن ٣: ١٨٥، الكشف والبيان ١٠: ٣٨.

مجاهد: من تولّى عن الحقّ. وقيل: معناه: تدعو زبانيتها من أدبر وتولّى عن طاعة الله[١]. وقوله: ﴿وجمع فأوعى﴾ معناه عمل فجمع المال في الدنيا وأدبر عن الحقّ وتولّى، فالنار تدعوه بما يظهر فيها من أنّه أولى بها. وقال مجاهد: ﴿جمع﴾ المال ﴿فأوعى﴾ ولم يخرج حقّ الله منه، فكأنّه جعله في وعاء على منع الحقوق منه.

وقوله: ﴿إنّ الإنسان خلق هلوعاً﴾ إخبار منه تعالى بأنّ الإنسان خلق هلوعاً، و«الهلوع» هو الشديد الحرص، الشديد الجزع من الضجر، في قول ابن عبّاس وعكرمة. وقيل: معناه خلق ضعيفاً عن الصبر على الجزع والهلع[٢] لأنّه لم يكن في ابتداء خلقه يهلع ولا يجزع ولا يشعر بذلك حال الطفوليّة. وإنّما جاز أن يخلق الإنسان على هذه الصفة المذمومة، لأنّها تجري مجرى خلق شهوة القبيح ليجتنب المشتهى، لأنّ المحنة في التكليف لا تتمّ إلّا بمنازعة النفس إلى القبيح ليجتنب على وجه الطاعة لله تعالى، كما لا يتمّ إلّا بتعريف الحسن من القبيح في العقل ليجتنب أحدهما ويفعل الآخر.

﴿إذا مسّه الشر جزوعاً﴾ لو كان منقطعاً عن الأوّل لكان مرفوعاً، و«الجزع» ظهور الفزع بحال تنبئ عنه.

﴿وإذا مسّه الخير منوعاً﴾ معناه: إذا نال الإنسان الخير والسعة في الدنيا منع حقّ الله فيه من الزكاة وغيرها ممّا فرض الله عليه. فالمسّ: الملاقاة من غير فعل، ويقال: مسّه يمسّه، وتماسّا إذا التقيا من غير فعل، وماسّه مماسّة. و«المنع» هو القطع عن الفعل بما لا يمكن وقوعه معه، وهو على

---

(١) راجع تفسير الطبري ١٢: ٢٣٣.

(٢) راجع النكت والعيون ٦: ٩٤ ـ ٩٥.

وجهين: أحدهما: منع القادر أن يفعل. والآخر: منع صاحب الحقّ أن يعطى حقّه. و«البخل» منع الحقّ صاحبَه.

ولمّا وصف الله تعالى الإنسان بالصفات المذمومة استثنى من جملتهم من لا يستحقّ الذمّ، لأنّ الإنسان عبّر به عن الناس، فهو لعموم الجنس، كما قال: ﴿إنّ الإنسان لفي خسر إلّا الّذين﴾ [١] وكذلك هاهنا قال: ﴿إلّا المصلّين الّذين هم على صلاتهم دائمون﴾ ومعناه: الّذين يستمرّون على أداء الصلاة الّتي أوجبها الله عليهم لا يخلّون بها ولا يتركونها. وروي عن أبي جعفر عليه السلام «أنّ ذلك في النوافل يديمون عليها، وقوله: ﴿والّذين هم على صَلَواتهم يحافظون﴾ [٢] في الفرائض والواجبات» [٣].

﴿والّذين في أموالهم حقّ معلوم﴾ فالحقّ: وضع الشيء في موضعه على ما يقتضيه العقل والشرع من قولهم: حقّ الشيء يحِقّ حقّاً، وحقّه كقولك تحقّقه. و«المال» عبارة في الشرع عن مقدار من العين أو الورق يتعلّق به وجوب الزكاة، وأكثر ما يستعمل في اللغة في المواشي من الإبل والبقر والغنم. وقال ابن عبّاس: الحقّ المعلوم هو البِرّ الّذي يخرج في صدقة أو صلة رحم. وقال قتادة: هو الزكاة المفروضة [﴿للسائل والمحروم﴾] و«السائل» هو الّذي يسأل ويطلب. ﴿والمحروم﴾ قال ابن عبّاس: هو المحارف. وقال الحسن: هو الّذي حرم أن يعطى الصدقة بتركه المسألةَ. وقيل: هو الّذي قد حرم الرزق وهو لا يسأل الناس [٤].

وقوله: ﴿عذاب يومئذ﴾ قرئ بالفتح والكسر من ﴿يومئذ﴾ فمن كسر

---

(١) العصر: ٢.
(٢) المؤمنون: ٩.
(٣) راجع الكافي ٣: ١٢/٢٦٩.
(٤) راجع تفسير الطبري ١٢: ٢٣٥.

الميم فعلى أصل الإضافة، لأنّ الّذي أُضيف إليه الأوّل مخفوض أيضاً بالإضافة فهذا مضاف إلى مضاف. ومن فتح فلأنّه مضاف إلى غير متمكّن مضاف[1] إلى «إذ» و«إذ» مبهمة ومعناه: يوم إذ يكون كذا ويكون كذا، فلمّا كانت مبهمة وأُضيف إليها بني المضاف إليها على الفتح، وأنشد:

لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت حمامة في غصون ذات أو قال[2]

لمّا أضاف «غير» إلى «أن» بناها على الفتح، وهي في موضع رفع، وروي «غيرُ أن نطقت» بالرفع[3].

قوله تعالى:

وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَـٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ فِى جَنَّـٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ عشر آيات.

[أقول:][4] قرأ ﴿شهاداتهم﴾ على الجمع حفص ويعقوب وعبّاس وسهل، لاختلاف الشهادات. الباقون ﴿بشهادتهم﴾ على التوحيد، لأنّه لفظ جنس يقع على القليل والكثير. وقرأ ابن كثير وحده ﴿لأمانتهم﴾ على التوحيد، لأنّه اسم جنس. الباقون على الجمع لاختلاف الأمانات.

عطف الله تعالى على صفات المؤمنين وزاد في مدحهم، فقال:

---

(١) في الخطّية: منضاف.
(٢) معجم تهذيب اللغة ٤: ٣٩٣٩، مادّة «وقل» مع اختلاف.
(٣) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٢٥.
(٤) من الحجريّة.

﴿والّذين يصدّقون بيوم الدين﴾ أي يؤمنون بأنّ يوم الجزاء والحساب يوم القيامة حقّ، ولا يشكّون في ذلك. و«التصديق» الإقرار بأنّ الخبر صادق، فلمّا كان المؤمنون قد أقرّوا أنّ كلّ من أخبر بصحّة يوم الدين فهو صادق، كانوا مصدّقين به. فأمّا المصدّق بيوم الدين تقليداً، فمن الناس من قال: هو ناج، ومنهم من قال: لا يطلق عليه مصدّق بيوم الدين، لأنّها صفة مدح. وذلك أنّه من أخلص هذا المعنى على جهة الطاعة لله تعالى به استحقّ المدح والثواب، والمقلّد عاص بتقليده، لأنّه لا يرجع فيه إلى حجّة.

وقوله: ﴿والّذين هم من عذاب ربّهم مشفقون﴾ فالإشفاق: رقّة القلب عن تحمّل ما يخاف من الأمر، فإذا قسا قلب الإنسان بطل الإشفاق، وكذلك إذا أمن كحال أهل الجنّة إذ قد صاروا إلى غاية الصفة بحصول المعارف الضروريّة. وقيل: من أشفق من عذاب الله لم يتعدّ له حدّاً ولم يضيّع له فرضاً[١].

وقوله: ﴿إنّ عذاب ربّهم غير مأمون﴾ إخبار منه تعالى بأنّ عذاب الله لا يوثق بأنّه لا يكون، بل المعلوم أنّه كائن لا محالة. والمعنى: أنّ عذاب الله غير مأمون على العصاة، يقال: فلان مأمون على النفس والسرّ والمال، وكلّ ما يخاف أنّه لا يكون، ونقيضه غير مأمون.

وقوله: ﴿والّذين هم لفروجهم حافظون إلّا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم﴾ ومعناه: أنّهم يمنعون فروجهم على كلّ وجه وسبب إلّا على الأزواج وملك الأيمان، فكأنّه قال: لا يبذلون الفروج إلّا على الأزواج أو ملك الأيمان، فلذلك جاز أن يقول: ﴿حافظون إلّا على أزواجهم﴾ وهم

---

(١) تفسير الطبري ١٢: ٢٣٩.

حافظون لها على الأزواج، فإنّما دخلت ﴿إلّا﴾ للمعنى الّذي قلناه. وقال الزجّاج تقديره: إلّا من أزواجهم فـ﴿على﴾ بمعنى «من» أو تحمله[1] على المعنى. وتقديره: فإنّهم غير ملومين على أزواجهم ويلامون على غير أزواجهم[2]. وقال الفرّاء: لا يجوز أن تقول: ضربت [من] القوم إلّا زيداً، وأنت تريد إلّا أنّي لم أضرب زيداً. والوجه في الآية أن نحملها على المعنى، وتقديره والّذين هم لفروجهم حافظون، فلا يلامون إلّا على غير أزواجهم. ومثله أن يقول القائل: اصنع ما شئت إلّا على قتل النفس، فإنّك معذّب في قتل النفس، فمعناه: إلّا أنّك معذّب في قتل النفس[3].

وقوله: ﴿فإنّهم غير ملومين﴾ أي لا يلامون هؤلاء إذا لم يحفظوا فروجهم من الأزواج ، وما ملكت أيمانهم من الإماء على ما أباحه الله لهم.

ثمّ قال: ﴿فمن ابتغى وراء ذلك﴾ ومعناه: فمن طلب وراء ما أباحه الله له من الفروج إمّا بعقد الزوجيّة أو بملك اليمين ﴿فأُولئك هم العادون﴾ الّذين تعدّوا حدود الله وخرجوا عمّا أباحه الله لهم، فالابتغاء: الطلب. ومعنى ﴿وراء ذلك﴾: ما خرج عن حدّه من أيّ جهة كان، وقد يكون وراءه بمعنى خلفه نقيض أمامه إلّا أنّه ـ هاهنا ـ الخارج عن حدّه كخروج ما كان خلفه. و«العادي» الخارج عن الحقّ، يقال: عدا فلان فهو عاد إذا اعتدى، وعدا في مشيه يعدو عدواً إذا أسرع فيه، وهو الأصل. و«العادي» الظالم بالإسراع إلى الظلم.

وقوله: ﴿والّذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾ فالأمانة: المعاقدة بالطمأنينة على حفظ ما تدعو إليه الحكمة. وقيل: «الأمانة» معاقدة

---

(١) ظاهر الخطّية: تحمل. (٢) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٢٢. (٣) معاني القرآن ٣: ١٨٥ـ١٨٦.

بالثقة على ما تدعو إليه الحكمة. وقد عظّم الله [أمر][١] الأمانة بقوله: ﴿إنّا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان﴾[٢] ومن وحّد لفظ الأمانة، فلأنّها للجنس تقع على القليل والكثير، ومن جمع أراد اختلاف ضروبها. وقال قوم: المراد بالأمانة الإيمان وما أخذه الله على عباده من التصديق بما أوجب عليهم والعمل بما يجب عليهم العمل به، ويدخل في ذلك الأيمان وغيره. وقوله: ﴿راعون﴾ معناه: حافظون.

وقوله: ﴿والّذين هم بشهاداتهم قائمون﴾ مدح للمؤمنين بأنّهم يقيمون الشهادة الّتي يلزمهم إقامتها. ومن وحّد لفظ الشهادة، فكما قلناه في الأمانة سواء. و«الشهادة» الإخبار بالشيء على أنّه على ما شاهده، وذلك أنّه يكون عن مشاهدة للخبر به، وقد يكون عن مشاهدة ما يدعو إليه.

وقوله: ﴿والّذين هم على صلاتهم يحافظون﴾ وصف لهم بأنّهم يحافظون على صلاتهم فلا يضيّعونها. وقيل: إنّهم يحافظون على مواقيتها فلا يتركونها حتّى تفوت[٣].

ثمّ قال: ﴿أُولئك﴾ يعني: المؤمنين الّذين وصفهم بالصفات المتقدّمة ﴿في جنّات﴾ أي بساتين تجنّها الشجر ﴿مكرمون﴾ أي معظّمون مبجّلون بما يفعل بهم من الثواب. و«الإكرام» وهو الإعظام على الإحسان، و«الإكرام» قد يكون بالإحسان، وقد يكون بكبر الشأن في صفة العالم القادر الغنيّ الّذي لا يجوز عليه صفات النقص، فالإعظام بالإحسان وبكبر الشأن في أعلى المراتب لله تعالى لا يستحقّه سواه.

---

(١) لايوجد في الخطّية. (٢) الأحزاب: ٧٢. (٣) تفسير الطبري: ٢٣٩.

قوله تعالى:

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَـٰرِقِ وَٱلْمَغَـٰرِبِ إِنَّا لَقَـٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَـٰشِعَةً أَبْصَـٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ تسع آيات.

[أقول:][١] قرأ﴿نصب﴾ بضمّتين أهل الشام وحفص عن عاصم وسَهْل، على أنّه جمع «نَصْب» مثل رُهُن ورَهْن، في قول أبي عبيد.[٢] وقال غيره: هما لغتان، مثل ضعف وضُعف. الباقون بفتح النون خفيفة. و«النصب» الصنم الّذي كانوا يعبدونه، سمّي بذلك. وقيل: «النصب» نصب الصنم الّذي كانوا يعبدونه. وقيل: معناه إلى علم يسبقون إليه قد نصب لهم[٣]. [وقرأ الأعشى] ﴿يخرجون﴾ بضمّ الياء[٤]. الباقون بفتحها أضاف الخروج إليهم.

يقول الله تعالى على وجه الإنكار على الكفّار: ﴿فما للّذين كفروا﴾ ومعناه: أيّ شيء للّذين كفروا بتوحيد الله وجحدوا نبوّتك ﴿قبلك مهطعين﴾ أي نحوك مسرعين، في قول أبي عبيدة[٥] وقال الحسن: معناه: منطلقين. وقال قتادة: عامدين وقال ابن زيد: معناه: لا يطرقون أي شاخصون. وجميع ذلك بمعنى الإسراع إلى الشيء فمرّة بتشوّقه إليه ومرّة

(١) من الحجريّة. (٢) مجاز القرآن ٢: ٢٧٠. (٣) النكت والعيون ٦: ٩٧.
(٤) في الخطّية والحجريّة زيادة: الأعشى. (٥) مجاز القرآن ٢: ٢٧٠.

بقصده ومرّة بشخوصه. وقال الزجّاج: «المهطع» المقبل ببصره على الشيء لا يزايله، وذلك من نظر العدوّ[١] وإنّما أنكر عليهم الإسراع إليه لأنّهم أسرعوا إليه ليأخذوا الحديث منه ثمّ يتفرّقون عزين بالتكذيب عليه، ذكره الحسن. وقيل: أسرعوا إليه شخوص المتعجّب منه[٢]. وقيل: أسرعوا إليه لطلب عيب له. وقيل: معناه: فما للّذين كفروا مسرعين في نيل الجنّة مع الإقامة على الكفر والإشراك بالله في العبادة[٣].

وقوله: ﴿عن اليمين وعن الشمال عزين﴾ قال ابن عبّاس: عن اليمين والشمال معرضين يستهزؤن. ومعنى ﴿عزين﴾: جماعات في تفرقة نحو الكراريس واحدهم عِزَة، وجمع بالواو والنون، لأنّه عوض ممّا حذف منه، ومثله سِنَة وسنون، وأصل عزة عزوة من عزاه يعزوه إذا أضافه إلى غيره، وكلّ واحدة من هذه الجماعة مضافة إلى الأُخرى، وقال الراعي:

أخليفة الرحمن إنّ عشيرتي ... أمْسىٰ سَوامهُم عزين فَلُولا[٤]

وقوله: ﴿أيطمع كلّ امرىءٍ منهم أن يدخل جنّة نعيم﴾ فمن ضمّ الياء ـ وهم أكثر القرّاء ـ جعل الفعل لما لم يسمّ فاعله. وفتح الحسن الياء لأنّهم إذ أُدخلوا فقد دخلوا. ومعنى الآية الإنكار عليهم قولهم: إن دخل أصحاب محمّد الجنّة، فإنّا ندخلها قبلهم لا محالة، فقيل: وأيّ شيء لكم عند الله يوجب هذا؟ ولِمَ تحتقرون هؤلاء؟ وقد خلقناهم جميعاً ممّا يعلمون أي من تراب.

وقوله: ﴿كلّا إنّا خلقناهم ممّا يعلمون﴾ قال الحسن: خلقناهم من النطفة، وقال قتادة: إنّما خلقت من قذر يا بن آدم فاتّق الله. وقال الزجّاج: أي من

(١) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٢٣.
(٢) راجع النكت والعيون ٥: ٩٦.
(٣) راجع الكشف والبيان ١٠: ٤١.
(٤) تفسير الطبري ١٢: ٢٤٢، جمهرة أشعار العرب: ٤٣٢.

تراب، ثمّ من نطفة، فأيّ شيء لهم يدخلون به الجنّة، وهم لك على العداوة[١] وهذا حجاج لأنّ خلقهم من ماء مهين يقتضي أنّهم خلقوا للعبادة، فجعل في خلقهم من هذا عبرة، ولولا ذلك لابتدأهم في نعيم الجنّة، ولم يكن لتنقّلهم في الصور والأحوال معنى في الحكمة. وقال بعضهم: المعنى: خلقناهم من الّذين يعلمون أو من الخلق الّذين أو الجنس الّذي يعلمون ويفقهون، وتلزمهم الحجّة، ولم يخلقهم من الجنس الّذي لا يفقه كالبهائم والطير. وإنّما قال: ﴿ممّا يعلمون﴾ فجمع لأنّه قال قبل ذلك ﴿خلقناهم﴾ فجمع ﴿يعلمون﴾ ووجه آخر وهو أنّه خلقهم من أجل ما يعلمون من الثواب والعقاب والتكليف للطاعات تعريضاً للثواب، كما يقول القائل: غضبت عليك ممّا تعلم، أي من أجل ما تعلم، قال الأعشى:

أأزمعت من آل ليلى ابتكاراً وشطّت على ذي‌هوى أن تُزارا[٢]

على أنّه لم يزمع من عندهم، وإنّما أزمع من أجلهم للمصير إليهم[٣].

وقوله: ﴿فلا أُقسم بربّ المشارق والمغارب﴾ قسم من الله تعالى بربّ المطالع والمغارب، و ﴿لا﴾ مفخمة وقد بيّنّا القول في ذلك. وقال ابن عبّاس: الشمس لها ثلاثمائة وستّون مطلعاً كلّ يوم مطلع لاتعود إليه إلى قابل.

وقوله: ﴿إنّا لقادرون﴾ جواب القسم، وفيه إخبار من الله تعالى بأنّه قادر ﴿على أن نبدّل﴾ بالكفّار ﴿خيراً منهم﴾ فالتبديل: تصيير الشيء موضع غيره، بدّله تبديلاً وأبدله إبدالاً، و«البدل» الكائن في موضع غيره. وقوله: ﴿وما نحن بمسبوقين﴾ عطف على جواب القسم، ومعناه: أنّ هؤلاء الكفّار لا يفوتون بأن يتقدّموا على وجه يمنع من لحاق العذاب بهم فلم يكونوا

(١) معاني القرآن وإعرابه ٥:٢٢٣. (٢) شرح ديوان الأعشى:٨١. (٣) الكشف والبيان ١٠:٤٢.

سابقين، ولا العقاب مسبوقاً منهم. فالسبق: تقدّم الشيء في وقت قبل وقت غيره. والتقدير وما نحن بمسبوقين بفوت عقابنا إيّاهم، وكأنّه لوفاتهم عقابنا قد سبقنا وما نحن بمسبوقين. وقيل: معناه: وما أهل سلطاننا بمسبوقين. وقيل: وما نحن بمغلوبين بالفوت(١).

ثمّ قال على وجه التهديد لهم بلفظ الأمر للنبيّ ﷺ: ﴿فذرهم﴾ أي اتركهم ﴿يخوضوا ويلعبوا﴾ فإنّ وبال ذلك عائد عليهم والعقاب المستحقّ على كفرهم حالّ بهم. و«اللعب» عمل للترويح عن النفس بما هو حقير في العقل، كلعب الصبيان ومن جرى مجراهم من ناقصي العقل، ولا يجوز من الحكيم أن يفعل اللعب لغيره، لأنّه عمل وضيع في الحكمة ﴿حتّى يلاقوا يومهم الّذي يوعدون﴾ ومعناه: حتّى يروا اليوم الّذي يوعدون فيه بالعقاب على المعاصي والثواب على الطاعات.

ثمّ بيّن صفة ذلك اليوم، فقال: ﴿يوم يخرجون من الأجداث﴾ يعني: من القبور واحدها جدث وجدث(٢). ونصب ﴿سراعاً﴾ على الحال، ومعناه: مسرعين ﴿كأنّهم إلى نصب يوفضون﴾ شبّههم في إسراعهم من قبورهم إلى أرض المحشر بمن نصب له علم أو صنم يستبقون إليه، و«الإيفاض» الإسراع أوفض يوفض إيفاضاً إذا أسرع، قال رؤبة:

يمشي بنا الجدّ على أو فاض(٣)

أي على عجلة. والنصب نصب الصنم الّذي كانوا يعبدونه. وقيل اسم الصنم نَصْب وجمعه نُصُب مثل رَهْن ورُهن، في قول أبي عبيدة(٤) وأنشد

---

(١) راجع تفسير الطبري ١٢: ٢٤٢.
(٢) ظاهر الخطّية: وجدف.
(٣) تفسير الطبري ٣: ٢٤٣، النكت والعيون ٦: ٩٧، جمهرة اللغة ٣: ٩٨.
(٤) مجاز القرآن ٢: ٢٧٠.

الفرّاء في الإيفاض:

لأنـــعتن نَـعامة مـيفاضا خَرْجاء ظلّت تطلب الإفاضا

فخرجاء ذات لونين، ويقال للقميص المرقّع برقعة حمراء أخرج، لأنّه خرج عن لونه، والإفاض [الإضاض] طلب ملجأ يلجأ إليه(١) وقال بشر ابن أبي حازم:

أهاجك نصب أم بعينك منصب

وقال الأعشى:

وذا النـــصب المـنصوب لا تُـنْسكنّه

لعـــــافية والله ربّك فـــــاعبدا(٢)

وقـــوله: ﴿خاشعة أبصارهم﴾ أي ذليـــلة خـــاضعة ﴿ترهقهم ذلّة﴾ أي يغشاهم ويركبهم ذلّ وصغار وخزي لما يرون نفوسهم مستحقّة للعقاب واللعن من الله.

ثمّ قال تعالى: ﴿ذلك﴾ يعني: اليوم الّذي وصفه هو ﴿اليوم الّذي كانوا يوعدون﴾ به في دار التكليف فلا يصدّقون به ويجحدونه، وقد شاهدوه في تلك الحال.

وقوله: ﴿إنّا لقادرون على أن نبدّل خيراً منهم﴾ لا يدلّ على أنّـه تـعالى قادر على أن يبدّل بالكفّار من هو خيراً منه ولم يخلقهم، فيكون قد أخلّ بالأصلح لأنّه أخبر عن أنّه قادر على خير منهم وقد خلق قـوماً آمـنوا بالنبيّ صلى الله عليه وآله وبذلوا نفوسهم وأموالهم دونه.

---

(١) معاني القرآن ٣: ١٨٦، تفسير الطبري ١٢: ٢٤٣. فيهما: الإضاضا.

(٢) شرح ديوان الأعشى: ٤٨ مع اختلاف. مرّ في ٣: ٩.

سورة نوح

مكّية في قول ابن عبّاس والضحّاك وغيرهما، وهي ثمان وعشرون آية في الكوفي، وتسع [وعشرون] في البصري، وثلاثون في المدنيّين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ ستّ آيات.

[أقول:][1] قرأ ﴿أن عبدوا الله﴾ بكسر النون عاصم وحمزة وأبو عمرو، على أصل التقاء الساكنين. الباقون بالضمّ اتباعاً للضمّة على الباء في (اعبدوا الله) وقرأ القرّاء «دعائي» ممدوداً إلّا شبلاً عن ابن كثير، فإنّه قصّر وفتح الياء مثل عصاي. قال أبو عليّ: فتح الياء وإسكانها حسنان، فأمّا قصر الكلمة فلم أسمعها، ويجوز أن تكون لغة[2].

---

(١) من الحجريّة.

(٢) الحجّة للقرّاء السبعة ٤: ٦٥.

يقول الله تعالى مخبراً عن نفسه: ﴿إنّا أرسلنا نوحاً﴾ أي بعثنا نوحاً نبيّاً ﴿إلى قومه أن أنذر قومك﴾ أي بأن أنذر قومك، فموضع ﴿أن﴾ نصب بسقوط الباء. وقال قوم: موضعه الجرّ لقوّة حذفها مع «أن». وقال آخرون: يجوز أن تكون (أن) بمعنى أي المفسّرة ، فلا يكون لها موضع من الإعراب[١]. وقرأ ابن مسعود ﴿أرسلنا نوحاً إلى قومه أنذر﴾ بلا ﴿أن﴾ لأنّ معنى الإرسال معنى القول، فكأنّه قال: قلنا له: أنذر قومك. و«الإنذار» التخويف بالإعلام بموضع المخافة ليتّقى. ونوح عليه السلام قد أنذر قومه بموضع المخافة وهي عبادة غير الله، وانتهاك محارمه ، وأعلمهم وجوب طاعته وإخلاص عبادته. وقوله: ﴿من قبل أن يأتيهم عذاب أليم﴾ معناه: أعلمهم وجوب عبادة الله وخوّفهم خلافه من قبل أن ينزل عليهم العذاب المؤلم، فإنّه إذا نزل بهم العذاب لم ينتفعوا بالإنذار ولا تنفعهم عبادة الله حينئذ، لأنّهم يكونون ملجئين إلى ذلك. وقال الحسن: أمره بأن ينذرهم عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة.

ثمّ حكى أنّ نوحاً عليه السلام امتثل ما أمره الله به و﴿قال﴾ لقومه ﴿يا قوم إني لكم نذير [مبين أن اعبدوا الله واتّقوه]﴾ أي مخوّفكم عبادة غير الله وأُحذّركم معصية الله مظهر ذلك لكم واتّقوا معاصيه ﴿وأطيعون﴾ فيما أمركم به لأنّ طاعتي مقرونة بطاعة الله، وتمسّككم بطاعتي لطف لكم في التمسّك بعبادة الله واتّقاء معاصيه، فلذلك وجب عليكم ما أدعوكم إليه على وجه الطاعة. وطاعة الله واجبة عليكم لمكان النعمة السابغة عليكم الّتي لا يوازيها نعمة منعم.

---

(١) راجع معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٢٧.

ثمّ بيّن لهم ما يستحقّون على طاعة الله وطاعة رسوله فقال: متى فعلتم ذلك غفرلكم ذنوبكم [﴿يغفر لكم من ذنوبكم﴾] ودخلت ﴿من﴾ زائدة. وقيل: ﴿من﴾ معناها «عن» والتقدير يصفح لكم عن ذنوبكم، وتكون عامّة. وقيل: إنّها دخلت للتبعيض[1] ومعناها يغفر لكم ذنوبكم السالفة، وهي بعض الذنوب الّتي تضاف إليهم، فلمّا كانت ذنوبهم الّتي يستأنفونها لا يجوز الوعد بغفرانها مطلقاً ـ لما في ذلك من الإغراء بالقبيح ـ قيّدت هذا التقييد. وقيل: معناها ﴿يغفر لكم من ذنوبكم﴾ بحسب ما تكون التوبة متعلّقة بها، فهذا على التبعيض إن لم يقلعوا إلّا عن البعض. وهذا على مذهب من يقول: تصحّ التوبة من قبيح مع المقام على قبيح آخر يعلم قبحه. وقال الزجّاج: دخلت ﴿من﴾ لتخصّ الذنوب من سائر الأشياء، لالتبعيض الذنوب[2].

وأكثر النحويّين وأكثر القرّاء على إظهار الراء عند اللام في ﴿يغفر لكم﴾ واختار أبو عمرو الإدغام، لأنّ إذهاب التكرير لا يخلّ، لأنّ الثاني مثل الأوّل. وإنّما يخلّ إذهاب ماله حسّ في المسموع، كالّذي لحروف الصفير وبحروف المدّ واللين.

وقوله: ﴿ويؤخّركم إلى أجل مسمّى﴾ عطف على الجزاء فلذلك جزمه، والمعنى: أنّكم إن أطعتم الله ورسوله غفر لكم ذنوبكم وأخّركم إلى الأجل المسمّى عنده. وفي الآية دليل على الأجلين، لأنّ الوعد بالأجل المسمّى مشروط بالعبادة والتقوى، فلمّا لم يقع اقتطعوا بعذاب الاستئصال قبل

---

(١) راجع تفسير الطبري ١٢: ٢٤٧، معاني القرآن ٣: ١٨٧.

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٢٨.

الأجل الأقصى بأجل أدنى. وكلّ ذلك مفهوم هذا الكلام. وقيل تقديره: إنّ الأجل الأقصى لهم إن آمنوا، وليس لهم إن لم يؤمنوا، كما أنّ الجنة لهم إن آمنوا وليست لهم إن لم يؤمنوا.

ثمّ أخبر ﴿إنّ أجل الله﴾ الأقصى ﴿إذا جاء لا يؤخّر لو كنتم تعلمون﴾ صحّة ذلك وتؤمنون به، ويجوز ذلك أن يكون إخباراً من الله عن نفسه، ويجوز أن يكون حكاية عن نوح أنّه قال ذلك لقومه.

ثمّ حكى تعالى ما قال نوح لله تعالى فإنّه ﴿قال﴾ يا ﴿ربّ اني دعوت قومي ليلاً ونهاراً﴾ إلى عبادتك وخلع الأنداد من دونك وإلى الإقرار بنبوّتي ﴿فلم يزدهم دعائي إلّا فراراً﴾ أي لم يزدادوا بدعائي إلّا فراراً عن قبوله وبُعداً عن استماعه. وانّما سمّي كفرهم عند دعائه زيادة في الكفر، لأنّهم كانوا على كفر بالله وضلال عن حقّه. ثمّ دعاهم نوح إلى الإقرار به وحثّهم على الإقلاع عن الشرك، فلم يقبلوا، فكفروا بذلك، فكان ذلك زيادة في الكفر، لأنّ الزيادة إضافة شيء إلى مقدار بعد حصوله منفرداً. ولو حصلا ابتداء في وقت واحد لم يكن أحدهما زيادة على الآخر، ولكن قد يكون زيادة على العطيّة. قيل : وإنّما جاز أن يكون الدعاء إلى الحقّ يزيد الناس فراراً منه للجهل الغالب على النفس، فتارة يدعو إلى الفرار ممّا نافره، وتارة يدعو إلى الفساد الّذي يلائمه ويشاكله، فمن هاهنا لم يمتنع وقوع مثل هذا. و«الفرار» ابتعاد[١] عن الشيء رغبة عنه أو خوفاً منه. فلمّا[٢] كانوا يتباعدون عن سماع دعائه رغبة عنه كانوا قد فرّوا منه.

---

(١) في الحجريّة: البعاد.

(٢) في الحجريّة والخطّية: فكما.

قوله تعالى:

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝١٢ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤﴾ ثمان آيات.

[أقول:][١] لمّا حكى الله تعالى عن نوح أنّه قال: يا ربّ إنّي دعوت قومي إلى طاعتك ليلاً ونهاراً فلم يزدادوا عند دعائي إلّا بُعداً من القبول قال: ﴿وإنّي كلّما دعوتهم﴾ إلى إخلاص عبادتك ﴿لتغفر لهم﴾ معاصيهم جزاءً على ذلك ﴿جعلوا أصابعهم في آذانهم﴾ لئلّا يسمعوا كلامي ودعائي ﴿واستغشوا ثيابهم﴾ أي طلبوا ما يستترون به من الثياب ويختفون به لئلّا يرونه. وقال الزجّاج: معناه: أنّهم كانوا يسدّون آذانهم ويغطّون وجوههم لئلّا يسمعوا كلامه[٢]. فالاستغشاء: طلب الغشى، فلمّا طلبوا التغشّي بثيابهم فراراً من الداعي لهم، كانوا قد استغشوا ﴿وأصرّوا﴾ أي أقاموا على كفرهم ومعاصيهم عازمين على فعل مثله. فالإصرار: الإقامة على الأمر بالعزيمة عليه، فلمّا كانوا مقيمين على الكفر بالعزم عليه كانوا مصرّين. وقيل: إنّ الرجل منهم كان يذهب بابنه إلى نوح، فيقول لابنه: احذر هذا لا يغوينّك، فإنّ أبي قد ذهب بي إليه وأنا مثلك، فحذرني كما حذّرتك، ذكره قتادة. وقوله: ﴿واستكبروا استكباراً﴾ أي طلبوا بامتناعهم من القبول منّي وإخلاص عبادتك تجبّراً في الأرض وعلوّاً فيها.

---

(١) من الحجريّة.

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٢٨.

ثمّ حكى أنّه قال: ﴿ثمّ إنّي دعوتهم جهاراً﴾ أي إعلاناً ﴿ثمّ إنّي أعلنت لهم﴾ أي أظهرت الدعاء لهم إلى عبادتك تارة ﴿وأسررت لهم﴾ أي وأخفيت لهم الدعاء إلى مثل ذلك كرّة أُخرى ﴿فقلت﴾ لهم ﴿استغفروا ربّكم﴾ أي اطلبوا المغفرة على كفركم ومعاصيكم من الله تعالى ﴿إنّه كان غفّاراً﴾ لكلّ من طلب منه المغفرة ويغفر فيما بعد لمن يطلب منه ذلك ومتى فعلتم ذلك وأطعمتوه ورجعتم عن كفركم ومعاصيكم ﴿يرسل﴾ الله تعالى ﴿السماء عليكم مدراراً﴾ أي كثيرة الدرور بالغيث والمطر. وقيل: إنّهم كانوا قحطوا وأجدبوا وهلكت أولادهم ومواشيهم، فلذلك رغّبهم في ترك ذلك بالرجوع إلى الله[١] و«الدرور» تجلّب الشيء حالاً بعد حال على الاتّصال يقال: درّ درّاً ودروراً فهو دارّ. والمطر الكثير الدرور مدراراً. وقيل: إنّ عمر لمّا خرج يستسقي لم يزد على الاستغفار وتلا هذه الآية[٢]. وقوله: ﴿ويمددكم بأموال وبنين﴾ عطف على الجزاء. وتقديره أنّكم متى أطعتموه وعبدتموه مخلصين أرسل عليكم المطر مدراراً وأمدّكم بأموال وبنين، فالإمداد إلحاق الثاني بالأوّل على النظام حالاً بعد حال، يقال: أمدّه بكذا يمدّه إمداداً، ومدّ النهر وأمدّه نهر آخر. والأموال جمع المال، وهو عند العرب: النعم. والبنون جمع ابن، وهو الذكر من الولد ﴿ويجعل لكم جنّات﴾ أي بساتين تجنّها الأشجار ﴿ويجعل لكم أنهاراً﴾ وهو جمع نهر وهو المجرى الواسع للماء دون سعة البحر وفوق الجدول في الاتّساع، لأنّ الجدول النهر الصغير يرى شدّة جريه لضيقه ويخفى في النهر ضرباً من الخفاء لسعته.

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٢٩.

(٢) الكشف والبيان ١٠: ٤٤.

ثمّ قال لهم على وجه التبكيت: ﴿مالكم﴾ معاشر الكفّار ﴿لا ترجون لله وقاراً﴾ أي عظمة، في قول ابن عبّاس ومجاهد والضحّاك. والمراد هاهنا سعة مقدوراته تعالى، وأصل «الوقار» ثبوت ما به يكون الشيء عظيماً من الحكم والعلم الّذي يمتنع معه الخرق، ومنه وقر في السمع ووعاه في القلب إذا ثبت في السمع وحفظه القلب. وقيل: معنى ترجون: تخافون. قال أبو ذؤيب:

إذا لَسَعتْه النحل لم يرج لسْعها وخالفها في بيت نوب عوامل(١)

أي لم يخف(٢) وكأنّه قال: مالكم لاترجون لله عاقبة عظيمة من الثواب بالخلود في النعيم، أو تخافون عاقبة عصيانه بالدخول في عذاب النار.

﴿وقد خلقكم أطواراً﴾ فالأطوار: انتقال الأحوال حالاً بعد حال. وقيل: معناه صبيّاً ثمّ شابّاً ثمّ شيخاً ثمّ غير عاقل ثمّ عاقلاً وضعيفاً ثمّ قويّاً. وقال ابن عبّاس وقتادة ومجاهد والضحّاك وابن زيد: نطفة ثمّ علقة ثمّ مضغة. وقيل: معناه: على ألوان مختلفة بيضاء وسوداء وشقراء وصفراء(٣).

قوله تعالى:

أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ ستّ آيات.

[أقول:](٤) يقول الله تعالى مخاطباً لخلقه المكلّفين ومنبّهاً لهم على

(١) مرّ في ٣: ٣١٤، ٦٩٥، معاني القرآن، لأخفش ٢: ٧١٥.

(٢) تفسير الطبري ١٢: ٢٥١، تلخيص البيان: ٣٤٥.

(٣) راجع النكت والعيون ٦: ١٠٢.

(٤) من الحجريّة.

توحيده وإخلاص عبادته: ﴿ألم تروا﴾ ومعناه: ألم تـعلموا ﴿كيف خلق الله سبع سماوات﴾ أي اخترع سبع سماوات ﴿طباقاً﴾ أي واحدة فوق الأُخرى فالطباق: مصدر طابقت مطابقة وطباقاً. و«الطـباق» مـنزلة فـوق مـنزلة. ونصب ﴿طباقاً﴾ على أحد وجهين:

أحدهما: على الفعل، وتقديره وجعلهنّ طباقاً.

والآخر: جعله نعتاً لـ﴿سبع﴾.

﴿وجعل القمر فيهنّ نوراً﴾ روي أنّ الشمس يضيء ظهرها لما يليها من السماوات، ويضيء وجهها لأهل الأرض، وكذلك القمر. والمعنى: وجعل الشمس والقمر نوراً في السماوات والأرض[١]. وقال قوم: معنى ﴿فيهنّ﴾ معهنّ، وحروف الصفات بعضها يقوم مقام بعض[٢]. وقال قوم: معناه: في حيّزهنّ، وإن كان في واحدة منها، كما يقول القائل: إنّ في هذه الدور لبئراً وإن كان في واحدة منها، وكذلك يقولون: هذا المسجد في سبع قبائل وإن كان في إحداها[٣]. و«الجعل» حصول الشيء على المضيّ بـقادر عـليه. وقد يكون ذلك بحدوث نفسه. وقد يكون بحدوث غيره له. والجعل على أربعة أوجه:

أوّلها: إحداث النفس، كجعل البناء والنساجة وغير ذلك.

والثاني: بقلبه، كجعل الطين خزفاً.

والثالث: بالحكم كجعله كافراً أو مؤمناً.

والرابع: بالدعاء إلى الفعل كجعله صادقاً وداعياً.

---

(١) راجع النكت والعيون ٦: ١٠٢، معاني القرآن ٣: ١٨٨.

(٢) راجع تفسير السمرقندي ٣: ٥٠١.

(٣) راجع معاني القرآن، لأخفش ٢: ٧١٥، تفسير الطبري ١٢: ٢٥٢.

و«النور» جسم شعاعي فيه ضياء كنور الشمس، ونور القمر، ونور النار، ونور النجوم، وشبّه بذلك نور الهدى إلى الحقّ. فالله تعالى جعل القمر ضياء في السماوات السبع، في قول عبد الله بن عمر. وقيل: جعله نوراً في ناحيتهنّ ﴿وجعل الشمس سراجاً﴾ فالسراج: جسم يركبه النور للاستصباح به، فلمّا كانت الشمس قد جعل فيها النور للاستضاءة به كانت سراجاً، وهي سراج العالم كما أنّ المصباح سراج هذا الإنسان.

وقوله: ﴿والله أنبتكم من الأرض نباتاً﴾ فالإنبات: إخراج النبات من الأرض حالاً بعد حال. و«النبات» هو الخارج بالنموّ حالاً بعد حال. والتقدير في ﴿أنبتكم نباتاً﴾ أي فنبتّم نباتاً، لأنّ أنبت يدلّ على نبت، من جهة أنّه متضمّن به.

وقوله: ﴿ثمّ يعيدكم فيها﴾ فالإعادة: النشأة الثانية، فالقادر على النشأة الأُولى قادر على الثانية، لأنّه باق قادر على اختراعه من غير سبب يولّده. والمعنى: إنّ الله يردّكم في الأرض بأن يميتكم فتصيروا تراباً كما كنتم أوّل مرّة ﴿ويخرجكم إخراجاً﴾ منها يوم القيامة كما قال: ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أُخرى﴾ (١)

ثمّ قال: ﴿والله جعل لكم الأرض بساطاً﴾ أي مبسوطة يمكّنكم المشي عليها والاستقرار فيها.

وبيّن أنّه إنّما جعلها كذلك ﴿لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً﴾ فالفجاج: جمع «فجّ» وهي الطريقة المتّسعة [المتفرّقة] وقيل: طرقاً مختلفة، ذكره ابن عبّاس. و«الفجّ» المسلك بين جبلين، ومنه الفجّ الّذي لم يستحكم

---

(١) طه: ٥٥.

أمره، كالطريق بين جبلين. وإنّما عدّد تعالى هذه الضروب من النعم امتناناً على خلقه وتنبيهاً لهم على استحقاقه للعبادة الخالصة من كلّ شرك، ودلالة لهم على أنّه عالم بمصالح خلقه، ومدبّر لهم على ما تقتضيه الحكمة، فيجب أن يشكروه على هذهالنعمة ولا يقابلونها بالكفر والجحود.

قوله تعالى:

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾ تسع آيات.

[أقول:](١) قرأ ﴿ماله وولده﴾ بفتح الواو واللام نافع وعاصم وابن عامر. والباقون بضمّ الواو وسكون اللام، وهما لغتان مثل حَزَن وحُزْن ونَخَل ونُخْل وعَدَم وعُدْم. وقال قوم: الولد بالضمّ جمع ولد مثل رُهْن ورَهن وعُرب وعَرب وعُجم وعَجَم(٢). وقرأ نافع ﴿ودّاً﴾ بضمّ الواو. الباقون بفتحها، وهما لغتان، وهو اسم الصنم. وقال قوم: بالضمّ المحبّة، وبالفتح الصنم(٣). والسواع هاهنا صنم، وفي غير هذا، الساعة من الليل. ومثله السعواء. وقرأ أبو عمرو ﴿خطاياهم﴾ على جمع التكسير. الباقون

---

(١) من الحجريّة. (٢) راجع الحجّة للقرّاء السبعة ٤: ٦٦، معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٣٠.

(٣) مجاز القرآن ٢: ١٣ و٢٧١.

﴿خطيئاتهم﴾ على جمع السلامة.

حكى الله تعالى عن نوح أنّه ﴿قال﴾ داعيا لله يا ﴿ربّ إنّهم﴾ يعني: قومه ﴿عصوني﴾ فيما آمرهم به وأنهاهم عنه، فالمعصية: مخالفة المراد إلى المكروه المزجور عنه. ومخالفة ما أراده الحكيم تكون على وجهين:

أحدهما: إلى المأذون فيه من غير أن يريده.

والآخر: إلى المكروه المزجور عنه، فهو بالأوّل مقصّر عمّا هو الأولى فعله، وبالثاني عاص.

وقوله: ﴿واتّبعوا من لم يزده ماله وولده إلّا خساراً﴾ تمام الحكاية عن نوح أنّه وصف به قومه بأنّهم عصوه فيما دعاهم إليه واتّبعوا الّذي لم يزده ماله وولده إلّا خساراً، يعني: هلاكاً. فالخسار: الهلاك بذهاب رأس المال، ففيه معنى الهلاك. وليس كذلك[1] الخسران، لأنّه محتمل للقليل الّذي لا يجحفه ذهابه والكثير الّذي يجحف، وأمّا الخسار ففيه معنى: ذهاب الكثير، ولهذا بني على صفة الهلاك.

وقوله: ﴿ومكروا مكراً كبّاراً﴾ فالمكر: الفتل بالحيلة الخفيّة إلى خلاف الجهة الموافقة بما فيها من المضرّة، مكر يمكُر مكراً، فهو ماكر، والشيء ممكور به، قال ذو الرمّة:

عَجْزاء ممكورة خَمْصانة قَلِق
عنها الوِشاح وتمّ الجسم والقُصب[2]

أي ملتفّة مفتولة. و«الكبّار» الكبير، في قول مجاهد وابن زيد. يقولون عجيب وعجاب وعجّاب بالتخفيف والتشديد. ومثله جميل وجمال

(١) في الخطّية والحجريّة: في ذلك.
(٢) ديوان ذي الرمّة: ٢٤.

وجمّال وحسن و حسان وحسّان.

﴿وقالوا﴾ يعني: الكفّار بعضهم لبعض ﴿لا تذرنّ آلهتكم﴾ أي لا تتركوا عبادة أصنامكم ﴿ولا تذرنّ وَدّاً ولا سُواعاً﴾ وهما صنمان لهم كانوا يعبدونهما. فكانت «ودًّا» لكلب و«سواع» لهمدان و«يغوث» لمذحج و«يعوق» لكنانة و«نسرا» لِحْمير، في قول قتادة .

وقوله: ﴿وقد أضلّوا كثيراً﴾ معناه: ضلّ بهم خلق كثير. وقيل: معناه: أنّ عبادتهم أضلّت[١] خلقاً عن الثواب لمن استحقّ العقاب، وأضلّهم بالذمّ والتحسّر عن حال أهل الفلاح، وإنّما جمع الأصنام بالواو لما أسند إليها ما يسند إلى العالم من استحقاق العبادة، ولم يصرفوا «يغوث» و«يعوق» لأنّه على لفظ المضارع من الأفعال، وهي معرفة، وقد نوّنهما الأعمش، وأخرجهما مخرج النكرات أي صنماً من الأصنام.

ثمّ قال نوح[٢] ﴿ولا تزد الظالمين إلّا ضلالاً﴾ ومعناه: إلّا عذاباً وسمّي العذاب ضلالاً كقوله: ﴿إنّ المجرمين في ضلال وسعر﴾[٣] وقيل: كانت هذه الأصنام المذكورة يعبدها قوم نوح، ثمّ عبدتها العرب فيما بعد، في قول ابن عبّاس وقتادة والضحّاك وابن زيد. ولا يجوز في صفة الحكيم الإضلال عن الإيمان.

وقوله: ﴿ممّا خطاياهم﴾ «ما» صلة، وتقديره من خطاياهم بمعنى من أجل ما ارتكبوه من الخطايا والكفر ﴿أُغرقوا﴾ على وجه العقوبة ﴿فادخلوا﴾ بعد ذلك ﴿ناراً﴾ ليعاقبوا فيها ﴿فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً﴾ أي من يدفع عنهم ما نزل بهم من العقاب المستحقّ على كفرهم.

---

(١) في الخطّية والحجريّة: أضلّ. (٢) في الحجريّة: يعني نوحاً. (٣) القمر: ٤٧.

ثمّ حكى ما قال نوح أيضاً فإنّه قال: ﴿ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً﴾ قال قتادة: ما دعا عليهم إلّا بعد ما أُنزل عليه ﴿أنّه لن يؤمن من قومك إلّا من قد آمن﴾(١) فلذلك قال: ﴿إنّك﴾ يا ربّ ﴿إن تذرهم﴾ يعني: تتركهم ولا تهلكهم ﴿يضلّوا عبادك﴾ عن الدين بالإغواء عنه والدعاء إلى خلافه ﴿ولا يلدوا إلّا فاجراً كفّاراً﴾ وإلّا فلم يعلم نوح الغيب، وإنّما قال ذلك بعد أن أعلمه الله ذلك وإنّما جاز أن يقول: ﴿ولا يلدوا إلّا فاجراً كفّاراً﴾ فتسميتهم بالكفر والفجور قبل أن يعملوه، لأنّه على وجه الحكاية والإخبار بما يكون منهم لو وجدوا لا على وجه الذمّ لهم واقتضاء العقل على أنّه لا يذمّ على الكفر من لم يكن منه كفر، فكأنّه قال: ولا يلدوا إلّا من إذا بلغ كفر. والـ«ديّار» فيعال من الدوران، أي ولا تذر على الأرض منهم أحداً يدور في الأرض بالذهاب والمجيء، قال الشاعر:

وما نبالي إذا ما كنت جارتنا ألّا يجاورنا إلّاك ديّار(٢)

أي إلّا إيّاك، فجعل المتّصل موضع المنفصل ضرورة. وقال الزجّاج: تقول ما في الدار أحد، ولا بها ديّار، وأصله دَيْوار «فَيْعال» فقلبت الواو ياء وادغمت إحداهما في الأُخرى(٣). و«الفاجر» من فعل الفجور، وهي الكبيرة الّتي يستحقّ بها الذمّ. و«الكفّار» من أكثر من فعل الكفر لأنّه لفظ مبالغة. وكافر يحتمل القليل والكثير.

ثمّ حكى أنّ نوحاً سأل الله تعالى فقال: ﴿ربّ اغفر لي ولوالديّ ولمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات﴾ قيل: المراد بالبيت مسجده(٤).

---

(١) هود: ٣٦.
(٢) الخصائص ١: ٣٠٧.
(٣) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٣١.
(٤) النكت والعيون ٦: ١٠٦.

وقيل: أراد سفينته[١]. وذلك على وجه الانقطاع إليه تعالى، لأنّه لا يفعل معصية يستحقّ بها العقاب. فأمّا والداه والمؤمنون والمؤمنات الّذين استغفر لهم فيجوز أن يكون منهم معاص يحتاج أن يستغفرها لهم.

وقوله: ﴿ولا تزد الظالمين إلّا تباراً﴾ فالتبار: الهلاك والعقاب، وكلّ من أهلك فقد تُبّر، ولذلك سمّي كلّ شيء مكسّر تبراً[٢] ويجوز أن يكون معناه: لا تزدهم إلّا ضلالاً أي عذاباً على كفرهم. وقال البلخي: لا تزدهم إلّا منعاً من الطاعات عقوبة لهم على كفرهم، فإنّهم إذا ضلّوا استحقّوا منع الألطاف الّتي يفعل بالمؤمنين فيطيعون عندها، ويمتثلون أمر الله، ولا يجوز أن يفعل بهم الضلال عن الحقّ، لأنّه سفه فتعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً.

---

(١) تفسير السمرقندي ٣: ٥٠٢.

(٢) في الخطّية: مكسور تبر.

سورة الجنّ

مكّية في قول قتادة وابن عبّاس والضحّاك وغيرهم، وهي ثمان وعشرون آية ليس فيها اختلاف. قال الحسن: نزلت هذه السورة فقرأها رسول الله صلى الله عليه وآله على نفر من الجنّ فآمنوا به فأتوا قومهم فقالوا: ﴿إنّا سمعنا قرآناً عجباً﴾ وكان يقول بعث الله محمّداً إلى الجنّ والإنس. وقال غيره من المفسّرين: لمّا رميت الشياطين بالشهب ومنعوا من صعود السماء، قال لهم إبليس: هذا الحادث، فبثّ شياطينه في الأرض فبعث قوماً من جنّ اليمن فلقوا النبيّ صلى الله عليه وآله بمكّة يصلّي بأصحابه ويقرأ القرآن فأعجبهم ذلك وآمنوا به، وأخبروا قومهم فقال إبليس: لهذا رُجِمتم.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى:

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ

مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْأَنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠ عشر آيات.

[أقول:](١) قال الفرّاء: قرأ حوبة بن عابد(٢) ﴿قل أُحي إليّ﴾ أراد وحي إليّ مثل وعد فقلبت الواو همزة، كما قلبها في قوله: ﴿وإذا الرسل أُقّتتْ﴾(٣) وأصله وقّتت(٤). والعرب تقول: وحيت إليه، وأوحيت بمعنى واحد وومأت إليه وأومأت، قال الراجز:

وحى لها القرار فاستقرّت(٥)

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿قل أُوحى إليّ أنّه استمع﴾ و﴿أن لو استقاموا﴾ ﴿وأنّ المساجدلله﴾ و﴿أنّه لمّا قام عبد الله﴾(٦) أربعة أحرف بفتح الألف، والباقي من أوّل السورة إلى هاهنا بكسر الألف. وقرأ نافع وعاصم في رواية أبي بكر كذلك، إلّا قوله: ﴿وإنّه لمّا قام عبد الله﴾ فإنّه قرأ بالكسر. الباقون بفتح جميع ذلك إلّا ما جاء بعد «قول» أو «فاء جزاء» فإنّهم يكسرونه. من فتح جميع ذلك جعله عطفاً على ﴿أُوحي إليّ أنّه﴾ وأنّه. ومن كسر عطف على قوله ﴿فقالوا إنّا﴾ وإنّا. قال قوم: ومن نصب فعلى تقدير آمنّا به وبكذا فعطف عليه(٧). قال الزجّاج: إن عطف على الهاء كان ضعيفاً، لأنّ عطف المظهر على المضمر ضعيف. ومن جعله مفعول ﴿آمنّا﴾ فنصبه به كأنّه قال: آمنّا بكذا وكذا، وأُسقط الباء فنصب على المعنى، لأنّ

---

(١) من الحجريّة. (٢) في الخطّية: جرثة، في المصدر، جُوَيّة الأسدي. (٣) المرسلات: ١١.
(٤) معاني القرآن ٣: ١٩٠. (٥) تفسير الطبري ٣: ٢٦٦، العين: مادّة «وحى».
(٦) الجنّ: ١٦ ـ ١٨ ـ ١٩. (٧) معاني القرآن ٣: ١٩١.

معنى «آمن» صدّق، فكأنّه قال: صدّقنا بكذا وكذا، وحذف الجارّ[1]. ومن كسر من هؤلاء بعد القول أو فاء الجزاء، فلأنّه لا يقع بعد القول والفاء إلّا ما هو ابتداء، وما هو في حكم الابتداء. ومن كسر جميع ذلك جعله مستأنفاً ولم يوقع ﴿آمنّا﴾ عليه، وما نصب من ذلك جعله مفعولاً بإيقاع فعل عليه. فأمّا قوله: ﴿أُوحي إليّ أنّه استمع﴾ فمفعول ﴿أُوحي﴾ لا غير بلا خلاف. وقرأ أبو جعفر ﴿أن لن تقوّل الإنس﴾ على معنى تكذّب. الباقون بتخفيف الواو من القول.

يقول الله تعالى آمراً لمحمّد نبيّهﷺ: ﴿قل﴾ يا محمّد لقومك ومن بعثت إليه ﴿أُوحي إليّ﴾ فالإيحاء: إلقاء المعنى إلى النفس خفياً كالإلهام، وإنزال الملائكة به لخفائه عن الناس إلّا على النبيّ الّذي أُنزل إليه كالإيماء الّذي يفهم به المعنى. والمراد هاهنا إنزال الملك به عليه. ثمّ بيّن ما أُوحي إليه فقال: ﴿إنه استمع نفر من الجنّ﴾ فالاستماع: طلب سماع الصوت بالإصغاء إليه، وهو تطلّب لفهم المعنى، وتطلّب ليستدلّ به على صاحبه. وقيل: إنّ الجنّ لمّا منعوا من استراق السمع طافوا في الأرض، فاستمعوا القرآن فآمنوا به، فأُنزل[2] بذلك الوحي على النبيّﷺ ذكره ابن عبّاس ومجاهد والضحّاك وغيرهم. و«النفر» الجماعة. و«الجنّ» جيل رقاق الأجسام خفيّة على صور مخصوصة بخلاف صورة الملائكة والناس. وقيل: العقلاء من الحيوان ثلاثة أصناف: الملائكة، والناس، والجنّ. والملك مخلوق من النور، والإنس من الطين، والجنّ من النار.

ثمّ ذكر أنّه قالت الجنّ بعضها لبعض: ﴿إنّا سمعنا قرآناً عجباً﴾

---

(١) راجع معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٣٤.

(٢) في الخطّية: فنزل.

و«العجب» هو كلّ شيء لا يعرف سببه. وقيل: هو ما يدعو إلى التعجّب منه لخفاء سببه وخروجه عن العادة في مثله. فلمّا كان القرآن قد خرج بتأليفه عن العادة في الكلام وخفي سببه عن الأنام كان عجباً لا محالة.

وقوله: ﴿يهدي إلى الرشد﴾ حكاية ما قالت الجنّ ووصفت به القرآن، فإنّهم قالوا: هذا القرآن يهدي إلى ما فيه الرشاد والحقّ ﴿فآمنّا به﴾ أي صدّقنا بأنّه من عند الله ﴿ولن نشرك﴾ فيما بعد ﴿بربّنا أحداً﴾ فنوجّه العبادة إليه بل نخلص العبادة له تعالى ﴿وأنّه تعالى جدّ ربّنا﴾ من كسر الهمزة عطفه على قوله ﴿إنّا سمعنا﴾ وحكى أنّهم قالوا: ﴿إنّه﴾ ويجوز أن يكون استأنف الإخبار عنهم. ومن فتح فعلى تقدير فآمنّا بأنّه تعالى جدّ ربّنا، ومعناه: تعالى عظمة ربّنا، لانقطاع كلّ [شيء][1] عظمة عنها لعلوّها عليه. ومنه الجدّ أبو الأب، [لانقطاعه بعلوّابوّته وكلّ من هو فوقه لهذا الولد أجداد][2] و«الجُدّ» الحظّ لانقطاعه بعلوّ شأنه. و«الجِدّ» ضدّ الهزل لانقطاعه عن السخف، ومنه الجديد لأنّه حديث عهد بالقطع في غالب الأمر. وقال الحسن ـ في رواية ـ ومجاهد وقتادة: معناه: تعالى جلالته وعظمته. وفي رواية أُخرى عن الحسن: تعالى غنيّ ربّنا[3] وكلّ ذلك يرجع إلى معنى وصفه بأنّه عظيم غنيّ. ويقال: جدّ فلان في قومه، إذا عظم فيهم. وروي عن أحدهما عليهما السلام أنّه قال: ليس لله جدّ وإنّما قالت ذلك الجنّ بجهلها فحكاه كما قالت[4]. وقال الحسن: إنّ الله تعالى بعث محمّداً صلى الله عليه وآله إلى الإنس والجنّ، وإنّه لم يرسل رسولاً قطّ من الجنّ ولا من أهل البادية

(١) لا يوجد في الخطّية. (٢) أثبتناه من الخطّية.

(٣) تفسير الطبري ١٢: ٢٥٩ـ٢٦٠. (٤) راجع تفسير القمّي ٢: ٣٨٨، التهذيب ٢: ٣١٦/١٢٩٠.

ولا من النساء، لقوله: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلّا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى﴾[١].

وقوله: ﴿ما اتّخذ صاحبة ولا ولداً﴾ [حكاية عن الجنّ باعترافهم أنّه ليس لله صاحبة ولا ولد][٢] على ما قال قوم من الكفّار.

وقوله: ﴿وأنّه كان يقول سفيهنا على الله شططاً﴾ من كسر استأنف. ومن نصب عطف على قوله: ﴿وأنّه تعالى جدّ ربّنا﴾ ونصب ذلك بتقدير آمنّا، وقدّر للباقي فعلاً يليق به، ويمكن أن يعمل فيه، كما قال الشاعر:

إذا ما الغانيات برزن يوماً وزجّجن الحواجب والعيونا[٣]

على تقدير: وكحلن العيون، وقال مجاهد وقتادة: أرادوا بـ«سفيههم» إبليس. و «الشطط» السرف في ظلم النفس والخروج عن الحقّ، فاعترفوا بأنّ إبليس كان يخرج عن الحدّ بما يغري[٤] به الخلق ويدعوهم إلى الضلال.

وقوله: ﴿وأنّا ظننّا أن لن تقول الإنس والجنّ على الله كذباً﴾ إخبار عن اعترافهم بأنّهم ظنّوا أن لا يقول أحد من الجنّ والإنس كذباً على الله في اتّخاذ الشريك معه والصاحبة والولد، وأنّ ما يقولونه من ذلك صدق حتّى سمعنا القرآن وتبيّنّا الحقّ به.

وقوله: ﴿وأنّه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجنّ﴾ قال البلخي: قال قوم: المعنى: أنّه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الإنس من أجل الجنّ، لأنّ الرجال لا يكون إلّا في الناس دون الجنّ. ومن قال

---

(١) يوسف: ١٠٩.

(٢) أثبتناه من الخطّية.

(٣) معاني القرآن ٣: ١٩١، تفسير الطبري ١٢: ٢٦١.

(٤) في الخطّية: يغوي.

بالأوّل قال في الجنّ رجال مثل ما في الإنس. وقال الحسن وقتادة ومجاهد: كان الرجل من العرب إذا نزل الوادي في سفره قال: أعوذ بعزيز هذا الوادي من شرّ سفهاء قومه. ومعنى ﴿يعوذون﴾: يستجيرون، وهذا إخبار من الله تعالى عن نفسه دون الحكاية عن الجنّ. و«العياذ» الاعتصام وهو الامتناع بالشيء من لحاق الشرّ. و«الرجال» جمع رجل وهو الذكر البالغ من الذكران. والإنسان يقع على الذكر والمرأة، والصغير والكبير ثمّ ينفصل كلّ واحد بصفة تخصّه وتميّزه من غيره.

وقوله: ﴿فزادوهم رهقاً﴾ أي إثماً إلى إثمهم الّذي كانوا عليه من الكفر والمعاصي، في قول ابن عبّاس وقتادة. وقال مجاهد: يعني طغياناً. وقال الربيع وابن زيد: يعني: فرقاً. وقيل: سفهاً[١]. قال الزجّاج: يجوز أن يكون الجن زادوا الإنس، ويجوز أن يكون الإنس زادوا الجنّ رهقاً[٢]. و«الرهق» لحاق الإثم، وأصله اللحوق. ومنه راهق الغلام إذا لحق حال الرجال، قال الأعشى:

لا شيء ينفعني من دون رؤيتها
هل يشتفي وامق ما لم يُصِب رهقاً[٣]

أي لم يعش إثماً.

ثمّ حكى تعالى ﴿وأنّهم ظنّوا كما ظننتم﴾ معاشر الإنس ﴿أن لن يبعث الله أحداً﴾ أي لا يحشره يوم القيامة ولا يحاسبه. وقال الحسن: ظنّ المشركون من الجنّ، كما ظنّ المشركون من الإنس ﴿أن لن يبعث الله

(١) النكت والعيون ٦: ١١١.
(٢) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٣٤.
(٣) شرح ديوان الأعشى: ١٢٨.

أحداً﴾ لجحدهم بالبعث والنشور، واستبعدوا ذلك مع اعترافهم بالنشأة الأُولى، لأنّهم رأوا أمارة مستمرّة في النشأة الأُولى ولم يروها في النشأة الثانية ولم ينعموا النظر، فيعلموا أنّ من قدر على النشأة الأُولى يقدر على النشأة الأُخرى.

وقال قتادة: ظنّوا أن لا يبعث الله أحداً رسولاً.

ثمّ حكى أنّ الجنّ قالت: ﴿إنّا لمسنا السماء﴾ أي مسسناها بأيدينا. وقال الجبّائي: معناه: أنّا طلبنا الصعود إلى السماء، فعبّر عن ذلك باللمس مجازاً، وإنّما جاز من الجنّ طلب الصعود مع علمهم بأنّهم يُرمون بالشهب لتجويزهم أن يصادفوا موضعاً يصعدون منه ليس فيه ملك يرميهم بالشهب، أو اعتقدوا أنّ ذلك غير صحيح، ولم يصدّقوا من أخبرهم بأنّهم رموا حين أرادوا الصعود ﴿فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً﴾ نصب ﴿حرساً﴾ على التمييز و﴿شديداً﴾ نعته و﴿شهباً﴾ عطف على ﴿حرساً﴾ فهو نصب أيضاً على التمييز. وتقديره ملئت من الحرس. و«الشهب» جمع شهاب، وهو نور يمتدّ من السماء من النجم كالنار. قال الله تعالى: ﴿ولقد زيّنّا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين﴾[١] و«الحرس» جمع حارس. وقيل: إنّ السماء لم تحرس قطّ إلّا لنبوّة أو عقوبة عاجلة عامّة[٢].

ثمّ حكى أنّهم قالوا أيضاً: ﴿إنّا كنّا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً﴾ أي لم يكن فيما مضى [منع][٣] من الصعود في المواضع الّتي يسمع منها صوت الملائكة وكلامهم، ويسمع ذلك، فالآن من

(١) الملك: ٥.
(٢) راجع تفسير الطبري ١٢: ٢٦٦.
(٣) في الخطّية: لم يكن يمنع فيما مضى.

يستمع منّا ذلك يجدله شهاباً يرمى به ويرصد. و﴿شهاباً﴾ نصب على أنّه مفعول به و﴿رصداً﴾ نعته.

ثمّ حكى أنّهم قالوا: ﴿وأنّا لا ندري﴾ بما ظهر من هذه الآية العجيبة ﴿أشرّ أُريدَ بمن في الأرض﴾ من الخلق أي إهلاكاً[١] لهم بكفرهم وعقوبة على معاصيهم ﴿أم أراد بهم ربّهم رشداً﴾ وهداية إلى الحقّ بأن بعث نبيّاً، فإنّ ذلك خاف عنّا، وقال قوم: إنّ الشهب لم تكن قبل النبيّ صلى الله عليه وآله وإنّما رموا به عند بعثه صلى الله عليه وآله[٢]. وقال آخرون: الشهب معلوم أنّها كانت فيما مضى من الزمان، ولكن كثرت في زمن النبيّ صلى الله عليه وآله وعمّت لا أنّها لم تكن أصلاً[٣]. قال البلخي: الشهب كانت لا محالة غير أنّه لم تكن تمتنع بها الجنّ عن صعود السماء، فلمّا بعث النبيّ صلى الله عليه وآله منع الجنّ من الصعود.

قوله تعالى:

وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ عشر آيات.

[أقول:][٤] قرأ أهل الكوفة ويعقوب وسهل ﴿يسلكه﴾ بالياء بمعنى

---

(١) في الخطّية: هلاكا.

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٣٤.

(٣) النكت والعيون ٦: ١١٢.

(٤) من الحجريّة.

يسلكه الله. الباقون بالنون على وجه الإخبار منه تعالى عن نفسه بنون العظمة. وقرأ أبو جعفر وعاصم وحمزة ﴿قل إنّما ادعوا ربّي﴾ بلفظ الأمر. الباقون «قال» على فعل ماض. وقرأ هشام بن عماد عن ابن عامر ﴿لبداً﴾ بضمّ اللام. الباقون بكسر اللام. واللُبد واللَبد بمعنى واحد، وجمع اللُبدة لُبَد، مثل ظلمة وظُلم وجمع اللِبدة لِبَد. ويقال: لابد ولُبَّد، مثل راكع وركّع[١].

يقول الله تعالى في تمام الحكاية عمّا قالته الجنّ الّذين آمنوا عند سماع القرآن فإنّهم قالوا: ﴿وأنّا منّا الصالحون﴾ وهم الّذين عملوا الصالحات وسمّي صالحاً، لأنّه عمل ما يصلح به حاله في دينه. وأمّا المصلح فهو فاعل الصلاح الّذي يقوم به أمر من الأمور، ولهذا وصف تعالى بأنّه مصلح، ولم يجز وصفه بأنّه صالح. و«الصلاح» يتعاظم استحقاق المدح عليه والثواب كما يختلف استحقاق الشكر بالنعم، ففي النعم ما يستحقّ به العبادة وفيها ما لا يستحقّ به ذلك وإن استحقّ به الشكر، فلذلك قال: ﴿ومنّادون ذلك﴾ والمعنى: أنّ منّا الصالحين في مراتب عالية ومنّادون ذلك في الرتبة.

وقوله: ﴿كنّا طرائق قدداً﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد وقتادة: يعني: على مذاهب مختلفة: مسلم، وكافر، وصالح، ودون الصالح. و«الطرائق» جمع الطريقة وهي الجهة المستمرّة مرتبة بعد مرتبة. والمعنى فيها: إنّا كنّا في طرق مختلفة. والقِدَد جمع قِدة. وهي المستمرّة بالقَدّ في جهة واحدة. والقدد مضمّن بجعل جاعل، وهو القادّ، وليس كذلك الطريقة في تضمّن

(١) راجع تفسير الطبري ١٢: ٢٧١.

الصفة، وإنّما هي كالمذهب الّذي يمكن فيه على استمرار إلى حيث انتهى إليه. والمعنى: أنّا كنّا على طرائق متباينة كلّ فرقة متباين صاحبها كما بيّن[1] المقدود بعضه من بعض.

وقوله: ﴿وأنّا ظنّنا أن لن نعجز الله في الأرض﴾ فالظنّ هاهنا بمعنى العلم، والمعنى: اعترافهم بأن علموا أنّه لا يفوت الله شيء يذهب في الأرض، ولا إذا هرب منه بسائر ضروب الهرب.

واعترفوا أيضاً فقالوا: ﴿وأنّا لما سمعنا الهدى﴾ يعنون: القرآن الّذي فيه هدى كلّ حيّ ﴿آمنّا به﴾ أي صدّقناه. ثمّ قالوا: ﴿فمن يؤمن بربّه﴾ أي من يصدّق بتوحيد الله وعرفه على صفاته ﴿فلا يخاف بخساً﴾ أي نقصاناً فيما يستحقّه من الثواب ﴿ولا رهقاً﴾ أي ولا يخاف ظلماً. فالرهق: لحاق السرف في الأمر، وكأنّه قال: لا يخاف نقصاً قليلاً ولا كثيراً، وذلك أنّ أجره وثوابه موفّر على أتمّ ما يكون فيه. وقال ابن عبّاس: معناه لا يخاف نقصاً من حسناته ولا زيادة في سيّئاته، وهو قول الحسن وقتادة وابن زيد، والتقدير فمن يؤمن بربّه فإنّه لا يخاف.

ثمّ قالوا أيضاً: ﴿وأنّا منّا المسلمون﴾ يعني: الّذين استسلموا لما أمرهم الله به، وانقادوا له ﴿ومنّا القاسطون﴾ يعني: الجائرون عن طريق الحقّ. و«القاسط» الجائر عن طريق الحقّ [و«المُقسِط» العادل. ونظيره «التَرِب» الفقير. و«المترب» الغنيّ. فالأوّل ذهب ماله حتّى قعد على التراب، والثاني كثر ماله حتّى صار كالتراب. «والقاسط» العادل عن الحقّ، و«المُقسِط» العادل إلى الحقّ. ثمّ قال: ﴿فمن أسلم﴾ لما أُمر الله به وانقاد له ﴿فأُولئك

(١) في الخطّية: تباين صاحبتها كما تبين.

تحرّوا رشداً﴾ أي قصدوا طريق الصواب. فالتحرّي: تعمّد إصابة الحقّ. قال امرؤ القيس:

دَئـمة هَطْلاء فـيها وَطَـفٌ طبّق الأرض تحرّى وتَدرّ[١]

ثمّ قال: ﴿وأمّا القاسطون﴾ يعني: العادلون][٢]

﴿فكانوا لجهنّم حطباً﴾ أي استحقّوا بذلك أن يكونوا وقود النـار يـوم القيامة يحرقون بها.

وقوله: ﴿وألَّو استقاموا على الطريقة﴾ إخبار من الله تعالى عـن نـفسه. وقيل ﴿أن﴾ يجوز أن تكون المخفّفة من الثقيلة، فيكون مـحمولاً عـلى الوحي، فكأنّه قال: أُوحي إليّ أن لو استقاموا. وفـصل «لو» بـينها وبـين الفعل، كما فصل «السين» و«لا» في قوله ﴿علم أن سيكون منكم مرضى﴾[٣] وقوله ﴿أن لا يرجع إليهم﴾[٤] ويحتمل أن تكون ﴿لو﴾ بـمنزلة اللام فـي قوله: ﴿لئن لم ينته المنافقون والّذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينّك بهم﴾[٥] فيسقط مرّة ويلحق أُخرى، لأنّ «لو» بمنزلة فعل الشرط، فكما لحقت اللام زائدة قبل «إن» الداخلة على الشرط قبل فعل الشرط، كذلك لحقت «أن» هذه قبل «لو».

ومعنى ﴿وأن لو استقاموا﴾ أحد أمرين:

أحدهما: لو استقاموا على طريقة الهدى بدلالة قوله: ﴿ولو أنّهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل إليهم من ربّهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾[٦] وقـوله: ﴿ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتّقوا لفتحنا عليهم بركات من

(١) ديوان امرئ‌القيس: ١٠٥. (٢) مابين المعقوفتين أثبتناه من الخطّيّة. (٣) المزّمّل: ٢٠.
(٤) طه: ٨٩. (٥) الأحزاب: ٦٠. (٦) المائدة: ٦٦.

السماء والأرض ولكن كذّبوا﴾ (١).

الثاني: لو استقاموا على طريقة الكفر بدلالة قوله: ﴿ولولا أن يكون الناس أُمّة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضّة﴾ (٢) وقيل: إنّه دخلت ﴿أن﴾ في ﴿وأن لو استقاموا﴾ لأنّه جواب القسم. ويجوز أن يحذف، كما قال الشاعر:

فأُقسم لو شيء أتانا رسوله سواك ولكن لم نجد لك مدفعا(٣)

وقال آخر:

اما والله إن لو كنت حرّاً وما بالحرّ أنت ولا العتيق(٤)

والاستقامة الاستمرار في جهة العلو. و«المستقيم من الكلام» المستمرّ على طريقة الصواب. وهو نقيض المحال. والاستقامة على طريق الحقّ الّتي يدعو إليها العقل طاعة الله. والمعنى هاهنا في قول أكثر المفسّرين: أنّه لو استقام العقلاء على طريقة الهدى واستمرّوا عليها وعملوا بموجبها لجازاهم على ذلك بأن أسقاهم ماء غدقاً، يعني كثيراً. و«الغدق» بفتح الدال المصدر، وبكسرها اسم الفاعل، وفي ذلك ترغيب في الهدى. قال الفرّاء: معناه: وأن لو استقاموا على طريقة الكفر لفعلنا بهم ما ذكرناه تغليظاً للمحنة في التكليف(٥)، ولذلك قال: ﴿لنفتنهم فيه﴾ أي نختبرهم بذلك ونبلوهم به. وغدق المكان يغدِق غَدْقاً إذا كثر فيه الماء والندى، وهو غَدِق، في قول الزجّاج(٦).

وقوله: ﴿لنفتنهم فيه﴾ معناه: لنختبرهم [ونعاملهم] بمعاملة المختبر في

(١) الأعراف: ٩٦.
(٢) الزخرف: ٣٣، راجع الحجّة للقرّاء السبعة ٤: ٦٨.
(٣) تفسير الطبري ٧: ٣٨٧.
(٤) تفسير القرطبي ١٩: ١٨، مغني اللبيب ٣٣/٤١.
(٥) معاني القرآن ٣: ١٩٣ ـ ١٩٤.
(٦) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٣٦.

شدّة التعبّد بتكليف الانصراف عمّا تدعو شهواتهم إليه، على ما تقتضيه الحكمة في ذلك [و] «الفتنة» المحنة الشديدة. والمثوبة على قدر المشقّة في الصبر عمّا تدعو إليه الشهوة.

ثمّ قال تعالى مهدّداً لهم ومتوعّداً: ﴿ومن يعرض عن ذكر ربّه﴾ والمعنى: من يعدل عن الفكر[1] فيما يؤدّيه إلى معرفة الله وتوحيده وإخلاص عبادته. فالذكر: حضور المعنى الدالّ على المذكور للنفس، وضدّه السهو، ومثله حضور المعنى بالقلب. و«الفكر» في وجوه السؤال عن المعنى طلب للذكر له. و«الفكر في البرهان» طلب للعلم بصحّة المعنى المذكور وأنّه حقّ ونقيضه باطل. وقوله: ﴿يسلكه عذاباً صعداً﴾ أي متصعّداً في العظم. وقيل: متصعّداً قد غمره وأطبق عليه. ومعناه: عذاباً أشدّ العذاب من قوله: «سأُرهقه صعوداً»[2] فأمّا قول العرب: تنفّس الصُعَداء على وزن «فعلاء» أكثر كلامهم، ومنه قيل تنفّس صعداً على وزن غرب. و«الصعود» العقبة الشاقّة. وقال الفرّاء: «الصعود» صخرة ملساء في النار ويكلّف الصعود عليها، فكلّما بلغ رأسها أُحدِر إلى أسفلها وقوعاً.

وقوله: ﴿وإن المساجدلله فلا تدعو مع الله أحداً﴾ عطف عند جميع المفسِّرين على قوله: ﴿أُوحي﴾ كأنّه قال: أُوحي إليّ أنّ المساجدلله ، وقال الخليل: التقدير، ولأنّ المساجدلله فلا تدعوا مع الله أحداً، مثل قوله: ﴿وانّ هذه أُمّتكم﴾ وتقديره: ولأنّ هذه أُمّتكم ﴿أُمّة واحدة وأنا ربّكم فاعبدون﴾[3] والمعنى: الإخبار منه تعالى بأن لا يذكر مع الله في المساجد ـ وهي المواضع الّتي وضعت للصلاة ـ أحدٌ على وجه الاشتراك في عبادته،

---

(١) في الخطّية: الذكر. (٢) المدّثّر: ١٧. (٣) الأنبياء: ٩٢، راجع العين: ٥٤ و٣٦١.

كما يدعو النصارى في بِيعَهم والمشركون في الكعبة. وقال الحسن: من السنّة إذا دخل المسجد أن يقول: لا إله الا الله، لا أدعو مع الله أحداً(١). وقيل: معناه أنّه يجب أن يدعوه بالوحدانيّة(٢). وقال الفرّاء والزجّاج: المساجد مواضع السجود من الإنسان: الجبهة، واليدان، والرجلان. وزاد أصحابنا عيني الركبتين(٣). والمعنى: أنّه لا ينبغي أن يسجد بهذه الأعضاء لأحد سوى الله تعالى.

وقوله: ﴿وأنّه لمّا قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لِبداً﴾ معناه: أنّه لمّا قام محمّد ﷺ يدعو الله، فيقول: لا إله إلّا الله كادوا يكونون عليه جماعات متكاثفات بعضها فوق بعض ليزيلوه بذلك عن دعوته بإخلاص الإلهيّة. وقال ابن عبّاس والضحّاك: معناه: أنّ الجنّ كادوا يركبونه حرصاً على سماع القرآن منه. وقال الحسن وقتادة: معناه تلبّدت الإنس والجنّ على هذا الأمر ليطفئوه فأبى الله إلّا أن ينصره ويُظهره على من ناواه، كما قال: ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متمّ نوره ولو كره الكافرون﴾(٤) وقال ابن عبّاس: هذا من قول الجنّ، لمّا رجعوا إلى قومهم أخبروهم بما رأوا من طاعة أصحاب رسول الله وائتمامهم به في الركوع والسجود، وهو قول سعيد بن جبير. و«اللِبد» القِطْع المتكاثفة على الشيء واحدها لِبدة، ومنه اللبد لتكاثف صوفه بعضه على بعض. ولبّد رأسه إذا ألصق بعض شعره ببعض، قال عبد مناف بن ربع:

صابوا بستّة أبيات وأربعة ... حتّى كأنّ عليهم جابياً لُبَدا(٥)

---

(١) راجع الكشف والبيان ١٠: ٥٤ ـ ٥٥.
(٢) تفسير الطبري ١٢: ٢٧١.
(٣) معاني القرآن ٣: ١٩٤، معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٣٦.
(٤) الصفّ: ٨.
(٥) تفسير الطبري ١٢: ٢٧١، الحجّة للقرّاء السبعة ٤: ٧٠، معجم تهذيب اللغة ١: ٥٢٧ مادة «جبأ».

فالجابي: الجراد الّذي يجبي كلّ شيء يأكله.

ثمّ حكى أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال: ﴿إنّما أدعوا ربّي﴾ ومن قرأ (قل) فمعناه: أنّ الله أمره بأن يقول: إنّما أدعو ربّي وحده ولا أُشرك به أحداً من الأصنام والأوثان. والمعنيان متقاربان، لأنّ الله تعالى إذا أمره بأن يقول فإنّه يقول لا محالة فقد حصل الأمران.

قوله تعالى:

قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَـٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَـٰلَـٰتِهِۦ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾ ثمان آيات.

[أقول:][1] قرأ ﴿ليعلم﴾ بضمّ الياء يعقوب. الباقون بفتح الياء. أمر الله تعالى نبيّه محمّداً صلى الله عليه وآله أن يقول للمكلّفين: ﴿إنّي لا أملك لكم ضرّاً ولا رشداً﴾ ومعناه: أنّي لا أقدر على دفع الضرر عنكم ولا إيصال الخير إليكم، وإنّما يقدر على ذلك الله تعالى. وإنّما أقدر على أن أدعوكم إلى الخير وأهديكم إلى طريق الرشاد، فإن قبلتم نلتم الثواب والنفع، وإن رددتموه نالكم العقاب وأليم العذاب.

ثمّ قال أيضاً: ﴿قل﴾ لهم يا محمّد ﴿إنّي لن يجيرني من الله أحد﴾ أي

(١) من الحجريّة.

لا يقدر أن يجير على الله حتّى يدفع عنه ما يريده به من العقاب ﴿ولن أجد﴾ أيضاً أنا [﴿من دونه﴾ أي] من دون الله ﴿ملتحداً﴾ يعني: ملتجأ ألجأ إليه أطلب به السلامة ممّا يريد الله تعالى فعلَه من العذاب والألم. وأضافه إلى نفسه والمراد به أُمّته، لأنّه لا يفعل قبيحاً فيخاف العقاب. والمعنى: ليس من دون الله ملتحد أي ملتجأ يطمع في السلامة مع إرادة الله عقابه. وقال قتادة: ﴿ملتحداً﴾ ملجأ.

وقوله: ﴿إلّا بلاغاً من الله ورسالاته﴾ معناه: لكن أملك البلاغ من الله الّذي هو بلاغ الحقّ لكلّ من ذهب عنه وأعرض عن اتّباعه بأن أرشده إلى الأدلّة الّتي نصبها الله له وأمر بالدعاء إليها سائر عباده المكلّفين، كما أمر أنبياءه بتبليغ رسالاته، فيكون التقدير لا أملك إلّا بلاغاً من الله ورسالاته. وقيل: يجوز أن يكون المراد لن يجيرني من الله أحد إن لم أبلغ رسالاته، فيكون نصب البلاغ على إضمار فعل من الجزاء، كقولك إن لا قياماً فقعوداً وإن لا عطاءً فردّاً جميلاً، فتكون «لا» منفصلة من «إن» وتقديره إن لا أبلغ بلاغاً من الله ورسالاته[١].

ثمّ قال: ﴿ومن يعص الله ورسوله﴾ بأن خالف ما أمراه به وارتكب ما نهياه عنه ﴿فإنّ له نار جهنّم﴾ جزاء على ذلك ﴿خالدين فيها أبداً﴾ أي مؤبّدين فيها على وجه التأبيد. والقرّاء على كسر ﴿فإنّ﴾ على الابتداء. وروي عن طلحة بن مصروف[٢] أنّه فتح على تقدير فجزاءه أنّ له. وقال ابن خالويه: سألت ابن مجاهد عن ذلك، فقال: هو لحن[٣]. وقال بعض أهل النظر: زعم أبو عبيدة: انّ ما كان من قول الجنّ فهو مكسور نسقاً على

---

(١) تفسير الطبري ١٢: ٢٧٥. (٢) في الخطّية: مصرف. (٣) مختصر في شواذّ القرآن: ١٦٣.

قوله: ﴿إنّا سمعنا﴾ ومن فتح فعلى قوله: ﴿قل أُوحي إليّ﴾[١] وهو اختيار ابن خالويه.

وقوله: ﴿حتّى إذا رأوا ما يوعدون﴾ يعني: ما يوعدون به من العقاب على المعاصي ﴿فسيعلمون﴾ عند ذلك ﴿من أضعف ناصراً﴾ يدفع عنه عقاب الله ومن ﴿أقلّ عدداً﴾ يستنصر بهم، الكفّار أم المؤمنون ؟. وقيل معناه: أجند الله أم الّذين عبده المشركون ؟[٢] وإنّما قال: ﴿من أضعف ناصراً﴾ ولا ناصر لهم في الآخرة، لأنّه جاء على جواب من توهّم أنّه إن كانت لهم إخوة فناصرهم أقوى وعددهم أكثر.

ثمّ قال لنبيّه ﷺ: ﴿قل إن أدري﴾ أي قل لهم لست أعلم: ﴿أقريب ما توعدون﴾ به من العقاب ﴿أم يجعل له ربّي أمداً﴾ أي غاية ينتهي إليها بعينها أم يؤخّره الله تعالى إلى مدّة لا يعلمها بعينها إلّا الله تعالى الّذي هو ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً﴾.

ثمّ [قال: ﴿إلّا]‏[٣] من ارتضى من رسول﴾ فإنّه ربّما اطّلعه على ما غاب عن غيره من الخلائق بأن يوحي إليهم بما شاء من الغيب، ذكره قتادة. ﴿فإنّه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً﴾ ومعناه: أنّ الله إذا نزل الملك بالوحي أرسل معه رصداً يحفظون الملك من أن يأتي أحد من الجنّ ويسمع الوحي. ونصب ﴿رصداً﴾ على المفعول، كأنّه قال: يجعل رصداً ﴿يسلك من بين يديه ومن خلفه ليعلم أن قد أبلغوا﴾ معناه: ليظهر المعلوم من التبليغ. وقال قتادة: معناه: ليعلم محمّد أنّ الرسل قبله قد أبلغوا رسالات

---

(١) تفسير السمرقندي ٣: ٥٠٤.

(٢) تفسير الطبري ١٢: ٢٧٥.

(٣) في الخطّية والحجريّة: استثنى.

ربّهم. وقال سعيد بن جبير: ليعلم الرسل أن قد أبلغوا رسالات ربّهم، على إحاطة بهم وتحصين لما بلّغوه من رسالاته. وقال الزجّاج: ليعلم الله أن قد أبلغوا[١].

وقوله: ﴿وأحاط بما لديهم﴾ معناه: أنّه يعلم ما عندهم فيحيط بما لديهم فيصير في معلومه بمنزلة ما أُحيط به ﴿وأحصى كلّ شيء عدداً﴾ معناه: أنّه يعلم الأشياء مفصّلة بمنزلة من يحصيها ليعلمها كذلك. وقال الزجّاج: نصب ﴿عدداً﴾ يحتمل شيئين:

أحدهما: وأحصى كلّ شيء في حال العَدَد، فيكون العدد بمعنى المعدود، كما يقال للمنقوص نقص، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء، لاسقوط ورقة، ولا حبّة في ظلمات الأرض.

والثاني: أن يكون بمعنى المصدر، وتقديره وأحصى كلّ شيء إحصاء[٢]. وقال الجُبّائي معنى ﴿ليعلم أن قد أبلغوا﴾ أي ليبلغوا رسالات ربّهم، فعبّر عن المعلوم بالعلم، كما يقال: ما علم الله منّي ذلك أي ما فعلته، لأنّه لو فعله لعلم الله ذلك ﴿وأحصى كلّ شيء عدداً﴾ معناه: أنّه لا شيء يعلمه عالم أو يذكره ذاكر إلّا وهو تعالى عالم به ومُحْصٍ له. و«الإحصاء» فعل، وليس هو بمنزلة العلم، فلا يجوز أن يقال أحصى مالايتناهى كما يجوز أن يقال: علم ما لا يتناهى، لأنّ الإحصاء مثل المحصى لا يكون إلّا فعلا متناهياً، فإذا لم يجز أن يفعل ما لا يتناهى لم يجز أن يقال يحصى ما لا يتناهى، والفرق بينهما واضح.

(١و٢) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٣٨.

سورة المزمّل

مكّية في قول ابن عبّاس والضحّاك، وهي عشرون آية في الكوفي والمدني الأوّل، وتسع عشرة في البصري، وثماني عشرة في المدني الأخير.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ
عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ
أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ
وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾
وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ عشر آيات.

[أقول:][1] قرأ ابن عامر وأبو عمرو ﴿وطاء﴾ بكسر الواو والمدّ جعله مصدراً لـ«واطَأَ» يواطئ مواطأة، ووطاء. ومعناه: أنّ ناشئة الليل وعمل ناشئة الليل يواطئ السمعُ القلبَ أكثر ممّا يواطئ ساعات النهار، لأنّ البال

(١) من الحجريّة.

أفرغ للانقطاع عن كثير ممّا يشغل بالنهار. الباقون بفتح الواو مقصورة، وروي عن الزهري بكسر الواو مقصورة، ومنه قوله صلى الله عليه وآله: «اللّهمّ اشدد وطاءك على مُضَر»[١] وقرأ ﴿ربّ المشرق﴾ بالجرّ كوفي غير حفص ويعقوب بدلاً من ﴿ربّك﴾. الباقون بالرفع على الاستئناف، فيكون رفعاً بالابتداء وخبره ﴿لا إله إلّا هو﴾ ويجوز أن يكون خبر الابتداء بتقدير هو ربّ المشرق.

هذا خطاب من الله تعالى للنبيّ صلى الله عليه وآله وقيل: إنّ المؤمنين داخلون فيه على وجه التبع[٢]. يقول الله له: ﴿يا أيّها المزَمّل﴾ ومعناه: الملتفّ في ثيابه، يقال: تزمّل في ثيابه فهو متزمّل، إذا التفّ. والأصل «متزمّل» فأُدغم التاء في الزاي لأنّ الزاي قريبة المخرج من التاء، وهو أبدى في المسموع من التاء. وقال قتادة: معناه المتزمّل بثيابه، وقال عكرمة: المتزمّل بعبء النبوّة. وكلّ شيء لفّف فقد تزمّل، قال امرء القيس:

كأنّ ثبيراً في عرانين وَبْله ... كبير أُناس في بِجادٍ مزّمّلٍ[٣]

يعني كبير أُناس مزمّل في بجاد وهو الكساء، وجرّه على المجاورة للبجاد.

وقوله: ﴿قم الليل إلّا قليلاً﴾ أمر من الله تعالى للنبيّ صلى الله عليه وآله بقيام الليل إلّا القليل منه. وقال الحسن: إنّ الله فرض على النبيّ والمؤمنين أن يقوموا ثلث الليل فما زاد، فقاموه حتّى تورّمت أقدامهم، ثمّ نسخ تخفيفاً عنهم. وقال غيره: هو نفل[٤] لم ينسخ، لأنّه لو كان فرضاً لما كان مخيّراً في مقداره، ذكره الجبّائي. وإنّما بيّن تخفيف النفل[٥]. وقال قوم: المرغّب فيه

---

(١) مسند أحمد ٢: ٢٣٩. (٢) راجع تفسير الطبري ١٢: ٢٧٨. (٣) ديوان امرئ القيس: ٦٢.
(٤) في الخطّية والحجريّة: فعل. (٥) في الخطّية والحجريّة: الثقل.

قيام ثلث الليل أو نصف الليل أو الليل كلّه إلّا القليل. وإنّما لم يرغب بالآية في قيام جميعه لأنّه تعالى قال: ﴿إلّا قليلاً نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه﴾ يعني على النصف . وقال الزجّاج ﴿نصفه﴾ بدل من ﴿الليل﴾ كقولك ضربت زيداً رأسه. والمعنى: قم نصف الليل إلّا قليلاً أو انقص منه قليلاً. والمعنى قم نصف الليل أو انقص من نصف الليل أو زد على نصف الليل، وذلك قبل أن يتعبّد بالخمس صلوات[1]. وقال ابن عبّاس والحسن وقتادة: كان بين أوّل السورة وآخرها – الّذي نزل فيه التخفيف – سنة. وقال سعيد بن جبير : عشر سنين . وقال الحسن وعكرمة : نسخت الثانيةُ الأُولى . والأُولى أن يكون على ظاهره ، ويكون جميع ذلك على ظاهره مرغّباً في جميع ذلك إلّا أنّه ليس بفرض وإن كانت سنّة مؤكّدة. و«النصف» أحد قسمي الشيء المساوي للآخر في المقدار. و«القليل من الشيء» الناقص عن قسمه الآخر ، وكلّما كان أنقص كان أحقّ بإطلاق الصفة ، وما لا يعتدّ به من النقصان لا يطلق عليه «قليل».

وقوله: ﴿ورتّل القرآن ترتيلاً﴾ أمر من الله تعالى له بأن يرتّل القرآن و«الترتيل» ترتيب الحروف على حقّها في تلاوتها ، [وتثبت][2] فيها، و«الحدر» هو الإسراع فيها، وكلاهما حسنان إلّا أنّ الترتيل ـ هاهنا ـ هو المرغّب فيه . وقال مجاهد: معناه: ترسّل فيه ترسّلاً. وقال الزجّاج : معناه بيّنه تبييناً أي بيّن جميع الحروف ، وذلك لا يتمّ بأن يعجّل في القراءة[3].

وقوله: ﴿إنّا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾ إخبار من الله تعالى لنبيّه أنّه سيطرح عليه قولاً ثقيلاً. وقال الحسن وقتادة : إنّه يثقل العمل به بالمشقّة

(١ و٣) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٣٩ و٢٤٠.

(٢) في الخطّية: تبثيت.

فيه . وقال ابن زيد : معناه العمل به ثـقيل فـي المـيزان والأجـر ، ليس بشاقّ[١]. وقيل : معناه قولاً عظيم الشأن ، كما تقول هذا الكلام رزين[٢] وهذا قول له وزن إذا كان واقعاً موقعه.

وقوله: ﴿إنّ ناشئة الليل هي أشدّ وطأ﴾ قال مـجاهد : «نـاشئة اللـيل» ساعات التهجّد من الليل . وقال الحسن وقتادة : هو ما كان بعد العشـاء الآخرة. وعن أبي جعفر وأبيعبد الله عليهما السلام أنّهما قالا : هو القيام آخر الليل إلى صلاة الليل . وقال قوم : ناشئة الليل ابتداء عمل الليل شيئاً بعد شيء إلى آخره . و«الناشئة» الظاهرة بحدوث شيء بعد شـيء ، وإضـافته إلى الليل توجب أنّه من عمل الليل الّذي يصلح أن ينشأ فيه[٣].

وقوله: ﴿هي أشدّ وطأ﴾ من قرأ بالفتح مقصوراً، قال معناه : لقوّة الفكر فيه أمكن موقعاً. وقيل : هو أشدّ من عمل النهار[٤] وقال مجاهد : معناه واطأ اللسانُ القلبَ مواطأة ووطاء. و«الوطاء» المهاد المذلّل للتقلّب عليه ، فكذلك عمل الليل الّذي هو أصلح له فيه تمهيد للـتصرّف فـي الدلائـل وضروب الحكم ووجوه المعاني .

وقوله: ﴿وأقوم قيلاً﴾ أي أشدّ استقامة وصواباً لفراغ البال ، وانـقطاع ما يشغل القلب. والمعنى: أنّ عمل الليل أشدّ ثباتاً من عمل النهار ، وأثبت في القلب من عمل النهار. و«الأقوم» الأخلص استقامة ، لأنّه [القول][٥] يشمل المعنى على ما فيه استقامة وفيه اضطراب . وقد يقلّ ذلك ويكثر ، وهو في القول ظاهر كما هو في الخطّ ، ففيه الحرفُ المقوّم وفيه الحرفُ

---

(١) في الخطّية: بسفساف.
(٢) في الخطّية: رصين.
(٣) راجع مجاز القرآن ٢: ٢٧٣، النكت والعيون ٦: ١٢٧.
(٤) راجع معاني القرآن ٣: ١٩٧.
(٥) في الخطّية والحجرية: به.

المضطرب . وقال ابن زيد : معناه أقوم قراءة لفراغه من شغل الدنيا ، وقال أنس : معناه أصوب . وقال مجاهد : معناه أثبت .

وقوله: ﴿إنّ لك في النهار سبحاً طويلاً﴾ قال قتادة : معناه: أنّ لك يا محمّد في النهار متصرّفاً ومنقلباً أي ما تقضي فيه حوائجك . وقرأ يحيى ابن معمّر بالخاء ، وكذلك الضحّاك ، ومعناه: التوسعة . يقال أسبخت القطن إذا وسعته للندف. ويقال لما تطاير من القطن وتفرّق عند الندف سبائخ. و«السبح» المرّ السهل في الشيء ، كالمرّ في الماء ، والسبح في عمل النهار هو المرّ في العمل الّذي يحتاج فيه إلى الضياء . وأمّا عمل الليل فلا يحتاج فيه إلى ضياء لتمكّن ذلك العمل كالفكر في وجوه البرهان وتلاوة القرآن . وقال الجبّائي في نوادره: ﴿لك في النهار سبحاً﴾ أي نوماً، وقال الزجّاج : معناه: إنّ فاتك شيء بالليل فلك في النهار فراغ تقضيه[١].

ثمّ قال لنبيّه ﷺ: ﴿واذكر اسم ربّك﴾ يعني: أسماء الله الحسنى الّتي تعبّد بالدعاء بها ﴿وتبتّل إليه تبتيلاً﴾ أي انقطع إليه انقطاعاً . فالتبتّل: الانقطاع إلى عبادة الله ، ومنه مريم البتول وفاطمة البتول ، لانقطاع مريم إلى عبادة الله وانقطاع فاطمة عن القرين ، ومنه قول الشاعر :

كأنّ لها في الأرض نِسْياً تقصّه إذا ما غدت وإن تُكلِّمْك تَبْلَتِ[٢]

أي تقطع كلامها رويداً رويداً ، وقيل : الانقطاع إلى الله تأميل الخير من جهته دون غيره ، وجاء المصدر على غير الفعل ، كما قال ﴿أنبتكم من الأرض نباتاً﴾[٣] وقيل: تقديره بتّلْ نفسك إليه تبتيلاً، فوقع المصدر موقع

(١) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٤٠.

(٢) ديوان الشنفري: ٣٣، تفسير الطبري ٨: ٣٢٥، مع اختلاف.

(٣) نوح: ١٧.

مقاربه[١].

وقوله: ﴿ربّ المشرق والمغرب﴾ من رفع فعلى أنّه خبر مبتدأ محذوف، وتقديره: هو ربّ المشرق، ومن جرّ جعله بدلاً من قوله: ﴿ربّك﴾ وتقديره اذكر اسم ربّ المشرق وهو مطلع الشمس موضع طلوعها، وربّ المغرب، يعني: موضع غروبها، وهو المتصرّف فيها والمدبّر لما بينهما ﴿لا إله إلّا هو﴾ أي لا أحد تحقّ له العبادة سواه ﴿فاتخذه وكيلاً﴾ أي حفيظاً للقيام بأمرك، فالوكيل: الحفيظ بأمر غيره. وقيل: معناه: اتّخذه كافلاً[٢] لما وعدك به.

ثمّ قال: ﴿واصبر﴾ يا محمّد ﴿على ما يقول﴾ هؤلاء الكفّار من أذاك وما يشغل قلبك ﴿واهجرهم هجراً جميلاً﴾ فالهجر الجميل: إظهار الجفوة من غير ترك الدعاء إلى الحقّ على وجه المناصحة.

قوله تعالى:

﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالاً وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَـٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَـٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولاً ﴿١٨﴾ إِنَّ هَـٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾ تسع آيات.

[أقول:][٣] لمّا أمر الله تعالى النبيّ صلى الله عليه وآله بالصبر على أذى قومه، وأن يهجرهم هجراً جميلاً قال على وجه التهديد للكفّار: ﴿وذرني﴾ يا محمّد

---

(١) في الخطّية: مقارنه. (٢) في الخطّية والحجريّة: كافياً. (٣) من الحجريّة.

﴿والمكذّبين﴾ الّذين يكذّبونك فيما تدعوهم إليه من التوحيد وإخلاص العبادة والاعتراف بالبعث والنشور ، والثواب والجزاء ، كما يقول القائل : دعني وإيّاه، إذا أراد أن يهدّده. يقال : يذر بمعنى: يترك ويَدَع، ولا يستعمل ماضيه ، ولا ماضي «يدع» ولا يقال : «وَذَرَ» ولا «وَدَعَ» استغناءً بقولهم «ترك» عن ذلك ، لأنّ الابتداء بالواو عندهم مكروه ، ولذلك أبدلوا منها الهمزة في قولهم: «أُقّتت» والأصل «وقّتت». وقالوا: «تخمة» والأصل «وخمة» وكذلك كلّ ما يصرف منه ممّا في أوّله واو إلّا قولهم : وَادِع من الدعة فلم يستغنوا عنه بتارك.

وقوله: ﴿أُولي النعمة﴾ معناه: ذوي النعمة أي أصحاب النعمة ، والنعمة بفتح النون لين الملمس وضدّها الخشونة ، ومعناه ﴿وذرني والمكذّبين﴾ أرضني بعقاب المكذّبين لست تحتاج إلى أكثر من ذلك كما يقال : دعني وإيّاه، فإنّه يكفيه ما ينزل به من غير تقصير ممّا يقع به، وهذا تهدّد شديد.

وقوله: ﴿ومهّلهم قليلاً﴾ أي أخّرهم في المدّة قليلاً، فالتمهيل: التأخير في المدّة ، وقد يكون التأخير في المكان ، فلا يسمّى تمهيلاً، فإذا كان في المدّة فهو تمهيل كما أنّ التأخير في الأجل تأجيل آخر .

وقوله: ﴿إنّ لدينا أنكالاً﴾ أي قيوداً، في قول مجاهد وقتادة. واحدها نِكْل ﴿وجحيماً﴾ أي ناراً عظيمة ، وجحيم اسم من أسماء جهنّم.

﴿وطعاماً ذا غصّة﴾ قال ابن عبّاس : معناه ذا غصّة بشوك يأخذ الحلق، فلا يدخل ولا يخرج . وقيل : معناه: يأخذ بالحلقوم لخشونته وشدّة تكرّهه[١] ﴿وعذاباً أليماً﴾ أي عقاباً موجعاً مؤلماً.

---

(١) راجع مجاز القرآن ٢: ٢٧٣.

ثمّ بيّن متى يكون ذلك فقال: ﴿يوم ترجف الأرض﴾ أي اعتدنا هذه الأنواع من العذاب في يوم ترجف الأرض أي تتحرّك باضطراب شديد ﴿والجبال﴾ أي وترجف الجبال معها أيضاً ﴿وكانت الجبال كثيباً مهيلاً﴾ قال ابن عبّاس: تصير الجبال رملاً سائلاً متناثراً. فالكثيب: الرمل المجتمع الكثير. و«مهيل» مفعول من هِلْت الرمل أهيله وذلك إذا حرّك أسفله فسال أعلاه، ويقال: مهيول كما يقال مكيل ومكيول، وانهالَ الرمل انهيالاً. و«الغصّة» تردّد اللقمة في الفم لا يسيغها الّذي يروم أكلها، قال الشاعر:

لو بغير الماء حلقي شَرِق كنت كالغصّان بالماء اعتصاري[1]

يقال غصّ بريقه يغصّ غصصاً، وفي قلبه غصّة من كذا، وهي كاللذعة الّتي لا يسيغ معها الطعام ولا الشراب.

وقوله: ﴿إنّا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم﴾ إخبار من الله تعالى وخطاب للمكلّفين في عصر النبيّ صلى الله عليه وآله ومن بعده بأنّه أرسل إليهم رسولاً يدعوهم إلى عبادته وإخلاص توحيده ﴿شاهداً عليكم﴾ بقبولهم إن قبلوا وعليهم إن لم يقبلوا ﴿كما أرسلنا﴾ أي أرسلناه إليكم مثل ما أرسلنا ﴿إلى فرعون رسولاً﴾ يعني: موسى بن عمران عليه السلام.

ثمّ أخبر عن فرعون فقال: ﴿فعصى فرعون الرسول﴾ يعني: موسى، فلم يقبل منه ما أمره به ودعاه إليه ﴿فأخذناه أخذاً وبيلاً﴾ أي أخذاً ثقيلاً شديداً عقوبةً له على عصيانه موسى رسول الله، وكلّ ثقيل وبيل، ومنه: كلأ مستوبل أي متوخّم لا يستمرء لثقله، ومنه الوبل والوابل وهو المطر العظيم القطر، ومنه الوبال وهو ما يغلظ على النفس وأصله الغلظ.

---

(١) معجم تهذيب اللغة ٣: ٢٦٦٩، مادّة «غصّ» الحجّة للقرّاء السبعة ٢: ٤٤٨.

قال طَرفة :

فمرّتْ كَهاةٌ ذات خَيْفٍ جُلالة عقيلة شيخ كالوبيل يلَنْدَدِ[١]

«الوبيل» هاهنا الغليظ من العصى، و«كَهاة» ناقة مسنّة، و«الخيف» جلد الضرع، و«يلندد» شديد الخصومة .

قوله: ﴿فكيف تتّقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شِيباً﴾ معناه: كيف تتّقون عقاب الله يوم يجعل الولدان شيباً إن كفرتم بالله وجحدتم نعمه ، وكذّبتم رسوله ، وإنّما يجعل الولدان ـ وهم الأولاد الصغار ـ شيباً لشدّته وعظم أهواله ، كما يقال : قد حدث أمر تشيب منه النواصي . وقيل : ﴿يوماً يجعل الولدان شيباً﴾ على وجه المثل[٢] والشيب جمع أشيب ، يقال : شاب الإنسان يشيب شيباً، إذا ابيضّ شعره.

ثمّ زاد في صفة شدّة ذلك اليوم أيضاً فقال: ﴿السماء منفطر به﴾ أي متصدّع بشدّة ذلك اليوم ، وإنّما لم يقل منفطرة ، لأنّه جرى على طريق النسبة أي ذات انفطار ، ولم يجر على طريق «فاعلة» كما قالوا للمرأة : مُطْفِل أي ذات طفل . وقال الزجّاج : تقديره السماء منفطر بالله مثقلة به[٣]. وقال الحسن: معناه السماء مثقل به. وقال غيره: السماء مثقلة بذلك اليوم من شدّته[٤]. وقال قوم: معناه: متشقّق بالأمر الّذي يجعل الولدان شيباً[٥]. والسماء يؤنّث ويذكّر، فمن ذكّر أراد السقف[٦].

وقوله: ﴿كان وعده مفعولاً﴾ معناه أنّ ما وعد الله به فلا بدّ من كونه، فلذلك عبّر عنه بلفظ الماضي فكأنّه قد وجد.

---

(١) ديوان طرفة بن العبد: ٤٤.
(٢) تفسير السمرقندي ٣: ٥١١.
(٣) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٤٣.
(٤) راجع الكشف والبيان ١٠: ٦٥.
(٥) راجع النكت والعيون ٦: ١٣١، مجاز القرآن ٢: ٢٧٤.
(٦) تفسير الطبري ١٢: ٢٩٢.

ثمّ قال: ﴿إنّ هذه تذكرة﴾ أي هذه القصّة الّتي ذكرناها وبيّنّاها ﴿تذكرة﴾ أي عظة لمن أنصف من نفسه وفكّر فيها، فالتذكرة: التبصرة، وهي الموعظة الّتي يذكر بها ما يعمل عليه.

وقوله: ﴿فمن شاء اتّخذ إلى ربّه سبيلاً﴾ معناه: أنّ من شاء من المكلّفين اتّخذ إلى ثواب ربّه سبيلاً، لأنّه قادر على الطاعة الّتي لو فعلها وصل إلى الثواب. والله تعالى قد دعاه إلى ما يوصله إليه ورغّبه فيه، وبعث رسولاً يدعوه أيضاً إليه. وإن لم يفعل فبسوء اختياره انصرف عنه.

قوله تعالى:

إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَاقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ آية واحدة.

[أقول:][(١)] قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر ﴿ونصفه وثلثه﴾ بكسر الفاء والثاء بمعنى أنّ ربّك يعلم أنّك تقوم أدنى من ثلثي الليل ومن نصفه ومن ثلثه أي وأدنى من نصفه وأدنى من ثلثه. الباقون بالنصب بمعنى أنّك تقوم أدنى من ثلثي الليل وتقوم نصف وثلثه. والثلث يخفّف ويثقّل، لغتان، ومثله ربع وعشر. وقال أبو عبيدة: الاختيار الخفض في «ثلثه ونصفه» لأنّه قال: ﴿علم أن لن تحصوه﴾ وكيف يقدرون على أن يقوموا نصفه أو

(١) من الحجريّة.

ثلثه، وهم لا يحصونه. وقال غيره: ليس المعنى على ما قال، وإنّما المعنى: علم أن لن يطيقوه، يعني قيام الليل، فخفّف الله ذلك، قال: والاختيار النصب، لأنّها أوضح[١] في النظر، لأنّه قال لنبيّهﷺ: ﴿قم الليل إلّا قليلاً﴾ ثمّ نقله عن الليل كلّه إلّا شيئاً يسيراً ينام فيه، وهو الثلث. والثلث يسير عند الثلثين. ثمّ قال ﴿نصفه﴾ أي قم نصفه ﴿أو انقص منه قليلاً﴾ أي قم نصفه، واكتفى بالفعل الأوّل من الثاني، لأنّه دليل عليه أو انقص من النصف قليلاً إلى الثلث ﴿أو زد﴾ هكذا إلى الثلثين جعله موسّعاً عليه. وفي الناس من قال: هذه الآية ناسخة لما ذكره في أوّل السورة من الأمر الحتم بقيام الليل إلّا قليلاً أو نصفه أو انقص منه[٢]. وقال آخرون: إنّما نسخ ما كان فرضاً إلى أن صار نفلاً[٣].

وقد قلنا: إنّ الأمر في أوّل السورة على وجه الندب، فكذلك هاهنا فلا وجه للتنافي حتّى ينسخ بعضها ببعض يقول الله تعالى لنبيّه: إنّ ربّك يا محمّد ليعلم أنّك تقوم أقلّ من ثلثي الليل وأقلّ من نصفه ومن ثلثه فيمن جرّ ذلك. ومن نصب فمعناه: أنّك تقوم أقلّ من ثلثي الليل وتقوم نصفه وثلثه وتقوم طائفة من الّذين معك على الإيمان ﴿والله يقدّر الليل والنهار﴾ لتعملوا فيه بالصواب على ما يأمركم به ﴿علم أن لن تحصوه﴾ قال الحسن: معناه: علم أن لن تطيقوه ﴿فتاب عليكم﴾ أي لم يلزمكم إثماً كما لا يلزم التائب أي رفع التبعة فيه كرفع التبعة عن التائب. و[قوله: ﴿فاقرءوا ما تيسّر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى﴾ فتاب][٤] عليكم بما رغبتم

---

(١) في الخطّية: أصحّ. (٢) معاني القرآن ٣: ١٩٦، الكشف والبيان ١٠: ٥٩.

(٣) تفسير السمرقندي ٣: ٥١٢، تفسير الطبري ١٢: ٢٩٤ ـ ٢٩٥.

(٤) في الخطّية والحجريّة: قيل: معناه: علم أن لن تحصوه. راجع النكت والعيون ٦: ١٣٢.

فيه وذلك يقتضي التخفيف عنكم ﴿وآخرون يضربون في الأرض﴾ أي ومنكم قوم آخرون يضربون أي يسافرون في الأرض، ومنكم قوم ﴿آخرون يقاتلون في سبيل الله﴾ وكلّ ذلك يقتضي التخفيف عنكم ﴿فاقرءوا ما تيسّر منه وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ ومعناه: أقيموا الصلاة بحدودها الّتي أوجبها الله عليكم واستمرّوا عليها وأعطوا ما وجب عليكم من الزكاة المفروضة ﴿وأقرضوا الله قرضاً حسناً﴾ أي وأنفقوا في سبيل الله والجهات الّتي أمركم بها وندبكم إلى النفقة فيها. وسمّي ذلك ﴿قرضاً﴾ تلطّفاً في القول، لأنّ الله تعالى من حيث إنّه يجازيهم على ذلك بالثواب، فكأنّه استقرض منهم ليردّ عوضه. وإنّما قال: ﴿حسناً﴾ أي على وجه لا يكون فيه وجه من وجوه القبح.

ثمّ قال: ﴿وما تقدّموا لأنفسكم من خير﴾ أي ما فعلتم من الطاعات [﴿تجدوه﴾ أي] تجدوا ثوابه وجزاءه ﴿عند الله﴾ وقوله: ﴿هو خيراً وأعظم أجراً﴾ أي تجدوه خيراً لكم، وهو أفضل وأعظم ثواباً، وهو عطف على ﴿خيراً﴾. ثمّ قال: ﴿واستغفروا الله﴾ على معاصيكم معاشر المكلّفين ﴿إنّ الله غفور﴾ أي ستّار لذنوبكم صفوح لأجرامكم إذا تبتم وأُقلعتم[1] ورجعتم إليه ﴿رحيم﴾ بكم منعم عليكم. وقال ابن زيد: القرض في الآية النوافل سوى الزكاة.

---

(١) في الحجريّة: اقتلعتم.

سورة المدّثّر

مكّية في قول ابن عبّاس، وقال الضحّاك هي مدنيّة، وهي خمسون وستّ آيات في الكوفي والبصري والمدني الأوّل، وخمس في المدني الأخير. وقال أبو سلمة بن عبد الرحمان: أوّل ما نزل من القرآن ﴿يا أيّها المدّثّر﴾ وحكى ذات أبو سلمة عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «جاوزت بحراء فنوديت فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً فنظرت عن شمالي فلم أر شيئاً فنظرت أمامي فلم أر شيئاً فنظرت خلفي فلم أر شيئاً، فرفعت رأسي [فلم أر شيئاً][1] فأتيت خديجة فقلت: دثّروني وصبّوا عليّ ماءً بارداً، قال: فدثّروني فصبّوا عليّ ماءً بارداً، فنزلت ﴿يا أيّها المدّثّر﴾[2] وقال الزهري: أوّل ما نزل قوله: ﴿اقرأ باسم ربّك الّذي خلق﴾.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى:

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ

(١) في الخطّيّة والحجريّة: فرأيت شيئاً.

(٢) صحيح مسلم ١: ١٤٤ / ٢٥٧، مسند أحمد ٣: ٣٩٢. مع اختلاف.

فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾ عشر آيات.

[أقول:][١] هذا خطاب من الله تعالى لنبيّه محمّدﷺ يقول له: ﴿يا أيّها المدّثّر﴾ وأصله المتدثّر بثيابه، فأُدغمت التاء في الدال، لأنّها من مخرجها مع أنّ الدال أقوى بالجهر فيها، يقال: تدثّر تدثّراً ودثّره تدثيراً، ودثَر الرسم يدثُر دثوراً إذا أُمحي أثره، فكأنّه قال: يا أيّها الطالب صرِّف الأذى بالدثار اطلبه بالإنذار.

وقوله: ﴿قم فأنذر﴾ أمر من الله تعالى له أن يقوم وينذر قومه، و«الإنذار» الإعلام بموضع المخافة ليتّقى، فلمّا كان لا مخافة أشدّ من الخوف من عقاب الله كان الإنذار منه أجلّ الإنذار، وتقديره قم إلى الكفّار فأنذر من النار.

وقوله: ﴿وربّك﴾ منصوب بـ«كبّر» والتكبير وصف الأكبر على اعتقاد معناه كتكبير المكبّر في الصلاة بقوله: «الله أكبر» والتكبير نقيض التصغير، ومثله التعظيم. والكبير الشأن هو المختصّ باتّساع المقدور والمعلوم من غير مانع من الجود. فالله تعالى قادر لا يعجزه شيء، وعالم لا يخفى عليه شيء لا يمنعه من الجود على عباده شيء، فهو أكبر من كلّ كبير بما لا يساويه شيء، واختصاصه بالمقدور والمعلوم بأنّه ماصحّ من مقدور أو معلوم فهو قادر عليه عالم به، فهو لنفسه كبير وأكبر من كلّ كبير سواه.

وقوله: ﴿وثيابك فطهّر﴾ أي وطهّر ثيابك فهو منصوب به. و«الطهارة» النظافة بانتفاء النجاسة، لأنّ النظافة قد تكون بانتفاء الوسخ من غير

---

(١) من الحجريّة.

نجاسة، وقد تكون بانتفاء النجاسة. فالطهارة في الآية هو القسم الأخير. وقال ابن عبّاس ﴿وثيابك فطهّر﴾ معناه: من لبسها على معصيته، كما قال سلامة بن غيلان الثقفي، أنشده ابن عبّاس:

وإنّي بحمد الله لا ثَوبَ فاجرٍ   لبستُ ولا من غدْرة أتقنّع[١]

وقال الزجّاج: معناه لاتكن غادراً، قال يقال للغادر: دنس الثياب[٢] أي لم أعص قطّ. وقيل: معناه: شمّر ثيابك. وفي رواية عن ابن عبّاس وإبراهيم وقتادة انّ معناه: وثيابك فطهّر من الذنوب. وقال ابن سيرين وابن زيد: اغسلها بالماء. وقيل: معناه: وثيابك فطهِّر للصلاة فيها[٣].

وقوله: ﴿والرجز فاهجر﴾ منصوب بقوله: ﴿فاهجر﴾ وقال الحسن: كلّ معصية رجز. وقال ابن عبّاس ومجاهد وقتادة والزُهْري: معناه: فاهجر الأصنام. وقال إبراهيم والضحّاك: «الرجز» الإثم. وقال الكسائي: الرجز بكسر الراء العذاب، وبفتحها الصنم والوثن. وقال: المعنى: اهجر ما يؤدّي إلى العذاب، ولم يفرّق أحد بينهما. وبالضمّ قرأ حفص ويعقوب وسهل. الباقون بالكسر إمّا لأنّهما لغتان مثل الذُكر والذِكر أو بما[٤] قاله الكسائي. وقال قوم: «الرجز» بالضمّ الصنم. وقال: كان الرجز صنمين: أساف ونائلة، نهى الله تعالى عن تعظيمهما[٥].

وقوله: ﴿ولا تمنن تستكثر﴾ قال ابن عبّاس وإبراهيم والضحّاك وقتادة ومجاهد: معناه: لا تعط عطيّة لتعطى أكثر منها. وقال الحسن والربيع

(١) مرّ في تفسير الطبري ١٢: ٢٩٨، الكشف والبيان ١٠: ٦٨.
(٢) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٤٥.
(٣) راجع الكشف والبيان ١٠: ٦٩، النكت والعيون ٦: ١٣٧.
(٤) في الخطّية: لِمَا.
(٥) الحجّة للقرّاء السبعة ٤: ٧٤.

وأنس: معناه: لا تمنن حسناتك على الله مستكثراً لها، فينفصل[١] ذلك عند الله. وقال ابن زيد: معناه: لا تمنن ما أعطاك الله من النبوّة والقرآن مستكثراً به الأجر من الناس. وقال ابن مجاهد: معناه: لا تضعف في عملك مستكثراً لطاعتك ، وقال قوم: معناه لا تمنن على الناس بما تنعم به عليهم على سبيل الاستكثار لذلك. وقال جماعة من النحويّين: إنّ ﴿تستكثر﴾ في موضع الحال ولذلك رفع. وأجاز الفرّاء الجزم على أن يكون جواباً للنهي[٢] والرفع هو الوجه. و«المنّ» ذكر النعمة بما يكدّرها، ويقطع حقّ الشكر بها، يقال: منّ بعطائه يمُنّ منّاً إذا فعل ذلك، فأمّا منَّ على الأسير إذا أطلقه، فهو قطع أسباب الاعتقال عنه. ويقال لمن أنعم على وجه المنّ لأنّه بهذه المنزلة، وأصله القطع من قوله تعالى: ﴿فلهم أجر غير ممنون﴾[٣] أي غير مقطوع. والاستكثار طلب الكثرة [يقال:] استكثر فلان من المال والعلم ، والمراد هاهنا هو طلب ذكر الاستكثار للعطيّة.

وقوله: ﴿ولربّك فاصبر﴾ قال إبراهيم: من أجل ربّك فاصبروا على عطيّتك. وقال مجاهد: لأجل الله فاصبر على أذى المشركين. وقيل: معناه: ﴿ولربّك فاصبر﴾ على ما أمرك به من أداء الرسالة وتعليم الدين، وما ينالك من الأذى والتكذيب فاحتمِلْه لتنال الفوز من الله بالنعيم[٤]. والصبر الّذي هو طاعة الله هو الصبر على الضرر الّذي يدعو إليه العقل، لأنّ ما يدعو إليه العقل فخالق العقل يريده، لأنّه بمنزلة دعاء الأمر إلى الفعل، والسبب الّذي يتقوّى به على الصبر هو التمسّك بداعي العقل دون داعي الطبع، لأنّ العقل

(١) في الخطّية: فينقصك.

(٢) معاني القرآن ٣: ٢٠١.

(٣) التين: ٦.

(٤) راجع النكت والعيون ٦: ١٣٨.

يدعو بالترغيب فيما ينبغي أن يرغّب فيه. والطبع داعي الهوى يدعو إلى خلاف ما في العقل.

وقوله: ﴿فإذا نقر في الناقور﴾ معناه: إذا نفخ في الصور، وهو كهيأة البوق، في قول مجاهد. وقيل: إنّ ذلك في أوّل النفختين[١] وهو أوّل الشدّة الهائلة العامّة. والناقور على وزن «فاعول» من النقر، كقولك: هاضوم من الهضم وحاطوم من الحطم، وهو الّذي من شأنه أن ينقر فيه للتصويت به.

وقوله: ﴿فذلك يومئذ﴾ يعني: اليوم الّذي ينفر فيه في الناقور ﴿يوم عسير﴾ أي يوم شديد عسر ﴿على الكافرين﴾ لنعم الله الجاحدين لآياته ﴿غير يسير﴾ فاليسير: القليل الكلفة، ومنه اليسار وهو كثرة المال لقلّة الكلفة به في الإنفاق، ومنه تيسّر الأمر لسهولته وقلّة الكلفة فيه. وقال الزجّاج: قوله: ﴿يوم عسير﴾ مرتفع بقوله ﴿فذلك﴾ والمعنى فذلك يوم عسير يوم النفخ في الصور. و﴿يومئذ﴾ يجوز أن يكون نصباً على معنى فذلك يوم عسير في يوم ينفخ في الصور، ويجوز الرفع. وإنّما بني على الفتح لإضافته إلى «إذ» لأنّ «إذ» غير متمكّنة[٢].

قوله تعالى:

ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُ كَانَ لِأَيَـٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ

---

(١) معاني القرآن ٣: ٢٠١.

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٤٦.

قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ خمس عشرة آية.

[أقول:][١] يقول الله تعالى لنبيّهﷺ على وجه التهديد للكافر الّذي وصفه: ﴿ذرني ومن خلقت وحيداً﴾ ومعناه: دعني وإيّاه فإنّي كاف في عقابه كما تقول العرب: دعني وإيّاه، لا أنّ الله تعالى يجوز عليه المنع حتّى يقول: ذرني وإيّاه. ولكن المعنى ما قلناه. وقوله: ﴿وحيداً﴾ قال الزجّاج: يحتمل أن يكون من صفة الخالق، ويحتمل أن يكون من صفة المخلوق، فإذا حملناه على صفة الخالق كان معناه: دعني ومن خلقته متوحّداً بخلقه لا شريك لي في خلقه وجعلته على الأوصاف الّتي ذكرتها، وإذا حمل على صفه المخلوق، كان معناه: ومن خلقته في بطن اُمّه وحده لا شيء له ثمّ جعلت له كذا وكذا، ذكره مجاهد وقتادة[٢].

وقوله: ﴿وجعلت له مالاً ممدوداً﴾ أي مالاً كثيراً له مدد يأتي شيئاً بعد شيء، فوصفه بأنّه ممدود يقتضي هذا المعنى. وقال مجاهد وسعيد بن جبير: نزلت الآية في الوليد بن المغيرة المخزومي، وقالا: كان ماله ألف دينار. وقال سفيان: كان ماله أربعة آلاف دينار. وقال النعمان بن سالم: كان أبرص[٣]. وقال عطاء عن عمر: كان غلّة شهر شهر. وقال مجاهد: كان بنوه عشرة ﴿وبنين شهوداً﴾ أي وأولاداً ذكوراً حضوراً معه يستمتع بمشاهدتهم وينتفع بحضورهم. وقيل: كان بنوه لايغيبون عنه لغنائهم عن ركوب السفر في التجارة بخلاف من هو غائب عنهم[٤].

وقوله ﴿ومهّدت له تمهيداً﴾ أي سهلت له التصرّف في الاُمور

---

(١) من الحجريّة.
(٢) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٤٦.
(٣) في الخطّية: أرضاً.
(٤) معاني القرآن ٣: ٢٠١.

تسهيلاً وقد يكون التسهيل من المصيبة ليخفّ الحزن بها، وقد يكون لما يتصرّف فيه من المبالغة.

وقوله: ﴿ثمّ يطمع أن أزيد﴾ أي لم يشكرني على هذه النعم، وهو مع ذلك يطمع أن أزيد في إنعامه. والتمهيد والتوطئة والتذليل والتسهيل نظائر.

ثمّ قال تعالى على وجه الردع والزجر: ﴿كلّا﴾ كأنّه قال: ارتدعْ عن هذا وانزجرْ، كما أنّ «صه» بمنزلة اسكتْ و«مه» بمنزلة اكففْ. وإنّما هي أصوات سمّي الفعل بها، فكأنّه قال: انزجر، فليس الأمر على ما تتوهّم.

ثمّ بيّن لِمَ كان كذلك فقال: ﴿إنّه كان لآياتنا﴾ أي إنّما لم أفعل به ذلك، لأنّه كان لحجّتنا وأدلّتنا ﴿عنيداً﴾ أي معانداً. فالعنيد الذاهب عن الشيء على طريق العداوة له. يقال عند العِرْق: يعند عنوداً فهو عاند إذا نفر، وهو من هذا. و«المعاندة» منافرة المضادّة، وكذلك العناد، وهذا الكافر يذهب عن آيات الله ذهاب نافر عنها. وقيل: معنى ﴿عنيد﴾: عنود، أي جحود بتكذيب المعاندة، في قول ابن عبّاس وقتادة. وقيل: معناه: معاند، وبعير عنود أي نافر، قال الشاعر:

إذا نزلتُ فاجعلوني وسطا إنّي كبير لا أُطيق العُنَّدا[1]

أي نفراً.

وقوله: ﴿سأُرهقه صعوداً﴾ فالإرهاق: الإعجال بالعنف و«الصعود» العقبة الّتي يصعب صعودها، وهي الكؤد والكدود في ارتقائها. ونقيض الصعود الهبوط ، وقيل: صعود جبل من نار في جهنّم يؤخذون بارتقائه، فإذا وضع يديه ذابت، فإذا رفعها عادت وكذلك رجلاه، في خبر مرفوع.

(١) تفسيرالطبري١٢: ٢٠٧، النكت والعيون٦: ١٤١، جمهرةاللغة٢: ٣٨٣، مجاز القرآن٢: ٢٧٥.

وقيل: صعود جبل في جهنّم من نار يضرب بالمقامع حتّى يصعد عليه، ثمّ يضرب حتّى ينزل ذلك دأبه أبداً[١].

ثمّ قال: ﴿إنّه فكّر﴾ أي فكّر فكراً يحتال به للباطل، لأنّه لو فكر على وجه طلب الرشاد لم يكن مذموماً بل كان ممدوحاً، ولذلك مدح الله قوماً فقال: ﴿إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون﴾[٢] أي على وجه طلب الحقّ. وقوله: ﴿وقدّر﴾ أي قدّر، فقال: إن قلنا شاعر كذّبتنا العرب باعتبار ما أتى به، وإن قلنا كاهن لم يصدّقونا، لأنّ كلامه لا يشبه كلام الكهّان، فنقول ساحر يأثر ما أتى به عن غيره من السحرة.

فقال الله تعالى: ﴿فقتل﴾ أي لعن ﴿كيف قدّر﴾ هذا. ثمّ كرّر تعالى فقال: ﴿ثمّ قتل كيف قدّر﴾ أي عوقب بعقاب آخر كيف قدّر من إبطال الحقّ تقديراً آخر. وقيل: لعن بما يجري مجرى القتل، ومثله ﴿قتل الخرّاصون﴾[٣] وقال الحسن: هو شتم من الله لهذا الكافر.

وقوله: ﴿ثمّ نظر﴾ نظر من ينكر الحقّ ويدفعه، ولو نظر طلباً للحقّ كان ممدوحاً وكان نظره صحيحاً. وقوله: ﴿ثمّ عبس﴾ أي قبض وجهه تكرّهاً للحقّ، يقال: عبس يعبِس عُبوساً، فهو عابس وعبّاس. فالعبوس والتكليح والتقطيب نظائر في اللغة، وضدّه الطلاقة والبشاشة. وقوله: ﴿وبسر﴾ فالبسور: بدوّ التكرّه الّذي يظهر في الوجه، وأصله من قولهم: بسر بالأمر إذا عجل به قبل حينه، ومنه البُسر لتعجيل حاله قبل الإرطاب، قال توبة:

---

(١) تفسير الطبري ١٢: ٣٠٨، النكت والعيون ٦: ١٤١.

(٢) الرعد: ٣، الروم: ٢١، الزمر: ٤٢، الجاثية: ١٣.

(٣) الذاريات: ١٠، معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٤٦.

وقــد رابـني مـنها صـدود رأيـته وإعراضها عنحاجتيوبُسورها[١]

فكأنّه قيل: قبض وجـهه وبـدى[٢] التكـرّه فـيه. وقـوله: ﴿ثمّ أدبر﴾ فالإدبار: الأخذ في جهة الدبر خلاف جهة الإقبال، فذلك إدبار وهذا إقبال، يقال: دبر يدبرُ دُبوراً وأدبر إدباراً. وتدبّر نظر في عاقبة الأمر، ودبّـره أي عمله على إحكام العاقبة، وكلّ مأخوذ من جهة الخلف [مدبّر].

وقوله: ﴿واستكبر [فقال إن هذا إلّا سحر يؤثر]﴾ أي طلب كبراً ليس له، ولو طلب كبراً هو له لم يكن مذموماً. وفـي صـفات الله تـعالى ﴿الجبّار المتكبّر﴾[٣] لأنّ له الكـبرياء، وهـو كـبير الشـأن فـي أعـلى المـراتب لاختصاصه باتّساع مقدوراته والمعلوم في أعلى المراتب. وقيل: إنّ الوليد قال في القرآن: والله ليعلو وما يعلا وما هو بشعر ولا كهانة، ولكنّه ﴿سحر يؤثر﴾ من ﴿قول البشر﴾ و«السحر» حيلة يخفى سببها فيوهم الشيء على خلاف ما هو به، وذلك منفيّ عن كلّ ما يشاهد ويعلم أنّه قد خرج عن العادة ممّا لا يمكن عليه معارضة. ولو كان القرآن من قول البشر لأمكنهم أن يأتوا بمثله، كما لو كان قلب العصاحيّةً من فعل ساحر لأمكن السحرة أن يأتوا بمثله. ثمّ قال ـ يعني الوليد ـ ﴿إن هذا إلّا قول البشر﴾ أي ليس هذا القرآن إلّا قول البشر وليس من كلام الله عناداً منه وبهتاناً.

قوله تعالى:

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا

---

(١) مجاز القرآن ٢: ٢٧٥، تفسير الطبري ١٢: ٣٠٩، النكت والعيون ٦: ١٤٢.

(٢) في الخطيّة: بدر.

(٣) الحشر: ٢٣.

عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَـٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾﴾ عشر آيات.

[أقول:][١] قرأ نافع وحمزة وحفص عن عاصم ﴿إذ أدبر﴾ بإسكان الذال وقطع الهمزة من ﴿أدبر﴾ الباقون ﴿إذا﴾ بفتح الذال والألف معها و﴿دبر﴾ بغير ألف. وقرأ ابن مسعود ﴿إذا أدبر﴾ بزيادة ألف. ومن قال «دبر وأدبر» فهما لغتان. قيل: هو مثل قبل وأقبل والاختيار عندهم ﴿أدبر﴾ لقوله: ﴿إذا أسفر﴾ ولم يقل إذا سفر، [لأنّ ابن عبّاس قال لِعكْرِمة: حين دبر الليل، لأنّ العرب تقول: دبر فهو دابر][٢] وحجّة نافع وحمزة قول النبيّ ﷺ: «إذا أقبل الليل من هاهنا وأدبر النهار من هاهنا فقد أفطر الصيام»[٣] ثمّ قال أبو عبيدة: أدبر ولّى، ودبرني جاء خلفي[٤].

لمّا حكى الله تعالى صفات الكافر الّذي ذكره، وهو الوليد بن المغيرة، وأنّه فكّر وقدّر إلى أن قال: هذا القرآن سحر مأثور، وهو قول البشر، قال الله تعالى مهدّداً له ومتوعّداً: ﴿سأُصليه سقر﴾ أي أُلزمه جهنّم، والإصلاء إلزام موضع النار أصلاه يُصليه إصلاءً واصطلى يصطلي اصطلاءً، وصلّاه يصلّيه، وأصله اللزوم. و«سقر» اسم من أسماء جهنّم، ولم يصرف للتعريف والتأنيث، وأصله من سقرته الشمس تسقُره سَقراً إذا آلمت دماغه. وقد

---

(١) من الحجريّة.

(٢) ما بين المعقوفتين غير واضح.

(٣) سنن البيهقي ٤: ٢١٦.

(٤) مجاز القرآن ٢: ٢٧٥ ـ ٢٧٦.

سمّيت النار سقراً لشدّة إيلامها، ومنه الصقر بالسين والصاد، لأنّ شدّته في نفسه كشدّة الألم في أذى صيده.

وقوله: ﴿وما أدراك ما سقر﴾ إعظاماً للنار وتهويلاً لها أي ولم يعلمك الله سقر على كنهها وصفتها، ثمّ وصف بعض صفاتها فقال: ﴿لا تبقي ولا تذر﴾ وقال مجاهد: معناه: لا تبقي من فيها حيّاً ولا تذره ميّتاً . وقال غيره: لا تبقي أحداً من أهلها إلّا تناولته، ولا تذره من العذاب[1]. و«الإبقاء» ترك شيء ممّا اخذ ، يقال أبقى شيئاً يبقيه إبقاء، وأبقاه الله أي أطال مدّته. و«الباقي» هو المستمرّ الوجود.

وقوله: ﴿لوّاحة للبشر﴾ أي مغيّرة لجلد الإنسان الّذي هو البشرة، في قول مجاهد. وقال المؤرّج: لوّاحة بمعنى حرّاقة، وبه قال الفرّاء[2]. وقال غيرهما: معناه تلوح لجميع الخلق حتّى يروها[3] كما قال: ﴿وبرّزت الجحيم لمن يرى﴾[4] لأنّه لا يجوز أن يصفها بأنّها تسوّد البشرة مع قوله: إنّها ﴿لا تبقي ولا تذر﴾ و«التلويح» تغيير اللون إلى الإحمرار فالنار تغيّر بشرة أهلها إلى الإحمرار، يقال : لوّحته الشمس تلوّحه تلويحاً فهي لوّاحة على المبالغة في كثرة التلويح. و«البشر» جمع بَشَرة، وهي ظاهر الجلدة، ومنه سمّي الإنسان بشراً، لأنّه ظاهر الجلدة، بتعرّيه من الوبر والريش والشعر الّذي يكون في غيره من الحيوان في غالب أمره.

وقوله: ﴿عليها تسعة عشر﴾ أي على سقر تسعة عشر من الملائكة. وإنّما خصّ بهذه العدّة لتوافق صحّة[5] الخبر لما جاء به الأنبياء قبلهﷺ

---

(١) النكت والعيون ٦: ١٤٣. (٢) معاني القرآن ٣: ٢٠٣. (٣) الكشف والبيان ١٠: ٧٤.
(٤) النازعات: ٣٦. (٥) في الخطّية: مخبر.

ويكون في ذلك مصلحة للمكلّفين.

وقد بيّن ذلك بقوله: ﴿وما جعلنا أصحاب النار إلّا ملائكة وما جعلنا عدّتهم إلّا فتنة﴾ أي لم نجعل من يتولّى تدبير النار إلّا من الملائكة ولم نجعلهم على هذه العدّة ﴿إلّا فتنة﴾ ومحنة وتشديداً في التكـليف ﴿للّذين كفروا﴾ نعم الله وجحدوا ربوبيّته ليلزمهم النظر في ذلك، فلمّا كانت هذه العدّة الّتي جعلت عليها الملائكة يظهر عندها ما كان في نفس الكافر ممّا يـقتضيه كفره، كان[1] فتنة له، لأنّ «الفتنة» هي المحنة الّتي تخرج ما في النفس من خير أو شرّ بإظهار حاله كإظهار الحكاية للمحكيّ. «والملَك» عبارة عمّا كان على خلاف صورة الجنّ والإنس من المكلّفين. وقال قوم: لا يكون مَلكاً إلّا رسولاً لأنّه من الرسالة، كما قال الهذلي:

أَلِكْني إليـها وخـير الرسـو ... ل أعلمهم بنواحي الخبر[2]

وأصله مَلأَكَ بالهمز، كما قال الشاعر:

فـلست لأنسـي ولكـن بـملأك ... تنزل من جوّ السماء يـصوب[3]

و«المَلك» عظيم الخلق شديد البطش كريم النـفس. والأصـل نـفسه منشرحة بالطاعة انشراح الكريم بالجود، وأصله من النـور، ووجـه دلالة هذه العدّة من الملائكة على نبوّة النبيّ ﷺ هو أنّه إذا كان الله ـ عزّ وجلّ ـ قد أخبر به في الكتب المتقدّمة ولم يكن محمّد ﷺ ممّن قرأها ولا تعلّمها من أحد من الناس دلّ على أنّ الله أعلمه وأنزله عليه به وحياً أبانه به من جميع الخلق ليدلّ على صدقه مع أنّه أحد الأشياء الّتي أخبر بها على هذه

---

(١) في الخطّية: كانت.

(٢) تفسير القرطبي ١٣: ٩٣.

(٣) مجاز القرآن ١: ٣٥، الكتاب ٤: ٣٨٠.

الصفة. وقوله: ﴿ليستيقن الّذين أوتوا الكتاب﴾ معناه: جعلنا عدّتهم على هذه الصفة والتقدير ليعلم أهل الكتاب يقيناً أنّ محمّداً صادق من حيث أخبر بما هو في كتبهم من غير قراءة لكتبهم ولا تعلّم منهم [﴿ويزداد الّذين آمنوا إيماناً﴾ أي] ويزداد بذلك أيضاً المؤمنون الّذين عرفوا الله إيماناً مضافاً إلى إيمانهم. ووجه المحنة على الكفّار تكليفهم أن يستدلّوا حتّى يعرفوا أنّ الله تعالى قادر أن يقوي هذه العدّة من الملائكة بما يفي بتعذيب أهل النار على ما هم عليه من الكثرة ﴿ولا يرتاب﴾ أي لا يشكّ ﴿الّذين أُوتوا الكتاب﴾ في خبره ولا يرتاب أيضاً ﴿المؤمنون﴾ في خبره.

وقوله: ﴿وليقول الّذين في قلوبهم مرض والكافرون﴾ معناه: لئلّا يقول الّذين في قلوبهم شكّ ونفاق ﴿ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾ أي أيّ شيء أراد الله بهذا مثلاً. وقيل: اللام في قوله: ﴿وليقول الّذين في قلوبهم مرض﴾ لام العاقبة كما قال: ﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوّاً وحزناً﴾(١) فقال الله تعالى: ﴿كذلك يضلّ الله من يشاء ويهدى من يشاء﴾ أي مثل ما فضح الله هؤلاء الكفّار وذمّهم مثل ذلك يضلّ من يشاء من الكفّار. والإضلال هاهنا إظهار فضيحة الكفّار بما يوجب الذمّ، ومعناه: الحكم عليهم بالضلال عن الحقّ، والإخبار بأنّهم يستحقّون اللعن بتكذيبهم النبيّ ﷺ وما أُنزل عليه. ونقيضه الهداية أي ويحكم بهداية المؤمنين إلى الحقّ ومصيرهم إلى الطاعة، وتصديقهم بالحقّ عند نزوله وقبولهم له. وقال ابن عبّاس وقتادة والضحّاك: عدّة الملائكة الموكّلين بالنار في التوراة والإنجيل تسعة عشر.

ثمّ أخبر تعالى [فقال: ﴿وما يعلم جنود ربّك إلّا هو﴾ أي] أنّه لا يعلم جنود الله إلّا الله. ثمّ قال: ﴿وما هي إلّا ذكرى للبشر﴾ قيل معناه: أنّ النار في

---

(١) القصص: ٨.

الدنيا تذكّر بالنار في الآخرة. وقال قتادة ومجاهد: النار الموصوفة بـهذه الصفة ذكرى للبشر وعظة لهم. وقال البلخي: ﴿إلّا ذكرى للبشر﴾ أي الجنود ذكرى أي عظة للبشر، لأنّ الله تعالى لا يحتاج إلى ناصر ومعين.

ثمّ قال: ﴿كلّا والقمر﴾ أي حقّاً ثمّ أقسم بالقمر ﴿والليل إذ أدبر﴾ قيل معناه: إذا ولّى يقال: دبر وأدبر، وقد قرئ بهما. وقيل: إنّما دبر النهار بأن جاء بعد النهار وآخره[١]. وتقول العرب: قبّح الله ما قبلَ منك وما دبرَ[٢] ﴿والصبح إذا أسفر﴾ أي أضاء وأنار في قول قتادة، وهو قسم آخر. وقال قوم: التقدير وربّ هذه الأشياء، لأنّ اليمين لا يكون إلّا بالله[٣]. وقال قوم: معنى قوله: ﴿والصبح إذا أسفر﴾ أي كشف عن الظلام وأنار الأشخاص[٤].

وقوله: ﴿إنّها لإحدى الكبر﴾ جواب القسم. وقال ابن عبّاس ومـجاهد وقتادة والضحّاك: معناه: أنّ النار لإحدى الكبر. وقال قوم: إنّ هذه الآية لإحدى الكبر[٥]. والكبر جمع الكبرى، وهي العظمى. وروي عن ابن كثير أنّه قرأ ﴿إنّها لحدى الكبر﴾ لا يهمز ولا يكسر يسقط الهمزة تخفيفاً، كقولهم في زيد الأحمر زيد لحمر. وفي أصحاب الأيْكة أصحاب ليْكة. والاختيار قطع الألف، لأنّ العرب إذا حذفت مثل هذا نقلت حركة الهمزة إلى ماقبلها، واللام قبل هذه الهمزة متحرّكة، واللام في الأحمر لام التعريف ساكنة[٦].

قوله تعالى:

نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّـٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾

---

(١) النكت والعيون ٦: ١٤٦.
(٢) تفسير الطبري ١٢: ٣١٥.
(٣) راجع تفسير السمرقندي ٣: ٥١٨.
(٤) جامع البيان ١٠: ٧٦.
(٥) النكت والعيون ٦: ١٤٧.
(٦) راجع الحجّة للقرّاء السبعة ٤: ٧٥ ـ ٧٦.

مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَانَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِىٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْأَخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾ إحدى وعشرون آية.

[أقول:][1] قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر ﴿مستنفرة﴾ بفتح الفاء. الباقون بكسرها، ومعناهما متقارب، لأنّ من فتح الفاء أراد أنّه نفّرها غيرها، ومن كسر الفاء أراد أنّها نافرة، وأنشد الفرّاء:

أمسك حمارك إنّه مستنفِر ... في إثر أحمرة عمدن لغُرَّبّ[2]

و«النفور» الذهاب عن المخوف بانزعاج، نفر عن الشيء ينفُر نفوراً فهو نافر، والتنافر: خلاف التلاؤم، و«استنفر» طلب النفور «ومستنفرة» طالبة للنفور. وقرأ نافع ويعقوب ﴿وما تذكرون﴾ بالتاء على الخطاب. الباقون بالياء على الخبر.

لمّا أخبر الله تعالى أنّ الآية الّتي ذكرها لإحدى الكبر، بيّن أنّه بعث النبيّ ﴿نذيراً للبشر﴾ أي منذراً مخوّفاً معلماً مواضع المخافة، والنذير الحكيم بالتحذير عمّا ينبغي أن يحذر منه، فكلّ نبيّ نذير، لأنّه حكيم بتحذيره عقاب الله تعالى على معاصيه. ﴿ونذيراً﴾ نصب على الحال. وقال الحسن: إنّه وصف النار. وقال ابن زيد: هو وصف النبيّ. وقال أبو رزين:

---

(١) من الحجريّة.

(٢) معاني القرآن ٣: ٢٠٦.

هو من صفة الله تعالى. فمن قال: هو للنبيّ قال كأنّه قيل: قم نذيراً.

وقوله: ﴿لمن شاء منكم أن يتقدّم أو يتأخّر﴾ معناه: أنّ هذا الإنذار متوجّه إلى من يمكنه أن يتّقي عذاب النار بأن يجتنب معاصيه ويفعل طاعاته، فيقدر على التقدّم والتأخّر في أمره بخلاف ما يقوله المجبّرة الّذين يقولون بتكليف ما لا يطاق لمنع القدرة. وقال قتادة: معناه لمن شاء منكم أن يتقدّم في طاعة الله أو يتأخّر عنها بمعصيته. والمشيئة هي الإرادة.

وقوله: ﴿كلّ نفس بما كسبت رهينة﴾ معناه: أنّ كلّ نفس مكلّفة مطالبة بما عملته وكسبته من طاعة أو معصية، فالرهن: أخذ الشيء بأمر على أن لا يردّ إلّا بالخروج منه، رهَنه يرهَنه رهناً، قال زهير:

وفــــارقتك بـــرهْن لا فكـــاك له
يوم الوداع فأمْسى الرهن قد غَلِقا[1]

وكذلك هؤلاء الضُلّال قد أخذوا برهن لا فكاك له. قال الرمّاني: في ذلك دلالة على القائلين باستحقاق الذمّ، لأنّه عمّ الارتهان بالكسب فـي هذا الموضع، وهم يزعمون أنّه يرتهن بأن لم يفعل ما وجب عليه من غير كسب شيء كان منه، فكانت الآية حجّة على فساد مذهبهم. وهذا الّذي ذكره ليس بصحيح، لأنّ الّذي في الظاهر أنّ الإنسان رهن بما كسبت يداه. ولم يقل: ولا يرهن إلّا بما كسب له إلّا من جهة دليل الخطاب الّذي هو فاسد عند أكثر الأُصوليّين، على أنّ الكسب هو ما يجتلب به نفع أو يدفع به ضرر، ويدخل في ذلك الفعل، وألّا يفعل، فلا تعلّق في الآية.

ولمّا ذكر تعالى أنّ ﴿كلّ نفس بما كسبت رهينة﴾ استثنى مـن جـملة النفوس فقال: ﴿إلّا أصحاب اليمين﴾ والاستثناء منقطع، لأنّ أصحاب اليمين

---

(١) ديوان زهير بن أبي سُلمى: ٣٩.

ليسوا من الضُلّال الّذين هم رهن بما كسبوه، وتقديره لكنّ أصحاب اليمين ﴿في جنّات﴾ أي بساتين أجنّها الشجر. وأصحاب اليمين هم كلّ من لم يكن من الضالّين. وقال الحسن: هم أصحاب الجنّة. وقال قوم: هم الّذين ليس لهم شيء من الذنوب[١]. وقال قوم: هم أطفال المؤمنين[٢].

وقوله: ﴿يتساءلون﴾ أي يسأل بعضهم بعضاً ﴿عن المجرمين﴾ العصاة في طاعة الله، فيقولون لهم: ﴿ما سلككم في سقر﴾ أي ما أدخلكم في جهنّم. فالمجرم: هو القاطع بالخروج عن أمر الله ونهيه إلى ارتكاب الكبائر من القبيح، و«الجارم» القاطع. و«السلوك» الدخول. و«سقر» اسم من أسماء جهنّم. ثمّ حكى ما يجيبهم به أصحاب النار فإنّهم يقولون لهم: أُدخلنا في النار لأنّا ﴿لم نك من المصلّين﴾ أي لم نك نصلّي ما أوجب علينا من الصلاة المفروضة على ما قرّرها الشرع، وفي ذلك دلالة على أنّ الإخلال بالواجب يستحقّ به الذمّ والعقاب، لأنّهم لم يقولوا إنّا فعلنا تركاً للصلاة بل علّقوا استحقاقهم للعقاب بالإخلال بالصلاة. وفيها دلالة على أنّ الكفّار مخاطَبون بالعبادات، لأنّ ذلك حكاية عن الكفّار بدلالة قوله في آخر الآية: ﴿وكنّا نكذب بيوم الدين﴾.

وقوله: ﴿ولم نك نطعم المسكين﴾ أي لم نكن نخرج الزكوات الّتي وجبت علينا، والكفّارات الّتي يلزمنا دفعها إلى المساكين. وهم الفقراء، فالمسكين: الّذي سكنته الحاجة إلى ما في أيدي الناس عن حال النشط. وحال الفقير أشدّ من حال المسكين. قال الله تعالى: ﴿أمّا السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر﴾[٣] فسمّاهم الله مساكين مع أنّ لهم مركباً في

---

(١) راجع تفسير الطبري ١٢: ٣١٨. (٢) تفسير السمرقندي ٣: ٥١٨. (٣) الكهف: ٧٩.

البحر، قال الشاعر:

أمّا الفقير الّذي كانت حلوبته وَفْقَ العيال فلم يُترَك له سبد[١]

﴿وكنّا نخوض مع الخائضين﴾ قال قتادة: معناه: كلّما غوى غاو بالدخول في الباطل غوينا معه أي كنّا نلوّث أنفسنا بالمرور في الباطل كتلويث الرجل بالخوض، فلمّا كان هؤلاء يخرجون مع من يكذّب بالحقّ مشيّعين[٢] لهم في القول كانوا خائضين معهم ﴿وكنّا﴾ مع ذلك ﴿نكذّب بيوم الدين﴾ أي كنّا نجحد يوم الجزاء وهو يوم القيامة. فالتكذيب: تنزيل الخبر على أنّه كذب باعتقاد ذلك فيه والحكم به، فهؤلاء اعتقدوا أنّ الخبر يكون يوم الدين كذب. و«الدين» الجزاء، وهو الإيصال إلى كلّ من له شيء أو عليه شيء ما يستحقّه، فذلك يوم الدين، وهو يوم الجزاء، وهو يوم أخذ المستحقّ بالعدل[٣].

وقوله: ﴿حتّى أتانا اليقين﴾ معناه: حتّى جاءنا العلم واليقين الّذي يوجد برد الثقة به في الصدر أو دليله، يقال: وجد فلان برد اليقين وثلج في صدره، ولذلك لا يوصف الله تعالى بأنّه متيقّن.

فقال الله تعالى لهم: ﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾ الّذين يشفعون لهم، لأنّ عذاب الكفر لا يسقطه الله بالشفاعة بالإجماع.

ثمّ قال: ﴿فما لهم عن التذكرة﴾ أي أيّ شيء لهم ؟ ولِمَ أعرضوا وتولّوا عن النبوّة والرشد ؟ ! ولم يتّعظوا به إلى أن صاروا إلى جهة الضلال على وجه الإنكار عليهم. ثمّ شبّههم، فقال: ﴿كأنّهم حمر مستنفرة﴾ مثلهم مثل

---

(١) معجم تهذيب اللغة ٣: ٢٨١٢، مادّة «فقر».

(٢) في الخطّية: متّبعين.

(٣) في الخطّية: بالقول.

الحمر المستنفرة أي مثلهم في النفور عمّا تدعوهم إليه من الحقّ وإعراضهم، مثل الحمر إذا نفرت ومرّت على وجهها إذا ﴿فرّت من قسورة﴾ وهو السبع يعني: الأسد. يقال نفر واستنفر بمعنى ، مثل علامتنَه واستعلاه. وسمع أعرابي رجلاً يقرأ ﴿كأنّهم حمر مستنفرة﴾ فقال: طلبها قسورة، فقيل له: ويحك إنّ في القرآن ﴿فرّت من قسورة﴾ قال ﴿مستنفرة﴾ إذاً. فالفرار: الذهاب عن الشيء خوفاً منه، فرّ يفِرّ فرّاً وفراراً، فهو فارّ إذا هرب. و«الفارّ» الهارب. و«الهرب» نقيض الطلب، وأصل الفرار الانكشاف عن الشيء، ومنه فرّ الفرس يفِرّه فرّاً إذا كشف عن سنّه. و«القسورة» الأسد. وقيل: هو الرامي للصيد[1]. وأصله الأخذ بالشدّة من قسره يقسره قسراً أي قهره. وقال ابن عبّاس: القسورة الرماة. وقال سعيد بن جبير: هم القنّاص. وفي رواية أُخرى عن ابن‌عبّاس: جماعة الرجال. وقال أبوهريرة: هو الأسد، وهو قول زيد بن أسلم. وفي رواية عن ابن عبّاس وأبي‌زيد: القسور بغير هاء تأنيث.

وقوله: ﴿بل يريد كلّ امرئٍ منهم أن يؤتى صحفاً منشّرة﴾ إخبار من الله تعالى بأنّهم ليسوا كالحمر المستنفرة الفارّة من القسورة، بل لأنّ كلّ رجل منهم يريد أن يعطى صحفاً منشّرة. قال الحسن وقتادة ومجاهد: إنّهم يريدون صحفاً منشّرة أي كتباً تنزل من السماء كتاباً إلى فلان وكتاباً إلى فلان: أن آمنوا بمحمّد صلى الله عليه وآله. وقيل: إنّهم قالوا كانت بنو إسرائيل إذا أذنب منهم مذنب أنزل الله كتاباً أنّ فلاناً أذنب فما بالنا لا ينزل علينا مثل ذلك إن كنت صادقاً به[2] ؟ و«الصحف» جمع صحيفة، وهي الورقة الّتي من شأنها

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٥٠.

(٢) معاني القرآن ٣: ٢٠٦.

أن تقلب من جهة إلى جهة، لما فيها من الكتابة، وتجمع الصحيفة صُحُفاً وصحائف، ومنه مصحف ومصاحف. و«النشر» بسط ما كان مطويّاً أو ملتفّاً من غير التحام. وقيل: معناه: إنّهم يريدون صحفاً من الله تعالى بالبراءة من العقوبة وإسباغ النعمة حتّى يؤمنوا وإلّا أقاموا على أمرهم[١]. وقيل: تفسيره ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿ولن نؤمن لرقيّك حتّى تنزل علينا كتاباً نقرؤه﴾[٢].

فقال الله تعالى: ﴿كلّا﴾ أي حقّاً ليس الأمر على ما قالوه ﴿بل لا يخافون﴾ هؤلاء الكفّار ﴿الآخرة﴾ بجحدهم صحّته[٣]. ثمّ قال: ﴿إنّه تذكرة﴾ يعني القرآن تبصرة وموعظة لمن يعمل به واتّعظ بما فيه، وهو قول قتادة.

ثمّ قال: ﴿فمن شاء ذكره﴾ أي من شاء أن يتّعظ بما فيه وهو يتذكّر به، فَعَل، لأنّه قادر عليه.

ثمّ قال: ﴿وما يذكرون إلّا أن يشاء الله﴾ من قرأ بالتاء فعلى الخطاب، ومن قرأ بالياء فعلى الإخبار عنهم. ومعناه: ليس يتذكّرون ولا يتّعظون بالقرآن إلّا أن يشاء الله، ومعناه: إلّا والله شاءه له، لأنّه طاعة والله يريد الطاعات من خلقه. وقوله: ﴿هو أهل التقوى وأهل المغفرة﴾ معناه: هو أهل أن يتّقى عقابه، وأهل أن يعمل بما يؤدّي إلى مغفرته. وقيل: معناه: هو أهل أن يغفر المعاصي إذا تاب المذنب من معاصيه[٤].

---

(١) راجع النكت والعيون ٦: ١٤٩. (٢) الإسراء: ٩٣.

(٣) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٥٠، الكشف والبيان ١٠: ٧٩.

(٤) تفسير الطبري ١٢: ٣٢٤.

سورة القيامة

مكّية في قول ابن عبّاس والضحّاك، وهي أربعون آية في الكوفي وتسع وثلاثون في البصري والمدنيّين.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ﴿١٠﴾ عشر آيات.

[أقول:][1] قرأ ﴿برق﴾ بفتح الراء أهل المدينة وأبان عن عاصم، الباقون بكسر الراء. وقرأ القوّاس عن ابن كثير ﴿لأُقسم﴾ بإثبات القسم جعل اللام لام تأكيد، وأقسم، والاختيار لمن قصد هذا ﴿لأقسمن﴾ وقد روي ذلك عن الحسن، قال: لأنّ الله تعالى أقسم بيوم القيامة، ولم يقسم

---

(١) من الحجريّة.

بالنفس اللوّامة. وقال مقاتل: لم يقسم الله تعالى بالقيامة إلّا في هذه السورة فقط. الباقون ﴿لا أُقسم﴾ بنفي اليمين في اللفظ. واختلف في ذلك النحويّون فقال أبو عبيدة والكسائي: «لا» صلة والتقدير أُقسم[١]. وقال قوم: «لا» تزيدها العرب لا ابتداء، لكن «لا» هاهنا ردّ لقوم أنكروا البعث وكفروا بالتنزيل. فقال الله: ﴿لا﴾ أي ليس كما تقولون . ثمّ قال: ﴿أُقسم بيوم القيامة﴾[٢] قال ابن خالويه: «لا» تنقسم أربعين قسماً ذكرتُه في كلّ مفرد.

قوله: ﴿لا أُقسم﴾ معناه: أُقسم و﴿لا﴾ صلة في قول سعيد بن جبير. وقال ابن عبّاس ﴿لا﴾ تأكيد كقولك: لا والله بلى والله ما كان كذا، فكأنّه قال لا، أُقسم بيوم القيامة ما الأمر على ما توهّموه. والقسم تأكيد الخبر بما جعله في حيّز المتحقّق. والمعنى: أُقسم بيوم القيامة. ويوم «القيامة» هو النشأة الأخيرة الّتي تقوم فيها الناس من قبورهم للمجازاة، وبذلك سمّيت القيامة، ويومها يوم عظيم، على خطر عظيم جسيم.

وقوله: ﴿ولا أُقسم بالنفس اللوّامة﴾ قسم ثان، ومعناه: معنى الأوّل. وقال الحسن: أقسم تعالى بيوم القيامة ولم يقسم بالنفس اللوّامة، بل نفى أن يقسم بها. قال الرُمّاني: وهذا ضعيف، لأنّه يخرج عن تشاكل الكلام. وقيل: إنّ جواب القسم محذوف، وتقديره ما الأمر على ما تتوهّمون. وقال قوم: جواب القسم قوله: ﴿بلى قادرين﴾[٣].

و«اللوّامة» الكثيرة اللوم لقلّة رضاها بالأمر وتمييز ما يرضى ممّا لا يرضى، وما يلام عليه ممّا لا يلام عليه أمر كثير من عالم بالأمور. وقال

---

(١) راجع مجاز القرآن ٢: ٢٧٧.

(٢) معاني القرآن ٣: ٢٠٧، تفسير السمرقندي ٣: ٥٢٠.

(٣) راجع معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٥١.

ابن عبّاس: اللوّامة من اللوم. وقال مجاهد: تلوم على ما مضى وفات. وقال قتادة: «اللوّامة» الفاجرة، كأنّه قال ذات اللوم الكثير. وقال سعيد بن جبير: هي الّتي تلوم على الخير والشرّ. وقيل: معناه لا صبر لها على مِحَن الدنيا وشدائدها، فهي كثيرة اللوم فيها[(١)]. وقال الحسن: «اللوّامة» هي الّتي تلوم نفسها على ما ضيّعت من حقّ الله يوم القيامة، وهي نفس الكافر. وقيل: معناها: أنّها تلوم نفسها في الآخرة على الشرّ لِم عملته وعلى الخير هلّا استكثرت منه[(٢)].

وقوله: ﴿أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه﴾ صورته صورة الاستفهام ومعناه الإنكار على من أنكر البعث والنشور، فقال الله له: أيظنّ الإنسان الكافر أن لن نجمع عظامه ونعيده إلى ما كان أوّلاً عليه.

ثمّ قال: ليس الأمر على ما ظنّه ﴿بلى قادرين على أن نسوّي بنانه﴾ قال ابن عبّاس: يجعل بنانه كالخفّ والحافر فيتناول المأكول بفيه، ولكنّا مننّا عليه. وقال قتادة كخفّ البحير أو حافر الدابّة.

ونصب ﴿قادرين﴾ على أحد وجهين:

أحدهما: على تقدير بلى نجمعها قادرين.

والآخر: بلى نقدر قادرين إلّا أنّه لم يظهر «نقدر» لدلالة ﴿قادرين﴾ عليه، فاستغني به[(٣)]. وقيل: معناه: بلى قادرين على أن نسوّي بنانه حتّى نعيده على ما كان عليه خلقاً سويّاً[(٤)].

وقوله: ﴿بل يريد الإنسان ليفجر أمامه﴾ إخبار منه أنّ الإنسان يفجر

(١) النكت والعيون ٦: ١٥١.
(٢) معاني القرآن ٣: ٢٠٨.
(٣) تفسير الطبري ١٢: ٣٢٨ ـ ٣٢٩.
(٤) النكت والعيون ٦: ١٥٢.

أمامه، ومعناه: يمضي أمامه راكباً رأسه في هواه في قول مجاهد، أي فهذا الّذي يحمله على الإعراض عن مقدورات ربّه، فلذلك لا يقرّ بالبعث والنشور. وقال الزجّاج: إنّه يسوّف بالتوبة ويقدّم الأعمال السيّئة. قال: ويجوز أن يكون المراد ليكفر بما قدّامه من البعث بدلالة قوله: ﴿يسأل أيّان يوم القيامة﴾ فهو يفجر أمامه بأن يكذّب بما قدّامه من البعث[1]. وقوله: ﴿يسأل أيّان يوم القيامة﴾ معناه: أنّ الّذي يفجر أمامه يسأل متى يكون يوم القيامة ؟ فمعنى ﴿أيّان﴾ «متى» إلّاأنّ السؤال بـ«متى» أكثر من السؤال بـ«أيّان» فلذلك حسن أن يفسّر بها لما دخلها من الابهام الّذي يحتاج فيه إلى بيان ما يتّصل بها من الكلام. والسؤال على ضربين: سؤال تعجيز، وسؤال طلب للتبيين.

وقوله: ﴿فإذا برق البصر﴾ فالبرق: اللمعان بالشعاع الّذي لا يلبث، لأنّه مأخوذ من البرق، يقال: برق يبرَق برقاً، وإنّما قيل ﴿برق البصر﴾ لأنّ ذلك يلحقه عند شدّة الأمر. و«البارقة» الّذين تلمع سيوفهم إذا جرّدوها كالبرق، وأنشد أبو عبيدة للكلابي :

لمّا أتاني ابنُ عُمَير راغباً ... أعطيته عيساءَ منها فبرق[2]

بكسر الراء وأنشد الفرّاء:

نَعاني حَنانةُ طُوبالةً ... يسفّ يبيساً من العِشْرِق

فنفسك فَانْعَي ولا تنعني ... وداوِ الكَلُوم ولا تبرَق[3]

بالفتح، أي لا تفزع من هول الجراح، و«حنانة» اسم رجل و «طُوبالة»

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٥٢.

(٢) مجاز القرآن ٢: ٢٧٧، تفسير الطبري ١٢: ٣٣١، مع اختلاف.

(٣) ديوان طَرَفة بن العبد: ١٨١ ـ ١٨٢، معاني القرآن ٣: ٢٠٩.

نعجة، وقال ابن خالويه: من كسر قال: لأنّ «برق» بالفتح لا يكون إلّا في الضوء، يقال برق البرق إذا لمع، وبرق الحنظل. فأمّا برق بالكسر، فمعناه تحيّر. والّذي قاله أهل اللغة: إنّهما لغتان، وتقول العرب: لكلّ داخل برقة أي دَهْشة. وقال الزجّاج: برق إذا فزع، وبرق إذا حار[١].

وقوله: ﴿وخسف القمر﴾ أي ذهب نوره بغيبة النور عن البصر، وخسف وكسف بمعنى كأنّه يذهب نوره في خسف من الأرض فلا يرى.

وقوله: ﴿وجمع الشمس والقمر﴾ أي جمعا في ذهاب نورهما بما يراه الإنسان. و«الجمع» جعل أحد الشيئين مع الآخر. والجمع على ثلاثة أقسام: جمع في المكان، وجمع في الزمان، وجمع الأعراض في المحلّ. وجمع الشيئين في حكم أو صفة مجاز.

وقوله: ﴿يقول الإنسان يومئذ أين المفرّ﴾ إخبار من الله تعالى بأنّ الإنسان يقول في ذلك الوقت: أين المهرب والمفرّ على فتح الفاء. وروي عن ابن عبّاس ﴿أين المفرّ﴾ بكسر الفاء. قال الزجّاج: المفرّ بالفتح الفِرار مصدر، وبالكسر مكان الفرار[٢]. وهذا سؤال تعجيز عن وجود مفرّ يهرب إليه من عذاب الله في ذلك اليوم. وقيل فيه معنى جواب هذا السائل، كأنّه قيل يوم القيامة إذا برق البصر وخسف القمر وجمع الشمس والقمر. والمفرّ مصدر، ويجوز فيه الكسر، ومثله مدَبّ ومدِبّ. وقال البصريّون: الكسر لمكان الفرار. وقال الفرّاء: الفتح والكسر لغتان[٣].

قوله تعالى:

كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ

(١ و٢) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٥٢.

(٣) معاني القرآن ٣: ٢١٠.

وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْأَخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾

خمس عشرة آية.

[أقول:][1] قرأ ﴿كلّا بل يحبّون العاجلة ويذرون الآخرة﴾ بالياء فيهما ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر على وجه الإخبار عنهم. الباقون بالتاء على وجه الخطاب لهم.

لمّا حكى الله تعالى عن الكافر أنّه يقول يوم القيامة ﴿أين المفرّ﴾ والمهرب حكى ما يقال له، فإنّه يقال له: ﴿كلّا لا وزر﴾ أي لا ملجأ. و«الوزر» الملجأ من جبل يتحصّن به أو غيره من الحصون المنيعة. ومنه «الوزير» المعين الّذي يلجأ إليه في الأمور. يقال: وزرتُ الحائط، إذا قوّيته بأساس يعتمد عليه. وقال ابن عبّاس ومجاهد: لا وزر، معناه لا ملجأ. وقال الحسن: لا جبل، لأنّ العرب إذا دهمتهم الخيل بغتة، قالوا: الوزر، يعنون: الجبل. قال ابن الدمينة:

لعمرك ما للفتى من وزر من الموت ينجو به والكِبَر[2]

وقال الضحّاك: معناه: لا حصن. وقيل معناه: لا منجا ينجو إليه، وهو مثل الملجأ.

ثمّ قال تعالى: ﴿إلى ربّك يومئذ المستقرّ﴾ أي المرجَع الّذي يفرّ فيه. ومثله المأوى والمثوى، وخلافه المرتحل. والمستقرّ على وجهين: مستقرّ

---

(١) من الحجريّة.

(٢) مجاز القرآن ٢: ٢٧٧. نسبه إلى ابن الذئبة.

إلى أمد، ومستقرّ على الأبد.

وقوله: ﴿ينبّؤ الإنسان يومئذ بما قدّم وأخّر﴾ أي يخبر بجميع ما عمله، وما تركه من الطاعات والمعاصي، فالنبأ: الخبر بما يعظم شأنه، وحسن في هذا الموضع لأنّ ما جرى مجرى اللغو والمباح لا يعتدّ به في هذا الباب. وإنّما الّذي يعظم شأنه من عمل الطاعة والمعصية هو ما يستحقّ عليه الجزاء. فأمّا ما وجوده كعدمه، فلا اعتبار به. و«التقديم» ترتيب الشيء قبل غيره، وضدّه التأخير وهو ترتيب الشيء بعد غيره، ويكون التقديم والتأخير في الزمان، وفي المكان، وفي المرتبة، كتقديم المخبر عنه في المرتبة، وهو مؤخّر في الذكر، كقولك: في الدار زيد، وكذلك الضمير في «غلامه ضرب زيد» وهو مقدّم في اللفظ ومؤخّر في المرتبة. وقال ابن عبّاس: ينبّأ بما قدّم من المعصية وأخّر من الطاعة. وقال مجاهد: يعني: بأوّل عمله وآخره. وقال ابن زيد: ما أخذ وترك. وفي رواية عن ابن عبّاس، وهو قول ابن مسعود: بما قدّم قبل موته، وما أخّر من سنّة يعمل بها بعد موته. وقيل: ما قدّم وأخّر، جميع أعماله الّتي يستحقّ بها الجزاء[1].

وقوله: ﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة﴾ أي شاهد على نفسه بما تقوم عليه به الحجّة ـ ذكره ابن عبّاس ـ كما يقال: فلان حجّة على نفسه. وقد قال تعالى: ﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾[2] وقال الزجّاج: معناه بل الإنسان تشهد عليه جوارحه كما قال: ﴿يوم تشهد عليهم﴾[3] والهاء في ﴿بصيرة﴾ مثل الهاء في «علّامة» للمبالغة. وقيل: شهادة نفسه

---

(١) راجع تفسير الطبري ١٢: ٣٣٦. (٢) الإسراء: ١٤.

(٣) النور: ٢٤، معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٥٢.

عليه أولى من اعتذاره[١]. وقيل: تقديره بل الإنسان على نفسه من نفسه بصيرة، جوارحه شاهدة عليه يوم القيامة، ولو اعتذر كان شاهداً عليه من يكذب عذره[٢].

وقوله: ﴿ولو ألقى معاذيره﴾ معناه: ولو أقام الاعتذار عند الناس، وفي دار التكليف واستسرّ بالمعاصي بإرخاء الستر. وقال ابن عبّاس: معناه: ولواعتذر. وقال السدّي: معناه: ولو أرخى الستور وأغلق الأبواب. وقال الزجّاج: معناه: لو أتى بكلّ حجّة عنده[٣]. و«المعاذير» التنصّل من الذنوب بذكر العذر، واحدها معذرة من قوله: ﴿لا ينفع الظالمين معذرتهم﴾[٤] وقيل: «المعاذير» ذكر مواقع تقطع عن الفعل المطلوب. و«العذر» منع يقطع عن الفعل بالأمر الّذي يشقّ. والاعتذار الاجتهاد في تثبيت العذر.

وقوله: ﴿لا تحرّك به لسانك لتعجل به﴾ قال ابن عبّاس وسعيد بن جبير والضحّاك: كان النبيّ صلى الله عليه وآله إذا نزل عليه القرآن عجل بتحريك لسانه لحبّه إيّاه، فنهاه الله عن ذلك. و«التحريك» تغيير الشيء من مكان إلى مكان أو من جهة إلى جهة بفعل الحركة فيه، و«الحركة» ما به يتحرّك المتحرّك. و«المتحرّك» هو المنتقل من جهة إلى غيرها. و«اللسان» آلة الكلام. و«العجلة» طلب عمل الشيء قبل وقته الّذي ينبغي أن يعمل فيه ونقيضه الإبطاء. و«السرعة» عمل الشيء في أوّل وقته الّذي هو له، وضدّه الأناة.

وقوله: ﴿إنّ علينا جمعه وقرآنه﴾ قال ابن عبّاس والضحّاك: معناه: أنّ

(١) راجع تفسير الطبري ١٢: ٣٣٨.
(٢) راجع معاني القرآن ٣: ٢١١.
(٣) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٥٣.
(٤) مؤمن: ٥٢.

علينا جمعه في صدرك، وقراءته عليك حتّى يمكنك تلاوته. وقال قتادة: معناه: أنّ علينا جمعه في صدرك وتأليفه على ما نزل عليك. وقال ابن عبّاس ـ في رواية أُخرى ـ إنّ معناه: أنّ علينا بيانه من حلاله وحرامه بذكره لك. وقال قتادة: معناه: نذكر أحكامه ونبيّن لك معناه إذا حفظته. وقال البلخي: الّذي أختاره أنّه لم يرد القرآن وإنّما أراد قراءة العباد لكتبهم يوم القيامة، لأنّ ما قبله وبعده يدلّ على ذلك، وليس فيه شيء يدلّ على أنّه القرآن، ولا على شيء من أحكام الدنيا، وفي ذلك تقريع للعبد وتوبيخ له حين لا تنفعه العجلة. والقرآن من الضمّ والتأليف، قال عمرو بن كلثوم:

ذِرَاعَـي عَـيْطَلٍ أدمـاء بكـرٍ   هِجَانِ اللَون لم تقرأ جنينا[1]

أي لم تضمّ رحماً على ولد.

وقوله: ﴿فإذا قرأناه فاتّبع قرآنه﴾ قال ابن عبّاس: معناه: إذا قرأناه أي تلوناه فاتّبع قراءته بقرائتك. وقال قتادة والضحّاك: معناه: بأن يعمل بما فيه من الأحكام والحلال والحرام. وقيل: معناه: فإذا قرأه جبرائيل عليك فاتّبع قرآنه[2]. و«الاتّباع» مراجعة الثاني للأوّل في ما يقتضيه، ومثله الاقتداء والاحتذاء والائتمام، ونقيضه الخلاف. و«البيان» إظهار المعنى للنفس بما يتميّز به من غيره بان الشيء يبين إذا ظهر، وأبانه غيره أي أظهره بياناً وإبانة، ونقيض البيان الإخفاء والإغماض. وقال قتادة: ﴿ثمّ إنّ علينا بيانه﴾ معناه: أنّا نبيّن لك معناه إذا حفظته.

وقوله: ﴿كلّا بل تحبّون العاجلة﴾ معناه: الإخبار من الله تعالى أنّ الكفّار يريدون المنافع العاجلة ويركنون إليها ويريدونها.

---

(١) مرّ في ٣: ٣٥٠، ديوان عمرو بن كلثوم: ٥٤.   (٢) معاني القرآن ٣: ٢١١.

﴿وتذرون الآخرة﴾ أي وتتركون عمل الآخرة الّذي يستحقّ به الثواب، وتفعلون ما يستحقّ به العقاب من المعاصي والمحارم.

ثمّ قسّم تعالى أهل الآخرة فقال: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربّها ناظرة﴾ أي مشرقة مضيئة، فالنضرة الصورة الحسنة الّتي تملأ القلب سروراً عند الرؤية نضَر وجهه ينضُر نَضْرة ونَضارة فهو ناضر. والنضرة مثل البهجة والطلاقة، وضدّه العبوس والبسور. فوجوه المؤمنين المستحقّين للثواب بهذه الصفة بما جعل الله عليها من النور علامة للخلق، والملائكة على أنّهم مؤمنون مستحقّون للثواب.

وقوله: ﴿إلى ربّها ناظرة﴾ معناه: منتظرة نعمة ربّها وثوابه أن يصل إليهم. وقيل: ﴿ناضرة﴾ أي مشرقة ﴿إلى﴾ ثواب ربّها ﴿ناظرة﴾[1] وليس في ذلك تنغيص لأنّ الانتظار إنّما يكون فيه تنغيص إذا كان لا يوثق بوصوله إلى المنتظَر أو هو محتاج إليه في الحال. والمؤمنون بخلاف ذلك، لأنّهم في الحال مستغنون منعّمون، وهم أيضاً واثقون أنّهم يصلون إلى الثواب المنتظَر. و«النظر» هو تقليب الحدقة الصحيحة نحو المرئيّ طلباً للرؤية، ويكون النظر بمعنى الانتظار، كما قال تعالى: ﴿وإنّي مرسلة إليهم بهديّة فناظرة﴾[2]، أي منتظرة، وقال الشاعر:

وجوه يوم بدر ناظرات   إلى الرحمن تأتي بالفلاح[3]

أي منتظرة للرحمة[4] الّتي تنزل عليهم، وقد يقول القائل: انّما عيني ممدودة إلى الله وإلى فلان، وأنظر إليه أي أنتظر خيره ونفعه وأُؤمّل ذلك

---

(١) تفسير الطبري ١٢: ٣٤٣.
(٢) النمل: ٣٥.
(٣) لا يوجد في المصادر، مرّ في ٢: ٢٠٩.
(٤) في الخطيّة: للنصرة.

من جهته. وقوله: ﴿ولا ينظر إليهم يوم القيامة﴾[(١)] معناه: لا ينيلهم رحمته. ويكون النظر بمعنى المقابلة، ومنه[(٢)] المناظرة في الجدل، ومنه نظر الرحمة أي قابله بالرحمة. ويقال: دُور بني فلان تتناظر أي تتقابل، وهو ينظر إلى فلان أي يؤمّله وينتظر خيره.

وليس النظر بمعنى الرؤية أصلاً، بدلالة أنّهم يقولون: نظرتُ إلى الهلال فلم أره، فلو كان بمعنى الرؤية لكان متناقضاً، ولأنّهم يجعلون الرؤية غاية للنظر يقولون: ما زلتُ أنظر إليه حتّى رأيته، ولا يجعل الشيء غاية لنفسه لا يقال: ما زلتُ أراه حتّى رأيتُه، ويعلم الناظر ناظراً ضرورة، ولا يعلم كونه رائياً بل يسأل بعد ذلك هل رأيت أم لا ؟ ودخول «إلى» في الآية لا يدلّ على أنّ المراد بالنظر الرؤية، ولا تعليقه بالوجوه يدلّ على ذلك، لأنّا أنشدنا البيت، وفيه تعليق النظر بالوجه وتعديته بحرف «إلى» والمراد به الانتظار، وقال جميل بن معمّر:

وإذا نظرت إليك من مَلِك والبحر دونك جُدْتني نعماء[(٣)]

والمراد به الانتظار والتأميل، وأيضاً، فإنّه في مقابلة قوله في صفة أهل النار ﴿تظنّ أن يفعل بها فاقرة﴾ فالمؤمنون يؤمّلون بجديد الكرامة وينتظرون الثواب، والكفّار يظنّون الفاقرة، وكلّه راجع إلى فعل القلب. ولو سلّمنا أنّ النظر يفيد الرؤية لجاز أن يكون المراد أنّها رؤية ثواب ربّها، لأنّ الثواب الّذي هو أنواع اللذّات من المأكول والمشروب والمنكوح تصحّ رؤيته. ويجوز أيضاً أن يكون إلى واحد الآلاء، وفي واحدها لغات «ألا» مثل قفا و«إلى» مثل مِعى و«ألْي» مثل جَدْي و«إلْي» مثل حِسْي، فإذا

---

(١) آل عمران: ٧٧. (٢) في الخطّية: منها. (٣) مرّ في ٢: ٢٠٩، لم نعرف مصدره.

أُضيف إلى غيره سقط التنوين، ولا يكون ﴿إلى﴾ حرفاً في الآيـة. وكـلّ ذلك يبطل قول من أجاز الرؤية على الله تعالى.

وليس لأحد أن يقول: إنّ الوجه الأخـير يـخالف الإجـماع ـ أعـني إجماع المفسّرين ـ وذلك لأنّا لا نسلّم ذلك، بل قد قال مجاهد وأبو صالح والحسن وسعيد بن جبير والضحّاك: إنّ المراد نظر[1] الثواب. وروي مثله عن عليّ عليه السلام[2] وقد فرّق أهل اللغة بين نـظر الغـضبان ونـظر الراضـي، يقولون: نظر غضبان، ونظر راض، ونظر عداوة ونظر مودّة، قال الشاعر:

تخبّرني العينان مـا الصـدر كـاتم ولا حنّ بالبعضاء والنظر الشزر[3]

والرؤية ليست كذلك فإنّهم لا يضيفونها، فـدلّ عـلى أنّ النـظر غـير الرؤية، والمرئيّ هو المُدرَك، و«الرؤية» هي الإدراك بالبصر، والرائي هـو المدرِك. ولا تصحّ الرؤية وهي الإدراك إلّا على الأجسـام أو الجـوهر أو الألوان. ومن شرط المرئيّ أن يكون هو أو مـحلّه مـقابلاً أو فـي حكـم المقابل، وذلك يستحيل عليه تعالى، فكيف تجيز الرؤية عليه تعالى ؟ ! ! !

ثمّ ذكـر القسـم الآخـر فـقال: ﴿وجوه يومئذ باسرة [تظنّ أن يفعل بها فاقرة]﴾ يعني: وجوه أهل الكفر. و«البسور» ظهور حال الغمّ في الوجـه معجّلاً قبل الإخبار عنه، ومثله العبوس إلّا أنّه ليس فيه معنى التـعجيل. و«الفاقرة» الكاسرة لفقار الظهر بشدّة، ومثل الفاقرة الداهية والآبدة. وقال الحسن: ناظرة بهجة حسنة. وقال مجاهد: مسرورة. وقال ابن زيد: ناعمة. وقال مجاهد وقتادة: معنى باسرة: كاشرة كالحة. وقال مجاهد: «الفاقرة» الداهية. وقال ابن زيد: الآبدة بدخول النار. وقيل: ناظرة أي مشرقة حسنة

---

(١) في الخطّية: ينتظر. (٢) التوحيد: ٢٦٥ الباب ٣٦/٥. (٣) لم نعثر على مصدره.

إلى ثواب ربّها ناظرة[١].

قوله تعالى:

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ۝٢٦ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ۝٢٧ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ۝٢٨ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِالسَّاقِ ۝٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ۝٣٠ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٣٢ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰٓ ۝٣٣ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ۝٣٥ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣٩ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۝٤٠﴾ خمس عشرة آية.

[أقول:][٢] قرأ ابن عامر وحفص ورويس ﴿من منّي يمنى﴾ بالياء على التذكير ردًّا إلى المني. الباقون بالتاء حملاً على النطفة.

يقول الله تعالى: ﴿كلّا إذا بلغت﴾ يعني: النفس أو الروح، ولم يذكر لدلالة الكلام عليه كما قال: ﴿ما ترك على ظهرها﴾[٣] يعني: على ظهر الأرض. وإنّما لم يذكر لعلم المخاطب به ﴿التراقي﴾ جمع ترقوة وهي مقدّم الحلق من أعلى الصدر، تترقّى إليه النفس عند الموت، وإليها يترقّى البخار من الجوف، وهناك تقع الحشرجة.

وقوله: ﴿وقيل من راق﴾ فالراق: طالب الشفاء، يقال: رقاه يرقيه رقية، إذا طلب له شفاء بأسماء الله الجليلة وآيات كتابه العظيمة. وأمّا العوذة فهي رفع البليّة بكلمات الله تعالى. وقال أبو قلابة والضحّاك وابن زيد وقتادة: معنى ﴿راق﴾ طبيب شاف. أي أهله يطلبون له من يطبّه ويشفيه ويداويه

---

(١) راجع النكت والعيون ٦: ١٥٦، تفسير السمرقندي ٣: ٥٢٢.

(٢) من الحجريّة.

(٣) فاطر: ٤٥.

فلا يجدونه. وقال ابن عبّاس وأبو الجوزاء: معناه: قالت الملائكة: من يرقا بروحه أملائكة الرحمة أم ملائكة العقاب؟ وقال الضحّاك: أهل الدنيا يجهّزون البدن، وأهل الآخرة يجهّزون الروح.

وقوله: ﴿وظنّ أنّه الفراق﴾ معناه: علم عند ذلك أنّه فراق الدنيا والأهل والمال والولد. و«الفراق» بعاد الأُلّاف وهو ضدّ الوصال يقال: فارقه يفارقه فراقاً. وقد صار علماً على تفرّق الأحباب وتشتت الأُلّاف.

وقوله: ﴿والتفّت الساق بالساق﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد: معناه: التفّت شدّة أمر الآخرة بأمر الدنيا. وقال الحسن: التفّت حال الموت بحال الحياة. وقال الشعبي وأبو مالك: التفّت ساقا الإنسان عند الموت. وفي رواية أُخرى عن الحسن أنّه قال: التفاف الساقين في الكفن. وقيل: ساق الدنيا بساق الآخرة وهو شدّة كرب الموت بشدّة هول المطّلع. وقال الحسن: معناه: التفّت شدّة أمر الدنيا بشدّة أمر الآخرة[١]. وقيل: معناه اشتداد الأمر عند نزع النفس حتّى التفّت ساق على ساق عند تلك الحال، يقولون: قامت الحرب على ساق عند شدّة الأمر، قال الشاعر:

فإذ شمّرتْ لك عن ساقها فَوَيْهاً ربيع ولا تسأم[٢]

وقوله: ﴿إلى ربّك يومئذ المساق﴾ معناه: أنّ الخلائق يساقون إلى المحشر الّذي لا يملك فيه الأمر والنهي غير الله. والمساق مصدر مثل السوق.

وقوله: ﴿فلا صدّق ولا صلّى﴾ قال الحسن: معناه: لم يتصدّق ولم يصلّ ﴿ولكن كذّب﴾ بالله ﴿وتولّى﴾ عن طاعته. وقال قوم: ﴿فلا صدّق﴾ بربّه

(١) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٥٤، معاني القرآن ٣: ٢١٢.
(٢) تفسير الطبري ١٢: ٣٥٧، مجاز القرآن ٢: ٢٦٦.

﴿ولا صلّى﴾ وقال قتادة: معناه: فلا صدّق بكتاب الله ولا صلّى لله ﴿ولكن كذّب﴾ به ﴿وتولّى﴾ عن طاعته . وقال قوم: معناه «فلا صدّق» بتوحيد الله، ولا نبيّه بل كذّب به[١]. و«الصدقة» العطيّة للفقراء، و«الزكاة» الصدقة الواجبة على المال المعلّق بنصاب مخصوص.

و«الصلاة» عبادة أوّلها التكبير وآخرها التسليم ، وفيها قراءة وأركان مخصوصة. و«التولّي» هو الإعراض عن الشيء، فلمّا كان هذا الجاهل معرضاً عن الحقّ بتركه إلى خلافه من الباطل لزمه الذمّ بهذا الوصف.

وقوله: ﴿ثمّ ذهب إلى أهله يتمطّى﴾ فالتمطّي: تمدّد البدن من الكسل إمّا كسل مرض أو كسل تثاقل عن الأمر. والذمّ بكسل التثاقل عن الداعي إلى الحقّ. وقال مجاهد وقتادة: معنى يتمطّى يتبختر. وقيل: الأصل في يتمطّى يلوي مطاه، و«المطاء» الظهر، ونهي عن مشية المطيطيا، وذلك أن يلقي الرجل بدنه مع التكفّي في مشيه. وقيل: نزلت الآية في أبي جهل بن هشام بن المغيرة المخزومي[٢].

وقوله: ﴿أولى لك فأولى ثمّ أولى لك فأولى﴾ قال قتادة: هو وعيد على وعيد. وقيل: معنى ﴿أولى لك﴾ وليك الشرّ يا أبا جهل[٣] وقيل: معناه الذمّ أولى لك من تركه إلّا أنّه حذف، وكثر في الكلام حتّى صار بمنزلة الويل لك. وصار من المتروك المحذوف الّذي لا يجوز إظهاره[٤]. وقيل: أولى لك فأولى لك على الأوّل، والذمّ لك على الثاني والثالث. والأولى في العقل هو الأحقّ بالقرب من داعي العقل، كأنّه أحقّ بوليّه.

---

(١) تفسير السمرقندي ٣: ٥٢٣.

(٢) النكت والعيون ٦: ١٥٨ ـ ١٥٩، تفسير الطبري ١٢: ٣٥١.

(٣) النكت والعيون ٦: ١٥٩.

(٤) راجع الكشف والبيان ١٠: ٩١.

ثمّ قال على وجه الوعيد والتهديد للكفّار: ﴿أيحسب الإنسان﴾ ومعناه: أيظنّ الإنسان الكافر بالبعث والنشور الجاحد لنعم الله ﴿أن يترك سدى﴾ ومعناه: أن يترك مهملاً عن الأمر والنهي. فالسدى: همل من غير أمر يؤخذ به، ويكون فيه تقويم له، وإصلاح لما هو أعود عليه في عاقبة أمره وأجمل به في دنياه وآخرته. وقال ابن عبّاس ومجاهد: معنى ﴿أن يترك سدى﴾ أي هملاً لا يؤمر ولا ينهى. وقيل: أيحسب الإنسان أن يترك مهملاً فلا يؤمر ولا ينهى مع كمال عقله وقدرته.

ثمّ قال على وجه التنبيه على أنّ الله خلقه للتكليف والعبادة وعلى أنّه قادر على إعادته وإحيائه بعد موته: ﴿ألم يك نطفة من منيّ يمني﴾ فالمنيّ: نطفة الذكر الّتي يجيء منها الولد ﴿ثمّ كان علقة﴾ أي قطعة من الدم المنعقد جامدة لا تجري فخلق الله منها هذا الإنسان الّذي هو في أحسن تقويم، فسبحان من قدر على ذلك. وقوله: ﴿فخلق فسوّى﴾ أي خلق من العلقة خلقاً سويّاً شقّ له السمع والبصر. وقال الفرّاء: معنى ﴿فسوّى﴾ فسوّاه [﴿فجعل منه﴾][1] من ذلك المنيّ ﴿الزوجين الذكر والأُنثى﴾ فمن قدر على ذلك لا يقدر على أن يحيي الموتى بعد أن كانوا أحياء ؟ ! بلى والله قادر على ذلك، لأنّ جعل النطفة علقة وخلق العلقة مضغة وخلق المضغة عظماً وكَسْو العظم لحماً ثمّ إنشاؤه خلقاً آخر حيّاً سليماً مركّباً فيه الحواسّ الخمس كلّ واحدة منها تصلح لما لا يصلح له الأُخرى، وخلق الذكر والأُنثى اللذين يصحّ منهما التناسل على ما قدّره الله أعجب وأبدع من إعادة الميّت إلى ما كان من كونه حيّاً، فمن قدر على الأوّل أولى بأن

(١) في الخطّية والحجريّة: وجعل.

يكون قادراً على الثاني. فالإحياء: إيجاد الحياة، و«الإماتة» إيجاد الموت عند من قال إنّ الموت معنى ، ومن قال: ليس بمعنى، قال: هو نقض بِنْيَة الحيّ على وجه الاختراع.

وقوله: ﴿فجعل منه﴾ قيل: يعني من الإنسان[١] ﴿الزوجين الذكر والأُنثى﴾ وقيل: من المنيّ[٢].

[﴿أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى﴾] وقال قتادة: كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا ختم السورة، قال: سبحانك الله بلى، وهو المرويّ عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام[٣].

وفي الآية دلالة على صحّة القياس العقلي، وهو أنّ من قدر على إحياء الإنسان قادر على إحيائه بعد الإماتة. وقال الفرّاء: يجوز في العربيّة يحيي الموتى بالإدغام بأن ينقل الحركة إلى الحاء وتدغم إحدى الياءين في الأُخرى، وأنشد:

وكأنّها بين النساء سبيكة … تمشي بسُدّة بيتها فتعيّ[٤]

يريد فتعيي.

---

(١) تفسير الطبري ١٢: ٣٥٢.

(٢) تفسير السمرقندي ٣: ٥٢٤.

(٣) راجع عيون أخبار الرضا ٢: ١٨٣/٥.

(٤) معاني القرآن ٣: ٢١٣.

سورة الدهر

وتسمّى سورة الإنسان، وتسمّى سورة الأبرار، وهي مكّية في قول ابن‌عبّاس والضحّاك وغيرهما. وقال قوم: هي مدنيّة، وهي إحدى وثلاثون آية بلا خلاف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَلَـٰسِلَاْ وَأَغْلَـٰلًا وَسَعِيرًا ۝٤ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠﴾ عشر آيات.

[أقول:][١] قرأ ﴿سلاسلاً﴾ منوّناً نافع والكسائي وأبو بكر عن عاصم

(١) من الحجريّة.

إتباعاً للمصحف ولتشاكل ما جاوره من رأس الآية. الباقون بغير تنوين، لأنّ مثل هذا الجمع لا ينصرف في معرفة ولا في نكرة، لأنّه على «فعائل» بعد ألفه حرفان.

يقول الله تعالى: ﴿هل أتى على الإنسان﴾ قال الزجّاج: معناه: ألم يأت على الإنسان ﴿حين من الدهر [لم يكن شيئاً مذكوراً﴾ يعني:] وقد كان شيئاً إلّا أنّه لم يكن مذكوراً، لأنّه كان تراباً وطيناً إلى أن نفخ فيه الروح[١]. وقال قوم: ﴿هل﴾ يحتمل معناه أمرين: أحدهما: أن يكون بمعنى «قد أتى». والثاني: أن يكون معناها: أتى على الإنسان، والأغلب عليها الاستفهام، والأصل فيها معنى «قد» لتجرى على نظائرها بمعنى ضمن معنى الألف[٢] وأصله من ذلك قول الشاعر:

أم هل كبير بكى لم تقض عبرته ... أثر الأحبّة يوم البين مشكوم[٣]

والمعنيّ بالإنسان هاهنا آدم، في قول الحسن. والمعنى: قد أتى على آدم ﴿حين من الدهر﴾ وبه قال قتادة وسفيان. وقيل: إنّ آدم لمّا خلق الله جثّته بقي أربعين سنة لم تلج فيه الروح، كان شيئاً ولم يكن مذكوراً[٤] فلمّا نفخ فيه الروح وبلغ إلى ساقه كاد ينهض للقيام، فلمّا بلغ عينيه ورأى ثمار الجنة بادر إليها ليأخذها، فلذلك قال الله تعالى: ﴿خلق الإنسان من عجل﴾[٥] وقال غيره: هو واقع على كلّ إنسان[٦] والإنسان في اللغة حيوان على صورة الإنسانيّة، وقد تكون الصورة الإنسانيّة ولا إنسان، وقد يكون حيوان ولا إنسان، فإذا حصل المعنيان صحّ إنسان لا محالة

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٥٧.

(٢) راجع النكت والعيون ٦: ١٦١، مجاز القرآن ٢: ٢٧٩.

(٣) شرح المفصّل ٤: ١٨.

(٤) تفسير الطبري ١٢: ٣٥٣.

(٥) الأنبياء: ٣٧.

(٦) النكت والعيون ٦: ١٦٢.

والإنسان حيوان منتصب القامة على صورة تنفصل من كلّ بهيمة. و«الحين» مدّة من الزمان، وقد يقع على القليل والكثير. قال الله سبحانه: ﴿فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون﴾ [١] أي وقت تمسون ووقت تصبحون. وقال: ﴿تؤتي أُكلها كلّ حين﴾ [٢] يعني: كلّ ستّة أشهر، وقال قوم: كلّ سنة[٣]. وقال هاهنا: ﴿هل أتى على الإنسان حين﴾ أي مدّة طويلة. والدهر مرور الليل والنهار، وجمعه أدهر ودهور. والفرق بين الدهر والوقت أنّ الوقت مضمن بجعل جاعل، لأنّ الله جعل لكلّ صلاة مفروضة وقتاً، وجعل للصيام وقتاً معيّناً، وقد يجعل الإنسان لنفسه وقتاً يدرس فيه ما يحتاج إلى درسه ووقتاً مخصوصاً لغذائه.

وقوله: ﴿لم يكن شيئاً مذكوراً﴾ أي لم يكن ممّن ذكره ذاكر، لأنّه كان معدوماً غير موجود. وفي الآية دلالة على أنّ المعدوم لا يسمّى شيئاً، وإنّما سمّي زلزلة الساعة شيئاً مجازاً. والمعنى: أنّها إذا وجدت كانت شيئاً عظيماً.

وقوله: ﴿إنّا خلقنا الإنسان من نطفة﴾ إخبار من الله تعالى أنّه خلق الإنسان سوى آدم وحوّاء من نطفة، وهو ماء الرجل والمرأة الّذي يخلق منهما الولد. فالنطفة الماء القليل في إناء كان أو غير إناء، قال الشاعر:

وما النفس إلّا نطفة بقراره إذا لم تُكدَّر صار صفواً غديرُها[٤]

وقوله: ﴿أمشاج﴾ قال ابن عبّاس: أخلاط من ماء الرجل وماء المرأة. وقال الحسن والربيع بن أنس ومجاهد مثل ذلك. وقال قتادة: معنى

---

(١) الروم: ١٧.
(٢) إبراهيم: ٢٥.
(٣) تفسير الطبري ٧: ٤٤٢ ـ ٤٤٣.
(٤) الكامل ١: ٤٣.

أمشاج: أطوار، طوراً نطفة، وطوراً مضغة، وطوراً عظماً إلى أن صار إنساناً ليختبره بهذه الصفات. وقال مجاهد: معناه: ألوان النطفة. وقال عبد الله: عروق النطفة. وواحد الأمشاج مشيج، وهو الخلط، وسمّي النطفة بذلك، لأنّه جعل فيها أخلاطاً من الطبائع الّتي تكون في الإنسان من الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة. ثم عدّاها له، ثمّ بناه البِنْية الحيوانيّة المعدّلة الأخلاط. ثمّ جعل فيها الحياة ثمّ شقّ له السمع والبصر ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾[1] ربّ العالمين، وذلك قوله: ﴿فجعلناه سميعاً بصيراً﴾.

وقوله: ﴿نبتليه﴾ أي نختبره بما نكلّفه من الأفعال الشاقّة لننظر ما طاعته وما عصيانه فنجازيه بحسب ذلك. ويقال: مشجْت هذا بهذا، إذ اخلطته به، وهو ممشوج به ومشيج، أي مخلوط به، قال رؤبة:

يطرحن كلّ مُعْجَل نشّاج لم تُكْسَ جِلْداً في دم أمشاج[2]

وقال أبو ذؤيب:

كأنّ الريش والفوقين منه خلاف النصل سيط به مشيج[3]

وقوله: ﴿إنّا هديناه السبيل﴾ معناه: أنّا أرشدناه إلى سبيل الحقّ وبيّنّاه له ودللناه عليه. وقال الفرّاء: معناه: هديناه إلى السبيل أو للسبيل. والمعنى واحد. وقوله: ﴿إمّا شاكراً وإمّا كفوراً﴾ قال الفرّاء: معناه: إن شكر وإن كفر على الجزاء[4] ويجوز أن يكون مثل قوله: ﴿إمّا يعذّبهم وإمّا يتوب عليهم﴾[5] والمعنى: إمّا يختار بحسن اختياره الشكر لله تعالى والاعتراف بنعمه فيصيب الحقّ، وإمّا أن يكفر نعمه ويجحد إحسانه فيكون ضالاًّ عن

(١) المؤمنون: ١٤.
(٢) مجاز القرآن ٢: ٢٧٩، الطبري ١٢: ٣٥٤.
(٣) مجاز القرآن ٢: ٢٧٩، الكشف والبيان ١٠: ٩٤.
(٤) معاني القرآن ٣: ٢١٤.
(٥) التوبة: ١٠٦.

الصواب، وليس المعنى: أنّه مخيّر في ذلك، وإنّما خرج ذلك مخرج التهديد، كما قال: ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾[١] بدلالة قوله: ﴿إنّا أعتدنا للظالمين ناراً﴾[٢] وإنّما المراد البيان عن أنّه قادر عليهما فأيّهما اختار جوزي بحسبه.

وفي الآية دلالة على أنّه تعالى قد هدى جميع خلقه المكلّفين، لأنّ قوله: ﴿إنّا هديناه السبيل﴾ عامّ في جملتهم، وذلك يبطل قول المجبّرة: إنّ الله لم يهد الكافر بنصب الدلالة له على طريق الحقّ واجتناب الباطل، وليس كلّ من ترك الشكر كان كافراً، لأنّه قد يترك في بعض الأحوال على سبيل التطوّع ، لأنّ الشكر قد يكون تطوّعاً كما يكون واجباً. وإنّما لم يذكر الله الفاسق، لأنّه اقتصر على أعظم الحالين وألحق الأدون على التبع، ويجوز أن يدخل في الجملة، ولا يفرد. فليس للخوارج أن يتعلّقوا بذلك في أنّه ليس بين الكفر والإيمان واسطة . ثمّ بيّن أنّه تعالى إنّما ذكره على وجه التهديد بقوله: ﴿إنّا أعتدنا للكافرين﴾ أي ادّخرنا لهم جزاءً على كفرهم ومعاصيهم وعقوبة لهم ﴿سلاسل وأغلالاً وسعيراً﴾ يعذّبهم بها ويعاقبهم فيها. والسلاسل جمع سلسلة والأغلال جمع غلّ، و«السعير» هي النار المسعّرة الملهبة[٣].

ولمّا أخبر تعالى بما للكافرين من العقوبات على كفرهم، ذكر أيضاً ما للمؤمنين على إيمانهم فقال: ﴿إنّ الأبرار﴾ وهو جمع البرّ، وهو المطيع لله المحسن في أفعاله ﴿يشربون من كأس﴾ والكأس إناء الشراب إذا كان فيه، ولا يسمّى كأساً إذا لم يكن فيه شراب، ذكره الزجّاج[٤] قال الشاعر:

(١ و٢) الكهف: ٢٩. (٣) في الخطّية: الملتهبة. (٤) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٥٨.

صدَدْتِ الكأس عـنّا أُمَّ عـمرو وكان الكأس مَجراها اليمينا[١]

وقوله: ﴿كان مزاجها كافوراً﴾ قيل: ما يشمّ من ريحها لا من جهة طعمها. وقوله: ﴿عيناً يشرب بها عباد الله﴾ قوله: ﴿عيناً﴾ نصب على البدل من ﴿كافوراً﴾ ويجوز أن يكون على تقدير ويشربون عيناً، ويجوز أن يكون نصباً على الحال من ﴿مزاجها﴾ وقال الزجّاج: معناه: من عين[٢]. وقال الفرّاء: شربها وشرب منها سواء في المعنى كما يقولون: تكلّمت بكلام حسن وكلاماً حسناً. وقيل: يمزج بالكافور، ويختم بالمسك. وقيل: تقديره يشربون بها، وأنشد الفرّاء:

شربن بماء البحر ثمّ ترفّعت متى لجج خُضر لهنّ نئيج[٣]

متى لجج، أي من لجج. وعين الماء حفيرة في الأرض ينبع منها، وهذه العين المذكورة في أرض الجنّة في كونها فوّارة بالماء متعة لأهلها. ثمّ يفجّر فيجري لهم إلى حيث شاؤوا منها. قال مجاهد: معناه: أنّهم يقودونها حيث شاؤوا فالتفجير: تشقيق الأرض بجري الماء، ومنه انفجار الصبح وهو انشقاقه من الضوء، ومنه الفجور وهو الخروج من شقّ الالتئام إلى الفساد. وعباد الله المراد به المؤمنون المستحقّون للثواب.

ثمّ وصف هؤلاء المؤمنين فقال: ﴿يوفون بالنذر ويخافون﴾ ويجوز أن يكون ذلك في موضع الحال، فكأنّه قال يشرب بها عباد الله الموفين بالنذر الخائفين ﴿يوماً كان شرّه مستطيراً﴾ فالمستطير: الظاهر. [والتقدير] القائلين ﴿إنّما نطعمكم﴾ القائلين ﴿إنّا نخاف من ربّنا يوماً عبوساً قمطريراً﴾،

---

(١) ديوان عمرو بن كلثوم: ٥٢.
(٢) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٥٨.
(٣) معاني القرآن ٣: ٢١٥، تفسير الطبري ١٢: ٣٥٨.

ويجوز أن يكون على الاستئناف، وتقديره هم الّذين يوفون بالنذر وكذلك في ما بعد، فالوفاء بالنذر هو أن يفعل ما نذر عليه. فالوفاء إمضاء العقد على الأمر الّذي يدعو إليه العقل، ومنه قوله: ﴿يا أيّها الّذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾ (١) أي الصحيحة، لأنّه لا يلزم أحداً أن يفي بعقد فاسد، وكلّ عقد صحيح يجب الوفاء به، يقال أوفى بالعقد، ووفى به. فأوفى لغة أهل الحجاز وهي لغة القرآن، «وفى» لغة أهل تميم وأهل نجد، وقد بيّنّا فيما مضى شواهده. و«النذر» عقد على فعل على وجه البرّ بوقوع أمر يخاف ألّا يقع، نذر ينذر نذراً فهو ناذر، وقال عنترة:

الشاتَمي عِرْضي ولم أشتُمهما ... والناذرَيْن إذا لم ألْقَهما دَمي (٢)

أي يقولان: لئن لقينا عنترة لنقتلنّه، ومنه الإنذار وهو الإعلام بموضع المخافة ليعقد على التحرّز منها. وروي عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: «لا نذر في معصية» (٣) وعند الفقهاء أنّ كفّارة النذر مثل كفّارة اليمين. والّذي رواه أصحابنا إنّ كفّارة النذر مثل كفّارة الظهار، فإن لم يقدر عليه كان عليه كفّارةاليمين. والمعنى: أنّه إذا فات الوقت الّذي نذر فيه صار بمنزلة الحنث.

وقوله: ﴿ويخافون يوماً﴾ من صفة المؤمنين ﴿كان شرّه مستطيراً﴾ أي منتشراً فاشياً ذاهباً في الجهات بلغ أقصى المبالغ، قال الأعشى:

فبانت وقد أورثت في الفؤا ... د صدعاً على نأيها مستطيرا (٤)

والمراد بالشرّ هاهنا أهوال القيامة وشدائدها.

وقوله: ﴿ويطعمون الطعام على حبّه﴾ قال مجاهد: معناه على شهوتهم

---

(١) المائدة: ١.
(٢) ديوان عنترة: ٦٩، تفسير الطبري ١٢: ٣٥٩.
(٣) الفقيه ٣: ٣٦٠/٤٢٧٣.
(٤) شرح ديوان الأعشى: ٨٦.

له، ويحتمل أن يكون المراد على محبّتهم لله ﴿مسكيناً﴾ أي يطعمونه فقيراً ﴿ويتيماً﴾ وهو الّذي لا والد له من الأطفال [﴿وأسيراً﴾] و«الأسير» هو المأخوذ من أهل دار الحرب، في قول قتادة. وقال مجاهد: وهو المحبوس. وقوله: ﴿إنّما نطعمكم لوجه الله﴾ إخبار عمّا يقوله المؤمنون بأنّا ﴿إنّما نطعمكم﴾ معاشر الفقراء واليتامى والأسرى ﴿لوجه الله﴾ ومعناه: لله، وذكر الوجه لذكره بأشرف الذكر تعظيماً له، ومنه قوله: ﴿فأينما تولّوا فثمّ وجه الله﴾ وقيل: معناه فثمّ جهة الله الّتي ولّاكم إليها، ومنه قوله: ﴿ويبقى وجه ربّك﴾ (١) أي ويبقى الله. وقال مجاهد وسعيد بن جبير: علم الله ما في قلوبهم فأثنى عليهم من غير أن يتكلّموا به ﴿لا نريد منكم جزاء﴾ أي لانطلب بهذا الإطعام مكافأة عاجلة ﴿ولا شكوراً﴾ أي لانطلب أن تشكرونا عليه عند الخلائق بل فعلناه لله ﴿إنّا نخاف من ربنا﴾ أي من عقابه ﴿يوماً عبوساً﴾ أي مكفهرّاً عابساً ﴿قمطريراً﴾ أي شديداً. و«القمطرير» الشديد في الشرّ. وقد اقمطرّ اليوم اقمطراراً، وذلك أشدّ الأيّام وأطوله في البلاء والشرّ. ويوم قمطرير وقماطير كأنّه قد التفّ شرّ بعضه على بعض، قال الشاعر:

بني عمّنا هل تذكرون بلاءنا   عليكم إذا ما كان يوم قماطر (٢)

وقد روت الخاصّة والعامّة أنّ هذه الآيات نزلت في عليّ عليه السلام وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام فإنّهم آثروا المسكين واليتيم والأسير ثلاث ليال على إفطارهم وطووا عليهم السلام ولم يفطروا على شيء من الطعام، فأثنى الله عليهم هذا الثناء الحسن، وأنزل فيهم هذه السورة، وكفاك بذلك فضيلة جزيلة تتلى إلى يوم القيامة. وهذا يدلّ على أنّ السورة مدنيّة (٣).

---

(١) الرحمن: ٢٧. (٢) معاني القرآن ٣: ٢١٦، تفسير الطبري ١٢: ٣٦١.
(٣) راجع تفسير القمّي ٢: ٣٩٨، شواهد التنزيل: ٣٠٠.

قوله تعالى:

فَوَقَاهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عشر آيات.

[أقول:][١] قرأ الشعبي وعبيد بن عمير ﴿قدّروها﴾ بضمّ القاف. الباقون بفتحها. من فتح القاف قال معناه: قدّروها في أنفسهم، فجاءت كما قدّروا. ومن ضمّ أراد أنّ ذلك قدّر لهم أي قدّره الله لهم كذلك. وقرأ نافع والكسائي وأبو بكر عن عاصم ﴿قواريراً قواريراً﴾ بالتنوين فيهما. وقرأ بغير تنوين ولا ألف في الوقف حمزة وابن عامر. وقرأ الأولى بالتنوين والثانية بغير تنوين ابن كثير. وقرأ أبو عمرو فيهما بغير تنوين إلّا أنّه يقف عليه بالألف. من نوّن الأُولى اتّبع المصحف، ولأنّه رأس آية، ثمّ كرهوا أن يخالفوا بينهما فنوّنوا الثانية، وكذلك قرأ الكسائي ﴿ألا إنّ ثمودا كفروا ربّهم ألا بعداً لثمود﴾[٢] صرفهما لئلّا تخالف بينهما مع قربهما. ومن لم يصرفهما فعلى موجب العربيّة، لأنّه جمع على «فواعيل» بعد ألفه حرفان. ومن صرف الأُولى فلأنّها رأس آية ولم يصرف الثانية على أصل العربيّة.

لمّا أخبر الله تعالى عن المؤمنين الّذين وصفهم في الآيات الأُول

(١) من الحجريّة.
(٢) هود: ٦٨.

وما أوفوا به من النذر في إطعامهم لوجه الله ما أطعموه وإيثارهم على نفوسهم المسكين واليتيم والأسير وأنّهم فعلوا ذلك لوجه الله خالصاً، ومخافة من عذاب يوم القيامة، أخبر بما أعدّ لهم من الجزاء على ذلك. فقال: ﴿فوقيهم الله شرّ ذلك اليوم﴾ أي كفاهم الله ومنع منهم أهوال يوم القيامة وشدائده، فالوقاء: المنع من الأذى، يقال: وقاه يقيه وقاء فهو واق، ووقّاه توقية. قال رؤبة:

إنّ الموقي مثل ما وقيت[١]

ومنه اتّقاه اتّقاء وتوقّاه توقّياً. و«الشرّ» ظهور الضرّ، وأصله الظهور من قولهم:

[وحتّى] أُشِرَّت بالأكُفّ المصاحف[٢]

أي أظهرت، ومنه شررت الثوب إذا أظهرته للشمس أو الريح، ومنه شرار النار لظهوره بتطايره وانتشاره. وقيل: «الشرّ» الضرّ والقبيح، ويستعار في غيره، وليس ما يوجب هذا. والمراد هاهنا أهوال يوم القيامة وشدائده وأنواع عقابه. وقوله: ﴿ولقّاهم نضرة وسروراً﴾ معنى لقّاهم: استقبلهم به. و«النضرة» حسن الألوان، ومنه نبت نضر وناضر ونَضِر و«النُضار» الذهب. وقيل: ناضرة ناعمة[٣]. وقيل: حسنة الصورة[٤]. والسرور اعتقاد وصول المنافع إليه في المستقبل. وقال قوم: هو لذّة في القلب بحسب متعلّقه بما فيه النفع، سرّه يسرّه سروراً. وكلّ سرور فلابدّ له من متعلّق، كالسرور بالمال والولد، والسرور بالإكرام والإجلال، والسرور بالشكر والحمد،

---

(١) الكتاب ٤: ٩٧.
(٢) ديوان الأدب ٣: ١٥٧، معجم تهذيب اللغة ٢: ١٨٥٣.
(٣) راجع تفسير الطبري ١٢: ٣٦٣.
(٤) تفسير السمرقندي ٣: ٥٢٧.

والسرور بالثواب[١].

وقوله: ﴿وجزاهم بما صبروا﴾ أي كافاهم وأثابهم على صبرهم على محن الدنيا وشدائدها وتحمّل مشاقّ التكليف ﴿جنّة﴾ أي بستاناً أجنّه الشجر ﴿وحريراً﴾ يلبسونه.

وقوله: ﴿متّكئين﴾ نصب على الحال ﴿فيها﴾ يعني: في الجنّة ﴿على الأرائك﴾ وهي الحجال فيها الأسرّة، في قول ابن عبّاس ومجاهد وقتادة. واحدها أريكة وهي الحجلة سرير عليه شبه القبّة. وقال الزجّاج: الأريكة كلّ ما يتّكأ عليه من مِسْورة أو غيرها[٢] وقد شوّق الله تعالى إلى تلك الحال وهي غاية الرفاهية والإمتاع ﴿لا يرون فيها﴾ يعني: في الجنّة ﴿شمساً﴾ يتأذّون بحرّها ﴿ولا زمهريراً﴾ يتأذّون ببرده. فالزمهرير: أشدّ ما يكون من البرد، وقال مجاهد: «الزمهرير» البرد الشديد.

وقوله: ﴿ودانية عليهم ظلالها﴾ يعني أفياء أشجار تلك الجنّة قريبة منهم، ونصب ﴿دانية﴾ بالعطف على ﴿متّكئين﴾ ويجوز أن يكون عطفاً على موضع ﴿لا يرون فيها شمساً﴾ فإنّ موضعها النصب على الحال، ويجوز على المدح كقولهم: عند فلان جارية جميلة وشابّة طريّة. وقوله: ﴿وذلّلت قطوفها تذليلاً﴾ معناه: إن قام ارتفعت بقدرة الله، وإن قعد نزلت حتّى ينالها وإن اضطجع نزلت حتّى ينالها، ذكره مجاهد. وقيل: معناه: لا يردّ أيديهم عنها بعد ولا شوك[٣].

وقوله: ﴿ويطاف عليهم﴾ يعني: على هؤلاء المؤمنين الّذين وصفهم الله

---

(١) الكشف والبيان ١٠: ٩٧.
(٢) راجع معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٥٩.
(٣) تفسير الطبري ١٢: ٣٦٥.

﴿بآنية من فضّة وأكواب﴾ وهو جمع كُوب وهو إناء الشراب من غير عروة. وقال مجاهد: «الأكواب» الأقداح. وقال ابن عبّاس ومجاهد: هي صغار القوارير وهي فضّة، فلذلك قال: ﴿كانت قواريراً﴾ وقيل: «الأكواب» الأباريق الّتي ليس لها خراطيم. وقيل: «الأكواب» من فضّة في صفاء القوارير لا تمنع الرؤية(١).

وقوله: ﴿قوارير من فضّة﴾ أي هي من فضّة. وقوله: ﴿قدّروها تقديراً﴾ معناه: إنّها على قدر ما يشتهون من غير زيادة ولا نقصان حتّى يستوفي الكمال، ويجوز أن يكونوا قدّروها قبل مجيئها على صفة فجاءت على ماقدروا جنسه لشبه التمنّي. وقال الحسن: على قدر ربّهم، والتقدير وضع المعنى على المقدار الّذي يتخيّل فيه المساواة للاعتبار بالمعاني العقليّة بقدر عرف التقدير على طريقة لو كان كذا لكان كذا، وإذا كان كذا كان كذا، وبهذا يظهر القياس يميّز به ما يلزم على الأصل ممّا لا يلزم. و«الطوف» الدَور بالنقل من واحد إلى واحد. وقد يكون الدور بالطبع من غير تنقّل من واحد إلى آخر، فلا يكون طوافاً، طاف يطوف طوفاً، وأطاف بها إطافة وتطوّف تطوّفاً واطّوف اطّوافاً.

وقوله: ﴿ويسقون فيها﴾ يعني: في الجنّة ﴿كأساً﴾ وهي الآنية إذا كان فيها شراب ﴿كان مزاجها زنجبيلاً﴾ فالزنجبيل: ضرب من القِرْفة طيّب الطعم يلذع(٢) اللسان يربّى بالعسل يستدفع به المضارّ إذا مزج به الشراب فاق في الإلذاذ . والعرب تستطيب الزنجبيل جدّاً. قال الشاعر:

كأن القرنفل والزنـجبيـ ـل باتا بِفيها وأرْياً مَشُورا(٣)

---

(١) راجع معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٦٠.
(٢) في الخطّية والحجريّة: يحذو.
(٣) شرح ديوان الأعشى: ٨٧، معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٦٠.

قيل: إنّ هذا الشراب في برد الكافور وذكاء المسك ولذع الزنـجبيل، كما قال في صفة القوارير: إنّها في صفاء الفضّة وجوهرها يرى ما وراءها كالقوارير[١]. وقيل: «الكافور والزنجبيل» من أسماء العين الّتي يسـقون منها[٢].

وقـوله: ﴿عيناً﴾ نـصب عـلى أنّـه بـدل مـن الزنـجبيل ﴿فيها تسمّى سلسبيلاً﴾ فالسلسبيل: الشراب السهل اللذيذ. وقيل: سلسبيل معناه: منقاد ماؤها حيث شاؤا، عن قتادة. وقيل: شديد الجِرْية. وقيل: يتسلسله. وقيل: سمّي سلسبيلاً من لزوم الطيب والإلذاذ بها، وأنشد يونس:

صــفراء مِــن نــبع يسـمى سـهمُها
من طول ما صرع الصيودَ الصيِّبُ[٣]

فرفع الصيِّب على صفة السهم. وقيل: اسم العين معرفة إلّا أنّه نوّن[٤] لأنّه رأس آية[٥].

ثمّ قال: ﴿ويطوف عليهم ولدان مخلدون﴾ قال قتادة: لا يموتون. وقال الحسن: خلّدوا على هيئة الوصفاء، فلا يشبّون[٦] أبداً. وقـيل: مـخلّدون مستورون بلغة حمير، قال بعض شعرائهم:

ومخلَّدات باللُجَيْن كـأنّـما   أعجازهنّ أقاوز الكـثبان[٧]

وكأنّه يرجع إلى بقاء الحُسْن ﴿إذا رأيتهم﴾ يعني: إذا رأيت هـؤلاء[٨] الولدان ﴿حسبتهم لؤلؤاً منثوراً﴾ أي من كثرتهم وحسنهم، فكأنّـهم اللـؤلؤ

---

(١) راجع تفسير السمرقندي ٣: ٥٢٦ ـ ٥٢٨.
(٢) معاني القرآن ٣: ٢١٥ ـ ٢١٧.
(٣) تفسير الطبري ١٢: ٣٦٨ ـ ٣٦٩، معاني القرآن لأخفش ٢: ٧٢٦.
(٤) في الخطّية والحجرية: أجرى.
(٥) معاني القرآن ٣: ٢١٧ ـ ٢١٨.
(٦) في الخطّية: فلايشيبون.
(٧) تفسير الطبري ١٢: ٣٧٠، النكت والعيون ٦: ١٧١.
(٨) في الخطّية: أُولئك.

المنثور، ذكره قتادة. وقوله: ﴿وإذا رأيت ثمّ رأيت نعيماً وملكاً كبيراً﴾ تقديره وإذا رأيت الأشياء ثمّ رأيت نعيماً لأهل الجنّة عظيماً وملكاً كبيراً. قال سفيان: من الملك الكبير استئذان الملائكة عليهم واستقبالهم لهم بالتحيّة.

وقوله: ﴿وإذا رأيت ثمَّ﴾ فـ«ثمّ» يريد به الجنّة. والعامل فيه معنى ﴿رأيت﴾ وتقديره وإذا رأيت ببصرك ثَمّ رأيت نعيماً وملكاً كبيراً. وقال الفرّاء: وإذا رأيت ما ثمّ رأيت نعيماً[1]. وأنكره الزجّاج وقال: «ما» موصولة يتمّ على تفسيره، ولا يجوز إسقاط الموصول مع بقاء الصلة، ولكن «رأيت» متعدّ في المعنى إلى «ثَمّ»[2].

قوله تعالى:

عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَـٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَـٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَـٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّـٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾ احدى عشرة آية.

[أقول:][3] قرأ ﴿عاليهم﴾ بإسكان الياء أهل المدينة وحمزة وعاصم ـ في رواية حفص وأبان والمفضّل ـ جعلوه اسماً لا ظرفاً كما تقول: فوقك واسع ومنزلك باب البرد، أن يجعل الباب هو المنزل، وكذلك يجعل الثياب

---

(١) معاني القرآن ٣: ٢١٨. (٢) معاني القرآن وإعرابه: ٢٦١. (٣) من الحجريّة.

هي العالي. الباقون بالنصب على الظرف، لأنّه ظرف مكان. وهو الأحسن، لأنّ الثاني غير الأوّل. وإنّما يجوز في مثل ما كان آخر الكلام هو الأوّل كقولهم: أمامك صدرك، وفوقك رأسك، فإن قلت: فوقك السقف وأمامك الأسد، بالنصب لا غير. وقرأ نافع وحفص عن عاصم ﴿خضر وإستبرق﴾ بالرفع فيهما. وقرأ حمزة والكسائي بالجرّ فيهما. وقرأ ابن كثير وعاصم في رواية أبي بكر ﴿خضر﴾ جرّاً ﴿وإستبرق﴾ رفعاً. وقرأ ابن عامر وأبو عمرو ﴿خضر﴾ رفعاً و﴿إستبرق﴾ جرّاً. من رفعهما جعل ﴿خضر﴾ نعتاً للثياب، وعطف عليه ﴿وإستبرق﴾ ومن جرّهما جعل ﴿خضر﴾ من نعت ﴿سندس﴾ وعطف عليه ﴿إستبرق﴾ وتقديره عاليهم ثياب إستبرق. ومن رفع الأوّل جعله من نعت الثياب وجرّ الثاني على أنّه عطف على ﴿سندس﴾ كأنّ عليهم ثياب سندس. ومن جعل ﴿خضر﴾ نعتاً لـ﴿سندس﴾ فلأنّه اسم جنس يقع على الجميع، فلذلك قال ﴿خضر﴾ ومن جعله نعتاً للثياب فعلى اللفظ. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿وما يشاؤن﴾ بالياء على الخبر عن الغائب. الباقون بالتاء على الخطاب.

لمّا قال الله تعالى على وجه التعظيم لشأن المؤمنين الّذين وصفهم وعظّم ما أعطوا من أنواع النعيم والولدان وأنواع الشراب وغير ذلك ممّا وصف، ووصف ذلك بأنّه ملك كبير قال: ﴿عاليهم﴾ وقيل: معناه عالي حجالهم السندس[١]. وفي نصب ﴿عاليهم﴾ قولان: قال الفرّاء: هو نصب على الظرف كقولك: فوقهم، وحكى أنّ العرب تقول: قومك داخل الدار[٢]. وأنكر الزجّاج ذلك، وقال: نصبه لا يجوز إلّا على الحال من الضمير في

---

(١) تفسير الطبري ١٢: ٣٧١.
(٢) معاني القرآن ٣: ٢١٨.

﴿عاليهم﴾ أو من ضمير الولدان في ﴿رأيتهم﴾ [١] وإنّما أنكر ذلك لأنّه ليس باسم مكان كقولك هو خارج الدار وداخل الدار، وهذا لا يجوز على الظرف عند سيبويه، وما حكاه الفرّاء شاذٌّ لا يعوّل عليه. ومن أسكن الياء أراد رفعه على الابتداء وخبره ﴿ثياب سندس﴾ و«السندس» الديباج الرقيق الفاخر الحَسَن وهو «فعلل» مثل برثن. وقوله: ﴿خضر﴾ فمن جرّ جعله صفة لـ﴿سندس﴾ خضر ووصف ﴿سندس﴾ بخضر وهو لفظ جمع، لأنّ سندساً اسم جنس يقع على الكثير والقليل. ومن رفعه جعله نعتاً لـ﴿ثياب سندس﴾ كأنّه قال: ثياب خضر من سندس. وقوله: ﴿وإستبرق﴾ من رفعه عطفه على ﴿ثياب سندس﴾ فكأنّه قال: عاليهم ثياب سندس، وعاليهم إستبرق. ومن جرّه عطفه على ﴿سندس﴾ فكأنّه قال: عاليهم ثياب سندس وثياب إستبرق.

و«الإستبرق» الديباج الغليظ الّذي له بريق، فهم يتصرّفون في فاخر اللباس كما يتصرّفون في لذيذ الطعام والشراب. وقيل: «الإستبرق» له غلظ الصفاقة لا غلظ السلك كغلظ الديبقي، وإن كان رقيق السلك.

وقوله: ﴿وحلّوا أساور من فضّة﴾ فالتحلية: الزينة بما كان من الذهب والفضّة، و«التحلية» تكون للإنسان وغير الإنسان كحلية السيف وحلية المركب والفضاضة الشفافة هي الّتي يرى ما وراءها كما يرى البلّورة، وهي أفضل من الدرّ والياقوت، وهما أفضل من الذهب، فتلك الفضّة أفضل من الذهب، والفضّة والذهب في الدنيا هما أثمان الأشياء، وإن كان قد ثمّن بغيرهما شاذّاً. وقيل: يحلّون الذهب تارة وتارة الفضّة ليجمعوا محاسن

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٦٢.

الحلية، كما قال تعالى: ﴿يحلّون فيها من أساور من ذهب﴾[١] والفضّة وإن كانت دنيّة في الدنيا، فهي في غاية الحسن خاصّة إذا كانت بالصفة الّتي ذكرها والغرض في الآخرة ما يكثر الالتذاذ والسرور به لا بأكثر الثمن، لأنّه ليست هناك أثمان. وفى الناس من ترك صرف ﴿إستبرق﴾ وهو غلط، لأنّ الأعجمي إذا عرب[٢] في حال تنكيره انصرف، ودليله الإستبرق، وهما ممّا يحكى عن ابن محيص.

وقوله: ﴿وسقاهم ربّهم شراباً طهوراً﴾ قيل: معناه: يسقون شراباً طهوراً وليس كالّذي يخالطه الأنجاس من أنهار الدنيا. وإن قلّ ذلك وكان مغموراً[٣]. وقيل: إنّه ليس كشراب الدنيا الّذي قد نجّسه الفساد الّذي فيه[٤] وهو السكر الداعي إلى القبائح، فقد طهّره الله في الجنّة من ذلك لتخلص به اللّذة، كما قال: ﴿من خمر لذّة للشاربين﴾[٥] وقيل: شراباً طهوراً لا ينقلب إلى البول بل يفيض من أعراضهم كرشح المسك، ذكره إبراهيم التيمي[٦].

وقوله: ﴿إنّ هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً﴾ إخبار من الله تعالى أنّه يقال للمؤمنين إذا فعل بهم ما تقدّم من أنواع اللذّات وفنون الثواب: إنّ هذا كان لكم جزاء على طاعاتكم واجتناب معاصيكم في دار التكليف، وإنّ سعيكم في مرضاة الله وقيامكم بما أمركم الله به كان مشكوراً، أي جوزيتم عليه، فكأنّه شكر لكم فعلكم.

ثمّ أخبر تعالى عن نفسه فقال: ﴿إنّا نحن نزّلنا عليك﴾ يا محمّد ﴿القرآن تنزيلاً﴾ فيه شرف وتعظيم لك.

---

(١) الكهف: ٣١، الحجّ: ٢٣، فاطر: ٣٣.
(٢) في الخطّية: عُرِّف.
(٣) راجع النكت والعيون ٦: ١٧٢.
(٤) راجع معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٦٣.
(٥) محمّد: ١٥.
(٦) تفسير الطبري ١٢: ٣٧٢.

ثمّ أمره بالصبر على ما أمره من تحمّل أعباء الرسالة فقال: ﴿فاصبر﴾ يا محمّد ﴿لحكم ربّك ولا تطع منهم﴾ يعني: من قومه الّذين بعث إليهم ﴿آثماً أو كفوراً﴾ وهو نهي عن الجمع والتفريق أي لا تطع آثماً ولا كفوراً، كما يقول القائل: لا تفعل معصية صغيرة أو كبيرة أي لا تفعلهما ولا واحدة منهما.

ثمّ أمره بأن يذكر الله بما يستحقّه من الصفات والأسماء الحسنى، فقال: ﴿واذكر اسم ربّك بكرة وأصيلاً﴾ و«البكرة» الغداة و«الأصيل» العشيّ، وهو أصل الليل وجمعه آصال.

وقوله: ﴿ومن الليل فاسجد له﴾ دخلت «من» للتبعيض بمعنى فاسجد له في بعض الليل، لأنّه لم يأمره بقيام جميع الليل، كما قال: ﴿إنّ ربّك يعلم أنّك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه﴾ (١) و«السجود» وضع الجبهة على الأرض على وجه الخضوع، وأصله الانخفاض كما قال الشاعر:

ترى الأكُمْ فيها سجّداً للحوافر (٢)

و«السجود» من العبادة الّتي اكّد الله الأمر بها لما فيها من صلاح العباد. ثمّ قال: ﴿وسبّحه ليلاً طويلاً﴾ أي نزّهه عمّا لايليق به في الليل الطويل. ثمّ قال: ﴿إنّ هؤلاء﴾ يعني: الكفّار والّذين يجحدون نبوّتك ﴿يحبّون العاجلة﴾ أي يؤثرون اللذّات والمنافع العاجلة في دار الدنيا من ارتكاب شهواتهم. و«العاجلة» المقدّمة قبل الكرّة الثانية ﴿ويذرون﴾ أي ويتركون ﴿وراءهم﴾ أي خلفهم ﴿يوماً ثقيلاً﴾ أي هو ثقيل على أهل النار أمره، وإن خفّ على أهل الجنّة للبشارة الّتي لهم فيه. و«الثقيل» ما فيه اعتمادات لازمة إلى

---

(١) المزّمّل: ٢٠.
(٢) مرّ في ١: ٨٤، ٢٦٢، ٣٣٥، الكامل ٢: ٧٣٥.

جهة السفل على جهة[١] يشقّ حمله. وقد يكون ثقيلاً على إنسان خفيفاً على غيره بحسب قدرته[٢] فيوم القيامة مشبّه بهذا. وقيل: معنى ﴿وراءهم﴾ أي خلف ظهورهم العمل للآخرة[٣]. وقيل: ﴿وراءهم﴾ أمامهم الآخرة[٤] وكلاهما محتمل ، والأوّل أظهر.

ثمّ قال تعالى: ﴿نحن خلقناهم﴾ أي نحن الّذين اخترعنا هؤلاء الخلائق ﴿وشددنا أسرهم﴾ قال ابن عبّاس: «الأسر» الخلق، وهو من قولهم: أسر هذا الرجل فأحسن أسْره أي خلق فأحسن خلْقه، أي شدّ بعضه إلى بعض أحسن الشدّ. وقال أبو هريرة: «الأسر» المفاصل. وقال ابن زيد: «الأسر» القوّة. وقولهم: خذ بأسره أي بشدّة قبل أن يحلّ، ثمّ كثر حتّى جاء بمعنى خذ جميعه، قال الأخطل:

من كلّ مجتنب شديد أسره ... سَلِسُ القياد تَخالُه مختالا[٥]

وأصل الأسر الشدّ ومنه قتب مأسور أي مشدود، ومنه الأسير، لأنّهم كانوا يشدّونه بالقيد[٦]، وجاء في التفسير وشددنا مفاصلهم. ثمّ قال: ﴿وإذا شئنا بدّلنا أمثالهم تبديلاً﴾ معناه: إذا شئنا أهلكنا هؤلاء وأمثالهم وجئنا بقوم آخرين بدلهم نخلفهم ونوجدهم.

وقوله: ﴿إنّ هذه تذكرة﴾ قال قتادة: معناه أنّ هذه السورة تذكرة، والتذكرة دلالة تحضر بها المعنى النفس، فالقرآن تذكرة تحضربها المعاني الحِكَمية، وكلّه موعظة تدعو إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأفعال.

---

(١) في الخطّية: وجه. (٢) في الخطّية والحجريّة: قدره. (٣) تفسير الطبري ١٢: ٣٧٤.
(٤) تفسير السمرقندي ٣: ٥٢٩، مجاز القرآن ٢: ٢٨٠.
(٥) ديوان الأخطل: ٢٤٩، تفسير الطبري ١٢: ٣٧٥، الكشف والبيان ١٠: ١٠٧.
(٦) في الخطّية الحجريّة: بالقدّ.

وقوله: ﴿فمن شاء اتّخذ إلى ربّه سبيلاً﴾ معناه: من شاء اتّخذ إلى رضا ربّه طريقاً بأن يعمل بطاعته وينتهي عن معصيته، وذلك يدلّ على أنّه قادر على ذلك قبل أن يفعله بخلاف ما يقوله المجبّرة.

وقوله: ﴿وما تشاؤن إلّا أن يشاء الله﴾ أي وليس تشاؤون شيئاً من العمل بطاعته وبما يرضاه ويوصلكم إلى ثوابه إلّا والله يشاؤه ويريده لأنّه يريد من عباده أن يطيعوه، وليس المراد أن يشاء كلّ ما يشاؤه العبد من المعاصي والمباحات، لأنّ الحكيم لا يجوز أن يريد القبائح ولا المباحات لأنّ ذلك صفة نقص ويتعالى الله عن ذلك. وقد قال الله تعالى: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾[١] والمعصية والكفر من أعظم العسر فكيف يكون الله تعالى شائياً له، وهل ذلك إلّا تناقض ظاهر ؟ !

وقوله: ﴿إنّ الله كان عليماً حكيماً﴾ إخبار منه تعالى بأنّه ـ عزّ وجلّ ـ كان عالماً بجميع المعلومات وبما يفعله عباده من الطاعة والمعصية ﴿حكيماً﴾ في جميع ما يفعله ويأمر به. ثمّ قال: ﴿يدخل من يشاء في رحمته﴾ من الجنّة وثوابها إذا أطاعوه في عمل ما رغّبهم فيه ﴿والظالمين أعدّ لهم [عذاباً أليماً]﴾ نصب ﴿الظالمين﴾ على تقدير وعاقَب الظالمين بإعداد العذاب الأليم أي أعدّ للظالمين أعدّ لهم، وحذف لدلالة الثاني عليه ولا يظهر ذلك، لأنّ تفسيره يغني عن إظهاره.

---

(١) البقرة: ١٨٥.

سورة المرسلات

مكّية في قول ابن عبّاس، وهي خمسون آية بلا خلاف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى:

وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا (١) فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا (٢) وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا (٣) فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا (٤) فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا (٥) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (٦) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ (٧) فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ (٨) وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ (٩) وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ (١٠) وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ (١١) لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (١٢) لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ (١٣) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ (١٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٥) خمس عشرة آية.

[أقول:][١] [قرأ] ﴿عذراً﴾ مثقّل أبو جعفر والبرجمي [وقرأ] ﴿أو نذراً﴾ خفيف كوفى غير أبي بكر وأبو عمرو. من ثقل الأوّل فلأنّ الثاني مثقّل، ومن خفّف الثاني فلأنّ الأوّل مخفّف. و«العذر» بالتخفيف و«النذر» بمعنى الإعذار والإنذار. ومن ثقّل ﴿نذراً﴾ أراد جمع نذير. والعذر والمعذرة والتعذير بمعنى. قال أبو عليّ النحوي: النذر بالتثقيل والنذير مثل

---

(١) من الحجريّة.

النكر والنكير جميعاً مصدران، ويجوز في النذر أمران: أحدهما: أن يكون معناه المنذر، والثاني: أن يكون مصدراً[1]. وقرأ أبو عمرو وحده ﴿وقّتت﴾ بالواو على الأصل، وافقه أبو جعفر في ذلك إلّا أنّه خفّف الواو. الباقون ﴿أُقّتت﴾ بالهمزة، أبدلوها من الواو كراهة الضمّة على الواو كما قالوا في «وحد» وقال الشاعر:

يَحُل أحيده ويقال بعل ومثل تموّل منه افتقار[2]

هذا قسم من الله تعالى بالمرسلات، كما أقسم بصاد وقاف ويس وغير ذلك. وقال قوم: تقديره وربّ المرسلات[3] لأنّه لا يجوز القسم إلّا بالله. وقال ابن مسعود وابن عبّاس ومجاهد وقتادة وأبو صالح: المرسلات هاهنا الرياح، وفي رواية أُخرى عن ابن مسعود وأبي صالح أنّها الملائكة. وقال قوم: ﴿المرسلات عرفاً﴾ الأنبياء جاءت بالمعروف. والإرسال نقيض الإمساك، ومثله الإطلاق ونقيضه التقييد، والإرسال أيضاً إنفاذ الرسول. وقوله: ﴿عرفاً﴾ أي متتابعة كعرف الفرس. وقيل: معروفاً إرسالها. وإرسال الرياح إجراء بعضها في إثر بعض[4].

﴿فالعاصفات عصفاً﴾ يعني الرياح الهابّة بشدّة. و«العصوف» مرور الريح بشدّة، عصفت الريح تعصف عصفاً وعصوفاً إذا اشتدّت هبوبها، فعصوف الريح شدّة هبوبها.

وقوله: ﴿والناشرات نشراً﴾ قال ابن مسعود ومجاهد وقتادة وأبو صالح: هي الرياح، لأنّها تنشر السحاب للغيث، كما تلحقه للمطر. وقال أبو صالح

---

(١) الحجّة للقرّاء السبعة ٤: ٨٩ ـ ٩٠.

(٢) تفسير الطبري ١٢: ٣٨٣، معاني القرآن ٣: ٢٢٣.

(٣) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٦٦.

(٤) راجع تفسير السمرقندي ٣: ٥٣١.

في رواية: هي الملائكة تنشر الكتب عن الله. وفي رواية أُخرى عن أبي‌صالح أنّها الأمطار لأنّها تنشر النبات. وقيل: الرياح تنشر السحاب في الهواء[١].

وقوله: ﴿فالفارقات فرقاً﴾ قال ابن عبّاس وأبو صالح: هي الّتي تفرّق بين الحقّ والباطل، وهي الملائكة. وقال قتادة: هي آيات القرآن. وقال الحسن: هي آي القرآن تفرّق بين الهدى والضلال ﴿فالملقيات ذكراً﴾ قال ابن عبّاس وقتادة: هم الملائكة. و«الإلقاء» طرح الشيء على غيره، و«الإلقاء» إيقاع الشيء على غيره، فالذكر يلقى بالبيان والإفهام وهو من صفة الملائكة فيما تلقيه إلى الأنبياء، ومن صفة الأنبياء فيما تلقيه إلى الأُمم، ومن صفة العلماء فيما تلقيه إلى المتعلّمين. وقيل: إنّما جمعت الأوصاف للرياح لاختلاف فوائدها. وقال بعضهم ﴿المرسلات عرفاً﴾ الأنبياء جاءت بالمعروف[٢] ﴿فالعاصفات عصفاً﴾ الرياح ﴿والناشرات نشراً﴾ الأمطار نشرت النبات ﴿فالفارقات فرقاً﴾ آي القرآن ﴿فالملقيات ذكراً﴾ الملائكة تلقي كتاب الله تعالى إلى الأنبياء.

وقوله: ﴿عذراً أو نذراً﴾ يحتمل نصبه وجهين:

أحدهما: على أنّه مفعول له أي للإعذار والإنذار.

والثاني: مفعول به أي ذكرت العذر والنذر . واختار أبو عليّ أن يكون بدلاً من قوله: ﴿ذكراً﴾[٣] وقيل: معناه: إعذاراً من الله وإنذاراً إلى خلقه ما ألقته الملائكة من الذكر إلى أنبيائه[٤] و«العذر» أمر في أمر ظهوره دفع

(١) النكت والعيون ٦: ١٧٦.
(٢) النكت والعيون ٦: ١٧٥، تفسير الطبري ١٢: ٣٧٨.
(٣) الحجّة للقرّاء السبعة ٤: ٨٩.
(٤) تفسير السمرقندي ٣: ٥٣١.

اللوم بأنّه لم يكن يستحقّ لأجل تلك الحال مع وقوع خلاف المراد. فالعقاب على القبيح بعد الإنذار يوجب العذر في وقوعه، وإن كان بخلاف مراد العبد الّذي استحقّه. قال الحسن: ﴿عذراً﴾ معناه: يعتذر به إلى عباده في العقاب أنّه لم يكن إلّا على وجه الحكمة. و«النذر» والإنذار وهو الإعلام بموضع المخافة ليتّقى. ومن خفّف ﴿عذْراً﴾ كره توالي الضمّتين.

وقوله: ﴿إنّما توعدون لواقع﴾ جواب القسم، ومعناه: أنّ الّذي وعدكم الله به من البعث والنشور والثواب والعقاب كائن لا محالة. وقيل: الفرق بين الواقع والكائن أنّ الواقع لا يكون إلّا حادثاً تشبيهاً بالحائط الواقع لأنّه من أبين الأشياء في الحدوث، والكائن أعمّ منه لأنّه بمنزلة الموجود الثابت يكون حادثاً وغير حادث.

وقوله: ﴿فإذا النجوم طمست﴾ معناه: محيت آثارها وذهب نورها. و«الطمس» محو الأثر الدالّ على الشيء، فالطمس على النجوم كالطمس على الكتاب، لأنّه يذهب نورها والعلامات الّتي كانت تعرف بها.

﴿وإذا السماء فرجت﴾ أي شُقِّقت وصُدِّعت ﴿وإذا الجبال نسفت﴾ «نسف الجبال» إذهابها حتّى لا يبقى لها في الأرض أثر. و«النسف» تحريك الشيء بما يخرج ترابه وما اختلط به ممّا ليس به، ومنه سمّي المِنْسَف، ونسف الحبوب كلّها تجري على هذا الوجه. وقوله: ﴿نسفت﴾ من قولهم: أنسفْت الشيء إذا أخذْته بسرعة.

وقوله: ﴿وإذا الرسل أقّتت﴾ أي أُعلِمت وقت الثواب ووقت العقاب، فالتوقيت: تقدير الوقت لوقوع الفعل، ولمّا كانت الرسل عليهم السلام قد قدِّر إرسالها لأوقات معلومة بحسب صلاح العباد فيها كانت قد وقّتت لتلك الأوقات بمعنى أعلمت وقت الثواب ووقت العقاب. وقال مجاهد وإبراهيم

وابن زيد: أُقّتت بالاجتماع لوقتها يوم القيامة، قال تعالى: ﴿يوم يجمع الله الرسل﴾ (١) والمواقيت الآجال ومثله ﴿يسألونك عن الأهلّة قل هي مواقيت للناس والحجّ﴾ (٢) وقيل: معنى أُقّتت: أُجّلت لوقت ثوابها، وهو يوم الفصل. وقيل: معناه أُجّلت فيما بينها وبين أُمّتها ﴿ليوم الفصل﴾ (٣).

ثمّ بيّن تعالى فقال: ﴿لأيّ يوم أُجّلت﴾ أي أُخّرت إلى أجل، فالتأجيل التأخير إلى أجل، فالرسل قد أُجّلت بموعودها إلى يوم الفصل، وهو يوم القيامة. وسمّي يوم الفصل، لأنّه يفصل فيه بين حال المهتدي والضالّ بما يعلم الله لأحدهما من حال الثواب بالإجلال والإكرام، وللآخر من حال العقاب بالاستخفاف والهوان بما لا يخفى على إنسان. وقيل: الوجه في تأجيل الموعود إلى يوم الفصل تحديد الأمر للجزاء على جميع العباد فيه بوقوع اليأس من الردّ إلى دار التكليف، لأنّ في تصوّر هذا ما يتأكّد به الدعاء إلى الطاعة والانزجار عن المعصية.

وقوله: ﴿ويل يومئذ للمكذّبين﴾ تهديد ووعيد لمن جحد يوم القيامة وكذّب بالثواب والعقاب، وإنّما خصّ الوعيد في الذكر بالمكذّبين لأنّ التكذيب بالحقّ يتبعه كلّ شيء، فخصال المعاصي تابعة له وإن لم يذكر معه، مع أنّ التكذيب قد يكون في القول والفعل المخالف للحقّ، ومنه قولهم: حمل فما كذب حتّى لقي العدوّ فهزمه.

قوله تعالى:

أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْأَخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَـٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ

---

(١) المائدة: ١٠٩.
(٢) البقرة: ١٨٩.
(٣) راجع معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٦٧، تفسير السمرقندي ٣: ٥٣٢.

قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَـٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَـٰمِخَـٰتٍ وَأَسْقَيْنَـٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ثلاث عشرة آية.

[أقول:][1] قرأ أهل المدينة والكسائي ﴿فقدّرنا﴾ مشدّدة. الباقون بالتخفيف، وهما لغتان. ومن اختار التخفيف فلقوله: ﴿فنعم القادرون﴾.

يقول الله تعالى على وجه التهديد للكفّار: ﴿ألم نهلك الأوّلين﴾ يعني: قوم نوح وعاد وثمود، والآخرون قوم لوط وإبراهيم إلى فرعون ومن معه من الجنود أهلكهم الله تعالى بأنواع الهلاك جزاءً على كفرهم لنعم الله وجحدهم لتوحيده وإخلاص عبادته.

وقوله: ﴿ثمّ نتبعهم الآخرين﴾ إنّما رفعه عطفاً على موضع ﴿ألم﴾ كأنّه قال: أكنّا نهلك الأوّلين ثمّ نتبعهم الآخرين. وقال المبرّد: تقديره ثمّ نحن نتبعهم لا يجوز غيره، لأنّ قوله: ﴿ألم نهلك﴾ ماض، وقوله: ﴿ثمّ نتبعهم﴾ مستقبل فلا يكون عطفاً على الأوّل ولا على موضعه. و«الإهلاك» إبطال الشيء بتصييره إلى حيث لا يدرى أين هو إمّا بإعدامه أو بإخفاء مكانه. وقد يكون الإهلاك بالإماتة، وقد يكون بالنقل إلى حال الجمادية. و«الأوّل» هو الكائن قبل غيره. والثاني هو الكائن بعد غيره. والأوّل قبل كلّ شيء هو الله تعالى الّذي لم يزل. ﴿والأوّلين﴾ في الآية هم الّذين تقدّموا على أهل العصر الثاني. و«الآخر» الكائن بعد الأوّل من غير بقيّة منه، وبهذا ينفصل من الثاني، لأنّ الثاني قد يكون بعد بقيّة من الشيء ثالثاً ورابعاً وخامساً إلى حيث انتهى، فإذا صار إلى الآخر فليس بعده شيء

(١) من الحجريّة.

كالكتاب الّذي هو أجزاء كثيرة.

وقوله: ﴿كذلك نفعل بالمجرمين﴾ أي مثل ما فعلنا بأُولئك نفعل مثله بالعصاة. ثمّ قال: ﴿ويل يومئذ﴾ يعني: يوم الجزاء والثواب والعقاب ﴿للمكذّبين﴾ فإنّهم يجازون بأليم العقاب. و«الإتباع» إلحاق الثاني بالأوّل بدعائه إليه، و«التبع» إلحاق الثاني بالأوّل باقتضائه له، تبع تبعاً فهو تابع وأتبع إتباعاً.

وقوله: ﴿ألم نخلقكم من ماء مهين﴾ و«المهين» القليل الغناء، ومثله الحقير الذليل. وفي خلق الإنسان على هذا الكمال من الحواسّ الصحيحة والعقل والتمييز من ماء مهين أعظم الاعتبار وأبين الحجّة على أنّ له مدبّراً وصانعاً وخالقاً خلقه وصنعه، فمن جحده كان كالمكابر لما هو من دلائل[1] العقول.

ثمّ قال الله تعالى مبيّناً أنّه جعل ذلك الماء المهين الحقير ﴿في قرار مكين﴾ فالقرار: المكان الّذي يمكن أن يطول فيه مكث الشيء، ومنه قولهم: قرّ في المكان إذا ثبت على طول المكث فيه يقِرّ قراراً، ولا قرار لفلان في هذا المكان، أي لا ثبات له.

وقوله: ﴿إلى قدر معلوم﴾ فالقدر: المقدار المعلوم الّذي لا زيادة فيه ولا نقصان وكأنّه قال إلى مقدار من الوقت معلومٍ، والقدر مصدر من قولهم: قدَر يقدِر قدراً وقدّر [يقدّر] بالتخفيف والتشديد، إلّا أنّ التشديد للتكثير.

وقوله: ﴿فقدرنا فنعم القادرون﴾ معناه: في قول من خفّف فقدرنا من

(١) في الخطّية: أوائل.

القدرة، فنعم القادرون على تدبيره. ومن شدّد أراد فقدّرنا، فنعم المقدّرون لأحوال النطفة ونقلها من حال إلى حال حتّى صارت إلى حال الإنسان. والعرب تقول: قدر عليه الموت وقدّر، بالتخفيف والتشديد . فمن شدّد وقرأ القادرون جمع بين اللغتين، كما قال الأعشى:

وأنكرتَني وما كان الّذي نكرتْ من الحوادث إلّا الشيب والصلعا[١]

وقوله: ﴿ألم نجعل الأرض كفاتاً﴾ نصب ﴿كفاتاً﴾ على الحال، وتقديره ألم نجعل الأرض لكم ولهم كفاتاً، و«الكفات» الضمام فقد جعل الله الأرض للعباد تكفتهم ﴿أحياء وأمواتاً﴾ أي تضمّهم في الحالين كفت الشيء يكفته كَفْتاً وكفاتاً إذا ضمّه. وقيل: ﴿كفاتاً﴾ وعاء وهذا كفته أي وعاؤه، ويقال كفيته أيضاً[٢]. وقال الشعبي ومجاهد: فظهرها للأحياء وبطنها للأموات، وهو قول قتادة. ونصب أحياء وأمواتاً على الحال، ويجوز على المفعول به. قال أبو عبيدة وغيره ﴿كفاتاً﴾ أي أوعية. يقال: هذا النحى كفت هذا وكَفِيته[٣].

وقوله: ﴿أحياء وأمواتاً﴾ أي منه ما ينبت، ومنه ما لا ينبت.

وقوله: ﴿وجعلنا فيها رواسي شامخات﴾ أي وجعلنا في الأرض جبالاً ثابتة عالية، فالشامخات: العاليات، شمَخ يشمَخ شَمْخاً فهو شامخ، ومنه شمخ بأنف إذا رفعه كبراً، وجبل شامخ وشاهق وباذخ كلّه بمعنى واحد. و«الرواسي» الثوابت.

وقوله: ﴿وأسقيناكم ماء فراتاً﴾ أي وجعلنا لكم شراباً من الماء الفرات،

---

(١) شرح ديوان الأعشى: ١٠٩، الصحاح ٢: ٨٣٦ مادّه «نكر».

(٢) تفسير الطبري ١٢: ٣٨٥.

(٣) مجاز القرآن ٢: ٢٨١.

وهو العذب، وهو صفة يقال: ماء فرات وماء زلال وماء غَدَق وماء نمير كلّه من العذوبة والطيّب، وبه سمّي النهر العظيم المعروف بالفرات قال الشاعر:

إذا غاب عنّا غاب عنّا فراتَنا   وإن شَهَد أجدى نيله وفواضله[١]

وقال ابن عبّاس: أُصول الأنهار العذبة أربعة: جيحان ومنه دجلة، وسيحان نهر بلخ، وفرات الكوفة، ونيل مصر.

وقوله: ﴿ويل يومئذ للمكذّبين﴾ قد فسّرناه.

قوله تعالى:

ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ اثنتا عشرة آية.

[أقول:][٢] قرأ رويس ﴿انطلقوا إلى ظلّ﴾ على فتح اللام بلفظ الماضي. وقرأ أهل الكوفة إلّا أبا بكر ﴿جمالة﴾ وضَمَّ الجيم يعقوب. الباقون ﴿جمالات﴾ من قرأ﴿جمالت﴾ على لفظ الواحد قال: معناه: الجمع لقوله ﴿صفر﴾ ومن قرأ ﴿جمالات﴾ بكسر الجيم قال: جمالة وجمالات جميعاً جمعان، كأنه جَمْع الجمع مثل: رجال ورجالات، وبيوت وبيوتات. والهاء في قوله: ﴿كأنّه﴾ كناية عن الشرر.

وهذا حكاية ما يقول الله تعالى للكفّار المكذّبين بيوم الدين يوم

---

(١) ديوان الأخطل: ١٢٦.

(٢) من الحجريّة.

القيامة فإنّه يقول لهم: ﴿انطلقوا إلى ما كنتم به تكذّبون﴾ من العقاب على الكفر ودخول النار جزاءً على المعاصي، فكنتم تجحدون ذلك وتكذّبون به ولا تعترفون بصحّته، فامضوا اليوم إليه. فالانطلاق الانتقال من مكان إلى مكان من غير مكث الاعتقال، وهو من الإطلاق خلاف التقييد. والانتقال من حال إلى حال، ومن اعتقاد إلى اعتقاد لا يسمّى انطلاقاً. ثمّ ذكر الموضع الّذي أمرهم بالانطلاق إليه، فقال: ﴿انطلقوا إلى ظلّ ذي ثلاث شعب﴾ قيل: معناه يتشعّب من النار ثلاث شعب: شعبة فوقه، وشعبة عن يمينه، وشعبة عن شماله فيحيط بالكافر(١). وقال مجاهد وقتادة ﴿ظلّ﴾ دخان من جهنّم ينقسم ثلاث شعب، كما قال تعالى ﴿أحاط بهم سرادقها﴾(٢) أي من الدخان الآخذ بالأنفاس.

﴿لا ظليل﴾ معناه: غير مانع من الأذى يستر عنه، فالظليل: المانع من الأذى ليستره عنه، ومثله الكنين، فالظليل من الظلّة، وهي السُتْرة، والكنين من الكنّ، فظلّ هذا الدخان لا يغني الكفّار من حرّ النار شيئاً. وبيّن ذلك بقوله: ﴿ولا يغني من اللهب﴾ والإغناء إيجاب الكفاية بما يكون وجود غيره وعدمه سواء، يقال: أغنى عنه أي كفى في الدفع عنه. واللهب ارتفاع الشرر، وهو اضطرام النار، التهب يلتهب التهاباً وألهبتها إلهاباً ولهباً.

وقوله: ﴿إنّها﴾ يعني: النار ﴿ترمي بشرر﴾ وهي قِطَع تَطايَرَ من النار في الجهات، وأصله الظهور من شرْرتَ الثوب إذا أظهرْته للشمس والشرر يظهر متبدّداً من النار. وقوله: ﴿كالقصر﴾ أي ذلك الشرر كالقصر أي مثله في عظمه، وتخويفه يتطاير على الكافرين من كلّ جهة ـ نعوذ بالله منه ـ

(١) النكت والعيون ٦: ١٧٩.
(٢) الكهف: ٢٩.

والقصر واحد القصور من البنيان، في قول ابن عبّاس ومجاهد. وفي رواية أُخرى عن ابن عبّاس وقتادة والضحّاك: القصر أُصول الشجر واحدته قَصْرة مثل جمرة وجمر، والعرب تشبه الإبل بالقصور، قال الأخطل:

كأنّه بُـرْج رومـي يشـيّده ... لُزَّ بِجصّ وآجر وأحجار[١]

والقصر في معنى الجمع إلّا أنّه على طريق الجنس. ثمّ شبّه القصر بالجمال، فقال: ﴿كأنّه جمالات صفر﴾ قال الحسن وقتادة: كأنّها أنيق سود، لما يعتري سوادها من الصفرة. وقال ابن عبّاس ومجاهد وسعيد بن جبير: قلوس السفن. وفي رواية أُخرى عن ابن عبّاس: هي قطع النحاس. قال الزجّاج ﴿جمالات﴾ بالضمّ جمع جمالة وهو القلس من قلوس سُفُن البحر، ويجوز أن يكون جمع «جمل» وجمالات، كما قيل «رخال» جمع «رخل»[٢] ومن كسر فعلى أنّه جمع جمالة، وجِمالة جمع جمل مثل حجر وحجارة، وذَكَر وذِكارة[٣]. وقرئ في الشواذّ ﴿كالقَصَر﴾ بفتح الصاد جمع[٤] كأنّها أعناق الإبل[٥] ﴿وجمالات﴾ جمع جمل كرجل ورجالات، وبيت وبيوتات، ويجوز أن يكون جمع جمالة. وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ﴿جملة﴾ بغير الألف على التوحيد لأنّه لفظ جنس يقع على القليل والكثير. الباقون جمالات بألف، مكسور الجيم.

وقوله: ﴿ويل يومئذ للمكذّبين﴾ قد فسّرناه.

ثمّ قال تعالى: ﴿هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾ إخبار من الله تعالى أنّ ذلك اليوم لا ينطق الكفّار. وقيل في معناه قولان:

---

(١) ديوان الأخطل: ١٧، تفسير الطبري ١٢: ٣٨٩.

(٢) في المصدر: رجال جمع رجل.

(٣) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٦٨.

(٤) مختصر في شواذّ القرآن: ١٦٧.

(٥) معاني القرآن أخفش ٢: ٧٢٥ ـ ٧٢٦.

أحدهما: أنّ ذلك اليوم مواطن، فموطن لا ينطقون[١] لأنّهم مبلسون على هول ما يرونه ، وموطن يطلق فيه عن ألسنتهم فينطقون، فلذلك حكى عنهم أنّهم ﴿قالوا ربّنا أمّتنا إثنتين وأحييتنا إثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل﴾[٢] وقد يقال هذا يوم لا ينطقون إذا لم ينطقوا في بعضه كما يقال: كان كذا يوم قدم فلان وإن كان قدم في بعضه، لأنّ المعنى مفهوم.

والثاني: أنّهم ينطقون بنطق لا ينتفعون به، فكأنّهم لم ينطقوا، وأضاف الزمان إلى الأفعال كقولك: أتيتك يوم قدم زيد، وآتيك يوم يخرج عمرو، وأجاز النحويّون هذا يوم لا ينطقون بالنصب على أنّه يشير إلى الجزاء، ولا يشير إلى اليوم[٣].

وقوله: ﴿ولا يؤذن لهم﴾ فالإذن: الإطلاق في الفعل، تقول: يسمع بالاذن فهذا أصله وقد كثر استعماله حتّى صار كلّ دليل ظهر به أنّ للقادر أن يفعل كذا فهو إذن له، وكلّ ما أطلق الله فيه بأيّ دليل كان فقد أذن فيه.

وقوله تعالى: ﴿فيعتذرون﴾ فالاعتذار: الانتفاء من خلاف المراد بالمانع من المراد، وليس لأحد عذر في معصية الله، لأنّه تعالى لا يكلّف نفساً ما لا يطاق. وقد يكون له عذر في معصية غيره، لأنّه قد يكلّف خلاف الصواب، وقد يكلّف ما لا يمكن لعارض من الأسباب.

وقوله: ﴿فيعتذرون﴾ رفع عطفاً على قوله: ﴿لا يؤذن﴾ قال الفرّاء: تقديره لا ينطقون ولا يعتذرون[٤] وقد يجوز في مثله النصب علي جواب

---

(١) راجع معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٦٨.
(٢) المؤمن: ١١.
(٣) راجع معاني القرآن ٣: ٢٢٥ ـ ٢٢٦، تفسير الطبري ١٢: ٣٩٢.
(٤) معاني القرآن ٣: ٢٢٦.

النفي، ومعنى الآية لا يؤذن لهم في الاعتذار فكيف يعتذرون[١].

وقوله: ﴿هذا يوم الفصل﴾ يعني يفصل بين الخلائق بالحكم لكلّ أحد بما له وعليه. و«الفصل» قطع علق الأُمور بتوفية الحقوق، وهذا الفصل الّذي هو فصل القضاء يكون ذلك في الآخرة على ظاهر الأمر وباطنه، وأمّا في الدنيا فهو على ظاهر الأمر، لأنّ الحاكم لا يعرف البواطن.

وقوله: ﴿جمعناكم والأوّلين﴾ معناه: أنّ الله يجمع فيه الخلائق في يوم واحد في صعيد واحد. و«الجمع» جعل الشيء مع غيره إمّا في مكان واحد أو محلّ واحد أو في يوم واحد أو وقت واحد ، أو يجعل مع غيره في حكم واحد أو معنى واحد كجمع الجماد والحيوان في معنى الحدوث.

وقوله: ﴿فإن كان لكم كيد فكيدون﴾ معناه: توبيخ من الله تعالى وتقريع للكفّار وإظهار عجزهم عن الدفع عن أنفسهم فضلاً عن أن يكيدوا غيرهم، وإنّما هو على أنّكم كنتم في دار الدنيا تعملون ما يغضبني، فالآن عجزتم عن ذلك وحصلتم على وبال ما عملتم. وقيل: المعنى إن كان لكم حيلة تحتالونها في التخلّص فاحتالوا[٢]. و«الكيد» الحيلة.

﴿ويل يومئذ للمكذّبين﴾ قد مضى تفسيره.

قوله تعالى:

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾ عشر آيات.

---

(١) راجع تفسير الطبري ١٢: ٣٩٢، تفسير السمرقندي ٣: ٥٣٤.
(٢) معاني القرآن ٣: ٢٢٧.

[أقول:][1] لمّا ذكر الله تعالى الكفّار وما أعدّ لهم من ضروب العقاب وأنواع العذاب ترهيباً وتزهيداً في مثله، ذكر المؤمنين المتّقين للمعاصي وبيّن ما أعدّه لهم من أنواع النعيم وضروب اللـذّات فـقال: ﴿إنّ المتّقين﴾ ومعناه: الّذين اتّقوا عقاب الله باجتناب معاصيه وطلبوا ثوابه بفعل طاعاته ﴿في ظلال﴾ وهو جمع ظلّ، وهو الحجاب العالي المـانع مـن كـلّ أذى، فلأهل الجنّة حجاب من كلّ أذى لأنّ هواء الجنّة مناف لكلّ أذى، فهم في طيبة على خلاصه. وقيل: في ظلال من قصور الجنّة وأشجارها ﴿وعيون﴾ وهي ينابيع الماء الّتي تجري في ظلّ الأشجار[2]. وقيل: إنّ تلك العـيون جارية في غير أُخدود، لأنّ ذلك أمتع بما يرى من حسنه وصفائه عـلى كنهه من غير ملابسة شيء له، وليس هناك شيء إلّا على أحسن صفاته، لأنّالله تعالى قد شوّق إليه أشدّ التشويق ورغّب فيه أتمّ الترغيب.

﴿وفواكه﴾ وهي جمع فاكهة، وهي ثمار الأشجار الّتي من شـأنها أن تؤكل، وقد يكون من الثمر ما ليس كذلك كالثمر المُـرّ، فـإنّه ليس مـن الفاكهة.

وقوله: ﴿ممّا يشتهون﴾ يعني لهم فاكهة من جنس ما يشتهونه.

ثمّ قال تعالى: ﴿كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون﴾ صـورته صـورة الأمر والمراد به الإباحة. وقال قوم: هو أمر على الحقيقة، لأنّ الله تـعالى يريد منهم الأكـل والشـرب فـي الجـنّة، وإنّـهم إذا عـلموا ذلك زاد فـي سرورهم، فلا تكون إرادته لذلك عبثاً. و«الهنيء» هو الّذي لا أذى فيه فيما بعد. وقيل: «الهنيء» النفع الخالص من شائب الأذى. و«الشهوة» معنى في

(١) من الحجريّة.

(٢) تفسير السمرقندي ٣: ٥٣٥، تفسير الطبري ١٢: ٣٩٢.

القلب إذا صادفت المشتهى كان لذّة، وضدّه النفار إذا صادفه كـان ألمـاً، وجاء الكلام على التقابل للكـافرين مـن قـوله: ﴿في ظلّ ذي ثلاث شعب لا ظليل ولا يغني من اللهب﴾ مقابل[١] أهل الجنّة في ظلال قـصور الجـنّة وأشجارها.

وقوله: ﴿إنّا كذلك نجزي المحسنين﴾ إخبار منه تعالى أنّه كما جـازى هؤلاء المتّقين بـما ذكـره مـن النـعيم مـثل ذلك نـجازي كـلّ مـحسن عامل بطاعة الله. وفي ذلك دلالة على أنّ كلّ إحسان خالص للعبد فله به الثواب والحمد، وأنّه طاعة لله، وأنّ ما ليس بإحسان من فعل خارج عن هذا الحكم.

وقوله: ﴿ويل يومئذ للمكذّبين﴾ قد مضى تفسيره.

ثمّ عاد إلى خطاب الكفّار فقال لهم على وجه التهديد والوعيد: ﴿كلوا وتمتّعوا﴾ في دار الدنيا وتلذّذوا بما تريدون وانتفعوا بما تشتهون ﴿قليلاً﴾ لأنّ أيّام الدنيا قليلة، فالتمتّع: الحصول في أحوال تلذّ، تمتّع تمتّعاً واستمتع استمتاعاً وأمتعه غيره إمتاعاً، والتمتّع والتلذّذ واحد ونقيضه التألّم.

وقوله: ﴿إنّكم مجرمون﴾ إخبار منه تعالى للكفّار بأنّكـم وإن تـمتّعتم قليلاً في الدنيا فإنّكم عصاة وكفّار ومآلكم إلى النار وعذابها. و«الإجرام» فعل ما يقطع المدح ويحصل بدله الذمّ، يقال: أجرم إجراماً واجترم اجتراماً وتجرّم عليه أي تطلب له الجرم.

﴿ويل يومئذ للمكذّبين﴾ بيّـنّا معناه.

وقوله: ﴿وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون﴾ فالركوع: هو الانخفاض على

---

(١) في الخطّية والحجريّة: قالوا.

وجه الخضوع، ويعبّر به عن نفس الصلاة، ويقال: قد ركعت وبقي على ركوع أي صلاة، والمراد به هاهنا الصلاة. والمعنى: أنّ هؤلاء الكفّار إذا دعوا إلى الصلاة لا يصلّون لجهلهم بما في الصلاة من الخير والبركة. وقيل: إنّه قال لهم ذلك في الآخرة كما قال: ﴿يدعون إلى السجود فلا يستطيعون﴾[١] ذكره ابن عبّاس. وقال قتادة: يقال لهم ذلك في الدنيا، فإنّ الصلاة من الله بمكان. وقال مجاهد: عنى بالركوع هنا الصلاة. وقوله: «ويل يومئذ للمكذّبين» قد فسّرناه، فكأنّه قيل لهم: يجب عليكم الركوع بالخضوع لله فاركعوا، فأخبر عنهم أنّهم لا يركعون تكذيباً بهذا الخبر، فلذلك قال عقيب ذلك: ﴿ويل يومئذٍ للمكذّبين﴾ وإلّا فقوله: ﴿اركعوا﴾ أمر من الله تعالى، ولا يقال فيمن أُمر بالشيء فلم يفعل: إنّه كذّب. وقيل: إنّ ما تكرّر في هذه السورة من قول: ﴿ويل يومئذ للمكذّبين﴾ ليس على وجه التكرار في المعنى، لأنّ معناه ويل للمكذّبين بما ذكره قبله من الإخبار[٢] وقيل: يريد أنه كذّب بالمخبر الّذي يليه، وهو وجه القول الثاني والثالث والرابع إلى آخر السورة، على هذا المنهاج من أنّه يلزمه الويل بالتكذيب بالّذي يليه و[٣] قبله على التفصيل لا على الإجمال في أنّه لا يلزمه حتّى يكذّب بالجميع.

وقوله: ﴿فبأيّ حديث بعده يؤمنون﴾ معناه: أنّه إذا أتى القرآن بأظهر البرهان وكفروا به فليس ممّن يفلح بالإيمان بكلام غيره، لأنّ من لم يؤمن بما فيه المعجزة الظاهرة والآية الباهرة لا يؤمن بغيره.

---

(١) القلم: ٤٢. (٢) راجع الكشف والبيان ١٠: ١١٢.

(٣) في الحجريّة زيادة: «قوله».

سورة عمّ[1]

مكّيّة في قول ابن عبّاس والضحّاك، وهي أربعون آية في الكوفي والمدنيّين، وإحدى وأربعون في البصري.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى:

عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾
كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ
أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَـٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾
وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾
وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّـٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾

ستّ عشرة آية.

[أقول:][2] وقف يعقوب على ﴿عمّ﴾ بالهاء، الباقون بلا هاء.

وقرأ ابن عامر ﴿كلّا ستعلمون﴾ بالتاء على الخطاب فيهما أي قل لهم ستعلمون عاقبة أمركم. الباقون بالياء على الغيبة، وهو الأقوى لقوله: ﴿عمّ

---

(١) في الخطّيّة زيادة: يتسائلون.

(٢) من الحجريّة.

يتساءلون﴾ وقوله: ﴿الّذي هم فيه مختلفون﴾ ولم يقل أنتم وإن كانت التاء جائزة، لأنّ العرب تنتقل من غيبة إلى خطاب ومن خطاب إلى غيبة.

قيل في سبب نزول هذه الآية: إنّ رسول اللهﷺ كان إذا حدّث قريشاً وعرّفهم أخبار الأُمم السالفة ووعظهم كانوا يهزؤن بذلك ، فنهاه الله تعالى أن يحدّثهم[1] فقال: ﴿وقد نزّل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويُستهزأ﴾ إلى قوله: ﴿حتّى يخوضوا في حديثٍ غيره﴾[2] فكان رسول اللهﷺ يحدّث أصحابه فإذا أقبل واحد من المشركين أمسك فاجتمعوا على بكرة أبيهم وقالوا : والله يا محمّد إنّ حديثك عجب وكنّا نشتهي أن نسمع كلامك وحديثك ، فقال: إنّ ربّي نهاني أن أُحدّثكم، فأنزل الله تعالى ﴿عمّ يتساءلون عن النبأ العظيم﴾.

وقوله: ﴿عمّ يتساءلون﴾ أصله عن ما ، فحذفت الألف لاتّصالها بحرف الجرّ حتّى صارت كالجزء منه لتدلّ على شدّة الاتّصال مع تخفيف المركّب في الكلام ، فحذف حرف الاعتلال وأُدغمت النون في الميم لقربها منها من غير إخلال ، وصورته صورة الاستفهام والمراد تفخيم القصّة والإنكار والتهديد . وقوله: ﴿يتساءلون﴾ معناه: عن ماذا يسأل بعضهم بعضاً ، فالتساؤل: سؤال واحد النفسين للآخر، تساءلا تساؤلاً وسأله مسألة، و«السؤال» طلب الإخبار بصيغة مخصوصة في الكلام. وكلّ ما يزجر العقل عنه بما فيه من الداعي إلى الفساد لا يجوز السؤال عنه كسؤال الجدل لدفع الحقّ ونصرة الباطل ، وكالسؤال الّذي يقتضي فاحش الجواب ، لأنّه كالأمر بالقبيح . و«النبأ» معناه: الخبر العظيم الشأن كمعنى

(١) راجع النكت والعيون ٦: ١٨٢.
(٢) النساء: ١٣٩.

الخبر عن التوحيد في صفة الإله وصفة الرسول ، والخبر عمّا يجوز عليه وما لا يجوز . وقال مجاهد : النبأ العظيم الشأن، القرآن. وقال قتادة وابن زيد: هو السؤال عن البعث بعد الموت ، لأنّهم كانوا يجمعون على التكذيب بالقرآن ﴿الّذي هم فيه مختلفون﴾ قال قتادة : معناه: الّذي هم فيه بين مصدّق ومكذّب.

فقال الله سبحانه مهدّداً لهم ومتوعّداً: ﴿كلّا سيعلمون ثمّ كلّا سيعلمون﴾ ومعنى ﴿كلّا﴾ ردع وزجر ، كأنّه قال ارتدعوا وانزجروا ليس الأمر كما ظننتم. وقال قوم: معناه: حقّاً سيعلمون عاقبة أمرهم وعائد الوبال عليهم. وقال الضحّاك : معناه: كلّا سيعلم الكفّار عاقبة تكذيبهم، وسيعلم المؤمنون عاقبة تصديقهم. وقال قوم: ﴿كلّا سيعلمون﴾ ما ينالهم يوم القيامة من العذاب ﴿ثمّ كلّا سيعلمون﴾ ما ينالهم في جهنّم من العذاب ، فلا يكون تكراراً[١]. و«الاختلاف» ذهاب كلّ واحد من النفسين إلى نقيض ما ذهب إليه الآخر ، يقال : اختلفا في المعنى، فذهب أحدهما إلى كذا وذهب الآخر إلى كذا .

ثمّ نبّههم على وجه الاستدلال على صحّة ذلك فقال: ﴿ألم نجعل الأرض مهاداً﴾ أي وِطاء ، وهو القرار المهيّأ للتصرّف فيه من غير أذيّة. وقال قتادة : «المهاد» البساط، ومهّد الأرض تمهيداً مثل وطّأه توطئة ، لأنّ ذلك لا يقدر عليه غير الله ، لأنّه الّذي يُسكِن الأرض حالاً بعد حال حتّى يمكن الاستقرار عليها والتصرّف فيها.

﴿والجبال أوتاداً﴾ أي وجعلنا الجبال أوتاداً للأرض لئلّا تميد بهم،

---

(١) النكت والعيون ٦: ١٨٣.

فالجبال جمع جبل ، وهو بغلظه وثقله يبلغ أن يكون ممسكاً للأرض عن أن تميد بثقله ، فعلى ذلك دبّره الله ، وذكّر العباد به وما فيه من العبرة بعظمة من يقدر عليه . و«الوتد» المسمار إلّا أنّه أغلظ منه، ولذلك يقال: مسامير العناء[1] إذا دقّت كالمسمار من الحديد في القوّة والدقّة ، ولو غلظت صارت أوتاداً، فكذلك وصفت الجبال بأنّها أوتاد للأرض إذ جعلت بغلظها ممسكة لها عن أن تميد بأهلها.

وقوله: ﴿وخلقناكم[2] أزواجاً﴾ أي أشكالاً كلّ واحد يشاكل[3] الآخر. وقيل: معناه: ذكراً وأُنثى حتّى يصحّ منكم التناسل[4].

وقوله: ﴿وجعلنا نومكم سباتاً﴾ أي نعاساً في أوّله تطلب النفس الراحة به. وقيل : معناه: جعلنا نومكم راحة[5] . وقيل : معناه جعلنا نومكم طويلاً ممتدّاً تعظم به راحة أبدانكم ويكثر به انتفاعكم ، ومنه سبت من الدهر أي مدّة طويلة منه . وقال أبو عبيدة : معناه: جعلنا نومكم سباتاً ليس بموت، ورجل مسبوت فيه روح[6] والسبات قطع العمل للراحة ، ومنه سبت أنفه إذا قطعه ، ومنه يوم السبت أي يوم قطع العمل للراحة على ما جرت به العادة في شرع موسى ، وصار علماً على اليوم الّذي بعد الجمعة بلا فصل[7].

وقوله: ﴿وجعلنا الليل لباساً﴾ فاللباس: غطاء ساتر مماسّ لما ستر، فالليل ساتر للأشخاص بظلمته مماسّ لها بجسمه الّذي فيه الظلمة، قال

---

(١) كذا في ظاهر النسخ، ولعلّه «الغناء» وعلى أيّ حال العبارة مبهمة.
(٢) في الخطّية والحجريّة: جعلناكم.
(٣) في الخطّية والحجريّة: يشكل.
(٤) راجع معاني القرآن وإعرابه ٥: ١٧٢.
(٥) تفسير السمرقندي ٣: ٥٣٧.
(٦) مجاز القرآن ٢: ٢٨٢.
(٧) راجع النكت والعيون ٥: ١٨٣.

الشاعر :

فلمّا لبسن الليل أوجنّ نصّبت له من حذا آذانها وهي جنح[١]

﴿وجعلنا النهار معاشاً﴾ أي متصرّفاً للعيش. و«العيش» الانتعاش الّذي تبقى معه الحياة على حال الصحّة عاش يعيش عيشاً. و«النهار» اتّساع الضياء المنبثّ في الآفاق، وأصله من أنهر الدم إذا وسع مجراه ، ومنه النهر وهو المجرى الواسع من مجاري الماء ، ومنه الانتهار الاتّساع في الإغلاظ. وفي خلق النهار تمكين من التصرّف للمعاش، وفي ذلك أعظم النعمة وأكبر الإحسان .

وقوله: ﴿وبنينا فوقكم سبعاً شداداً﴾ يعني: سبع سماوات . و«البناء» جعل الطاق الأعلى على الأدنى ، فالسماء مبنيّة كهيئة القبّة مزيّنة بالكواكب المضيئة ، فسبحان الّذي زيّنها وخلقها وبناها على هذه الصفة لعباده. وإنّما جعلها سبع سماوات لما في ذلك من الاعتبار للملائكة، ولما في تصوّر الطبقات من عظم المقدور، وبهول تلك الأُمور ، وما فيه من تمكين البناء حتّى رفعت سماء فوق سماء ، فسبحان من يمسكها بما هو قادر عليها ومدبّر لها .

وقوله: ﴿وجعلنا سراجاً وهّاجاً﴾ يعني: الشمس جعلها الله سراجاً للعالَم يستضيئون به ، فالنعمة عامّة لجميع الخلق . و«الوهّاج» الوقّاد ، وهو المشتعل بالنور العظيم. وقال مجاهد وقتادة : يعني وهّاجاً متلألئاً .

وقوله: ﴿وأنزلنا من المعصرات﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد وقتادة : يعني: الرياح ، كأنّها تعصر السحاب . وقيل: هي السحائب تتحلّب بالمطر في

---

(١) تفسير الطبري ١٢: ٣٩٧.

قول الربيع وفي رواية عن ابن عبّاس. وقال الحسن وقتادة: المعصرات السماء[١] والأظهر أنّه من السحاب الّذي يتحلّب بالمطر. وقوله: ﴿ماء ثجّاجاً﴾ فالثجاج: الدفاع في انصبابه كثجّ دماء البدن، يقال: ثججت دمه أثُجّه ثُجّاً، وقد ثجّ الدم يُثجّ ثجوجاً.

﴿لنخرج به حبّاً ونباتاً﴾ أي نخرج بذلك الماء «حبّاً» وهو كلّ ما تضمّنه الزرع الّذي يحصد. و«النبات» الكلأ من الحشيش والزرع.

﴿وجنّات ألفافاً﴾ أي بساتين ملتفّة بالشجر يُخرجها الله تعالى لعباده بالمطر. وإنّما قال: ﴿جنّات﴾ لأنّ الشجر يجنّها أي يسترها. و«الألفاف» الأخلاط المتداخلة يدور بعضها على بعض، واحدها «لفّ» يقال : شجر ملتفّ وأشجار ملتفّة. والمعاني الملفّفة المتداخلة باستتار بعضها ببعض حتّى لا تبين إلّا في خفى . وقيل : واحده لِفّ ولفيف[٢]. وقيل : في واحده شجرة لفّا ، وشجرُ لفّ . وقال مجاهد وقتادة وابن عباس : ألفافاً ملتفّة. والتقدير فيه: ويخرج به شجر جنّات ألفافاً [ملتفّة] إلّا أنّه حذف لدلالة الكلام عليه.

قوله تعالى:

إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾

---

(١) راجع تفسير الطبري ١٢: ٣٩٩، النكت والعيون ٦: ١٨٤.

(٢) الكشف والبيان ١٠: ١١٤.

وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ أربع عشرة آية.

[أقول:][١] قرأ ﴿وفتحت﴾ بالتخفيف أهل الكوفة إلّا الأعشى والبرجمي . الباقون بالتشديد . وقرأ حمزة وروح ﴿لبثين فيها﴾ بغير ألف مثل «مزجين[٢] وفرهين» الباقون ﴿لا بثين﴾ بألف على اسم الفاعل. وهو الأجود، لأنّه من «لبث» فهو «لابث» وحجّة حمزة أنّه مثل «طمع» و«طامع». و«اللبث» البطيء. وقرأ أهل الكوفة إلّا عاصماً عن المفضّل ﴿غسّاقاً﴾ مشدّدة . الباقون بالتخفيف ، وهما لغتان . فالغسّاق: صديد أهل النار، في قول إبراهيم وقتادة وعكرمة وعطيّة. وقال أبو عبيدة : «الغسّاق» ما همى من العين أي سيّال[٣]. وقال غيره : هو البارد[٤] . وقيل: المنتن[٥].

يقول الله تعالى: ﴿إنّ يوم الفصل﴾ يعني: يوم [الدين وهو يوم] القيامة الّذي يفصل الله فيه بالحكم[٦] بين الخلائق ﴿كان ميقاتاً﴾ أي جعله الله وقتاً للحساب والجزاء. فالميقات: منتهى المقدار المضروب لوقت حدوث أمر من الأُمور ، وهو مأخوذ من الوقت، كما أنّ الميعاد من الوعد، والميزان من الوزن، والمقدار من القدر، والمفتاح من الفتح.

وقوله: ﴿يوم ينفخ في الصور﴾ فالنفخ: إخراج ريح الجوف من الفم، ومنه نفخ الزقّ، والنفخ في البوق، ونفخ الروح في البدن يُشبَّه بذلك، لأنّها تجري فيه كما تجري الريح، [يجرى مجرى الريح] في الشيء. و«الصور» قرن ينفخ فيه في حديث مرفوع عن النبيّ ﷺ[٧] وقال الحسن: هو جمع

---

(١) من الحجريّة. (٢) في الخطّية: فرحين. (٣) مجاز القرآن ٢: ٢٨٢.
(٤) النكت والعيون ٦: ١٨٧. (٥) تفسير الطبري ١٢: ٤٠٧.
(٦) في الخطّية: بما يحكم. (٧) مسند أحمد ٢: ١٦٢.

صورة. وبه قال قتادة. ومعناه: اذكر يوم ينفخ في الصور ﴿فتأتون أفواجاً﴾ فالفوج: جماعة من جماعة. والأفواج جماعات من جماعات، فالناس يأتون على تلك الصفة إلى أن يتكاملوا في أرض القيامة. وكلّ فريق يأتي مع شكله. وقيل: تأتي كلّ أُمّة مع نبيّها، فلذلك جاؤوا أفواجاً أي زمراً[١].

وقوله: ﴿وفتحت السماء فكانت أبواباً﴾ معناه: وشقّقت السماء، فكانت كقطع الأبواب. وقيل: صار فيها طرق ولم تكن كذلك قبل[٢].

وقوله: ﴿وسيّرت الجبال فكانت سراباً﴾ معناه: زيّلت[٣] الجبال عن أماكنها وأذهب بها حتّى صارت كالسراب.

وقوله: ﴿إنّ جهنّم كانت مرصاداً﴾ إخبار منه تعالى بأنّ جهنّم تكون يومئذ مرصاداً. و«المرصاد» هو المعدّ لأمر على ارتقابه الوقوع فيه، وهو مفعال من الرصد. وقيل: المعنى: ذات ارتقاب لأهلها تراصدهم بنكالها[٤]. و«الرصد» عمل ما يترقّب به الاختطاف.

وقوله: ﴿للطاغين﴾ يعني جهنّم للّذين طغوا في معصية الله وتجاوزوا الحدّ ﴿مآباً﴾ أي مرجعاً، وهو الموضوع الّذي يرجع إليه، فكأنّ المجرم قد كان بإجرامه فيها ثمّ رجع إليها، ويجوز أن يكون كالمنزل الّذي يرجع إليه.

وقوله: ﴿لابثين فيها أحقاباً﴾ أي ماكثين فيها أزماناً كثيرة، وواحد الأحقاب حُقُب من قوله تعالى: ﴿أو أمضي حقباً﴾[٥] أي دهراً طويلاً. وقيل: واحده حِقَب، وواحد الحِقَب حِقْبة، كما قال الشاعر:

وكـنّا كَنَدْمانَيْ جذيمةَ حِقْبَةً   من الدهر حتّى قيل لن يتصدّعا[٦]

(١ و٢) تفسير الطبري ١٢: ٤٠٢. (٣) في الخطّية: أُزيلت. (٤) تفسير الطبري ١٢: ٤٠٢.
(٥) الكهف: ٦٠. (٦) الكامل ٣: ١٣٩١، تفسير الطبري ١٢: ٤٠٤.

وإنّما قال: ﴿لابثين فيها احقاباً﴾ مع أنّهم مخلدون مؤبّدون لأمرين: أحدهما: أحقابا لا انقضاء لها إلّا أنّه حذف للعلم بحال أهل النار من الكفّار بإجماع الأُمّة عليه وآيات دالّة عليه و ﴿لابثين فيها أحقاباً لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً إلّا حميماً وغساقاً﴾ ثمّ يعذّبون بعد ذلك بضرب آخر كالزقّوم والزمهرير ونحوه من أصناف العذاب. ومن قرأ ﴿لبثين﴾ بلا ألف استشهد في تعدّي «فعل» بقول الشاعر:

أو مِسْحَل شَبِحٍ عِضَادَةَ مَسْحَجٍ بِسَراتِها نَدَب له وكلُوم[١]

وقال ابن عبّاس: الحقب ثمانون سنة. وقال الحسن: سبعون سنة. وقال قوم: هو أكثر من ذلك[٢].

وقوله: ﴿لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً﴾ قال أبو عبيدة: البرد هاهنا النوم، قال الكندي:

فيصدّني عنها وعن قُبْلَتها البردُ[٣]

أي النوم، فكأنّهم لا ينامون من شدّة ما هم فيه من العذاب، ولا يجدون شراباً يشربوه ﴿إلّا حميماً وغسّاقاً﴾ فالحميم: الحارّ الشديد الحرارة. و«الغسّاق» صديد أهل النار، في قول إبراهيم وقتادة وعطيّة وعكرمة. يقال: غسقت القرحة غسقاً إذا سال صديدها، وكذلك الجروح، ومنه قوله: ﴿ومن شرّ غاسق إذا وقب﴾ و«الغاسق» الليل إذا لبس الأشياء بظلمته. كأنّه يسيل عليه بظلامه. وقال الحسن: الجنّة والنار مخلوقتان في الأيّام الستّة الأُول، وهي الجنّة الّتي سكنها آدم، وهي الجنّة الّتي يسكنها

(١) ديوان لَبيد بن ربيعة: ١٨٥، فيه: مسحل سَنِقٍ، تفسير الطبري ١٢: ٤٠٣.
(٢) النكت والعيون ٦: ١٨٦.
(٣) مجاز القرآن ٢: ٢٨٢، تفسير الطبري ١٢: ٤٠٦، الكشف والبيان ١٠: ١١٧.

المتّقون في الآخرة. ثمّ يفنيها الله لهلاك الخلائق. ثمّ يعيدها، فلا يفنيها أبداً. وقال قوم: هما مخلوقتان، ولا يفنيهما الله. وقال آخرون: هما غير مخلوقتين. والجنّة الّتي كان فيها جنّة أُخرى ليست جنّة الخلد.

وقوله: ﴿جزاء وفاقاً﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد والربيع وقتادة: معناه: وافق الجزاء أعمالهم. فالوفاق: الجاري على المقدار، فالجزاء وفاق لأنّه جار على مقدار الأعمال في الاستحقاق، وذلك أنّه يستحقّ على الكفر أعظم ممّا يستحقّ على الفسق الّذي ليس بكفر، ويستحقّ على الفسق أعظم ممّا يستحقّ على الذنب الصغير.

وقوله: ﴿إنّهم كانوا لا يرجون حساباً﴾ معناه: أنّا فعلنا بهؤلاء الكفّار ما وصفناه من أنواع العذاب لأنّهم كانوا لا يرجون المجازاة على الأعمال ولا يتوقّعون، في قول الحسن وقتادة. وقيل: معناه: أنّهم كانوا لا يرجون حسن الجزاء في الحساب لتكذيبهم به، فالرجاء التوقّع لوقوع أمر يخاف ألّا يكون، فهؤلاء كان يجب عليهم أن يتوقّعوا الحساب على يقين أنّه يكون، فلم يفعلوا الواجب في هذا ولا قاربوه لاعتقادهم أنّه لا يكون، فاللوم أعظم لهم والتقريع لهم أشدّ. وقيل: معنى لا يرجون: لا يخافون[1] كما قال الهذلي:

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها وحالفها في بيت نوب عوامل[2]

في قول الحسن والقتادة وقوله: ﴿وكذّبوا بآياتنا كذّاباً﴾ معناه: جحدوا بآيات الله وحججه، ولم يصدّقوا بها. وإنّما جاء المصدر على «فعّال»

---

(١) تفسير الطبري ١٢: ٤٠٩.

(٢) مرّ في ٣: ٣١٤، ٥: ٦٩، معاني القرآن ١: ٢٨٦، العين: ٣٠٥ مادّة «جا»

للمبالغة مع إجرائه على نظيره الّذي يطّرد قبل آخره ألف نحو الانطلاق والاقتدار والاستخراج والقتال والكرام، والمصدر الجاري على فعل التفعيل نحو التكذيب والتحسين والتقديم، وقد خرج التفعيل عن النظير لما تضمّن من معنى التكثير، كما خرج التفاعل والمفاعلة للزيادة على أقلّ الفعل، فإنّه من اثنين. ومثل كذاب، حملته حمالاً وحرقته حراقاً.

وقوله: ﴿وكلّ شيء أحصيناه كتاباً﴾ معناه: وأحصينا كلّ شيء أحصيناه في كتاب، فلمّا حذف حرف الجرّ نصبه. وقيل: إنّما نصبه لأنّ في أحصيناه معنى كتبناه، فكأنّه قال كتبناه كتاباً[١] ومثل كذّبته كذّاباً قصيته قصّاء، قال الشاعر:

لقد طال ما لبثني عن صحابتي ... وعن حِوجَ قضّاؤها من شقائيا[٢]

والوجه في إحصاء الأشياء في الكتاب ما فيه من الاعتبار للملائكة بموافقة ما يحدث لما تقدّم به الإثبات، مع أنّ تصوّر ذلك يقتضي الاستكثار من الخير والاجتهاد فيه، كما يقتضي إذا قيل للإنسان ما يعمله فإنّه يكتب لك وعليك.

وقوله: ﴿فذوقوا﴾ أي يقال لهؤلاء الكفّار: ذوقوا ما كنتم فيه من العذاب ﴿فلن نزيدكم إلّا عذاباً﴾ لأنّ كلّ عذاب يأتي بعد الوقت الأوّل فهو زائد عليه.

قوله تعالى:

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ

(١) معاني القرآن ٥: ٢٧٤.
(٢) تفسير الطبري ١٣: ٤٠٩، معاني القرآن ٣: ٢٢٩.

وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَـٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾ إحدى عشرة آية في البصري، وعشر آيات عند الباقين.

[أقول:][1] قرأ ﴿ولا كذاباً﴾ خفيفاً الكسائي ﴿ربّ السموات﴾ بالرفع حجازي وأبو عمرو[2] و﴿الرحمن﴾ جرّاً عن عاصم وابن عامر ويعقوب وسهل.

لمّا ذكر الله تعالى حال الكفّار وما أعدّه لهم من أنواع العقاب ذكر ما للمؤمنين المتّقين لمعاصي الله تعالى، فقال: ﴿إنّ للمتّقين﴾ الّذين يتّقون عقاب الله باجتناب معاصيه وفعل طاعته ﴿مفازاً﴾ وهو موضع الفوز بخلوص الملاذّ. وأصل الفوز النجاة إلى حال السلامة والسرور، ومنه قيل للمهلكة: مفازة على وجه التفاؤل، لأنّه قيل منجاة. وقيل: مفازاً منجى إلى متنزّه[3].

ثمّ بيّن ذلك فقال: ﴿حدائق وأعناباً﴾ فالحدائق: جمع حديقة، وهي البستان المحوّط، ومنه أحدق به حائطه. و«الحديقة» الجنّة المحوَّطة، ومنه أحدق القوم بفلان إذا أطافوا به، وسمّيت الحدقة حدقة لما يحيط بها من جفنها. و«الأعناب» جمع عنب، وهو ثمر الكرم قبل أن يجفّ فإذا جفّ فهو الزبيب، ونظيره الرطب ثمر النخل قبل أن يتمر فإذا أتمر زال عنه اسم الرطب.

---

(١) من الحجريّة. (٢) في الحجريّة: محارب و أبوبكر و. (٣) تفسير الطبري ١٢: ٤١٠.

وقوله: ﴿وكواعب أتراباً﴾ قال ابن عبّاس: «الكواعب» النواهد، والكاعب الجارية قد نهد ثدياها، يقال: كعب ثدي الجارية ونهد إذا ابتدأ بخروج حَسَن. و«الأتراب» جمع ترب، وهي اللِدَة الّتي تنشأ مع لِدتها على سنّ الصبيّ الّذي يلعب بالتراب فكأنّه قيل: هم على سنّ واحدة. قال قتادة: أتراباً يعني: في سنّ واحدة.

وقوله: ﴿وكأساً دهاقاً﴾ فالكأس: الإناء إذا كان فيه شراب. وقيل «الكاس» إناء الخمر الّذي يشرب منه، قال الشاعر:

يلذّه بكأسه الدهاق[1]

فإن لم يكن فيه الخمر لم يسمّ كأساً. و«الدهاق» ملأى بشدّة الضغط، و«الدهق» شدّة الضغط في الكأس ملاى مترعة ليس فيها فرجة ليستوفي حال اللذّة. وقال قتادة: دهاقاً مترعة. وقال مجاهد: معناه: متتابعة على شاربها مأخوذ من متابعة الشدّ في الدهن.

وقوله: ﴿لا يسمعون فيها لغواً﴾ أي لا يسمعون في الجنّة كلاماً لا فائدة فيه ﴿ولا كذّاباً﴾ أي ولا تكذيب بعضهم لبعض. ومن قرأ ﴿كذاباً﴾ بالتخفيف أراد مصدر كاذبه مكاذبة، وكذاباً قال الشاعر:

فصَدَقتها وكَذَبتُها ... والمرء ينفعه كِذابه[2]

وقال الفرّاء: قال أعرابي في طريق مكّة: يا ربّ القصار أحبّ إليك أم الحلق، يريد أُقصّر شعري أم أحلق.

وقوله: ﴿جزاء من ربّك عطاء حساباً﴾ أي فعلنا بالمؤمنين المتّقين

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٧٥، معجم تهذيب اللغة ٢: ١٢٤٣ مادّة «دهق».

(٢) تفسير الطبري ١٢: ٤١٣، معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٧٤، مجاز القرآن ٢: ٣٨٣.

ما فعلنا جزاء على تصديقهم بالله ونبيّه، فالجزاء إعطاء المستحقّ بعمل الطاعة أو المعصية.

وقوله: ﴿عطاء حساباً﴾ أي بحساب العمل كلّ إنسان على قدر عمله من النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين، ثمّ سائر أخيار المؤمنين، وعند الله المزيد. وقيل: معناه: عطاء كافياً من قولهم: أعطاني ما أحسبني أي كفاني، وحسبك أي اكتف، وحسبي الله أي كفاني الله[١]. وقال الحسن: معناه أنّه أعطاهم ذلك محاسبة.

وقوله: ﴿ربّ السماوات والأرض﴾ من رفع استأنف الكلام وجعله مبتدأ. وقوله: ﴿الرحمن﴾ خبره، ومن جرّه ردّه على قوله: ﴿من ربّك... ربّ السماوات﴾ وجعل ﴿الرحمن﴾ جرّاً بأنّه نعته. ومن رفع الرحمن وجرّ الأوّل قطعه عن الأوّل، وتقديره: هو الرحمن. والمعنى: أنّ الّذي يفعل بالمؤمنين ما تقدّم ذكره هو الله رب السماوات والأرض ومدبّرهما، ومدبّر ما بينهما، والمتصرّف لهما على ما يريده...[٢] في جميع خلقه مؤمنهم وكافرهم ﴿لا يملكون منه خطاباً﴾ ومعناه: لا يملكون أن يسألوا إلّا فيما أذن لهم فيه، كما قال: ﴿لا يشفعون إلّا لمن ارتضى﴾[٣] وفي ذلك أتمّ التحذير من الاتّكال. و«الخطاب» توجيه الكلام إلى مدرك بصيغة مبيّنة [كاشفة] عن المراد بخلاف صيغة الغائب عن الإدراك على طريقة أنت وبك. والإضمار على ثلاثة أضرب: إضمار المتكلّم، وإضمار المخاطب وإضمار الغائب.

وقوله: ﴿يوم يقوم الروح والملائكة﴾ معناه: اذكر يوم يقوم الروح، قال

(١) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٧٥.
(٢) كلمتان غير مقروئتان في الخطّية.
(٣) الأنبياء: ٢٨.

الضحّاك والشعبي: الروح هو جبرئيل عليه السلام وقال ابن مسعود وابن عبّاس: هو ملك من أعظم الملائكة خلقاً، وهو المرويّ في أخبارنا[١]. وقال الحسن وقتادة: الروح بنو آدم. وقال ابن عبّاس: أرواح بني آدم مع الملائكة فيما بين النفختين قبل ردّ الأرواح إلى الأجساد.

وقوله: ﴿والملائكة صفّاً [لا يتكلّمون﴾] أي مصطفّين لا يتكلّم أحد بشيء ﴿إلّا من [أذن له الرحمن﴾ أي] أذن الله له في الكلام ﴿وقال صواباً﴾ من القول. و«الصواب» موافقة الغرض الحِكَمي كأنّه إصابة ذلك الغرض الّذي تدعو إليه الحكمة. ونقيضه الخطأ، وهو مخالفة الغرض الحِكَمي. ولمّا كانت الحكمة قد تدعو إلى أمر بأوكد ممّا تدعو إلى أمر، كدعائها إلى الفعل الأصلح، والفعل الأدون، صحّ أنّ صواباً أصوب من صواب.

ثمّ قال: ﴿ذلك اليوم﴾ يعني: اليوم الّذي وصفه وأخبر عنه هو ﴿الحقّ﴾ الّذي لا شكّ في كونه وحصوله.

وقوله: ﴿فمن شاء اتّخذ إلى ربّه مآباً﴾ فيه دلالة على أنّ العباد قادرون على اتّخاذ المآب وتركه. وإنّما قال: ﴿فمن شاء اتّخذ﴾ لأنّه قادر عليه ومُزاح العلّة فيه . والمآب الموضع، وهو «مفعل» من آب يؤب أوباً. وقال سفيان: معناه: مرجعاً. قال عبيد:

وكلّ ذي غيبة يؤوب وغائب الموت لا يؤوب[٢]

وقوله: ﴿إنّا أنذرناكم عذابا قريباً﴾ معناه: الإخبار من الله تعالى أنّه خوّف عباده وأعلمهم المواضع الّتي ينبغي أن يحذروها.

---

(١) تفسير القمّي ٢: ٤٠٢.

(٢) تفسير الطبري ٨: ٦٦، ديوان عَبيد بن الأبرص: ٢٦.

ثمّ بيّن ما يكون بعد ذلك فقال: ﴿يوم ينظر المرء ما قدّمت يداه﴾ ومعناه: ينتظر جزاء ما قدّمه، فإن قدّم طاعة انتظر الثواب، وإن قدّم معصية انتظر العقاب ﴿ويقول الكافر﴾ في ذلك اليوم ﴿يا ليتني [كنت تراباً﴾] أي يتمنّى أن لو كان تراباً لا يعاد ولا يحاسب ليتخلّص من عقاب ذلك اليوم، لأنّه ليس معه شيء يرجوه من الثواب. وقيل: إنّ الله يحشر البهائم وينتصف للجَمّاء من القَرْناء فإذا أنصف بينها جعلها تراباً فيتمنّى الكافر عند ذلك لو كان مثل أُولئك تراباً[1]. وقيل: هو مثل قوله: ﴿يا ليتني لم أُوت كتابيه﴾[2].

---

(١) تفسير الطبري ١٢: ٤١٨.

(٢) الحاقّة: ٢٥، معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٧٦، تفسير السمرقندي ٣: ٥٤٠.

سورة النازعات

مكّية في قول ابن عبّاس والضحّاك، وهي ستّ وأربعون آية في الكوفي [وخمس وأربعون] في البصري والمدنيّين.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى:

وَٱلنَّـٰزِعَـٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّـٰشِطَـٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَٱلسَّـٰبِحَـٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّـٰبِقَـٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ أربع عشرة آية.

[أقول:][1] قرأ أهل الكوفة إلّا حفصاً ﴿عظاماً ناخرة﴾ بألف، الباقون ﴿نخرة﴾ بلا ألف. من قرأ ﴿ناخرة﴾ اتبع رؤس الآي نحو ﴿الساهرة﴾ و﴿الحافرة﴾ ومن قرأ نخرة ـ بلا ألف ـ قال لأنّه الأكثر في كلام العرب، ولما روي عن عليّ عليه السلام أنّه قرأ ﴿نخرة﴾ وقال النحويّون: هما لغتان مثل

(١) من الحجريّة.

باخل وبخل، وطامع وطمع. وقال الفرّاء: «النخرة» البالية و«الناخرة» المجوّفة[١].

وقوله: ﴿والنازعات﴾ قسم من الله تعالى بهذه الأشياء الّتي عدّدها. وقال قوم: تقديره وربّ النازعات وما ذكر بعدها، لأنّه لا يجوز اليمين إلّا بالله تعالى. وهو ترك الظاهر. وقد روينا عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام أنّ لله تعالى أن يقسم بما يشاء من خلقه، وليس لخلقه أن يقسموا إلّا به[٢]. وإنّما كان كذلك، لأنّه من باب المصالح الّتي يجوز أن تختلف به العبادات، وإنّما جاز أن يقسم هو تعالى بما شاء من خلقه، للتنبيه على موضع العبرة فيه، إذ القسم يدلّ على عِظَم شأن المقسم به. ومعنى ﴿النازعات﴾ الملائكة تنزع الأرواح من الأبدان. فالنازعات: الجاذبات للشيء من أعماق ما هو فيه. وقال الحسن وقتادة: هي النجوم، أي تنزع من أُفق السماء إلى أُفق آخر. وقال عطاء: هي القسيّ تنزع بالسهم. وقال السدّي: هي النفوس تنزع بالخروج من البدن.

وقوله: ﴿غرقاً﴾ معناه: إغراقاً، أي إبعاداً في النزع.

وقوله: ﴿والناشطات نشطاً﴾ قيل: هي الخارجات من بلد إلى بلد بعيد الأقطار ينشط كما ينشط الوحش بالخروج من بلد إلى بلد. والهموم تنشط بصاحبها، أي تخرج به من حال إلى حال، قال هيبان بن قحّافة:

أمستْ همومي تنشط المناشطا ‌ ‌ ‌ الشام طوراً ثمّ طوراً واسطاً[٣]

وقال ابن عبّاس: هي الملائكة أي تنشط بأمر الله إلى حيث كان. وقال

---

(١) معاني القرآن ٣: ٢٣١ ـ ٢٣٢. ‌ ‌ (٢) راجع الكافي ٧: ١/٤٤٩.

(٣) مجاز القرآن ٢: ٢٨٤، تفسير الطبري ١٢: ٤٢٣ فيهما: هميان بن قحافة.

قوم: هو ملك الموت ينشط روحه من خلقه. وقال قوم: هي النجوم تنشط من المشرق إلى المغرب. وقال عطاء: هي الوحش تنشط من بلد[1] إلى بلد قال رؤية:

تنشّط منها كلّ مِغْلاةَ الوَهَق[2]

يعني: بقر الوحش. قال الفرّاء: تنشط نفس المؤمن كما ينشط العقال من يد البعير. قال ابن خالويه: وأكثر ما سمعته أنشطته بالألف، قالوا: كأنّه أُنشط من عقال. فإذا شددت الحبل في يد البعير قلت: نشطته، وإذا حللته قلت: أنشطته[3].

وقوله: ﴿والسابحات سبحاً﴾ معناه: المارّات بغوص معظمها في المائع وقد يكون ذلك في الماء وقد يكون فيما جرى مجراه، وذلك كسبح دود الخلّ، وقد يكون السبح في الهواء تشبيهاً بالماء. وقال مجاهد: السابحات الملائكة، لأنّها تسبح في نزولها بأمر الله كما يقال: الفرس يسبح في جريه إذا أسرع. وقال قتادة: هي النجوم أي تسبح في فلكها. وقال عطاء: هي السفن. وقال قوم: هو ملك الموت يقبض روح المؤمن وحده سهلاً سرحاً كالسابح في الماء[4].

وقوله: ﴿فالسابقات سبقاً﴾ يعني: الكائنات قبل غيرها على معنى صفة من الصفات. وقال مجاهد: هي الملائكة، لأنّها سبقت إلى طاعة الله. وقال قوم: لأنّها تسبق الشياطين إلى الوحي[5]. وقال عطاء: هي الخيل السابقة. وقيل: هي النجوم ـ ذكره قتادة ـ أي يسبق بعضها بعضاً في السير.

---

(١) النكت والعيون ٦: ١٩٣.

(٢) تفسير الطبري ١٢: ٤٢٣، معجم تهذيب اللغة ٤: ٣٥٧٥.

(٣) معاني القرآن ٣: ٢٣٠. (٤) الكشف والبيان ١٠: ١٢٣. (٥) معاني القرآن ٣: ٢٣٠.

وقوله: ﴿فالمدبّرات أمراً﴾ قال ابن عبّاس وقتادة وعطاء بن السائب: هي الملائكة تدبّر الأشياء بأمر الله. وقيل: تدبير الملائكة في ما وكّلت به من الرياح والأمطار ونحو ذلك من الأُمور[1]. وجواب القسم محذوف، كأنّه قال: لتبعثنّ للجزاء والحساب.

ثمّ بيّن أيّ وقت يكون الجزاء والثواب والعقاب، فقال: ﴿يوم ترجف الراجفة﴾ فالرجف: حركة الشيء من تحت غيره بترديد واضطراب، وهي الزلزلة العظيمة رجف يرجف رَجْفاً ورجفاً ورُجوفاً. وأرجفوا إذا أزعجوا الناس باضطراب الأُمور، كما ينزعج الّذي يرجف ما تحته، ومنه الرجفة وهي الزعزعة الشديدة من تحت ما كان من الحيوان. وقيل: إنّ الأرض مع الجبال تتزعزع[2].

وقوله: ﴿تتبعها الرادفة﴾ ومعناه: تتبع الراجفة الرادفة أي تجيء بعدها، وهي الكائنة بعد الأوّل في موضع الردف من الراكب، ردفهم الأمر رَدْفاً فهو رادف، وارتدف الراكب إذا اتّخذ رديفاً. وقال الحسن وقتادة: هما النفختان: أمّا الأُولى فتميت الأحياء، وأمّا الثانية فتحي الموتى بإذن الله.

وقوله: ﴿قلوب يومئذ واجفة﴾ أي كائنة على الانزعاج والاضطراب، وجَفَتْ تَجف وَجْفاً ووجيفاً وأوجف في السير إذا أزعج الركاب فيه. وقال ابن عبّاس: معنى ﴿واجفة﴾ أي خائفة.

وقوله: ﴿أبصارها خاشعة﴾ أي خاضعة ذليلة من هول ذلك اليوم، قال الشاعر:

لمّا اتى خبر الزبير تهدّمت　　　سُور المدينة والجبال الخُشَّع[3]

---

(١) النكت والعيون ٦: ١٩٤.
(٢) تفسير الطبري ١٢: ٤٢٥.
(٣) الكامل ٢: ٦٦٩، ديوان جرير: ٢٧٠.

وقوله: ﴿يقولون أإنّا لمردودون في الحافرة﴾ حكاية عمّا قاله الكافرون المنكرون للبعث والنشور، فإنّهم ينكرون النشر ويتعجّبون من ذلك، ويقولون على وجه الإنكار: أئنّا لمردودون في الحافرة. وقيل: «حافرة» بمعنى محفورة، مثل ﴿ماء دافق﴾[1] بمعنى مدفوق. وقال ابن عبّاس والسدّي: الحافرة الحياة الثانية. وقيل: الحافرة الأرض المحفورة. أي نردّ في قبورنا بعد موتنا أحياء ؟ ! قال الشاعر:

أحافرة على صَلَع وشَيْب معاذ الله من جهل وطيش[2]

فالحافرة: الكائنة على حفر أوّل الكرّة يقال: رجع في حافرته إذا رجع من حيث جاء، وذلك كرجوع القهقرى، فردّوا في الحافرة أي ردّوا كما كانوا أوّل مرّة. ويقال: رجع فلان على حافرته أي من حين جاء. وقولهم: النقد عند الحافرة معناه: إذا قال بعتك رجعت عليه بالثمن. وقال قوم: معناه النقد عند حافر الدابّة.

وقوله: ﴿فإنّما هي زجرة واحدة﴾ أي النفخة الثانية.

﴿فإذا هم بالساهرة﴾ أي على وجه الأرض، فالعرب تسمّي وجه الأرض من الفلاة ساهرة أي ذات سهر لأنّه يسهر فيها خوفاً، قال اُميّة بن أبي الصلت:

وفيها لحم ساهرة وبحر وما فاهوا به لهم مقيم[3]

وقال آخر:

---

(١) الطارق: ٦.

(٢) تفسير الطبري ١٢: ٤٢٧، معجم تهذيب اللغة ١: ٨٦٣ مادّة «حفر» مع اختلاف.

(٣) مجاز القرآن ٢: ٢٨٥، معاني القرآن ٣: ٢٣٢.

فإنّما قصرك تُرْب الساهرة ثمّ تعود بعدها في الحافرة
من بعد ما كانت عظاماً ناخرة[١]

وقال الحسن وقتادة ومجاهد والضحّاك: «الساهرة» وجه الأرض. وقال قوم ﴿بالساهرة﴾ أي من بطن الأرض إلى ظهرها[٢]. وقالوا أيضاً منكرين للبعث ﴿أئذا كنّا عظاماً نخرة﴾ نردّ ونبعث. و«العظام» جمع عظم، وهي مأخوذة من العظم، وذلك لعظم صلابتها وعظمها في نفسها. و«النخرة» البالية بما حدث فيها من التغيير واختلال البنية، جذع نخر إذا كان بهذه الصفة، وإذا لم تختلّ بنيته لم يكن نخراً وإن بلي بالوهن والضعف[٣] وقيل: ناخرة مجوفة ينخر الرياح فيها بالمرور في جوفها[٤]. وقيل: ناخرة ونخرة سواء، مثل ناخل ونخل، ونخرة أوضح في المعنى، وناخرة أشكل بروؤس الآي. وقيل: «نخرة» بالية مجوفة بالبلى[٥].

ثمّ حكى أيضاً ما قالوه، فإنّهم ﴿قالوا تلك إذاً كرّة خاسرة﴾ فالكرّة المرّة من المرّ وهي الواحدة من الكرّ، كرّ يكرّ كرّة، وهي كالضربة الواحدة من الضرب. و«الخاسر» الذاهب رأس ماله فتلك الكرّة كأنّه قد ذهب رأس المال منها، فذلك الخسران. وإنّما قالوا: ﴿كرّة خاسرة﴾ أي لا يجيء منها شيء كالخسران الّذي لا يجيء منه فائدة. وكأنّهم قالوا: هو كالخسران بذهاب رأس المال، فلا يجيء به تجارة، فلذلك لا يجيء بتلك الكرّة حياة. وقيل: معنا ﴿تلك إذاً كرّة خاسرة﴾ على ما تعدنا من العذاب[٦]. وقال

(١) تفسير الطبري ١٢: ٤٢٩، النكت والعيون ٦: ١٩٦. (٢) الكشف والبيان ١٠: ١٢٦.
(٣) في الحجريّة: الوهي. (٤) معاني القرآن ٣: ٢٣٢، النكت والعيون ٦: ١٩٥.
(٥) راجع تفسير الطبري ١٢: ٤٢٨. (٦) راجع النكت والعيون ٦: ١٩٦.

الحسن: معناه كاذبة ليست كائنة.

قوله تعالى:

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾

إحدى عشرة آية.

[أقول:](١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع ﴿طوى اذهب﴾ غير منوّنة. الباقون ﴿طوى اذهب﴾ منوّنة. وقرأ نافع «تزكّى» مشدّدة الزاي بمعنى تتزكّى، فادغم التاء في الزاي. الباقون خفيفة الزاي، فحذفت إحدى التاءين. قال أبو عمرو: يقال: تزّكّى مشدّداً إذا أردت تتصدّق، ولم يدع موسى فرعون إلى أن يتصدّق، وهو كافر. وإنّما قال له هل لك أن تصير زاكياً، قال: فالتخفيف هو الاختيار(٢). ومن نوّن ﴿طوى﴾ جعله اسم واد، ومن لم ينوّن جعله اسم الأرض، لأنّه معدول من «طاو» . ومن كسر الطاء قال: قدس مرّتين، وتبيّن فيه البركة مرّتين، مثل ثنى وعدى.

هذا خطاب من الله تعالى لنبيّه محمّدﷺ يقول له: ﴿وهل اتاك﴾ يا محمّد ﴿حديث موسى﴾ فلفظه لفظ الاستفهام والمراد به التقرير ﴿إذ ناداه ربّه﴾ أي حين ناداه الله ﴿بالواد المقدّس طوى﴾ فالنداء: الدعاء على طريقة يا فلان، و«الندا» مدّ الصوت بندائه، فمعنى ﴿ناداه﴾ قال له: يا موسى. ثمّ أمره بالذهاب إلى فرعون الطاغي. و(الوادي المقدّس) يعني: المطهّر

---

(١) من الحجريّة. (٢) راجع تفسير الطبري ١٢: ٤٣٢.

و﴿طوى﴾ قال مجاهد وقتادة: وادٍ، وقيل طوى التقديس. وقرأ الحسن ﴿طِوى﴾ بكسر الطاء. وقيل طوي بالبركة والتقديس بندائه مرّتين، قال طرفة بن العبد:

أعاذل إنّ اللوم في غير كُنْهه   عليَّ طوى من غيّك المتردّد[١]

أي اللوم المكرّر. و﴿طوى﴾ غير مصروف، لأنّه اسم البقعة من الوادي وهو معرفة، ويجوز أن يكون معدولاً من «طاوى» في قول الزجّاج[٢].

وقوله: ﴿[اذهب إلى فرعون] إنّه طغى﴾ إخبار من الله ـ عزّ وجلّ ـ عن حال فرعون بأنّه طغى، ومعناه تجاوز الحدّ في الاستعلاء، والتمرّد والفساد، يقال طغى يطغى طغياناً فهو طاغ. ونظيره البغي، بغى على الناس يبغي بغياً فهو باغ وهم البغاة والطغاة. ونظير الطغيان العدوان، وهو المجاوزة لحدّ الصغيرة، وكلّ من طغى فقد عتا واعتدى.

ثمّ ذكر ما أمره أن يقول له، بأن قال: ﴿فقل هل لك إلى أن تزكّى﴾ أي ادعوه إلى الله وطريق الجنّة. وقل على وجه التلطّف في الكلام ﴿هل لك إلى أن تزكّى﴾ وتطهّر من المعاصي، فالتزكّي طلب الطالب أن يصير زاكياً، تزكّى يتزكّى تزكّياً، و«الزاكي» النامي في الخير، و«الزكاء» النماء[٣] في الخير، ولو نما في الشرّ لم يكن زاكياً.

﴿وأهديك إلى ربّك فتخشى﴾ معناه: وأهديك إلى طريق الحقّ الّذي إذا سلكته وصلت إلى رضى الله وثوابه، فالهداية: الدلالة على طريق الرشد من الغيّ. وقد يكون دلالة على معنى ليس برشد ولا غيّ كالدلالة على

(١) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٧٩، مجاز القرآن ٢: ٢٨٥، تفسير الطبري ٨: ٣٩٨.
(٢) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٧٩.
(٣) في الخطّية: النموّ.

الحركة فقط. وقوله: ﴿فتخشى﴾ فالخشية: توقّع المضرّة من غير قطع بها لا محالة. والخشية والخوف والتقيّة نظائر، يقال: خشي يخشى خشية، فهو خاش، وذاك مخشيّ. وفي الكلام حذف وتقديره فأتاه فدعاه ﴿فأراه الآية الكبرى﴾.

وقوله: ﴿فكذّب وعصى﴾ حكاية عن فرعون أنّه كذّب موسى في ما دعاه إليه وجحد نبوّته وعصاه في ما أمره به من طاعة الله ﴿ثمّ أدبر يسعى﴾ أي[1] ولّى فرعون الدبر بعد ذلك، فالإدبار تولية الدبر، ونقيضه الإقبال. وأقبل فلان إذا استقامت له الأُمور على المثل، أي هو كالمقبل إلى الخير. وأدبر فلان إذا اضطربت عليه حاله، ففرعون ولّى الدبر ليطلب ما يكسر به حجّة موسى عليه السلام في الآية الكبرى، وهي المعجزة العظيمة، فما ازداد إلّا غواية، لأنّه لا يقاوم الضلال الحقّ.

وقوله: ﴿ثمّ أدبر يسعى﴾ فالسعي: الإسراع في المشي، وفي إدباره يسعى في هذه الحال دليل على خوفه. وقيل: إنّه لمّا رأى العصا انقلبت حيّة في عظمها خاف منه، فأدبر يسعى[2].

وقوله: ﴿فحشر فنادى﴾ فالحشر: الجمع من كلّ جهة، وقد يكون الجمع بضمّ جزء إلى جزء، فلا يكون حشراً. فإذا جمع الناس من كلّ وجه، فذلك الحشر، ولهذا سمّي يوم الحشر. و«الحاشر» الّذي يجمع الناس من كلّ جهة إلى الخراج.

وإنّما طلب السحرة، فلمّا اجتمعوا ناداهم فقال لهم: ﴿أنا ربّكم الأعلى﴾ فالأعلى: المختصّ بعلوّ معنى صفته على غيره ممّا لا يناله بكيد وينال هو

---

(١) في الخطّيّة: يعني.

(٢) راجع تفسير الطبري ١٢: ٤٣٣.

به، ومن هذا خرج العلو إلى التعظيم، ولم يكن مثل ذلك في جهة من الجهات، وكأنّه قال: أنا الّذي أنال بالضرر مَن شئتُ ولا ينالني غيري. وكذب ـ لعنه الله ـ إنّما هذه صفة الّذي خلقه وخلق جميع الخلق. ومعنى «نادى» هاهنا قال: يا معشر الناس أنا ربّكم الأعلى، إذ نادى بهذا القول. وقيل: كلمته الأُولى: ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾(١) وقوله الآخر هذا: ﴿أنا ربّكم الأعلى﴾ ذكره ابن عبّاس ومجاهد والشعبي والضحّاك.

ثمّ حكى تعالى ما عامله به من العقاب فقال: ﴿فأخذه الله نكال الآخرة والأُولى﴾ فالنكال: عقاب ينكل به عن الإقدام على سببه بشدّته، نكّل به تنكيلاً إذا شوّه به في عقابه بما يكون زاجراً لغيره عن مثل حدية(٢) أشدّ الزجر الّذي يزعج النفس. وقال الحسن وقتادة: معناه: عذاب الدنيا وعذاب الآخرة. وقال مجاهد: أوّل عمله وآخره. وقال بعضهم: نكاله فِعْلته الأُولى، وهو قوله: ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾(٣) وفِعْلته الأخيرة هو قوله: ﴿أنا ربّكم الأعلى﴾ وقال قوم: معناه: نكال الدنيا بالغرق ونكال الآخرة ما صار إليه بعد الموت من العقاب(٤). وقال الحسن ﴿الآية الكبرى﴾ اليد البيضاء. وقال غيره: قلب العصا حيّة.

قوله تعالى:

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَـٰعًا لَّكُمْ

(١ و٣) القصص: ٣٨. (٢) في الخطّية: جرته كلاهما غير معلومان.

(٤) راجع النكت والعيون ٦: ١٩٨.

وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ﴿٣٣﴾﴾ ثمان آيات.

[أقول:][١] يقول الله تعالى بعد ما ذكر ما تقدّم من قصّة موسى وفرعون وما فعله الله بقوم فرعون من الإهلاك والدمار ﴿إنّ في ذلك لعبرة﴾ يعني: فيما قصّه وأخبر به دلالة يمكن أن يعتبر بها العامل العاقل، فيعرف الحقّ ويميّز بينه وبين الباطل، يقال: اعتبرته اعتباراً وعبرة ، ومنه العبارة لأنّـه يعبر بالمعنى فيها إلى نفس المخاطب للإفهام، ومنه عـبور النـهر وتـعبير الرؤيا بإخراج ما فيها بعبورها المعنى إلى النفس السائلة عنها.

وقوله: ﴿لمن يخشى﴾ إنّما خصّ من يخشى بالعبرة، لأنّه الّذي يعتبر بها وينتفع بالنظر فيها دون الكافر الّذي لا يخشى عذاب الله، كـما قـال: ﴿هدى للمتّقين﴾[٢].

ثمّ خاطب الكفّار الجاحدين لله تعالى على وجه التبكيت لهم والتوبيخ ﴿أأنتم أشدّ خلقاً﴾ ومعناه: أأنتم أشدّ أمراً بصغر[٣] حالكم ﴿أم السماء﴾ في عظم جرمها وشأنها[٤] في وقوفها وسائر نجومها وأفلاكـها. قـال بـعض النحويّين: ﴿بناها﴾ من صلة السماء. والمعنى: أم الّتي بناها. وقال آخرون ﴿السماء﴾ ليس ممّا يوصل، و[لكنّ] المعنى: أنتم أشدّ خلقاً أم السماء أشدّ خلقاً. ثمّ بيّن كيف خلقها فقال: ﴿بناها﴾ والله تعالى لا يكبر عـليه خـلق شيء أشدّ من خلق غيره، وإنّما أراد أنتم أشدّ خلقاً عندكم وفي ظنّكم مع صغركم أم السماء مع عظمها وشدّة إحكامها؟

وبيّن أنّه تعالى بنى السماء و ﴿رفع سمكها﴾ يعني: ارتفاعها، فالسمك مقابل للعمق، وهو ذهاب الجسم بالتأليف في جهة العلو، وبالعكس مـنه

---

(١) من الحجريّة.
(٢) البقرة: ٢.
(٣) في الخطّية: بصغرية.
(٤) في الخطّية: بنيانها.

العمق. و«الطول» ذهاب الجسم في جهة الطول. والعرض ذهابه في جهة العرض، وهو بالإضافة إلى ما يضاف إليه.

وقوله: ﴿فسوّاها﴾ فالتسوية: جعل أحد الشيئين على مقدار الآخر على نفسه أو في حكمه، وكلّ ما جعل في حقّه على ترتيبه مع غيره فقد سوّي، فلمّا كان كلّ شيء من السماء مجعولاً في صفة[١] على ترتيبه مع غيره كانت قد سوّيت على هذا الوجه.

وقوله: ﴿وأغطش ليلها﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد وقتادة والضحّاك وابن زيد: معناه: أظلم ليلها. وقال أبو عبيدة: كلّ أغطش لا يبصر[٢]. وقال: ليلها أضاف الظلام إلى السماء لأنّ فيها ينشأ الظلام والضياء بغروب الشمس وطلوعها على ما دبّرها الله.

وقوله: ﴿وأخرج ضحاها﴾ قال مجاهد والضحّاك: أخرج نورها.

وقوله: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ قال مجاهد والسدّي: معناه دحاها مع ذلك، كما قال: ﴿عتلّ بعد ذلك﴾[٣] أي مع ذلك. وقال ابن عبّاس: إنّ الله دحا الأرض بعد السماء، وإن كان الأرض خلقت قبل السماء. ومعنا دحاها: بسطها. دحا يدحو دحواً ودحيت أدحي دَحْياً لغتان، قال أُميّة بن أبي الصلت:

دار دحاها ثمّ أعمر بابها   وأقام بالأُخرى الّتي هي أمجد[٤]

وقال أوس بن حجر:

ينفي الحصا عن جديد الأرض مبترك
كأنّه فاحص أو لاعب داحي[٥]

---

(١) في الخطّية: حقّه. (٢) مجاز القرآن ٢: ٢٨٥. (٣) القلم: ١٣.

(٤ و٥) تفسير الطبري ١٢: ٤٣٩، معجم تهذيب اللغة ٢: ١١٥٢ مادّة «دحا».

وقوله: ﴿أخرج منها﴾ يعني: من الأرض ﴿ماءها﴾ يعني: المياه الّتي تخرج من الأرض، وفيها منافع جميع الحيوان، وبه قوام حياتهم كما قال: ﴿وجعلنا من الماء كلّ شيء حيّ﴾[1] ﴿ومرعاها﴾ أي وأخرج المرعى من الأرض، وهو النبات الّذي يصلح أن ترعاه الماشية، فهي ترعاه بأن تأكله في موضعه، رَعَت ترعى رَعْياً ومرعى، وسمّي النبات الّذي يصلح أن يرعى به.

وقوله: ﴿والجبال أرساها﴾ أي وأثبت الجبال في الأرض. والإرساء: الإثبات بالثقل، فالسفينة ترسو أي تثبت بثقلها فلا تزول عن مكانها، وربّما أرست بالبحر بما يطرح لها. فأمّا الجبال فإنّها أوتاد الأرض، وأُرسيت بثقلها، وفي جعلها على الصفة الّتي هي عليها أعظم العبرة.

وقوله: ﴿متاعاً لكم ولأنعامكم﴾ أي خلقنا ما ذكرناه من الأرض وما يخرج منها من المياه والمراعي نفعاً ومتعة تنتفعون بها معاشر الناس وينتفع بها أنعامكم: الإبل والبقر والغنم، ففي الأشياء الّتي عدّدها أعظم دلالة وأوضح حجّة على توحيد الله، لأنّ الأرض مع ثقلها الّذي من شأنه أن يذهب سفلاً هي واقفة بإمساك الله تعالى، وهي على الماء. ومن شأن الماء أن يجري في المنحدر، وهي واقفة[2] بإمساك الله تعالى فقد خرجت عن طبع الثقيل، وذلك لا يقدر عليه غير القادر لنفسه الّذي يخترع الأشياء اختراعاً، دون القادر بقدرة الّذي لا يقدر أن يفعل في غيره إلّا على وجه التولية[3] بأن يعتمد عليه ، فدلّ ذلك على أنّ الفاعل لهذه الأشياء لا يشبه الأشياء ولا تشبهه. وفي إخراج الماء من الأرض عبر لا تحصى كثرة

(١) الأنبياء: ٣٠.
(٢) في الخطّية: فهو واقف.
(٣) في الخطّية: التوليد.

بما فيه من المنفعة، وما له من المادّة على موضع الحاجة، وسدّ الخلّة مع ما فيه من المنفعة والتوفيق[١] في السير إلى المكان البعيد بالسهولة، كلّ ذلك منّ الله تعالى به على خلقه وأنعم به عليهم.

وقوله: ﴿متاعاً﴾ نصب على المفعول له، وتقديره أخرج منها ماءها ومرعاها للإمتاع لكم، لأنّ معنى أخرج منها ماءها ومرعاها أمتع بذلك.

قوله تعالى:

فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ
ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ
ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ
ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ
رَبِّكَ مُنتَهَاهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا
عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾ ثلاث عشرة آية.

[أقول:][٢] قرأ أبو جعفر وعبّاس عن أبي عمرو ﴿إنّما أنت منذر من يخشاها﴾ بالتنوين. الباقون على الإضافة. والمعنى واحد. فمن نوّن جعل «من» في موضع النصب. وإنّما اختار ذلك، لأنّه جعله «منذراً» في الحال. ومن أضافه استخفّ ذلك كما استخفّ في قوله: ﴿عارضا مستقبل أوديتهم﴾[٣] والتنوين مقدّر، لأنّ المعنى: أنّه منذر في الحال وفيما بعد. ومن أضاف جعلها في موضع جرّ. و«المنذر» النبيّ صلى الله عليه وآله قال الله تعالى: ﴿إنّما أنت منذر ولكلّ قوم هاد﴾[٤] قال قوم: المنذر النبيّ صلى الله عليه وآله والهادي

(١) في الخطّية: المرفق.
(٢) من الحجريّة.
(٣) الأحقاف: ٢٤.
(٤) الرعد: ٧.

عليّ عليه السلام[(١)]. وقيل ﴿لكلّ قوم هاد﴾: داع يدعوهم إلى الحقّ[(٢)].

يقول الله تعالى مهدّداً للمكلّفين من خلقه: ﴿فإذا جاءت الطامّة الكبرى﴾ قال ابن عبّاس: «الطامّة» القيامة. وقال الحسن: «الطامّة» هي النفخة الثانية. وقيل: هي الصيحة الّتي تطمّ على كلّ شيء، وهي الصيحة الّتي يقع معها البعث والحساب والعقاب والثواب[(٣)] وقيل: هي الطامّة الغامرة الهائلة[(٤)] وفي المثل: ما من طامّة إلّا وفوقها طامّة. قال الفرّاء: يقال: تطِمّ على كلّ شيء تطُمّ[(٥)]. وقال قوم: «الطامّة» الغامرة لما يندفن بغِلَظها وكثرتها. وقيل: هي الغاشية الغليظة المجلّلة الّتي تدفن الشيء بالغِلَظ[(٦)].

ثمّ بيّن متى مجيئها فقال: ﴿يوم يتذكّر الإنسان ما سعى﴾ ومعناه: تجيء الطامّة في يوم يتذكّر الإنسان ما عمله في دار التكليف من خير أو شرّ وسعى فيه، ويعلم ما يستحقّه من ثواب وعقاب.

﴿وبرّزت الجحيم لمن يرى﴾ أي لمن يراها ويبصرها مشاهدة، فالتبريز: إظهار الشيء بمثل التكشيف الّذي يفضي إليه بالإحساس، ويقال: فلان مبرّز في الفضل إذا ظهر به أتمّ الظهور، وبارز قرنه أي ظهر إليه من بين الجماعة.

ثمّ قسّم أحوال الخلق في ذلك اليوم من العصاة والمطيعين، فقال: ﴿فأمّا من طغى﴾ بأن تجاوز الحدّ الّذي حدّه الله، وارتكب المعاصي و«الطغيان» والعصيان[(٧)] بمجاوزة الحدّ فيه إلى الإفراط فيه، فكلّ كافر طاغ بإفراطه في ظلم نفسه، وظلم النفس كظلم غيرها في التعاظم.

---

(١) شواهد التنزيل ١: ٢٩٤. (٢) راجع تفسير الطبري ٧: ٣٤١.
(٣) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٨١. (٤) الكشف والبيان ١٠: ١٢٨.
(٥) معاني القرآن ٣: ٢٣٤. (٦) راجع النكت والعيون ٦: ٢٠٠. (٧) في الخطّية: العدوان.

وقوله: ﴿وآثر الحياة الدنيا﴾ معناه: اختار منافع الحياة الدنيا بارتكاب المعاصي وترك ما وجب عليه، فالإيثار إرادة الشيء على طريقة التفضيل له على غيره، ومثله الاختيار، لأنّه يختاره على أنّه خير من غيره. فمن آثر الأُدنى على الأولى فهو منقوص بالحاجة، كما أنّ من آثر القبيح على الحسن كان منقوصاً. وقيل: المعنى: من آثر نعيم الحياة الدنيا على نعيم الآخرة. والحياة حياتان: حياة الدنيا وهي المنقطعة الفانية، وحياة الآخرة وهي الدائمة. فمن آثر الباقي الدائم على الفاني المنقطع كان حسن الاختيار، ومن آثر الفاني على الباقي كان سيّء الاختيار مقبّحاً[١].

ثمّ بيّن تعالى ماله في الآخرة فقال: ﴿فإنّ الجحيم هي المأوى﴾ أي النار مثواه ومستقرّه وموضع مقامه.

ثمّ ذكر من هو بضدّ ذلك فقال: ﴿وأمّا من خاف مقام ربّه﴾ ومعناه: من خاف مقام مسألة ربّه عمّا يجب فعله أو تركه وعمل بموجب ذلك بأن فعل الطاعة وامتنع من المعصية ﴿ونهى نفسه عن الهوى﴾ وما تدعو إليه شهواته، فالهوى: أُرَيْحيّة في النفس تدعو إلى ما لا يجوز في العقل، فاتّباع الهوى مذموم، وليس يجوز أن يعمل شيئاً لداعي الهوى، وإن عمل لداعي العقل على موافقة الهوى لم يضرّه. وقيل: هم قوم صغرت الدنيا في أعينهم حين رأوا الآخرة، ذكره قتادة. وقيل: الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة هو التمسّك بطاعته واجتناب معصيته[٢].

ثمّ بيّن تعالى ما له في مقابلة ذلك من الثواب فقال: ﴿فإنّ الجنّة هي المأوى﴾ أي هي مقرّه ومأواه، فالألف واللام تعاقب الضمير كقولهم مررت

(١و٢) راجع تفسير الطبري ١٢: ٤٤٠.

بحسن الوجه أي حسن وجهه . وقال الزجّاج: تقديره هي المأوى له[١] ولا يكون بدلاً من الهاء كما لا يكون بدلاً من الكاف في قولك غضّ الطرف، وقال: وقال الشاعر:

فَغُضّ الطرف إنّك من نمير فلا سعداً بلغْتَ ولا كلابا[٢]

ويروى «فلا كعباً».

و«الجنّة» البستان الّذي يجنّه الشجر، فجنّة الخلد بهذه الصفة على ما فيها من القصور والأبنية الحسنة الّتي قد جمعت كلّ تحفة وطرفة ممّا تشتهي الأنفس وتلذّ الأعين، من غير أذى ملحق بحال في عاجل ولا آجل. وروي أنّ قصورها مبنيّة بفاخر الجوهر من الياقوت والزبرجد، ومنه ما هو بلبنة من فضّة ولبنة من ذهب، فتعظيم الله لها وتشويقه إليها يدلّ على أنّها على أجلّ حال تشتهي فيها مع أنّه لا يتعاظم في مقدور الله ـ عزّوجلّ ـ.

ثمّ خاطب النبيّ ﷺ فقال: ﴿يسألونك عن الساعة أيّان مرساها﴾ أي متى يكون قيامها على ما وصفها، فـ﴿أيّان﴾ بمعنى «متى» الّا أنّ «متى» أكثر استعمالاً في السؤال عن الزمان، ونظيرها «أين» في السؤال عن المكان. ولذلك فسّرت ﴿أيّان﴾ بـ«متى» و«الإرساء» الثبوت من قولهم: رست السفينة ترسو رَسْواً فهي راسية إذا ثبتت. ومنه قوله: ﴿والجبال أرساها﴾[٣] ويجوز أن يكون المراد بالمُرسى المصدر. ويجوز أن يكون وقت الإرساء، والمعنى: متى ثبت أمرها بقيامها.

---

(١) في الخطّية والحجرية: لك.

(٢) تفسير الطبري ١١: ٣٨٠، معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٨١، ديوان جرير: ٦٣.

(٣) الآية ٣٢ من هذه السورة.

وقوله: ﴿فيم أنت من ذكراها﴾ أي أنّه ليس عندك علم متى تكون، وإنّما عندك علم أنّها تكون، ذكره الحسن. وقال غيره: هي حكاية قولهم، أي قد أكثرت من ذكرها، فمتى تكون ؟[1].

وقوله: ﴿إلى ربّك منتهاها﴾ أي قل لهم إلى الله تعالى إجراؤها، فالمنتهى: موضع بلوغ الشيء، وكأنّه قيل: إلى ربك منتهى أمرها بإقامتها لأنّ منتهى أمرها بذكرها ووصفها والإقرار بها إلى الرسول بإقامتها، ومنتهى أمرها إقامتها إلى الله تعالى لا يقدر عليه إلّا الله تعالى. وقيل: المعنى: إلى ربّك منتهى علمها[2] أي لا يعلم إلّا هو متى وقت قيامها، ذكره الحسن.

وقوله: ﴿إنّما أنت منذر من يخشاها﴾ خطاب من الله للنبيّ صلى الله عليه وآله بأنّه إنّما يخوّف من يخاف ذلك اليوم وهو يوم القيامة، وإنّما خصّ الإنذار بمن يخشى، لأنّه لمّا كان المنتفع بالإنذار من يخشى فكأنه خصّ بالانذار. والكافر لمّا لم ينتفع بذلك فكأنّه لم ينذر أصلاً.

ثمّ بيّن تعالى سرعة مجيئها وقرب حضورها فقال: ﴿كأنّهم يوم يرونها لم يلبثوا إلّا عشيّة أو ضحاها﴾ وقال قتادة: معناه: أنّهم إذا رأوا الآخرة صغرت الدنيا في أعينهم حتّى كأنّهم لم يقيموا بها إلّا مقدار عشيّة أو مقدار ضحاها، يعني: ضحى العشيّة. وأُضيف الضحى إلى العشيّة، وضحوة والضحى اليوم الّذي يكون فيه. فإذا قلتَ: أتيتُك صباحاً ومساء، فالمعنى أتيتك العشيّة أو غداتها[3] قال الفرّاء: وأنشدني بعض بني عقيل:

---

(١) راجع تفسير الطبري ١٢: ٤٤١.

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٨١.

(٣) في الخطّية: صباحاً وساء، يلي الصباح أو صباحاً يلي المساء، ويقول القائل: أتيتك العشيّة أو غداتها.

نحن صبحنا عامراً في دارها عشيّة الهلال أو سَرارها[١]

قبل اصفرار الشمس واحمرارها

أراد عشيّة الهلال أو عشيّة سرار العشيّة فهذا أشدّ من ذلك[٢]

(١) تفسير الطبري ١٢: ٤٤٢، الكشف والبيان ١٠: ١٢٩.

(٢) معاني القرآن ٣: ٢٣٤ ـ ٢٣٥.

سورة عبس

مكّية في قول ابن عبّاس والضحّاك، وهي اثنتان وأربعون آية في الكوفي والمدنيّين، وإحدى وأربعون في البصري.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾ عشر آيات.

[أقول:][(١)] قرأ عاصم وحده ﴿فتنفعه الذكرى﴾ بالنصب على أنّه جواب «لعلّ» فجرى مجرى جواب الأمر والنهي، لأنّ «لعلّ» للترجّي فهي غير واجبة، كما أنّ الأمر غير واجب في حصول ما تضمّنه. الباقون بالرفع عطفاً على ﴿يذّكّر﴾. وقرأ نافع وابن كثير ﴿تصّدّى﴾ مشدّدة الصاد على أنّ معناه: تتصدّى فأُدغم إحدى التاءين في الصاد لقرب مخرجهما. الباقون «تصدّى» بتخفيف الصاد بإسقاط إحدى التاءين.

---

(١) من الحجريّة.

وقرأ ابن أبي بزّة وابن فليح عن ابن كثير ﴿تلّهّى﴾ بتشديد اللام بمعنى تتلهّى، فأُدغم إحدى التاءين في اللام. الباقون وقيل: عن ابن كثير بتخفيف اللام وحذف إحدى التاءين.

يقول الله تعالى إنّه: ﴿عبس وتولّى﴾ ومعناه: قبض وجهه وأعرض، فالعبوس: تقبّض الوجه عن تكرّه، و«العبوس» و«البسور» هو التقطيب، وعبس فلان في وجه فلان مثل كلح، ومنه اشتقّ اسم عبّاس. ومعنى ﴿تولّى﴾ أعرض وذهب بوجهه عنه فصرفه عن أن يليه. يقال: تولّى عنه بمعنى أعرض عنه. وتولّاه بخلاف تولّى عنه، فإنّ تولّاه بمعنى عقد على نصرته، وتولّى عنه أعرض.

وقوله: ﴿أن جاءه الأُعمى﴾ معناه: عبس لأن جاءه الأعمى، وقال ابن خالويه: تقديره إذ جاءه الأعمى. والأعمى المراد به عبد الله بن أُمّ مكتوم، في قول ابن عبّاس ومجاهد وقتادة والضحّاك وابن زيد. وقال الفرّاء: كانت أُمّ مكتوم أُمّ أبيه[١]. وقال غيره: كانت أُمّه. وقال ابن خالويه: أبوه يكنّى أبا السرج. واختلفوا فيمن وصفه الله تعالى بذلك، فقال كثير من المفسّرين وأهل الحشو: إنّ المراد به النبيّ صلى الله عليه وآله قالوا وذلك أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان معه جماعة من أشراف قومه ورؤوسائهم قد خلا بهم فأقبل ابن أُمّ مكتوم ليسلم فأعرض النبيّ صلى الله عليه وآله عنه كراهية أن تكره القوم إقباله عليه فعاتبه الله على ذلك. وقيل: إنّ ابن أُمّ مكتوم كان مسلماً، وإنّما كان يخاطب النبيّ صلى الله عليه وآله وهو لا يعلم أنّ رسول الله مشغول بكلام قوم، فيقول يا رسول الله[٢].

---

(١) معاني القرآن ٣: ٢٣٥.

(٢) الكشف والبيان ١٠: ١٣٠.

وهذا فاسد، لأنّ النبيّ‌ﷺ قد أجلّ الله قدره عن هذه الصفات، وكيف يصفه بالعبوس والتقطيب، وقد وصفه بأنّه ﴿على خلق عظيم﴾[١] وقال: ﴿ولو كنت فظاً غليظ القلب لا نفضّوا من حولك﴾[٢] وكيف يعرض عمّن تقدّم وصفه مع قوله تعالى: ﴿ولا تطرد الّذين يدعون ربّهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه﴾[٣] ومن عرف النبيّ‌ﷺ وحسن أخلاقه وما خصّه الله تعالى به من مكارم الأخلاق وحسن الصحبة حتّى قيل إنّه لم يصافح أحداً قطّ فنزع يده من يده، حتّى يكون ذلك الّذي ينزع يده من يده. فمن هذه صفته كيف يقطّب في وجه أعمى جاء يطلب الإسلام، على أنّ الأنبياء‌عليهم‌السلام منزّهون عن مثل هذه الأخلاق وعمّا هو دونها لما في ذلك من التنفير عن قبول قولهم والإصغاء إلى دعائهم، ولا يجوّز مثل هذا على الأنبياء من عرف مقدارهم وتبيّن نعتهم.

وقال قوم: إنّ هذه الآيات نزلت في رجل من بني أُميّة كان واقفاً مع النبيّ‌ﷺ فلمّا أقبل ابن أُمّ مكتوم تفرّر منه، وجمع نفسه وعبس في وجهه وأعرض بوجهه عنه فحكى الله تعالى ذلك وأنكره معاتبة على ذلك.

وقوله: ﴿وما يدريك﴾ خطاب للنبيّ‌ﷺ وتقديره ﴿قل﴾ له يا محمّد ﴿وما يدريك لعلّه يزّكّى﴾ وإنّما أضاف العبوس إلى النبيّ‌ﷺ من أضافه لقوله تعالى: ﴿وما يدريك﴾ فرآه متوجّهاً إليه ظنّ أنّه عَتْب له دون أن يكون متوجّهاً إليه على أن يقول لمن فعل ذلك ويوبّخه عليه. ومعنى قوله: ﴿يزّكّى﴾ يتزكّى بالعمل الصالح، فأُدغم التاء في الزاي، كما أُدغمت في الذال في قوله: ﴿يذّكّر﴾ ومعناه: يتذكّر. ولا يجوز إدغام الزاي في التاء،

(١) القلم: ٤. (٢) آل عمران: ١٥٩. (٣) الأنعام: ٥٢.

لأنّها من حروف الصفير، وهي الصاد والسين والزاي.

وقوله: ﴿أو يذّكّر﴾ معناه: أو يتذكّر ما أمره الله تعالى به، ويتفكّر فيما أمره بالفكر فيه. وقد حضّ الله تعالى على التذكير في غير موضع من القرآن فقال: ﴿وذكّر فإنّ الذكرى تنفع المؤمنين﴾[١] وقال: ﴿إنّما يتذكّر أُولو الألباب﴾[٢] وينبغي للإنسان أن يستكثر من ذكر ما يدعو إلى الحقّ ويصرف عن الباطل.

ثمّ بيّن أنّه متى يتذكّر فإنّه ينفعه ﴿الذكرى﴾ أي الفكر فيما أمره الله به من القرآن وغيره من الأدلّة.

وقوله: ﴿أمّا من استغنى فأنت له تصدّى﴾ معناه: أمّا من كان غنيًّا أو وجدته موسراً. فالاستغناء: الاكتفاء بالأمر فيما ينفي الضرر، وقد يكتفي الإناء في ملئه بما فيه، فلا يسمّى استغناء في الحقيقة.

وقوله: ﴿فأنت له تصدّي﴾ فالتصدّي: هو التعرّض للشيء كتعرّض العطشان للماء. وأصله الصَدْي، وهو العطش. ورجل صديان أي عطشان. و«الصدى» الصوت الّذي يردّه الجبل أو الحمّام ونحوهما. قال مجاهد: المراد بـ﴿من استغنى﴾ عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة. وقال سفيان: نزلت في العبّاس.

فقال الله تعالى: ﴿وما عليك ألّا يزكّى﴾ أي قل له: وما عليك ألّا يتزكّى. فالتزكّي: هو التطهّر من الذنوب، وأصله الزكاء وهو النماء، فلمّا كان الخير ينمي للإنسان بالتطهّر من الذنوب كان تزكّياً.

ثمّ قال: ﴿وأمّا من جاءك يسعى وهو يخشى﴾ يعني عبد الله بن أُمّ مكتوم

---

(١) الذاريات: ٥٥. (٢) الرعد: ١٩، الزمر: ٩.

جاء إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وهو يخشى معصية الله والكفر. و«الخشية» هي الحذر من مواقعة المعصية خوفاً من عقاب الله تعالى.

﴿فأنت عنه تلهّى﴾ أي تعرض عنه فالتلهّي عن الشيء هو التروح بالإعراض عنه و«التلهّي به» التروّح والإقبال عليه ومنه قولهم إذا استأثر الله بشيء، فألْهِ عنه أي اتركه وأعرض عنه.

قوله تعالى:

كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ ثلاث عشرة آية.

[أقول:][(١)] يقول الله تعالى: ﴿كلّا﴾ أي ليس الأمر ينبغي أن يكون على هذا.

وقوله: ﴿إنّها تذكرة﴾ أي كلّا إنّ السورة تذكرة ﴿فمن شاء ذكر﴾ التنزيل أو الوعظ. وقال قوم: الهاء عماد، والمبتدأ محذوف، وتقديره إنّها هي تذكرة. و«التذكرة» حضور الموعظة، ففيها أعظم الفائدة وفي الغفلة أكبر الآفة.

والفرق بين التذكرة والمعرفة أنّ التذكرة ضدّ الغفلة والمعرفة تضادّ الجهل والسهو، فكلاهما يتعاقبان على حال الذكر دون السهو، كتعاقب العلم وأضداده على حال الذكر دون السهو، والذكر معظم، لأنّه طريق إلى العلم بالحقّ من الباطل والصحيح من الفاسد. وقيل: إنّ قوله: ﴿كلّا﴾ دالّ

(١) من الحجريّة.

على أنّه ليس له أن يفعل ذلك في ما يستأنف. فأمّا الماضي فلم يدلّ على أنّه معصية، لأنّه لم يتقدّم النهي عنه(١).

وقوله: ﴿فمن شاء ذكره﴾ دليل على بطلان مذهب المجبّرة في أنّ القدرة مع الفعل، وأنّ المؤمن لا قدرة له على الكفر، وأنّ الكافر لا يقدر على الإيمان، لأنّه تعالى بيّن أن من شاء أن يذكره ذكره، لأنّه قادر عليه.

وقوله: ﴿في صحف مكرّمة﴾ أي ما ذكرناه تذكرة في صحف مكرّمة أي معظّمة مبجّلة، ووصفت الصحف بأنّها مكرّمة لتعظيمها بما تضمّنته من الحكمة.

وقوله: ﴿مرفوعة مطهّرة﴾ أي مصونة عن أن تنالها أيدي الكفّار الأنجاس. وقال الحسن: مطهّرة من كلّ دنس به. وقوله: ﴿مرفوعة مطهّرة﴾ أي رفعها الله عن دنس الأنجاس ونزّهها من ذلك.

وقوله: ﴿بأيدي سفرة﴾ قيل السفرة ملائكة موكّلون بالأسفار من كتب الله. و«السفرة» الكتبة لأسفار الحكمة، واحدهم سافر، كقولك كاتب وكتبة، وواحد الأسفار سفر. وأصله الكشف من الأمر، سفرت المرأة إذا كشفت عن وجهها، فالكاتب: يسفر بالكتاب عمّا في النفس(٢). وقال ابن عبّاس: «السفرة» الكتبة، وفي رواية أُخرى عنه إنّها الملائكة. وقال قتادة: هم القرّاء. وقيل: هم الملائكة الّذين يسفرون بالوحي بين الله ورسوله، وسَفير القوم الّذي يسفر بينهم في الصلح، وسفرت بين القوم إذا أصلحت بينهم، قال الشاعر:

وما أَدَع السفارة بين قومي ... وما أمشي بغشّ إن مشيْتُ(٣)

---

(١) راجع الكشف والبيان ١٠: ١٣١.

(٢) راجع معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٨٤.

(٣) معاني القرآن ٣: ٢٣٦، تفسير الطبري ١٣: ٤٤٦.

وأسفر الصبح إذا أضاء.

وقوله: ﴿كرام بررة﴾ من صفة السفرة، وصفهم الله بأنّهم كرام، وهو جمع كريم، وهو الّذي من شأنه أن يأتي بالخير من جهته مهنّأ من غير شائب يكدّره. وهي صفة مدح ومنه أخذت الكرمة لشرف ثمرتها، والكرم يتعاظم فالنبيّ أكرم ممّن ليس بنبيّ، والمؤمن أكرم ممّن ليس بمؤمن. و«البررة» جمع بارّ، تقول برّ فلان فلاناً يبرّه فهو بارّ إذا أحسن إليه ونفعه. والبِرّ فعل النفع اجتلاباً للمودّة. والبارّ فاعل البرّ، وجمعه بررة مثل كاتب وكتبة. وأصله اتّساع النفع منه، ومنه البرَّ سمّي به تفاؤلاً باتّساع النفع به، ومنه البرّ لاتّساع النفع به. ورجل بَرّ، وامرأة بَرّة [والجمع بررة] ولا يجمع إلّا على هذا استغنا به.

وقوله: ﴿قتل الإنسان ما أكفره﴾ معناه: لعن الإنسان، قال مجاهد: وهو الكافر. وقيل: معناه: أنّه حلّ محلّ من يدعى عليه بالقتل في ما له بقبح الفعل، فيخرجه مخرج الدعاء عليه. ولا يقال: إنّ الله دعا عليه بالقتل لقبح اللفظ بذلك لما يوهم من تمنّي المدعوّ به. ومعنى ﴿ما أكفره﴾ أيّ شيء أكفره؟! على وجه التقريع له والتوبيخ. وقيل معناه: النفي، وتقديره ما أجحده لنعم الله مع ظهورها.

﴿من أيّ شيء خلقه﴾ تعجيباً له، لأنّه يعلم أنّ الله خلقه من نطفة.

ثمّ بيّن تعالى ممّاذا خلقه فقال: ﴿من نطفة خلقه فقدّره﴾ فالتقدير: جعل الشيء على مقدار غيره، فلمّا كان الإنسان قد جعل على مقدار ما تقتضيه الحكمة في أمره من غير زيادة ولا نقصان كان قد قدّر أحسن التقدير ودبّر أحسن التدبير.

﴿ثمّ السبيل يسّره﴾ أي سهّل له سبيل الخير في دينه ودنياه بأن بيّنه له

وأرشده إليه ورغّبه فيه، فهو يكفر هذا كلّه ويجحده ويضيّع حقّ الله عليه في ذلك من الشكر وإخلاص العبادة. وقال ابن عبّاس وقتادة والسدّي: يسّر خروجه من بطن أُمّه. وقال مجاهد: سهّل له طريق الخير والشرّ، كقوله: ﴿إنّا هديناه السبيل إمّا شاكراً وإمّا كفوراً﴾[١]. وقال الحسن: سبيل الخير، وقال ابن زيد: سبيل الثواب. وقال الحسن ﴿يسّره﴾ معناه: بصّره طريق الهدى والضلال. وقيل: يسّر خروجه من بطن أُمّه، فإنّه كان رأسه إلى رأس أُمّه ورجلاه إلى رجليها، فقلبه الله عند الولادة ليتسهّل خروجه منها[٢]. وقالوا: سرى وسراة جمعوه على «فعلة» وأجروه مجرى «فاعل» من الصحيح.

وقوله: ﴿ثمّ أماته فأقبره﴾ فالإماتة إحداث الموت. وفي الناس من قال: الإماتة عرض يضادّ الحياة مضادّة المعاقبة على الحال الواحدة، وهي حال تعديل البنية الحيوانيّة، وذلك أنّ ما لا يصحّ أن تحلّه حياة لا يصحّ أن يحلّه موت. وقال قوم: الموت عبارة عن نقض البنية الحيوانيّة أو فعل ما ينافي ما تحتاج إليه الحياة من الرطوبات والمعاني. وقوله: ﴿فأقبره﴾ «الإقبار» جعل القبر لدفن الميّت فيه، يقال: أقبره إقباراً. و«القبر» الحفر المهيّأ للدفن فيه. ويقال: أقبرني فلاناً أي جعلني أقبره. فالمُقبِر هو الله تعالى يأمر عباده أن يُقبروا الناس إذا ماتوا، والقابر الدافن للميّت بيده، قال الأعشى:

لو أسندتْ مَيتاً إلى نحرها عاش ولم ينقل إلى قابر
حتّى يقول الناس ممّا رأوا يا عجبا للميّت الناشر[٣]

---

(١) الإنسان: ٣. (٢) راجع تفسير الطبري ١٢: ٤٤٧.
(٣) شرح ديوان الأعشى: ٩٣، معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٨٥، تفسير الطبري ١٢: ٤٤٨.

وقوله: ﴿ثمّ إذا شاء أنشره﴾ فالإنشار الإحياء للتصرّف بعد الموت كنشر الثوب بعد الطيّ، أنشر الله الموتى فنشروا كقولهم: أحياهم فحيّوا، والمشيئة هي الإرادة. والمعنى: إذا شاء الله تعالى أن يحيي الميّت أحياه ـ وهو قول الحسن ـ للجزاء بالثواب والعقاب.

وقوله: ﴿كلّا لمّا يقض ما أمره﴾ معناه: كلّا لمّا لم يقض ما عليه(١) ممّا أمره الله به، لأنّه قد أمره بأشياء واجبة فلم يفعلها: من إخلاص عبادته وشكره بحسب مقتضى نعمه. وقال مجاهد: لا يقضي أحد أبداً كلّ ما افترض الله عليه.

قوله تعالى:

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ تسع آيات.

[أقول:](٢) قرأ أهل الكوفة ﴿أنّا صببنا﴾ بفتح الألف على البدل من ﴿طعامه﴾ أو على أنّه خبر مبتدأ محذوف. الباقون بالكسر على الاستئناف.

يقول الله تعالى لخلقه منبّهاً لهم على قدرته على إحياء الخلق بعد موتهم ونشرهم ومجازاتهم: بأن أمره أن ينظر إلى طعامه الّذي يأكله ويتقوّته، ويفكّر كيف يخلقه الله ويوصله إليه ويمكّنه من الانتفاع به. وبيّن كيفيّة ذلك فقال: ﴿إنّا صببنا الماء صبّاً﴾ أي أنزلنا الغيث إنزالاً ﴿ثمّ شققنا الأرض شقّاً﴾ فالشقّ: قطع الشيء طولاً، ومثله الصدع والفرج والفطر، ومن ذلك شقّ الأرض وشقّ الخشبة وشقّ الشعرة. فأمّا قطع الليطة وقطع

---

(١) في الخطّية: فاعله.

(٢) من الحجريّة.

الشجر فعلى خلاف ذلك. فبيّن تعالى أنّه يشقّ الأرض ويخرج منها ماأنبته من أنواع النبات. ومن فتح ﴿أنّا﴾ على البدل، فعلى أنّه بدل اشتمال، ويكون موضعه جرّاً، فتقديره فلينظر إلى أنّا صببنا. وقال آخرون: موضعه نصب، لأنّ الأصل بـ«أنّا» و«لأنّا» فلمّا أسقط الخافض نصب. والمعنى: ﴿فلينظر الإنسان إلى﴾ حدوث ﴿طعامه﴾ أو نبات طعامه، لأنّه موضع الاعتبار. وقال المبرّد: تقديره فلينظر الإنسان إلى طعامه، لأنّا صببنا فأخرجنا أي لهذه العلّة كان طعامه، لأنّ قوله: ﴿إنّا صببنا﴾ ليس من الطعام في شيء، وقال أبو عليّ: وهو بدل الاشتمال، لأنّ ما ذكره يشتمل على الطعام، فهو بمنزلة قوله: ﴿قتل أصحاب الأخدود * النار﴾[1].

وقوله: ﴿فأنبتنا فيها حبّاً وعنباً وقضباً وزيتوناً...﴾ فالإنبات: إخراج النامي حالاً بعد حال، يقال: أنبته الله إنباتاً فنبت نباتاً ففاعل النبات والإنبات واحد إلّا أنّ الإنبات يؤخذ منه صفة المنبِت، والنبات يؤخذ منه النابت. وليس النبات فاعلاً لكنّه الصائر على تلك الصفة بتصيير غيره، غير أنّه لمّا أُسند الفعل إليه اشتقّ له منه اسم الفاعل. و«الحبّ» جمع الحبّة مثل الشعير والحنطة والسمسم والدخن والأُرز وغير ذلك، وكذلك يسمّى حبّ اللؤلؤ تشبيهاً بذلك فيتدويره. والقضب الرطبة، في قول الضحّاك والفرّاء. وأهل مكّة يسمون القتّ قضباً. وأصله فيما يقطع رطباً من قولهم: قضبته وأقضبته قضباً إذا قطعته رطباً، ومنه القضيب والمقتضب. والزيتون معروف. وإنّما ذكره الله تعالى لعظم النفع به والدهن الّذي يكون منه ﴿ونخلاً﴾ أي وأنبتنا منالأرض نخلاً وهو شجرالرطب والتمر ﴿وحدائق غلباً﴾ فالحديقة:

---

(١) البروج: ٤ ـ ٥. الحجّة للقرّاء السبعة ٤: ٩٩.

البستان المحوَّط، وجمعه حدائق، ومنه أحدق به القوم إذا أحاطوا به، ومنه الحدقة لما أحاط بها من جفنها. و«الغُلْب» جمع أغلب وغَلْباء، وهي الغلاظ بعظم الأشجار، وشجرة غلباء إذا كانت غليظة، قال الفرزدق:

عوى فأثار أغلب ضَيْغَمِيّاً فويلَ ابنِ المَراغَة ما استثارا[١]

وقوله: ﴿وفاكهة وأبا﴾ يعني: ثمر الأشجار الّتي فيها النفع والإلذاذ، يقال: تفكَّهَ بكذا إذا استعمله للاستمتاع به، والفاكهة تكون رطبة ويابسة. و«الأبّ» المرعى من الحشيش وسائر النبات الّذي ترعاه الأنعام والدوابّ، ويقال: أبّ إلي سيفه فاستلّه، كقولك هبّ إليه وبدر إليه، فيكون كبدور المرعى بالخروج، قال الشاعر:

جِذْمنا قَيْس ونَجْدٌ دارُنا ولنا الأبّ بها والمَكْرِع[٢]

وقوله: ﴿متاعاً لكم ولأنعامكم﴾ فالمتاع: كلّ شيء فيه إلذاذ الإحساس من مأكل أو منظر أو مشمّ أو ملمس، وأصله المصدر من قولهم: أمتعته إمتاعاً ومتاعاً، ومتع النهار إذا ارتفع، لأنّ ارتفاعه يستمتع به. فبيّن تعالى أنّه خلق ما خلق وأنبت ما أنبت من الأرض لإمتاع الخلق به من المكلّفين وأنعامهم الّذي ينتفعون بها. و«الأنعام» الماشية بنعمة المشي من الإبل والبقر والغنم بخلاف الحافر بشدّة وطئه بحافره من الخيل والبغال والحمير.

قوله تعالى:

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾

---

(١) شرح ديوان الفرزدق ١: ٥٧٤.

(٢) جمهرة اللغة ١: ١٣، معجم تهذيب اللغة ١: ١٠٤ مادة «أبّ».

وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ عشر آيات.

[أقول:][1] قوله ﴿فإذا جاءت الصاخّة﴾ قال ابن عبّاس: هي القيامة. وقيل: هي النفخة الثانية الّتي يحيا عندها الناس. وقال الحسن: «الصاخّة» هي الّتي يصيخ لها الخلق، وهي النفخة الثانية. و«الصاخّة» هي الصاكّة بشدّة صوتها الآذان فتصمّها، صخّ يُصخّ صَخّاً، فهو صاخّ. وقد قلبها المضاعف بإكراهه التضعيف، فقال: أصاخ يصيخ إصاخة، قال الشاعر:

يصيخ للنبأة أسماعه إصاخة الناشد للمنشد[2]

ومثله تظنّيت، والأصل تظنّنت. ثمّ بيّن أنّ من شدّة أهوال ذلك اليوم ﴿يفرّ المرء من أخيه و﴾ من ﴿أُمّه وأبيه و﴾ من ﴿صاحبته﴾ الّتي هي زوجته في الدنيا ﴿وبنيه﴾ يعني: أولاده الذكور يفرّ من هؤلاء حذراً من مظلمة تكون عليه. وقيل: لئلّا يرى ما ينزل به من الهوان والذلّ والعقاب[3]. وقيل: يفرّ منه ضجراً به لعظم ما هو فيه. وقيل: لأنّه لا يمكنه أن ينفعه بشيء ولا ينتفع منه بشيء.[4]

وقوله: ﴿لكلّ امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه﴾ فالمراد به الذكر من الناس وتأنيثه امرأة، فالمعنى إنّ كلّ إنسان مكلّف مشغول بنفسه لا يلتفت إلى غيره، من صعوبة الأمر وشدّة أهواله. و«الشأن» الأمر العظيم، يقال: لفلان شأن من الشأن أي له أمر عظيم، وأصله الواحد من شؤون الرأس، وهو

(١) من الحجريّة.
(٢) النكت والعيون ٦: ٢٠٩.
(٣) تفسير الطبري ١٢: ٤٥٣.
(٤) راجع الكشف والبيان ١٠: ١٣٤.

موضع الوصل بين متقابلاته الّتي بها قوام أمره. ومعنى ﴿يغنيه﴾ أي يكفيه من زيادة عليه، أي ليس فيه فضل لغيره لما هو فيه من الأمر الّذي قد اكتنفه وملأ صدره، فصار كالغنيّ عن الشيء في أمر نفسه لا ينازع إليه.

ثمّ قسّم تعالى أحوال العصاة والمؤمنين[1] فقال: ﴿وجوه يومئذ مسفرة﴾ أي مكشوفة مضيئة، فالإسفار الكشف عن ضياء، من قولهم: أسفر الصبح إذا أضاء، وسفرت المرأة إذا كشفت عن وجهها، ومنه السفر، لأنّه يكشف عن أُمور تظهر به، قال الشاعر وهو توبة بن الحمير:

وكنت إذا ما جئت ليلى تَبَرْقعَتْ فقد رابني منها الغداة سفورها[2]

أي كشفها قناعها.

وقوله: ﴿ضاحكة مستبشرة﴾ أي من فرحها بما أعددنا لها من الثواب تكون ضاحكة مسرورة. والضحك والاستبشار وإن أُضيفا إلى الوجه فالمراد به أصحاب الوجوه، فأمّا الإسفار والإشراق فيجوز أن يكون للوجوه خاصّة بما يجعل الله فيها من النور، لتفرّق الملائكة بين المؤمنين والكفّار.

ثمّ قال: ﴿ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة﴾ أي يكون على تلك الوجوه غبار، وجمعه غَبَرة ﴿ترهقها﴾ أي تغشاها ﴿قترة﴾ وهي ظلمة الدخان، ومنه قترة الصائد موضعه الّذي يدخن فيه للتدفّي به.

ثمّ أخبر أنّ من كان على وجهه الغبرة الّتي تغشاها القترة ﴿هم الكفرة﴾ جمع كافر ﴿الفجرة﴾ جمع فاجر كما أنّ كاتباً يجمع كتبة، وساحراً يجمع سحرة. وليس في ذلك ما يدلّ على مذهب الخوارج من أنّ من ليس

(١) في الخطّية: المذنبين.

(٢) تفسير الطبري ١٢: ٤٥٤.

بمؤمن لابدّ أن يكون كافراً من حيث إنّ الله قسّم الوجوه هذين القسمين. وذلك أنّه تعالى ذكر قسمين من الوجوه متقابلين، وجوه المؤمنين ووجوه الكفّار، ولم يذكر وجوه الفسّاق من أهل الملّة. ويجوز أن يكون ثَمّ[1] صفة أُخرى بخلاف ما لهذين، بأن يكون عليها غبرة لا يغشاها قترة ويكون عليها صفرة. ولو دلّ ذلك على ما قالوه لوجب أن يدلّ قوله: ﴿يوم تبيضّ وجوه وتسوّد وجوه﴾[2] على أنّ كلّ من لا يبيضّ وجهه من المؤمنين يجب أن يكون مرتدّاً، لأنّه تعالى قال لهم: ﴿أكفرتم بعد إيمانكم﴾[3] والخوارج لا تقول ذلك، لأنّ من المعلوم أنّ هاهنا كفّاراً في الأصل ليسوا مرتدّين عن الإيمان.

---

(١) في الخطّية: لها.

(٢و٣) آل عمران: ١٠٦.

سورة التكوير

مكّيّة في قول ابن عبّاس والضحّاك، وهي تسع وعشرون آية بلاخلاف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تبارك وتعالى:

إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ أربع عشرة آية.

[أقول:][1] قرأ ابن كثير وأهل البصرة ﴿سجرت﴾ خفيفة الجيم، الباقون بتشديدها. وقرأ أهل المدينة وابن عامر وحفص عن عاصم ﴿نشرت﴾ خفيفة الشين، الباقون بالتشديد. وقرأ نافع وباقي أهل المدينة وابن عامر في رواية ابن ذكوان وعاصم إلّا يحيى ورُوَيْس ﴿سعّرت﴾ بتشديد العين،

---

(١) من الحجريّة.

الباقون بتخفيفها. وقرأ أبو جعفر ﴿قتّلت﴾ مشدّدة التاء، الباقون بتخفيفها.

يقول الله تعالى مخبراً عن وقت حضور القيامة وحصول شدائدها: ﴿إذا الشمس كوّرت﴾ [١] فاللفظ وإن كان ماضياً فالمراد به الاستقبال، لأنّه إذا أخبر تعالى بشيء فلابدّ من كونه، فكأنّه واقع. والفعل الماضي يكون بمعنى المستقبل في الشرط والجزاء، وفي أفعال الله، وفي الدعاء إذا تكرّر كقولك حفظكالله وأطال بقاءك.

ومعنى ﴿كوّرت﴾ في قول ابن عبّاس وأُبيّ بن كعب ومجاهد وقتادة والضحّاك: ذهب نورها. وقال الربيع بن خيثم: معناه: رمي بها. و«التكوير» تلفيف على جهة الاستدارة، وهو كوّر العمامة كوّر يكوّر تكويراً، ومنه الكارة. ويقال: كوّرت العمامة على رأسي أُكوّرها كَوْراً وكوّرتها تكويراً. ويقال: طعنه فكوّره أي رمى به ، ذكره الأزهري، ومنه قولهم: أعوذ بالله من الحَوْر بعد الكَوْر أي من النقصان بعد الزيادة[٢]. فالشمس تكوّر بأن يجمع نورها حتّى تصير كالكارة الملقاة فيذهب ضوءها ويجدّد الله ـ عزّ وجلّ ـ للعباد ضياء غيرها.

وقوله: ﴿وإذا النجوم انكدرت﴾ فالنجوم: جمع نجم، وهو الكوكب وجمعه كواكب. ومنه نجم النبت إذا طلع ينجُم نجماً فهو ناجم، وكذلك نجم القرن، ونجم السنّ. و«الانكدار» انقلاب الشيء حتّى يصير الأعلى الأسفل بما لو كان ماء لتكدّر. وقيل: أصل الانكدار الانصباب. قال العجّاج:

أبصر خِرْبانَ فضاءٍ فانكدر[٣]

---

(١) في الخطّية زيادة: ثمّ انفطرت.
(٢) معجم تهذيب اللغة ٤: ٣٠٧٧ ـ ٣٠٧٨.
(٣) مجاز القرآن ٢: ٢٨٧، تفسير الطبري ١٢: ٤٥٨، النكت والعيون ٦: ٢١٢.

وقال مجاهد والربيع بن خيثم وقتادة وأبو صالح وابن زيد: انكدرت معناه تناثرت.

وقوله: ﴿وإذا الجبال سيّرت﴾ فمعنى «تسيير الجبال» تصييرها هباءً وسراباً.

وقوله: ﴿وإذا العشار عطّلت﴾ فالعشار: جمع عشراء، وهي الناقة الّتي قد أتى عليها عشرة أشهر من حملها، وهو مأخوذ من العشرة. والناقة إذا وضعت لتمام ففي سنة، وقال الفرّاء: «العشار» لقح الإبل عطّلها أهلها لاشتغالهم بأنفسهم[1]. وقال الجُبّائي: معناه: أنّ السحاب يعطل ما يكون فيها من المياه الّتي ينزلها الله على عباده في الدنيا. وحكى الأزهري عن أبي عمرو أنّه قال: «العشار» السحاب. قال الأزهري: وهذا لا أعرفه في اللغة. والمعنى أنّ هذه الحوامل الّتي يتنافس أهلها فيها قد أُهملت.

وقوله: ﴿وإذا الوحوش حشرت﴾ قال عكرمة: حشرها موتها. وغيره قال: معناه: تغيّرت الأُمور بأن صارت الوحوش الّتي تشرّد في البلاد تجتمع مع الناس، وذلك أنّ الله تعالى يحشر الوحوش ليوصل إليها ما تستحقّه من الأعواض على الآلام الّتي دخلت عليها، وينتصف لبعضها من بعض[2] فإذا عوّضها الله تعالى، فمن قال: العوض دائم، قال: تبقى منعّمة على الأبد. ومن قال: العوض يستحقّ منقطعاً اختلفوا فمنهم من قال: يديمها الله تفضّلاً لئلّا يدخل على المعوّض غمّ بانقطاعه. ومنهم من قال: إذا فعل بها ما يستحقّه من الأعواض جعلها تراباً.

وقوله: ﴿وإذا البحار سجّرت﴾ معناه: ملئت ناراً كما يسجّر التنّور،

---

(١) معاني القرآن ٣: ٢٣٩.

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٨٩.

وأصل السجر الملأ، قال لبيد:

فتوسّطا عُرضَ السريّ وصَدّعا مسجورةً متجاوزاً قُلّامها[١]

أي مملوءة، ومنه ﴿البحر المسجور﴾[٢] قال ابن عبّاس وأُبيّ بن كعب: سجّرت أُوقدت، فصارت ناراً. وقال شمر بن عطيّة: صارت بمنزلة التنّور المسجور. وقال الحسن والضحّاك: معناه: ملئت حتّى فاضت على الأرضين فتنشفها حتّى تكون لجج البحار ورؤوس الجبال بمنزلة واحدة. وقيل: معنى ﴿سجرت﴾ جعل ماؤها شراباً يعذّب به أهل النار[٣]. وقال الفرّاء: معناه: أفضى بعضها إلى بعض فصارت بحراً واحداً[٤]. ومن ثقّل أراد التكثير، ومن خفّف فلأنّه يدلّ على القليل والكثير.

وقوله: ﴿وإذا النفوس زوّجت﴾ معناه: ضمّ كلّ واحد منها إلى شكله، والنفس قد يعبّر به عن الإنسان، ويعبّر به عن الروح. وقال عمر بن الخطّاب وابن عبّاس ومجاهد وقتادة: قرن كلّ إنسان بشكله من أهل النار وأهل الجنّة. وقال عكرمة والشعبي: معنى زوّجت: ردّت الأرواح إلى الأجساد. وقيل: معناه: يقرن الغاوي بمن أغواه من شيطان أو إنسان[٥].

وقوله: ﴿وإذا الموؤدة سئلت﴾ فالموؤدة: المقتولة بدفنها حيّة، فكانت العرب تَئِد البنات خوف الإملاق، وَأَدَها يَئِدُها وأْداً، فهي موؤدة أي مدفونة حيّة، وعلى هذا جاء قوله: ﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق﴾[٦] وقال قتادة: جاء قيس بن عاصم التميمي إلى النبيّ صلى الله عليه وآله فقال: إنّي وأدت ثماني بنات في الجاهليّة، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله: «فأعتق عن كلّ واحدة رقبة» قال: إنّي

---

(١) ديوان لبيد بن ربيعة: ٢١٦، مجاز القرآن ٢: ٥، معجم تهذيب اللغة ٣: ٢٣٩٧.

(٢) الطور: ٦. (٣) النكت والعيون ٦: ٢١٣. (٤) معاني القرآن ٣: ٢٣٩.

(٥) النكت والعيون ٦: ٢١٤. (٦) الأنعام: ١٥١.

صاحب إبل. قال: «فاهْدِ إلى من شئت عن كلّ واحدة بدنة»(١) وقيل «موؤدة» للثقل الّذي عليها من التراب. وقوله: ﴿ولا يؤوده حفظهما﴾ (٢) أي لا يثقله، قال الفرزدق:

ومنّا الّذي مَنَع الوائدات وأحيا الوئيدَ فلم توأد(٣)

وإنّما يسأل عن الموؤدة على وجه التوبيخ لقاتلهما، وهو أبلغ من سؤاله، لأنّ هذا ممّا لا يصلح إلّا بذنب ، فأيّ ذنب كان لك، فإذا ظهر أنّه لا ذنب لها جاءت الطامّة الكبرى على قاتلها، لأنّه رجع الأمر إليه بحجّة يقرّبها. وقال قوم: تقديره سئلت قتلها بأيّ ذنب قتلت، فالكناية عنها أظهر(٤). وروي في الشواذّ، وهو المرويّ عن ابن عبّاس وغيره من الصحابة أنّهم قرؤوا ﴿وإذا المؤودة سألت بأيّ ذنب قتلت﴾ جعلوها هي السائلة عن سبب قتلها لا المسؤولة(٥). وهو المرويّ في أخبارنا(٦).

وقوله: ﴿وإذا الصحف نشرت﴾ فالنشر: بسط المطويّ، والنشر للصحف والثياب ونحوها. و«الصحف» جمع صحيفة وهيالصحيفة الّتي فيها أعمال الخلق من طاعة ومعصية، فتنشر عليه ليقف كلّ إنسان على ما يستحقّه.

وقوله: ﴿وإذا السماء كشطت﴾ فالكشط: القلع عن شدّة التزاق كشط جلدة الرأس يكشِطها كَشْطاً إذا قلعها، فقلع السماء عن مكانها على شدّة ما فيها من اعتماد كقلع جلدة الرأس عن مكانها، والكشط والنشط واحد. وفي قراءة عبد الله ﴿وإذا السماء نشطت﴾.

---

(١) راجع الكشف والبيان ١٠: ١٣٩.
(٢) البقرة: ٢٥٥.
(٣) مجاز القرآن ٢: ٢٨٧، النكت والعيون ٦: ٢١٤.
(٤) راجع النكت والعيون ٦: ٢١٤.
(٥) راجع مختصر شواذّ القرآن: ١٦٩، تفسير السمرقندي ٣: ٥٥١.
(٦) تفسير القمّي ٢: ٤٠٧.

وقوله: ﴿وإذا الجحيم سعّرت﴾ معناه: اشتعلت وأضرمت، فالتسعير: تهييج النار حتّى تتأجّج، ومنه السعر، لأنّه حال هَيْج الثمن بالارتفاع أو الانحطاط وأسعرتُ الحرب والشرّ بين القوم من هذا. ومن شدّد أراد التكثير، ومن خفّف فلأنّه يدلّ على القليل والكثير . وقال قتادة: يسعّرها غضب الله وخطايا بني آدم.

وقوله: ﴿وإذا الجنّة أُزلفت﴾ أي قربت من أهلها يوم القيامة، فالإزلاف: إدناء ما يجبّ، ومنه الزلفة القربة. وازدلف إلى الأمر اقترب منه، ومنه المزدلفة لأنّها قريبة من مكّة.

وقوله: ﴿علمت نفس ما أحضرت﴾ هو جواب ﴿إذا الشمس كوّرت﴾ ومابعدها من الشروط، والمعنى: أنّ عند ظهور الأشياء الّتي ذكرها وعدّدها تعلم كلّ نفس ما عملته من طاعة أو معصية، وقد كان غافلاً عنه. وهو كقوله: ﴿أحصاه الله ونسوه﴾ (١).

قوله تعالى:

فَلَآ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ خمس عشرة آية.

[أقول:](٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ورويس ﴿بظنين﴾

(١) المجادلة: ٦.

(٢) من الحجريّة.

بالظاء، أي ليس على الغيب بمتّهم، والغيب هو القرآن، وما تضمّنه من الأحكام وغير ذلك من إخباره عن الله. الباقون بالضاد، بمعنى: أنّه ليس ببخيل لا يمنع أحداً من تعليمه ولا يكتمه دونه. وفي المصحف بالضاد.

قوله: ﴿فلا أُقسم بالخنّس﴾ معناه: أُقسم و«لا» صلة. وقد بيّنّا نظائره فيما مضى. و«الخنّس» جمع خانس، وهو الغائب عن طلوع، خنست الوحشية في الكناس إذا غابت فيه بعد طلوع. وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام: أنّ الخنّس النجوم لأنّها تخنس بالنهار وتبدو بالليل[1]. وقيل: تخنّس في مغيبها بعد طلوعها، وبه قال الحسن ومجاهد. وقال ابن مسعود وسعيد بن جبير والضحّاك: هي الظباء. وقيل: القسم بالنجوم الخنّس بهرام وزحل والمشتري وعطارد والزهرة[2].

وقوله: ﴿الجوار الكنّس﴾ معناه: النجوم الّتي تجري في مسيرها ثمّ تغيب في مغاربها على ما دبّره تعالى فيها، ففي طلوعها ثمّ جريها في مسيرها ثمّ غيبتها في مواقفها من الآية العظيمة والدلالة الباهرة المؤدّية إلى معرفته تعالى ما لا يخفى على متأمّل معرفته وعظيم شأنه. فالجارية: النجوم السيّارة، و«الجارية» السفن في البحار، و«الجارية» المرأة الشابّة.

وقوله: ﴿الكنّس﴾ نعت لـ﴿الجوار﴾ وهو جمع «كانس» وهي الغيّب في مثل الكناس، وهو كناس الوحشية بيت تتّخذه من الشجرة تختفي فيه، قال طرفة:

كأن كِناسَيْ ضالّةٍ يكنفانها وأَطْرَقِسِيٍّ تحت صُلبٍ مؤيّد[3]

وقوله: ﴿والليل إذا عسعس﴾ قسم آخر، ومعنى ﴿عسعس﴾ أدبر بظلامه، في قول أمير المؤمنين عليّ عليه السلام وابن عبّاس ومجاهد وقتادة والضحّاك

---

(١) تفسير الطبري ١٢: ٤٦٧. (٢) معاني القرآن ٣: ٢٤٢. (٣) ديوان طَرَفة بن العبد: ١٦.

وابن زيد. وقال الحسن ومجاهد في رواية والفضل بن عطيّة: أقبل بظلامه، وتقول العرب: عسعس الليل إذا أدبر بظلامه. قال علقمة بن قرط:

حتّى إذا الصبح لها تنفّسا وانجاب عنها ليلُها وعسعسا[١]

وقيل: عسعس دنا من أوّله وأظلم[٢] و«العسّ» طلب الشيء بالليل، عسّ يعسّ عسّاً، ومنه أخذ العسس. وقال صاحب العين: «العسّ» نقض الليل عن أهل الريبة، و«العسّ» قدح عظيم من خشب أو غيره[٣] وكأنّ أصله امتلاء الشيء بما فيه، فقدح اللبن من شأنه أن يمتلئ به، ويمتلئ الليل بما فيه من الظلام، وعسعس أدبر بامتلاء ظلامه. وقال الحسن ﴿والليل إذا عسعس﴾ معناه: إذا أظلم، والصبح إذا تنفّس إذا أسفر.

وقوله: ﴿والصبح إذا تنفّس﴾ قسم آخر بالصبح إذا أضاء وامتدّ ضوؤه يقال: تنفّس الصبح وتنفّس النهار إذا امتدّ بضوئه. و«التنفس» امتداد هواء الجوف بالخروج من الفم والأنف، يقال: تنفّس الصعداء.

وقوله: ﴿إنّه لقول رسول كريم﴾ جواب الأقسام الّتي مضت، ومعنى ﴿إنّه لقول﴾ يعني القرآن ﴿رسول كريم﴾ وهو جبرئيل عليه السلام ـ في قول قتادة والحسن ـ بمعنى: أنّه سمعه من جبرئيل، ولم يقله من قِبَل نفسه. وقال قوم: يجوز أن يراد به محمّد صلى الله عليه وآله فإنّه أتى به من عند الله[٤].

وقوله: ﴿ذي قوّة﴾ معناه: قويّ على أمر الله. وقيل: معناه قويّ في نفسه في قول من قال: عنى به جبرئيل، لأنّ من قوّته قَلْبه قريات لوط بقوادم جناحه[٥].

---

(١) مجاز القرآن ٢: ٢٨٨، تفسير الطبري ١٢: ٤٧١، الكشف والبيان ١٠: ١٤١.
(٢) معاني القرآن ٣: ٢٤٢.
(٣) العين: ١٥٤١، مادّة «عسّ».
(٤) النكت والعيون ٦: ٢١٨.
(٥) راجع معاني القرآن وإعرابه ٥: ٣٩٢.

وقوله: ﴿عند ذي العرش﴾ معناه: عند الله صاحب العرش ﴿مكين﴾ أي متمكّن عنده، وفي الكلام تعظيم للرسول بأنّه كريم، وأنّه مكين عند ذي العرش العظيم فإنّ الله تعالى أكّد ذلك أتمّ التأكيد.

وقوله: ﴿مطاع ثمّ أمين﴾ من قال المراد بالرسول جبرئيل، قال معناه: إنّه مطاع في الملائكة، أمين على وحي الله. ومن قال: عنى به الرسول صلى الله عليه وآله قال: معناه أنّه يجب أن يطاع وأنّ من أطاعه فيما يدعوه إليه كان فائزاً بخير الدنيا والآخرة. ويرجو بطاعته الثواب ويأمن من العقاب، وأنّه صلى الله عليه وآله كان يُدعى الأمين قبل البعث. فالأمين: هو الحقيق بأن يؤتمن من حيث لا يخون، ولا يقول الزور، ويعمل بالحقّ في الأُمور.

ثمّ خاطب تعالى جماعة الكفّار فقال: ﴿وما صاحبكم بمجنون﴾ أي ليس صاحبكم الّذي يدعوكم إلى الله وإخلاص عبادته بمؤوف العقل على ما يرمونه به من الجنون. و«المجنون» المغطّى على عقله حتّى لا يدرك الأُمور على ما هي به للآفة الغامرة له، فبغمور الآفة يتميّز من النائم، لأنّ النوم ليس بآفة ولا عاهة.

وقوله: ﴿ولقد رآه بالأُفق المبين﴾ معناه: أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله رأى جبرئيل عليه السلام على صورته الّتي خلقه الله عليها بالأُفق المبين. فالأُفق: ناحية من السماء يقال: هو كالنجم في الأُفق، وفلان ينظر في أُفق السماء . وقوله: «مبين» أي هو ظاهر أنّه في آفاق السماء من غير تخيّل لا يرجع إلى يقين. وقال الحسن وقتادة: الأُفق المبين حيث تطلع الشمس.

وقوله: ﴿وما هو على الغيب بضنين﴾ قال ابن عبّاس وسعيد بن جبير وإبراهيم والضحّاك: معناه: ليس على وحي الله وما يخبر به من الأخبار بمتّهم، أي ليس ممّن ينبغي أن يظنّ به الريبة، لأنّ أحواله ناطقة بالصدق

والأمانة. ومن قرأ بالضاد معناه: ليس ببخيل على الغيب.

وقوله: ﴿وما هو بقول شيطان رجيم﴾ معناه: أنّه ليس هذا القرآن قولاً لشيطان رجيم، قال الحسن : معناه: رجمه الله باللعنة. وقيل: رجيم بالشهب طرداً من السماء. فهو «فعيل» بمعنى «مفعول».

وقوله: ﴿فأين تذهبون﴾ معناه: أين تذهبون عن الحقّ الّذي قد ظهر أمره وبدت أعلامه إلّا إلى الضلال الّذي فيه البوار والهلاك، وهو استبطاء لهم في القعود عن النبيّ صلى الله عليه وآله والعمل بما يوجبه القرآن. فالذهاب: هو المصير عن شيء إلى شيء بالنفوذ في الأمر. وقيل: معنى ﴿أي تذهبون﴾ إلى أين تذهبون. قال بعض بني عقيل:

تصيح بنا حنيفة إذ رأتنا وأيّ الأرض نذهب للصباح[1].

يعني: إلى أيّ الأرض. وقيل معناه: فأيّ طريق يسلكون أبين من الطريق الّذي بيّنتُه لكم[2].

﴿إن هو إلّا ذكر للعالمين﴾ معناه: ليس هذا القرآن إلّا ذكر للعالمين يمكنهم أن يتوصّلوا به إلى الحقّ. و«الذكر» ضدّ السهو وعليه يتضادّ العلمَ وأضدادَه، لأنّ الذاكر لا يخلو [من] أن يكون عالماً أو جاهلاً أو مقلّداً أو شاكّاً، ولا يصحّ شيء من ذلك مع السهو الّذي يضادّ الذكر. وقال الرمّاني: «الذكر» إدراك النفس [الّذي يضادّ] للمعنى بما يضادّ السهو. و﴿العالمين﴾ جمع عالم. وقد فسّرناه في ما مضى.

وقوله: ﴿لمن شاء منكم أن يستقيم﴾ قال الحسن: تقديره هذا القرآن ذكر للعالمين، وهو لمن شاء منكم أن يستقيم على أمر الله وعظ.

---

(١) تفسير الطبري ١٢: ٤٧٥، الكشف والبيان ١٠: ١٤٣، معاني القرآن ٣: ٢٤٣.
(٢) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٩٣.

وقوله: ﴿وما تشاؤن إلّا أن يشاء الله ربّ العالمين﴾ قيل في معناه: ثلاثة أقوال:

أحدها: وماتشاؤن من الاستقامة إلّا وقد شاءها الله، لأنّه قد جرى ذكرها فرجعت الكناية إليها، ولا يجوز أن يشاء العبد الاستقامة إلّا وقد شاءها الله، لأنّه أمربها ورغّب فيها أتمّ الترغيب، ومن ترغيبه فيه إرادته له.

والثاني: وما تشاؤن شيئاً إلّا أن يشاء الله تمكينكم منه، لأنّ الكلام يقتضي الاقتدار على تمكينهم إذا شاء ومنعهم إذا شاء.

الثالث: وما تشاؤن إلّا أن يشاء الله أن يلطف لكم في الاستقامة لما في الكلام من معنى النعمة[١].

وروي عن النبيّ صلّى الله عليه وآله أنّه قال: «شيبّتني هود» وأخواتها «الواقعة» و«إذا الشمس كوّرت»[٢] وهو جميع ما وعظ الله به عباده.

فإن قيل: أليس أنس لمّا سئل هل اختضب رسول الله صلّى الله عليه وآله فقال ما شانه الشيب ، فقال: أو شين هو يا با حمزة. فقال كلّكم يكرهه ؟

قيل عنه جوابان أحدهما: أنّه روي أنّ علياً عليه السلام لمّا غسل رسول الله صلّى الله عليه وآله وجد في لحيته شعرات بيضاء، وما لا يظهر إلّا بعد التفتيش لا يكون شيباً. الثاني: أنّه أراد لو كان أمر يشيّب منه إنسان شيّبت قراءة ما في هذه السورة وما فيها من الوعيد، كما قال: ﴿يوم ترونها تذهل كلّ مرضعة عمّا أرضعت وتضع كلّ ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى﴾[٣] وإنّما أراد عِظَم الأهوال على ما بيّنّاه.

---

(١) راجع النكت والعيون ٦: ٢١٩، معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٩٣.
(٢) المعجم الكبير ٦: ١٤٨/٥٨٠٤، راجع الخصال: ٢٢٨/١٠ باب الاربعة.
(٣) الحجّ: ٢.

سورة الانفطار

مكّيّة في قول ابن عبّاس والضحّاك، وهي تسع عشرة آية بلا خلاف.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى:

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ (١) وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (٥) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ (٦) ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ (٨) كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ (٩) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَـٰتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢) اثنتا عشرة آية.

[أقول:][١] قرأ أهل الكوفة ﴿فعدلك﴾ خفيفاً. الباقون مشدّداً. وقرأ أبوجعفر ﴿بل يكذّبون﴾ بالياء على الخبر. الباقون بالتاء على الخطاب. وأدغم حمزة والكسائي اللام في التاء ووافقهم الحلواني عن هشام.

هذا خطاب من الله تعالى للمكلّفين من عباده، وفيه تهديد ووعيد فإنّه يقول: ﴿إذا السماء انفطرت﴾ يعني: انشقّت. فالانفطار: انقطاع الشيء من

(١) من الحجريّة.

الجهات مثل تفطّر، ومنه «الفطير» قطع العجين قبل بلوغه بما هو مناف لاستوائه، فطره يفطره إذا أوجده بما هو كقطع ما يصدّ عنه. والانفطار والانشقاق والانصداع واحد.

وقوله: ﴿وإذا الكواكب انتثرت﴾ معناه: إذا النجوم تساقطت وتواقعت، فالانتثار: تساقط الشيء من الجهات، انتثر ينتثر انتثاراً ونثره ينثره نثراً واستنثر استنثاراً. و«النثر» من الكلام خلاف النظم.

﴿وإذا البحار فجّرت﴾ أي خرق بعض مواضع الماء إلى بعض، يقال: فجّر الأنهار يفجّرها تفجيراً، ومنه «الفجر» لانفجاره بالضياء، ومنه «الفجور» لانخراق صاحبه بالخروج إلى كثير من الذنوب. وقال قتادة: معنى فجّرت: أي تفجّر عذبها في مالحها، ومالحها في عذبها.

وقوله: ﴿وإذا القبور بعثرت﴾ معناه: بحثرت [يقال:] بعثر فلان حوضه وبحثره بمعنى واحد إذا جعل أسفله أعلاه، والبحثرة إثارة الشيء بقلب باطنه إلى ظاهره. وقال ابن عبّاس: بعثرت بحثت.

وقوله: ﴿علمت نفس ما قدّمت وأخّرت﴾ جواب الشرط في قوله: ﴿إذا السماء انفطرت﴾ وما بعده من الشروط. ومعنى ﴿ما قدّمت وأخّرت﴾ ما أخذت وتركت ممّا يستحقّ به الجزاء. وقيل: معناه كلّ ما يستحقّ به الجزاء ممّا كان في أوّل عمره أو آخره. وقيل: معناه: ما قدّمت من عملها وما أخّرت من سنّة سنّتها يعمل بها[1] ذكره القرطي. وقال ابن عبّاس وقتادة: معناه: ما قدّمت من طاعة أو تركت، وقيل: ما قدّمت بعمله[2].

وقوله: ﴿يا أيّها الإنسان﴾ خطاب لجميع الناس من المكلّفين يقول الله

---

(١) معاني القرآن ٣: ٢٤٤.

(٢) راجع الكشف والبيان ١٠: ١٤٥.

لهم لكلّ واحد منهم: ﴿ما غرّك بربّك الكريم﴾ أي أيّ شيء غرّك بخالقك حتّى عصيته فيما أمرك به ونهاك عنه، فالغرور: ظهور أمر يتوهّم به جهل الأمان من المحذور، تقول: غرّ يُغرّ غروراً واغترّه يغترّه اغتراراً. قال الحارث ابن حلّزة:

لم يُغرّوكم غروراً ولكن رَفَع الآلُ جمعَهم والضُحاء[1]

و«الكريم» القادر على التكرّم من غير مانع، ومَن هذه صفته لا يجوز الاغترار به، لأنّ تكرّمه على ما تقتضيه الحكمة من مجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته. قال قتادة: غرّ الشيطان غروراً، وقيل: غرّه بجهله الوجه في طول الإمهال[2].

وقوله: ﴿الّذي خلقك فسوّاك﴾ نعت لـ﴿ربّك﴾ وهو في موضع الجرّ. وقوله: ﴿فسوّاك﴾ فالتسوية: التعديل، والمراد هاهنا تسوية الله تعالى آلته من اليدين والرجلين والعينين ونحو ذلك وعدّله في المزاج على وجه يصحّ معه وجود الحياة. ومن خفّف الدال أراد صرفك إلى أيّ صورة شاء من حسن أو قبح، ومن ثقّل أراد جعلك معدّل الخلق معتدلاً. واختار الفرّاء التشديد، لأنّ «في» مع التعديل أحسن و«إلى» مع العدل[3].

وقوله: ﴿في أيّ صورة ما شاء ركّبك﴾ فالصورة البنية الّتي تميل بالتأليف إلى مايلة الحكاية. وهي من صاره يصوره صوراً إذا ماله، ومنه قوله: ﴿فصُرهنّ اليك﴾[4] أي أمِلْهنّ إليك، ولو كانت بنية من غير مايلة لم يكن صورة. وقال مجاهد: معناه: ﴿في أيّ صورة ما شاء ركّبك﴾ من شبه أب أو أمّ

---

(١) ديوان الحارث بن حلّزة: ٣١.
(٢) النكت والعيون ٦: ٢٢١ ـ ٢٢٢.
(٣) معاني القرآن ٣: ٢٤٤.
(٤) البقرة: ٢٦٠.

أو خال أو عمّ. وقال قوم: معناه ﴿في أيّ صورة ما شاء ركّبك﴾ من ذكر أو أُنثى وجسيم أو نحيف وطويل أو قصير ومستحسن أو مستقبح[١] ومن قال: الإنسان غير هذه الجملة، استدلّ بقوله: ﴿في أيّ صورة ما شاء ركّبك﴾ قالوا لأنّه بيّن أنّه يركّب القابل[٢] في أيّ صورة شاء، فدلّ على أنّه غير الصورة. وقد بيّـنّا القول في تأويل ذلك، على أنّ عـندهم أنّ ذلك الحـيّ لا يصحّ عليه التركّب، والله تعالى بيّن أنّه يركّبه كيف شاء وفي أيّ صورة شاء، وذلك خلاف مذهبهم.

ثمّ قال: ﴿كلّا بل تكذّبون بالدين﴾ ومعنى ﴿كلّا﴾ الردع والزجر أي ارتدعوا وانزجروا، وقيل: معناه: حقّاً بل تكذّبون معاشر الكفّار بالدين الّذي هو الجزاء من الثواب والعقاب لإنكاركم البعث والنشور، ذكره مجاهد وقتادة. وقيل: بل تكذّبون بالدين الّذي جاء به محمّد صلى الله عليه وآله.

ثمّ قال مهدّداً لهم: ﴿وإنّ عليكم لحافظين﴾ يعني: من الملائكة يحفظون عليكم ما تعملون من الطاعة والمعصية.

ثمّ وصفهم فقال: ﴿كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون﴾ أي لا يخفى عليهم شيء من الّذي تعملونه فيثبتون ذلك كلّه. وقيل: إنّ الملائكة تعلم ما يفعله العبد إمّا باضطرار كما تعلم أنّه يقصد إلى خطابنا وأمرنا ونهينا، وإمّا باستدلال إذا رآه وقد ظهر منه الأُمور الّتي لا تكون إلّا عن علم وقصد من نحو التحرّي في الوزن والكيل وردّ الوديعة وقضاء الدين ممّا يتعمّد فيه أهل الحقوق دون غيرهم. وقال الحسن: يعلمون ما تفعلون من الظاهر دون الباطن. وقيل: بل هو على ظاهر العموم لأنّ الله تعالى يعلمهم إيّاه.

---

(١) النكت والعيون ٦: ٢٢٢.

(٢) في الخطّية: الفاعل.

قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ سبع آيات.

[أقول:](١) قرأ ابن كثير وأهل البصرة ﴿يوم لا تملك﴾ برفع الميم. الباقون بالنصب على الظرف، ويجوز أن ينصبه بإضمار فعل أي نقول(٢) يوم لا تملك. ومن رفع استأنف، ويجوز أن يجعله بدلاً ممّا قبله. وقيل: إنّ ﴿يوم﴾ إذا أُضيف إلى فعل مضارع رفع وإذا أُضيف إلى فعل ماض نصب، نحو قولهم: يومُ يفعل، ويومَ فَعَل(٣) وقال أبو عليّ: من رفع جعله خبر ابتداء محذوف، وتقديره هو يوم. ومن نصب فعلى أن يكون الخبر على الجزاء، فكأنّه قال الجزاء يوم لا تملك نفس(٤).

يقول الله تعالى مخبراً: ﴿إنّ الأبرار لفي نعيم﴾ وهم الّذين يفعلون الطاعات الّتي يستحقّون بها الجنّة والثواب بأنواع اللذّات جزاء على طاعاتهم.

وأخبر أيضاً ﴿وإنّ الفجّار﴾ وهم الّذين خرجوا عن طاعة الله إلى معصيته، والمراد به هاهنا الكفّار ﴿لفي جحيم﴾ جزاء على كفرهم ومعاصيهم ﴿وما هم عنها بغائبين﴾ يعني: لا يكونون غائبين عن الجحيم بل يكونون مؤبّدين فيها. وليس يدلّ ذلك على أنّ فسّاق أهل الملّة لا يخرجون من النار، لأنّا بيّنّا أنّ الآية مخصوصة بالكفّار من حيث بيّنا

---

(١) من الحجريّة.

(٢) في الخطّية: يقولون.

(٣) تفسير الطبري ١٢: ٤٨٢.

(٤) الحجّة للقرّاء السبعة ٤: ١٠٢.

في غير موضع أنّ معهم ثواباً دائماً على إيمانهم لم ينحبط لبطلان القول بالتحابط[1] فإذاً لابدّ من إخراجهم من النار ليوفوا ثوابهم.

وقوله: ﴿يصلونها يوم الدين﴾ معناه: أنّ الفجّار يصلون في الجحيم يوم الجزاء على الأعمال. وسمّي الإسلام ديناً لأنّه يستحقّ به الجزاء لأنّ أصل الدين الجزاء، ودين اليهودية وغيرها يستحقّ بها العقاب. وقيل معنى قوله: ﴿يصلونها﴾ يلزمونها بكونهم فيها، ومنه المصطلي الملازم للنار متدفّياً بها، صلي يصلى صِلىً واصطلى يصطلي اصطلاء.

وقوله: ﴿وما أدراك ما يوم الدين ثمّ ما أدراك ما يوم الدين﴾ تعظيم ليوم الجزاء بلفظ الاستفهام، والغرض فيه التنبيه على عِظَم حاله وما يستحقّ به من ثواب وعقاب ليعمل العباد بما يؤدّيهم إلى الثواب والجنّة والنجاة من العقاب، وعِظَم يوم الدين لشدّة الحاجة إلى نعيم الجنّة، والنجاة من النار ومن جملة العصاة، فلا يوم أعظم من ذلك.

ثمّ فسّر تعالى ذلك وبيّنه بعد أن عظّمه فقال: ﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً﴾ ومعناه: لا يملك أحد الدفاع عن غيره ممّن يستحقّ العقاب كما يملك كثير من الناس ذلك في الدنيا، فإنّ الأمر في ذلك اليوم لله وحده لم يملك أحد شيئاً من الأُمور كما ملكهم أشياء كثيرة في دار الدنيا. وقيل: معناه: أنّه لا يمكن أحد أن يجازي أحداً إلّا بالحقّ بأمر الله تعالى.

---

(١) في الخطّية: الإحباط.

سورة المطفّفين

مكّيّة في قول ابن عبّاس، وقال الضحّاك: هي مدنيّة، وهي ستّ وثلاثون آية بلا خلاف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى:

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦﴾ ستّ آيات.

[أقول:][(١)] ﴿ويل﴾ كلمة موضوعة للوعيد والتهديد، ويقال ذلك لمن وقع في هلاك وعقاب. وقيل: إنّ ويلا وادٍ في جهنّم قعره سبعون سنة. وقيل ﴿ويل﴾ دعاء عليهم[(٢)]. وقال ابن عبّاس: كان أهل المدينة من أخبث الناس كيلاً إلى أن أنزل الله تعالى ﴿ويل للمطفّفين﴾ فأحسنوا الكيل، فهدّد الله تعالى بهذا الخطاب كلّ من بخس غيره وحقّه ونقصه ماله من مكيل أو موزون. فالمطفّف: المقلّل حقّ صاحبه بنقصانه عن الحقّ في كيل

---

(١) من الحجريّة.

(٢) النكت والعيون ٦: ٢٢٦.

أو وزن. و«الطفيف» النزر القليل، وهو مأخوذ من طفّ الشيء وهو جانبه. و«التطفيف» التنقيص على وجه الخيانة في الكيل أو الوزن، وأمّا التنقيص في ما يرجع إلى مقدار الحقّ فلا يكون تطفيفاً. ولفظة «المطفّف» صفة ذمّ لا تطلق على من طفّف شيئاً يسيراً إلى أن يصير إلى حال تتفاحش. وفي الناس من قال: لا يطلق حتّى يطفّف أقلّ ما يجب فيه القطع في السرقة، لأنّه المقطوع على أنّه كبيرة.

وقوله: ﴿الّذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون﴾ فالاكتيال: الأخذ بالكيل ونظيره «الاتّزان» وهو الأخذ بالوزن، و«الاعتداد» الأخذ بالعدد، يقال: اكتال يكتال اكتيالاً، وكاله يكيله كيلاً وكايله مكايلة وتكايل تكايلاً، وإنّما ذكر في الذمّ ﴿إذا اكتالوا على الناس يستوفون﴾ ليبيّن منزلتهم في تعدّي الحقّ بأنّهم لم ينقصوا الناس عن طريق مسامحة يعاملون الناس بمثل ذلك بل على محض الظلم في البخس. ويقال: اكتالوا ما عليهم بمعنى أخذوا ما عليهم، واكتالوا منهم أي استوفوا منهم. وقيل: على الناس، فكنّى عنهم.

وقوله: ﴿وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون﴾ كان عيسى بن عمر يجعل «هم» فصلاً[١] في موضع رفع بمعنى الفاعل. والباقون يجعلونه في موضع نصب، وهو الصحيح، وهو قول أكثر المفسّرين. وأهل الحجاز يقولون: وزنتك حقّك وكلتك طعامك. وغيرهم يقولون: كالوا لهم ووزنوا[٢] لهم، وفي الكتاب ﴿كالوهم أو وزنوهم﴾ بلا ألف . ومن قال تقديره: كالوا لهم أو وزنوا لهم، قال: حذف «لهم» للإيجاز من غير إخلال بالمعنى. ويقال:

---

(١) في الخطّية: منفصلاً.

(٢) في الحجريّة: وازنوا.

أخسر وخسر لغتان إذا نقص الحقّ.

وقوله: ﴿ألا يظنّ أولئك أنّهم مبعوثون ليوم عظيم﴾ تبكيت للكافر ولكلّ ظالم وباخس حقّ غيره في صورة الاستفهام. و﴿الظنّ﴾ هاهنا بمعنى العلم، وتقديره ألا يعلم أنّه يبعث يوم القيامة ويجازى على أفعاله من طاعته أو معصيته فيجازى بحسبها في اليوم الّذي وصفه بأنّه يوم عظيم. ويحتمل أن يكون المراد بالظنّ الحسبان أيضاً من ظنّ الجزاء والبعث وقوي في نفسه ذلك، وإن لم يكن عالماً يجب عليه أن يتحرّز ويجتنب المعاصي خوفاً من العقاب الّذي يحذره ويظنّه، كما أنّ من ظنّ العطب في سلوك طريق وجب أن يتجنّب السلوك فيه. قال البلخي: قال قوم: المعنى أفما يوقنون أنّهم مبعوثون، جعله خطاباً للمؤمنين المصدّقين بالبعث[١].

ثمّ زاد في صفة يوم القيامة الّذي وصفه بأنّه يوم عظيم وبيّنه فقال: ﴿يوم يقوم الناس لربّ العالمين﴾ أي يوم يبعثون يوم يقوم الناس من قبورهم ويجتمعون في أرض المحشر، وإنّما يقومون من قبورهم إلى أرض المحشر لجزاء ربّ العالمين، وحذف ذلك للدلالة عليه. ويحتمل ﴿يوم يقوم﴾ ثلاث أوجه: النصب على ذلك اليوم يقوم أو مبعوثون يوم يقوم، والرفع على الاستئناف، والجرّ على البدل من ﴿ليوم عظيم﴾ وقال قتادة: يقومون مقدار ثلاثمائة سنة ويقصر على المؤمنين حتّى يكون كإحدى صلاة المكتوبة، وروي في الخبر عن النبيّ صلى الله عليه وآله انّ أحدهم ليغيب في رشحه إلى أنصاف أذنيه[٢].

---

(١) تفسير السمرقندي ٣: ٥٥٦.

(٢) تفسير الطبري ١: ٤٨٥.

قوله تعالى:

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝١٧﴾ إحدى عشرة آية.

[أقول:][١] روى حفص عن عاصم والمسيّبي الا هبه ﴿بل ران﴾ بإظهار اللام. الباقون بالإدغام. وأمال أهل الكوفة إلّا الأعشى والبرجمي ﴿ران﴾.

قيل في أصل قوله: ﴿كلّا﴾ قولان:

أحدهما: إنّها كلمة واحدة من غير تركيب وضعت للردع والزجر، وجرى ذلك مجرى الأصوات من نحو «صه ومه» وما أشبههما.

والثاني: أن يكون الكاف للتشبيه دخلت على «لا» وشدّدت للمبالغة في الزجر مع الإيذان[٢] بتركيب اللفظ.

ومعنى الآية ارتدعوا أيّها الكفّار والعصاة وانزجروا عن المعاصي معاشر الكفّار، ليس الأمر على ما تظنّون، بل ﴿إنّ كتاب الفجّار﴾ يعني: كتابهم الّذي ثبتت أعمالهم من المعاصي والفجور ﴿لفي سجّين﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد وقتادة: يعني: في الأرض السابعة السفلى، وهو قول الضحّاك. وقال مجاهد: تحت صخرة في الأرض السابعة السفلى. وروي في الخبر أنّ ﴿سجّين﴾ جُبّ في جهنّم[٣]. وقال أبو عبيدة: سجّين شديد، وأنشد:

---

(١) من الحجريّة. (٢) في الخطّية: الإنذار. (٣) تفسير الطبري ١٢: ٤٨٨.

ضرباً تواصى به الأبطال سجّينا[(١)]

يعني: شديداً، فكأنّه كشدّة السجن، ويكون معناه شديد عذابه. وقيل: السجّين هو السجن على التخليد فيه، فهو ﴿فعّيل﴾ من سجنته أسجُنه سَجْناً، وفيه مبالغة، كما يقال: شرّيب من الشرب، وسكّير من السكر، وشرّير من الشرّ[(٢)]. وقيل: الوجه في جعل كتاب الفجّار في سجّبن أنّ تخليده فيه يقوم مقام إدامة التقريع وإنّ عقابهم لا يفنى ولا يبيد كما لا يفنى كتاب سيّئاتهم ولا يبيد.

ثمّ قال على وجه التعظيم والتفخيم: ﴿وما أدريك ما سجّين﴾ أي تفصيله لا تعلمه وإن علمته مجملاً.

ثمّ قال مفسّراً لذلك: ﴿كتاب مرقوم﴾ فالرقم: طبع الخطّ بما فيه علامة لأمر [يقال:] رقمه يرقُمه رَقْماً فهو راقم والشيء مرقوم، ومنه رقمت الثوب بعلامة لئلّا يختلط. والمعنى: إنّ هذا الكتاب الّذي هو في السجن كتاب قد كتب فيه جميع أفعاله من المعاصي والكفر.

ثمّ قال: ﴿ويل يومئذ للمكذّبين﴾ فهو تهديد لمن كذّب بيوم الجزاء ولم يصدّق بصحّة الخبر بكونه، ثمّ فسّر من عنى من المكذّبين، فقال: ﴿الّذين يكذّبون بيوم الدين﴾ يعني: يوم الجزاء، وهو يوم القيامة، لأنّ من كذّب بالباطل وجحده لا يتوجّه إليه الوعيد بل هو ممدوح، فلو أطلق كان فيه إبهام[(٣)].

ثمّ قال: ﴿وما يكذّب به﴾ أي ليس يكذّب بيوم الجزاء ﴿الّا كلّ معتد

---

(١) مجاز القرآن ١: ٢٩٦، تفسير الطبري ٧: ٩٢، معاني القرآن وإعرابه ٣: ٧١، معجم تهذيب اللغة ٢: ١٦٣٦.
(٢) النكت والعيون ٦: ٢٢٨.
(٣) في الخطّية: إبهام.

أثيم﴾ فالمعتدي: المتجاوز للحقّ إلى الباطل، يقال: اعتدى اعتداء، فهو معتد. و«العادي» الخارج عن الحقّ، عدا يعدو عدواناً، وأصله مجاوزة الحدّ، ومن ذلك العداوة وهي مجاوزة الحدّ في الإبغاض، و«العَدْو» مجاوزة الحدّ في إسراع المشي، و«الأثيم» مكتسب القبيح أثِم يأثَم إثماً فهو آثم وأثيم وأثمّه تأثيماً إذا نسبه إلى الإثم، وتأثّم من فعل كذا كقولك تحرّج منه للإثم به. وقال قتادة: أثيم بريّته.

ثمّ وصف المعتدي الأثيم، فقال: ﴿إذا تتلى عليه آياتنا﴾ أي إذا قرئت عليه حجج الله من القرآن وما فيه من الأدلّة ﴿قال أساطير الأوّلين﴾ فواحد الأساطير أُسطورة مثل أُحدوثة وأحاديث. وقيل: معناه: أباطيل الأوّلين[١]. وقيل: معناه هذا ما سطره الأوّلون أي كتبوه ، ولا أصل له[٢].

ثمّ قال تعالى: ﴿كلّا بل ران على قلوبهم﴾ معناه: ليس الأمر على ما قالوه بل غلب على قلوبهم، يقال منه: رانت الخمر على عقله تَرِينُ رَيناً إذا سكر فغلبت على عقله، فالرين: غلبة السكر على القلب. قال أبو زبيد الطائي:

ثمّ لمّا رآه رانت به الخمر وأن لا يرينه باتّقاء[٣]

أي مخافة يسكر، فهي لا تبقيه[٤] وقال الراجز:

لم نرو حتّى هجرت وَرِينَ بي وَرِينَ بالساقي الّذي أمسى معي[٥]

وقال الحسن وقتادة: «الرين» الذنب على الذنب حتّى يموت القلب. وقال ابن زيد: غلبت الذنوب على القلوب، فلا يخلص إليها خير

(١) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٩٩. (٢) تفسير الطبري ١٢: ٤٨٩.
(٣) تفسير الطبري ١٢: ٤٨٩، مجاز القرآن ٢: ٢٨٩، معجم تهذيب اللغة ٢: ١٣٣٣ مادّة «ران».
(٤) في الخطّية: فهو لا يتّقيه. (٥) تفسير الطبري ١٢: ٤٨٩.

العلوم[١]. وقيل: معنى ﴿ران﴾ غطّى وعشى[٢]. وقوله: ﴿ماكانوا يكسبون﴾ ﴿ما﴾ في موضع رفع، لأنّها الفاعلة لـ﴿ران﴾ وما يكسبون يعني: من المعاصي، لأنّ الطاعات وإن كسبوها فما رانت على قلوبهم. قال البلخي: وفي ذلك دلالة على صحّة ما يقوله أهل العدل في تفسير الطبع والختم والإضلال، لأنّه تعالى أخبر أنّهم الّذين يجعلون الرين على قلوبهم.

ثمّ قال: ﴿كلّا إنّهم عن ربّهم يومئذ لمحجوبون﴾ قال الحسن وقتادة: هم محجوبون عن إحسانه. وقيل: عن كرامته[٣]. وقيل: لممنوعون[٤]. وأصل الحجب المنع. ومنه قولهم: الإخوة تحجب الأُمّ عن الثلث إلى السدس.

ثمّ بيّن تعالى ما يفعل بهم فقال: ﴿ثمّ إنّهم لصالوا الجحيم﴾ ومعناه لازموا الجحيم بكونهم فيها لا يغيبون عنها يقال: صلى بالنار يصلي صلْياً فهو صال، والمصطلي الملازم للنار للتدفّي بها.

ثمّ حكى أنّه يقال لهم على وجه التقريع والتبكيت: ﴿هذا الّذي﴾ فعل بكم من العقاب هو الّذي ﴿كنتم به تكذّبون﴾ في دار التكليف، وإنّما سمّي مثل هذا الخطاب تقريعاً لأنّه خبر بما يقرع بشدّة الغمّ على وجه الذمّ، فكلّ خبر على هذا الوصف فهو تقريع وتوبيخ.

قوله تعالى:

كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَـٰمُهُ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ

---

(١) في الخطّية: المعلوم.
(٢) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٩٩.
(٣) تفسير الطبري ١٢: ٤٩٢.
(٤) الكشف والبيان ١٠: ١٥٤.

فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إحدى عشرة آية.

[أقول:](١) قرأ الكسائي وحده ﴿خاتمه مسك﴾ بألف قبل التاء. الباقون ﴿ختامه مسك﴾ فالختام مصدر، والخاتم صفة، ونظيره: رجل كريم الطابع والطباع، قال الفرزدق:

فَبِتْنَ جنابتي مصرّعات ... وبِتُّ أفُضُّ أغلاق الخِتام(٢)

وقرأ أبو جعفر ويعقوب ﴿تعرف﴾ بضمّ التاء وفتح الراء ﴿نضرة﴾ بالرفع على ما لم يسمّ فاعله. الباقون بفتح التاء وكسر الراء ونصب ﴿نضرة﴾.

لمّا ذكر الله تعالى الفجّار وما أعدّه لهم من أنواع العقاب وأليم العذاب ذكر الأبرار وهو جمع برّ مثل جبل وأجبال. و«الأبرار» الّذين فعلوا الطاعات واجتنبوا المعاصي، وأخبر ﴿[إنّ كتاب الأبرار](٣) لفي علّيين﴾ أي مراتب عالية محفوفة بالجلالة، فقد عظّمها الله تعالى بما يدلّ على عظم شأنها في النعمة. وجمعت بالواو والنون تشبيهاً بمن يعقل في الفضل وعظم الشأن. وقال ابن عبّاس: «العلّيون الجنّة». وقال كعب وقتادة ومجاهد والضحّاك: أرواح المؤمنين في السماء السابعة. وقال الضحّاك ـ في رواية ـ «علّيون» سدرة المنتهى، وهي الّتي إليها ينتهي كلّ شيء من أمر الله تعالى. وقيل: علّيون علْو على علْو مضاعف، ولهذا جمع بالواو والنون تفخيماً لشأنه، قال الشاعر:

فأصبحت المذاهبُ قد أذاعتْ ... به الإعصارُ بَعْد الوابِلينا(٤)

---

(١) من الحجريّة.
(٢) معاني القرآن ٣: ٢٤٨، تفسير الطبري ١٢: ٤٩٩.
(٣) في الحجريّة والخطّية: إنّهم.
(٤) معاني القرآن ٣: ٢٤٧، تفسير الطبري ١٢: ٤٩٤، جمهرة اللغة ٣: ٥١٠.

يريد مطراً بعد مطر غير محدود العدد، وكذلك تفخيم شأن العدد الّذي ليس على الواحد، نحو ثلاثين إلى تسعين، وجرت العشرون عليه. وقيل: علّيون أعلى الأمكنة[1]. وقال الحسن: معنى ﴿في علّيّين﴾ في السماء. وقال الجبّائي: معناه: في جملة الملائكة العلّيّين، فلذلك جمع بالواو والنون.

ثمّ قال تعالى على وجه التعظيم لشأن هذه المنازل وتفخيم أمرها: ﴿وما ادراك ما علّيّون﴾ لأنّ تفصيلها لا يمكن العلم بها إلّا بالمشاهدة دون علم الجملة.

ثمّ قال: ﴿كتاب مرقوم﴾ أي الكتاب الّذي ثبت فيه طاعاتهم ﴿مرقوم﴾ أي مكتوب فيه جميع طاعاتهم بما تقرّبه أعينهم وتوجب سرورهم بضدّ الكتاب الّذي للفجّار، لأنّ فيه ما يسوءهم ويسخّن أعينهم.

﴿يشهده المقرّبون﴾ أي يشهد هذا الكتاب الملائكة المقرّبون، أي يشاهدون جوائزهم ويرونها. ومعنى المقرّبين ـ هاهنا ـ هم الّذين قربوا إلى كرامة الله في أجلّ المراتب.

ثمّ أخبر تعالى ﴿إنّ الأبرار﴾ وهم أهل البرّ الّذين فعلوه لوجهه خالصاً من وجوه القبح، فالبرّ النفع الّذي يستحقّ به الشكر والحمد [يقال:] برّ فلان بوالده فهو بارّ به وبرّ به، وجمعه أبرار ﴿لفي نعيم﴾ أي ويحصلون في ملاذّ وأنواع من النفع.

﴿على الأرائك ينظرون﴾ قال ابن عبّاس: «الأرائك» الأسرّة. وقال مجاهد: هي من اللؤلؤ والياقوت، واحدها أريكة، وهو سرير في حجلة

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٩٩.

ينظرون إلى ما أعطاهم الله من الملك والكرامة، والحجلة كالقبّة على الأسرّة.

ثمّ قال: ﴿تعرف في وجوههم نضرة النعيم﴾ أي تتبيّن في وجوههم إشراق النعمة والسرور بها.

وقوله: ﴿يسقون من رحيق﴾ فالرحيق: الخمر الصافية الخالصة من كلّ غشّ. قال الخليل: هي أفضل الخمر وأجودها(١) قال حسّان:

يَسْقون مَن وَرَدَ البريصَ عليهم بَرَدى يُصفّق بالرحيق السلسل(٢)

وقوله: ﴿مختوم﴾ قيل: إنّ هذا الخمر مختوم في الآنية بالمسك، وهو غير الّذي يجري في الأنهار(٣).

وقوله: ﴿ختامه مسك﴾ قيل في معناه قولان:

أحدهما: أنّ مقطعه مسك بأن يوجد ريح المسك عند خاتمة شربه، ذكره ابن عبّاس والحسن وقتادة والضحّاك.

والثاني: أنّه ختم إناؤه بالمسك بدل الطين الّذي يختم بمثله الشراب في الدنيا، ذكره مجاهد وابن زيد(٤). ومن قرأ ﴿خاتمه﴾ مسك أراد آخر شرابه مسك ويفتح التاء في ﴿خاتمه﴾ لأنّ العرب تقول: خاتَم وخاتِم وخاتام وخيتام. ومن قرأ﴿ختامه﴾ أراد شرابهم مختوم بالمسك. والمسك معروف، وهو أجلّ الطيب. سمّي مسكاً، لأنّه يمسك النفس لطيب ريحه. والمسك بالفتح الجلد لإمساكه ما فيه ﴿وفي ذلك﴾ يعني: في ذلك النعيم الّذي وصفه الله ﴿فليتنافس المتنافسون﴾ فالتنافس: تمنّي كلّ واحد من النفسين مثل الشيء النفيس الّذي للنفس الأُخرى أن يكون له، تنافسوا في

(١) العين: ٣٠٥ مادّة «رحق».

(٢) ديوان حسّان ١: ٧٤.

(٣) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٣٠١.

(٤) تفسير الطبري ١٢: ٤٩٨.

الشيء تنافساً ونافسه فيه منافسة، والجليل الّذي ينفس بمثله نفيس، ونفِس عليه بالأمر ينفَس نَفاسة إذا ضنّ به لجلالته.

وقوله: ﴿ومزاجه﴾ أي مزاج ذلك الشراب الّذي وصفه ﴿من تسنيم﴾ فالمزاج: خلط المائع بالمائع كما يمزج الماء الحارّ بالبارد، والشراب بالماء. يقال: أمزجه مزجاً وامتزج امتزاجاً ومازجه ممازجة وتمازجا تمازجاً. و«التسنيم» عين الماء يجري من علو إلى سفل يتسنّم عليهم من الغُرف، واشتقاقه من السنام. وقال عكرمة: من تشريف، ويقال: سنام البعير لعلوّه من بدنه.

وقوله: ﴿عيناً يشرب بها المقرّبون﴾ قيل في نصب ﴿عيناً﴾ وجوه:

أوّلها: أنّ ﴿تسنيم﴾ معرفة و﴿عيناً﴾ قطع منها، أو حال.

الثاني: أن يكون ﴿تسنيم﴾ مصدراً فيجري مجرى ﴿أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً﴾ (١).

الثالث: على تقدير أعني عيناً، مدحاً.

الرابع: يسقون عيناً، والباء زائدة، يقال: شربت عيناً وشربت العين وقد فسّرناه في ﴿هل أتى﴾ (٢).

قوله تعالى:

إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ

---

(١) البلد: ١٤ ـ ١٥.

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٣٠١، تفسير الطبري ١٢: ٥٠٠ ـ ٥٠١.

يَضْحَكُونَ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴿٣٦﴾
ثمان آيات.

[أقول:][1] قرأ حفص ﴿فكهين﴾ بغير ألف بمعنى فرحين مرحين. الباقون ﴿فاكهين﴾ بألف بمعنى لاهين، وهو بمنزلة طامع وطمع. فالفاكه: الطالب ما يتفكّه به من نوادر الأُمور، و«الفاكه» الناعم المعجب بحاله، والتفكّه التمتّع بالمأكول من غير أخذه للقوت . وقرأ أبو عمرو ـ في رواية هارون ـ وحمزة والكسائي ﴿هل ثوّب﴾ بالإدغام، لقرب مخرج اللام من الثاء، الباقون واليزيدي عن أبي عمرو بالإظهار.

قيل: إنّ هذه الآية نزلت في جماعة من كفّار قريش كانوا يعيّرون جماعة من المسلمين الّذين سبقوا إلى الإيمان، ويهزَؤن منهم[2] فقال الله تعالى مخبراً: بأنّ المجرمين ﴿كانوا من الّذين آمنوا﴾ بالله ووحّدوه وأخلصوا له العبادة وصدّقوا أنبياءه عليهم السلام ﴿يضحكون﴾ على وجه الاستهزاء بهم في دار الدنيا والسخريّة منهم ﴿وإذا مرّوا بهم﴾ يعني: إذا مرّ بهم المؤمنون وجازوا عليهم غَمَز بعضهم بعضاً عليهم على وجه التعجّب منهم والسخريّة ﴿وإذا انقلبوا إلى أهلهم﴾ يعني: الكفّار إذا انقلبوا إلى أهلهم وأصحابهم ﴿انقلبوا فاكهين﴾ أي لاهين. ومن قرأ ﴿فكهين﴾ أراد مرحين معجبين بحالهم ﴿وإذا رأوهم﴾ يعني: الكفّار إذا رأوا المؤمنين في دار الدنيا ﴿قالوا﴾ يعني: بعضهم لبعض ﴿إنّ هؤلاء﴾ وأشاروا به إلى المؤمنين ﴿لضالّون﴾ عن طريق الحقّ وعادلون عن الاستقامة، فقال الله تعالى: ﴿وما أُرسلوا عليهم حافظين﴾ أي لم يرسل هؤلاء الكفّار حافظين على

(١) من الحجريّة.
(٢) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٣٠١.

المؤمنين، فيحفظون ما هم عليهم، والمراد بذلك الذمّ لهم بعيب المـؤمنين بالضلال من غير أن كلّفوا منعهم من المراد وأن ينطقوا في ذلك بالصواب، فضلّوا بالخطأ في نسبهم إيّاهم إلى الضلال، فكانوا ألوم منهم لو أُخـطئوا فيه، وقد كلّفوا الاجتهاد.

ثمّ قال: ﴿فاليوم الّذين آمنوا من الكفّار يضحكون﴾ معناه: أنّ يوم القيامة الّذي يجازيالله تعالى كلّ أحد على عمله فيجازيالمؤمن بالثواب والنعيم، ويجازي الكافر بالعذاب والجحيم، ففي ذلك اليوم يضحك المؤمنون من الكفّار، كما كان الكفّار يضحكون من المؤمنين في الدنيا. وقيل: الوجه في ضحك أهل الجنّة من أهل النار أنّهم لمّا كانوا أعداء الله تعالى وأعداءهم جعل الله لهم سروراً في تعذيبهم ولو كان العفو قد وقع عنهم لم يـجز أن يجعل السرور في ذلك، لأنّه مضمّن بالعداوة وقد زالت بالعفو[1].

وقوله: ﴿على الأرائك ينظرون﴾ معناه: أنّ المـؤمنين عـلى سـرر فـي الحجال، واحدها أريكة، ينتظرون ما يفعله الله بهم من الثواب والنعيم في كلّ حال، وما ينزل بالكفّار من أليم العقاب وشديد النكال.

ثمّ قال: ﴿هل ثوّب الكفّار ماكانوا يفعلون﴾ وقيل في معناه قولان:

أحدهما: هل جوزي الكفّار إذا فعل بهم هذا الّذي ذكـر بـما كـانوا يفعلون. الثاني: يـنظرون هـل جـوزي الكـفّار، فـيكون مـوضعه نـصباً بـ﴿ينظرون﴾. والأوّل استئناف لا موضع له[2]. وإنّما قال: ﴿هل ثوّب﴾ لأنّ الثواب في أصل اللغة الجزاء الّذي يرجع على العـامل بـعمله، وإن كـان

(١) راجع تفسير الطبري ١٢: ٥٠٢.

(٢) الكشف والبيان ١٠: ١٥٧، تفسير السمرقندي ٣: ٥٥٩.

الجزاء بالنعيم على الأعمال في العرف. يقال: ثاب الماء يثوب ثوباً إذا رجع، وثاب إليه عقله إذا رجع. ومنه التثاؤب. وقال قوم: يقول المؤمنون بعضهم لبعض: هل جوزي الكفّار ما كانوا يفعلون سروراً بما ينزل بهم[١]. ويجوز أن يكون ذلك من قول الله أو قول الملائكة للمؤمنين تنبيهاً لهم على أنّه جوزي الكفّار على كفرهم وسخريّتهم بالمؤمنين وهزئهم، بأنواع العذاب ليزدادوا بذلك سروراً إلى سرورهم.

(١) راجع النكت والعيون ٦: ٢٣٢.

سورة الانشقاق

مكّيّة في قول ابن عبّاس والضحّاك، وهي خمس وعشرون آية في الكوفي والمدنيّين، وثلاث وعشرون في البصري.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى:

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ
مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٥) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ
كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ (٦) فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨)
وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا (٩) ثمان آيات.

[أقول:][1] يقول الله تعالى لنبيّه وهو متوجّه إلى جميع المكلّفين على وجه الوعيد لهم والتخويف من عقابه والتنبيه لهم على قرب أوان مجيئه: ﴿إذا السماء انشقّت﴾ وتقديره اذكر إذا السماء انشقّت، ومعناه: إذا انفطرت السماء وتصدّعت وانفرجت. فالانشقاق: افتراق امتدادٍ عن التئام، فكلّ انشقاق افتراق وليس كلّ افتراق انشقاقاً. وقيل: «الانشقاق» الانفطار،

(١) من الحجريّة.

والانصداع الانفراج[١].

وقوله: ﴿وأذنت لربّها وحقّت﴾ قال ابن عبّاس وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة: معناه سمعت وأطاعت أي كأنّها سمعت بـاذن وأطـاعت بـانقياد لتدبير الله. تقول العرب: أذن لك هذا الأمر إذناً بمعنى استمع لك، قال عدّي بن زيد:

أيّـها القـلب تـعلّلْ بِـدَدَنْ ... إنّ همّي في سماع وأَذَنْ[٢]

وقال آخر:

صُمٌّ إذا سمعوا خَـيْراً ذُكِـرْتُ بـه ... وإن ذُكِرْتُ بسوء عندهم أَذِنوا[٣]

أي سمعوا. وقال عدّي بن زيد:

فـي سـماع يـأذن الشـيخ له ... وحديثٍ مثل مَا ذيٍّ مُشار[٤]

وقيل: إنّ معنى ﴿وحقّت﴾ حقّ لها أن تأذن بالانقياد لأمر ربّها، يقال: حقّ له أن يكون على هذا الأمر، بمعنى جعل ذلك حقّاً[٥].

وقوله: ﴿وإذا الأرض مدّت﴾ روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: «تـمدّ الأرض يوم القيامة مثل الأديم»[٦] ومعنى ﴿مدّت﴾ بسطت إنّ الله تعالى يأمر بأن تمدّ مدّ الأديم العكاظي حتّى يزيد في سعتها. وقيل معناه: أنّـها تـبسط باندكاك جبالها وآكامها حتّى تصير كالصحيفة الملساء.

وقوله: ﴿وألقت ما فيها وتخلّت﴾ معناه: ألقت مـا فـيها مـن المـعادن

---

(١) راجع تفسير السمرقندي ٣: ٥٦٠.

(٢) الحجّة للقرّاء السبعة ١: ٤٨٦، معجم تهذيب اللغة ١: ١٣٩ مادّة «أذن».

(٣) مجاز القرآن ٢: ٢٩١، تفسير الطبري ١٢: ٥٠٤، معاني القرآن وإعرابه ٥: ٣٠٣.

(٤) الحجّة للقرّاء السبعة ١: ٤٨٦، العين: ٤٠ مادّة «أذن».

(٥) تفسيرالسمرقندي ٣: ٥٦٠، القمّي ٢: ٤١٢.

(٦) تفسير السمرقندي ٣: ٥٦٠، تفسير الطبري ١٢: ٥٠٥.

وغيرها، وتخلّت منها، وذلك ممّا يؤذن بعظم الأمر كما تلقي الحامل ما في بطنها عند الشدّة. وقال قتادة ومجاهد: أخرجت الأرض أثقالها.

وقوله: ﴿وأذنت لربّها وحقّت﴾ قد فسّرناه. وليس هذا على وجه التكرار، لأنّ الأوّل في صفة السماء والثاني في صفة الأرض فليس بتكرار. وهذا كلّه من أشراط الساعة وجلائل الأمور الّتي تكون فيها. وجواب ﴿إذا السماء انشقّت﴾ محذوف، وتقديره إذا كانت هذه الأشياء الّتي ذكرها وعدّدها رأى الإنسان ما قدّم من خير أو شرّ، وقيل جوابه في: ﴿إنّك كادح﴾ قال ابن خالويه الفاء مقدّرة والتقدير إذا السماء انشقّت إلى قوله: ﴿وحقّت﴾ فيا أيّها الإنسان إنّك كادح. وقال البلخي: الواو زائدة وجواب قوله: ﴿أذنت لربّها وحقّت﴾ وهو كقوله: ﴿حتّى إذا جاؤها وفتحت أبوابها﴾ (١) والأوّل هو الوجه.

وقوله: ﴿يا أيّها الإنسان﴾ خطاب لجميع المكلّفين من البشر من ولد آدم يقول الله لهم ولكلّ واحد منهم: ﴿يا أيّها الإنسان إنّك كادح﴾ و«الكدح» السعي الشديد في الأمر يقال: كدح الإنسان في أمره يكدَح كَدْحاً، وفيه كُدُوح وخُدُوش أي آثار من شدّة السعي في الأمر، ومعنى ﴿كادح إلى ربّك كدحاً﴾ أيّها الإنسان إنّك في أمرك بشدّة ومشقّة إلى أن تلقى جزاء عملك من ربّك، فأنت لا تخلو في الدنيا من مشقّة، فلا تعمل لها، واعمل لغيرها فيما تصير به إلى الراحة من الكَدْح، فالغنيّ والفقير كلّ واحد منهما يكدح بما يقتضيه حاله. وقوله: ﴿فملاقيه﴾ تفخيم لشأن الأمر الّذي يلقى من جهته، فجعل لذلك لقاء جزائه لقاءه، وهذا من المعاني العجيبة والحكمة

---

(١) الزمر: ٧٣.

البالغة. والهاء في ﴿فملاقيه﴾ يحتمل أمرين: أن تكون كناية عن الله، وتقديره فملاقي ربّك أي تلاقى جزاء ربّك. ويحتمل أن تكون كناية عن الكدح، وتقديره فملاقي كدحك الّذي هو عملك. وقال تميم بن مقبل:

وما الدهر إلّا تارتان فمنهما
أموت وأُخرى أبتغي العيش أكدَح[١]

أي أدؤب وأسعى في طلب العيش.

ثمّ قسّم تعالى أحوال الخلق يوم القيامة فقال: ﴿فأمّا من أُوتي كتابه بيمينه﴾ يعني: من أُعطي كتابه الّذي فيه ثبت أعماله من طاعة أو معصية بيده اليمنى ﴿فسوف يحاسب حساباً يسيراً﴾ أي يُواقَف على ما عمل من الحسنات وماله عليها من الثواب، وما حطّ عنه من الأوزار إمّا بالتوبة أو العفو، فالحساب اليسير: التجاوز عن السيّئات، والاحتساب بالحسنات. ومن نوقش بالحساب هلك، روي عن النبيّ صلّى الله عليه وآله[٢].

وقوله: ﴿وينقلب إلى أهله مسروراً﴾ أي فرحاً مستبشراً. وقيل: المراد بالأهل هاهنا هم الّذين أعدّ الله لهم من الحور العين[٣] ويجوز أن يكون المراد أقاربه إذا كانوا من أهل الجنّة، و«السرور» هو الاعتقاد أو العلم بوصول نفع إليه في المستقبل أو دفع ضرر عنه. وقال قوم: هو معنى في القلب يلتذّ لأجله بنيل المشتهى. يقال: سرّ بكذا من مال أو ولد أو بلوغ أمل يسُرّ سروراً.

---

(١) الكتاب ٢: ٣٤٦، معاني القرآن ٢: ٣٢٣.
(٢) تفسير الطبري ١٢: ٥٠٧، النكت والعيون ٦: ٢٣٦، معاني القرآن وإعرابه ٥: ٣٠٤.
(٣) راجع تفسير السمرقندي ٣: ٥٦١.

قوله تعالى:

وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ ستّ آيات.

[أقول:][١] قرأ نافع وابن عامر وابن كثير والكسائي ﴿يصلّى﴾ بضمّ الياء وفتح الصاد وتشديد اللام. الباقون بفتح الياء وإسكان الصاد خفيفة. وأماله أهل الكوفة إلّا عاصماً.

لمّا ذكر الله تعالى حكم من يعطى كتابه بيمينه من المؤمنين وأهل الطاعات وما أعدّ لهم من أنواع النعيم وانقلابه إلى أهله مسروراً، ذكر حكم الكفّار الّذين يعطون كتاب أعمالهم وراء ظهورهم، وروي أنّه يخرج شماله من ظهره، ويعطي كتابه منه[٢]. والوجه في ذلك ما قدّمناه من كون ذلك أمارة للملائكة والخلائق أنّه من أهل النار، كما أنّ إعطاء الكتاب باليمين علامة على أنّه من أهل الجنّة.

ثمّ حكى ما يحلّ به فقال: ﴿فسوف يدعو ثبوراً﴾ فالثبور: الهلاك أي يقول واهلاكاه. والمثبور الهالك. وقيل: إنّه يقول: واثبوراه[٣]. وقال الضحّاك: يدعو بالهلاك. وأصل الثبور الهلاك، يقال: ثبره الله يثبُره ثَبْراً إذا أهلكه. ومثبر الناقة الموضع الّذي تطرح ولدها فيه، لأنّها تشفي به على الهلاك. وثبر البحر إذا جزر لهلاكه بانقطاع مائه. يقال: تثابرت الرجال في الحرب إذا تواثبت، لإشفائها على الهلاك بالمواثبة. والمثابر على الشيء المواظب عليه لحمله نفسه على الهلاك بشدّة المواظبة. و«ثبير» جبل معروف. والمثبرة تراب شبيه بالنورة إذا بلغ عرق النخل إليه وقف، لأنّه

---

(١) من الحجريّة. (٢) تفسير السمرقندي ٣: ٥٦١. (٣) معاني القرآن ٣: ٢٥٠.

يهلكه، وإنّما يقول: واويلاه والهفاه واهلاكاه، لأنّه ينزل به من المكروه لأجله مثل ما ينزل بالمتفجّع عليه.

وقوله: ﴿ويصلى سعيراً﴾ معناه: أنّ من صفته أنّه يلزم الكون في السعير، وهي النار المتوقّدة على وجه التأبيد.

وقوله: ﴿إنّه كان في أهله مسروراً﴾ معناه: أنّه اقتطعه السرور بأهله عمّا يلزمه أن يقدّمه. فهو ذمّ له بهذا المعنى، ولو لم يكن إلّا السرور بأهله لم يذمّ عليه. وقيل: معناه: أنّه كان في أهله مسروراً بمعاصي الله.

ثمّ أخبر عنه ﴿إنّه ظنّ﴾ في دار التكليف ﴿أن لن يحور﴾ أي لن يبعثه الله للجزاء، ولا يرجع حيّاً بعد أن يصير ميّتاً. يقال: حار يحور حوراً إذا رجع، وتقول: كلّمته فما أحار جواباً، أي ماردّ جواباً. وفي المثل «نعوذ بالله من الحور بعد الكور»(١) أي من الرجوع إلى النقصان بعد التمام، وحوّره إذا ردّه إلى البياض. و«المِحْوَر» البَكَرَة، لأنّه يدور حتّى يرجع إلى مكانه، والمعنى أنّه ظنّ أن لن يرجع إلى حال الحياة في الآخرة، فلذلك كان يرتكب المآثم وينتهك المحارم.

فقال الله ردّاً عليه: ليس الأمر على ما ظنّه ﴿بلى﴾ إنّه يرجع حيّاً ويجازي على أفعاله.

وقوله: ﴿إنّه كان به بصيراً﴾ معناه: أنّه يخبر عن [أنّه] لن يحور، بلى ويقطع الله عليه بأنّه يحور على أنّه بصير به وبجميع الأمور.

قوله تعالى:

فَلَآ أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا

---

(١) تفسير الطبري ١٢: ٥٠٩.

عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾ عشر آيات.

[أقول:][١] قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بفتح الباء من ﴿لتركبنّ﴾ ومعناه: لتركبنّ أنت يا محمّد. الباقون بضمّ الباء على أن يكون خطاباً للجميع.

يقول الله تعالى مقسماً بالشفق، وقد بيّنّا أنّ ﴿لا﴾ صلة في مثل هذا، والتقدير أُقسم، وقد بيّنّا أنّ لله تعالى أن يقسم بما شاء من خلقه، وليس لأحد أن يقسم إلّا بالله[٢]. وقال بعضهم: أُقسم بربّ الشفق. و«الشفق» هو الحمرة الّتي تبقى عند المغرب في الأُفق. وقال الحسن وقتادة: «الشفق» الحمرة بين المغرب والعشاء الآخرة. وقال قوم: هو البياض. والصحيح أنّ الشفق هو الحمرة الرقيقة في المغرب بعد مغيب الشمس، وأصله الشفق في العمل، وهو الرقّة على خلل فيه. وأشفق على كذا إذا رقّ عليه وخاف هلاكه. وأشفق إذا رقّ بالخوف من وقوعه. قال الفرّاء: سمعت بعض العرب يقول: عليّ ثوب كأنّه الشفق، يريد حمرة[٣]. والاعتبار بالشفق أنّه علامة لوقت بعينه لا يختلف اقتضى إثبات عالم به.

وقوله: ﴿والليل وما وسق﴾ قسم آخر بالليل واتّساقه. وقيل: معنى وسق: جمع إلى مسكنه ما كان منتشراً بالنهار في تصرّفه، يقال: وسقته أَسِقُه وَسْقاً إذا جمعته، وطعام موسوق أي مجموع في الغرائر والأوعية. و«الوسق» الطعام المجتمع وقدره ستّون صاعاً[٤].

---

(١) من الحجريّة.
(٢) الفقيه ٣: ٣٧٦/٤٣٢٣.
(٣) معاني القرآن ٣: ٢٥١.
(٤) تفسير الطبري ١٢: ٥١١.

وقوله: ﴿والقمر إذا اتّسق﴾ قسم آخر بالقمر واتّساقه أي اجتماعه على تمام وهو افتعال من الوسق، فإذا تمّ نور القمر واستمرّ في ضيائه، فذلك الاتّساق له. وقال قتادة: معناه: إذا استدار. وقال مجاهد: إذا استوى.

وقوله: ﴿لتركبنّ طبقاً عن طبق﴾ جواب القسم، ومعناه: مَنْزِلة عن مَنْزِلة وطبقة عن طبقة وذلك أنّ من كان على صلاح دعاه إلى صلاح فوقه، ومن كان على فساد دعاه إلى فساد فوقه، لأنّ كلّ شيء يحنّ إلى شكله. وقيل: معنى ﴿طبقاً عن طبق﴾ جزاء عن عمل. وقيل: معناه شدّة عن شدّة. وقيل: طبقات السماء بعروج الأرواح. وقيل: معناه: حالاً عن حال من إحياء وإماتة، ثمّ إحياء. وقيل: معناه: لتصيرنّ إلى الآخرة عن الدنيا(١). وقال أبو عبيدة: معناه لتركبنّ سنّة الأوّلين ومن كان قبلكم(٢).

ثمّ قال على وجه التبكيت لهم والتقريع: ﴿فما لهم لا يؤمنون﴾ أي أيّ شيء لهم لأجله لا يصدّقون بالله واليوم الآخر ولا يعترفون بالثواب والعقاب.

وقيل : معناه: ما لهم لا يؤمنون، أي ما وجه الارتياب الّذي يصرفهم عن الإيمان.

وقوله: ﴿وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون﴾ عطف على قوله: ﴿لا يؤمنون﴾ والمعنى: ما الّذي يصرفهم عن الإيمان وعن السجود لله والخضوع له والاعتراف بوحدانيّته إذا تلي عليهم القرآن الّذي أنزلتُه على محمّد صلى الله عليه وآله الّذي به ما يلين القلب للعمل من الوعظ والوعد والوعيد يُميَّز به بين الحقّ والباطل، وهو مع ذلك متعذّر عليهم الإتيان بمثله، فهو معجز له صلى الله عليه وآله.

ثمّ قال تعالى: ﴿بل الّذين كفروا يكذّبون﴾ معناه: أنّ الّذي يمنعهم من

(١) النكت والعيون ٦: ٢٣٨.
(٢) مجاز القرآن ٢: ٢٩٢.

السجود عند تلاوة القرآن تكذيبهم جهلاً بما عليهم وعدولاً عن الحقّ. وفي ذلك التحذير من الجهل والحثّ على طلب العلم. وقيل: معناه: ما لهم لا يؤمنون، ولا بدّ من الجزاء على الأعمال. ثمّ قال: تكذيبهم عن جهل منهم يصرفهم عن ذلك.

وقوله: ﴿والله أعلم بما يوعون﴾ قال قتادة ومجاهد: معناه: بما يوعون في صدورهم. وإنّما قال: يوعون، لأنّهم يحملون الآثام في قلوبهم ، فشبّه ذلك بالوعاء، يقال: أوعيت المتاع ووعيت العلم. قال الفرّاء: الأصل جعل الشيء في وعاء، والقلوب شِبْه أوعية لما يحصل فيها من معرفة أوجهل[١].

ثمّ قال للنبيّ صلى الله عليه وآله: ﴿فبشّرهم﴾ يا محمّد جزاء على كفرهم ﴿بعذاب اليم﴾ أي مؤلم. ثمّ استثنى من جملة من يخاطبه [فقال: ﴿إلّا] الّذين آمنوا﴾ بالله ﴿وعملوا﴾ الأعمال ﴿الصالحات﴾ فإنّ ﴿لهم أجراً غير ممنون﴾ أي غير منقوص، في قول ابن عبّاس. وقال غيره: غير مقطوع. وقيل: غير منغص بالمنّ الّذي يؤذي[٢]. وإنّما قيل له: منّ، لأنّه قطع له عن شكر النعمة . قال الزجّاج: تقول العرب: مننت الحبل إذا قطعته[٣]. قال لبيد:

لِمُعفَّر قَهْدٍ تَنَازَعَ شِلْوَهُ غُبْس كَوَاسِبُ ما يمنّ طعامها[٤]

أي ما ينقص، وقيل: ما يكدّر. وكان ابن مجاهد ومحمّد بن القاسم الأنباري يقفان على قوله: ﴿فبشّرهم بعذاب اليم﴾ ويبتدؤون بقوله: ﴿إلّا الّذين آمنوا﴾ قال ابن خالويه: فسألتهما عن ذلك فقالا: الاستثناء منقطع ومعناه: «لكن».

---

(١) معاني القرآن ٣: ٢٥٢.
(٢) راجع النكت والعيون ٦: ٢٣٩.
(٣) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٣٠٦.
(٤) مرّ في ٢: ٣٥١، ديوان لبيد بن ربيعة: ٢١٨.

سورة البروج

مكّيّة في قول ابن عبّاس والضحّاك، وهي اثنتان وعشرون آية بلاخلاف.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى:

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ (١) وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحَـٰبُ ٱلْأُخْدُودِ (٤) ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ (٨) ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ (١٠) عشر آيات.

قوله: ﴿والسماء ذات البروج﴾ قسم من الله تعالى بالسماء، ومنهم من قال: تقديره بربّ السماء. وقد بيّنّا ما في ذلك في غير موضع. ثمّ وصف السماء بأنّها ذات البروج. فالبروج: المنازل العالية. والمراد ـ هاهنا ـ منازل الشمس والقمر، في قول المفسّرين. ومثل ذلك قوله: ﴿ولو كنتم في

بروج مشيّدة﴾[١] أي في منازل عالية. وقيل: السماء اثنى عشر برجاً يسير القمر في كلّ برج منها يومين وثلثاً، فذلك ثمانية وعشرون منزلاً [ثمّ] يستسرّ ليلتين، ومسير الشمس في كلّ برج منها شهر. وقيل: «البروج» النجوم الّتي هي منازل الشمس والقمر[٢].

وقوله: ﴿واليوم الموعود﴾ قسم آخر بهذا اليوم. وروي عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه اليوم الّذي يجازى فيه ويفصل فيه القضاء، وهو يوم القيامة[٣] وهو قول الحسن وقتادة وابن زيد.

قوله: ﴿وشاهد ومشهود﴾ قسم آخر بالشاهد والمشهود. فالشاهد النبيّ صلى الله عليه وآله والمشهود يوم القيامة، في قول الحسن بن عليّ عليه السلام وتلا قوله: ﴿فكيف إذا جئنا من كلّ أمّة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾[٤] وقال: ﴿ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود﴾[٥] وهو قول ابن عبّاس وسعيد بن المسيّب[٦] وفي رواية أُخرى عن ابن عبّاس: إنّ الشاهد هو الله، والمشهود يوم القيامة. وقال قتادة: «الشاهد» يوم الجمعة، و«المشهود» يوم عرفة. وقال الجبّائي: «الشاهد» هم الّذين يشهدون على الخلائق، و«المشهود» هم الّذين يشهدون عليهم، قال: ويجوز أن يكون المراد المدركين والمدركات. وجواب القسم محذوف، وتقديره الأمر حقّ في الجزاء على الأعمال. وقيل: الجواب قوله: ﴿قتل أصحاب الأخدود﴾[٧] وقال الأخفش: يجوز أن يكون على التقديم والتأخير، وتقديره: ﴿قتل أصحاب الأُخدود... والسماء ذات البروج﴾[٨].

---

(١) النساء: ٧٨. (٢) تفسير الطبري ١٢: ٥١٩، مجاز القرآن ٢: ٢٩٣.
(٣) سنن الترمذي ٥: ٣٣٣٩/٤٣٦. (٤) النساء: ٤١. (٥) هود: ١٠٣.
(٦) تفسير الطبري ١٢: ٥٢١. (٧) معاني القرآن ٣: ٢٥٣. (٨) معاني القرآن ٢: ٧٣٦.

وقوله: ﴿قتل أصحاب الأُخدود﴾ معناه: لعن. وقيل: لعنوا بتحريقهم في الدنيا قبل الآخرة[١]. وقال الجبّائي: يحتمل أن يكون المعنى بذلك القاتلين، ويحتمل أن يكون المقتولين. فإذا حمل على القاتلين، فمعناه: لعنوا بما فعلوه من قتل المؤمنين. وإن حمل على المقتولين، فالمعنى: أنّهم قتلوا بالإحراق بالنار. وذكر الله هؤلاء المؤمنين بحسن بصيرتهم في الصبر على دينهم حتّى فُتِنوا وأُحرقوا بالنار، لا يعطون التقيّة بالرجوع عن الإيمان. و«الأُخدود» هو الشقّ العظيم في الأرض، ومنه ما روي في معجزة النبيّ صلى الله عليه وآله أنّ الشجرة دعاها النبيّ صلى الله عليه وآله فجعلت تخدّ الأرض خدّاً، حتّى أتته[٢]. ومنه «الخد» لمجاري الدموع. والمخدّة لوضع الخدّ عليها، وتخدّد لحمه إذا صار فيه طرائق كالشقوق.

وقوله: ﴿النار ذات الوقود﴾ فجرّ النار على البدل من الأُخدود، وهو بدل الاشتمال، ووصفها بأنّها ذات الوقود، فالوقود: بفتح الواو ما يشعل من الحطب وغيره، وبضمّ الواو الإيقاد. وإنّما وصفها بأنّها ذات الوقود مع أنّ كلّ نار ذات وقود لأمرين:

أحدهما: أنّه قد يكون نار ليست ذات وقود كنار الحجر ونار الكبد.

والثاني: أنّه أراد بذلك وقوداً مخصوصاً، لأنّه معروف، فكأنّه أراد الوقود بأبدان الناس، كما قال: ﴿وقودها الناس والحجارة﴾[٣].

وقوله: ﴿إذ هم عليها قعود﴾ أي حين هم قعود عليها أي بالقرب منها، وقال الربيع بن أنس : الكفّار الّذين كانوا قعوداً على النار خرج لسان منها فأحرقهم عن آخرهم. وروي عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام «أنّهم كانوا من

---

(١) راجع النكت والعيون ٦: ٢٤٢. (٢) الإرشاد للمفيد ٢: ٢٢٤. (٣) البقرة: ٢٤، التحريم: ٦.

المجوس»[١] وقال الضحّاك: كانوا من بني إسرائيل. وقيل: كانوا من اليمين[٢]. ومعناه: هم عليها قعود حين كان أُولئك الكفّار قعوداً عند النار. والقعود جمع قاعد كقولك: شاهد وشهود، وراكع وركوع، والقعود أيضاً مصدر قعد يقعد قعوداً.

وقوله: ﴿وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود﴾ أي حضور على مشاهدتهم لهم، فكلّ حاضر على ما شاهده إمّا بسمع أو بصر، فهو شاهد. والمشاهِد هو المدرك بحاسّة.

وقوله: ﴿وما نقموا منهم إلّا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾ معناه: أنّه لم ينقم هؤلاء الكفّار من أُولئك المؤمنين الّذين أحرقوهم بالنار إلّا لإيمانهمبالله تعالى القاهرالّذي لا يُقهر ﴿الحميد﴾ في جميع أفعاله. فالنقمة: إيجاب مضرّة على حال مذمومة. والنقمة نقيض النعمة، فهؤلاء الجهّال نقموا حال الإيمان، لأنّهم جعلوها بجهلهم حالاً مذمومة، قال الشاعر:

ما نقموا من بني أميّة … إلّا أنّهم يحلُمون إن غضبوا[٣]

والداعي لهم إلى أن ينقموا من الإيمان الجهل والخلاف، لأنّ ما سبقوا إليه من الجهل يدعوهم إلى عداوة من خالفهم وسخف آرائهم، وإنّ ذلك يفسد عليهم ملكهم. ويصرف الوجوه عنهم.

وقوله: ﴿الّذي له ملك السموات والأرض﴾ صفة ﴿العزيز الحميد﴾ والمعنى: أنّ هؤلاء الكفّار نقموا من المؤمنين إيمانهم بالله تعالى العزيز، ومعناه: القاهر الّذي لا يغالب. «الحميد» ومعناه المستحقّ للحمد على جميع أفعاله ﴿الّذي له ملك السموات والأرض﴾ ومعناه: له التصرّف في

---

(١) الكشف والبيان ١٠: ١٧١.

(٢) تفسير الطبري ١٢: ٥٢٣.

(٣) مرّ في ٥: ٣٧٢، مجاز القرآن ١: ١٧٠، الكامل ٢: ٨٢٨.

السموات والأرض ولا اعتراض لأحد عليه. ثمّ قال: ﴿والله على كلّ شيء شهيد﴾ أي عالم بجميعه لا يخفى عليه شيء من ذلك.

وقوله: ﴿إنّ الّذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات﴾ قال ابن عبّاس وقتادة والضحّاك: حرّقوهم بالنار ﴿ثمّ لم يتوبوا﴾ إنّما شرط عدم التوبة، لأنّهم لو تابوا لما توجّه إليهم الوعيد، وإن لم يتوبوا توجّه إليهم الوعيد بقوله: ﴿فلهم عذاب جهنّم﴾ يعني: في الآخرة ﴿ولهم عذاب الحريق﴾ في الدنيا، في قول الربيع. قال الفرّاء: لما خدّدوا للمؤمنين الأخاديد وطرحوا فيها النار وطرحوا فيها المؤمنين ارتفعت النار عليهم، فأحرقتهم فوق الأخاديد ونجا المؤمنون (١).

وقال قوم: ﴿إنّ الّذين فتنوا المؤمنين﴾ جواب القسم في أوّل السورة. وهذا غير صحيح، لأنّ الكلام قد طال وانقطع بالإخبار ما بينها، وقال الزجّاج: لهم عذاب بكفرهم، وعذاب بإحراقهم المؤمنين (٢).

قوله تعالى:

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾ اثنتا عشرة آية.

[أقول:](٣) قرأ حمزة والكسائي إلّا قتيبة وخلف ﴿المجيد﴾ بالخفض جعلوه نعتاً للعرش. الباقون بالرفع على أنّه نعت لله تعالى، وقرأ نافع ﴿محفوظ﴾ بالرفع. الباقون بالخفض نعتاً للوح. ومن رفع جعله نعتاً للقرآن.

---

(١) معاني القرآن ٣: ٢٥٣. (٢) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٣٠٨. (٣) من الحجريّة.

أخبر الله تعالى عن صفة المؤمنين، فقال: ﴿إنّ الّذين آمنوا﴾ أي صدّقوا بتوحيد الله وإخلاص عبادته ﴿وعملوا الصالحات﴾ من الأعمال واجتنبوا القبائح ﴿لهم جنّات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي لهم بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار ﴿ذلك الفوز الكبير﴾ فالفوز: النجاة بالنفع الخالص، وأصله النجاة. وقيل للمهلكة: مفازة تفاؤلاً كأنّه قيل: منجاة. وفاز فلان بكذا أي خلص له نفعه، يفوز فوزاً. ولا يقال إلّا في تعظيم النفع الّذي صار له، وإنّما ذكر الكبير هاهنا لأنّ النعيم لهؤلاء العاملين كبير بالإضافة إلى نعيم من لا عمل له ممّن يدخل الجنّة، لما فيه من الإجلال والإكرام والمدح والإعظام. وقيل: «الفوز» الحظّ الواقع من الخير.

ثمّ قال متوعّداً ومتهدّداً للكفّار والعصاة: ﴿إنّ بطش ربّك لشديد﴾ يا محمّدﷺ. و«البطش» الأخذ بالعنف، بطش به يبطُش بَطْشاً ويبطِش أيضاً فهو باطش، وإذا وصف بالشدّة فقد تضاعف مكروهه وتزايد إيلامه.

وقوله: ﴿إنّه هو يبدئ ويعيد﴾ قال ابن عبّاس: معناه أنّه يبدئ العذاب ويعيده لاقتضاء ما قبله ذلك. وقال الحسن والضحّاك وابن زيد: يُبدئ الخلق ويعيده، لأنّ الأظهر في وصفه تعالى بأنّه المبدئ المعيد العموم في كلّ مخلوق.

﴿وهو الغفور﴾ يعني: الستّار على خلقه معاصيهم ﴿الودود﴾ أي وادّ لهم ومحبّ لمنافع خلقه.

﴿ذو العرش المجيد﴾ ومعناه: صاحب العرش، العظيم المجيد. وقال ابن عبّاس: معناه: الكريم. وقرأ أهل الكوفة إلّا عاصماً المجيد بالجرّ جعلوه نعتاً للعرش، ومعناه: ذو العرش الرفيع. الباقون بالرفع جعلوه نعتاً للغفور أي هو الغفور الودود المجيد ذو العرش. قال المبرّد: يجوز أن

يكون نعتاً لقوله: ﴿إنّ بطش ربّك... المجيد﴾ فيكون قد فصّل بينهما. وفيه بُعد، لأنّه قال: ﴿لشديد إنّه هو يبدئ ويعيد وهو الغفور الودود ذو العرش﴾ وفصّل بهذا كلّه. يقال: مَجَدت الإبل تمجُد مُجوداً إذا رعيتها فَرَعَتْ وشَبِعَتْ. ولا فعل لك، أو أمجدتها إمجاداً إذا أشبعتها من العلف وملأت بطونها ولا فعل لها في ذلك. وفي المثل: في كلّ شجر نار واستمجد المَرْخ والعَفَار. ومعناه: كثر ناره لأنّه ليس في الشجر أكثر ناراً من العفار[1].

وقوله تعالى: ﴿فعّال لما يريد﴾ معناه: ما يشاؤه ويريده من أفعال نفسه يفعله لا يمنعه من ذلك مانع ولا يعترض عليه معترض، ولا يجوز أن يكون المراد إنّه فعّال لكلّ ما يريد لأنّ ذلك يقتضي أنّه فعّال لكلّ ما يريد أن يفعله العباد، وذلك أنّه يستحيل أن يفعل ما يريد أن يفعله العباد، لأنّ في ذلك إبطال الأمر والنهي والطاعة والمعصية والثواب والعقاب، إذ لا يأمرهم أن يفعلوا ما قد فعله، ولا ينهاهم عنه، ولأنّه قد أراد من الكفّار أن يؤمنوا، لأنّه قد أمرهم بالإيمان وما فعل إيمانهم وقد قال الله تعالى: ﴿وما الله يريد ظلماً للعالمين﴾[2] ولو فَعَل ظُلْمهم لكان قد أراد ظلمهم.

وقوله: ﴿هل اتاك حديث الجنود فرعون وثمود﴾ معناه: تذكّر يا محمّد حديثهم تذكّر معتبر، فإنّك تنتفع به، وهذا من الإيجاز الحسن والتفخيم الّذي لا يقوم مقامه التصريح لما يذهب الوهم في أمرهم كلّ مذهب ويطلب الاعتبار كلّ مطلب.

وقوله: ﴿بل الّذين كفروا في تكذيب﴾ معناه: بل هؤلاء الكفّار الّذين كفروا كذّبوا بالبعث والنشور وأعرضوا عمّا يوجبه الاعتبار بفرعون

---

(١) الحجّة للقرّاء السبعة ٤: ١١٠، كتاب جمهرة الأمثال ٢: ٩٢. (٢) آل عمران: ١٠٨.

وثمود، وأقبلوا على ما يوجبه الكفر والتكذيب من التأكيد، ولم يعلموا أنّ ﴿الله من ورائهم محيط﴾ يقدر أن ينزل بهم ما أنزل بفرعون. وقيل المعنى: ﴿هل أتاك حديث الجنود﴾ وما كان منهم إلى أنبيائهم فاصبر كما صبر الرسل قبلك[1] ﴿بل الّذين كفروا في تكذيب﴾ إيثاراً منهم لأهوائهم واتّباعاً لسنن آبائهم.

وقوله: ﴿والله من ورائهم محيط﴾ أي هم مقدور عليهم كما يكون فيما أحاط الله بهم، وهذا من بلاغة القرآن.

وقوله: ﴿بل هو قرآن مجيد﴾ أي كريم فالمجيد الكريم العظيم الكريم بما يعطي من الخير. فلمّا كان القرآن يعطي المعاني الجليلة والدلائل النفيسة كان كريماً مجيداً بما يعطي من ذلك، لأنّ جميعه حكم. وقيل: الحِكَم على ثلاثة أوجه لا رابع لها: معنى يعمل عليه فيما يخشى ويتّقى، وموعظة تلين القلب للعمل بالحقّ، وحجّة تؤدّي إلى تمييز الحقّ من الباطل في علم دين أو دنيا، وعلم الدين أشرفهما، وجميع ذلك موجود في القرآن.

وقوله: ﴿في لوح محفوظ﴾ عن التغيير والتبديل والنقصان والزيادة. وقال مجاهد: المحفوظ أُمّ الكتاب. وقيل: إنّه اللوح المحفوظ الّذي كتب الله جميع ما كان ويكون فيه ـ ذكره أنس بن مالك ـ أي كأنّه بما ضمن الله من حفظه في لوح محفوظ. ومن رفع ﴿محفوظ﴾ جعله صفة القرآن. ومن قرأه بالخفض جعله صفة اللوح.

---

(١) تفسير السمرقندي ٣: ٥٦٧، تفسير الطبري ١٢: ٥٣٠.

سورة الطارق

مكّيّة في قول ابن عبّاس والضحّاك، وهي سبع عشرة آية في الكوفي والبصري والمدني الأخير، وستّ عشرة آية في المدني الأوّل.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى:
وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣) إِنْ كُلُّ
نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤) فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ
مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩)
فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠) عشر آيات.

[أقول:](١) قرأ ﴿لمّا﴾ بالتشديد عاصم وحمزة وابن عامر بمعنى «إلّا» وقد جاء ﴿لمّا﴾ مشدّداً بمعنى «إلّا» في موضعين: إن، والقسم، كقولهم سألتك لما فعلت بمعنى إلّا فعلت(٢). قال قوم: تقديره لممّا، فحذفت إحدى الميمات كراهة اجتماع الأمثال. وقرأ الباقون بالتخفيف جعلوا «ما» صلة مؤكّدة. وتقديره لعليها حافظ. واللام لام الابتداء الّتي يدخل في خبر

---

(١) من الحجريّة.

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٣١١.

«إن» و«أن» مخفّفة من الثقيلة.

هذا قسم من الله تعالى بالسماء وبالطارق، وقد بيّنّا القول فيه. فالطارق: هو الّذي يجيء ليلاً، وقد فسّره الله تعالى وبيّنه بأنّه ﴿النجم الثاقب﴾ فالنجم هو الكوكب. قال الحسن: المراد بالنجم جماع النجوم. وقال ابن زيد: هو زحل.

وقوله: ﴿وما أدراك﴾ معناه: أنّه لم تدر حتّى أعلمتك، وكلّ ما يعلمه الإنسان فالله أعلمه بالضرورة أو بالدليل. قال قتادة: «طروق النجم» ظهورها بالليل وخفاؤها بالنهار.

وقوله: ﴿والطارق﴾ تبيين عن معنى وصفه بالطارق.

وقوله: ﴿النجم الثاقب﴾ تبيين عن ماهيّة نفسه. يقال: طرقني فلان إذا أتاني ليلاً، وأصل الطرق الدقّ، ومنه المِطْرَقة، لأنّه يدقّ بها، والطريق لأنّ المارّة تدقّه بأرجلها، والطارق لأنّه يحتاج إلى الدقّ للتنبيه. و«النجم» هو الكوكب الطالع في السماء، يقال لكلّ طالع ناجم تشبيهاً به، ونجم النجم[١] إذا طلع، وكذلك السنّ والقرن. ويوصف بالطالع والغارب، لأنّه إذا طلع من المشرق غاب رقيبه من المغرب. و«الثاقب» المضيء المنير، وثُقُوبه توقّده وتنوّره[٢] تقول العرب: أثقب نارك أي أشعلها حتّى تضيء. وثقب لسانها بخروج الشعاع منها. و«الثاقب» أيضاً العالي الشديد العلو، تقول العرب للطائر إذا ارتفع ارتفاعاً شديداً: قد ثقب كلّه كأنّه ثقب الجوّ الأعلى. وقال مجاهد وقتادة وابن عبّاس: «الثاقب» المضيء. وقال ابن زيد: هو العالي وهو زحل[٣].

(١) في الخطّية: النَبْت. (٢) في الخطّية: بنوره. (٣) راجع معاني القرآن ٣: ٢٥٤.

وقوله: ﴿إن كلّ نفس لمّا عليها حافظ﴾ جواب القسم و﴿إن﴾ هاهنا المخفّفة من الثقيلة الّتي يتلقّى بها القسم، والمعنى: إن كلّ نفس لعليها حافظ، فيمن خفّف. ومن شدّد قال: ﴿إن﴾ بمعنى «ما» وتقديره ليس كلّ نفس إلّا عليها حافظ. وقال قتادة: حافظ من الملائكة يحفظون عمله ورزقه وأجله، فالحافظ: المانع من هلاك الشيء حفظه يحفَظه حِفْظاً واحتفظ به احتفاظاً. فأمّا أحفظه فمعناه: أغضبه، وتحفّظ من الأمر إذا امتنع بحفظ نفسه منه، وحافَظ عليه إذا واظَب عليه بالحفظ.

وقوله: ﴿فلينظر الإنسان ممّ خلق﴾ أمر من الله تعالى للمكلّفين من الناس أن يفكّروا ويعتبروا ممّاذا خلقهم الله.

ثمّ بيّن تعالى ممّاذا خلقهم فقال: ﴿خلق من ماء دافق﴾ فالدفق: هو صبّ الماء الكثير باعتماد قويّ، ومثله الدفع، فالماء الّذي يكون منه الولد يكون دفقاً وهي النطفة الّتي يخلق الله منها الولد إنساناً أو غيره. وماء دافق معناه مدفوق، ومثله سرّ كاتم، وعيشة راضية.

ثمّ بيّن ذلك من أيّ موضع يخرج هذا الماء، فقال: ﴿يخرج من بين الصلب والترائب﴾ فالصلب: هو الظهر، و«الترائب» جمع تريبة وهو موضع القلادة من صدر المرأة في قول ابن عبّاس، وهو مأخوذ من تذليل حركتها كالتراب. قال المثقّب:

ومِنْ ذهبٍ يُسَنّ إلى تريب كلَوْن العاج ليس بذي غُضون (١)

وقال آخر:

والزعفران على ترائبها شَرِقاً به اللَبَاتُ والصدر (٢)

---

(١) مجاز القرآن ٢: ٢٩٤، الكشف والبيان ١٠: ١٨٠.

(٢) تفسير الطبري ١٢: ٥٣٦، النكت والعيون ٦: ٢٤٧.

وقيل: إنّ نطفة الرجل تخرج من ظهره، ونطفة المرأة من صدرها، فإذا غلب ماء الرجل خرج الولد إلى شبه أهل بيت أبيه، وإذا غلب ماء المرأة خرج إلى شبه أهل بيت أُمّه.

وقوله: ﴿إنّه على رجعه لقادر﴾ قال عكرمة ومجاهد: معناه: أنّه تعالى على ردّ الماء في الصلب قادر. وقال الضحّاك: إنّه على ردّ الإنسان ماء كما كان قادر. و«الرجع» الماء، وأنشد أبو عبيدة للمنخَّل في صفة سيف:

أبيضُ كالرجع رَسوب إذا ... ما ثاخ في محتفَل يختلي[1]

ومعنى الآية: أنّ الّذي ابتدأ الخلق من ماء دافق أخرجه من بين الصلب والترائب حيّاً قادر على إعادته ﴿يوم تبلى السرائر﴾ لأنّ الإعادة أهون من ابتداء النشأة. وقال الحسن وقتادة معناه: أنّه على رجع الإنسان بالإحياء بعد الممات قادر.

وقوله: ﴿يوم تبلى السرائر﴾ معناه: تختبر بإظهارها وإظهار موجبها لأنّ الابتلاء والاختبار والاعتبار كلّه إنّما هو بإظهار موجب المعنى، ففي الطاعة الحمد والثواب، وفي المعصية الذمّ والعقاب. وواحد السرائر سريرة وهي الطويّة في النفس، وهو إسرار المعنى في النفس، وقد يكون الإسرار من واحد بعينه مع اطّلاع غيره عليه فلا يكون سريرة. وقيل: إنّ الله يفضح العاصي بما كان يسرّ من معاصيه ويجلّ المؤمن بإظهار ما كان يسرّه من طاعته ليكرمه الناس بذلك ويجلّوه.

ثمّ بيّن تعالى أنّه لا قدرة لهذا الإنسان الّذي يعيده الله ويعاقبه على

---

(١) مجاز القرآن ٢: ٢٩٤، تفسير الطبري ١٢: ٥٣٨، معاني القرآن وإعرابه ٥: ٣١٢، الكشف والبيان ١٠: ١٨١، جمهرة اللغة ٢: ٧٩ مادّة «جرم».

معاصيه على دفع ذلك عن نفسه ولا ناصر له يدفعه، فالقدرة هي القوّة بعينها.

قوله تعالى:

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾ سبع آيات.

[أقول:][١] هذا قسم من الله تعالى بالسماء ذات الرجع. قال ابن عبّاس ومجاهد وقتادة والضحّاك: ذات المطر. وقال ابن زيد: يعني: شمسها وقمرها ونجومها تغيب ثمّ تطلع. وقيل: رَجْع السماء إعطاؤها الخير يكون من جهتها حالاً بعد حال على مرور الأزمان، رجعه يرجعه رجعاً إذا أعطاه مرّة بعد مرّة. وقيل: «الرجع» الماء الكثير تردّده بالرياح الّتي تمرّ عليه. قال المنخّل في صفة سيف:

أبيض كالرَجْع رَسوب إذا ما ثاخ في محتفَل يختلى[٢]

وقال الفرّاء: تبتدئ بالمطر ثمّ ترجع به في كلّ عام[٣].

وقوله: ﴿والأرض ذات الصدع﴾ قسم آخر بالأرض ذات الصدع. وقال ابن عبّاس وقتادة والضحّاك وابن زيد: ﴿ذات الصدع﴾ انشقاقها بالنبات لضروب الزروع والأشجار، صدَع يصدَع صَدْعاً وتصدّع الشيء تصدّعاً وانصدع انصداعاً وصدّعه تصديعاً.

وقوله: ﴿إنّه لقول فصل﴾ جواب القسم، ومعناه: أنّ ما ذكره من إعادة الخلق وإنشائهم النشأة الثانية قول فصل، أي هو قول يفصل الحقّ من

(١) من الحجريّة. (٢) راجع الصفحة السابقة. (٣) معاني القرآن ٣: ٢٥٥.

الباطل ومثله فصل القضاء، وكلّ معنى فإنّه يحتاج فيه إلى فصل حقّه من باطله.

ثمّ قال: ﴿وما هو بالهزل﴾ أي مع أنّه فصل ليس بهزل. و«الهزل» نقيض الجدّ، ومثله اللهو واللعب والعبث. يقال: هزَل يهزِل هَزْلاً.

ثمّ أخبر تعالى عن الكفّار فقال: ﴿إنّهم يكيدون كيداً﴾ أي يحتالون في دفع الحجج وإنكار الآيات ويفعلون ما يوجب الغيظ، يقال: كاده يكيده كيداً وكايَده مكايدة وتكايد القوم تكايداً [أي يحتالون في دفع الحجج وإنكار الآيات][١].

فقال تعالى: ﴿وأكيد كيداً﴾ أي أُجازيهم على كيدهم، وسمّي الجزاء على الكيد باسمه لازدواج الكلام. وقيل: المعنى: أنّهم يحتالون لهلاك النبيّ صلى الله عليه وآله وأصحابه، وأنا أُسبّب لهم النصر والغلبة وأقوي دواعيهم إلى القتال، فسمّي ذلك كيداً من حيث يخفى عليهم ذلك.

وقوله: ﴿فمهّل الكافرين أمهلهم رويداً﴾ خطاب للنبيّ صلى الله عليه وآله بأن يمهلهم قليلاً، وجاء[٢] المصدر على غير لفظه كما قال: ﴿أنبتكم من الأرض نباتاً﴾[٣] و﴿رويداً﴾ معناه: إمهالاً، يقال: أرودته إرواداً وتصغيره رُوَيْد. وقال قتادة: معناه قليلاً، والمعنى: لا تعجل على طلب هلاكهم بل اصبر عليهم قليلاً، فإنّ الله يهلكهم لا محالة بالقتل والذلّ في الدنيا وما ينزل عليهم في الآخرة من أنواع العقاب، وإنّ ما وعدتك لا يبعد عنهم.

---

(١) ما بين المعقوفتين ليس في الخطّية.
(٢) في الحجريّة: جاز.
(٣) نوح: ١٧.

سورة الأعلى

مكّيّة في قول ابن عبّاس، وقال الضحّاك: هي مدنيّة، وهي تسع عشرة آية بلا خلاف.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى:

سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ عشر آيات.

[أقول:][١] قرأ الكسائي وحده ﴿قدر فهدى﴾ خفيفاً. الباقون بالتشديد وهما لغتان على ما فسّرناه فيما مضى.

هذا أمر من الله تعالى للنبيّ ﷺ ويدخل في ذلك جميع أُمّته يأمرهم بأن يسبّحوا الله، ومعناه: أن ينزّهوه عن كلّ ما لا يليق به من الصفات المذمومة والأفعال القبيحة والإخلال بالواجبات[٢] لأنّ التسبيح هو التنزيه

---

(١) من الحجريّة.

(٢) في الخطّية: بالواجب.

لله عمّا لا يجوز عليه كوصفه بأنّه لا إله إلّا هو، فينفي ما لا يجوز في صفته من شريك في عبادته مع الإقرار بأنّه لا إله إلّا هو[١] وحده. وقال ابن عبّاس وقتادة: معنا ﴿سبّح... ﴾ قل سبحان ربّي الأعلى. وروي أنّه لمّا نزلت هذه السورة، قال النبيّ ﷺ: ضعوا هذا في سجودكم[٢].

وقيل: معناه: أن نزّه اسم ربّك بأن لا تسمّي به سواه. وقيل: معناه: نزّه ربّك عمّا يصفه به المشركون، وأراد بالاسم المسمّى. وقيل: معناه: صلّ باسم ربك الأعلى[٣]. وقيل: ذكر الاسم والمراد به تعظيم المسمّى، كما قال الشاعر:

إلى الحول ثمّ اسمُ السلام عليكما ومن يَبْكِ حولاً كاملاً فقد اعتذر[٤]

و«الأعلى» معناه القادر الّذي لا قادر أقدر منه. وصفة الأعلى منقولة إلى معنى الأقدر حتّى لو بطل معنى علوّ المكان لم يبطل أن يفهم بحقيقتها، أو هي غير مضمّنة بغيرها ولم ينقل صفة الأرفع وإنّما يعرف في رفعة المكان[٥].

وقوله: ﴿الّذي خلق فسوّى﴾ نعت لقوله: ﴿ربّك﴾ وموضعه الجرّ، ومعناه: الّذي خلق الخلق فسوّى بينهم في باب الإحكام. وقيل: معنى ﴿فسوّى﴾ أي عدل خلقهم، فالتسوية: الجمع بين الشيئين بما هما فيه.

﴿والّذي قدّر فهدى﴾ فالتقدير: تنزيل الشيء على مقدار غيره، فالله تعالى خلق الخلق وقدّرهم على ما اقتضته الحكمة ﴿فهدى﴾ معناه: أرشدهم إلى طريق الرشد من الغيّ، وهدى كلّ حيوان إلى ما فيه منفعته

---

(١) في الخطّية: الإله.
(٢) التهذيب ٢: ١٢٧٣/٣١٣.
(٣) راجع تفسير الطبري ١٢: ٥٤٢ ـ ٥٤٣.
(٤) ديوان لبيد بن ربيعة: ٧٤، النكت والعيون ٦: ٢٥١.
(٥) لم نتحقّق معناه.

ومضرّته حتّى أنّه تعالى هدى الطفل إلى ثدي أُمّه وميّزه من غيره، وأعطى الفرخ حتّى طلب الرزق من أبيه وأُمّه. والعصفور على صغره يطلب مثل ذلك بهداية الله تعالى له إلى ذلك.

﴿والّذي أخرج المرعى﴾ معناه: الّذي أنبت الحشيش من الأرض لمنافع جميع الحيوان ﴿فجعله غثاء أحوى﴾ فالغثاء: ما يقذف به السيل على جانب الوادي من الحشيش والنبات. و«الأحوى» الأسود، و«الحوّة» السوداء، قال ذو الرمّة:

لَمْياء في شَفَتَيها حُوَّة لَعَس وفي اللِثاتِ وفي أنيابها شَنَب[1]

وقيل: أحوى معناه يضرب إلى السواد. وقال الفرّاء: فيه تقديم وتأخير وتقديره الّذي أخرج المرعى أحوى، فجعله غثاء[2]. وقيل: «الغثاء» الهشيم اليابس المتفتّت أسود من احتراقه بعد خضرته ونعمته، قال ذو الرمّة:

قَرْحاء حَوّاء أشراطيةٌ وكَفَت فيها الذِهابُ وحَفَّتْها البراعيم[3]

وقوله: ﴿سنقرئك فلا تنسى﴾ معناه: سنأخذ عليك قراءة القرآن، فلا تنسى ذلك، قال: فالأقراء: نأخذ القراءة على القارئ بالاستماع لتقويم الزلل، و«القراءة» التلاوة و«القارئ» التالي. و«النسيان» ذهاب المعنى عن النفس بعد أن كان حاضراً لها ونقيضه الذكر، ومثله السهو، يقال: نسي ينسى نسياناً فهو ناس، والشيء منسيّ. والتذكير لما نسي والتنبيه لما غفل. وقيل ﴿فلا تنسى إلّا ما شاء الله﴾ أي ما شاء الله أن ينساه يرفع حكمه

(١) مرّ في ١: ٢٨٩، ديوان ذي الرُمّة: ٢٦، النكت والعيون ٦: ٢٥٣.
(٢) معاني القرآن ٣: ٣٥٦.
(٣) ديوان ذي الرُمّة: ١٤١، مجاز القرآن ٢: ٢٩٥، تفسير الطبري ١٢: ٥٤٤، العين: ٦٥٥ مادّة «فرح».

وتلاوته، في قول الحسن و قتادة. وقيل: معنى ﴿إلّا ماشاء الله﴾ أي ما شاء نسيانه ممّا لا يكلّفك القيام بأدائه، لأنّ التكليف مضمن بالذكر. وقيل: إلّا ما شاء الله كالاستثناء في الأيمان، وإن لم يقع مشيئة النسيان. وقيل: معناه إلّا ما شاء الله أن يؤخّر إنزاله[١]. وقال الفرّاء: لم يشأ الله أن ينسي شيئاً فهو كقوله: ﴿خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلّا ماشاء ربّك﴾[٢] ولا يشاء. ويقول القائل: لأُعطينّك كلّ ما سألت إلّا ما شئت وإلّا أن أشاء أن أمنعك، والنيّة ألّا يمنعه، ومثله الاستثناء في الأيمان[٣].

وقوله: ﴿إنّه يعلم الجهر وما يخفى﴾ معناه: انّ الله تعالى يعلم السرّ والعلانية، فالجهر رفع الصوت، ونقيضه «الهمس» وهو ضعف الصوت، أي يحفظ عليك ما جهرتَ به وما أخفيتَه ممّا تريد أن تعيه. جهر بالقراءة يجهر جَهْراً، ومنه قوله: ﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها﴾[٤].

قوله: ﴿ونيسّرك لليسرى﴾ أي نسهّل لك العمل المؤدّي إلى الجنّة فاليسرى: عبارة عن الجنّة هنا، و«اليسرى» الكبرى في تسهيل الخير بها و«اليسرى» الفعلى من اليسر، وهو سهولة عمل الخير.

وقوله: ﴿فذكّر﴾ أمر للنبيّ صلى الله عليه وآله أن يذكّر الخلق ويعظهم ﴿إن نفعت الذكرى﴾ وإنّما قال ذلك، وهي تنفع لا محالة في عمل الإيمان والامتناع من العصيان، كما يقال: سله إن نفع السؤال أي فيما يجوز عندك. وقيل: معناه: ذكّرهم ما بعثتك به قبلوا أولم يقبلوا، فإنّ إزاحة علّتهم تقتضي إعلامهم وتذكيرهم وإن لم يقبلوا.

---

(١) النكت والعيون ٦: ٢٥٣.

(٢) هود: ١٠٧.

(٣) معاني القرآن ٣: ٢٥٦، تفسير الطبري ١٢: ٥٤٥.

(٤) الإسراء: ١١٠.

وقوله: ﴿سيذّكّر من يخشى﴾ معناه: سيتّعظ وينتفع بدعائك وذكرك من يخاف الله ويخشى عقابه، لأنّ من لا يخافه لا ينتفع بها.

قوله تعالى:

وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ تسع آيات.

[أقول:][١] قرأ أبو عمرو وحمزة ﴿بل يؤثرون﴾ بالياء على الخبر عن الغائب. الباقون بالتاء على الخطاب للمواجهين، وأدغم اللام في التاء حمزة والكسائي إلّا قتيبة والحلوائي عن هشام في كلّ موضع.

لمّا أمر الله تعالى النبيّ ﷺ بالتذكرة[٢] وبيّن أنّه ينتفع بها من يخاف عقابه ذكر ـ هاهنا ـ يتجنّبها أي يتجنّب الذكرى الأشقى، فالتجنّب: المصير في جانب عن الشيء بما ينافي كونه، فهذا الشقّي تجنّب الذكرى بأن صار بمعزل عنها بما ينافي كونها. فالشقوة: حالة تؤدّي إلى شدّة العقاب ونقيضها السعادة، شقي يشقى شقوة وشقاء وأشقاه الله يُشقيه إشقاء عاقَبه عقاباً بكفره وسوء عمله.

ثمّ بيّن أنّ هذا الشقيّ هو ﴿الّذي يصلى النار الكبرى﴾ يعني: نار جهنّم، ووصفها بالكبرى لأنّ الحاجة إلى اتّقائها أشدّ، وذلك من كبر الشأن إذ الكبير الشأن هو المختصّ بشدّة الحاجة إليه أولى باتّقائه، فكلّما كان أكبر شأناً فالحاجة إليه أشدّ. وقال الحسن: النار الكبرى نار جهنّم، والنار

(١) من الحجريّة.

(٢) في الخطّية: بالتذكير.

الصغرى نار الدنيا. وقال الفرّاء: النار الكبرى الّتي في الطبقة السفلى من جهنّم[١].

وقوله: ﴿ثمّ لا يموت فيها ولا يحيى﴾ معناه: أنّ هذا الشقيّ لا يموت في النار فيتخلّص من العذاب، ولا يحيى حياةً له فيها لذّة ، بل هو في ألوان العذاب وفنون العقاب. وقيل: ﴿ولا يحيى﴾ أي لا يجد روح الحياة[٢].

وقوله: ﴿قد أفلح من تزكّى﴾ معناه: قد فاز من تزكّى، يعني: صار زاكياً بأن عمل الطاعات، في قول ابن عبّاس والحسن. وقال أبو الأحوص وقتادة: يعني: من زكى ماله.

وقوله: ﴿وذكر اسم ربّه فصلّى﴾ أي وصار زاكياً بالأعمال الصالحات، ذكر اسم الله على كلّ حال، وصلّى على ما أمره الله به.

ثمّ قال تعالى: هؤلاء الكفّار يؤثرون خاطب الخلق فقال: ﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا﴾ أي يختارون الحياة الدنيا على الآخرة بأن يعملوا للدنيا ولا يعملوا للآخرة، وذلك على وجهين: أحدهما: يجوز للرخصة. والآخر: محظور معصية لله.

ثمّ قال تعالى: ﴿والآخرة خير وأبقى﴾ أي منافع الآخرة من الثواب وغيره خير من منافع الدنيا وأبقى، لأنّها دائمة باقية وهذه فانية منقطعة.

وقوله: ﴿إنّ هذا لفي الصحف الأُولى صحف إبراهيم وموسى﴾ يعني: ما ذكره الله وفصّله[٣] من حكم المؤمن والكافر وما أعدّ الله لكلّ واحد من الفريقين مذكور في كتب الأوّلين في الصحف المنزّلة على إبراهيم والتوراة

---

(١) معاني القرآن ٣: ٢٥٦. (٢) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٣١٦، النكت والعيون ٦: ٢٥٤.

(٣) في الخطّية: قصّ به.

المنزّلة على موسى. وقيل من قوله: ﴿قد أفلح من تزكّى﴾ إلى آخر السورة هو المذكور فيها[١]. وقيل: ﴿من تزكّى وذكر اسم ربّه فصلّى﴾ فهو ممدوح في الصحف الأُولى، كما هو ممدوح في القرآن. وقيل: كتب الله كلّها أُنزلت في شهر رمضان، فأمّا القرآن فإنّه أُنزل لأربع عشرة منه[٢]. وفي ذلك دلالة على أنّ إبراهيم كان قد أُنزل عليه كتاب بخلاف قول من ينكر نبوّته ويزعم أنّه لم ينزل عليه كتاب، ولا يكون نبيّ إلّا ومعه كتاب. حكي ذلك عن النصارى أنّهم قالوا: لم يكن إبراهيم نبيّاً، وإنّما كان رجلاً صالحاً.

---

(١) تفسير الطبري ١٢: ٥٤٩، معاني القرآن وإعرابه ٥: ٣١٦.

(٢) تفسير الطبري ١٢: ٥٤٩.

سورة الغاشية

مكّية في قول ابن عبّاس والضحّاك، وهي ستّ وعشرون آية بلاخلاف.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى:

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾

عشر آيات.

[أقول:][(١)] قرأ أهل البصرة وأبو بكر عن عاصم ﴿تصلى﴾ بضمّ التاء على ما لم يسمّ فاعله، يعني: تصلى الوجوه ﴿ناراً حامية﴾ الباقون بفتح التاء على أن تكون الوجوه هي الفاعلة

هذا خطاب من الله تعالى للنبيّ صلى الله عليه وآله يقول له: ﴿هل أتاك﴾ يا محمّد، ومعناه: قد أتاك ﴿حديث الغاشية﴾ قال ابن عبّاس والحسن وقتادة:

---

(١) من الحجريّة.

«الغاشية» يوم القيامة تغشى الناس بالأهوال. وقال سعيد بن جبير: «الغاشية» النار تغشى وجوه الكفّار بالعذاب والشواظ. و«الغاشية» المجلّلة لجميع الجملة، غشيت تغشى غشياناً فهي غاشية، وأغشاها غيرها إغشاء إذا جعلها تغشى. وغشّاها تغشية، وتغشّى بها تغشّياً.

وقوله: ﴿وجوه يومئذ خاشعة﴾ معناه: أنّ وجوه العصاة والكفّار في ذلك ذليلة خاضعة من ذلّ المعاصي الّتي فعلتها في دار الدنيا. والمراد بالوجوه أصحاب الوجوه، وإنّما ذكر الوجوه، لأنّ الذلّ والخضوع يظهر فيها.

وقوله: ﴿عاملة ناصبة﴾ قال الحسن وقتادة: معناه: لم تعمل لله في الدنيا، فأعمالها في النار. وقال قوم: معناه: عاملة ناصبة في دار الدنيا بما يؤدّيها إلى النار، وهو ممّا اتّصلت صفتهم في الدنيا بصفتهم في الآخرة. ومعنى الناصبة و«النصبة» التعبة، وهي الّتي أضعفها الانتصاب للعمل، يقال: نصب الرجل ينصَب نصباً إذا تعب في العمل

ثمّ بيّن تعالى ما يعمل بمن وصفه من ذوي الوجوه، فقال: ﴿تصلى ناراً حامية﴾ أي تلزم الإحراقَ بالنار الحامية الّتي في غاية الحرارة. و﴿تسقى﴾ أيضاً ﴿من عين آنية﴾ قال ابن عبّاس وقتادة: ﴿آنية﴾ بالغة النهاية في شدّة الحرّ.

وقوله: ﴿ليس لهم طعام الاّ من ضريع﴾ فالضريع: نبات تأكله الإبل يضرّ ولا ينفع كما وصفه الله ﴿لا يسمن ولا يغني من رجوع﴾ وإنّما يشتبه الأمر عليها فيُتوهّم أنّه كغيره من النبت الّذي ينفع، لأنّ المضارعة المشابهة، ومنه أخذ الضرع. وقيل: «الضريع» الشِبْرِق[1]. وقال ابن عبّاس

---

(١) مجاز القرآن ٢: ٢٩٦، النكت والعيون ٦: ٢٥٩، تفسير الطبري ٢: ٥٥٢.

ومجاهد وقتادة: هو سمّ. وقال الحسن: لا أدري ما الضريع لم أسمع من أصحاب محمّد‌ﷺ فيه شيئاً. وقال قوم: «ضريع» بمعنى مضرع أي يضرعهم ويذلّهم. وقيل: من ضريع يضرع آكله في الإعفاء منه لخشونته وشدّة كراهته.

ثمّ بيّن وجوه المطيعين المؤمنين الّذين عملوا الطاعات فقال: ﴿وجوه يومئذ ناعمة﴾ أي منعّمة في أنواع اللذّات.

﴿لسعيها راضية﴾ بما أدّاها إليه من الثواب والجزاء والكرامة جزاءً لطاعاته الّتي عملها في الدنيا.

وقوله: ﴿في جنّة عالية﴾ أي في بستان أجنّه الشجر على الشرف والجلالة وعلوّ المكان والمنزلة، بمعنى أنّها مشرفة على غيرها من البساتين وهي أنزه ما يكون.

قوله تعالى:

لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَـٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ عشر آيات.

[أقول:][١] قرأ ﴿لا يسمع﴾ بالياء المضمومة ﴿فيها لاغية﴾ رفعاً على ما لم يسمّ فاعله لأنّ التأنيث ليس بحقيقي، وقد فصّل بينهما بـ﴿فيها﴾ ابن كثير وأبو عمرو وريس[٢]. وقرأ نافع وحده ﴿لا تسمع﴾ بالتاء مضمومة ﴿لاغية﴾ مرفوعة، لأنّ اللفظ لفظ التأنيث. الباقون بفتح التاء على الخطاب

---

(١) من الحجريّة.

(٢) في الحجريّة: رويس.

﴿لاغية﴾ منصوبة، لأنّها مفعول بها.

لمّا ذكر الله تعالى أنّ المؤمنين يحصلون في جنّة عالية في الشرف والمكان بيّن أنّه لا يسمع في تلك الجنّة ﴿لاغية﴾ وهي كلمة لا فائدة فيها قال الشاعر:

عن اللغا ورَفَث التكلّم[١]

واللغو واللغا بمنزلة واحدة، ولغي يلغى، ولغا يلغو، وألغاه إلغاء. وقيل ﴿لاغية﴾ بمعنى ذات لغو، كقولهم: نابل ودارع، أي ذو نبل ودرع، وتامر ذو تمر، قال الحطيئة:

وغَررتَني وزعمتَ أنّك لابِن بالصيف تامِر[٢]

وقيل: إنّها المصدر مثل العاقبة. ويجوز أن يكون نعتاً، وتقديره لا يسمع فيها كلمة لاغية[٣]. والأوّل أصحّ، لقوله: ﴿لا لغو فيها ولا تأثيم﴾[٤] وإنّما نفي اللاغية عن الجنّة، لأنّ في سماع ما لا فائدة فيه ثقلاً على النفس. ثمّ بيّن أنّ فيها أيضاً أي في تلك الجنّة عيناً من الماء جارية، لأنّ في العين الجارية متعة ليس في الواقف.

وقوله: ﴿فيها سرر مرفوعة﴾ ليرى المؤمن بجلوسه عليها جميع ما حوله من الملك.

وقوله: ﴿وأكواب موضوعة﴾ أي على حافّة العين الجارية، كلّما أراد شربها وجدها مملوءة، فالأكواب جمع كوب، وهي الأباريق الّتي ليس لها خراطيم، فهي للشراب من الذهب والفضّة والجوهر يتمتّعون بالنظر إليها

(١) مرّ في ٣: ٢١٣ و٢٥٤ و٣٤١، معجم تهذيب اللغة ٢: ١٤٣٧ مادّة «رفث».
(٢) ديوان الحُطَيئة: ٣٣، مجاز القرآن ٢: ١٦٤.
(٣) معاني القرآن لأخفش ٢: ٧٣٧، معاني القرآن وإعرابه ٥: ٣١٨.
(٤) الطور: ٢٣.

بين أيديهم ويشربون بها ما يشتهون من لذيذ الشراب، وهو كالخرداذي[١] الّذي يوضع بين يدي الملوك. وقيل: الأكواب كالأباريق لا عرى لها ولا خراطيم وهي آنية تتّخذ للشراب فاخرة حسنة الصورة[٢].

وقوله: ﴿ونمارق مصفوفة﴾ قال قتادة: «النمارق» الوسائد واحدها نمرقة وهي الوسادة، وهي تصلح للراحة ورفع المنزلة.

وقوله: ﴿وزرابّي مبثوثة﴾ فالزرابي: البسط الفاخرة واحدها زربية. وقيل: قد سمع «نمرقة» بضمّ النون والراء وكسرهما.

ثمّ نبّه تعالى على الأدلّة الّتي يستدلّ بها على توحيده ووجوب إخلاص العبادة له فقال: ﴿أفلا ينظرون﴾ أي أفلا يتفكّرون بنظرهم ﴿إلى الإبل كيف [خلقت]﴾ ويعتبرون بما خلقه الله عليه من عجيب الخلق، ومع عظمه وقوّته يذلّله الصبيّ الصغير فينقاد له بتسخير الله ويبركه ويحمل عليه ثمّ يقوم، وليس ذلك في شيء من الحيوان بتسخير الله لعباده ونعمته به على خلقه.

﴿وإلى السماء﴾ أي وينظرون إلى السماء ﴿كيف رفعت﴾ رفعها فوق الأرض وجعل بينهما من هذا الفضاء الّذي به قوام الخلق وحياتهم. ثمّ ما خلقه فيه[٣] من عجائب الخلق من النجوم والشمس والقمر والليل والنهار الّذي بجميع ذلك ينتفع الخلق وبه يتمّ عيشهم ونفعهم.

﴿وإلى الجبال كيف نصبت﴾ أي ويفكّرون في خلق الله تعالى الجبال أوتاداً الأرض ومُسَكِّنة لها، ولولاها لمادت الأرض بأهلها، ولما صحّ من الخلق التصرّف عليها.

---

(١) كذا في ظاهر الخطّية. (٢) معاني القرآن وإعرابه ٥: ١١٠ و٣١٨. (٣) في الخطّية: فيها.

﴿وإلى الأرض كيف سطحت﴾ أي وينظرون إلى الأرض كيف بسطها الله وسطحها ووسعها، ولولا ذلك لما صحّ الانتفاع بها والاستقرار عليها، وهذه نعم من الله تعالى على خلقه لا يوازيها نعمة منعم ، ولا يقاربها إحسان محسن فيجب أن يقابل ذلك بأعظم الشكر.

قوله تعالى:

فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ستّ آيات[1].

[أقول:][2] قرأ أبو عمرو والكسائي بمسيطر بالسين باختلاف عنهما. الباقون بالصاد إلّا حمزة، فإنّه أشمّ الصاد زاياً.

لمّا بيّن الله تعالى الدلالة على وحدانيّته ونبّه على الاستدلال بها، قال لنبيّه محمّدﷺ: ﴿فذكّر﴾ يا محمّد ﴿إنّما أنت مذكّر﴾ فالتذكير: التعريف للذكر بالبيان الّذي يقع به الفهم. والنفع بالتذكير عظيم، لأنّه طريق للعلم بالأُمور الّتي نحتاج إليها وملين القلب للعمل بها. ومذكّر يعني: بنعم الله تعالى عندهم وما يجب عليهم في مقابلتها من الشكر والعبادة. فقد أوضح الله تعالى طريق الحجج في الدين وأكّده غاية التأكيد بما لا يسع فيه التقليد بقوله: ﴿إنّما أنت مذكّر﴾ وقوله: ﴿وذكّر فإنّ الذكرى تنفع المؤمنين﴾[3] وقوله: ﴿إنّ في ذلك لآية لقوم يعقلون﴾[4] و﴿آية لقوم يتفكّرون﴾[5] و﴿آية لقوم يذكّرون﴾[6] و﴿لآيات لأُولي الألباب﴾[7] وقوله: ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم

---

(١) في الحجريّة: ثلاث. (٢) من الحجريّة. (٣) الذاريات: ٥٥.
(٤) النحل: ٦٧. (٥) النحل: ١١ و٦٩. (٦) النحل: ١٣. (٧) آل عمران: ١٩٠.

صادقين﴾[١] وقوله: ﴿وجادلهم بالّتي هي أحسن﴾[٢] ومحاجّة إبراهيم عليه السلام للكافر بربّه[٣] وقوله: ﴿فاعتبروا يا أُولى الأبصار﴾[٤] وقوله: ﴿أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾[٥].

وقوله: ﴿لست عليهم بمسيطر﴾ فالمسيطر: المتسلّط على غيره بالقهر له، يقال: تسيطر فلان على فلان، وسيطر إذا تسلّط، وعلى وزن مسيطر مبيطر. وقال أبو عبيدة: لا ثالث لهما من كلام العرب[٦] وقيل: كان هذا قبل فرض الجهاد ثمّ نسخ[٧] ويجوز أن يكون غير منسوخ، لأنّ الجهاد ليس بإكراه القلوب.

وقوله: ﴿إلّا من تولّى وكفر﴾ قيل في هذا الاستثناء قولان:

أحدهما: أنّه منقطع، وتقديره: لكن من تولّى وكفر فيعذّبه الله العذاب الأكبر. الثاني: إلّا من تولّى فإنّك مسلّط عليه بالجهاد، فالله يعذّبه العذاب الأكبر[٨]. وقال الحسن: المعنى: إلّا من تولّى وكفر، فكِلْه إلى الله. وقيل: معناه: إلّا من تولّى وكفر فلست له بمذكّر، لأنّه لا يقبل منك، فكذلك لست تذكّره[٩].

وقوله: ﴿إنّ إلينا إيابهم﴾ فالإياب: الرجوع، آب يؤب أوباً وإياباً وتأوّب تأوّباً وأوّب يؤوّب تأويباً، ويقال: أيّب إيّاباً على «فَيعل فِيعالاً» من الأوب، وعلى هذا قرىء في الشواذّ ﴿إيّابهم﴾ بالتشديد[١٠] قال عبيد:

---

(١) البقرة: ١١١، النمل: ٦٤. (٢) النحل: ١٢٥. (٣) انظر ٢: ٤٥٠ من هذا الكتاب.
(٤) الحشر: ٢. (٥) محمّد: ٢٤. (٦) مجاز القرآن ٢: ٢٩٦.
(٧) تفسير الطبري ١٢: ٥٥٧، الكشف والبيان ١٠: ١٩٠. (٨) مرّ في ٦/٤٦٨.
(٩) النكت والعيون ٦: ٢٦٣.
(١٠) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٣١٩، مختصر في شواذّ القرآن: ١٧٣.

وكـــلّ ذي غـــيبة يـــؤوب وغائب الموت لا يؤوب[١]

والمعنى: أنّ مرجع الخلق يوم القيامة إلى الله فيحاسبهم ويجازي كلّ واحد منهم على قدر عمله، فحساب الكفّار مقدار ما لهـم وعـليهم مـن استحقاق العقاب، وحساب المؤمن بيان ما له وعليه حتّى يظهر استحقاق الثواب.

---

(١) جمهرة أشعار العرب: ٢٢٧، الشعر والشعراء: ٤٨.

سورة الفجر

مكّيّة في قول ابن عبّاس، وقال الضحاك: هي مدنيّة، وهي ثلاثون آية في الكوفي، وتسع وعشرون في البصري، واثنتان وثلاثون في المدنيّين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تبارك وتعالى:

وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ أربع عشرة آية[1].

[أقول:][2] قرأ حمزة والكسائي وخلف ﴿والوتر﴾ بكسر الواو. الباقون بفتحها، وهما لغتان . قال أبو عبيدة: «الشفع» الزكا و«الوتر» الخسا[3]. وقرأ نافع وأبو عمرو ﴿يسري﴾ بياء في الوصل دون الوقف. وقرأ ابن كثير بياء في الوصل والوقف، وكذلك ﴿بالوادي﴾ الباقون بغير ياء

(١) في الحجريّة: خمس عشر. (٢) من الحجريّة. (٣) مجاز القرآن ٢: ٢٩٧.

في وصل ولا وقف. من أثبت الياء فلأنّها الأصل، ومن حذفها فلأنّها رأس آية والفواصل تحذف منها اليآت.

هذا قسم من الله تعالى بالفجر وليال عشر، وقسم منه بالشفع والوتر والليل إذا يسر، وجواب القسم قوله: ﴿إنّ ربّك لبالمرصاد﴾ و﴿الفجر﴾ شقّ عمود الصبح فَجره الله لعباده يفجُره فَجْراً إذا أظهره في أُفق المشرق مبشّراً بإدبار الليل المظلم وإقبال النهار المضيء. والفجر فجران: أحدهما المستطيل، وهو الّذي يصعد طولاً كذنب السرحان ولا حكم له في الشرع. والآخر هو المستطير، وهو الّذي ينشر في أُفق السماء، وهو الّذي يحرم عنده الأكل والشرب لمن أراد الصوم في شهر رمضان، وهو ابتداء اليوم. وقال عكرمة والحسن: «الفجر» فجر الصبح.

وقوله: ﴿وليال عشر﴾ قال ابن عبّاس والحسن وعبد الله بن الزبير ومجاهد ومسروق والضحّاك وابن زيد: وهي العشر الأوّل من ذي الحجّة شرّفها الله تعالى ليسارع الناس فيها إلى عمل الخير واتّقاء الشرّ على طاعة الله في تعظيم ما عظم وتصغير ما صغره، وينالون[1] بحسن الطاعة الجزاء بالجنّة. وقال قوم: هي العشر من أوّل محرّم[2] والأوّل هو المعتمد.

وقوله: ﴿والشفع والوتر﴾ قال ابن عبّاس وكثير من أهل العلم: «الشفع» الخلق بما له من الشكل والمثل، و«الوتر» الخالق الفرد الّذي لا مثل له. وقال الحسن: «الشفع» الزوج، و«الوتر» الفرد من العدد، كأنّه تنبيه على ما في العدد من العبرة بما يضبط لأنّه من المقادير الّتي يقع بها التعديل. وقال ابن عبّاس وعكرمة والضحّاك: «الشفع» يوم النحر، و«الوتر» يوم

---

(١) في الخطّية: تصغير باصغر مؤمّلين.

(٢) تفسير الطبري ١٢: ٥٦٠، تفسير السمرقندي ٣: ٥٧٧.

عرفة. ووجه ذلك أنّ يوم النحر مشفّع بيوم نحر بعده، وينفرد يوم عرفة بالموقف. وفي رواية أُخرى عن ابن عبّاس ومجاهد ومسروق وأبي‌صالح: أنّ «الشفع» الخلق، و«الوتر» الله تعالى. وقال ابن زيد: «الشفع والوتر» كلّه من الخلق. فقال عمران بن حصين: الصلاة فيها شفع وفيها وتر. وقال ابن الزبير: «الشفع» اليومان الأوّلان من يوم النحر، و«الوتر» اليوم الثالث. وفي رواية أُخرى عن ابن عبّاس: «الوتر» آدم، والشفع زوجته. قال أبو عبيدة: يقال أوترت ووترت[١].

وقوله: ﴿والليل إذا يسر﴾ معناه: يسير ظلاماً حتّى ينقضي بالضياء المبتدئ، ففي تسييره على المقادير المرتّبة ومجيئه بالضياء عند تقضّيه في الفصول أدلّ دليل على أنّ فاعله يختصّ بالعزّ والاقتدار الّذي يجلّ عن الأشباه والأمثال.

وقوله: ﴿هل في ذلك قسم لذي حجر﴾ أي لذي عقل، في قول ابن‌عبّاس ومجاهد وقتادة والحسن. وقيل: «العقل» الحجر، لأنّه يعقل عن المقبّحات ويزجر عن فعلها، يقال: حجَر يحجُر حجراً إذا منع من الشيء بالتضييق، ومنه حجرالرجل الّذي يحجرعلى مافيه، ومنهالحجر لامتناعه بصلابته[٢].

وقوله: ﴿ألم تر كيف فعل ربّك بعاد إرم ذات العماد﴾ خطاب من الله تعالى للنبيّ صلى الله عليه وآله وتنبيه للكفّار على ما فعل بالأُمم الماضية[٣] لمّا كفروا بوحدانيّة الله، وإعلام لهم كيفيّة إهلاكهم. وقيل: عاد الأُولى عاد ابن إرم[٤]. وقيل: إنّ ﴿إرم﴾ بلد منه الاسكندرية، في قول القرطي. وقال المعرّي: هو دمشق.

---

(١) مجاز القرآن ٢: ٢٩٧.
(٢) معاني القرآن ٣: ٢٦٠، الكشف والبيان ١٠: ١٩٥.
(٣) في الخطّية: الماضين.
(٤) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٣٢٢.

وقال مجاهد: هم أُمّة من الأُمم. وقال قتادة: هم قبيلة من عاد[١].

وقوله: ﴿ذات العماد﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد: ذات الطول من قولهم: رجل معمّد إذا كان طويلاً. وقيل: ذات عمد للأبيات ينتقلون من مكان إلى مكان، للانتجاع، ذكره قتادة. وقال ابن زيد: ذات العماد في إحكام البنيان. وقال الضحّاك: معناه ذات القوى الشداد. وقال الحسن: العماد الأبنية العظام. وقيل: إنّ ﴿إرم﴾ هو سام بن نوح، وترك صرفه لأنّه أعجمي معرفة[٢].

وقوله: ﴿الّتي لم يخلق مثلها في البلاد﴾ يعني في عظم أجسامهم وشدّة قواهم.

وقوله: ﴿وثمود الّذين جابوا الصخر بالواد﴾ موضع ﴿ثمود﴾ جرّ بالعطف على قوله: ﴿بعاد﴾ أي وثمود، ولم يجرّه لأنّه أعجمي معرفة، ومعنى ﴿جابوا الصخر﴾ أي قطعوا الصخر من الجبال لشدّة قوّتهم، يقال: جاب يجوب إذا قطع. قال النابغة:

أتاك أبو ليلى يجوب به الدُجى
دُجى الليل جواب الغُلاةِ غَشَمْشَم[٣]

قال مجاهد: قطعوا الجبال بيوتاً كما قال: ﴿وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين﴾[٤].

وقوله: ﴿وفرعون ذي الأوتاد﴾ قال ابن عبّاس: معناه: ذي الجنود الّذين كانوا يشدّون أمره. وقال مجاهد: كان يوتد الأوتاد في أيدي الناس. وقال قتادة: ملاعب كان يلعب له فيها، ويضرب تحتها بالأوتاد. وقيل:

---

(١) راجع النكت والعيون ٦: ٢٦٧ ـ ٢٦٨.
(٢) تفسير الطبري ١٢: ٥٦٧ ـ ٥٦٨.
(٣) تفسير الطبري ١٢: ٥٦٩، الكامل ٣: ١٣٦٣، معجم تهذيب اللغة ٣: ٢٣٣٠، في الأخيرين «عثمثم».
(٤) الشعراء: ١٤٩.

ذي الأوتاد لكثرة الأوتاد الّتي كانوا يتّخذونها للمضارب لكثرة جموعهم، وكان فيهم أكثر منه في غيرهم. وقيل: إنّ فرعون كان إذا غضب على الرجل مدّه بين أربعة أوتاد حتّى يموت.

وقوله: ﴿الّذين طغوا في البلاد﴾ معناه: إنّ هؤلاء الّذين ذكرناهم تجاوزوا في الظلم الحدّ في البلاد، وخرجوا عن حدّ القلّة. وفسّر ذلك بقوله: ﴿فأكثروا فيها﴾ يعني: في البلاد ﴿الفساد﴾.

ثمّ بيّن ما فعل بهم عاجلاً فقال: ﴿فصبّ عليهم ربّك﴾ يا محمّد ﷺ ﴿سوط عذاب﴾ أي قسط عذاب كالعذاب بالسوط الّذي يُعرف إلّا أنّه أعظم، ويجوز أن يكون عنى قسط[1] عذاب يخالط اللحوم والدماء كما يخالط بالسوط من قولهم: ساطه يسوطه سوطاً فهو سائط، قال الشاعر:

أحارثُ إنّا لو تُساط دماؤنا تَزايلْن حتّى لا يمسّ دم دما[2]

وقيل: المعنى أنّه جعل سوطه الّذي ضربهم به أنّه صبّ عليهم العذاب.

وقوله: ﴿إنّ ربّك لبالمرصاد﴾ معناه: أنّ ربّك يا محمّد لا يفوته شيء من أعمال العباد كما لا يفوت من بالمرصاد. و«المرصاد» مفعال من رصَده يرصُده رَصداً فهو راصد، إذا راعى ما يكون منه ليقابله[3] بما يقتضيه. وقيل لأميرالمؤمنين عليه السلام: أين كان ربّنا قبل أن يخلق السماوات والأرض؟ فقال: «أين» سؤال عن مكان، وكان الله ولا مكان[4]. وقيل لأعرابي: أين ربّك يا أعرابي؟! قال: بالمرصاد. وقال ابن عبّاس: معناه: أنّه يسمع ويرى

---

(١) في الخطّية: على قسط.
(٢) النكت والعيون ٦: ٢٧٠.
(٣) في الخطّية: التقابل.
(٤) التوحيد: ١٧/٤، الكافي ١: ٥/٩٠.

أعمال العباد. وقال الحسن والضحّاك: لبالمرصاد بإنصاف المظلوم من الظالم، ومعناه: لا يجوزه ظلم ظالم حتّى ينصف المظلوم منه.

قوله تعالى:

فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَاهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَـٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِا۟ىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ستّ[1] عشرة آية.

[أقول:][2] قرأ ابن عامر وأبو جعفر ﴿فقدر﴾ مشدّد الدال. وقرأ أبو عمرو وأهل البصرة ﴿كلّابل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضّون على طعام المسكين وتأكلون التراث﴾ ثلاثتهنّ بالياء. الباقون ثلاثتهنّ بالتاء. والأوّل على وجه الخبر عن الّذين تقدّم ذكرهم من الكفّار. والثاني على وجه الخطاب، وتقديره قل لهم يا محمّدﷺ. وقرأ أهل الكوفة ﴿تحاضّون﴾ بالتاء والألف. الباقون بغير ألف، والياء في جميع ذلك مفتوحة. حضضته وحثثته و﴿تحاضّون﴾ مثل فاعلته وفعلته إلّا أنّ المفاعلة بين اثنين أكثر. وقرأ الكسائي ويعقوب ﴿فيومئذ لا يعذّب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد﴾ على ما لم يسمّ فاعله. والفعل مسند إلى ﴿أحد﴾ والمعنى: لا يعذّب عذابه

(١) في الخطّية والحجريّة: أربع.
(٢) من الحجريّة.

أحد فداء له من العذاب، لأنّه المستحقّ له، فلا يؤخذ بذنبه غيره. الباقون بكسر الذال ﴿ولا يوثق﴾ بكسر الثاء وتأويله لا يعذّب عذاب الله أحد، ولا يوثق وثاقه أحد، وهو قول الحسن وقتادة.

لمّا توعّد الله تعالى الكفّار وجميع العصاة بما قدّمه من الوعيد على المعاصي وأخبرهم بما فعل بالأُمم الماضية جزاء على كفرهم. وحكى أنّه لبالمرصاد لكلّ عاص قسّم أحوال الخلق من البشر، فقال: ﴿فأمّا الإنسان إذا ما ابتلاه ربّه﴾ أي اختبره. و«الابتلاء» هو إظهار ما في العبد من خير أو شرّ من الشدّة والرخاء والغنى والفقر حسب ما تقتضيه المصلحة، فإن عمل بداعي العقل ظهر الخير، وإن عمل بداعي الطبع ظهر الشرّ. ومثل الابتلاء الامتحان والاختبار.

وقوله: ﴿فأكرمه ونعّمه﴾ معناه: أعطاه الخير وأنعم عليه. و«الإكرام» إعطاء الخير للنفع به على ما تقتضيه الحكمة إلّا أنّه كثر فيما يستحقّ بالإحسان، ونقيض الإكرام الهوان، والله تعالى أنعم على الكافر وليس بمكرمٍ له لأنّه يستحقّ الهوان ﴿فيقول﴾ العبد عند ذلك: ﴿ربّي أكرمن﴾ أي أنعم عليّ وأحسن إليّ. ومن أثبت الياء فلأنّها الأصل، ومن حذفها فلأنّها رأس آية، واجتزأ بكسرة النون الدالّة على حذفها.

ثمّ قال: ﴿وأمّا إذا ما ابتلاه [فقدر عليه رزقه]﴾ أي اختبره بعد ذلك بأن ضيّق عليه رزقه قدرالبُلْغة. فقوله: ﴿فقدر عليه رزقه﴾ أي ضيّق عليه وجعله على قدر البلغة والأصل القدر، وهو كون الشيء على مقدار، ومنه تقدير الشيء طلب قدره من مقدار غيره ﴿فيقول﴾ العبد عند ذلك ﴿ربّي أهانن﴾.

فقال الله تعالى ردّاً لتوهّم من ظنّ أنّ الإكرام بالغنى والإهانة بالفقر بأن

قال: ﴿كلاّ﴾ ومعناه: ليس الأمر على ما توهّمه. وإنّما الإكرام في الحقيقة بالطاعة، والإهانة بالمعصية. فقوله: ﴿كلّا﴾ معناه: ليس الأمر على ما ظنّ هذا الإنسان الكافر الّذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر، ذكره قتادة. ثمّ بيّن ما يستحقّ به الهوان بقوله: ﴿بل لا تكرمون اليتيم ولا تحٰضّون على طعام المسكين﴾ أي الهوان لهذا، لا لما توهّمتم[1] تقول: حضضته بمعنى حثثته و﴿تحاضّون﴾ بمعنى تحُضّون فاعلته وفعلته إلّا أنّ المفاعلة بين اثنين أكثر. وقال الفرّاء: لا تحاضّون بمعنى لا تحافظون[2] وأصله تتحاضّون، فحذف إحدى التاءين.

وقوله: ﴿وتأكلون التراث أكلا لمًّا﴾ أي جمعاً، يقال: لَمَمْتُ ما على الخوان ألمُّه لمًّا إذا أكلته أجمع. و«التراث» الميراث. وقيل: هو من يأكل نصيبه ونصيب صاحبه[3].

وقوله: ﴿وتحبّون المال حبّاً جمًّا﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد وابن زيد: معناه: كثيراً شديداً. يقال: جمّ الماء في الحوض إذا اجتمع وكثر قال زهير:

فلمّا وردن الماء زُرْقا جِمامُه وَضَعْن عِصِي الحاضِر المتخيِّمِ[4]

وقوله: ﴿كلّا إذا دكّت الأرض دكًّا دكًّا﴾ معناه: التهديد والوعيد الشديد أي حقًّا إذا دكّت الأرض بأن جعلت مثل الدكّة مستوية لا خلل فيها ولا تلول، كما قال: ﴿لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً﴾[5] وهو يوم القيامة، فالدكّ: حطّ المرتفع بالبسط، يقال: اندكّ سنام البعير إذا انفرش في ظهره، وناقة دكّاء إذا كانت كذلك، ومنه الدكّان لاستوائه فكذلك الأرض إذا دكّت استوت في

---

(١) في الخطّية: يوهمهم. (٢) معاني القرآن ٣: ٢٦١. (٣) تفسير الطبري ١٢: ٥٧٤.
(٤) ديوان زهير بن أبي سلمى: ٧٨، الكامل ٢: ١٠٠٥. (٥) طه: ١٠٧.

فراشها فذهبت دُورها، وقصورها وسائر أبنيتها حتّى تصير كالصحراء الملساء بها. قال ابن عبّاس: يوم القيامة تمدّ الأرض مدّ الأديم.

وقوله: ﴿وجاء ربّك والملك صفًّا صفًّا﴾ معناه: وجاء أمر الله أو عذاب الله وقيل: معناه وجاء جلائل آياته، فجعل مجيء جلائل الآيات مجيئاً له تفخيماً لشأنها. وقال الحسن: معناه وجاء قضاء الله، كما يقول القائل: جاءتنا الروم أي سيرتهم. وقال بعضهم: معنى ﴿جاء﴾ ظهر بضرورة المعرفة، كما توصف الآية إذا وقعت ضرورة [لا ما][1] تقوم مقام الرؤية.

وقوله: ﴿والملك صفًّا صفًّا﴾ معناه: كصفوف الناس في الصلاة يأتي الصفّ الأوّل ثمّ الصفّ الثاني ثمّ الصفّ الثالث على هذا الترتيب، لأنّ ذلك أشكل بحال الاستواء من التشويش والتخليط، فالتعديل في الأُمور والتقويم أولى.

وقوله: ﴿وجيىء يومئذ بجهنّم﴾ أي أُحضرت جهنّم ليعاقب بها المستحقّون لها ويرى أهل الموقف هولها وعظم منظرها. وقوله: ﴿يتذكّر الإنسان﴾ إخبار منه تعالى بأنّ الإنسان يتذكّر ما فرّط فيه في دار التكليف من ترك الواجب وفعل القبيح ويندم عليه. ثمّ قال تعالى: ﴿وأنّى له الذكرى﴾ ومعناه: من أين له الذكرى الّتي كان أُمِر بها في دار الدنيا، فإنّها تقوده إلى طريق الاستواء وتبصره الضلال من الهدى، فكأنّه قال: وأنّى له الذكرى الّتي ينتفع بها، كما لو قيل يتندّم وأنّى له الندم.

ثمّ حكى ما يقول الكافر المفرط الجائي على نفسه ويتمنّاه، فإنّه يقول: ﴿يا ليتني قدّمت لحياتي﴾ أي يتمنّى أنّه كان عمل الصالحات لحياته

---

(١) من الخطّيّة.

بعد موته أو عمل للحياة الّتي تدوم له، فكان أولى بي من التمسّك بحياة زائلة. ثمّ قال: ﴿فيومئذ لا يعذّب عذابه أحد﴾ معناه: في قراءة من كسر الذال إخبار من الله تعالى أنّه لا يعذّب عذاب الله أحد في ذلك اليوم. ومن فتح الذال قال: المعنى لا يعذّب عذاب الجائي الكافر الّذي لم يقدّم لحياته أحد من الناس، لأنّا علمنا أنّ إبليس أشدّ عذاباً من غيره بحسب إجرامه، وإذا أطلق الكلام لقيام الدلالة على ذلك قيل معناه: لا يؤاخذ أحد بذنب غيره، لأنّه المستحقّ للعذاب ولا يؤاخذ الله أحداً بجرم غيره.

وقوله: ﴿ولا يوثق وثاقه﴾ أي لا يشدّ بالسلاسل والأغلال ﴿أحد﴾ على المعنيين اللذين ذكرناهما.

وقوله: ﴿يا أيّتها النفس المطمئنّة﴾ قال ابن زيد عن أبيه: إنّ النفس المطمئنّة الّتي فعلت طاعة الله وتجنّبت معاصيه تبشّر عند الموت ويوم البعث بالثواب والنعيم. وقيل: إنّ المطمئنّة بالمعرفة لله وبالايمان به، في قول مجاهد. وقيل: المطمئنّة بالبشارة بالجنّة. وقال الفرّاء: تقديره يا أيّتها النفس المطمئنّة بالإيمان والمصدّقة بالثواب والبعث ﴿ارجعي﴾ تقول لهم الملائكة إذا أعطوهم كتبهم بأيمانهم: ﴿ارجعي إلى ربّك﴾ أي إلى ما أعدّه الله لك من الثواب، وقد يجوز أن يقولوا لهم هذا القول يريدون ارجعوا من الدنيا إلى هذا المرجع[١].

ثمّ بيّن ما يقال لها وتبشّر به بأنّه يقال لها: ﴿ارجعي إلى ربّك﴾ أي إلى الموضع الّذي يختصّ الله تعالى بالأمر والنهي به دون خلقه ﴿راضية﴾ بثواب الله وجزيل ثوابه ﴿مرضيّة﴾ الأفعال من الطاعات، وإنّه يقال لها:

(١) معاني القرآن ٣: ٢٦٢ ـ ٢٦٣.

﴿ادخلي في عبادي﴾ الّذين رضيتُ عنهم ورضيت أفعالهم ﴿وادخلي جنّتي﴾ الّتي وعدتكم بها وأعددت نعيمكم فيها. وروي عن ابن عبّاس أنّه قرأ ادخلي في عبدي بمعنى في جسم عبدي، قال ابن خالويه: هي قراءة حسنة[1].

قال المبرّد: تقديره يا أيّتها الروح ارجعي إلى ربّك فادخلي في عبادي في كلّ واحد من عبادي تدخل فيه روحي.

(١) راجع مختصر شواذّ القرآن: ١٧٢.

سورة البلد

مكّيّة في قول ابن عبّاس، وقال الضحّاك: أُنزلت حين افتتحت مكّة، وهي عشرون آية بلا خلاف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى:

لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ (١) وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ (٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ (٤) أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (٥) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَدًا (٦) أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ (٧) أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ (١٠) عشر آيات.

[أقول:](١) قرأ أبو جعفر ﴿لبداً﴾ بتشديد الباء. الباقون بالتخفيف.

قوله: ﴿لا اقسم﴾ معناه: أُقسم، ولا صلة، كما قال الشاعر:

ولا ألوم البيض أن لا تَسْخَرا(٢)

أي أن تسخر. وقيل: هي ردّاً لكلام على طريق الجواب، لمن قد ظهر منه الخلاف، أي ليس الأمر على ما يتوهّم. وقد بيّنّا نظائر ذلك فيما

---

(١) من الحجريّة.

(٢) مرّ في ١: ٣٤٦، مجاز القرآن ١: ٢٦، تفسير الطبري ١: ١١٢.

مضى. فإذا أثبت أنّه أُقسم، فلا ينافي قوله: ﴿وهذا البلد الأمين﴾[١] لأنّ هذا قسم آخر مثله. وإنّما يكون مناقضة لو أراد نفي القسم بقوله: ﴿لا أُقسم﴾ فأمّا إذا كان الأمر على ما بيّـنّاه فلا تنافي بينهما. قال ابن عبّاس ومجاهد وقتادة وابن زيد: يعني بالبلد مكّة.

وقوله: ﴿وأنت حلّ بهذا البلد﴾ فمعناه: في قول ابن عبّاس أنّه حلال لك به قتل من رأيت حين أمر بالقتال، فقتل ابن حنظل صبراً، وهو آخذ بأستار الكعبة ولم يحلّ لأحد بعده. وبه قال مجاهد وابن زيد والضحّاك. وقال عطاء: لم يحلّ إلّا لنبيّكم ساعة من النهار. وقال الحسن: معناه: وأنت فيه محسن وأنا عنك راض.

وقيل: معناه: أنت حلّ بهذا البلد أي أنت فيه مقيم، وهو محلّل. والمعنيّ بذلك: التنبيه على شرف البلد بشرف من حلّ فيه من الرسول الداعي إلى تعظيم الله وإخلاص عبادته المبشّر بالثواب والمنذر بالعقاب، ويقال: رجل حلّ أي حلال، وقالوا «حلّ» معناه: حالّ، أي ساكن[٢].

وقوله: ﴿ووالد وما ولد﴾ قسم آخر بالوالد وما ولد، قال ابن عبّاس وعكرمة: المعنيّ بذلك: كلّ والد، وما ولد يعني: العاقر. وقال الحسن ومجاهد وقتادة والضحّاك وسفيان وأبو صالح: يعني: آدم وولده. وقال أبوعمران الجوني: يعني به إبراهيم عليه السلام وولده.

وقوله: ﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾ جواب القسم، ومعنى «كبد» قال ابن عبّاس والحسن: في شدّة. وقال قتادة: معناه: يكابد الدنيا والآخرة. قال مجاهد وأبو صالح وإبراهيم النخعي وعبد الله بن شداد:

---

(١) التين: ٣.

(٢) راجع النكت والعيون ٦: ٢٧٤.

معناه في انتصاب قامة، فكأنّه في شدّة قوام مخصوص بذلك من سائر الحيوان، قال لبيد:

يا عين هلّا بكيت أربدَ إذ قمنا وقام الخصوم في كبد(١)

أي في شدّة نصب، فالكبد: في اللغة شدّة الأمر، يقال: تكبّد اللبن إذا غلظ واشتدّ، ومنه الكبد، كأنّه دم يغلظ ويشتدّ، وتكبّد الدم إذا صار كالكبد. والإنسان مخلوق في شدّة أمر بكونه في الرحم، ثمّ في القماط والرباط، ثمّ على خطر عظيم عند بلوغه حال التكليف، فينبغي له أن يعلم أنّ الدنيا دار كدّ ومشقّة، وأنّ الجنّة هي دار الراحة والنعمة.

وقوله: ﴿أيحسب أن لن يقدر عليه أحد﴾ معناه: أيظنّ هذا الإنسان أن لن يقدر على عقابه أحد إذا عصى الله تعالى وركب معاصيه فبئس الظنّ ذلك. وقيل: إنّها نزلت في رجل يقال له أبو الأشدين كان من القوّة بحيث يقف على أديم عكاظي فيجرّه العشرة من تحته، فيتقطّع ولا يبرح مَن عليه فقال الله تعالى: ﴿أيحسب﴾ لشدّته وقوّته ﴿أن لن يقدر عليه أحد﴾(٢).

ثمّ حكى ما يقول هذا الإنسان من قوله: ﴿أهلكت مالاً لبداً﴾ قال الحسن: معناه: يقول [أهلكت] مالاً كثيراً، فمن يحاسبني عليه، حمق ألم يعلم أنّ الله قادر على محاسبته. و«اللبد» الكثير الّذي قد تراكب بعضه على بعض، ومنه تلبّد القطن والصوف إذا تراكب بعضه على بعض، وكذلك الشَعْر، ومنه اللبد. ومن قرأ ﴿لبّداً﴾ بتشديد الباء، فهو جمع لابِد.

وقوله: ﴿أيحسب أن لم يره أحد﴾ أيظنّ هذا الإنسان أنّه لم يبصره أحد

---

(١) ديوان لبيد بن ربيعة: ٧١، مجاز القرآن ٢: ٢٩٩، تفسير الطبري ١٢: ٥٨٩، الكشف والبيان ١٠: ٢٠٧.

(٢) معاني القرآن ٣: ٢٦٤.

فيطالبه من أين كسب هذا المال، وفي أيّ شيء أنفقه، ذكره قتادة. وقيل: معناه: أيظنّ أن لم يره أحد في إنفاقه، لأنّه كاذب . وقال الحسن: يقول: أنفقت مالاً كثيراً فمن يحاسبني عليه. وقيل: الآية نزلت في رجل من بني جمح يكنّى أبا الأشدين، وكان قويّاً شديداً[١].

ثمّ نبّهه تعالى على وجوه النعمة الّتي أنعم بها عليه ليستدلّ بها على توحيده وخلع الأنداد دونه بقوله: ﴿ألم نجعل له عينين﴾ ليبصُر بهما ﴿ولساناً وشفتين﴾ لينطق بهما ﴿وهديناه النجدين﴾ ليستدلّ بهما. وفي ذلك دليل واضح على أنّه صادر من مختار لهذه الأفعال الّتي فعلها بهذه الوجوه، فأحكمها لهذه الأُمور، فالمحكم المتقن لا يكون إلّا من عالم، وتعليقه بالمعاني لا يكون إلّا من مختار، لأنّه لا يعلّق الفعل بالمعاني إلّا في الإرادة. وقال ابن مسعود وابن عبّاس: معنى «هديناه النجدين» نجد الخير والشرّ، وبه قال الحسن ومجاهد والضحّاك وقتادة. وفي رواية عن ابن عبّاس أنّهما الثديان. و«النجدان» الطريقان للخير والشرّ. وأصل النجد للعلوّ، ونجد بلد سمّي نجداً لعلوّه عن انخفاض تهامة. وكلّ عال من الأرض نجد، والجمع نُجُود، ورجل نَجِدٌ بين النجدة إذا كان جَلْداً قويًّا، لاستعلائه على قوّته، واستنجدتُ فلاناً فأنجدني أي استعنتُه على خصمي فأعانني، و«النجد» الكرب والغمّ. و«النجاد» ما على العاتق من حمالة السيف. وشَبَّه طريق الخير والشرّ بالطريقين العاليين لظهوره فيهما.

قوله تعالى:

فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ (١١) وَمَآ أَدْرَاكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ

(١) تفسير الطبري ١٢: ٥٨٩ ـ ٥٩٠.

ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴿٢٠﴾ عشر آيات.

[أقول:][1] قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ﴿فكّ رقبة أو أطعم في يوم ذي مسغبة﴾ بغير ألف على أنّه فعل ماض. الباقون ﴿فكّ رقبة﴾ على الإضافة، ويكون الإضافة إلى مفعول ﴿أو إطعام﴾ فوجّه الأوّل قوله: ﴿فلا اقتحم العقبة﴾ ﴿فكّ رقبة﴾ الثاني أنّه على جواب و﴿ما أدراك ما العقبة﴾ فيكون الجواب بالاسم، وتلخيصه هلّا اقتحم العقبة ولا يجوز الصراط إلّا من كان بهذه الصفة يفكّ رقبة أو يطعم يتيماً في يوم ذي مسغبة مجاعة، فلا اقتحم بمعنى لم، كما قال: ﴿فلا صدّق ولا صلّى﴾[2] ومعناه: لم يصدّق ولم يصلّ، وإنّما لم يكرّر «لا» لأنّ معنا ﴿ثمّ كان من الّذين آمنوا﴾ يدلّ على أنّه لم يقتحم ولم يؤمن[3] وقرأ أبو عمرو وحمزة وحفص وخلف ﴿مؤصدة﴾ بالهمز. الباقون بغير همز، وهما لغتان، يقال: آصدت الباب أُؤصِده إيصاداً فهو مؤصد بالهمز، وأوصدته فهو موصد بغير همز. و«الوصيد» الباب من أوصدت.

لمّا نبّه الله تعالى الإنسان على وحدانيّته وإخلاص عبادته بقوله: ﴿ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين﴾ وما فيهما من الدلالة على قدرته وعلمه وأنّه هدى الإنسان طريقَ الخير والشرّ ورغّبه في اتّباع الخير وزجره عن اتّباع الشر، قال حاثّاً له على فعل الخير بقوله: ﴿فلا اقتحم العقبة﴾ قال

---

(١) من الحجريّة. (٢) القيامة: ٣١.

(٣) معاني القرآن ٣: ٢٦٥، الكشف والبيان ١٠: ٢٠٩ ـ ٢١٠، تفسير الطبري ١٢: ٥٩٣ ـ ٥٩٤.

الحسن: عقبة ـ واللهِ شديدة ـ مجاهدة الإنسان نفسه وهواه وعدوّه والشيطان، ولم يكرّر «لا» في اللفظ، وهي بمنزلة المكرّر في المعنى كأنّه قال: وفلا اقتحم العقبة ولا آمن. وروي عن ابن عبّاس أنّ تقديره فهلّا اقتحم العقبة. وحكي أيضاً عنه أنّه قال: تقديره أفلا اقتحم العقبة، وحذف الاستفهام، والمراد به التنبيه. و«الاقتحام» الدخول على الشدّة، يقال: اقتحم اقتحاماً، وأقحم إقحاماً تقحّم تقحمّاً وقحّم تقحيماً. ونظيره الإدخال والإيلاج. والمعنى: هلّا دخل في البرّ على صعوبته كصعوبة اقتحام العقبة، و«العقبة» الطريقة الّتي ترتقى على صعوبة. ويحتاج فيها إلى معاقبة الشدّة بالتضييق والمخاطرة. وقيل: «العقبة» الثنيّة الضيّقة في رأس الجبل يتعاقبها الناس، فشبّهت بها العقبة في وجوه البرّ الّتي ذكرها الله تعالى. وعاقب الرجل صاحِبَه إذا صار في موضعه بدلاً منه. وقال قتادة: فلا اقتحم العقبة إنّها قحمة شديدة، فاقتحموها بطاعة الله. وقال أبو عبيدة: معناه: فلم يقتحم في الدنيا.

ثمّ فسّر العقبة فقال: ﴿وما أدراك ما العقبة فكّ رقبة أو إطعام في يوم ذي مسغبة﴾[١] وتقديره اقتحام العقبة فكّ رقبة، لأنّ العقبة جثّة والفكّ حدث، فلا يكون خبراً عن جثّة. قال أبو عليّ: و«لا» إذا كانت بمعنى «لم» لم يلزم تكرارها[٢].

ثمّ بيّن تعالى ما به يكون اقتحام العقبة فقال: ﴿فكّ رقبة﴾ فالفكّ فَرْق يزيل المنع، ويمكن معه أمر لم يكن ممكناً قبل، كفكّ القيد والغُلّ، لأنّه يزول به المنع، ويمكن به تصرّف في الأرض لم يكن قبل، ففكّ الرقبة:

(١) مجاز القرآن ٢: ٢٩٩.
(٢) الحجّة للقرّاء السبعة ٤: ١٢٤ ـ ١٢٥.

فَرْق بينها وبين حال الرقّ بإيجاب الحرّية وإبطال العبوديّة.

وقوله: ﴿أو إطعام في يوم ذي مسغبة﴾ فالمسغبة: المجاعة، سغب يسغب سَغْباً إذا جاع فهو ساغب، قال جرير:

تعلّلْ وهي ساغِبَةٌ بنيها بأنفاس من الشَبِمِ القَراح[1]

وقوله: ﴿يتيماً﴾ نصب بـ﴿إطعام﴾ في قراءة من نوّن نصبه بالمصدر. ومن قرأ على الفعل الماضي نصبه به، فهو مفعول به في الحالين. و«اليتيم» الصبيّ الّذي قد مات أبوه وأمّه، والأغلب في اليتيم من الأب في الناس. وقوله: ﴿ذا مقربة﴾ معناه: ذا قرابة، ولا يقال: فلان قرابتي وإنّما يقال ذو قرابتي، لأنّه مصدر، كما قال الشاعر:

يبكى الغريب عليه ليس يعرفه وذو قرابته في الحيّ مسرور[2]

وقوله: ﴿أو مسكيناً﴾ عطف على يتيماً. و﴿ذا متربة﴾ معناه: ذا حاجة شديدة من قولهم: تَرِب الرجل إذا افتقر، في قول ابن عبّاس. وقيل: «المتربة» من معه القراب أي هو مطروح في القراب لا يواريه عن الأرض شيء، في قول ابن عبّاس أيضاً ومجاهد. يقال: أترب الرجل إذا استغنى، وترب إذا افتقر.

وقوله: ﴿ثمّ كان من الّذين آمنوا﴾ معناه: كان الإنسان من جملة المؤمنين إذا فعل ذلك وعقد[3] الإيمان، ثمّ أقام على إيمانه ﴿وتواصوا﴾ أي وصّى بعضهم بعضاً ﴿بالصبر﴾ على الشدائد والمِحَن والمصائب ﴿وتواصوا﴾ أيضاً ﴿بالمرحمة﴾ أي وصّى بعضهم بعضاً بأن يرحموا الفقراء وذوي المسكنة.

---

(١) ديوان جرير: ٧٧. (٢) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٣٠. (٣) في الخطّية: عَصَده.

وقوله: ﴿أُولئك أصحاب الميمنة﴾ معناه: أنّهم متى فعلوا ذلك كانوا أصحاب الميمنة الّذين يُعطَون كتابهم بأيمانهم أو يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنّة. و﴿الميمنة﴾ اليمن والبركة، و﴿المرحمة﴾ حال الرحمة.

وقوله: ﴿والّذين كفروا بآياتنا﴾ معناه: أنّ الّذين يجحدون نعم الله ويكذّبون أنبياءه عليهم السلام ﴿هم أصحاب المشأمة﴾ أي ذات الشمال فيؤخذ بهم إلى النار، ويعطون كتابهم بشمالهم، واشتقاقه من الشؤم خلاف البركة.

﴿عليهم نار مؤصدة﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد والضحّاك: معناه عليهم نار مطبَقة.

سورة الشمس وضحيٰها

مكّيّة في قول ابن عبّاس والضحّاك، وهي خمس عشرة آية في الكوفي والبصري، وستّ عشرة في المدنيّين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَاهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠﴾ عشر آيات.

[أقول:][١] قرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم ﴿وضحاها﴾ بفتح أواخر هذه السورة. وقرأ الكسائي بإمالة[٢] ذلك كلّه. وقرأ أبو عمرو ونافع جميع ذلك بين الكسر والفتح. وقرأ حمزة ﴿وضحها﴾ كسراً وفتح ﴿تلاها﴾ و﴿طحاها﴾ فمن فتح فلأنّه الأصل، والإمالة تخفيف، وبين بين تخفيف يشعر بالأصل. فأمّا حمزة فأمال بنات الياء، وفخّم بنات الواو.

---

(١) من الحجريّة.

(٢) في الخطّية والحجريّة: بإضجاع.

هذا قسم من الله تعالى بالشمس وضحاها، وقد بيّـنّا أنّ له تـعالى أن يقسم بما شاء من خلقه تنبيهاً على عظم شأنه وكثرة الانـتفاع بـه، فـلمّا كانت الشمس عظيم الانتفاع بها وقـوام العـالم مـن الحـيوان والنـبات بطلوعها وغروبها جاز القسم بها، ولما فيها من العبرة ينشئ الضوء حتّى تقوى تلك القوّة العظيمة بإذن الله.

وقوله: ﴿وضحيها﴾ يعني: ضحى الشمس، وهو صدر وقت طـلوعها، وضحى النهار صدر وقت كونه، قال الشاعر:

أعجلها أقدُحي الضُحاء ضُحى وهي تُناصي ذوائب السـلم[١]

وأضحى يفعل كذا إذا فعله في وقت الضحى، ويقال: ضحّى بكبش أو غيره إذا ذبحه في وقت الضحى من أيّام الأضحى . ثمّ كثر حتّى قـيل له ولو ذبحه آخر النهار.

وقوله: ﴿والقمر إذا تلاها﴾ قسم آخر بـالقمر وتـلوه الشـمس ووجـه الدلالة من جهة تلو القمر للشمس من جهة المعاقبة على أُمور مرتّبة في النقصان والزيادة، لأنّه لا يزال ضوء الشمس يـنقص إذا غـاب جـرمها، ويقوى ضوء القمر حتّى يتكامل كذلك دائـبين، تسـخيراً مـن الله للـعباد بما ليس في وسعهم أن يجروه على شيء من ذلك المنهاج. وقال ابن زيد: القمر إذا أتبع الشمس في النصف الأوّل من الشهر إذا غربت الشمس تلاها القمر بالطلوع، وفي آخـر الشـهر يـتلوها فـي الغـروب. وقـال الحسـن ﴿والشمس وضحاها﴾ أي يضيء نورها ﴿والقمر إذا تلاها﴾ يعني ليلة الهلال. وقيل: تلاها في الضوء[٢].

---

(١) قائله النابغة الجعدي.

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٣٣١.

وقوله: ﴿والنهار إذا جلّاها﴾ قسم آخر بالنهار إذا جلّاها يعني: الشمس بضوء المبين بجرمها[١]. وقيل معناه: إذا جلا الظلمة، فالهاء كناية عن الظلمة، ولم يتقدّم لها ذكر لأنّه معروف غير ملتبس[٢] ﴿والليل إذا يغشاها﴾ قسم آخر بالليل إذا يغشاها يعني: الشمس بظلمته عند سقوط الشمس.

وقوله: ﴿والسماء وما بناها﴾ قال قتادة: معناه: والسماء وبنائها جعل ﴿ما﴾ مع ما بعدها بمنزلة المصدر. وقال مجاهد والحسن: معنى «والسماء وما بناها» والسماء ومن بنى السماء، وهو الله تعالى.

وقوله: ﴿والأرض وما طحاها﴾ قسم آخر بالأرض ما طحاها، ويحتمل ذلك وجهين:

أحدهما: أن يكون المعنى والأرض وطحوها.

والثاني: والأرض ومن طحاها، وهو الله تعالى. ومعنى طحاها بسطها حتّى أمكن التصرّف عليها. وقال مجاهد والحسن: طحاها ودحاها واحد، بمعنى بسطها، يقال: طحا يطحُو طَحْواً ودحا يدحُو دَحواً وطحا بك همّك، ومعناه: انبسط بك إلى مذهب بعيد، فهو يطحو بك طحواً، قال علقمة:

طَحَا بِكَ قلبٌ في الحِسانِ طَرُوبُ[٣]

ويقال: القوم يطحي بعضهم بعضاً عن الشيء أي يدفع دفعاً شديد الانبساط. و«الطواحي» النسور تنبسط حول القتلى، وأصل الطحو البسط الواسع.

وقوله: ﴿ونفس وما سوّاها﴾ قسم آخر بالنفس وما سوّاها، وهو محتمل

(١) في الخطّية: بضوء المبني لجرمها.
(٢) معاني القرآن ٣: ٢٦٦.
(٣) العين: ٤٨٣ مادّة «طحا» جمهرة اللغة ١: ٦١.

أيضاً لأمرين: أحدهما: ونفس وتسويتها. والثاني: ونفس ومن سوّاها، وهو الله تعالى. وقال الحسن: يعني بالنفس آدم، ومن سوّاها الله تعالى. وقيل: إنّ ﴿ما﴾ في هذه الآيات بمعنى «من» كما قال: ﴿فانكحوا ما طاب لكم﴾[١] وإنّما أراد «مَنْ» وقال أبو عمرو بن العلا: هي بمعنى الّذي، وأهل مكّة يقولون إذا سمعوا صوت الرعد: سبحان ما سبحت له بمعنى سبحان من سبّحت له.

وقوله: ﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد وقتادة والضحّاك وسفيان: معناه عرّفها طريق الفجور والتقوى ورغّبها في التقوى وزهّدها في الفجور. وقال قوم: خذلها حتّى اختارت الفجور وألهمها تقواها بأن وفّقها لها[٢].

وقوله: ﴿قد أفلح من زكّاها﴾ جواب القسم واللام مقدّرة، وتقديره لقد أفلح من زكّاها أي من زكّى نفسه بالصدقة، وقد خاب من دسّاها وأخفى عن المتصدّق، والمعنى: قد أفلح من زكّى نفسه بالعمل الصالح واجتناب المعصية، وهو قول ابن عبّاس ومجاهد وقتادة. وقال قوم: معناه قد أفلح من زكّى الله نفسه، وقد خاب من دسّاها نفسه[٣].

وقوله: ﴿وقد خاب من دسّاها﴾ معناه: قد خاب أي خسر من دسّ نفسه في معاصي الله منهمكاً في القبائح الّتي نهاه الله عنها. وقيل: معناه: دسّاها بالبخل، لأنّ البخيل يخفي نفسه ومنزله لئلّا يطلب نائله، ودسّا نفسه نقيض زكّاها بالعمل الصالح، وكذلك دسّاها بالعمل الفاسد حتّى صيّرها في

(١) النساء: ٣.
(٢) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٣٣٢.
(٣) النكت والعيون ٦: ٢٨٤.

محاق وخسران. ويقال دَسا فلان يدسُو دَسْواً ودسوة فهو داس نقيض زكا يزكُو زكاً فهو زاك. وقيل: معنى دسّاها أي دسّها بمعنى حملها ووضع منها بمعصية. وابدل من إحدى السينين ياء، كما قالوا تظنّيت بمعنى تظنّنت[١].

قال الشاعر:

تَقَضِّي البازي إذا البازي كَسَر[٢]

بمعنى تقضُّض.

قوله تعالى:

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنبَعَثَ أَشْقَاٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وسُقْيَـٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴿١٤﴾ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٥﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَـٰهَا ﴿١٦﴾ ستّ آيات.

[أقول:][٣] قرأ أهل المدينة وابن عامر ﴿فلا يخاف﴾ بالفاء وكذلك هي في مصاحف أهل المدينة وأهل الشام. الباقون بالواو، وكذلك في مصاحفهم.

يقول الله تعالى مخبراً عن ثمود وهم قوم صالح: إنّها ﴿كذّبت ثمود بطغواها﴾ قال ابن عبّاس: يعني: بعذابها أي بعذاب الطاغية فأتاها ما كذّبت به. وقال مجاهد: بمعصيتها، وهو قول ابن زيد، وهو وجه التأويل. و«الطغوى والطغيان» مجاوزة الحدّ في الفساد وبلوغ غايته، تقول: طغى يطغي إذا جاوز الحدّ، ومنه قوله: ﴿لمّا طغى الماء﴾[٤] أي لمّا تجاوز المقدار على ما جرت به العادة وكثر.

(١) معاني القرآن ٣: ٢٦٧.

(٢) مجاز القرآن ٢: ٣٠٠، تفسير الطبري ١٢: ٦٠٤، النكت والعيون ٦: ٢١٢، معاني القرآن وإعرابه ٥: ٣٣٢.

(٣) من الحجريّة.

(٤) الحاقّة: ١١.

وقوله: ﴿إذا انبعث أشقاها﴾ أي كان تكذيبها حين انبعث أشقى ثمود، وقيل اسمه قُدار بن سالف. وقال قوم: «عقر الناقة» الناقة هو تكذيبهم. وقيل: لا، بل هو غيره . وقيل: كانوا أقرّوا بأنّ لها شرباً ولهم شرب غير مصدّقين بأنّه حقّ[١]. و«الشقاء» شدّة الحال في مقاساة الآلام، فالأشقى هو الأعظم شقاء، ونقيض الشقاء السعادة، ونقيض السعود النحوس، يقال: شقي يشقى شَقاء فهو شقيّ نقيض سعيد، وأشقاه الله إشقاء.

وقوله: ﴿فقال لهم رسول الله﴾ يعني: صالحاً، فإنّه قال لهم: ﴿ناقة الله﴾ وتقديره فاحذروا ناقة الله، فهو نصب على الإغراء كما تقول: الأسد الأسد، أي احذره ﴿وسقياها﴾ فالسقيا: الحظّ من الماء. وهو النصيب منه، كما قال تعالى: ﴿لها شرب ولكم شرب يوم معلوم﴾[٢] و«السقي» التعريض للشرب.

وقوله: ﴿فكذّبوه﴾ أي كذّب قوم صالح صالحاً ولم يلتفتوا إلى قوله. ﴿فعقروها﴾ يعني: الناقة. فالعقر قطع اللحم بما يسيل الدم عقره يعقِره عَقْراً فهو عاقر، ومنه عقر الحوض وهو أصله. والعقر نقض الشيء عن أصل بنية الحيوان، وعَاقَر الناقة أحمر ثمود، وهو قدار وكلّهم رضي بفعله. فعمّهم البلاء بأن عاقبهم الله تعالى لرضاهم بفعله.

وقوله: ﴿فدمدم عليهم ربّهم بذنبهم فسوّاها﴾ معناه: أهلكهم الله تعالى عقوبة على ذنوبهم من تكذيب صالح وعقر الناقة. وقيل: معنى دمدم عليهم: دمّر عليهم. وقيل: معناه: أطبق عليهم بالعذاب[٣] يقال: دمدمت على الشيء إذا ضيّقت عليه، وناقة مدمدمة قد ألبسها الشحم، فإذا كرّرت

---

(١) راجع تفسير الطبري ١٢: ٦٠٦. (٢) الشعراء: ١٥٥.

(٣) راجع معاني القرآن وإعرابه ٥: ٣٣٣، النكت والعيون ٦: ٢٨٥.

الإطباق قلت دمدمت. وقيل: ﴿دمدم عليهم﴾ أي غضب عليهم. فالدمدمة: ترديد الحال المتكرّهة، وهي مضاعفة ما فيه المشقّة، فضاعف الله تعالى على ثمود العذاب بما ارتكبوا من الطغيان(١).

وقوله: ﴿فسوّاها﴾ أي جعل بعضها على مقدار بعض في الاندكاك واللصوق بالأرض، فالتسوية: تصيير الشيء على مقدار غيره.

وقوله: ﴿ولا يخاف عقبيها﴾ قال ابن عبّاس والحسن وقتادة ومجاهد: معناه لا يخاف الله تعالى تبعة الدمدمة. وقال الضحّاك: معناه: لم يخف الّذي عقرها عقباها، والعقبى والعاقبة واحد. وهو(٢) ما أدّى إليه الحال الأُولى. قال أبو عليّ: من قرأ بالفاء فللعطف على قوله: ﴿فكذّبوه فعقروها﴾ فلا يخاف كأنّه تبع تكذيبهم عقرهم أي لم يخافوا. ومن قرأ «ولا» بالواو جعل الجملة في موضع الحال، وتقديره فسوّاها غير خائف عقباها أي غير خائف أن يتعقّب عليه في شيء ممّا فعله(٣).

(١) راجع معاني القرآن وإعرابه ٥: ٣٣٣، النكت والعيون ٦: ٢٨٥.
(٢) في الخطّية زيادة كلمة غير مقروءة لعلّها «مسبّب».
(٣) الحجّة للقرّاء السبعة ٤: ١٢٩.

سورة الليل

مكّية في قول ابن عبّاس والضحّاك، وهي إحدى عشرون آية بلاخلاف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ۝١٣﴾

إحدى عشرة[١] آية.

[أقول:][٢] هذا قسم من الله تعالى بالليل إذا غشيه الظلام، فأظلم وادلَهمّ وغشي الأنام لما في ذلك من الهول المحرّك للنفس بالاستعظام.

ثمّ أقسم بالنهار إذا تجلّى، ومعناه: إذا أنار وظهر للأبصار لما في ذلك من الاعتبار. وقيل: التقدير والليل إذا يغشى النهار فيذهب بضوئه[٣].

(١) في الخطّية: أحد عشر. (٢) من الحجريّة. (٣) الكشف والبيان ١٠: ٢٨٦.

﴿والنهار إذا تجلّى﴾ أي جلّى الليل، فأذهب ظلمته، ذكره الحسن. و«الغشي» إلباس الشيء ما يغمّه ويستر جملتَه، وإنّما كرّر ذكرهما في السورتين لعظم شأنهما وجلالة موقعهما في باب الدلالة على توحيد الله، ذكره قتادة.

وقوله: ﴿وما خلق الذكر والأُنثى﴾ للتناسل بينهما. ويحتمل أن يكون المراد ومن خلق الذكر والأُنثى، وفي قراءة عبد الله ﴿والّذي خلق الذكر والأُنثى﴾ لأنّ ﴿ما﴾ بمعنى الّذي وهو الله، فيكون القسم بالله. وعلى الأوّل يكون القسم بخلق الله. وقيل: المراد بالذكر والأُنثى آدم وحوّاء عليهما السلام.

وقوله: ﴿إنّ سعيكم لشتّى﴾ جواب للقسم، ومعناه: إنّ سعيكم لمختلف، فسعي المؤمن خلاف سعي الكافر. ومعنى ﴿شتّى﴾ أي متفرّق على تباعد ما بين الشيئين جدّاً، ومنه شتّان أي بعد ما بينهما جدّاً كبعد ما بين الثرى والثريّا. ويقال: تشتّت أمر القوم وشتّتهم ريب الزمان.

وقوله: ﴿فأمّا من أعطى واتّقى﴾ معناه: من أعطى حقّ الله واتّقى محارم الله، ذكره قتادة.

﴿وصدّق بالحسنى﴾ قال ابن عبّاس وعكرمة: وصدّق بالخَلَف. وقال الضحّاك: صدّق بتوحيد الله. وقال مجاهد والحسن: يعني صدّق بالجنّة. وقال قتادة: بوعد الله. و«الحسنى» النعمة العظمى بحسن موقعها عند صاحبها، وهذه صفة الجنّة الّتي أعدّها الله تعالى للمتّقين وحرّمها من كذّب بها.

وقوله: ﴿فسنيسّره لليسرى﴾ معناه: يسهّل عليه الأمر. فالتيسير: تصيير الأمر سهلاً. ومثله التسهيل والتخفيف. ونقيض التيسير التعسير وهو تصيير الأمر صعباً. واليسير نقيض العسير، يقال: أيسر إذا كثر ماله يوسر إيساراً.

وتقديره فسنيسّره للحال اليسرى، فلذلك أُنّث فحال اليسير اليسرى، وحال العسير العسرى والتيسير لليسرى يكون بأن يصيّرهم إلى الجنّة، والتيسير من العسرى بأن يصيّرهم إلى النار. ويجوز أن يكون المراد بالتمكين من سلوك طريق الجنّة، والتمكين من سلوك طريق النار. ومعناه: أنّا لسنا نمنع المكلّفين من سلوك أحد الطريقين ولا نضطرّهم إليه، وإنّما نمكّنهم بالإقرار عليهما ورفع المنع، والترغيب في إحداهما، والتزهيد في الأُخرى. فإن أحسن الاختيار اختار ما يؤدّيه إلى الجنّة، وإن أساء فاختار ما يؤدّيه إلى النار فمِن قِبَل نفسه أتى.

وقوله: ﴿وأمّا من بخل واستغنى﴾ يعني به: من منع حقّ الله الّذي أوجب عليه من الزكاة والحقوق الواجبة في ماله واستغنى بذلك وكثر ماله فسنيسّره للعسرى، يعني: لطريق النار. وقد بيّنّا كيفيّة تيسير الله لذلك من التمكين أو التصيير فلا فائدة لإعادته. و«العسرى» البليّة العظمى بما تؤدّي إليه، ونقيضها اليسرى، وهو مأخوذ من العسر واليسر، فحال العسير العسرى وحال اليسير اليسرى، ومذكّره الأيسر، والأمر الأعسر. وقال الفرّاء: المعنى: فسنيسّره للعود إلى الصالح من الأعمال ونيسّره من الأعمال للعسرى على مزاوجة الكلام(١) والمعنى التيسير. والأولى أن تكون الآيتان على عمومهما في كلّ من يعطي حقّ الله، وكلّ من يمنع حقّه، لأنّه ليس هاهنا دليل قاطع على أنّ المختصّ بها إنسان بعينه. وقد روي أنّها نزلت في أبي الدحداح الأنصاري وسمرة بن حبيب، ورووا في ذلك قصّة معروفة. وروي في غيره.

---

(١) معاني القرآن ٣: ٢٧٠ ـ ٢٧١.

وقوله: ﴿وما يغنى عنه ماله إذا تردّى﴾ معناه: أيّ شيء يغني عن هذا الّذي بخل بماله، ولم يخرج حقّ الله منه ﴿إذا تردّى﴾ يعني: في نار جهنّم في قول قتادة وأبي صالح. وهو المرويّ عن أبي جعفر عليه السلام. وقال مجاهد: معناه: إذا مات. وقال قوم: معناه إذا تردّى في القبر أيّ شيء يغنيه. وقيل: إذا تردّى في النار فما الّذي يغنيه[1].

وقوله: ﴿إنّ علينا للهدى﴾ قال قتادة: معناه: إنّ علينا لبيان الطاعة من المعصية. وقيل في قوله: ﴿إنّ علينا للهدى﴾ دلالة على وجوب هدى المكلّفين إلى الدين، وأنّه لا يجوز إضلالهم منه.

وقوله: ﴿وإنّ لنا للآخرة﴾ معناه: الإخبار من الله بأنّ له دار الآخرة والجزاء فيها على الأعمال، والأمر والنهي ليس لأحد سواه، لأنّ دار الدنيا قد ملك فيها أقواماً التصرّف. وقوله: ﴿والأُولى﴾ معناه: وإنّ لنا الأُولى أيضاً، يعني: دار الدنيا فإنّه الّذي خلق الخلق فيها، وهو الّذي مكّنهم من التصرّف فيها، وهو الّذي ملّكهم ما ملكهم ، فهي أيضاً ماله على كلّ حال.

قوله تعالى:

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ ثمان آيات[2].

قوله: ﴿فأنذرتكم ناراً تلظّى﴾ وعيد من الله تعالى للمكلّفين. يقول: خوّفتكم المعاصي الّتي تؤدّيكم إلى نار تلظّى.

وقرأ ابن كثير ﴿ناراً تلظّى﴾ بتشديد التاء أُدغم إحدى التاءين في

---

(١) راجع النكت والعيون ٦: ٢٨٩.

(٢) في الخطّيّة والحجريّة: تسع.

الأُخرى، لأنّ الأصل تتلظّى . وقيل: إنّه أُدغم نون التنوين في التاء. الباقون بالتخفيف فحذفوا إحدى التاءين[١]. و«التلظّي» تلهّب النار بشدّة الإيقاد تلظّت النار تتلظّى تلظّياً. و«لظى» اسم من أسماء جهنّم.

وقوله: ﴿لا يصلاها إلّا الأشقى الّذي كذّب﴾ وقصّر عمّا أمرته[٢] كما تقول: لقي فلان العدوّ فكذّب: إذا نكل ورجع ـ ذكره الفرّاء ـ فكأنّه كذب في الطاعة أي لم يتحقّق[٣]. وقال المفسّرون فيها قولان:

أحدهما: الإنذار بنار هذه صفتها، وهي دَرَك مخصوص من أدراك جهنّم فهي تختصّ هذا المتوعّد الّذي كذّب بآيات الله وجحد توحيده ﴿وتولّى﴾ عنها بأن لم ينظر فيها أو رجع عنها بعد أن كان نظر فيها فصار مرتدّاً. والثاني: محذوف لما صحبه من دليل الآي الآخر، كأنّه قال: ومن جرى مجراه ممّن عصى، فعلى هذا لا متعلّق للخوارج في أنّ مرتكب الكبيرة كافر.

وقوله: ﴿وسيجنّبها الأتقى﴾ معناه: سيبعد من هذه النار مَن كان اتّقى الله باجتناب معاصيه ﴿الّذي يؤتي ماله﴾ أي يعطي ماله ﴿يتزكّى﴾ يطلب بذلك طهارة نفسه. فالتجنيب: تصيير الشيء في جانب عن غيره. فالأتقى يصير في جانب الجنّة عن جانب النار يقال: جنّبه الشرّ تجنيباً وتجنّب تجنّباً وجانبه مجانبة، ورجل جُنُب، وقد أجنب إذا أصابه ما يجانب به الصلاة حتّى يغتسل.

وقوله: ﴿وما لأحد عنده من نعمة تجزى﴾ معناه: ليس ذلك ليد سلفت

---

(١) راجع الحجّة للقرّاء السبعة ٤: ١٣٠.

(٢) في الخطّية: أمر به.

(٣) معاني القرآن ٣: ٢٧٢.

تكافي عليها ولا لِيَد يتّخذها عند أحد من العباد.

وقوله: ﴿إلّا ابتغاء وجه ربّه الأعلى﴾ معناه: بل إنّما فعل ذلك طلب رضوان الله، وذكر الوجه طلباً لشرف الذكر. والمعنى: إلّا الله أو إلّا ابتغاء ثواب الله وطلب رضوانه.

وقوله: ﴿ولسوف يرضى﴾ معناه: أنّ هذا العبد الّذي فعل ما فعله لوجه الله سوف يرضى بما يعطيه الله على ذلك من الثواب وجزيل النعيم يوم القيامة.

سورة الضحى

مكّيّة في قول ابن عبّاس والضحّاك وهي إحدى عشرة آية بلا خلاف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى:

وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلاً فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ إحدى عشرة آية.

[أقول:][١] روي أنّ عروة ابن الزبير قرأ ﴿ما ودعك ربّك﴾ بالتخفيف من قولهم: ودع يدع أي ترك يترك. وهو قليل، لأنّ سيبويه قال: استغنوا بـ«ترك» عن «ودع» فلم يستعملوه. الباقون بالتشديد.

هذا قسم من الله تعالى بالضحى ، وهو صدر النهار، وهو الضحى المعروف، في قول قتادة. وقال الفرّاء: هو النهار كلّه من قولهم: ضحى فلان للشمس إذا ظهرلها[٢]. وفي التنزيل ﴿وإنّك لاتظمؤا فيها ولا تضحى﴾[٣].

---

(١) من الحجريّة. (٢) معاني القرآن ٣: ٢٧٣. (٣) طه: ١١٩.

وقوله: ﴿والليل إذا سجى﴾ قسم آخر، وقال الحسن: معنى ﴿سجى﴾ غشي بظلامه. وقال قتادة : معنى ﴿سجى﴾ سكن، وهذا من قولهم: بحر ساجٍ أي ساكن، وبه قال الضحّاك. يقال: سجا يسجو سجواً إذا هدئ وسكن، وطرف ساج، قال الأعشى:

فما ذنبنا إن جاش بحر ابن عمّكم
وبحرك ساج لا يواري الدعامصا[١]

وقال الراجز:

يا حبّذا القَمْراء والليل الساج وطُرُق مِثْل مُلاءِ النسّاج[٢]

وقوله: ﴿ما ودّعك ربّك وما قلى﴾ جواب القسم. وقيل: إنّه لمّا تأخّر عنه الوحي خمس عشرة ليلة، قال قوم من المشركين: ودع الله محمّداً وقلاه، فأنزل الله تعالى هذه السورة تكذيباً لهم وتسلية للنبيّ ﷺ لأنّه كان اغتمّ بانقطاع الوحي عنه، ذكره ابن عبّاس وقتادة والضحّاك. ومعنى ﴿ما ودّعك﴾ ما قطع الوحي عنك. ومعنى ﴿قلى﴾ أبغض، في قول ابن عبّاس والحسن وابن زيد. و«القالي» المبغض يقال: قلاه يقلاه قلاً إذا أبغضه. والعقل دالّ على أنّه لا يجوز أن يقلا الله أحداً من أنبيائه، والتقدير ما قلاك، فحذف الكاف لدلالة الكلام عليه، ولأنّ رؤس الآي بالياء، فلم يخالف بينها. ومثله «فآوى، وفهدى، وفأغنى» لأنّ الكاف في جميع ذلك محذوفة، لما قلناه.

وقوله: ﴿وللآخرة خير لك من الأُولى﴾ خطاب للنبيّ ﷺ يقول الله تعالى له: إنّ ثواب الآخرة والنعيم الدائم فيها خير لك من الأُولى يعني: من الدنيا

(١) شرح ديوان الأعشى: ١٠٢، مع اختلاف.
(٢) مجاز القرآن ٢: ٣٠٢، تفسير الطبري ١٢: ٦٢٢.

والكون فيها، لكونها فانية. قال ابن عبّاس: له في الجنّة ألف قصر من اللؤلؤ ترابه المسك، وفيه من كلّ ما يشتهي على أتمّ الوصف.

وقوله: ﴿ولسوف يعطيك ربّك فترضى﴾ وعد من الله له أن يعطيه من النعيم والثواب وفنون النعم ما يُرضي النبيّ صلى الله عليه وآله به ويُؤثره.

ثمّ عدّد عليه النعمة في دار الدنيا فقال: ﴿ألم يجدك يتيماً فآوى﴾ ومعناه: تقريره[١] على نعم الله عليه حين مات أبوه وبقي يتيماً فآواه، بأن سخّر له عبد المطّلب أوّلاً، ولمّا مات عبد المطّلب آواه إلى أبي طالب، وسخّره للإشفاق عليه والحنين على حفظه ومراعاته.

وقوله: ﴿ووجدك ضالًّا فهدى﴾ قيل في معناه أقوال:

أحدها: وجدك لا تعرف الحقّ فهداك إليه بأن نصب لك الأدلّة وأرشدك إليها حتّى عرفت الحقّ، وذلك من نعم الله.

وثانيها: وجدك ضالًّا عمّا أنت عليه الآن من النبوّة والشريعة، فهداك إليها.

وثالثها: وجدك في قوم ضُلّال أي فكأنّك واحد منهم.

ورابعها: وجدك مضلولاً عنك فهدى الخلق إلى الإقرار بنبوّتك والاعتراف بصدقك، فوجدك[٢] ضالّاً بمعنى مضلول كما قيل «ماء دافق» بمعنى مدفوق، و«سرّ كاتم» بمعنى: مكتوم.

وخامسها: أنّه لمّا هاجر إلى المدينة ضلّ في الطريق، وضلّ دليله فأرشدهم الله إلى الطريق الواضح حتّى وصلوا. فإذا قيل: السورة مكّية أمكن أن يقال: المراد بذلك الاستقبال والإعلام له أنّه يكون هذا على وجه

---

(١) في الخطّية: تقرّره.

(٢) في الخطّية والحجريّة: فجعلك.

البشارة له به، ولم يكن ضلاله معصية، لأنّه ليس ذهاباً عمّا كُلِّف[(١)].

وقوله: ﴿ووجدك عائلاً فأغنى﴾ فالعائل: الفقير، وهو ذو العيلة من غير جِدَة. عال يعيل عيلة إذا كثر عياله وافتقر، قال الشاعر:

وما يدري الفقير متى غناه   وما يدري الغنيّ متى يعيل[(٢)]

أي متى يفتقر.

وقيل: إنّ ذكر النعم من المنعم يحسن على وجهين:

أحدهما: التذكير للشكر وطلب الزيادة منها فهذا جود وكرم.

والآخر: عند كفر المنعَم عليه، فهذا التذكير على الوجه الأوّل.

وقوله: ﴿فأمّا اليتيم فلا تقهر﴾ أي لا تقهره لظلمه بأخذ ماله فكذلك من لا ناصر له لا تغلظ[(٣)] في أمره، والخطاب متوجّه إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وهو نهي لجميع المكلّفين. وقيل: معناه: لا تقهره على ماله[(٤)].

وقوله: ﴿وأمّا السائل فلا تنهر﴾ فالانتهار هو الصياح في وجه السائل الطالب للرفد. يقال: نهره وانتهره بمعنى واحد. وهو متوجّه إلى جميع المكلّفين.

وقوله: ﴿وأمّا بنعمة ربّك فحدّث﴾ معناه: اذكر نعم الله وأظهرها وتحدّثْ بها. وقد قيل: من شكر النعمة الحديث بها[(٥)].

فإن قيل: في هذا ونظائره ممّا عدّده الله على خلقه من النعم وامتنانه

---

(١) راجع النكت والعيون ٦: ٢٩٤.

(٢) مجاز القرآن ٢: ٣٠٢، قد مرّ في ٤: ٣٥٦، معاني القرآن ١: ٢٥٥، تفسير الطبري ١٢: ٦٢٥.

(٣) في الخطّية والحجريّة: تُغلّظ.

(٤) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٣٤٠.

(٥) تفسير الطبري ١٢: ٦٢٥، الكشف والبيان ١٠: ٢٣١.

عليهم كيف يمتنّ الله تعالى على خلقه بالنعم، وذلك من فعل البخلاء، لأنّ الواحد منّا لو منّ على غيره بما يُسدي إليه كان مقبحاً ؟ !

قيل: إنّما يقبح الامتنان إذا كان الغرض الإزراء بالنعم عليه والتفضيل به[1] فأمّا إذا كان الغرض تعريف النعمة وتعديدها وإعلامه وجوهها ليقابلها بالشكر فيستحقّ به الثواب والمدح، فإنّه نعمة أُخرى وتفضّل آخر يستحقّ به الشكر فبطل ما قالوه.

(١) في ظاهر الخطّية: القصر به ولعلّه في الأصل «الفخر به».

سورة الانشراح[1]

مكّيّة في قول ابن عبّاس والضحّاك، وهي ثمان آيات بلا خلاف.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى:

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾ [ثمان آيات].

[أقول:][2] روى أصحابنا أنّ ألم نشرح مع الضحى سورة واحدة لتعلّق بعضها ببعض ولم يفصّلوا بينهما بـ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ وأوجبوا قراءتهما في الفرائض في ركعة وألّا يفصّل بينهما. ومثله قالوا في سورة: «ألم تـر كيف» و«الإيلاف» وفي المصحف هما سورتان فصّل بينهما ببسم الله.

والمعنيّ بهذه الآيات تعداد نعم الله تعالى على النبيّ صلّى الله عليه وآله في الامتنان بها عليه فقال: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ فالشرح فتح الشيء بـإذهاب مـا يصدّ عن إدراكه فالله تعالى قد فتح صدر نبيّه بإذهاب الشواغل الّتي تصدّ

---

(١) في الخطّيّة والحجريّة: ألم نشرح.

(٢) من الحجريّة.

عن إدراك الحقّ وتعظيمه بما يجب له. ومنه قول القائل: اشرح صدري لهذا الأمر. وشرح فلان كتاب كذا، ومنه تشريح اللحم إذا فتحه ورقّقه. ومنه قوله: ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام﴾ (١) وقال البلخي: كان النبيّ صلى الله عليه وآله ضاق صدره بمغاضبة الجنّ والإنس له فآتاه الله من آياته ووعده ما اتّسع قلبه لكلّ ما حمله الله وأمره به. وقال الجبّائي: شرح الله صدره بأن فعل له لطفاً يسكن معه إلى ما كلّفه الله وسهّل عليه، وكان ذلك ثواباً على طاعاته لا يجوز فعله بالكفّار. وعكسه ضيق الصدر كما قيل في قوله: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيّقاً حرجاً كأنّما يصّعّد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الّذين لا يؤمنون﴾ (٢) و«الصدر» الموضع الأرفع الّذي فيه القلب، ومنه أُخذ صدر المجلس تشبيهاً بصدر الإنسان. وصدرته بكذا إذا جعلته في أوّل كلامك. والصدر لأنّ الأوامر (٣) تصدر عنه. وصادره إذا أخذ ما يصدر عنه، والأصل الانصراف عن الشيء.

وقوله: ﴿ووضعنا عنك وزرك﴾ قال الحسن: يعني بالوزر الّذي كان عليه في الجاهليّة قبل النبوّة. وقال مجاهد وقتادة والضحّاك وابن زيد: يعني: ذنبك. قالوا: وإنّما وصفت ذنوب الأنبياء بهذا الثقل مع أنّها صغائر مكفّرة لشدّة اغتمامهم بها وتحسّرهم على وقوعها مع ندمهم عليها. وهذان التأويلان لا يصحّان على مذهبنا، لأنّ الأنبياء عليهم السلام لا يفعلون شيئاً من القبائح لا قبل النبوّة ولا بعدها ولا صغيرة ولا كبيرة، فإذا ثبت هذا، فمعنى الآية هو أنّ الله تعالى لمّا بعث نبيّه وأوحى إليه وانتشر أمره وظهر حكمه

---

(١) الزمر: ٢٢. (٢) الأنعام: ١٢٥. (٣) في الخطّية: والمصدر لأنّ الإبل تصدر عنه.

كان ما كان[١] من كفّار قومه وتتبعهم لأصحابه بأذاهم له وتعرّضهم إيّاهم ما كان يغمّه ويسوؤه ويضيق[٢] صدره ويثقل عليه، فأزال الله ذلك بأن أعلى كلمته وأظهر دعوته وقهر عدوّه وأنجز وعده ونصره على قومه، فكان ذلك من أعظم المنن وأجزل النعم.

فإذا قيل: السورة مكّية، وكان ما ذكرتموه بعد الهجرة ؟ !

قيل: ليس يمنع[٣] أن يكون الله أخبره بأنّ ذلك سيكون فيما بعد ليبشّره به ويسلّيه عمّا هو عليه فجاء بلفظ الماضي وأراد الاستقبال، كما قال: ﴿ونادى أصحاب الجنّة أصحاب النار﴾[٤] وكما قال: ﴿ونادوا يا مالك ليقض علينا ربّك﴾[٥] و«الوزر» الثقل في اللغة، ومنه اشتقّ اسم الوزير لتحمّله أثقال الملك. وإنّما سمّيت الذنوب أوزاراً لما فيها من العقاب العظيم.

وقوله: ﴿الّذي أنقض ظهرك﴾ نعت للوزر، ووصفه له بأنّه أنقض ظهره بمعنى أثقله، و«الإنقاض» الإثقال الّذي كان ينتقض به ما حمل عليه، أنقض ينقض إنقاضاً. والنقض والهدم واحد، ونقض المذهب إبطاله بما يفسده. وقال الحسن ومجاهد وقتادة وابن زيد: معنى أنقض أثقل، وبعير نقض سفر إذا أثقله السفر.

وقوله: ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾ قال الحسن ومجاهد وقتادة: معناه: أنّي لا أذكَر إلّا ذُكرتَ معي يعني: بـ«لا إله إلّا الله محمّد رسول الله ﷺ».

وقوله: ﴿فإنّ مع العسر يسراً إنّ مع العسر يسراً﴾ يدلّ على أنّ التأويل في قوله: ﴿ووضعنا عنك وزرك﴾ ما قلناه، لأنّ الله بشّره أنّه يكون مع العسر

---

(١) في الخطّية: ظهر بمكّة كان ما يلقى.
(٢) في الخطّية زيادة «به».
(٣) في الخطّية: يمتنع.
(٤) الأعراف: ٤٤.
(٥) الزخرف: ٧٧.

اليسر. وروي عن ابن عبّاس أنّه قال: لن يغلب عسر واحد يسرين، لأنّه حمل العسر في الآيتين على أنّه واحد لكونها بالألف واللام، واليسر منكر في تثنية[١] الفائدة، والثاني غير الأوّل[٢]. و«العسر» صعوبة الأمر وشدّته، و«اليسر» سهولته.

ثمّ قال له: ﴿فإذا فرغت فانصب﴾ قال ابن عبّاس: معناه: فإذا فرغت من فرضك فانصب إلى ما رغّبك الله فيه من العمل. وقال قتادة: معناه: فإذا فرغت من صلاتك فانصب إلى ربّك في الدعاء. وقال مجاهد: معناه: فإذا فرغت من أمر دنياك فانصب إلى عبادة ربّك. ومعنى ﴿فانصب﴾ ناصب[٣] يقال: ناله همّ ناصب أي ذو نصب. ويقال: أنصبني الهمّ فهو منصب، قال الشاعر:

تعنّاك هم من امَيمة مُنْصب[٤]

وقال النابغة:

كِليني لهمّ يا أميمة ناصب[٥]

أي فيه نصب كقوله: ﴿عيشة راضية﴾[٦] أي ذات رضى. والخطاب وإن كان متوجّهاً إلى النبيّ ﷺ فالمراد به جميع المكلّفين من أُمّته. و«الفراغ» انتفاء كون الشيء المضادّ لكون غيره في المحلّ. ونقيضه الشغل، وهو كون الشيء المضادّ في المحلّ ومنه أُخذ شغل الأفعال، ولهذا لا يوصف تعالى بأنّه يشغله شيء عن شيء، لأنّه تعالى يخترع ما شاء من الأفعال.

وقوله: ﴿وإلى ربّك فارغب﴾ حثّ له على الرغبة في الطلب من الله تعالى دون غيره.

---

(١) في الحجريّة: تثبيته. (٢) راجع معاني القرآن وإعرابه ٥: ٣٤١. (٣) في الخطّيّة: فاصب.
(٤) العين: ٨٠٧ مادّة «نصب». (٥) ديوان النابغة: ٤٨. (٦) الحاقّة: ٢١، القارعة: ٧.

سورة التين

مكّيّة في قول ابن عبّاس والضحّاك، وهي ثمان آيات بلا خلاف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾ ثمان آيات.

[أقول:][1] هذا قسم من الله تعالى بالتين والزيتون، وقال الحسن ومجاهد وعكرمة وقتادة: هو التين الّذي يؤكل، والزيتون الّذي يعصر. وقال ابن زيد: «التين» مسجد دمشق، والزيتون بيت المقدس. قال الفرّاء: سمعت رجلاً من أهل الشام ـ وكان صاحب تفسير ـ قال: «التين» جبال مابين حلوان إلى همدان، و«الزيتون» جبال الشام[2] والأوّل هو الأظهر.

«وطور سيناء» هو قسم آخر، وقال مجاهد وقتادة: «الطور» جبل.

---

(١) من الحجريّة.

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٣: ٢٧٦.

و﴿سينين﴾ معناه: مبارك، فكأنّه قيل: جبل فيه الخير الكثير، لأنّه إضافة تعريف. وقال الحسن: طور سينين هو الجبل الّذي كلّم الله عليه موسى بن عمران عليه السلام فهو عظيم الشأن. وقيل: سينين بمعنى حسن، لأنّه كثير النبات والشجر، في قول عكرمة[١].

وقوله: ﴿وهذا البلد الأمين﴾ قسم آخر، وقال ابن عبّاس ومجاهد وقتادة وابن زيد وإبراهيم: البلد الأمين مكّة، و«الأمين» بمعنى آمن، كما قال الله تعالى: ﴿أو لم يروا أنّا جعلنا حرماً آمناً﴾[٢] قال الشاعر:

ألم تعلمي يا أسم ويحك إنّني حلفت يميناً لا أخون أميني[٣]

يريد آمني.

وقوله: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ جواب القسم. قال ابن عبّاس: خلق الله تعالى الإنسان في أحسن تقويم منتصب القامة وسائر الحيوان مُنْكَبّ. وقال الفرّاء: معناه: أنّا لنبلغ بالآدمي أحسن تقويمه، وهو اعتداله واستواء شبابه، وهو أحسن ما يكون[٤]. وقال الحسن ومجاهد وقتادة: معناه في أحسن صورة. و«التقويم» تصيير الشيء على ما ينبغي أن يكون عليه من التأليف والتعديل، قوّمه تقويماً فاستقام وتقوّم.

وقوله: ﴿ثمّ رددناه أسفل سافلين﴾ قال ابن عبّاس وإبراهيم وقتادة: معناه إلى أرذل العمر. وقال الحسن ومجاهد وابن زيد: ثمّ رددناه إلى النار في أقبح صورة.

ثمّ استثنى من جملتهم ﴿إلّا الّذين آمنوا﴾ بالله تعالى وأخلصوا العبادة له ﴿[وعملوا الصالحات﴾ أي] وأضافوا إلى ذلك الأعمال الصالحات. وبيّن

---

(١) النكت والعيون ٦: ٣٠١. (٢) العنكبوت: ٦٧. (٣ و ٤) معاني القرآن ٣: ٢٧٦.

أنّ من هذه صفته ﴿لهم أجر﴾ أي ثواب على طاعاتهم ﴿غير ممنون﴾ أي غير منقوص. وقيل: غير مقطوع. وقال مجاهد: غير محسوب. وقيل: غير مكدّر بما يؤذي ويغمّ[١].

وقوله: ﴿فما يكذّبك بعد بالدين﴾ معناه: أيّ شيء يكذّبك أيّها الإنسان بعد هذه الحجج بالدين الّذي هو الجزاء. وقال قتادة: معناه: فمن يكذّبك أيّها الإنسان بعدها بالدين الّذي هو الجزاء والحساب، وهو قول الحسن وعكرمة.

وقوله: ﴿أليس الله بأحكم الحاكمين﴾ تقرير للإنسان على الاعتراف بأنّه تعالى أحكم الحاكمين صنعاً وتدبيراً، لأنّه لا خلل فيه ولا اضطراب يخرج عمّا تقتضيه الحكمة. وفي ذلك دلالة على فساد مذهب المجبّرة في أنّ الله يخلق الظلم والفساد. والحكم الخبر بما فيه فائدة بما تدعو إليه الحكمة. فإذا قيل: حكم جائر، فهو بمنزلة حجّة داحضة مجازاً بمعنى أنّه حكم عند صاحبه كما أنها حجّة عنده. وليست حجّة في الحقيقة. وقيل: المعنى أيّ شيء يكذّبك بالدين ويحملك على جحد الجزاء يوم القيامة وأنا أحكم الحاكمين[٢]. وروي عن ابن عبّاس أنّه كان إذا قرأ ﴿أليس الله بأحكم الحاكمين﴾ قال: سبحانك اللّهمّ بلى[٣]. وروى أبو هريرة عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «إذا قرأ أحدكم والتين والزيتون فأتى على آخرها فليقل: بلى»[٤].

---

(١) النكت والعيون ٦: ٣٠٢.

(٢) راجع تفسير السمرقندي ٣: ٥٩٦.

(٣) تفسير الطبري ١٢: ٦٤٣.

(٤) راجع سنن الترمذي ٥: ٤٤٣.

سورة العلق[1]

مكّيّة في قول ابن عبّاس والضحّاك، وهي تسع عشرة آية في الكوفي والبصري، وعشرون في المدنيّين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى:
اَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ اَلَّذِى خَلَقَ (١) خَلَقَ اَ لْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اَقْرَأْ وَرَبُّكَ اَ لْأَكْرَمُ (٣)
اَلَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ اَ لْإِنسَـٰنَ مَالَمْ يَعْلَمْ (٥) كَلَّآ إِنَّ اَ لْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ (٦) أَن
رَّءَاهُ اَسْتَغْنَىٰٓ (٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ اَلرُّجْعَىٰٓ (٨) أَرَءَيْتَ اَلَّذِى يَنْهَىٰ (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ (١٠)
عشر آيات.

[أقول:][2] روي عن عائشة ومجاهد وعطاء بن سيّار: إنّ أوّل آية نزلت قوله: ﴿إقرأ باسم ربّك الّذي خلق﴾ وهو قول أكثر المفسّرين. وقال قوم: أوّل ما نزل قوله: ﴿يا أيّها المدّثّر﴾[3] وقد ذكرناه فيما مضى.

هذا أمر من الله تعالى لنبيّه صلى الله عليه وآله أن يقرأ باسم ربّه الّذي خلق الخلق، وأن يدعوه بأسمائه الحسنى. وفي تعظيم الاسم تعظيم المسمّى، لأنّ الاسم

(١) في الخطّيّة والحجريّة: اقرأ باسم. (٢) من الحجريّة. (٣) النكت والعيون ٦: ١٣٥.

وصف ليذكر به المسمّى بما لا سبيل إلى تعظيمه إلّا بمعناه، فلهذا لا يعظّم اسم الله حقّ تعظيمه إلّا من هو عارف به ومعتقد لعبادة ربّه، فهو معتقد بتعظيم المسمّى لا وجه له يعتدّ به إلّا تعظيم المسمّى، ولهذا قال الله تعالى: ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيّاماً تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾ (١) وقال: ﴿فسبّح باسم ربّك﴾ (٢) وقال الله تعالى: ﴿تبارك اسم ربّك ذي الجلال والإكرام﴾ (٣) والباء زائدة، وتقديره اقرأ اسم ربّك.

وقوله: ﴿الّذي خلق﴾ في موضع جرّ، نعت لـ﴿ربّك﴾ الّذي خلق الخلائق وأخرجهم من العدم إلى الوجود.

وقوله: ﴿خلق الإنسان من علق﴾ تخصيص لبعض ما ذكره بقوله: ﴿الّذي خلق﴾ لأنّه يشتمل على الإنسان وغيره، وإنّما أفرد الإنسان بالذكر تشريفاً له وتنبيهاً على ما خصّه الله به من سائر الحيوان، وبيّن أنّه مع ذلك خلقه الله من علق، وهو القطعة الجامدة من الدم، وإنّما قال: ﴿علق﴾ وهو جمع علقة لأنّ المراد بالإنسان الجمع، لأنّه اسم جنس، وسمّي قطع الدم الّتي تعلق لرطوبتها بما تمرّ به، فإذا جفّت لا تسمّى علقاً، وواحدها «علقة» مثل شجرة وشجر. وعلق في معنى الجمع، لأنّ الإنسان جمع على طريق الجنس، والنطفة تستحيل في الرحم علقة ثمّ مضغة ويسمّى ضرب من الدود الأسود «العلق» لأنّه يعلق على الشفتين لداء يصيبها فيمتصّ الدم. وفي خلق الإنسان من علق دليل على ما يصحّ أن ينقلب إليه الجوهر.

وقوله: ﴿اقرأ وربّك الأكرم﴾ معناه: اقرأ القرآن وربّك الأكرم، ومعنى الأكرم: الأعظم كرماً، وفي صفة الله تعالى معناه: الأعظم كرماً بما لا يبلغه

---

(١) الإسراء: ١١٠. (٢) الحاقّة: ٥٢. (٣) الرحمن: ٧٨.

كرم، الّذي يثيبك على عملك بما يقتضيه كرمه، لأنّه يعطي من النعم ما لا يقدر على مثله غيره. فكلّ نعمة من جهته تعالى، إمّا بأن اخترعها أو سبّبها وسهّل الطريق إليها.

وقوله: ﴿الّذي علّم بالقلم﴾ ﴿الّذي﴾ في موضع رفع، لأنّه نعت لقوله: ﴿وربّك﴾ والمعنى: انّه تعالى امتنّ على خلقه بما علّمه من كيفيّة الكتابة بالقلم، لما في ذلك من كثرة الانتفاع لخلقه، فقد نوّه الله بذكر القلم إذ ذكره في كتابه، وقد وصف بعض الشعراء القلم فقال:

لعاب الأفاعي القاتلات لعابه وأَرْيُ الجَنى اشتارَتْه أيدٍ عواسل[1]

وقوله: ﴿علّم الإنسان ما لم يعلم﴾ امتنان من الله تعالى على خلقه بأن علّمهم ما لم يكونوا عالمين به إمّا بخلق العلوم في قلوبهم من الضروريات أو بنصب الأدلّة لهم على الوصول إليها فيما لم يعلموه ضرورة، وذلك من أعظم نعم الله تعالى على خلقه، وفي ذلك دلالة على أنّه تعالى عالم لأنّ العلم لا يقع إلّا من عالم.

وقوله: ﴿كلّا﴾ ردع وزجر وتقديره ارتدعوا وانزجروا معاشر المكلّفين، ثمّ أخبر تعالى ﴿إنّ الإنسان ليطغي﴾ ويحتمل أن يكون بمعنى حقّاً على وجه القسم بأنّ الإنسان ليطغى أي ليجاوز الحدّ في العصيان والخروج عن الطاعة ﴿أن رآه استغنى﴾ أي إذا كثر ماله واستغنى، بَطِرَ وطغى وخرج عن الحدّ المحدود له. ويجوز أن يقال: زيد رآه استغنى من رؤية القلب بمعنى العلم، ولا يجوز من رؤية العين، زيد رآه حتّى تقول رأى نفسه، لأن الّتي يحتاج إلى خبر جاز فيه الضمير المتّصل لطول الكلام

---

(١) ديوان أبي تمّام ٢: ٣٦.

بلزوم المفعول الثاني. وقرأ أبو عمرو ﴿رآه﴾ بفتح الراء وكسر الهمزة. وقرأ نافع وحفص عن عاصم بالفتح فيهما. الباقون بكسر الراء وبعد الهمزة ألف على وزن «رعاه» على إمالة الفتحة، وأبو عمرو يميل الألف[١].

ثمّ قال على وجه التهديد لهم: ﴿إنّ إلى ربّك الرجعى﴾ فالرجعى والمرجع والرجوع واحد، أي مصيرهم ومرجعهم إلى الله، فيجازيهم الله على أفعالهم على الطاعات بالثواب، وعلى المعاصي بالعقاب.

وقوله: ﴿أرأيت الّذي ينهى عبداً إذا صلّى﴾ تقرير للنبيّ صلى الله عليه وآله وإعلام له ما يفعله بمن ينهاه عن الصلاة. وقيل: إنّ الآيات نزلت في أبي جهل بن هشام، والمراد بالعبد في الآية النبيّ صلى الله عليه وآله فإنّ أبا جهل كان ينهى النبيّ صلى الله عليه وآله عن الصلاة وكان النبيّ صلى الله عليه وآله لمّا قال أبو جهل: ألم أنهك عن الصلاة، انتهره وأغلظ له، فقال أبو جهل: أنا أكثر أهل هذا الوادي نادياً. ذكره ابن عبّاس وقتادة. والمعنى: أرأيت يا محمّد صلى الله عليه وآله من فعل ما ذكرناه من منع الصلاة، وينهى المصلّين عنها ؟ ماذا يكون جزاؤه ؟ وما يكون حاله عند الله ؟ وما الّذي يستحقّه من العقاب؟

قوله تعالى:

أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴿١٩﴾

تسع آيات.

[أقول:][٢] لمّا قال للنبيّ صلى الله عليه وآله: ﴿أرأيت الّذي ينهى عبداً إذا صلّى﴾ بيّن

---

(١) راجع الحجّة للقرّاء السبعة ٤: ١٣٢.

(٢) من الحجريّة.

ما ينبغي أن يقال له فإنّه يقال له: ﴿أرأيت إن كان﴾ هذا الّذي صلّى ﴿على الهدى﴾ والطريقة الصحيحة ﴿أو أمر [بالتقوى﴾ أي] بأن يتّقي معاصي الله كيف يكون حال من ينهاه عن الصلاة ويزجره عنها؟!

ثمّ قال للنبيّ ﷺ: ﴿أرأيت إن كذّب وتولّى﴾ بما يقال له وأعرض عن قبوله. والإصغاء إليه ﴿ألم يعلم بأنّ الله يرى﴾ أي يعلم ما يفعله ويدرك ما يصنعه، فالهدى البيان عن الطريق المؤدّي إلى الغرض الحِكَمي يقال: هداه إلى الحقّ في الدين يهديه هدى، والعمل بالبيان عن طريق الرشد هدى، وكذلك باللطف فيه. والتقوى تجنّب ما يؤدّي إلى الردى، اتّقاه اتّقاء وتقوى والأصل وقياً. فأُبدلت الواو تاء والياء واواً، لأنّ التاء أحسن أوّلاً من الواو مع مناسبتها بالقرب وامتناع المخرج، والتقدير أرأيت الّذي فعل هذا الفعل ما الّذي يستحقّ بذلك من الله من العقاب.

ثمّ قال على وجه التهديد: ﴿كلّا لئن لم ينته﴾ عن هذا الفعل والقول ﴿لنسفعاً بالناصية﴾ أي لنغيّرن بها إلى حال تشويه، يقال: سفعته النار والشمس، إذا غيّرت وجهه إلى حال تشويه. وقيل: هو أن يجرّ بناصيته إلى النار، والناصية شعر مقدّم الرأس. وهو من ناصي يناصى مناصاة إذا واصل، قال الراجز:

قِيّ يناصيها بِلادُ قِيّ (١)

فالناصية: متّصلة بشعر الرأس.

وقوله: ﴿ناصية﴾ بدل من ﴿الناصية﴾ بدل النكرة من المعرفة ووصفها بأنّها ﴿كاذبة خاطئة﴾ ومعناه: أنّ صاحبها كاذب في أقواله خاطئ في

(١) معجم تهذيب اللغة ٣: ٣٠٧١ مادّة «قوى».

أفعاله، وأضاف الفعل إليها لما ذكر الخبر بها.

وقوله: ﴿فليدع ناديه﴾ وعيد للّذي قال: أنا أكثر هذا الوادي نادياً، بأن قيل له: ﴿فليدع ناديه﴾ إذا حلّ عقاب الله به. وقال أبو عبيدة: تقديره، فليدع أهل ناديه[١] كقوله: ﴿واسأل القرية﴾[٢] و«النادى» الفناء، ومنه قوله: ﴿وتأتون في ناديكم المنكر﴾[٣].

ثمّ قال: ﴿سندع﴾ نحن ﴿الزبانية﴾ يعني الملائكة الموكّلين بالنار، في قول ابن عبّاس وقتادة ومجاهد والضحّاك. وقال أبو عبيدة: واحد الزبانية زبينة[٤] وقال الكسائي: واحدها زبني. وقال الأخفش: واحدها زابن. وقيل: زبنية. ويجوز أن يكون اسماً للجمع مثل أبابيل[٥] و«الزبن» الدفع، والناقة تزبن الحالب أي تركضه برجلها، وقال الشاعر :

ومستعجب ممّا يرى من أناتنا ولو زبنتهُ الحرب لم يترمرم[٦]

ثمّ قال: ﴿كلّا﴾ أي ارتدع وانزجر ﴿فلا [تطعه﴾ أي لا] تطع هذا الكافر، فإنّه ليس الأمر على ما يظنّ هذا الكافر وهو أبو جهل الّذي نزلت الآيات فيه ﴿واسجد﴾ لله تعالى وأطعه ﴿واقترب﴾ من ثوابه بطاعته. وقيل: معناه: تقرّب إليه بطاعته دون الرياء والسمعة[٧]. والسجود هنا فرض وهو من العزائم، وهي أربعة مواضع: ألم تنزيل، وحم السجدة، والنجم، واقرأ باسم ربّك . وما عداها في جميع القرآن مسنون ليس بمفروض. وفيه خلاف، ذكرناه في الخلاف.

(١ و ٤) مجاز القرآن ٢: ٣٠٣. (٢) يوسف: ٨٢. (٣) العنكبوت: ٢٩.
(٥) معاني القرآن لأخفش ٢: ٧٤١. (٦) معاني القرآن لأخفش ٢: ٧٤١.
(٧) راجع معاني القرآن وإعرابه ٥: ٣٤٦.

سورة القدر

مدنيّة في قول الضحّاك. وقال عطاء الخراساني: هي مكّيّة، وهي خمس آيات بلا خلاف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى:

إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَـٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾ خمس آيات.

[أقول:][1] قرأ الكسائي وخلف ﴿مطلع الفجر﴾ بكسر اللام على معنى وقت طلوعه. الباقون بالفتح على المصدر، وروي عن ابن عبّاس أنّه قرأ ﴿من كلّ امرئ﴾ بمعنى من الملائكة. الباقون ﴿من كلّ أمر﴾ بمعنى الواحد من الأُمور.

يقول الله تعالى مخبراً أنّه أنزل القرآن في ليلة القدر، فالهاء كناية عن القرآن، وإنّما كنّى عمّا لم يجر له ذكر، لأنّه معلوم لا يشتبه الحال فيه.

---

(١) من الحجريّة.

وقال ابن عبّاس: أنزل الله القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا في ليلة القدر. وقال الشعبي: إنّا ابتدأنا إنزاله في ليلة القدر، وليلة القدر هي الليلة الّتي يحكم الله فيها ويقضي بما يكون في السنة بأجمعها من كلّ أمر، في قول الحسن ومجاهد. يقال: قدَر الله هذا الأمر يقدره قدْراً، إذا جعله على مقدار ما تدعو إليه الحكمة. وقيل: فسّر الله تعالى ليلة القدر بقوله: ﴿فيها يفرق كلّ أمر حكيم﴾[١] وقيل: سمّيت ليلة القدر لعظم شأنها وجلالة موقعها من قولهم: فلان له قدر[٢] والأوّل أظهر. وليلة القدر في العشر الأواخر من شهر رمضان بلا خلاف، وهي ليلة الأفراد بلا خلاف. وقال أصحابنا: هي إحدى الليلتين إمّا ليلة إحدى وعشرين أو ثلاث وعشرين، وجوّز قوم: أن يكون سائر ليالي الافراد إحدى وعشرين وثلاث وعشرين، وخمس وعشرين، وسبع وعشرين، وتسع وعشرين. وجوّزوا أيضاً تقديمها في سنة وتأخيرها في أُخرى. وإنّما لم تعيّن هذه الليلة ليتوفّر العباد على العمل في سائر الليالي[٣]. و«القدر» كون الشيء على مساواة غيره من غير زيادة ولا نقصان، ففي ليلة القدر تجدّد الأُمور على مقاديرها جعلها الله في الآجال والأرزاق والمواهب الّتي يجعلها الله للعباد ، ويقع فيها غفران السيّئات ويعظم منزلة الحسنات على ما لا يقع في ليلة من الليالي، فينبغي للعاقل أن يرغب فيما رغّبه الله بالمبادرة إلى ما أمر به على ما شرط فيه. والأوقات إنّما يفضل بعضها على بعض بما يكون من الخير الجزيل والنفع الكثير فيها دون غيرها، فلمّا جعل الله تعالى الخير الكثير يقسم في ليلة

---

(١) الدخان: ٤.
(٢) الكشف والبيان ١٠: ٢٤٧ و٢٤٨.
(٣) راجع النكت والعيون ٦: ٣١٢، الكشف والبيان ١٠: ٢٤٨ ـ ٢٥٤.

القدر بما جعله الله فيها من هذا المعنى، ولذلك قال: ﴿وما أدراك ما ليلة القدر﴾ تعظيماً لشأنها وتفخيماً، وأنّك يا محمّد لا تعلم حقيقة ذلك.

ثمّ بيّن تعالى ذلك فقال: ﴿ليلة القدر خير من ألف شهر﴾ والمعنى: أنّ الثواب على الطاعة فيها خير يفضل على ثواب كلّ طاعة تفعل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر. وقيل: إنّ الله يتفضّل على خلقه في هذه الليلة وينعم عليهم بما لا يفعل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر وبما لا يكون مثله في ألف شهر وكانت أفضل من ألف شهر ليس فيها ليلة القدر. و«الشهر» في الشرع عبارة عن ما بين هلالين من الأيّام، وسمّي شهراً لاشتهاره بالهلال. وقد يكون الشهر ثلاثين ويكون تسعة وعشرين إذا كانت هلاليّة، فإن لم يكن هلاليّة فهي ثلاثون.

وقوله: ﴿تنزّل الملائكة والروح فيها﴾ معناه: تنزّل الملائكة والروح الّذي هو جبرائيل بكلّ أمر في ليلة القدر إلى سماء الدنيا حتّى يعلمه أهل سماء الدنيا فيكون لطفاً لهم، وحتّى يتصوّره العباد ينزل بأمر الله إليها فتنصرف آمالهم إلى ما يكون منها فيقوى رجاؤهم بما يتجدّد من تفضّل الله فيها. وقيل: إنّ نزولها بالسلامة والخير والبركة إلى تلك الساعة[1] ﴿بإذن ربّهم من كلّ أمر﴾ أي ما ينزلون به كلّه بأمر الله، ويكون الوقف هاهنا تامّاً على ما قرأ به القرّاء المشهورون، وعلى ما حكيناه عن ابن عبّاس ـ وهو قول عكرمة والضحّاك ـ لا يكون تامّاً.

وقوله: ﴿سلام هي حتّى مطلع الفجر﴾ قيل: هو سلام الملائكة عليهم السلام بعضهم على بعض إلى طلوع الفجر. وقيل: معناه: سلام هي من الشرّ حتّى

(١) راجع النكت والعيون ٦: ٣١٤.

مطلع الفجر[١] ذكره قتادة. وقيل: إنّ فضل الصلاة فيها والعبادات على ألف شهر يراد بها إلى وقت طلوع الفجر، وليست كسائر الليالي الّتي فضّلت بالعبادة في بعضها على بعض. و«المطلَع» الطلوع، و«المطلِع» موضع الطلوع[٢] وجرّ ﴿مطلع﴾ بـ﴿حتّى﴾ لأنّها إذا كانت بمعنى الغاية خفضت الاسم بإضمار «إلى» ونصبت الفعل بإضمار «إلى أن» كقولك: دخلت الكوفة حتّى مسجدها، أي حتّى انتهيت إلى مسجدها، والفعل كقولك: أسير حتّى أدخلها، بمعنى إلى أن أدخلها.

---

(١) راجع الكشف والبيان ١٠: ٢٥٨.

(٢) راجع معاني القرآن وإعرابه ٥: ٣٤٨.

سورة البيّنة[1]

مدنيّة في قول ابن عبّاس والضحّاك، وهي ثمان آيات فـي الكـوفي والمدنيّين، وتسع في البصري.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ (٤) وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ (٥) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ (٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ (٧) جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ (٨)﴾ ثمان آيات.

[أقول:] قرأ نافع وابن عامر، فـي روايـة ابـن ذكـوان ﴿خير البريئة﴾

---

(١) في الحجريّة: لم يكن.

و﴿شرّ البريئة﴾ مهموزتان الباقون بغير همز. من همز جعله من «برأ الله الخلق يبرؤهم» ومنه البارئ. ومن لم يهمز يجوز أن يكون خفّف. ويجوز أن يكون من البَرَى الّذي هو التراب، كما يقال: بفيك [من سار إلى القوم][1] البَرَى. وروى أبو نشيط من طريق الفرظي[2] ﴿لمن خشي ربّه﴾ بضمّ الهاء من غير إشباع. الباقون بضمّ الهاء، ووصلها بواو في اللفظ.

يقول الله تعالى: ﴿لم يكن الّذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكّين حتّى تأتيهم البيّنة﴾ قال الحسن وقتادة: معناه: لم يكونوا منتهين عن كفرهم حتّى تأتيهم البيّنة. وقال قوم: معناه: لم يكونوا منفكّين من كفرهم أي زائلين. وقيل: معناه: لم يكونوا ليتركوا منفكّين من حجج الله حتّى تأتيهم البينة الّتي تقوم بها الحجّة عليهم[3]. وقال الفرّاء: معناه: لم يكونوا منفكّين من حجج الله بصفتهم للنبيّ صلى الله عليه وآله أنّه في كتابهم. وقيل: معناه: لم يكونوا زائلين من الدنيا، والانفكاك على وجهين: على لا يزال ولابدّ لها من خبر وحرف الجحد. ويكون على الانفصال فلا يحتاج إلى خبر ولا حرف جحد، كقولك انفكّ الشيء من الشيء، قال ذو الرُمّة:

قلائص ما تنفكّ إلّا مُناخةً
على الخسف أو نرمي بها بلداً قَفْرا[4]

فجعله الفرّاء من «انفكّ الشيء من الشيء»[5] وجعله غيره من «ما يزال» إلّا أنّه ضرورة. و«الانفكاك» انفصال عن شدّة اجتماع. وأكثر ما يستعمل ذلك في النفي كما أنّ «ما زال» كذلك تقول: ما انفكّ من هذا

(١) كذا، والظاهر زيادة ما بين المعقوفتين. راجع تفسير الطبري ١٢: ٦٥٧.
(٢) في الحجريّة: القرضي.
(٣) النكت والعيون ٦: ٣١٥.
(٤) ديوان ذي الرمّة: ٤٨٥، الكتاب ٣: ٤٨.
(٥) معاني القرآن ٣: ٢٨١.

الأمر أي ما انفصل منه لشدّة ملابسته له. والمعني: أنّ هؤلاء الكفّار من أهل الكتاب يعني اليهود والنصارى ومن المشركين يعني عباد الأصنام لا يفارقون الكفر إلى أن تأتيهم البيّنة ـ يعني الحجج الظاهرة ـ الّتي يتميّز بها الحقّ من الباطل، وهي من البينونة وفصل الشيء من غيره، فالنبيّ صلى الله عليه وآله حجّة وبيّنة، وإقامة الشهادة العادلة بيّنة، وكلّ برهان ودلالة فهو بيّنة.

وقوله: ﴿رسول من الله﴾ هو بيان تلك البيّنة، بيّنها بأنّه ﴿رسول من﴾ قبل ﴿الله يتلو عليهم صحفاً مطهّرة﴾ يعني: في السماء لا يمسّها إلّا الملائكة المطهّرون من الأنجاس.

وقوله: ﴿فيها كتب قيّمة﴾ معناه: في تلك الصحف ﴿كتب﴾ جمع كتاب ﴿قيّمة﴾ فالقيّمة المستمرّة في جهة الصواب، فهو على وزن «فيعلة» من قام الأمر يقوم به إذا أجراه في جهة الاستقامة. وقال قتادة: ﴿صحفاً مطهّرة﴾ يعني: من الباطل وهو القرآن، يذكره بأحسن الذكر ويثني عليه بأحسن الثناء.

وقوله: ﴿وما تفرّق الّذين أوتوا الكتاب إلّا من بعد ما جائتهم البيّنة﴾ إخبار من الله تعالى أنّ هؤلاء الكفّار لم يختلفوا في نبوّة النبيّ صلى الله عليه وآله لأنّهم مجمعين على نبوّته بما وجدوه في كتبهم من صفاته، فلمّا أتاهم بالبيّنة الظاهرة والمعجزة القاهرة، تفرّقوا واختلفوا، فآمن بعضهم وكفر بعضهم. وفي ذلك دلالة على بطلان قول من يقول: إنّ الكفّار خلقوا كفّاراً في بطون أُمّهاتهم، لأنّه تعالى بيّن أنّهم لم يختلفوا في ذلك قبل مجيء معجزاته وأدلّته، ولا يلزم على ذلك أن يكون مجيء الآيات مفسدة من حيث وقع الفساد عندها، لأنّه ليس حدّ المفسدة ما يقع عنده الفساد، بل حدّه ما يقع عنده الفساد ولولاه لم يقع، من غير أن يكون تمكيناً، وهاهنا المعجزات تمكين

فلم يكن مفسدة.

ثمّ قال تعالى: ﴿وما أُمروا﴾ أي لم يأمرهم الله تعالى ﴿إلّا ليعبدوا الله﴾ وحده ولا يشركوا بعبادته غيره ﴿مخلصين له الدين﴾ لا يخلطون بعبادته عبادة سواه. وقوله: ﴿حنفاء﴾ جمع حنيف، وهو المائل إلى الحقّ، و«الحنيفة» الشريعة المائلة إلى الحقّ، وأصله الميل، ومن ذلك «الأحنف»: المائل القدم إلى جهة القدم الأُخرى. وقيل: أصله الاستقامة، وإنّما قيل للمائل القدم أحنف على وجه التفاؤل. وقوله: ﴿ويقيموا الصلاة﴾ أي يدوموا عليها ويقوموا بحدودها ويخرجوا ﴿الزكاة﴾ المفروضة من أموالهم. ثمّ قال: ﴿وذلك دين القيّمة﴾ أي ذلك الّذي تقدّم ذكره دين القيّمة، وتقديره ذلك دين الملّة القيّمة أو الشريعة القيّمة[1].

وقوله: ﴿وما أُمروا إلّا ليعبدوا الله﴾ دليل على فساد مذهب المجبّرة: إنّ الله خلق الكفّار ليكفروا به، لأنّه صرّح هاهنا أنّه خلقهم ليعبدوه. وليس في الآية دلالة على أنّ أفعال الجوارح من الإيمان ولا من الدين، لأنّه يجوز أن يكون المراد ﴿وذلك﴾ إشارة إلى الدين، وتقديره والدين بذلك هو دين القيّمة، لأنّ من لا يعتقد جميع ذلك ويؤمن بجميع ما يجب عليه فليس بمسلم. وقد تقدّم قوله: ﴿مخلصين له الدين﴾ ثمّ قال: ﴿وذلك﴾ يعني: وذلك الدين ﴿دين القيّمة﴾ وليس يلزم أن يكون راجعاً إلى جميع ما تقدّم، كما لا يلزم على مذهبهم في قوله: ﴿ومن يفعل ذلك يلق أثاماً﴾[2] أن يكون راجعاً إلى الشرك، وقتل النفس والزنا، بل عندهم يرجع إلى كلّ واحد من ذلك، فكذلك هاهنا. وقد استوفينا ما يتعلّق بذلك في

(١) راجع تفسير الطبري ١٢: ٦٥٧.

(٢) الفرقان: ٦٨.

كتاب الأُصول.

وفي الآية دلالة على وجوب النيّة في الطهارة، لأنّه بيّن تعالى أنّه أمرهم بالعبادة على الإخلاص، ولا يمكن ذلك إلّا بالنيّة والقربة، والطهارة عبادة لقوله عليه السلام «الوضوء شطر الإيمان»[1] وما هو شطر الإيمان لا يكون إلّا عبادة.

ثمّ أخبر تعالى عن حال الكفّار والمشركين فقال: ﴿إن الّذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين﴾ يعني: من جحد توحيد الله وأنكر نبوّة نبيّه وأشرك معه إلهاً آخر في العبادة ﴿في نار جهنّم﴾ معاقبين فيها جزاء على كفرهم ﴿خالدين فيها﴾ أي مؤبّدين لا يفنى عقابهم. ثمّ قال: ﴿أولئك هم شرّ البريّة﴾ أي شرّ الخليقة. والبريّة «فعيلة» من برأ الله الخلق إلّا أنّه ترك فيهما الهمز، ومن همز فعلى الأصل. ويجوز أن يكون «فعيلة» من البَرَى وهو التراب.

ثمّ أخبر عن حال المؤمنين فقال: ﴿إنّ الّذين آمنوا﴾ بالله وأقرّوا بتوحيده واعترفوا بنبوّة نبيّه ﴿وعملوا الصالحات أولئك هم خير البريّة﴾ أي هم أحسنهم حالة. وإنّما أطلق بأنّهم خير البريّة، لأنّ البريّة هم الخلق، ولا يخلو أن لا يكونوا مكلّفين، فالمؤمن خير منهم لا محالة. وإن كانوا مكلّفين: فإمّا أن يكونوا مؤمنين أو كافرين أو مستضعفين، فالمؤمن خير منهم أيضاً لا محالة بما معه من الثواب.

وقوله: ﴿جزاؤهم عند ربّهم﴾ يعني: جزاء إيمانهم وطاعاتهم عند الله يوفّيهم الله يوم القيامة. ثمّ فسّر ذلك الجزاء فقال: ﴿جنّات عدن﴾ أي بساتين إقامة ﴿خالدين فيها﴾ أي مؤبّدين فيها ﴿أبداً رضي الله عنهم﴾ أي

(١) الكافي ٣: ٧٢.

رضي أفعالهم ﴿ورضوا عنه﴾ بما فعل بهم من الثواب. و«الرضا» هو الإرادة، إلّا أنّها لا تسمّى بذلك إلّا إذا وقع مرادها، ولم يتعقّبها كراهية، فتسمّى حينئذ رضا، فأمّا الإرادة لما يقع في الحال أو فيما يفعل بعد، فلا تسمّى رضا. فرضى الله عن العباد إرادته منهم الطاعات الّتي فعلوها، ورضاهم عنه إرادتهم الثواب الّذي فعله بهم. ثمّ قال: ﴿ذلك لمن خشي ربّه﴾ أي ذلك الرضا والثواب والخلود في الجنّة لمن خاف الله فترك معاصيه وفعل طاعاته.

سورة الزلزال[1]

مدنيّة في قول ابن عبّاس، وقال الضحّاك: مكّية، وهي ثمان آيات في الكوفي والمدني الأوّل، وتسع آيات في البصري والمدني الأخير.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى:

إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَالَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ثمان آيات.

[أقول:] قرأ عاصم في رواية أبان عنه ﴿خيراً يُره وشرّاً يُره﴾ بضمّ الياء فيهما بمعنى أنّه يريه غيره. الباقون بفتح الياء بمعنى أنّه يراه ويبصره. وقرأ ابن عامر ـ في رواية هشام بن عمّار والكسائي عن أبي بكر ـ بسكون الهاء في قوله: ﴿خيراً يره وشرّاً يره﴾ الباقون بالإشباع فيهما. قال أبو عليّ: الإشباع هو الأصل، وهو الوجه، كما تقول: أكرمهو، وضربهو. وإنّما يجوز

(١) في الخطّيّة والحجريّة: الزلزلة.

إسكانها في الشعر. وقد حكى أبو الحسن أنّها لغة رديئة، فمن سكن فعلى هذه اللغة[١]. وقرأ أبو جعفر من طريق ابن العلاف وروح بضمّ الياء من غير صلة بواو فيهما، وقد بيّنا الوجه فيه.

يقول الله تعالى مخوّفاً لعباده أهوال يوم القيامة ومنذراً لهم بالآيات الباهرة بأن قال: ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها﴾ فالزلزلة: شدّة الاضطراب بما يهدم البنيان، زلزل يزلزل زلزالاً، فكأنّه مكرّر «زلّ يزلّ» للتكثير والتعظيم. والزلزال بكسر الزاي المصدر، وبالفتح الاسم. وقال الحسن: زلزلت ورجت ورجفت بمعنى واحد.

وقوله: ﴿وأخرجت الأرض أثقالها﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد: معناه: أخرجت موتاها، وأثقال الأرض ما فيها مدفون من الموتى وغيرها، فإنّ الأرض تلفظ بكلّ ما فيها عند انقضاء أمر الدنيا، وتجديداً لأمر الآخرة.

وقوله: ﴿وقال الإنسان مالها﴾ معناه: يقول الإنسان: أيّ شيء أصارها إلى هذه الحالة الّتي ترى بها، يقول الإنسان ذلك متعجّباً من عظم شأنها وأنّه لأمر عظيم لفظت بما فيها، وتخلّت من جميع الأُمور الّتي استودعها.

وقوله: ﴿يومئذ تحدّث أخبارها﴾ قيل: معناه: يظهر بالدليل الّذي يجعله الله فيها ما يقوم مقام إخبارها بأنّ أمر الدنيا قد انقضى وأمر الآخرة قد أتى، وأنّه لابدّ من الجزاء وأنّ الفوز لمن اتّقى وأنّ النار لمن عصى. وقيل: معناه: تحدّث أخبارها بمن عصا عليها إمّا بأن يقلبها حيواناً قادراً على الكلام فتتكلّم بذلك أو يحدث الله تعالى الكلام فيها، ونسبه إليها مجازاً أو يظهر فيها ما يقوم مقام الكلام فعبّر عنه بالكلام[٢] كما قال الشاعر:

---

(١) الحجّة للقرّاء السبعة ٤: ١٣٦ ـ ١٣٧.

(٢) النكت والعيون ٥: ٣١٩ ـ ٣٢٠.

امتلأ الحوض وقال قطني مهلاً رويداً قد ملأت بطني[١]

وقال آخر:

وقالت له العينان سمعاً وطاعة[٢]

ويقولون: عيناك تشهد لسهرك، وغير ذلك ممّا قد مضى نظائره. وقال ابن مسعود: الأرض تتكلّم يومئذ فتقول: أمرني الله بهذا. وقوله: ﴿بأنّ ربّك أوحى لها﴾ معناه: أنّ الأرض تحدّث بهذا، فتقول: إنّ ربّك يا محمّد أوحى إليها. قال العجّاج:

وَحىٰ لها القرار فاستقرّت[٣]

أي أوحى إليها بمعنى ألقى إليها من جهة تخفى. يقال: أوحى ووحى بمعنى واحد.

ثمّ قال تعالى: ﴿يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم﴾ إخبار من الله تعالى بأنّ ذلك اليوم يصدر الناس أشتاتاً أي مختلفين ﴿ليروا أعمالهم﴾ أي ليجازوا على أعمالهم أو ليريهم الله جزاء أعمالهم. وقيل: معنى رؤية الأعمال المعرفة بها عند تلك الحال، وهي رؤية القلب، ويجوز أن يكون التأويل على رؤية العين بمعنى ليروا صحائف أعمال يقرؤن ما فيها [لقوله: ﴿ما لهذا الكتاب] لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا احصاها﴾[٤] وقيل: ليروا جزاء أعمالهم حسب ما قدّمناه[٥]. وقيل: يرى الكافر حسناته فيتحسّر عليها، لأنّها محبطة، ويرى المحسن سيّئاته مكفّرة وحسناته مثبتة[٦].

---

(١) مرّ في ٢: ٣٩٥ و٤٩٨.
(٢) مرّ في ٢: ٤٩٨.
(٣) مجاز القرآن ١: ١٨٢ و٢: ٣٠٦، العين: ٨٤٣ مادّة «وحى».
(٤) الكهف: ٤٩.
(٥) تفسير السمرقندي ٣: ٦٠٧، تفسير الطبري ١٢: ٦٦١.
(٦) راجع الكشف والبيان ١٠: ٢٦٥.

ثمّ قال تعالى على وجه الوعيد: ﴿فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرّة شرّاً يره﴾ قال أبو عبيدة: مثقال ذرّة شرّاً يره أي يرى ما يستحقّ عليه من العقاب. ويمكن أن يستدلّ بذلك على بطلان الإحباط، لأنّ عموم الآية يدلّ أنّه لا يفعل شيئاً من طاعة أو معصية إلّا ويجازي عليها، وعلى مذهب القائلين بالإحباط بخلاف ذلك، فإنّ ما يقع محبطاً لا يجازى عليه. ولا يدلّ على أنّه لا يجوز أن يعفى عن مرتكب كبيرة، لأنّ الآية مخصوصة بلا خلاف، لأنّه إن تاب عفي عنه وقد شرطوا أن لا يكون معصية صغيرة، فإذا شرطوا الأمرين جاز أن نخصّ من يعفو الله عنه.

سورة العاديات

مكّيّة في قول ابن عبّاس، وقال الضحّاك: هي مدنيّة، وهي إحدى عشرة آية بلا خلاف.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى:

﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا (١) فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا (٢) فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا (٣) فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا (٤) فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا (٥) إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ (٦) وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨) أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ (٩) وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ (١٠) إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ (١١)﴾ إحدى عشرة آية.

أقول: قوله: ﴿والعاديات ضبحاً﴾ قسم من الله تعالى بالعاديات. قال ابن عبّاس ومجاهد وقتادة وعطاء: يعني: الخيل تضبَح ضبحاً، فضبحاً نصب على المصدر. وقال عبد الله بن مسعود: يعني: الإبل، فعلى قول ابن عبّاس أراد ضبح الخيل في الجهاد والحرب. وقال ابن مسعود: أراد ضبح الإبل في طريق الحجّ. وروي عن علي عليه السلام أنّ المراد به الإبل، لأنّه لم يكن يومئذ خيل للمسلمين[1]. والضبح في الخيل أظهر عند أهل اللغة.

---

(١) الكشف والبيان ١٠: ٢٦٩.

وروي عن عليّ عليه السلام أنّ الضبح في الخيل الحمحمة عند العدو[١]. وقيل: الضبح شدّة النفس عند العدْو[٢]. وضبحت الخيل تضبح ضبحاً وضباحاً. وقال أبو عبيدة: ضبح وضبع بمعنى واحد، أي تمدّ أضباعها في السير[٣].

وقوله: ﴿فالموريات قدحاً﴾ معناه: المظهرات بسنابكها النار قدحاً، يقال: أورى القادح النار يوري إيراءً، إذا قدح قدحاً. وتسمّى تلك النار نار الحباحب لضعفها، قال النابغة:

تَعُدُّ السَلوقي المضاعف نسجُه ويوقدْن بالصفاح نارَ الحُباحِب[٤]

وهو رجل بخيل كانت ناره ضعيفة لئلّا يراها الأضياف. وقال قتادة والضحّاك وعطاء: ﴿فالموريات قدحاً﴾ الخيل حين توري النار بسنابكها. وقال ابن عبّاس: هم الّذين يورون النار بعد انصرافهم من الحرب، وقال مجاهد: يعني: أبطال الرجال. وقال عكرمة: الألسنة.

وقوله: ﴿فالمغيرات صبحاً﴾ قال ابن عبّاس : يعني: الخيل في سبيل الله. وقيل: إنّما ذكر ﴿صبحاً﴾ لأنّهم كانوا يسيرون إلى العدوّ ليلاً فيأتوهم صبحاً[٥] وقيل: إنّهم لعزّهم أغاروا نهاراً. وقيل: إنّما أقسم بالمغيرات صبحاً لِعظَم شأنها في الغارة على أعداء الله من المشركين، ومعناه[٦]: أمر الغارة عظيم. وإنّما القسم تنبيه على عظم الشأن وتأكيد للإخبار.

وقوله: ﴿فأثرن به نقعاً﴾ إخبار منه تعالى أنّ هذه الخيل تثير الغبار بعدْوها. وسمّي الغبار النقع، لأنّه يغوص فيه صاحبه كما يغوص في الماء. يقال: نقعه ينقعه نقعاً فهو ناقع، واستنقع استنقاعاً وانتقع انتقاعاً. وقال قتادة:

---

(١) تفسير الطبري ١٢: ٦٦٧. (٢) النكت والعيون ٦: ٣٢٤. (٣) مجاز القرآن ٢: ٣٠٧.
(٤) ديوان النابغة الذبياني: ٥٢. (٥) راجع مجاز القرآن ٢: ٣٠٧، الكشف والبيان ١٠: ٢٧٠.
(٦) في الحجريّة: جملة.

النقع الغبار. وقيل: الهاء في قوله: ﴿به﴾ عائد إلى معلوم أي بـالمكان أو بالوادي.

وقوله: ﴿فوسطن به جمعاً﴾ قال قتادة: يعني: وسطن بذلك المكان جمع العدوّ. وقال مجاهد: يعني جمع الفريقين.

وقوله: ﴿إنّ الإنسان لربّه لكنود﴾ جواب القسم، ومعناه ـ في قول ابن عبّاس وقتادة والحسن ومجاهد وابن زيد ـ لكفور. فالكنود: الكفور، ومنه الأرض الكنود الّتي لا تنبت شيئاً، وأصله منع الحقّ والخير، قال الأعشى:

أحدِث لها تُحدِثْ لوَصْلك إنّها كُنُدٌ لِـوَصل الزائـر المـعتاد[١]

وقيل: إنّها سمّيت كندة لقطعها إيّاها عن سماك.

وقوله: ﴿وإنّه على ذلك لشهيد﴾ قال الحسن: معناه: أنّ الإنسان عـلى ذلك لشاهد. وقال قتادة: تقديره وإنّ الله على ذلك لشهيد.

وقوله: ﴿وإنّه لحبّ الخير لشديد﴾ قـيل: تـقديره وإنّـه لشـديد الحبّ للخير. وقيل: معناه: وإنّه لشديد الحبّ للمال، فهو يظلم الناس بـمنعه[٢]. وقال الحسن: «لشديد» معناه: لشحيح يمنع منه حـقّ الله. وقـال المـبرّد والربيع: معناه من أجل حبّ الخير الّذي هو المال أو الملك لبخيل[٣].

ثمّ قال على وجه التنكير على الإنسان والوعيد له: ﴿أفلا يعلم﴾ يعني: الإنسان الّذي وصفه ﴿إذا بعثر ما في القبور﴾ معناه: أُثـير مـا فـي القـبور وأُخرج، ومثله بحثر.

وقوله: ﴿وحصّل ما في الصدور﴾ قال سفيان: معناه: مـيّز الحـقّ مـن

---

(١) مجاز القرآن ٢: ٣٠٧، شرح ديوان الأعشى: ٥٢.

(٢) النكت والعيون ٦: ٣٢٦.

(٣) الكامل ١: ٤٦٤.

الباطل. وقال غيره: معناه: جمع وأبرز[١].

وقوله: ﴿إنّ ربّهم بهم يومئذ لخبير﴾ إخبار من الله تعالى وإعلام لخلقه أنّ الّذي خلقهم ودبّرهم في ذلك اليوم بهم لعالم خبير بأحوالهم لا يخفى عليه شيء من ذلك.

وكان سبب نزول هذه السورة أنّ النبيّ ﷺ بعث سريّة إلى حيّين من كنانة واستعمل عليهم أحد النقباء: المنذر بن عمرو الأنصاري، فغابت عن النبيّ ﷺ ولم يعلم لها مخبر فأنزل الله تعالى السورة وأخبر بحال القوم.

---

(١) راجع الكشف والبيان ١٠: ٢٧٣.

سورة القارعة

مكّيّة في قول ابن عبّاس والضحّاك، وهي إحدى عشرة آية في الكوفي، وعشر في المدنيّين، وثمان في البصري.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى:

ٱلْقَارِعَةُ (١) مَا ٱلْقَارِعَةُ (٢) وَمَآ أَدْرَاكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَالْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ (٤) وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ (٥) فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُ (٦) فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَآ أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١) إحدى عشرة آية.

أقول: قرأ حمزة ويعقوب ﴿ما هي﴾ بحذف الهاء في الوصل، الباقون بإثباتها، ولم يختلفوا في الوقف أنّه بالهاء. ومعنى ﴿القارعة﴾ البليّة الّتي تقرع القلب بشدّة المخافة تقول: قرع يقرع قرْعاً وهو الصوت بشدّة اعتماد، ومنه انشقّت[1] القرعة، وتقارع القوم في القتال إذا تضاربوا بالسيوف، وقرع رأسه إذا ضرب في أعلى الشعر حتّى يذهبه. والقرعة

(١) ظاهر الخطّيّة: اشتقّت.

كالضرب بالفال. وقال وكيع: القارعة والواقعة والحاقّة القيامة.

وقوله: ﴿وما أدراك ما القارعة﴾ تعظيم لشأنها، وتفخيم لأمرها وتهويل لشدّتها. ومعناه: وأيّ شيء القارعة، ومعناه: أنّك يا محمّدﷺ لا تعلم كبر وصفها وحقيقة أمرها على التفصيل وإنّما تعلمها على طريق الجملة.

ثمّ وصفها الله تعالى فقال: ﴿يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾ والمعنى: أنّ القارعة الّتي وصفها وذكرها تقرع القلوب يوم تكون الناس بهذه الصفة. و«الفراش» الجراد الّذي ينفرش ويركب بعضه بعضاً، وهو غوغاء الجراد، في قول الفرّاء.[١] وقال أبوعبيدة: هو طير يتفرّش، وليس بذباب ولا بعوض[٢]. وقال قتادة: «الفراش» هو هذا الطير الّذي يتساقط في النار والسراج. و«المبثوث» المتفرّق في الجهات، كأنّه محمول على الذهاب فيها، يقال: بثّه يُبثّه إذا فرّقه، وأبثثته الحديث إذا ألقيته إليه، كأنّك فرّقته بأن جعلته عند اثنين.

وقوله: ﴿وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾ فالعهن: الصوف الألوان، في قول أبي عبيدة[٣] قال زهير:

كأنّ فُتاتَ العِهن في كلّ منزل نزلن به حَبُّ الفنا لم يُحطَّم[٤]

ويقال: عهن وعِهْنَة. وقيل: إنّ الخلائق لعظم ما يرونه من الأهوال ويغشاهم من العذاب يهيم كلّ فريق على وجهه، ويذهب في غير جهة صاحبه.

وقوله: ﴿فأمّا من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية﴾ قال الفرّاء: الموازين والأوزان واحد، يقولون: هل لك في درهم بميزان درهمك،

(١) معاني القرآن ٣: ٢٨٦. (٢ و٣) مجاز القرآن ٢: ٣٠٩. (٤) ديوان زهير بن أبي سلمى: ٧٧.

ووزن درهمك[١]. وقال الحسن: في الآخرة ميزان له كفّتان. وهو قول الجبائي وأكثر المفسّرين. ثمّ اختلفوا فمنهم من قال: يجعل الله تعالى في إحدى الكفّتين نوراً علامة للطاعات، وفي الأُخرى ظلمة علامة للمعاصي فأيّهما رجّح على الآخر حكم لصاحبه به. وقال آخرون: إنّما يوزن صحف الأعمال فما فيها الطاعات تجعل في كفّة، وما فيها المعاصي في كفّة أُخرى، فأيّهما رجّح حكم لصاحبه به. وقال قوم: «الميزان» عبارة عن العدل ومقابلة الطاعات بالمعاصي، فأيّهما كان أكثر حكم له به. وعبّر عن ذلك بالثقل مجازاً لأنّ الأعمال أعراض لا يصحّ وزنها ولا وصفها بالثقل والخفّة، قال الشاعر:

قد كنتُ قبل لقائكم ذا مِرّة عندي لكلّ مخاصم ميزانه[٢]

يريدون كلامه في معارضته.

فبيّن الله تعالى أنّ من كانت طاعته أكثر كان ثوابه أعظم، فيكون صاحبها ﴿في عيشة راضية﴾ أي مرضيّة، ففاعل هاهنا بمعنى المفعول، لأنّ معناه ذو رضاء كقولهم: «نابل» أي ذو نبل، قال النابغة:

كليني لِهمٍّ يا أمَيْمَةَ ناصِبٍ وليلٍ أقاسيه بطيء الكواكب[٣]

أي ذو نصب. وقال آخر:

وغررتني وزعمت أنّك لابِن بالصيف تامِر[٤]

أي ذو لبن وذو تمر.

وقال مجاهد: ﴿ثقلت موازينه﴾ على جهة الميل.

(١) معاني القرآن ٣: ٢٨٧.
(٢) النكت والعيون ٦: ٣٢٨، تفسير الطبري ١٢: ٦٧٦.
(٣) ديوان النابغة الذبياني: ٤٨.
(٤) ديوان الحطيئة: ٣٣.

ثمّ بيّن من كانت معاصيه أكثر وقلّت طاعاته إنّ ﴿أُمّه هاوية﴾ أي مأواه هاوية يعني جهنّم، وإنّما سمّاها ﴿أُمّه﴾ لأنّه يأوى إليها كما يأوى الولد إلى أُمّه. وسمّيت هاوية لما قال قتادة وأبو صالح من أنّ العاصي يهوي إلى أُمّ رأسه في النار.

ثمّ قال على وجه التفخيم والتعظيم لأمرهاوية: ﴿وما أدراك﴾ يا محمّدصَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ ﴿ماهيه﴾ أي انّك تعلمها على الجملة ولا تعلم تفصيلها وأنواع ما فيها من العقاب. والهاء في قوله: ﴿ما هيه﴾ للسكت إلّا أنّه جرى الوصل معها مجرى الوقف، ويجوز فيها الحذف. ثمّ فسّر الله تعالى فقال: ﴿نار حامية﴾ أي هي نار حامية شديدة الحرارة.

سورة[1] التكاثر

مكّيّة في قول ابن عبّاس والضحّاك، وهي ثمان آيات بلا خلاف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى:

أَلْهَاكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ ثمان آيات.

أقول: قرأ ابن عامر ﴿آلهاكم﴾ بالمدّ، وروي عن الكسائي بـهمزتين. والمراد به الإنكار. وقرأ ابن عامر والكسائي ﴿لَتُرونّ﴾ مضمومة التاء ﴿ثمّ لتَرونّها﴾ مفتوحة التاء.

الباقون بالفتح فيهما. قال أبو عليّ: وجه الضمّ أنّهم يـحشرون إليـها فيرونها في حشرهم إليها فيرونها، ولذلك قرأ الثـانية بـالفتح، كـأنّـه أراد لترونّها. ومن فتح فعلى أنّهم يرونها[2]. وقوله: ﴿ثمّ لترونّها﴾ مـثل الأوّل في أنّه من إبصار العين. وقيل: إنّ هذه السورة نزلت في حيّين من قريش،

---

(١) في الحجريّة زيادة: ألهيكم.

(٢) الحجّة للقرّاء السبعة ٤: ١٣٩.

وهما بنو أسهم وبنو عبد مناف، تفاخروا حتّى ذكروا الأموات[١].

فقال الله تعالى مخاطباً لهم: ﴿ألهاكم التكاثر﴾ فالإلهاء: الصرف إلى اللهو، و«اللهو» الانصراف إلى ما يدعو إليه الهوى. يقال: لها يلهو لهواً، ولَهِيَ عن الشيء، يلهَي لَهاً، ومنه قوله: «إذا استأثر الله بشيء فأله عنه»[٢] و«التكاثر» التفاخر بكثرة المناقب، يقال: تكاثروا إذا تعادّوا ما لهم من كثرة المناقب. والمتفاخر متكبّر لأنّه تطاول بغير حقّ. فالتكاثر: التباهي بكثرة المال والعدد. وقيل: ما زالوا يتباهون بالعزّ والكثرة حتّى صاروا من أهل القبور وماتوا، ذكره قتادة[٣].

وقوله: ﴿حتّى زرتم المقابر﴾ فالزيارة إتيان الموضع، كإتيان المأوى في الألفة على غير إقامة. زاره يزوره زيارة. ومنه زوّر تزويراً إذا شبّه الخطّ في ما يوهم أنّه خطّ فلان وليس به، والمزوّرة من ذلك اشتقّت. وقيل في معناه قولان: أحدهما حتّى ذكرتم الأموات. وقال الحسن: معناه حتى متّم[٤].

وقوله: ﴿كلّا سوف تعلمون ثمّ كلّا﴾ معناه: ارتدعوا وانزجروا ﴿سوف تعلمون﴾ في القبر ﴿ثمّ كلّا سوف تعلمون﴾ بعد الموت[٥] روي ذلك عن عليّ عليه السلام. وقيل: إنّه يدلّ على عذاب القبر[٦].

وقوله: ﴿كلّا لو تعلمون علم اليقين﴾ نصب ﴿علم اليقين﴾ على المصدر، ومعناه: ارتدعوا وانزجروا لو تعلمون علم اليقين وهو الّذي يثلج الصدر بعد اضطراب الشكّ، ولهذا لا يوصف الله بأنّه متيقّن.

---

(١) معاني القرآن ٣: ٢٨٧.
(٢) معجم البلدان ٤: ٣٥٦.
(٣) تفسير الطبري ١٢: ٦٧٨.
(٤) راجع النكت والعيون ٦: ٣٣٠ ـ ٣٣١.
(٥) راجع تفسير السمرقندي ٣: ٦١٣.
(٦) تفسير الطبري ١٢: ٦٧٦.

وقوله: ﴿لترونّ الجحيم﴾ يعني: قبل دخولهم إليها في الموقف.

وقوله: ﴿ثمّ لترونّها﴾ بعد الدخول إليها.

وقوله: ﴿عين اليقين﴾ كقولهم: هذا محض اليقين. والمعنى: أنّكم لو تحقّقتم وتيقّنتم أنّكم ترونّ الجحيم وأنّكم إذا عصيتم وكفرتم عوقبتم، لشغلكم هذا عن طلب التكاثر في الأموال في الدنيا. ولا يجوز همز واو ﴿لترونّ﴾ لأنّها واو الجمع، ومثله واو ﴿لتبلونّ﴾[1] لا تهمز.

وقوله: ﴿ثمّ لتسئلنّ﴾ يعني: معاشر المكلّفين ﴿يومئذ عن النعيم﴾ قال الحسن: لا يسأل عن النعيم إلّا أهل النار. وقال سعيد بن جبير وقتادة: النعيم في المأكل والمشرب وغيرهما من الملاذّ. وقال عبد الله بن مسعود ومجاهد: النعيم الصحّة. وقال قوم: يسألهم الله عن كلّ نعمة. والفرق بين النعيم والنعمة أنّ النعمة كالإنعام في التضمين لمعنى منعم، أنعم إنعاماً ونعمة، وكلاهما يوجب الشكر. والنعيم ليس كذلك، لأنّه من نعم نعيماً فلو عمل ذلك بنفسه لكان نعيماً لا يوجب شكراً. و«النعمة» بفتح النون من نعُم بضمّ العين إذا لان. وقيل: المعنى: ﴿لتسألنّ يومئذ عن النعيم﴾ عن ولاية عليّ عليه السلام[2]. وقيل: عن شرب الماء البارد. وقيل: عن الأمن والصحّة. وقيل: عن النورة في الحَمّام. وروي ذلك عن عمر بن الخطّاب[3].

---

(١) آل عمران: ١٨٦.

(٢) مناقب لابن شهر آشوب ٢: ١٥٣.

(٣) تفسير الطبري ١٢: ٤٨٠ ـ ٤٨٣.

سورة العصر

مكّيّة في قول ابن عبّاس والضحّاك، وهي ثلاث آيات بلا خلاف في جملتها وإن اختلفوا في تفصيلها.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى:

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ ثلاث آيات.

أقول: هذا قسم من الله تعالى بالعصر. قال ابن عبّاس: المراد بالعصر هاهنا الدهر. وهو قول الكلبي. وقال الحسن وقتادة: هو العشيّ. وكلاهما فيه العبرة من جهة مرور الليل والنهار. وأصل العصر عصر الثوب ونحوه، وهو فتله لإخراج مائه، فمنه عصر الدهر، لأنّه الوقت الّذي يمكن فتل الأُمور كفتل الثوب.

قال العجاج:

عصراً وحضناً عيشة المعذلجا

أي الناعم. وقال في العشّي:

يــروح بــنا عــمر وقــد قــصُر العــصر
وفي الرَوْحة الأُولى الغنيمةُ والأجر(١)

وبه سمّيت العصر، لأنّها تعصر بالتأخير. و«العصارة» ما يـعتصر مـن العنب وغيره. و﴿المعصرات﴾ السحائب الّتي تـنعصر بـالمطر. والإعـصار غبار كالعمود يصعد إلى السماء. و«العصر» الالتجاء إلى الملجأ. و«العصر» الجارية الّتي قد دنا بلوغها لأنّه عصر شبابها، وانعصار ماء الشباب منها. و«الاعتصار» استخراج المال من الإنسان، لأنّه ينحلب كما يـنحلب مـا يعصر. و«العصران» الغداة والعشيّ، و«العصران» الليل والنهار. قال الشاعر:

ولن يلبث العصران يوم وليلة　　　إذا طلبا أن يدركا ما تيمّما(٢)

وقوله: ﴿إنّ الإنسان لفي خسر﴾ جواب القسم. وفيه إخبار مـن الله أنّ الإنسان ـ يعني الكافر ـ ﴿لفي خسر﴾ أي لفي نقصان بارتكاب المعاصي وكفره بالله. و«الخسر» هلاك رأس المال للإنسان، وبارتكاب المعاصي في هلاك نفسه خسران، وهو أكبر من رأس ماله.

وقوله: ﴿إلّا الّذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ استثناء من جملة «الناس» المؤمنين المصدّقين بتوحيد الله بـإخلاص عـبادته العـاملين بـالطاعات ﴿وتواصوا بالحقّ﴾ أي تواصى بعضهم بعضاً باتّباع الحقّ واجتناب الباطل [﴿وتواصوا بالصبر﴾] تواصى بعضهم بعضاً بالصبر على تحمّل المشاقّ في طاعة الله. وقال الحسن وقتادة: «الصبر» على طاعة الله. و«الصبر» حبس النفس عمّا تنازع إليه من الأمر حتّى يكون الداعي إلى الفعل. وقد أمر الله تعالى بالصبر والتواضع. والحقّ ما دعا إليه العقل.

---

(١) النكت والعيون ٦: ٣٣٣، العين: ٥٤٨ مادّة «عصر».

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٣٥٩، العين: ٥٤٨ مادّه «عصر».

سورة الهُمزة[1]

مكّيّة في قول ابن عبّاس والضحّاك، وهي تسع آيات بلا خلاف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى:

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (١) ٱلَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (٣)
كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ (٤) وَمَآ أَدْرَاكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ (٥) نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ (٦) ٱلَّتِى
تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ (٧) إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ (٨) فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ (٩) تسع آيات.

أقول: قرأ حمزة والكسائي وخلف وابن‌عامر وأبوجعفر وروح ﴿جمع﴾ بالتشديد على التكثير. الباقون بالتخفيف، لأنّه يقع على القليل والكثير. ومن شدّد أراد جمعه من وجوه شتّى شيئاً بعد شيء ﴿وعدّده﴾ أي جعله عُدّة. ومن قرأ مخفّفاً أراد جمع مالاً وعدداً، أي وقوماً ذوي عدد نُصّاراً. وقرأ أهل الكوفة إلّا حفصاً ﴿عمد﴾ بضمّتين جعلوه جمع عَمود وعَمَد، مثل قَدوم وقَدَم، وزَبون وزَبنَ. الباقون بفتح العين والميم، لأنّهم قد قالوا في جمع عَمود عَمَد، كما قالوا في جمع أديم أدمَ. وفي جمع أهاب أهب.

---

(١) في الحجريّة: ويل لكلّ همزة.

هذا وعيد من الله تعالى وتهديد ﴿لكلّ همزة لمزة﴾ فالهمزة: الكثير الطعن على غيره بغير حقّ، العائب له بما ليس فيه عيب لجهله وسفهه وشدّة إقدامه على مكاره غيره. يقال: همز الناس يهمزهم هَمْزًا، وهو هُمَزَة. ومثله ضُحَكَة أي كثير الضحك، وعُيَبَة أي كثير العيب. فكذلك همزة كثير الهمز بالطعن. ومنه الهمزة في الكلام لأنّها نبرة كالطعنة بقوّة اعتماد. وقال ابن عبّاس: «الهمزة» الطعّان. واللمزة المغتاب. وقال زياد الأعجم:

تُدلي بِوُدّي إذا لاقيتَني كذبا   وإن تغّيبتُ فأنت الهامز اللمزة[١]

وقال ابن عبّاس: «الهمزة اللمزة» المشّاء بالنميمة، المفرّق بين الأحبّة الباغي للبرىء العيب بالمكابرة. وقيل: نزلت في مشرك بعينه كان يعيّب الناس ويلمِزهم، ذكره ابن عبّاس[٢]. وقال قوم: نزلت في الوليد بن المغيرة[٣]. وقال السُدّي: نزلت هذه السورة في الأخنس بن شريق، وكان يهمز النبيّ ﷺ ويلمزه . وقيل: نزلت في جميل بن عامر الجهني[٤]. وقال مجاهد وورقاء وابن عبّاس: ليست خاصّة لأحد بل هي عامّة.

وقوله: ﴿الّذي جمع مالاً وعدّده﴾ نعت للهمزة الّذي تقدّم ذكره في أنّه يجمع المال ويحبّه، ولا يخرج حقّ الله منه.

وقوله: ﴿يحسب أنّ ماله أخلده﴾ معناه: يظنّ هذا الّذي جمع المال، ولا يخرج حقّ الله منه أنّه سيخلده. وقوله: ﴿أخلده﴾ بمعنى يُخلده كما قيل هلك إذا حدث به سبب الهلاك من غير أن يقع هلاكه بعد. وإنّما ذلك بمعنى أوجب إخلاده وهلاكه. وقيل: ليس المراد أنّه يظنّ أنّه لا يموت، ولكن يحبّ أنّه يبقى من ماله إلى أن يموت. وقيل: معناه: أنّه يعمل عمل

(١) مجاز القرآن ٢: ٣١١، النكت والعيون ٦: ٣٣٥.
(٢) تفسير الطبري ١٢: ٦٨٧.
(٣) الكشف والبيان ١٠: ٢٨٦.
(٤) النكت والعيون ٦: ٣٣٦.

من يحسب أنّ ماله أخلده[١]. وقال الحسن: معناه: يحسب أنّ ماله أخلده حتّى يفنيه.

وقوله: ﴿كلّا لينبذنّ في الحطمة﴾ معناه: ليقذفنّ وليطرحنّ من وصفناه بجمع المال ومنع حقّ الله في الحطمة.

ثمّ قال: ﴿وما أدراك ما الحطمة﴾ تفخيماً لها.

ثمّ فسّرها فقال: ﴿نار الله الموقدة﴾ أي هي نار الله الموقدة. والحطمة الكثيرة الحطم أي الأكل، ورجل حطمة. وحطم الشيء إذا كسره وأذهبه، وتحطّم إذا تكسّر، وأصله الكسر المهلك.

وقوله: ﴿الّتي تطّلع على الأفئدة﴾ معناه: يبلغ ألمها ووجعها الأفئدة، تقول: اطّلعت على أرض كذا إذا بلغتها.

وقوله: ﴿إنّها﴾ يعني: النار ﴿عليهم﴾ يعني: على الكفّار ﴿مؤصدة﴾ أي مطبقة. يقال: أصدت الباب أوصدُه إذا أطبقته، وأوصدته إيصاداً لغتان. ومنه قوله: ﴿وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد﴾[٢] وأبو عمرو يهمز ﴿مؤصدة﴾ إذا لين الهمز، لئلّا يخرج من لغة إلى لغة أُخرى.

وقوله: ﴿في عمد ممدّدة﴾ فالعَمَد جمع عمود، وقيل: جمع عماد، كقولك: أهاب وأهب، ويجوز عُمُد، والعمود عمود مستدير مستطيل قويّ على شدّة الاعتماد. وقال ابن مسعود: معناه: أنّ النار مطبقة بعمد ممدّدة. وقال ابن عبّاس: في عمد مغلّلين بها. وقال قتادة: في عمد يعذّبون بها. وقيل: الإطباق بالعمد الممدّدة ليتأكّد يأسهم من الخروج منها[٣].

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٣٦٢.
(٢) الكهف: ١٨.
(٣) الكشف والبيان ١٠: ٢٨٧.

سورة الفيل

مكّيّة في قول ابن عبّاس والضحّاك، وهي خمس آيات بلا خلاف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥)﴾ خمس آيات.

[أقول:] هذا خطاب من الله تعالى لنبيّه محمّد صلى الله عليه وآله ويتوجّه إلى جميع المكلّفين من قومه، يقول لهم على وجه التنبيه على عِظَم الآية الّتي أظهرها والمعجزة الّتي فعلها، منبّهاً بذلك على توحيده ووجوب إخلاص العبادة له، فقال: ﴿ألم تر﴾ معناه: ألم تعلم، فالرؤية هاهنا بمعنى العلم، لأنّ رؤية البصر لا تتعلّق بما قد تقضّى وعدم، كأنّه قال: ألم تعلم ﴿كيف فعل ربّك بأصحاب الفيل﴾ الّذين قصدوا هدم البيت وهلاك أهله، فأهلكهم الله تعالى، وكان الّذي قصد لهدم البيت أبرهة ابن الصباح وهو المعروف بأبرهة الأشرم، ويكنّى أبا يكسوم. وقيل : إنّه لم يسلم من قومه غيره، فولّى إلى

أهله فكلّ ما نزل منزلاً تساقط منه عضو، فلمّا وصل إليهم أخبرهم الخبر ثمّ هلك. وكان أبرهة رجلاً من اليمن ملكته الحبشة عليهم، وكان سبب قصده إيّاها لتخريبها أنّه بنى كنيسة عظيمة أراد أن يحجّ إليها بدل الكعبة. وقال الحسن: كان السبب في ذلك أنّ العرب هدمت كنيسة للحبشة، وهم نصارى، فأراد تخريب الكعبة في مقابلة ذلك، فأقبل في جمع كثيف معه أفيلة، فجعل الله كيدهم في تضليل عمّا قصدوا له من تخريب الكعبة.

﴿وأرسل عليهم طيراً أبابيل﴾ فمعنى أبابيل جماعات في تفرقة زمرة وزمرة لا واحد لها في قول أبي عبيدة والفرّاء ـ كما لا واحد للعباديد والشماطيط[1]. وزعم أبو جعفر الرواسي أنّه يسمع في واحدها «إبالة». وقال الكسائي: سمعت النحويّين يقولون واحده «إبّول» مثل «عِجّول» وقال بعضهم: «إبّيل»[2]. وقال ابن عبّاس: معنى أبابيل: يتبع بعضها بعضاً. وقال قتادة: معنى أبابيل كثيرة متتابعة. وقيل: إنّها كانت سوداً بحريّة تحمل في مناقيرها وأكفّها الحجارة، في قول عبيد بن عمير. وقيل: كان مع كلّ طائر ثلاثة أحجار اثنان في رجليه وواحد في منقاره[3]. وقال موسى بن أبي عائشة: كانت الحجارة أكبر من العدسة وأصغر من الحمّصة. وقيل: كان الحجر يقع في رأس الرجل فيخرج من دبره[4].

وقيل: كان الفيل إذا وجّهوه نحو مكّة وقف ولم يسِرْ وإذا وجّهوه إلى جهة غيرها سار، إنذاراً من الله لهم وموعظة. وكان هذا من أعظم

(١) مجاز القرآن ٢: ٣١٢، معاني القرآن ٣: ٢٩٢.
(٢) راجع تفسير الطبري ١٢: ٦٩١، النكت والعيون ٦: ٣٤٣.
(٣) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٣٦٣.
(٤) الكشف والبيان ١٠: ٢٩٨.

المعجزات في ذلك الوقت أظهره الله تعالى ليدلّ به على وجوب معرفته وإخلاص عبادته. وقال قوم: إنّه كان معجزة لنبيّ كان في ذلك الزمان. ويجوز أن يكون ذلك خالد بن سنان.

وقيل: إنّه كان ذلك إرهاصاً لنبوّة نبيّناصَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ لأنّه كان ولدفي عام الفيل(١).

وقوله: ﴿ترميهم بحجارة﴾ أي تقذفهم بحجارة ﴿من سجّيل﴾ قال أبوعبيدة: سجّيل كل شديد. قال ابن مقبل:

ضرباً تواصى به الأبطالُ سجّيلاً(٢)

وقيل: هي حجارة من الجحيم وهي «سجّين» ثمّ أُبدلت النون لاماً، كما قالوا في أصيلان أصيلال. وقيل: معنى من ﴿سجّيل﴾ أي من طين مطبوخ كالآجر(٣). وقيل: هو «سنگ وگل» بلغة الفرس فأُعرب، وكذلك روي عن ابن عبّاس.

وقوله: ﴿فجعلهم كعصف مأكول﴾ فالعصف: ورق الزرع، في قول أبيعبيدة. وهو عصيفة، لأنّ الريح تعصفه أي تذهب به يميناً وشمالاً(٤). وقيل: معنى ﴿كعصف مأكول﴾ أي مأكول الثمرة كما يقال: فلان حسن أي حسن الوجه، فأُجري مأكول على العصف من أجل أكل ثمرته، لأنّ المعنى معلوم للإيجاز. وقال قتادة: «العصف» التبن. ومعنى «مأكول» قد أكلت بعضه المواشي وكسرت بعضه. وقال الزجّاج: معنى «مأكول» وقع فيه الأكّال(٥). وقيل: «العصف» التبن بلغة بني حنيفة، وبلسان قريش النُخالة.

---

(١) النكت والعيون ٥: ٣٤٤.

(٢) مجاز القرآن ٢: ٣١٢، تفسير الطبري ٧: ٩٢، النكت والعيون ٦: ٣٤٣.

(٣) تفسير السمرقندي ٣: ٦٢٢.

(٤) مجاز القرآن ٢: ٣١٢.

(٥) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٣٦٤.

وقصّة أصحاب الفيل من الأدلّة الواضحة والحجج اللائحة على الملحدين ومن أنكر الصانع، لأنّه لا يمكن نسب ذلك إلى طبيعة ولا موجب كما تأوّلوا الزلازل والرياح والخسوف وغير ذلك ممّا أهلك الله به الأُمم، لأنّه ليس في الطبيعة إقبال طير بأحجار وتقصد أقواماً دون غيرهم حتّى تهلكهم بما ترميهم به، ولا تعدّى إلى غيرهم. بل ذلك من أوضح الأدلّة على أنّه من فعل الله تعالى، وليس لأحد أن يضعف ذلك وينكر الخبر به، لأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله لمّا قرأ على أهل مكّة هذه السورة، كانوا قريبي عهد بالفيل. فلو لم يكن كذلك ولم يكن له أصل لأنكروه، فكيف وهم أرّخوا به كما أرّخوا بنيان الكعبة وموت قصيّ وغيره ، وقد نظم الشعراء في قصّة الفيل الشعر ونقلته الرواة، فلا يمكن جحد ذلك ، لأنّه مكابرة.

سورة[1] قريش

مكّيّة في قول ابن عبّاس، وقال الضحّاك: هي مدنيّة، وهي أربع آيات في الكوفي والبصري، وخمس في المدنيّين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى:

لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤ أربع آيات.

أقول: قرأ ابن عامر ﴿لإلاف قريش﴾ بقصرها، ولم يجعل بعد هذه الهمزة ياء على وزن «لعلاف» «إيلافهم» بياء بعد الهمزة خلاف لفظ الأوّل. الباقون ﴿لإيلاف قريش إيلافهم﴾ جميعاً بهمزة بعدها ياء. وقرأ أبو جعفر وابن فليح ﴿إلافِهم﴾ بهمزة بلا ياء بعدها مثل «علافهم» ورواه أبو الحسن حماد بهمزتين مكسورتين بعدها ياء. الباقون بهمزة بعدها ياء ساكنة مثل «عيلافهم» قال الأزهري: «الإيلاف» الإجارة بالحفارة يقال: أولف يولف وألف يؤلف إذا أجار الإبل بالحفارة. وألفت المكان ألفة وألفاً وألفته إيلافاً

(١) في الخطّيّة والحجريّة زيادة «لإيلاف».

بمعنى واحد. وقد قدّمنا القول فيما رواه أصحابنا أن ﴿ألم تر كيف﴾ و﴿لإيلاف﴾ سورة واحدة، مثل ﴿الضحى﴾ و﴿ألم نشرح﴾ فعلى هذا العامل في ﴿لإيلاف﴾ قوله ﴿فجعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش﴾ وهو قول الحسن. ومن قال: هما سورتان لم يجز ذلك، فقال: العامل فيها قوله: ﴿فليعبدوا﴾ فكأنّه قال لذلك الإنعام: ﴿فليعبدوا﴾ ومثله في تقديم القول فيه قوله: ﴿أفغير الله تأمرونّي﴾[1] لأنّ تأمرونّي اعتراض على هذا التفسير، وإنّما جاز أن يعمل ما بعد الفاء فيما قبله، لأنّها زائدة غير عاطفة، كقولك زيداً فاضرب، وتريد فاضربه، فهي على شبه الجواب الّذي يجوز فيه تقديم المعمول كقولك زيداً: إن تأتني زيداً أكرِم. ولو كانت عطفاً لم يجز التقديم، كما لا يجوز في الواو، ولا «ثمّ». وقيل العامل فيه «أعجبوا» لإيلاف قريش إلّا أنّه حذف لدلالة الكلام عليه.

وقيل: هو على ﴿ألم تر كيف فعل ربك.. لإيلاف قريش﴾ أي فعل ذلك لإيلافهم. و«الإيلاف» أصحاب الإلف بحسن التدبير والتلطّف[2] يقال: أَلِف يألَف ألفاً، وآلفه يؤلفه إيلافاً إذا جعله يألف، وائتلف القوم ائتلافاً وتآلفوا تآلفاً وألّفهم تأليفاً. و«الإيلاف» نقيض الإيحاش، ونظيره الإيناس. وألف الشيء لزومه على عادة في سكون النفس إليه.

وقوله: ﴿رحلة الشتاء والصيف﴾ قال ابن زيد والكلبي: كانت لهم رحلتان: رحلة الصيف إلى الشام، ورحلة الشتاء إلى اليمن في التجارة. و«الرحلة» حال السير على الراحلة وهي الناقة القويّة على السفر، ومنه

(١) الزمر: ٦٤.
(٢) راجع تفسير الطبري ١٢: ٧٠ ـ ٧١، الكشف والبيان ١٠: ٣٠٠، معاني القرآن وإعرابه ٥: ٣٦٥.

الحديث المرويّ «الناس كإبل مائة لا يوجد فيها راحلة»[١] و«الرحـل» متاع السفر، والارتحال احتمال الرحل للمسير في السفر. و«الشتاء» أوان شدّة البرد. و«الصيف» زمان شدّة الحرّ. وفصول السنة أربعة: ربيع، وصيف وخريف، وشتاء.

وقـوله: ﴿فليعبدوا ربّ هذا البيت﴾ أمـر مـن الله تـعالى للـمكلّفين أن يوجّهوا عبادتهم إلى الله ربّ البيت الحرام دون غيره من الأصنام ﴿الّذي أطعمهم من جوع﴾ بما أعطاهم من الأموال وسبّب لهم من الأرزاق بالسعي في التجارة في رحلة الشتاء ورحلة الصيف ﴿وآمنهم من خوف﴾ قد كانوا إذا قالوا في سفرهم: نحن أهل حرم الله لم يتعرّض لهم أحد. وقال قتادة: وآمنهم من خوف الغارة بالحرم الّذي جبل قلوب العرب عـلى تـعظيمه. وقيل ﴿آمنهم﴾ من الجذام[٢]. قال سفيان بن عيينة: كان لنا إمام بالكوفة يقرأ ﴿ألم تر﴾ و﴿لايلاف﴾ ولا يفرّق بينهما.

---

(١) راجع سنن الترمذي ٥: ٢٨٧٢/١٥٣.

(٢) تفسير الطبري ١٢: ٧٠٤.

سورة[1] الماعون

مكّيّة في قول ابن عبّاس، وقال الضحّاك: مدنيّة، وهي سبع آيات في الكوفي والبصري، وستّ في المدنيّين. عدّ أهل الكوفة والبصري ﴿يراؤن﴾ رأس آية. يجوز أن يقال ﴿أريت﴾ بحذف الهمزة. ولا يجوز أن يقال: «رَيْتَ» لأنّ ألف الاستفهام يصير غيرها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تبارك وتعالى:

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ (٢) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ (٧) سبع آيات.

أقول: قوله: ﴿أرأيت﴾ خطاب للنبيّ صلى الله عليه وآله على وجه التعجّب له من الكافر ﴿الّذي يكذّب بالدين﴾ وذهابه عن الإيمان به مع وضوح الأمر فيه وقيام الدلالة على صحّته. والمراد بالدين الجزاء من الثواب والعقاب، فالتكذيب بالجزاء مِن أضرّ شيء على صاحبه، لأنّه يعدم به أكثر الدواعي

---

(١) في الخطّيّة والحجريّة زيادة: أرأيت وتسمّى سورة.

إلى الخير، والصوارف عن الشرّ، فهو يتهالك في الإسراع إلى الشرّ الّذي يدعوه إليه طبعه لا يخاف عاقبة الضرر فيه.

وقوله: ﴿فذلك الّذي يدعّ اليتيم﴾ وصف للّذي يكذّب بالدين، فبيّن أنّ من صفته أنّه يدعّ اليتيم، ومعناه: يدفعه عنفاً به، وذلك لأنّه لا يؤمن بالجزاء عليه، فليس له رادع عنه، كما لمن يقرّ بأنّه يكافى عليه. دعّه يدّعه دعّاً إذا دفعه دفعاً شديداً. وقال ابن عبّاس ومجاهد وقتادة: ﴿يدعّ اليتيم﴾ معناه: يدفعه عن حقّه.

وقوله: ﴿ولا يحضّ على طعام المسكين﴾ معناه: ولا يحثّ على طعام المسكين بخلاً به، لأنّه لو كان لا يحضّ عليه عجزاً عنه لم يذمّ به، وكذلك لو لم يحضّ عليه من غير قبيح كان منه لم يذمّ عليه، لأنّ الذمّ لا يستحقّ إلّا بما له صفة الوجوب إذ أخلّ به أو القبيح إذا فعله على وجه مخصوص.

وقوله: ﴿فويل للمصلّين﴾ تهديد لمن يصلّي على وجه الرياء والسمعة. وإنّما أطلق مع أنّه رأس آية يقتضي تمام الجملة، لأنه معرّف بما يدلّ على أنّه أراد من يصلّي على جهة الرياء والنفاق.

ثمّ بيّن ذلك بقوله: ﴿الّذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ قال ابن عبّاس ومسروق: معناه: يؤخّرونها عن وقتها. وقال قتادة: معناه: غافلون. وقال مجاهد: لاهون، كأنّهم يسهون للّهوهم عنها، واللهو يوجب[1] تأخيرها عن وقتها لأنّه قال عن صلاتهم ولم يقل ساهون فيها.

﴿الّذين هم يراؤن﴾ معناه: أنّهم يراؤن بصلاتهم الناس دون أن يتقرّبوا بها إلى الله تعالى. وإنّما ذمّ السهو في الصلاة مع أنّه ليس من فعل العبد بل

---

(١) في الخطّية: وإنّما توجّه.

هو من فعل الله، لأنّ الذم توجّه في الحقيقة على التعرّض للسهو بدخوله فيها وجه الرياء وقلبه مشغول بغيرها، لا يرى لها منزلة تقتضي صرف الهمّ إليها.

وقوله: ﴿ويمنعون الماعون﴾ قال أبو عبيدة: كلّ ما فيه منفعة، فهو الماعون. وقال الأعشى:

بأجود منه بما عُونِه إذا ما سماؤهم لم تَغِمْ[(١)]

وقال الراعي:

قوم على الإسلام لمّا يمنعوا ماعُونَهم ويُضيِّعوا التهليلا[(٢)]

وقال أعرابي في ناقة: إنّها تعطيك الماعون أي تنقاد لك وتطعيك. و[الماعون] أصله القلّة من قولهم: «المَعْن» القليل، قال الشاعر:

فإنّ هلاكَ مالِك غير مَعْنٍ[(٣)]

أي غير قليل. فالماعون القليل القيمة ممّا فيه منفعة من آلة البيت نحو الفأس والمقدحة والإبرة والدلو، وهو قول ابن مسعود وابن عبّاس وإبراهيم وأبي مالك وسعيد بن جبير. وسئل عكرمة فقيل له: من منع ذلك فالويل له ؟ قال: لا، ولكن من جمع ذلك بأن صلّى ساهياً مرائياً ومنع هذا.

وقوله: ﴿فويل للمصلّين﴾ وهو يعني: المنافقين. فدلّ على أنّ السورة مدنيّة لأنّه لم يكن بمكّة نفاق. ويقال: معن الوادي، إذا جرت مياهه قليلاً قليلاً. والماء المعين الجاري قليلاً قليلاً. وأمعن في الأمر إذا أبعد فيه قليلاً قليلاً. وروي عن عليّ عليه السلام أنّه قال: «الماعون» الزكاة ، وهو قول ابن عمر

---

(١) شرح ديوان الأعشى: ٢٠١، مجاز القرآن ٢: ٣١٣.
(٢) مجاز القرآن ٢: ٣١٣، الكشف والبيان ١٠: ٣٠٦.
(٣) معجم تهذيب اللغة ٤: ٣٤٢٣.

والحسن وقتادة والضحّاك[١] وقال الشاعر:

يَمُجّ صَبيرُه الماعونَ صبّا[٢]

فالصبير: السحاب. وقال أنس بن مالك: الحمدلله الّذي لم يجعلها في صلاتهم وإنّما جعلها عن صلاتهم، فتأوّلها من تركها متعمّداً. والمراد بالصلاة هنا الفرض.

---

(١) النكت والعيون ٦: ٣٥٢، القمّي ٢: ٤٤٤.

(٢) تفسير الطبري ١٢: ٧٠٩، معاني القرآن ٣: ٢٩٥، الصحاح ٦: ٢٢٠٥.

سورة الكوثر

مكّيّة في قول ابن عبّاس، وقال الضحّاك: هي مدنيّة، وهي ثلاث آيات بلا خلاف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى:

إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣
ثلاث آيات.

أقول: هذا خطاب من الله لنبيّه صلى الله عليه وآله على وجه تعداد نعمه عليه، يقول: ﴿إنّا أعطيناك الكوثر﴾ فالإعطاء: إخراج الشيء إلى آخذٍ له، وهو على وجهين: إعطاء تمليك، وإعطاء غير تمليك. فإعطاء الكوثر إعطاء تمليك، كاعطاء الأجر، وأصله التناول من عطا يعطو إذا تناول. و «الكوثر» الشيء الّذي من شأنه الكثرة، و«الكوثر» الخير الكثير. وهو «فوعل» من الكثرة. قال عطاء: هو حوض النبيّ صلى الله عليه وآله الّذي يكثر الناس عليه يوم القيامة. وقال ابن عبّاس: هو الخير الكثير. وروي عن عائشة: أنّ الكوثر نهر في الجنّة جانباه قباب الدرّ والياقوت[1]. وقال الحسن : الكوثر القرآن. وقال ابن

(١) راجع تفسير الطبري ١٢: ٧١٧.

عمر: هو نهر يجري في الجنّة على الدرّ والياقوت.

وقوله: ﴿فصلّ لربّك﴾ أمر من الله تعالى لنبيّه ويدخل معه جميع المكلّفين يأمرهم بالصلاة وأن ينحروا. وقال ابن عبّاس وأنس بن مالك ومجاهد وعطاء: معنى «وانحر» انحر البدن متقرّباً إلى الله بنحرها، خلافاً لمن نحرها للأوثان. وقيل: معناه: ﴿فصلّ لربّك﴾ صلاة العيد ﴿وانحر﴾ البدن والأضاحي. وقيل: معناه: صلّ لربّك الصلاة المكتوبة واستقبل القبلة بنحرك[١]. تقول العرب: منازلنا نتناحر هذا ينحر هذا أي مستقبلة، وأنشد بعضهم:

أبا حكم ها أنت عمّ مجالد   وسيّد أهل الأبطح المتناحر[٢]

وروي عن عليّ عليه السلام أنّ معناه: ضع اليمنى على اليسرى حذاء النحر، وهذه الرواية غير صحيحة. والمرويّ عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام أنّ معناه: وانحر البدن والأضاحي[٣].

وقوله: ﴿إنّ شانئك هو الأبتر﴾ فالشانئ: المبغض، تقول: شنئته أشنؤه شناء، إذا أبغضته. وقال ابن عبّاس: معناه: عدوّك، وهو قول سعيد بن جبير. وقال: هو العاص بن وائل السهمي، فإنّه قال في النبيّ صلى الله عليه وآله إنّه أبتر لا عقب له، فقال الله تعالى: ﴿إنّ شانئك هو الأبتر﴾ يعني الّذي انقطع عنه كلّ خير. وقيل: إنّه أراد به أنّه لا ولد له على الحقيقة، وأنّ من ينسب إليه ليس بولد له، والأبتر هو المنقطع عن الخير. وقيل: هو الّذي لا عقب له، ذكره مجاهد[٤]. وقال قتادة: معناه: الأقلّ الأذلّ بانقطاعه عن الخير. وقيل: قوله: ﴿إنّ شانئك هو الأبتر﴾ جواب لقول قريش: إنّه أبتر لا ولد له ذكر إذا مات قام مقامه يدعو إليه وقد انقطع أمره.

---

(١) النكت والعيون ٦: ٣٥٥.
(٢) معاني القرآن ٣: ٢٩٦.
(٣) راجع تفسير الطبري ١٢: ٧٢١ ـ ٧٢٢.
(٤) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٣٧٠.

فقيل: إنّ شانئك هو الأبتر الّذي ينقطع ما هو عليه من كفره بموته، فكان الأمر كما أخبر به. وقيل: «الحمار الأبتر» المقطوع الذنب، فشبّه به. وقيل: في السورة تشاكل المقاطع للفواصل وسهولة مخارج الحروف بحسن التأليف وتقابل المعاني بما هو أولى، لأنّ قوله: ﴿فصلّ لربّك﴾ أحسن من صلّ لنا، لأنّه يجب أن يذكر في الصلاة بصفة الربوبيّة ﴿وانحر﴾ هاهنا أحسن من قوله «وانسكه» لأنّه على برّ يعمّ بعد برّ يخصّ. و«الأبتر» أحسن من «الأخسّ» لأنّه أدلّ على الكناية[١] في النفس. فهذه الحروف القليلة قد جمعت المحاسن الكثيرة. ومالها في النفس من المنزلة أكثر بالفخامة والجزالة وعِظَم الفائدة الّتي يعمل عليها وينتهي إليها.

(١) في الخطّية والحجريّة: النكاية.

سورة[1] الكافرون

مكّيّة في قول ابن عبّاس، وقال الضحّاك: هي مدنيّة، وهي ستّ آيات بلا خلاف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ ستّ آيات.

قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي ﴿ولي دين﴾ ساكنة الياء. الباقون بفتحها. من فتح الياء فلخفّة الفتحة، ومن أسكنها فإنّه كره الحركة على حرف العلّة. وقرأ ﴿ديني﴾ بياء في الحالين يعقوب. الباقون بلا ياء فيهما. من أثبت الياء فلأنّها الأصل. ومن حذفها اجتزأ بالكسرة الدالّة عليها. وقيل: إنّ هذه السورة نزلت جواباً لقول جماعة من المشركين دعوا النبيّ صلى الله عليه وآله إلى أن يعبد آلهتهم سنة ويعبدوا هم إلهه سنة. وفيهم نزل قوله:

(١) في الخطّيّة والحجريّة: زيادة: قل يا أيّها.

﴿أفغير الله تأمرونّي أعبد أيّها الجاهلون﴾[١] هذا قول ابن عبّاس. وقيل: إنّهم قالوا: نشركك في أمرنا، فإن كان الّذي في أيدينا خيراً كنت قد أخذت بحظّ منه، وإن كان الّذي في يدك خيراً قد أخذنا بحظّ منه. وقيل: إنّ الّذي قال ذلك، الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود بن المطلّب وأُميّة بن خلف[٢]. وقيل: إنّهم قالوا: نتداول العبادة ليزول ما بيننا من البغضاء والعداوة، فأمر الله تعالى نبيّهﷺ أن يقول لهم: ﴿لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ ومعناه: لا أعبد ما تعبدون لفساد عبادة الأوثان، ولا أنتم عابدون ما أعبد لجهلكم بوجوب إخلاص العبادة لله، لأنّ العقل يقتضي أنّهﷺ لهذا امتنع وامتنعوا[٣]. وإنّما كرّر ذكر العبادة لتصريفها في الفوائد المختلفة وذلك لنفي عبادة المؤمن للوثن كيف تصرّفت الحال في ماض أو حاضر أو مستقبل لقبحها، ونفي عبادة الكافرلله مع إقامته على الجهل بوجوب إخلاص العبادة له[٤]. وقيل في وجه التكرير في السورة: إنّ ظاهر ذلك وإن كان تكريراً، فليس في الحقيقة تكريراً أصلاً، ولا تكرير في اللفظ إلّا في موضع واحد سنبيّنه بعد بيان المعنى إن شاء الله، وذلك أنّ قوماً من المشركين سألوا رسول اللهﷺ مناقلة العبادة سنة يعبدون فيها ما يعبدهﷺ وسنة يعبد هو ما يعبدون لزوال العداوة بوقوع العبادة على هذه الجهة فجاء الكلام على طريق الجواب لإنكار ما سألوا ، فقيل: ﴿لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ وهذا نفي منه لما يعبدون في الاستقبال ثمّ قال: ﴿ولا أنا عابد ما عبدتم﴾ على نفي العبادة لما عبدوا في

(١) الزمر: ٦٤. (٢) تفسير الطبري ١٢: ٧٢٨. (٣) تفسير السمرقندي ٣: ٦٢٩.
(٤) راجع الكشف والبيان ١٠: ٣١٥، معاني القرآن وإعرابه ٥: ٣٧١.

الماضي، وهذا واضح في أنّه لا تكرير في لفظه ولا معناه[١].

وقوله: ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ فعلى التكرير في اللفظ دون المعنى من قبل أنّ التقابل يوجب أنّ معناه: ولا أنتم عابدون ما عبدت إلّا أنّه عدل بلفظه إلى «أعبد» للإشعار أنّ ما عبدت هو ما أعبد، واستغني بما يوجبه التقابل من معنى عبدت عن الإفصاح به. وعدل عن لفظه لتضمين معنى آخر فيه، وكان ذلك أكثر في الفائدة وأولى بالحكمة، لأنّه دلّ على «عبدت» دلالة التصريح باللفظ.

فإن قيل: فهلّا قال : ما عبدت، ليتقابل اللفظ، كما يقابل المعنى ؟ قيل: هو في حكم التقابل في اللفظ من حيث هو دالّ عليه إلّا أنّه عدل عن الإفصاح به للإشعار بأنّ معبوده [واحد كيف تصرّفت الحال، وكان هذا أبعد في الإيهام أنّ معبوده فيما مضى غير معبوده][٢] فيما يستقبل. وقد يجوز في الماضي والمستقبل أن يقع أحدهما موقع الآخر إذا كان في الكلام ما يدلّ عليه، كما قال: ﴿ونادى أصحاب الجنّة أصحابَ النار﴾[٣] على معنى ينادون، ومنه قولهم: يدعوهم ابن رسول الله فلا يجيبونه، ويدعوهم ابن زياد إلى الباطل فيسرعون إليه.

فإن قيل: فهلّا دلّ على اختلاف المعنى باختلاف اللفظ إذ هو الأصل في حسن البيان ؟ قيل: إنّ التقابل في ذلك قد صيّر اللفظ في حكم المختلف، لأنّه مقيّد به، ودلالة المقيّد خلاف دلالة المطلق نحو: زيد قائم بالتدبير على خلاف معنى زيد قائم.

(١) راجع النكت والعيون ٥: ٣٥٨، الكشف والبيان ١٠: ٣١٧.
(٢) ما بين المعقوفتين لايوجد في الخطّية.
(٣) الأعراف: ٤٤.

فإن قيل: فهلّا دلّ على ذلك من أُصول مختلفة إذ هو أدلّ على خلاف المعنى بصريح الجهة؟ قيل: لأنّه لما أُريد نفي العبادة على تصريف الأحوال صرف لفظ العبادة لتصريف المعنى، ولم يصلح فيه أُصول مختلفة، لئلّا يوهم النفي نفي معنى غير تصريف عبادة الله على الوجوه والأسباب كلّها، وكان تصريف لفظ العبادة لتصريف معناها أحقّ وأولى من تصريف معناها في غير لفظها لما فيه من التشاكل المنافي للتنافر. ولفظة ﴿الكافرون﴾ في السورة مخصوصة بمن علم الله من حاله أنّه يموت على كفره. ولا يجوز أن يكون المراد العموم لأنّا علمنا دخول كثير ممّن كان على الكفر ثمّ دخل في الإسلام[1]. وقيل: إنّ الألف واللام في الآية للمعهود، لأنّ «أيًّا» لا يوصف إلّا بالجنس، فخرج اللفظ على الجنس من حيث هو صفة لـ«أيّ» ولكن «أيًا» للمخاطبين من الكفّار بأعيانهم، فآل إلى معنى المعهود في أنّه يرجع إلى جماعة بعينها، ونحوه يا أيّها الرجال ادخلوا الدار، فلم تأمر جميع الرجال، ولكن أمرتَ الّذي أشرتَ إليهم بإقبالك عليهم. وقيل: يجوز أن تكون الآية عامّة، والتقدير: ولا أنتم عابدون ما أعبد بالشرط الّذي ذكرتموه من أنّي أعبد إلهكم، لأنّ هذا الشرط لا يكون أبداً، ولكن يجوز أن يؤمنوا فيما بعد بغير هذا الشرط.

فإن قيل: ما فائدة الكلام ؟

قيل: الإنكار لما لا يجوز من مناقلة العبادة على ما توهّمه قوم من الكفّار لتقوم الحجّة به من جهة السمع كما كانت من جهة العقل مع الإعجاز الّذي فيه. فإن قال قائل: من أيّ وجه يضمن الإعجاز ؟ قيل: له

(١) النكت والعيون ٦: ٣٥٧.

من جهة الإخبار بما يكون في مستقبل الأوقات ممّا لا سبيل إلى علمه إلّا بوحي الله إلى من يشاء من العباد، فوافق المخبر بما تقدّم به الخبر، وفي ذلك أكبر الفائدة وأوضح الدلالة.

فإن قيل: ما معنى ﴿لكم دينكم ولي دين﴾ ؟

قيل: معناه: لكم جزاء دينكم ولي جزاء ديني، وحسبك بجزاء دينهم وبالا وعقاباً كما حسبك بجزاء دينه نعيماً وثواباً.

فإن قيل: لِمَ لا ذكرت الحجّة في أنّ ما يدعون إليه لا يجوز.

قيل له: تقبيحاً لها من حيث اخرجت مخرج مقالة يكفي العلم بفسادها، حكايتها مع الاستغناء بما في العقول عن الدلالة على بطلانها.

فإن قيل: فهلّا أنكر عليهم من طريق أنّ كلّ ما دعوا إليه لا يجوز للإنجاز؟

قيل: لأنّه إنكار متّصل[١] على حدّ ما يسألوا ولو أنكر إنكاراً مجملاً لم يبيّن به تفصيل ما سألوه إلّا بأن يحكى على انفراده. ثمّ يحمل الإنكار به فحينئذ يفهم منه معنى المفصّل.

فإن قيل : فهلّا بيّن ذكرهم بصفة غير منكر ؟

قيل: قد بيّن ذلك بعلم التعريف له إلّا أنّه بصفات الذمّ الّتي فيها معنى الزجر، وهي دالّة على أحوالهم فيما دعوا له من الباطل، وتقحّموه من أحوال الجاهل.

فإن قيل: فِلَم قال: ﴿لكم دينكم ولي دين﴾ مع ما يقتضي ظاهره التسليم ؟ قيل: مظاهرة في الإنكار، كما قال تعالى: ﴿اعملوا ما شئتم﴾[٢]

(١) ظاهر الخطّية: مفصّل.

(٢) فصّلت: ٤٠.

لما صاحبه من الدليل على التمكين وشدّة الوعيد بالقبح، لأنّه إذا اخرج الكلام مخرج التسليم للأمر دلّ على أنّ الضرر لا يلحق إلّا المسلَّم إليه، فكأنّه قيل له: أهلِك نفسك إن كان ذلك خيراً لك.

فإن قال: فِلَم قيل: ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ ولم يقل من أعبد ؟

قيل له: لأنّه مقابل لقوله: ﴿ولا أنا عابد ما عبدتم﴾ من الأصنام، ولا يصلح هاهنا إلّا «ما» دون «من» لأنّه يعني: ولا أنا عابد ما عبدتم من الأصنام ثمّ حمل الثاني على الأوّل للتقابل حتّى لا يتنافر[1]. وقيل: إنّ معناه: ولا أنا عابد عبادتكم ولا أنتم عابدون عبادتي، لأنّ عبادته متوجّهة إلى الله، وعبادتهم متوجّهة إلى الأصنام. فـ«ما» هاهنا مع ما بعدها بمنزلة المصدر.

فإن قيل: فِلَم أنكر ما لا يجوز في الحكمة بألين النكير مع خروجه إلى أفحش القبح ؟

قيل: ليس ذلك بألين النكير في المعنى وإن خرج لفظه ذلك المخرج، لأنّه إنّما عومل تلك المعاملة ليجعل في حيّز ما يكفي فيه التنبيه، حتّى يظهر أنّه أقبح قبيح، وهذا ضرب من البلاغة، عجيب يفهمه كلّ عاقل له أدنى فطنة ، ويعلم موضعه في الحكم[2]

فإن قيل: ما الدليل على أنّ تأويل السورة ما ذكرتم دون غيره من التأويلات؟

قيل: الدليل على أنّ ذلك الكلام إذا احتمل وجهين فصاعداً في اللغة وأحد الوجهين يجوز، والاخر لا يجوز، وجب أن يكون تأويله ما يجوز عليه تعالى ويليق به دون ما لا يليق به ولا يجوز عليه، تعالى الله.

---

(١) النكت والعيون ٦: ٣٥٨.

(٢) في الخطّية: الحكمة.

سورة النصر

مدنيّة في قول ابن عبّاس والضحّاك، وهي ثلاث آيات بلا خلاف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى:

إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾ ثلاث آيات.

أقول: هذا وعد من الله تعالى لنبيّه ﷺ النصر بالفتح قبل وقوع الأمر. وقال الحسن ومجاهد: وعده الله فتح مكّة ونصرته على كفّار قريش، فيجيء النصر وقوعه على التوقّع له. و«النصر» المعونة على العدوّ للظهور عليه، لأنّ المعونة قد تكون بالمال على نوائب الزمان، وقد تكون على العدوّ، وهي النصر دون المعونة الأُخرى. و«الفتح» الفرج الّذي يمكن معه الدخول في الأمر بملك العدوّ الناصب للحرب، وقد يكون الفرج بالفرق فقط، فلا يكون الفتح بذهاب العدوّ الّذي صار علماً على هذا المعنى.

وقوله تعالى: ﴿ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً﴾ يعني: في طاعة الله وطاعتك: من الإسلام والتزام الأحكام واعتقاد صحّته وتوطين

النفس على العمل به . وأصل «الدين» الجزاء. ثمّ يعبّر به عن الطاعة الّتي يستحقّ بها الجزاء، كما قال: ﴿في دين الملك﴾ [١] أي في طاعته. و«الفوج» جماعة من جماعة، والأفواج جماعات من جماعات. وهكذا كان الناس يدخلون في الدين جماعة بعد جماعة، من جملة القبيلة حتّى يتكامل إسلام الجميع.

وقوله: ﴿فسبّح بحمد ربّك واستغفره﴾ أمر من الله تعالى لنبيّهﷺ بأن ينزّهه عمّا لا يليق به من صفات النقص، وأن يستغفره. ووجه وجوب ذلك بالنصر والفتح، أنّ النعمة به تقتضي القيام بحقّ النعمة المنافي للمصيبة [٢]. فكأنّه قال: قد حدث أمر يقتضي الاستغفار ممّا جدّده الله لك فاستغفره بالتوبة يقبل ذلك منك، ومخرجه مخرج الخطاب للنبيّﷺ وهو تعليم لجميع أُمّته. ومعنى ﴿فسبّح بحمد ربّك﴾ نزّهه عمّا لا يجوز عليه مع شكرك إيّاه. وقيل: معناه: صلّ شكراً له على ما جدّد لك من نعمة [٣]. والاستغفار قد يكون عند ذكر المعصية بما ينافي الإصرار، وقد يكون على وجه التسبيح والانقطاع إلى الله.

وقوله: ﴿إنّه كان توّاباً﴾ معناه: أنّه يقبل توبة من بقي كما قبل توبة من مضى. و«التوّاب» في صفة الله الكثير القبول للتوبة، وفي صفة العباد الكثير الفعل للتوبة. وقال قتادة: عاش النبيّﷺ بعد هذا سنتين ثمّ توفّيﷺ.

---

(١) يوسف: ٧٦.

(٢) في الخطّية: للمعصية.

(٣) النكت والعيون ٦: ٣٦١.

سورة اللهب[1]

مكّيّة في قول ابن عبّاس والضحّاك، وهي خمس آيات بلا خلاف.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تبارك وتعالى:

تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَٱمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ (٤) فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥) خمس آيات.

أقول: قرأ عاصم ﴿حمّالَة الحطب﴾ نصباً على الذمّ. الباقون بالرفع على أنّه خبر الابتداء. ويجوز أن يكون ارتفع ﴿امرأته﴾ على أنّه فاعل ﴿سيصلى﴾ فكأنّه قال سيصلى أبو لهب وامرأته ناراً ذات لهب. وقرأ ابن كثير ﴿يدا أبي لهب﴾ ساكنة الهاء على التخفيف، كما قالوا في نَهَر: نَهْر[2]. الباقون بالتثقيل.

وروي أنّ أبا لهب كان قد عزم على أن يرمي النبيّ صلّى الله عليه وآله بحجر فمنعه الله من ذلك، وقال «تبّت يداه» للمنع الّذي وقع به. ثمّ قال: ﴿وتبّ﴾

---

(١) في الخطّيّة والحجريّة: تبّت.

(٢) مختصر شواذّ القرآن: ٢٢ و١٤٩.

بالعقاب الّذي ينزل به فيما بعد. وقيل في قوله: ﴿تبّت يدا أبي لهب﴾: إنّه الدعاء عليه نحو قوله: ﴿قاتلهم الله أنّى يؤفكون﴾[1] فأمّا قوله: ﴿وتبّ﴾ فإنّه خبر محض، كأنّه قال: وقد تبّ. وقيل: إنّه جواب لقول أبي لهب: تبًّا لهذا من دين، حين نادى النبيّ ﷺ بني عبد المطّلب، فلمّا اجتمعوا له قال لهم: إنّ الله بعثني إلى الناس عامّاً وإليكم خاصّاً، وأن أعرض عليكم ما إن قبلتموه ملكتم به العرب والعجم. قالوا: وما ذلك يا محمّد ﷺ؟ قال: أن تقولوا لا إله إلّا الله وأنّي رسول [الله]. فقال أبو لهب: تبّاً لهذا من دين. فأنزل الله تعالى قوله: ﴿تبّت يدا أبي لهب﴾[2] و«التباب» الخسران المؤدّي إلى الهلاك. تبّه يتُبّ تبّاً، و«التباب» الهلاك. وفي ﴿تبّت يدا﴾ مع أنّه إخبار، ذمّ لأبي لهب لعنه الله. وإنّما قال: تبّت يداه، ولم يقل: تبّ، مع أنّه هو الهالك في الحقيقة، لأنّه جار مجرى قوله: كسبت يداه، لأنّ أكثر العمل لمّا كان باليدين أُضيف ذلك إليهما على معنى الخسران الّذي أدّى إليه العمل بهما.

وقوله: ﴿ما أغنى عنه ماله وما كسب﴾ معناه: ما نفعه ماله ولا الّذي كسبه من الأموال، ولا دفع عنه عقاب الله حين نزل به، فالإغناء عنه الدفع عنه، فأمّا الإغناء بالمال ونحوه فهو دفع المضارّ به.

وقوله: ﴿سيصلى ناراً ذات لهب﴾ خبر من الله تعالى أنّ أبا لهب سيصلى ناراً ذات لهب، وهي نار جهنّم الملتهّبة. وفي ذلك دلالة على صدق النبيّ ﷺ لأنّه خبّر بأنّه يموت على كفره، وكان الأمر على ذلك.

وقوله: ﴿وامرأته حمّالة الحطب﴾ قال ابن عبّاس والضحّاك وابن زيد: إنّ امرأة أبي لهب كانت تحمل الشوك فتطرحه في طريق النبيّ ﷺ إذا

---

(١) التوبة: ٣٠، المنافقون: ٤.
(٢) راجع النكت والعيون ٦: ٣٦٣، ٣٦٤.

خرج إلى الصلاة. وقال عكرمة ومجاهد وقتادة: إنّما وصفت بحمّالة الحطب، لأنّها كانت تمشي بالنميمة. وقيل: حمّالة الحطب في النار. وفي ذلك دلالة أيضاً قاطعة على أنّها تموت على الكفر[1]. وامرأة أبي لهب أُمّ جميل بنت حرب أُخت أبي سفيان عمّة معاوية.

وقوله: ﴿في جيدها حبل من مسد﴾ فالمسد: حبل من ليف، وجمعه أمساد. وإنّما وصفت بهذه الصفة تخسيساً لها وتحقيراً. و«الجيد» العنق، قال ذو الرمّة:

فعيناك عيناها ولونك لونها   وجيدك إلّا أنّه غير عاطل[2]

وقال أبو عبيدة: «المسد» حبل يكون من ضروب، قال الراجز:

ومسد أُمِرَّ عن أيانق   صُهبٍ عناق ذات منح زاهق[3]

و«المسد» الليف لأنّ من شأنه أن يفتل للحبل. وأصل المسد الفتل فمنه المسد المحور من حديد، لأنّه يدور بالفتل. وقال قوم: هو ليف المُقل[4].

فإن قيل: ما الّذي كان يجب على أبي لهب حين سمع هذه السورة؟ أكان يجب عليه أن يؤمن ؟ فلو آمن لكان فيه تكذيب خبر الله بأنّه سيصلى ناراً ذات لهب، وإن لم يجب عليه الايمان فذلك خلاف الإجماع؟!!

قيل: خبر الله مشروط بأنّه سيصلى ناراً ذات لهب إن لم يؤمن، ويجب عليه أن يعلم ذلك، وهذا أبين الأجوبة وأظهرها. والله أعلم.

---

(١) معاني القرآن ٣: ٢٩٨.
(٢) تفسير الطبري ١٢: ٧٣٧، الكشف والبيان ١٠: ٣٢٨.
(٣) مجاز القرآن ٢: ٣١٥، تفسير الطبري ١٢: ٧٣٨، معاني القرآن وإعرابه ٥: ٣٧٦، معجم تهذيب اللغة ٤: ٣٣٩٣ مادّة «مسد».
(٤) معاني القرآن ٣: ٢٩٩.

سورة الإخلاص

مكّيّة في قول ابن عبّاس، وقال الضحّاك: هي مدنيّة، وهي أربع آيات.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى:

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ أربع آيات.

أقول: قرأ أبو عمرو ـ في رواية هارون عنه ـ «أحد الله الصمد» بغير تنوين في الوصل. وقرأ في رواية نصر عن أبيه وأحمد بن موسى عنه بالتنوين، وجه ترك التنوين أنّه ينوى به الوقف، لأنّه رأس آية مع أنّه قد يحذف التنوين لالتقاء الساكنين، والوجه تحريكه ، قال الشاعر:

فألفيتُه غير مستعتب ... ولا ذاكرِ الله إلّا قليلاً[1]

وقرأ ﴿كفؤاً﴾ بسكون الفاء ـ مهموزاً ـ حمزة ونافع، على خلاف عن نافع. الباقون بضمّ الفاء مهموزاً. وإنّما قال في أوائل هذه السورة: ﴿قل﴾ وهي أوامر من الله تعالى، لأنّ المعنى قال لي جبرائيل: ﴿قل هو الله

---

(١) مرّ ٣: ١٤٢، الحجّة للقرّاء السبعة ٤: ١٥٥، تفسير الطبري ٢: ٨٤.

أحد﴾ فحكى النبيّ صلى الله عليه وآله ما قيل له. وقيل لسورة الإخلاص وقل يا أيّها الكافرون «المقشقشتان» ومعناهما المُبرِئتان من الكفر والنفاق، كما يقشقش الهناء الجرب.

وهذا امر من الله تعالى لنبيّه صلى الله عليه وآله أن يقول لجميع المكلّفين ﴿هو الله﴾ الّذي تحقّ له العبادة ﴿أحد﴾ ومعناه: واحد. فقوله: ﴿هو﴾ كناية عن اسم الربّ، لأنّهم قالوا: ما ربّك؟ قال: هو الله أحد. وقال الكسائي ﴿هو﴾ عماد، وقوله: ﴿الله﴾ ابتداء، وخبره ﴿أحد﴾ وأنكر الفرّاء أن يكون العماد مستأنفاً[(١)] وأصل ﴿أحد﴾ وَحَد فقلبت الواو همزة، كما قيل: وناه وأناه، لأنّ الواو مكروهة أوّلاً، وقد جاء وحد على الأصل، قال النابغة:

كأنّ رحْلي وقد زال النهار بنا
بذي الجليل على مستأنس وَحد[(٢)]

وحقيقة الواحد شيء لا ينقسم في نفسه أو معنى صفته، فإذا أُطلق واحد من غير تقدّم موصوف فهو واحد في نفسه، فإذا جرى على موصوف فهو واحد في معنى صفته. فإذا قيل: الجزء الّذي لا يتجزّأ واحد، فهو واحد في معنى صفته، وإذا وصف تعالى بأنّه واحد، فمعناه: أنّه المختصّ بصفات لا يشاركه فيها غيره: من كونه قديماً وقادراً لنفسه وعالماً وحيّاً وموجوداً كذلك، وأنّه تحقّ له العبادة لا تجوز لأحد سواه. ولا يجوز أن يكون ﴿أحد﴾ هذه هي الّتي تقع في النفي، لأنّها أعمّ العامّ على الجملة [أحد][(٣)] والتفصيل، فلا يصلح ذلك في الإيجاب، كقولك:

(١) معاني القرآن ٣: ٢٩٩.
(٢) ديوان النابغة الذبياني: ٢١، الحجّة للقرّاء السبعة ٤: ١٥٥، الكشف والبيان ١٠: ٣٣٤.
(٣) لم يرد في الخطّية.

ما في الدار أحد، أي ما فيها واحد فقط ولا أكثر، ويستحيل هذا في الإيجاب.وفي قوله: ﴿الله أحد﴾ دليل فساد مذهب المجسّمة، لأنّ الجسم ليس بـ«أحد» إذ هو أجزاء كثيرة وقد دلّ الله بهذا القول على أنّه أحد، فصحّ أنّه ليس بجسم.

وقوله: ﴿الله الصمد﴾ معناه: الّذي تحقّ له العبادة هو الموصوف بأنّه ﴿الصمد﴾ وقيل: في معناه قولان:

أحدهما: قال ابن عبّاس وشقيق وأبو وائل: إنّه السيّد المعظم، كما قال الأسدي:

ألا بَكَّر الناعي بِخَيْرَيْ بني أسد
بعمرو بن مسعود وبالسيّد الصمد[١]

وقال الزِبْرِقان:

ولا رهينة إلّا السيّد الصمد

الثاني: أنّ معناه: الّذي يصمد إليه في الحوائج ليس فوقه أحد، يقال: صمدت إليه أصمد إذا قصدت إليه إلّا أنّ في الصفة معنى التعظيم كيف تصرّفت الحال[٢]. ومن قال: الصمد بمعنى المصمت، فقد جهل الله، لأنّ المصمت هو المتضاغط الأجزاء [وهو الّذي لا جوف له][٣] وهذا تشبيه وكفر بالله تعالى.

وقوله: ﴿لم يلد﴾ نفي منه تعالى لكونه والد إله ولد.

وقوله: ﴿ولم يولد﴾ نفي لكونه مولود إله والد، لأنّ ذلك من صفات

---

(١) مجاز القرآن ٢: ٣١٦.
(٢) تفسير الطبري ١٢: ٧٤٥، النكت والعيون ٦: ٣٧١.
(٣) لا يوجد في الخطّية والحجريّة.

الأجسام. وفيه ردّ على من قال: إنّ عزير والمسيح أبناء الله تعالى، وإنّ الملائكة بنات الله.

وقوله: ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾ نفي من الله تعالى أن يكون له مثل أو شبيه أو نظير، والكفو والكفاء والكفيء واحد، وهو المثل والنظير، قال النابغة:

لا تقذفنّي بركن لا كفاء له ... ولو تأثّفك الأعداءُ بالرفد[1]

و﴿أحد﴾ مرفوع لأنّه اسم «كان» و﴿كفواً﴾ نصب، لأنّه نعت نكرة متقدّمة، كما تقول:، عندي ظريفاً غلام، تريد عندي غلام ظريف، فلمّا قدّمت النعت على المنعوت نصبته على الحال في قول البصريّين، وعلى الظرف في قول الكوفيّين. والتقدير في الآية ولم يكن له أحد كفواً، وأخصّ منه ولم يكن أحد كفواً له، وإنّما قدّم الظرف الملغى مع أنّ تأخير الملغى أحسن في الكلام لأنّه أفضل بذكر الأنبه الأعرف، كما يتقدّم الظرف الّذي هو خبر وموضعه التأخير لهذه العلّة في قولهم: لزيد مال وله عبد[2].

ولا حيّ من الأحياء إلّا وله مثل إلّا الله تعالى، فلذلك قال: ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾ وروي أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان يقف عند آخر كلّ آية من هذه السورة، وكذلك كان يقرأ ابن مجاهد في الصلاة ابتداء.

---

(١) ديوان النابغة الذبياني: ٢٩، اعراب القرآن ٥: ٣١١.

(٢) راجع معاني القرآن ٣: ٢٩٩، إعراب القرآن ٥: ٣١٢، الحجّة للقراء السبعة ٥: ١٥٧ ـ ١٥٨.

سورة الفلق

مكّية في قول ابن عبّاس، وقال الضحّاك: هي مدنيّة، وهي خمس آيات بلا خلاف.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ خمس آيات.

أقول: روى قتيبة إمالة ﴿حاسد﴾.

هذا أمر من الله تعالى لنبيّه محمّد صلى الله عليه وآله ومتوجّه إلى جميع الخلق المكلّفين بأن يستعيذوا من شرّ ما خلق. فالفلق الصبح، في قول ابن عبّاس والحسن وسعيد بن جبير وجابر ومجاهد وقتادة وابن زيد. وفي رواية عن ابن عبّاس: إنّ الفلق الخلق. وقال قوم من أهل اللغة: «الفلق» الخلق، لأنّه مفلوق. ومنه «فالق الإصباح»[1] و﴿فالق الحبّ والنوى﴾[2] وقيل للداهية: فلقة، لأنّها تفلق الظهر. وأصل الفلق الفرق الواسع من

(١و٢) الأنعام: ٩٦ ـ ٩٥.

قولهم: فلق رأسه بالسيف يفلِقه فَلْقاً إذا فرّقه فرقاً واسعاً. ويقال: أبين من فَلَق الصبح وفَرَق الصبح لأنّ عموده ينفلق بالضياء عن الظلام. وقيل له فجر لانفجاره بذهاب ظلامه[١].

وقوله: ﴿من شرّ ما خلق﴾ عامّ في جميع ما خلقه الله فإنّه ينبغي أن يستعاذ من شرّه ممّن يجوز أن يحصل منه الشرّ، وليس المراد من شرّ خلق الله وأنّه تعالى خالق للشرّ، فإنّ تقديره من شرّ الأشياء الّتي خلقها مثل السباع والهوامّ والشياطين وغير ذلك.

وقوله: ﴿ومن شرّ غاسق إذا وقب﴾ قال ابن عبّاس والحسن ومجاهد: من شرّ الليل إذا دخل بظلامه، وقيل: «الغاسق» كلّ هاجم بضرر كائناً ما كان، فالغاسق في اللغة هو الهاجم بضرره ، وهو هنا الليل، لأنّه يخرج السباع من آجامها والهوامّ من مكامنها، وأصله الجريان بالضرر من قولهم: غسقت القرحة، إذا جرى صديدها. و«الغسّاق» صديد أهل النار لسيلانه بالعذاب، وغسقت عينه غَسَقاناً إذا جرى دمعها بالضرر في الخلق. والليل غاسق لجريانه بالضرر في إخراج السباع. وقال كعب: «الغسق» بيت في جهنّم إذا فتح صاح جميع أهل النار من شدّة حرّه. ومعنى ﴿وقب﴾: دخل، وقب يقب وقوباً إذا دخل . ومنه الوقبة النقرة ، لأنّه يدخل فيها.

وقوله: ﴿ومن شرّ النفّاثات في العقد﴾ قال الحسن وقتادة : يعني: السحرة الّذين كلّ ما عقدوا عقداً نفثوا فيه، وهو شبيه بالنفخ. فأمّا التفل فنفخ بريق، فهذا الفرق بين النفث والتفل، قال الفرزدق:

هما نَفَثا في فيَّ من فَمَويْهِما ... على النابح العاوي أشدّ رجام[٢]

---

(١) راجع معاني القرآن ٣: ٣٠٠، النكت والعيون ٦: ٣٧٤.

(٢) شرح ديوان الفرزدق ٢: ٤٠٩.

وقيل في شرّ النفاثات قولان: أحدهما: إيهامهم أنّهم يمرضون ويعافون، ويجوز ذلك ممّا يخيّل رأي الإنسان من غير حقيقة لما يدعون من الحيلة بالأطعمة الضارّة والأُمور المفسدة. الثاني: أنّه بضرب من خدمة الجنّ يمتحن الله تعالى بتخليتهم بعض الناس دون بعض. ولا يجوز أن يكون النبيّ صلى الله عليه وآله سحر على ما رواه القصّاص الجهّال، لأنّ من يوصف بأنّه مسحور فقد خبّل عقله. وقد أنكر الله تعالى ذلك في قوله: ﴿وقال الظالمون إن تتّبعون إلّا رجلاً مسحوراً﴾ (١) ولكن قد يجوز أن يكون بعض اليهود اجتهد في ذلك فلم يقدر عليه، فاطّلع الله نبيّه على ما فعله حتّى استخرج ما فعلوه من التمويه، وكان دلالة على صدقه ومعجزة له (٢).

وقوله: ﴿ومن شرّ حاسد إذا حسد﴾ فالحاسد: هو الّذي يتمنّى زوال النعمة عن صاحبها، وإن لم يردها لنفسه. و«الغبطة» أن يريد من النعمة لنفسه مثل ما لصاحبه وإن لم يرد زوالها عنه، فالغبطة محمودة والحسد مذموم. وفي السورة ما يستدفع به الشرور بإذن الله على تلاوة ذلك بالإخلاص فيه، والاتّباع لأمر الله. وكان النبيّ صلى الله عليه وآله كثيراً ما يعوّذ الحسن والحسين بهاتين السورتين. وقيل: إنّ اللواتي سحرن النبيّ صلى الله عليه وآله بنات لبيد بن أعضم اليهودي سحرنه في إحدى عشرة عقدة، فأنزل الله تعالى السورتين، وهما إحدى عشرة آية فحلّ بكلّ آية عقدة (٣).

(١) الإسراء: ٤٧، الفرقان: ٨.
(٢ و٣) راجع النكت والعيون ٦: ٣٧٦.

سورة الناس

مكّيّة في قول ابن عبّاس والضحّاك، وهي ستّ آيات بلا خلاف.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾ ستّ آيات.

أقول: كان الكسائي في رواية أبي عمير يميل ﴿الناس﴾ لكسرة السين، وهو حسن. الباقون بترك الإمالة، وهو الأصل.

هذا أمر من الله تعالى لنبيّه محمّد صلى الله عليه وآله ويدخل فيه المكلّفون، يأمرهم بأن يستعيذوا ﴿بربّ الناس﴾ وخالقهم الّذي هو ﴿ملك الناس﴾ ومدبّرهم وإلههم ﴿من شرّ الوسواس﴾ وأن يقولوا هذا القول الّذي هو ﴿أعوذ بربّ الناس... ﴾ إلى آخرها. و﴿ربّ الناس﴾ هو الّذي خلقهم ودبّرهم على حسب ما اقتضته الحكمة.

وقوله: ﴿ملك الناس﴾ إنّما خصّ بأنّه ملك الناس مع أنّه ملك الخلق

أجمعين لبيان أنّ مدبّر جميع الناس قادر أن يعيذهم من شرّ ما استعاذوا منه مع أنّه أحقّ بالتعظيم من ملوك الناس.

والفرق بين ﴿ملك﴾ و﴿مالك﴾ حتّى جازا جميعاً في فاتحة الكتاب ولم يجز ـ هاهنا ـ إلّا ملك، لأنّ صفة ملك تدلّ على تدبير من يشعر بالتدبير، وليس كذلك مالك، لأنّه يجوز أن يقال: مالك الثوب، ولا يجوز ملك الثوب، ويجوز أن يقال: ملك الروم، ولا يجوز مالك الروم. فجرت في فاتحة الكتاب على معنى الملك في يوم الجزاء ومالك الجزاء، وجرت في سورة الناس على ﴿ملك﴾ تدبير من يعقل التدبير، فكان هذا أحسن وأولى.

وقوله: ﴿إله الناس﴾ معناه: أنّه الّذي يجب على الناس أن يعبدوه، لأنّه الّذي تحقّ له العبادة دون غيره ﴿من شرّ الوسواس﴾ حديث النفس بما هو كالصوت الخفيّ، وأصله الصوت الخفيّ من قول الأعشى:

تسمعُ لِلحَلْي وسواساً إذا انصرفَتْ ... كما استعان بريحٍ عِشْرِق زَجِل[1]

وقال روبة:

وَسْوَسَ يَدْعو مخلصاً ربّ الفلَق

سرّاً وقد أوّن تأوين العُقُق[2]

والوسوسة كالهمهمة، ومنه قولهم: فلان موسوس إذا غلبت عليه الوسوسة لما يعتريه من المرّة. وسوس يوسوس وسواساً ووسوسة وتوسوس توسوساً.

وفي معنى قوله: ﴿من شرّ الوسواس﴾ ثلاثة أقوال:

---

(١) شرح ديوان الأعشى: ١٤٩.

(٢) تفسير الطبري ٥: ٤٤٩، معجم تهذيب اللغة: ٤: ٣٨٩٤ مادّة «وسوس».

أحدها: من شرّ الوسوسة الّتي تكون من الجنّة والناس، فأمر بالتعوّذ من شرّ الجن والإنس.

الثاني: من شرّ ذي الوسواس وهو الشيطان، كما قال في الأثر: أنّه يوسوس فإذا ذكر العبد ربّه خنس، فيكون قوله: ﴿من الجنّة والناس﴾ بيان أنّه منهم، كما قال: ﴿إلّا إبليس كان من الجنّ﴾ [(١)] فأمّا ﴿والناس﴾ فعطف عليه كأنّه قيل من الشيطان الّذي هذه صفته والناس الّذين هذه صفتهم.

الثالث: من شرّ ذي الوسواس الخنّاس على العموم، ثمّ يفسّر بقوله ـ عزّ وجلّ ـ من ﴿الجنّة والناس﴾ كما يقال: نعوذ بالله من كلّ مارد: من الجنّ والإنس.

وقوله: ﴿الخنّاس﴾ معناه: الكثير الاختفاء بعد الظهور، خنس يخنس خُنوساً، ومنه قوله: ﴿فلا أُقسم بالخنّس﴾ [(٢)] أي بالنجوم الّتي تخفى بعد ما تظهر بتصريف الحكيم الّذي أجراها على حقّ حسن التدبير، ومنه الخنّس في الأنف لخفائه بانخفاضه عندما يظهر بتنوّه. قال مجاهد: إذا ذكر العبد ربّه خنس، فإذا غفل وسوس إليه.

وقوله: ﴿الّذي يوسوس في صدور الناس﴾ قيل: إنّ الشيطان يعتري الإنسان بكلام خفيّ بفعله يصل مفهومه إلى قلبه من غير سماع صوته، كإنسان يتكلّم من وراء حجاب بكلام يصل مفهومه إلى القلب من غير سماع الصوت، وهذه حالة معقولة تقع عليها الوسوسة. وأمّا الإنسان فإنّما يوسوس غيره بأن يدعوه إلى الفساد ويحسّن ذلك ويغويه به ويسوّفه التوبة ويمنّيه العفو [(٣)].

---

(١) الكهف: ٥٠. (٢) التكوير: ١٥. (٣) راجع النكت والعيون ٦: ٣٧٨ ـ ٣٧٩.

وقوله: ﴿من الجنّة والناس﴾ بيان لمن يكون منه الوسوسة [وقد] بيّن الله تعالى أنّه يكون من قبيل الجنّ ومن قبيل الإنس . والناس أصله من الاناس، فحذفت الهمزة الّتي هي فاء ويدلّ على ذلك الإنس والإناس. وأمّا في تحقيره نويس، فإنّ الألف لمّا كانت ثانية زائدة اشبهت ألف فاعل فلمّا قلبت واواً شبهة بألف فاعل كذلك جازت الإمالة في المواضع الّتي أميل الاسم فيها لذلك[١].

ومن سأل عن قوله: ﴿قل أعوذ بربّ. وقل يا أيّها الكافرون. وسبّح اسم ربّك﴾ وما أشبه ذلك من الأوامر المتوجّهة إلى النبيّ صلى الله عليه وآله فقال: كيف جاز من النبيّ صلى الله عليه وآله أن يقول: قل للأمّة ؟ ولو جاز ذلك لجاز أن يقول الإنسان لغلامه: قل لزيد كذا، فيقول غلامه لزيد: قل كذا. وهذا خلاف[٢] الغرض.

قلنا عنه جوابان:

أحدهما: أنّ الأمر وإن كان متوجّهاً إلى النبيّ صلى الله عليه وآله فالمراد به أُمّته معه، فكأنّه خاطب الجميع بأن يقولوا ذلك وأن يسبّحوا وغير ذلك، فلا سؤال على هذا.

والثاني: أنّ الله تعالى أمر النبيّ صلى الله عليه وآله بأن يفعل الّذي أمره، وأمره أيضاً بتلاوة كلامه، فلمّا كان قوله: ﴿قل﴾ و﴿سبّح﴾ من كلام الله وجب عليه أن يتلوه على وجهه ولو كان مأموراً بالفعل دون التلاوة لما وجب أن يأتي بلفظة ﴿قل﴾ في هذه المواضع كلّها.

وجميع آي القرآن في البصري ستّ آلاف ومأتان وأربع آيات.

وفي المدني الأوّل ستّ آلاف ومأتان وسبع عشرة آية.

---

(١) الحجّة للقرّاء السبعة ٤: ١٦١.

(٢) في الخطّية: ضدّ.

وفي الكوفي ستّ آلاف ومأتان وستّ وثلاثون آية.

وفي المدني الأخير ستّ آلاف ومأتان وأربع عشرة آية.

وجميع ما نزل بمكّة خمس وثمانون سورة على خلاف في ذلك.

وبالمدينة تسع وعشرون سورة على الخلاف

فذلك مائة وأربع عشرة سورة.

وعلى ما رويناه على أصحابنا وعن جماعة متقدّمين مائة واثنتا عشرة سورة.

وعدد جميع كلمات القرآن تسع وسبعون ألفاً ومأتان وسبع وسبعون كلمة. ويقال: سبع وثمانون كلمة. ويقال: تسع وثلاثون كلمة .

وجميع حروفه ثلاثمائة آلاف حرف وثلاثة وعشرون ألفاً وخمسة عشر حرفاً.

وعدد نقطه مائة ألف وستّ وخمسون ألفاً وإحدى وثمانون نقطة.

[تمّ الكتاب بحمدالله ووافق الفراغ من عمله يوم العشرين والواحد من رجب سنة إحدى وأربعين وأربعمائة ووافق الفراغ من تبييضه يوم الأحد الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة...[١] وأربعين وأربعمائة][٢]

---

(١) كلمة غير مقروءة لعلّها «أربع».

(٢) ما بين المعقوفتين أثبتناه من الخطّية.

الفهارس

فهرس السور
فهرس الآيات المستشهد بها
فهرس الروايات
فهرس الأشعار والأرجاز
فهرس المباحث العامّة

فهرس السور

سورة الطور	٣ ـ ٢٢
سورة النجم	٢٣ ـ ٤٦
سورة القمر	٤٧ ـ ٦٨
سورة الرحمن	٦٩ ـ ٩٦
سورة الواقعة	٩٧ ـ ١٢٩
سورة الحديد	١٣٠ ـ ١٥٣
سورة المجادلة	١٥٤ ـ ١٧٤
سورة الحشر	١٧٥ ـ ١٩٢
سورة الممتحنة	١٩٣ ـ ٢٠٨
سورة الصفّ	٢٠٩ ـ ٢١٨
سورة الجمعة	٢١٩ ـ ٢٢٦
سورة المنافقون	٢٢٧ ـ ٢٣٤
سورة التغابن	٢٣٥ ـ ٢٤٥
سورة الطلاق	٢٤٦ ـ ٢٦٣
سورة التحريم	٢٦٤ ـ ٢٧٨
سورة الملك	٢٧٩ ـ ٢٩٦
سورة القلم	٢٩٧ ـ ٣١٨
سورة الحاقّة	٣١٩ ـ ٣٣٩
سورة المعارج	٣٤٠ ـ ٣٦٠
سورة نوح	٣٦١ ـ ٣٧٤
سورة الجنّ	٣٧٥ ـ ٣٩٢
سورة المزّمّل	٣٩٣ ـ ٤٠٤
سورة المدّثّر	٤٠٥ ـ ٤٢٤
سورة القيامة	٤٢٥ ـ ٤٤١
سورة الدهر	٤٤٢ ـ ٤٦١
سورة المرسلات	٤٦٢ ـ ٤٧٧
سورة النبأ	٤٧٨ ـ ٤٩٣
سورة النازعات	٤٩٤ ـ ٥١٢
سورة عبس	٥١٣ ـ ٥٢٦
سورة التكوير	٥٢٧ ـ ٥٣٧
سورة الانفطار	٥٣٨ ـ ٥٤٣
سورة المطفّفين	٥٤٤ ـ ٥٥٧

سورة الانشقاق ٥٥٨ ـ ٥٦٦

سورة البروج ٥٦٧ ـ ٥٧٤

سورة الطارق ٥٧٥ ـ ٥٨٠

سورة الأعلى ٥٨١ ـ ٥٨٧

سورة الغاشية ٥٨٨ ـ ٥٩٥

سورة الفجر ٥٩٦ ـ ٦٠٦

سورة البلد ٦٠٧ ـ ٦١٤

سورة الشمس وضحاها ٦١٥ ـ ٦٢١

سورة الليل ٦٢٢ ـ ٦٢٧

سورة الضحى ٦٢٨ ـ ٦٣٢

سورة الانشراح ٦٣٣ ـ ٦٣٦

سورة التين ٦٣٧ ـ ٦٣٩

سورة العلق ٦٤٠ ـ ٦٤٥

سورة القدر ٦٤٦ ـ ٦٤٩

سورة البيّنة ٦٥٠ ـ ٦٥٥

سورة الزلزال ٦٥٦ ـ ٦٥٩

سورة العاديات ٦٦٠ ـ ٦٦٣

سورة القارعة ٦٦٤ ـ ٦٦٧

سورة التكاثر ٦٦٨ ـ ٦٧٠

سورة العصر ٦٧١ ـ ٦٧٢

سوره الهمزة ٦٧٣ ـ ٦٧٥

سورة الفيل ٦٧٦ ـ ٦٧٩

سورة قريش ٦٨٠ ـ ٦٨٢

سورة الماعون ٦٨٣ ـ ٦٨٦

سورة الكوثر ٦٨٧ ـ ٦٨٩

سورة الكافرون ٦٩٠ ـ ٦٩٥

سورة النصر ٦٩٦ ـ ٦٩٧

سورة اللهب ٦٩٨ ـ ٧٠٠

سورة الإخلاص ٧٠١ ـ ٧٠٤

سورة الفلق ٧٠٥ ـ ٧٠٧

سورة الناس ٧٠٨ ـ ٧١٢

فهرس الآيات المستشهد بها

رقم الآية		الصفحة
	البقرة (٢)	
٢	ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتّقين	١٠ و ٥٠٤
٢٢	الّذي جعل لكم الأرض فراشاً	١٠٨
٢٤	وقودها الناس والحجارة	٥٦٩
٩٨	من كان عدوّاً لله وملائكته ورسوله وميكال فإنّ الله عدوّ...	٩٣
١١١	قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين	٥٩٤
١٨٥	يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر	٤٦١
١٨٩	يسألونك عن الأهلّة قل هي مواقيت للناس والحجّ	٤٦٦
٢٥٥	ولا يحيطون بشيء من علمه إلّا بما شاء	٢٦٢ و ٥٣١
٢٦٠	فصرهنّ إليك	٥٤٠
٢٨٢	وأشهدوا إذا تبايعتم	٢٥٢
	آل عمران (٣)	
٧	فأمّا الّذين في قلوبهم زيغ فيتّبعون ما تشابه منه	٣٠
١٨	شهد الله انّه لا إله إلّا هو	١٦٢

١٩	انّ الدين عند الله الإسلام	١٢٧
٥٩	خلقه من تراب	٧٦
٧٧	ولا ينظر إليهم يوم القيامة	٤٣٥
١٠٢	فاتّقو الله حقّ تقاته	٢٤٣
١٠٦	يوم تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه	٨٦و٥٢٦
١٠٨	وما الله يريد ظلماً للعالمين	٥٧٣
١٢٥	مسوّمين	٨٥
١٥٩	ولو كنت فظّاً غليظ القلب لا نفضّوا من حولك	٥١٥
١٧٠	فرحين بما آتاهم الله من فضله	١٤٧
١٨٦	لتبلونّ	٦٧٠
١٨٨	لا تحسبنّ الّذين يفرحون بما أتوا ويحبّون أن يحمدوا بما ...	١٢٦
١٩٠	لآيات لأُولى الألباب	٥٩٣

النساء (٤)

٢	ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم	٢١٧
٣	فانكحوا ما طاب لكم من النساء	٦١٨
٣٠	ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفّر عنكم سيّئاتكم	٣٧
٤٠	لا يظلم مثقال ذرّة	١٩١
٤١	فكيف إذا جئنا من كلّ امّة بشهيد وجئنابك على هؤلاء شهيداً	٥٦٨
٧٨	ولو كنتم في بروج مشيّدة	٥٦٨
١٣٦	يا أيّها الّذين آمَنوا آمِنوا	٢١٥
١٣٩	حتّى يخوضوا في حديث غيره	٤٧٩
١٥٤	ورفعنا فوقهم الطور	٤

المائدة (٥)

١	يا أيّها الّذين آمنوا أوفوا بالعقود	٢١٠
٢	وإذا حللتم فاصطادوا	٣٢٩ و٤٤٨
٦	إذا قمتم إلى الصلاة	٢٤٧
١٣	ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلّا قليلاً منهم	٤٦
٦٦	ولو أنّهم أقاموا التوراة والإنجيل وما انزل إليهم من ربّهم ...	٣٨٥
١٠٩	يوم يجمع الله الرسل	٤٦٦

الأنعام (٦)

٣	وهو الله في السماوات وفي الأرض يعلم سرّكم وجهركم	٢٩٠
٥٢	ولا تطرد الّذين يدعون ربّهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه	٥١٥
٧٦	جنّ عليه الليل	٢٩٩
٩٥ و٩٦	فالق الإصباح * فالق الحبّ والنوى	٧٠٥
١٠٩	وما يشعركم أنّها إذا جاءت لا يؤمنون	١٥٣
١٢٥	فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن ...	٦٣٤
١٥١	ولا تقتلوا أولادكم من إملاق	٥٣٠

الأعراف (٧)

١٢	ما منعك أن لا تسجد	١٥٣
٤٤	ونادى أصحاب الجنّة أصحاب النار	٦٣٥ و٦٩٢
٥٤	استوى على العرش	٢٥
٩٦	ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتّقوا لفتحنا عليهم بركات من...	٣٨٦
١٨٧	لا يجلّيها لوقتها إلّا هو	٤٦

الأنفال (٨)

٣٣ اللّهمّ إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة... ٣٤٢
٤١ واعلموا إنّما غنمتم... ١٨٠

التوبة (٩)

٦ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ٢٠١
٣٠ قاتلهم الله أنّى يؤفكون ٦٩٩
٨٢ فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً ٤٠
١٠٦ إمّا يعذّبكم وإمّا يتوب عليهم ٤٤٥
١١٤ فلمّا تبيّن له أنّه عدوّ الله تبرّأ منه ١٩٨

هود (١١)

١٧ ويتلوه شاهد منه ٢٦٠
٣٦ أنّه لن يؤمن من قومك إلّا من قد آمن ٣٧٣
٦٧ جاثمين ٣٢١
٦٨ ألا إن ثمودَ كفروا ربّهم ألا بعداً لثمود ٤٥٠
١٠٣ ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ٥٦٨
١٠٧ خالدين فيها مادامت السماوات والأرض إلّا بما شاء ربّك ٥٨٤

يوسف (١٢)

٣١ ما هذا بشراً ١٥٥
٧٦ في دين الملك ٦٩٧
١٠٩ وما أرسلنا من قبلك إلّا رجالاً نوحى إليهم من أهل القرى ٣٧٩

الرعد (١٣)

٣ إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون ٤١٢
٧ إنّما أنت منذر ولكلّ قوم هاد ٥٠٧
١٩ إنّما يتذكّر أُولو الألباب ٥١٦
٣١ ولو أنّ قرآناً سيّرت به الجبال ١٤٩

إبراهيم (١٤)

٢٥ تؤتى أُكلها كلّ حين ٤٤٤

الحجر (١٥)

٦ يا أيّها الّذي نزّل عليه الذكر إنّك لمجنون ٢٩٩
٩ انّا نحن نزّلنا الذكر ٢٥٩
٢٦و٢٨و٣٣ من حمأ مسنون ٧٦

النحل (١٦)

١١ و٦٩ آية لقوم يتفكّرون ٥٩٣
١٣ آية لقوم يذّكّرون ٥٩٣
٣٨ وأقسموا بالله جهد أيمانهم ١١٢
٤٣ فاسألوا أهل الذكر ٢٥٩
٦٧ إن في ذلك لآية لقوم يعقلون ٥٩٣
٦٨ وأوحى ربّك إلى النحل ٢٥
١٢٥ وجادلهم بالّتي هي أحسن ٥٩٤

الإسراء (١٧)

١٤	اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً	٤٣١
٤٤	وإن من شيء إلّا يسبّح بحمده	١٣١
٤٧	وقال الظالمون إن تتّبعون إلّا رجلاً مسحوراً	٧٠٧
٥٩	وآتينا ثمود الناقة	٤٢
٨٨	فأيّدنا الّذين آمنوا على عدوّهم فأصبحوا ظاهرين	١٣٢
٩٢	أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً	٢١
٩٣	ولن نؤمن لرقيك حتّى تنزل علينا كتاباً نقرؤه	٤٢٤
١١٠	ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها	٥٨٤

الكهف (١٨)

١٨	وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد	٦٧٥
٢٩	فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر انّا اعتدنا للظالمين...	٤٤٦ و ٤٧١
٣١	يحلّون فيها من أساور من ذهب	٤٥٨
٣٣	وفجّرنا خلالهما نهراً	٥٣
٤٩	ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها	٦٥٨
٥٠	إلّا إبليس كان من الجنّ	٧١٠
٦٠	أو أمضي حقباً	٤٨٥
٧٩	أمّا السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر	٤٢١

مريم (١٩)

١١	فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيّاً	٢٥
٩٠	تكاد السماوات يتفطّرن منه	٢٨٣

طه (٢٠)

١١	ولا يحيطون به علماً	٢٦٢
٥٥	منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أُخرى	٣٦٩
٨٩	أن لا يرجع إليهم	٣٨٥
٩٦	بصرت بما لم يبصروا به	٣٤٦
١٠٧	لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً	٦٠٣
١١٩	وإنّك لا تظمؤا فيها ولا تضحى	٦٢٨

الأنبياء (٢١)

٧	إنّا نحن نزّلنا الذكر	٢٥٩
٢٨	لا يشفعون إلّا لمن ارتضى	٤٩١
٣٠	وجعلنا من الماء كلّ شيء حيّ	٣٢٥ و٥٠٦
٣٧	خلق الإنسان من عجل	٤٤٣
٨٧	لا إله إلّا أنت سبحانك إنّي كنت من الظالمين	٣١٦
٩١	فنفخنا فيها من روحنا	٢٧٧
٩٢	امّة واحدة وأنا ربّكم فاعبدون	٣٨٧
٩٥	وحرام على قرية أهلكناها انّهم لا يرجعون	١٥٣

الحجّ (٢٢)

٢	يوم ترونها تذهل كلّ مرضعة عمّا أرضعت وتضع كلّ ذات...	٥٣٧
١٩	يصبّ من فوق رؤسهم الحميم	١١١
٢٣	يحلّون فيها من أساور من ذهب	٤٥٨

المؤمنون (٢٣)

٩	والّذين هم على صلواتهم يحافظون	٣٥١
١٤	فتبارك الله أحسن الخالقين	٤٤٥

النور (٢٤)

١	سورة أنزلناه	٧٠
٢٤	يوم تشهد عليهم	٤٣١
٦١	فإذا دخلتم بيوتاً فسلّموا على أنفسكم	١٨٩

الفرقان (٢٥)

٨	وقال الظالمون إن تتّبعون إلّا رجلاً مسحوراً	٧٠٧
٢٥	يوم تشقّق السماء بالغمام	٣٤٤
٥٩	استوى على العرش	٢٥
٦٥	أنّ عذابها كان غراماً	١٩ و١١٨ و٣١٥
٦٨	ومن يفعل ذلك يلق أثاماً	٦٥٣

الشعراء (٢٦)

١٤٨	ونخل طلعها هضيم	١٠٦
١٤٩	وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين	٥٩٩
١٥٥	لها شرب ولكم شرب يوم معلوم	٦٢٠

النمل (٢٧)

٣٥	وإنّي مرسلة إليهم بهديّة فناظرة	٤٣٤
٦٤	قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين	٥٩٤
٦٧	أئذا كنّا تراباً وآباؤنا	٢٦

القصص (٢٨)

٨ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوّاً وحزناً ٤١٧

٣٨ ما علمت لكم من إله غيري ٥٠٣

العنكبوت (٢٩)

٦٧ أو لم يرو انّا جعلنا حرماً آمناً ٦٣٨

الروم (٣٠)

١٧ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ٤٤٤

٢١ إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون ٤١٢

لقمان (٣١)

٢٨ ما خلقكم ولا بعثكم إلّا كنفس واحدة ٢٣٩

٣٤ إنّ الله عنده علم الساعة ٢٩٣

السجدة (٣٢)

٤ استوى على العرش ٢٥

٥ يدبّر الأمر من السماء إلى الأرض ثمّ يعرج إليه في يوم كان ... ٣٤٣

الأحزاب (٣٣)

٥٣ غير ناظرين إناه ٨٦ و ١٤٢

٦٠ لئن لم ينته المنافقون والّذين في قلوبهم مرض والمرجفون... ٣٨٥

٧٢ انّا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين... ٣٥٥

فاطر (٣٥)

٣٣	يحلّون فيها من أساور من ذهب	٤٥٨
٤٥	ما ترك على ظهرها	٤٣٧

الصافات (٣٧)

١١	من طين لازب	٧٥
٢٤	وقفوهم انّهم مسؤولون	٨٥
٩٩	إنّي ذاهب إلى ربّي	٣٤٣
١٤٧	وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون	٢٧

الزمر (٣٩)

٤	لو أراد الله أن يتّخذ ولداً لاصطفى ممّا يخلق ما يشاء	٣٢
٩	إنّما يتذكّر اولو الألباب	٥١٦
٢٢	أفمن شرح الله صدره للإسلام	٦٣٤
٢٣	الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً	١٢٤
٤٢	إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون	٤١٢
٦٤	أفغير الله تأمرونّي	٦٨١ و ٦٩١
٧٣	حتّى إذا جاؤها وفتحت أبوابها	٥٦٠

مؤمن (٤٠)

١١	قالوا ربّنا أمّتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل...	٤٧٣
٥٢	لا ينفع الظالمين معذرتهم	٤٣٢

فصّلت (٤١)

٤٠ اعملوا ما شئتم ٦٩٤
٥٠ ولئن رجعت إلى ربّي إنّ لي عنده للحسنى ٢٠

الزخرف (٤٣)

٣٣ ولولا أن يكون الناس أُمّة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن ... ٣٨٦
٤٤ وإنّه لذكر لك ولقومك ٢٦٠

الدخان (٤٤)

٤ فيها يفرق كلّ أمر حكيم ٦٤٧
٤٧ خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ٣٠٢

الجاثية (٤٥)

١٣ إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون ٤١٢

الأحقاف (٤٦)

٢٤ عارضا مستقبل أو ديتهم ٥٠٧

محمّد (٤٧)

١٥ من خمر لذّة للشاربين ٤٥٨
٢٤ أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها ٥٩٤

الفتح (٤٨)

٢٩ سيماهم في وجوههم من أثر السجود ٨٥

الذاريات (٥١)

١٠	قتل الخرّاصون	٤١٢
٥٥	فإنّ الذكرى	٣٢ و٥١٦ و٥٩٣

الطور (٥٢)

٦	البحر المسجور	٥٣٠
٢٣	لا لغو فيها ولا تأثيم	٥٩١

النجم (٥٣)

٣٩ ـ ٤٠	وأن ليس للإنسان إلّا ما سعى وأنّ سعيه سوف يرى	٢٢٤
٦٠	أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون	٤٠

القمر (٥٤)

٤٧	إنّ المجرمين في ضلال وسعر	٣٧٢

الرحمن (٥٥)

٢٤	وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام	٣٢٤
٢٧	ويبقى وجه ربّك	٤٤٩
٤١	يعرف المجرمون بسيماهم	٣٤٦
٧٨	تبارك اسم ربّك ذي الجلال والإكرام	٦٤١

الواقعة (٥٦)

٢	ليس لوقعتها كاذبة	٤٦

١٤ وقليل من الآخرين ١١٠

الحديد (٥٧)

٤ استوى على العرش ٢٥

المجادلة (٥٨)

٦ أحصاه الله ونسوه ٥٣٢

الحشر (٥٩)

٢ فاعتبروا يا أُولي الأبصار ٥٩٤
٢٣ الجبّار المتكبّر ٤١٣

الصفّ (٦١)

٥ فلمّا زاغوا أزاغ الله قلوبهم ٣٠
٨ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متمّ نوره ولو كره الكافرون ٣٨٨
١٤ فأيّدنا الّذين آمنوا على عدوّهم فأصبحوا ظاهرين ١٣٢

المنافقون (٦٣)

٤ قاتلهم الله أنّى يؤفكون ٦٩٩

التحريم (٦٦)

٦ وقودها الناس والحجارة ٥٦٩

الملك (٦٧)

٥ ولقد زيّنّا السماء الدنيا بمصابيح وجعلنا رجوماً للشياطين ٣٨١
٨ تكاد تميّز من الغيظ ٣٤٩

القلم (٦٨)

٤ على خلق عظيم ٥١٥
١٣ عتلّ بعد ذلك ٥٠٥
٤٠ سلهم أيّهم بذلك زعيم ٢٨١
٤٢ يدعون إلى السجود فلا يستطيعون ٤٧٧

الحاقّة (٦٩)

١١ لما طغى الماء ١٦ و٦٩١
٢١ عيشة راضية ٦٣٦
٢٥ يا ليتني لم أُوت كتابيه ٤٩٣
٥٢ فسبّح باسم ربّك ٦٤١

نوح (٧١)

١٧ أنبتكم من الأرض نباتاً ١٠٥ و٢٨٦ و٣٩٧ و٥٨٠

الجنّ (٧٢)

١٦، ١٨، ١٩ وأن لو استقاموا. وأنّ المساجد لله. وأنّه لمّا قام عبدالله ٣٧٦

المزّمّل (٧٣)

٢٠ علم أن سيكون منكم مرضى ٣٨٥ و٤٥٩

المدّثّر (٧٤)

١٧ سأُرهقه صعوداً ٣٨٧

القيامة (٧٥)

٣١ فلا صدّق ولا صلّى ٦١١

الإنسان (٧٦)

٣ انّا هديناه السبيل إمّا شاكراً وإمّا كفوراً ٥٢٠

المرسلات (٧٧)

٦ عذراً أو نذراً ٥٥

١١ وإذا الرسل اقّتت ٣٧٦

النازعات (٧٩)

٣٤ الطامّة ٣٢٠

٣٦ وبرّزت الجحيم لمن يرى ٤١٥

عبس (٨٠)

٣٣ الصاخّة ٣٢٠

التكوير (٨١)

١٥ فلا أُقسم بالخنّس ٧١٠

الانفطار (٨٢)

٢ وإذا الكواكب انتثرت ٢٤

المطفّفين (٨٣)

٣٤ فاليوم الّذين آمنوا من الكفّار يضحكون ٤٠

البروج (٨٥)

٤ ـ ٥ قتل أصحاب الاخدود. النار ٥٢٢

الطارق (٨٦)

٦ ماء دافق ٤٩٨

الغاشية (٨٨)

٦ ليس لهم طعام إلّا من ضريع ٣٣٤

٢٢ لست عليهم بمصيطر ١٨

البلد (٩٠)

١٤ ـ ١٥ أو إطعام في يوم ذى مسغبة يتيماً ٥٥٤

الليل (٩٢)

٤ إنّ سعيكم لشتّى ٢٢٤

١٤ فأنذرتكم ناراً تلظّى ٣٤٨

التين (٩٥)

٣ وهذا البلد الأمين ٦٠٨

٤ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ٢٣٧

٦ أجر غير ممنون ١٤

العلق (٩٦)

١٥ لنسفعاً بالناصية ٨٦

القارعة (١٠١)

٧ عيشة راضية ٦٣٦

١٠ وما أدراك ماهية ٣٣٢

العصر (١٠٣)

٢ إنّ الإنسان لفي خسر إلّا الّذين ٣٥١

الكوثر (١٠٨)

٣ إنّ شانئك هو الأبتر ١٤٦

فهرس الأحاديث

أحاديث النبيّ صلى الله عليه وآله:

عن النبيّ: إذا أقبل... أفطر الصيام ٤١٤

عن النبيّ: إذا قرأ أحدكم والتين والزيتون فأتى على آخرها فليقل: بلى ٦٣٩

عن النبيّ: العين وكاء الجسد ٨٩

عن النبيّ: اللّهمّ اشدد وطأتك على مضر ٣٠٤ و ٣٩٤

عن النبيّ: أما ترضون أن يرجع الناس... وترجعون برسول الله ١٨٤

عن النبيّ: الوضوء شطر الإيمان ٦٥٤

عن النبيّ: انّه قال حين نزلت «وتعيها أُذن واعية» اللّهمّ اجعلها أُذن عليّ، قال عليّ عليه السلام: فما سمعت شيئاً من رسول الله فنسيتها ٣٢٥

عن النبيّ: انّه قال للّذي ظاهر: أطعم ستّين مسكيناً وراجع زوجتك ١٦٠

انّه قال للمشركين: لقد نهاني ربّي أن أُحدّثكم ٤٧٩

انّه كان إذا ختم سورة القيامة يقول: سبحانك الله بلى ٤٤١

انّ الله بعثني للخلق عامّة ولكم خاصّة... ٦٩٩

إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي ٨١

إنّي لأرجو أن تكون أُمّتي شطر أهل الجنّة ١١٠

تمدّ الأرض يوم القيامة مثل الأديم ٥٥٩

عن النبيّ: حسبك من نساء العالمين أربع... ٢٧٧
عن النبيّ: حين نزلت «فسبّح باسم ربّك العظيم» قال: اجعلوها في ركوعكم ٣٣٩
شيّبتني هود وأخواتكم ٥٣٧
ضعوها في ركوعكم، يعني «فسبّح باسم ربّك العظيم» ١٢٩
عند أوّل وحي نزل: جاوزت بحراء فنوديت... ٤٠٥
عن النبيّ: في معنى «يوم كان مقداره خمسين ألف سنة» أنّه قال: والّذي بعثني بالحقّ نبيّاً انّه ليخف على المؤمن حتّى يكون أخفّ من صلاة مكتوبة... ٣٤٤
لا تحلّ الصدقة لغنيّ ولا لذي مرّة سوي ٢٥
لا نذر في معصية ٤٤٨
لا نفقة للمبتوتة ٢٥٥
روي أنّه لَما نزلت «سبّح اسم ربّك الأعلى» قال: ضعوها في سجودكم ٥٨٢
لو كان شيء سابق القدر سبقته العين ٣١٨
حديث رسول الله مع من أراد اعلام المشركين بالعزم على فتح مكّة ١٩٤
عن النبيّ: من نوقش بالحساب هلك ٥٦١
عن النبيّ: «نوح» لوح من نور ٢٩٨
يا عليّ انّ الله أمرني أن أُدنيك ولا أقصيك... ٣٢٥
يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب ٢٥٧
عن النبيّ: يحمل العرش ثمانية أملاك ٣٢٧

أحاديث عليّ عليه السلام:

عن عليّ عليه السلام: الخنّس النجوم ٥٣٣
عن عليّ عليه السلام: أنّ أصحاب الأُخدود كانوا من المجوس ٥٦٩

عن عليّ عليه السلام: القرآن لا يهاج اليوم ولا يحول ١٠٦
عن عليّ عليه السلام: انّ البيت المعمور يدخل فيه كلّ يوم سبعون ألف ملك ٤
عن عليّ عليه السلام وأبي جعفر وأبي عبدالله: في معنى «انحر» ٦٨٨

أحاديث أبي عبدالله عليه السلام:

روى جعفر عليه السلام: إنّ النبيّ أمر بلالاً أن ينادي بمنى إنّها أيّام أكل وشرب ١١٤
عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام: «إنّ ناشئة الليل» هو القيام إلى صلاة الليل ٣٩٦

الأحاديث المرفوعة:

روت العامّة والخاصّة: أنّ «صالح المؤمنين» هو عليّ عليه السلام ٢٧٠
روت العامّة والخاصّة: أنّ «ويطعمون الطعام على حبّه...» نزلت في عليّ
وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام ٤٤٩
روي في الخبر: انّ في الجنّة شجرة يسير الراكب في ظلّها مائة سنة ١٠٧
في خبر مرفوع: انّهنّ كنّ عجائز رمصا في الدنيا ١٠٩
روي أن قيس بن عاصم جاء النبيّ فقال: إنّي وأدت... فقال... ٥٣٠
حديث مجادلة المرأة للنبيّ في زوجها ١٥٦

فهرس الأشعار والأرجاز

صدر البيت	القافية	الشاعر	الصفحة
	[الألف]		
انى	سطرا	رؤبة	٤
فتوسطا	قُلاّمها	لبيد	٥ و ٥٣٠
إذا	سما	النمر بن تولب العكلى	٥
ابلغ	كذبا	...	١١
وباتت	جمودها	الراعي	٢٤
فمن	لائما	...	٢٤
ولا شمطاء	جنينا	الحارث	٣٧
فأقنيت	ديارا	الاعشى	٤٢
بان	خلفا	كعب بن زهير	٤٥
قيل	السمودا	...	٤٦
إن	الشواظا	رؤبة	٨٢

يضئ	نحاسا	النابغة الجعدى	٨٣
بخيل	ويستعلوا	زهير	٩٥
لا تخبزا	حبسا	لص من غطان	٩٩
ومن	فعيرا	الاعشى	١٠١
إذا	والعيونا		١٠٣
متلقدا	ورمحا	...	١٠٣
لعمرى	أبجرا	الأبرد	١٠٤
بشّرها	الجبالا	الحارثي	١٠٧
يوم	غراما	الراجز	١١٨
أبا هند	اليقينا	عمرو ابن أُمّ كلثوم	١٣٩
قعدت	امامها	لبيد	١٤١
والناظرات	لمّحا	الراجز	١٨٣
مكبّا	أهيما	الأعشى	٢٩٣
ناج	احقوقفا	العجّاج	٢٩٤
والدهر	جَذعا	ذوالأصبع	٣٠٢
أبني حنيفة	أغصبا		٣١١
قد شمّرت	فُجدّوا		٣١٣
علفتها	بارداً	...	٣٣٤
يالهف	جلا	امرؤ القيس	٣٣٤
دع	ما فعلا	...	٣٤١
لأنعتن	الإفاضا	الفرّاء	٣٦٠
وذا	فاعبدا	الأعشى	٣٦٠

إذا ما	والعيونا	...	٣٧٩
لا شيء	رهقاً	الاعشى	٣٨٠
فأقسم	مدفعا		٣٨٦
صابوا	لُبدا	عبد مناف بن ربع	٣٨٨
إذا	العُنّدا		٤١١
وقد	بسورها	توبة	٤١٣
وفارقتك	غلقا	زهير	٤٢٠
ذِراعي	جنينا	عمرو بن كلثوم	٤٣٣
وما النفس	غديرها		٤٤٤
صددت	اليمينا	...	٤٤٧
فبانت	مستطيرا	الاعشى	٤٤٨
كأن	مَشوراً	...	٤٦٠
من كل	مختالا	الأخطل	٤٦٠
وأنكرتني	الصلعا	الاعشى	٤٦٩
وكنّا	يتصدعا	الاعشى	٤٨٥
لقد طال	شقائيا		٤٨٨
أمست	واسطاً	هيبان بن قحافة	٤٩٥
فَغُضّ	لا كلابا		٥١٠
نحن	سَرارها	بعض بني عقيل	٥١٢
عوى	استثارا	الفرزدق	٥٢٣
وكنت	سفورها	توبة بن الحمير	٥٢٥
حتّى	عسعسا	علقمة بن قرط	٥٣٤

لم يُغرّوكم	والضُحاء	الحارث بن حلّزة	٥٤٠
ضرباً	سجّينا	أبو عبيدة	٥٤٨
فاصبحت	الوا بِلينا		٥٥١
صُمٌّ	أذِنوا	...	٥٥٩
لِمعفَّر	طعامها	لبيد	٥٦٦
ما نقموا	غضبوا		٥٧٠
أحادث	دما		٦٠٠
ولا ألوم	تسخَرا	...	٦٠٧
فما ذنبنا	الدعا مصا	الاعشى	٦٢٩
قلائص	قَفرا	ذو الرمة	٦٥١
عصراً	المعذلجا	العجاج	٦٧١
ولن	تيمّما	...	٦٧٢
ضربا	سجيلا	ابن مقبل	٦٧٨
يُمُجّ	صبّا		٦٨٦
فألفيته	قليلاً		٧٠١

[الهمزة]

فتنوّرت	الصلاء	الحارث بن حلّزة	١٢٠
أمن	سواء	حسان	١٥١
بادت	هباءِ		٢٦٠
ومشجَّج	المعزاء		٢٦٠
وصلى	لهاء		٣٣٢

وإذا	نعماء	جميل بن معمّر	٤٣٥
ثمّ لمّا	باتّقاء	أبو زبيد الطائي	٥٤٩

[الباء]

أبرزوها	أتراب	عمر بن أبي ربيعة	١٠٩
كليني	الكواكب	النابغة	٣٢٩ و٦٦٦
سَالتْ	لم تُصب		٣٤١
أهاجك	منصب	بشر ابن أبي حازم	٣٦٠
عَجْزاء	القُصب	ذو الرمة	٣٧١
فلست	يصوب	...	٤١٦
أمسك	لغربّ	الفرّاء	٤١٩
صفراء	الصيّب	يونس	٤٥٤
وكلّ	لا يؤوب	عبيد	٤٩٢
لَمياء	شَنَب	ذو الرمّة	٥٨٣
وكلّ	لا يؤوب	عبيد	٥٩٥
طَحَا	طروبُ	علقمة	٦١٧
تعنّاك	مُنصب	...	٦٣٦
تَعدُّ	الحباجِب	النابغة	٦٦١

[التاء]

ولقد	الملكات		٩٣
ونجزى	أزلّت		١٣٨
أقبل	المغلّة		٣٠٦

وحى	فاستقرّت	العجاج	٣٧٦ و٦٥٨
كانّ	تَبلت		٣٩٧
انّ	وقيت	رؤبة	٤٥١
فإنّما	الحافرة		٤٩٩
وما أدع	مشيتُ		٥١٨
وقالت	طاعة	...	٦٥٨
تُدلي	اللمزة	زياد الأعجم	٦٧٤

[الجيم]

تربص	سيحتج	...	١٥
نحن	بالفرج	الراجز	٣٠٠
يطرحن	أمشاج	رؤبة	٤٤٥
كأنّ	مشيج	أبو ذؤيب	٤٤٥
شربن	نئيج	الفرّاء	٤٤٧
يا حبّذاء	النسّاج	الراجز	٦٢٩

[الحاء]

من	لا براح	سيبويه	٩
كتفت	الصراح	جَدّ أبي طرفة	٣١٣
وجوه	بالفلاح		٤٣٤
فلمّا	جنح		٤٨٢
تصيح	للصباح	بعض بنى عقيل	٥٣٦
وما الدهر	أكدَح	تميم بن مقبل	٥٦١

[الدال]

أزف	كأن قد	النابغة الذبياني	٤٥
وشباب	معد	...	٥١
غلب	ممدود	لبيد	١٠٧
وأنت	الفرد	حسان	٣٠٢
أسود	الأساوِد	الأشهب بن رميلة	٣٠٧
يقلن	الجليد	...	٣٤٩
فمرّت	يلَندد	طَرفة	٤٠١
أمّا الفقير	له سبد	...	٤٢٢
فيصدني	البردُ	الكندي	٤٨٦
أعاذل	المتردّد	طرفة بن العبد	٥٠١
دار	أمجد	أُميّة بن أبي الصلت	٥٠٥
يصيخ	للمنشد	...	٥٢٤
ومنّا	تواأذ	الفرزدق	٥٣١
كأن	مؤيّد	طرفة	٥٣٣
يا عين	كبد	لبيد	٦٠٩
أحدث	المعتاد	الاعشى	٦٦٢
كأنّ	وَحد	النابغة	٧٠٢
ألا بَكّر	الصمد	الأسدي	٧٠٣
ولا رهينة	الصمد	الزبرقان	٧٠٣
لا تقذفنّي	بالرفِد	النابغة	٧٠٤

[الراء]

راح	منهمر	امرؤ القيس	٥٣
مستقبلين	منتور	الفرزدق	٦٤
سماء	دِرَر	النمر بن تولب	٧٤
جئني	سيّار	...	١٠٣
وفى	البصر	لبيد	١٠٩
أقوى	موّار	...	١٢١
لا وأبيك	أفرّ	امرؤالقيس	١٢٢
إنّي	التسطير	رؤبة	٢٩٨
أأزمعت	تزارا	الأعشى	٣٥٨
وما نبالي	ديّار	...	٣٧٣
دَئمة	وتَدرّ	امرؤ القيس	٣٨٥
ألكني	الخبر	الهذلي	٤١٦
لعمرك	والكِبر	ابن الدمينة	٤٣٠
تخبّرني	الشزر		٤٣٦
بني عمّنا	قماطر		٤٤٩
ترى	للحوافر		٤٦٣
يَحل	افتقار	...	٤٦٣
كأنه	أحجار	الأخطل	٤٧٢
لو أسندتْ	قابر	الاعشى	٥٢٠
ابصر	فانكدر	العجّاج	٥٢٨
في سماع	مُشار	عدي بن زيد	٥٥٩

والزعفران	والصدر		٥٧٧
إلى الحول	اعتذر	...	٥٨٢
وَغررتني	تامِر	الحطيئة	٥٩١ و٦٦٦
يبكى	مسرور		٦١٣
تقضّى	كسر	...	٦١٩
يروح	والأجر	العجاج	٦٧٢
أبا حكم	المتناحر		٦٨٨

[السين]

وبلدة	العيس		٣٦

[السين]

أحافرة	وطيش		٤٩٨

[الضاد]

يمشي	فاض	رؤبة	٣٥٩

[العين]

قد أصبحت	أصنع	الراجز	١٣٤
إذا	لا ينفع	الراجز	٣٢٤
وإنّي	أتقنّع	ابن عبّاس	٤٠٧
لمّا	الخُشَع		٤٩٧
جِذْمنا	والمَكْرع		٥٢٣

[الفاء]

ألم	المتقصف	الفراء	٢٦
[وحتّى]	المصاحف		٤٥١

[القاف]

ثمّ استوى	مهراق	البعيث	١٣٢
طراق	يترقرق	ذو الرمة	١٧٨
خشرج	نهق	رؤبة	٢٨٥
أما والله	العتيق	...	٣٨٦
لما أتاني	فبرق	أبو عبيدة	٤٢٨
نغاني	العشرِق	الفرّاء	٤٢٨
يلذّه	الدهاق	...	٤٩٠
تنشّط	الوهق	رؤبة	٤٩٦
ومسد	زاهق	الراجز	٧٠٠
وَسوسَ	العُقُق	رؤبة	٧٠٩

[اللام]

كان	عجل	أبو عبيدة	٦
ترى	الجدل	...	٥١
من كل	مجهول	كعب بن زهير	٦٣
وانبسّ	الاهيل		٩٩
فإن	بالجهل		٢٢٣

فمثلك	مُحوِل	امرؤالقيس	٢٣٢
أطفت	الرخال	الفرّاء	٣٠٥
ألا أيّها	بأمثل	امرئ القيس	٣٤٤
أحمّ الله	الحلال		٣٤٥
وأرانى	كالمختبل		٣٤٩
لم يمنع	أو قال	...	٣٥٢
اخليفة	فَلُولا	الراعى	٣٥٧
إذا	عوامل	أو ذؤيب	٣٦٧
كأنّ	مزّمّل	امرء القيس	٣٩٤
إذا	عوامل	الهذلي	٤٨٧
يَسقون	السلسل	حسّان	٥٥٣
وما يدرى	يعيل		٦٣١
لعاب	عواسل	...	٦٤٢
فعيناك	عاطل	ذو الرمة	٧٠٠
تسمعُ	زُجل	الاعشى	٧٠٩

[الميم]

صلّى	ارتسم	...	٧
إذ	السموم	الراجز	١٤
لا يحرز	السلاليم	ابن مقبل	١٨
فان	راغم	الأخفش	٣٢
تسفى	مطموم	علقمة بن عبدة	٧٤

إذا	حكم	جرير	٧٩
ولما	نهيم	...	١٩٤
ومن	بسُلّم	زهير	٢٢٤
زنيم	لئيم	...	٣٠٢
ألا بكرت	الصريم	أبو عمرو بن العلا	٣٠٥
تطاول	صريم	أبو عمرو بن العلا	٣٠٥
فاذشمرت	لا تسأم	زهير بن جزيمة	٣١٣
يوم	عُراما		٣١٥
يتلاحظون	الأقدام		٣١٧
يتعارضون	لأقدام	...	٣١٨
غضبوب	الأكم	الاعشى	٣٣٣
فإذ	لا تسأم		٤٣٨
أم هل	مشكوم		٤٤٣
أو مِسحل	وكلُوم	...	٤٨٦
وفيها	مقيم	أُميّة بن أبي الصلت	٤٩٨
فبِتن	الختام	الفرزدق	٥٥١
قَرحاء	البراعيم	ذوالرمّة	٥٨٣
عن اللغا	التكلّم	...	٥٩١
أتاك	غَشَمشم	النابغة	٥٩٩
فلمّا	المتخيّم	زهير	٦٠٣
اعجلها	السلم		٦١٦
ومستعجب	يترمرم		٦٤٥

كأن	يُحطم	زهير	٦٦٥
بأجود	تَغم	الاعشى	٦٨٥
هما نفَثا	رجام	الفرزدق	٧٠٦

[النون]

صليفية	ودن	الاعشى	١٠٤
وهى	مكنون	عمر بن أبي ربيعة	١٠٥
ظهراهما	الترسين	الراجز	٢٦٩
إذا ما	باليمين	...	٣٣٧
إذا	الوتين	الشماخ بن ضرار الثعلبي	٣٣٨
ومخلّدات	الكثبان	...	٤٥٤
أيّها القلب	وأذَن	عدّي بن زيد	٥٥٩
ومن	غُضون	المثقّب	٥٧٧
فإنّ	معنٍ		٦٨٥

[الهاء]

وكذبتني	كذابه		٢٨
هذا	الحافيه		٨٩
للفتى	قدمُه	...	٣١٣
قالت	شُواته	الاعشى	٣٤٨
إذا	فواضله		٤٧٠
قد كنت	ميزانه		٦٦٦

[الياء]

نازعتهم	الساري	الأخطل	١٢
حتى	ألماني		٤١
فيّ	بلادقي	...	٨٦
ان يعاقب	لا يبالى	الاعشى	١١٨
قى	قيّ	الراجز	١٢١ و ٦٤٤
لو كان	مكلمي	عنترة	١٥٧
ورفعت	ثيابي	قيس بن جعدة	٣١٧
فلا ترمى	مكاني		٣٢٦
أطربا	دوّاري		٣٤٩
لو بغير	اعتصاري	...	٤٠٠
وكأنّها	فتعيّ	الفرّاء	٤٤١
الشاتمي	دمي	عنترة	٤٤٨
ينفى	داحى	أوس بن حجر	٥٠٥
لم نرو	أمسى معي	الراجز	٥٤٩
أبيضُ	يختلي	أبو عبيدة	٦٧٨
ألم	أميني		٦٣٨
أمتلا	بطني		٦٥٨

فهرس المباحث العامّة

أدلّة على بطلان قول المجبّرة ٦١، ٢٣٣، ٢٦١، ٢٦٢، ٤٢٠، ٤٤٦، ٤٦١، ٥١٨، ٦٣٩، ٦٥٢، ٦٥٣

ردود على الّذين يقولون المعارف ضروريّة ٧٠، ٢٢٨

حوار حول الشفاعة ومن يشفع ٣٣ ـ ٣٤

ردّ على من يتوهّم أنّ قوله تعالى: ﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل﴾ يدلّ على فضل رجل واحد بعينه ١٣٥

دليل على أنّ فعل العالم أكثر ثواباً من فعل الجاهل ١٦٧

حوار حول جواز الكذب في الآخرة ١٧٠

حوار حول ﴿لأغلبنّ أنا ورسلي﴾ هل هو بالقهر أو بالحجّة ١٧٢

ردّ على من استدلّ بـ﴿فاعتبروا﴾ على صحّة القياس في الشرع ١٧٧

دليل على النبوّة من جهة علم الغيب الّذي لا يعلمه إلّا الله ١٨٧

دليل على أنّ الله لا يغفر لمن أبطن الكفر وأظهر الإيمان ٢٣١

دليل على أنّ القدرة قبل الفعل ٢٣٣

دليل على أنّ أميرالمؤمنين عليّ عليه السلام أفضل من جميع المؤمنين ٢٧٠

دليل على وجوب النظر في الدين ٢٩٢

حوار حول صحّة العين وعدمه	٣١٧
ردّ على الرمّاني في ردّه على القائلين باستحقاق الذمّ	٤٢٠
دليل على أنّ الكفّار مخاطبون بالعبادة	٤٢١
دليل على صحّة القياس العقلي	٤٤١
ردّ على من يرجع الضمير في «عبس» إلى النبيّ	٥١٥
دليل على صحّة قول أهل العدل في تفسير «الطبع» و«الإضلال»	٥٥٠
ردّ على الخوارج في قولهم: مرتكب الكبيرة كافر	٦٢٦
ردّ على من يجوّز الذنوب على الأنبياء	٦٣٤
دليل على بطلان القول بالإحباط	٦٥٩
دليل على بطلان الإلحاد	٦٧٩
حوار حول التكرير في سورة «الكافرون»	٦٩١
دليل على صدق النبيّ	٦٩٩ ـ ٧٠٠
دليل على فساد قول المجسّمة	٧٠٣